

الحمد لله

فتاوى الفرائد

المجلد الثاني

تأليف

الأستاذ المحقق الشيخ طهطاوي جوهري
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسامحة بجانته آمين

الجزء الأول

« تنبيه » ان شاء الله : بعد تمام طبع التفسير سنتبعه « بملحق »
لتفصيل ما أجل فيه من العلوم الكونية والأحكام الشرعية
واختلاف المذاهب فيها .
المؤلف

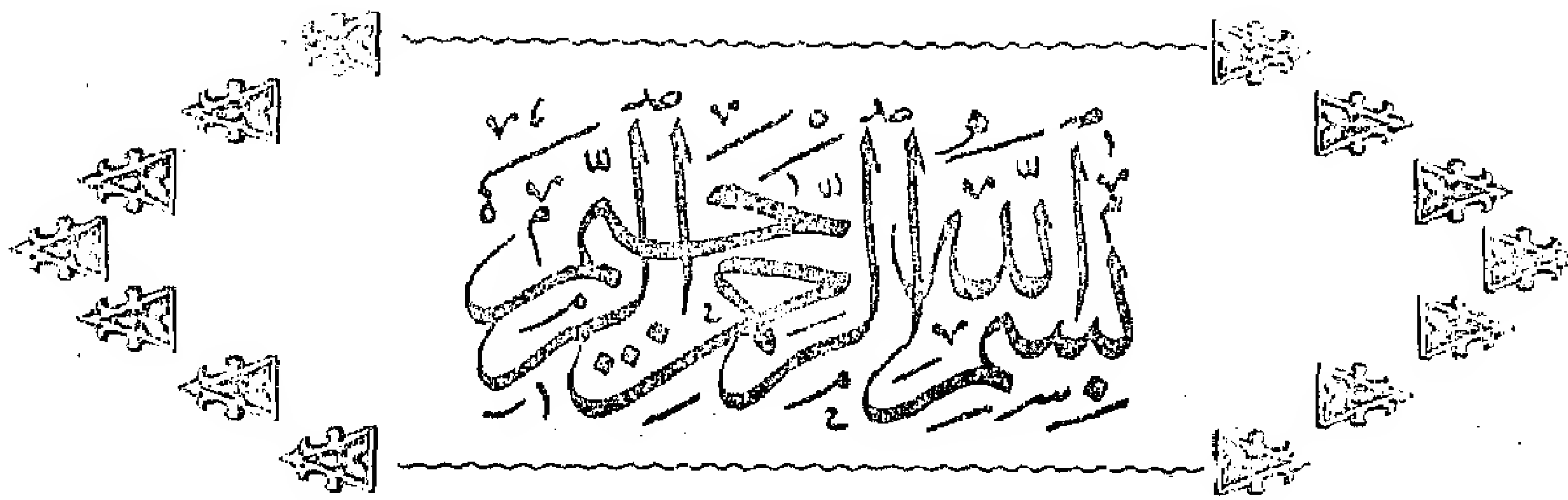
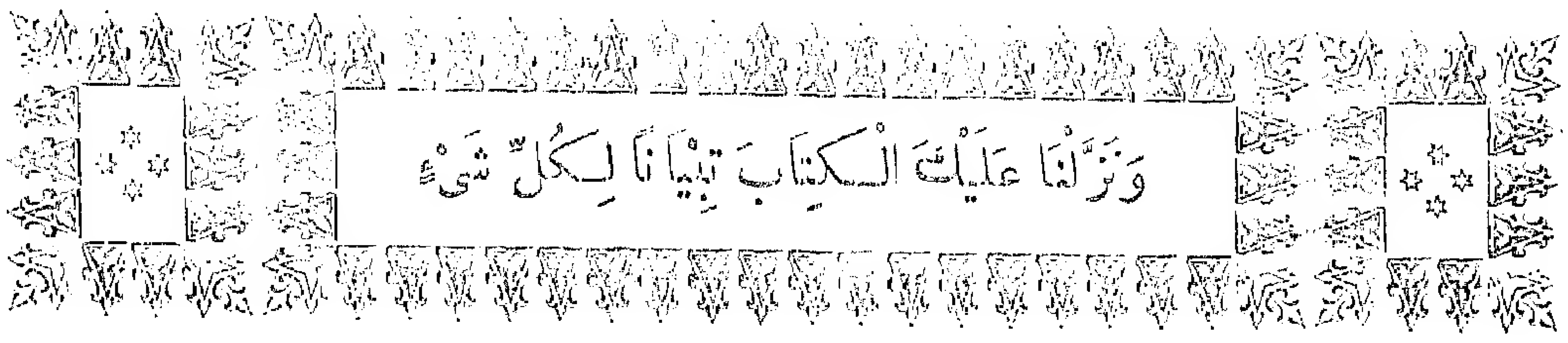
طبع بطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وبشرطه محمد امين عثمان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية - في شوال ١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١



الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

﴿أما بعد﴾ فإني خلقت مغرماً بالمجائب الكونية ، مهجبا بالبدايع الطبيعية ، مشوقاً إلى ما في السماء من جمال ، وما في الأرض من بهاء وكمال ، آيات بينات ، وغرائب باهرات ، شمس تدور ، وبدر يسير ، ونجم يضيء ، وسحاب يذهب ويحیی ، وبرق يأتلق ، وكهرباء تخترق ، وبعدن بهی ، ونبات سنی ، وطيير يطير ، ووحش يسير ، وأنعام تسرى ، وحيوان يجري ، ومرجان ودر ، وموج يمر ، وضياء في مخارق الأجواء ، وليل داج ، وسراج وهاج ، وكتاب من المجائب مسطور ، في لوح الطبيعة منشور ، وسقف مرفوع ، إن في ذلك ليهجة لذوى البصائر ، ونورا وتبصرة لصادقي السرائر .

ثم إنني لما تأملت الأمة الإسلامية ، وتعاليمها الدينية ، ألفيت أكثر العقلاء ، وبعض أجلة العلماء ، عن تلك المعاني معرضين ، وعن التفرج عليها ساهين لاهين ، فقليل منهم من فكر في خلق العوالم ، وما أودع فيها من الغرائب .

فأخذت أولف كتباً لذلك شتى ، كنظام العالم والأمم ، وجواهر العلوم ، والتاج المرصع ، وجمال العالم ، والنظام والاسلام ، ونهضة الأمة وحياتها ، وغير ذلك من الرسائل والكتب . ومزجت فيها الآيات القرآنية بالمجائب الكونية ، وجعلت آيات الوحي مطابقة لمجائب الصنع ، وحكم الخلق ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، وتقبلها أجلة العلماء قبولا حسنا ، وترجم منها الكثير الى اللغة الهندية المسماة بالأوردية ، والى لغة القازان بالبلاد الروسية ، والى لغة جاره في الأوقيانوسية ، ولكن كل ذلك لم يشف مني الغليل ، ولم يقم على غنائه من دليل ، فتوجهت إلى ذى العزة والجلال ، أن يوفقني أن أفسر القرآن ، وأجعل هذه العلوم في خلاله ، وأتفياً في بساين الوحي وظلاله ، ولكم طلبت منه جلّ جلاله بالدعوات في الخلاوات ، وابتهمت اليه وهو المجيب ، فاستجاب الدعاء .

وكان ابتداء التفسير : إذ كنت مدرّسا بمدرسة دار العلوم ، فكنت ألقى بعض آيات على طلبتها ، وبعضها كان يكتب في مجلة الملاحى العباسية ، وها أنا ذا اليوم أوالى التفسير مستعينا باللطيف الخبير ، مؤملا بما وقر في النفس ، أن يشرح الله به قلوبا ، ويهتدى به أئمة ، وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين ، فيفهموا العلوم الكونية ، وإني لعلى رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين ، وينسج على منوال هذا التفسير المسلمون ، وليقرآن في مشارق الأرض ومغاربها مقرونا بالقول ، وليولهنّ بالعجائب السماوية ، والبدايع الأرضية : الشبان الموحدون ، وليرفعنّ الله مدنيتهنّ الى العلا ، وليكوننّ هذا الكتاب داعيا حثيثا الى درس العوالم العالوية والسفلية ، وليتقوهنّ من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة ، في الزراعة ، والطب ، والمعادن والحساب ، والهندسة ، والفلك ، وغيرها من العلوم والصناعات ؟ كيف لا ، وفي القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية ، فأما علم النّقه فلا تزيد آياته الصريحة عن مائة وخمسين آية .

والقد وضعت في هذا التفسير ما يحتاجه المسلم : من الأحكام والأخلاق ، وعجائب الكون ، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق : مما يشوق المسلمين والمسلمات ، الى الوقوف على حقائق معاني الآيات البينات : في الحيوان والنبات والأرض والسموات ﴿ ولتعلننّ ﴾ أيها الفطن : أن هذا التفسير نفحة ربانية ، وإشارة قدسية ، وبشارة رمزية ، أمرت به بطريق الإلهام ، وأيقنت أن له شأننا سيعرفه الخلق ، وسيكون من أهم أسباب رقيّ المستضعفين في الأرض « ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » ، وهذا أوان أن أشرع في المقصود ، فأقول وبالله التوفيق .

سورة الفاتحة

وبيان آيات العلوم والأخلاق فيها

وهي مكية ، وآياتها سبع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ * آمِينَ

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأبى ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها ؟ قلت بلى يا رسول الله ، قال فاتحة الكتاب ، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » نزلت هذه السورة لتعليم العباد : كيف يتبركون باسم الله عز وجل في سائر أحوالهم ، وكيف يحمّدونه ويستعينون به ؟ فيبتدئ القارئ قائلا : أقرأ متبركا باسم الله الرحمن المنعم بجلال النعم : كالسموات والأرض والصيحة والعقل الرحيم المنعم بدقائقها ، كسواد العين ، وتلاصق شعرات أهدابها المانعات من دخول الغبار المؤذى لها ، مع أن النور ياهع من خلالها ، وينقل صور المرئيات الى حادقها

فشبكيتهما ، فالسمع ، فهذه اللسقة في الصنع والحكمة في الوضع التي أبحاث لضوء الشمس والكواكب مثلاً أن يابح ومنعت النصار أن يدخل يصبر عنها بافظ الرحيم تقيماً للنعمة ، وتكميلاً للهناء والعبادة .

ولما كان أكثر الناس لا يلاحظون عجائب الكائنات فيهم ، ولا يعرف نفسه إلا قليل منهم ، وهم أكبر الحكماء والأولياء ، وجب أن أبين في هذا المقام بعض رحمة الله عز وجل في العالم المشاهد : فمنها ما أشار إليه (العلامة الأستاذ ميلن ادوارد : أن حيواناً يسمى أكسيلاكوب) يعيش منفرداً في فصل الربيع ، ومتى باض مات حلاً ، فمن رحمة الله وجيل صنعه ، ورأفته بالخلق أن ألهم هذا الحيوان أن يبني بيتاً قبل أن يبيض على منوال ما كانت تفعله عاد من اتخاذ البيوت بالحفر ، ولكن هذا في خشب ، وأولئك في صخر ، فيعمد ذلك الحيوان إلى قطعة من الخشب ، فيحفر فيها حفرة مستطيلة ، ثم يجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ويحشو بها ذلك السرداب ، ثم يبيض على ذلك بيضة ، ثم يأتي بنشارة الخشب ويجعلها عجينة ، ويجعل منها سقفاً لذلك السرداب ، والحكمة في ذلك : أن هذه البيضة متى فقسست وخرجت السوداء كفاها ذلك الطعام سنة ، وهي المدة التي لا تستطيع تلك السوداء أن تحصل فيها قوتها ، ومتى أتم الحيوان ذلك صنع سرداباً آخر فوقه على هذا المنوال ، وهكذا يضع جملة أدوار ، فانظر كيف شملت الرحمة ما خلق وما لم يخلق ، فان ذلك الطعام المخزون في السرداب رحمة ألهمها ذلك الحيوان من الحشرات لولده الذي سيخلق .

(ومن هذه العجائب) ما شاهدته العلماء الباحثون في أمر النحل والنمل والعنكبوت (فأما النحل) فتعجب كيف جعل الرحمن الرحيم له سبلاً مدلاً ، فانه متى فتح زهرة أول النهار ليمتص رحيقها المختوم ويرجع به إلى الخلية فيضعه فيها ، يلهم أن لا يفتح زهرة في ذلك اليوم ، إلا ما كان من جنس تلك الزهرة لرحمة النحل ورحمة الناس ، أما رحمة النحل ، فانه لا يعوزه أن يحتال في فتح زهرات أخرى من نوع آخر ، فيطول عناؤه ، وأما رحمة الناس : فان ما يعلق برجلي النحلة من حبوب طلع الذكور من النبات ، اذا وصل إلى زهرة أثبت علق بها من ذلك الطلع بعضه ، فأتم ذلك النبات لحصول الالتصاق بهذه الرحمة العجيبة . (وأما النمل) فمن عجائب الرحمة الخاصة به : أن الله خلق له حشرة تسمى (افس) باللسان الافرنجى ، يحاربها النمل ويغلبها ، ومتى غلبها أخذ يستولدها ويربها ويسمىها في ورق الورد ، ومتى أكلت وشبعت أقبل النمل عليها وامتنص منها مادة حلوة . فكأنه بقر له يشرب لبنه .

(وأما العنكبوت) فانها ألهمت النسيج البديع بهندسة فاقت هندسة الانسان ، وعلم ذلك العلماء بقولهم : إن هندسته إلهية ، وهندسة الانسان بتعليم البشر ، فلذلك يغلط الانسان ، ولا يغلط العنكبوت في الهندسة . ولما كان بيت العنكبوت أضعف بيت ألهمها الله أن تبحث عن صمغ وغراء من أمانا كنها وأشجارها وتلطخ بها خيوطها التي نسجتها فتكسبها لزوجة ، فلذلك لا تمزقها الرياح اذا فاجأتها ، ولا الأعاصير اذا ساورتها ، واذا مر بها الذباب التقطته بمادتها اللزجة .

فانظر إلى آثار رحمة الله : كيف كانت المادة الصمغية صائنة بيت العنكبوت الضعيف من التمزيق اذا هبت الزعازع ، واحتاجت الأعاصير مع أنها قد تقتلع الأشجار وتخرّب المساكن ، ثم تكون شبكة صائدة وحيلة محتال ، هذه هي الرحمة والحكمة . (١)

وهكذا ألهم الله الأنبياء وأوحى اليهم أن يعاموا العباد كيف يتبركون باسم الله في أول أعمالهم ؟ كالقراءة والأكل ذا كرين ربهم ورحمته الواسعة التي عمت سائر العوالم ، فيمتلئ قلب العبد ايقاناً بالرحمة ، واستبشاراً بالنعمة ، وفرحاً برحمة الرحمن الرحيم .

(١) سترى عجائب وصوراً شتى في سورة النحل والنمل والعنكبوت

فإذا ابتداء القارئ بالتسمية ، وامتلأ قلبه بتلك الرحمة ، فلا جرم ينطلق لسانه بالحمد ، بعد أن أفهم قلبه بالاجلال ، فيقول : الحمد لله ، يقول القارئ ها أنا ذا عرفت رحمة الله سارية في سائر العوالم ، ولقد علمت أن كل من أنعم عليه بنعمة يشكر مسديها ، فالولد يشكر أبويه على التربية ، والضعيف الدليل يشكر القادر الشجاع الذي أنقذه من الذلة ، والمتعلم يشكر العالم الذي أسبغ عليه نعمة العلم .

إن الأمم كالأفراد ، فاننا نرى كل أمة تمجد وتمدح وتحمد رجالها الذين أفادوها ورقوا صناعتها وتجارتها وثروتها في التاريخ والمجامع ، وهكذا شجعانها الجحاجيح ، وأبطالها المقادير ، وكذا أنبيائها وحكامؤها الذين أضاءوها بنعمة العلم والدين .

فهذه نعم واصله من المحسنين والشجعان والعلماء الى الأمم فاستحقوا بذلك الشكر ، ولا جرم أن الشكر يكون بالقلب ثم الجوارح ، وأهمها اللسان ، فينطق بالحمد : وهو الثناء بالجميل لأجل النعمة الواصلة بالاختيار من المنعمين .

يجيش في نفس القارئ تلك الرحمت العامة ، فيشكر مسديها بقلبه وجوارحه ، وهي قسمان : رحمت واصله على أيدي الناس : كالوالدين والشجعان والعلماء والأنبياء والمحسنين ، ورحمة واصله من غيرهم ، كاشراق الشمس ، ونعمة السحاب ، وجريان الماء ، وعجائب النبات ، وجمال الطبيعة ، وبهاء النجوم ، وهذه النعم والرحمت بقسميها ، ليس لها مصدر إلا الله ، ولا جرم أن الحمد والثناء إنما يكون للأحسن الحقيقي ﴿ فالحمد إذن إنما يكون له سبحانه ﴾ فإذا مدحنا الوالدين ، وحمدنا الشجعان ، وشكرنا العلماء والأنبياء ، فالحمد والمدح والشكر لله لأنه مولى هذه الرحمة ، وإذا تمتعنا بنعمة السحاب ، والمطر ، وماء الأنهار ، ومعادن الجبال ، ونور الشمس ، فالحمد والشكر لمسديها : وهو الله ، فكأن القارئ يقول : ها أنا ذا عرفت أن الرحمة الواصلة للعباد مرجعها الله ، فليكن كل حمد صادر من الألسنة راجعاً لله عز وجل ، لأنه هو المختص بالرحمة التي كانت سبباً في الثناء .

نسخ العادات العربية الجاهلية

من مدح المحسنين والملوك ، واختصاص الحمد والعبادة بالله اطلاقاً للحرية والمساواة

اعلم أن العرب كان من عادتهم أن ينصتوا للشعراء ، ويسمعوا المدائح ، ويصفوا لمن هم في كل واد يهيمون الذين يقولون مالا يفعلون ، وما كان أكبر سلطان الشعر عليهم وما أقساه وأقواه وأملكه لقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ومشاعرهم ، ولقد كان الشاعر يقول البيت من الشعر مدحاً فيرفع القبيلة الوضيعة المنزلة ، ويشيد بذكرها ، ويقول بيتاً ذمّاً ، فيضع القبيلة الرفيعة ويميت ذكرها ، فن الأول ماقاله الشاعر في بني أنف الناقة ،

قَوْمُهُمُ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ * وَمَنْ يُسَوِّ بِأَنْفِ النَّاقَةِ الدُّنْيَا

ومن الثاني قول جرير :

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ * فَلَا كَبَابَ بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابًا

ولقد كان ذكر بني أنف الناقة مما يعير به ، فلما قيل هذا البيت رفعوا رؤوسهم وغفروا بقلوبهم وشرفوا بنسبهم ، وكان الرجل منهم إذا سئل يقول : أنا من بني أنف الناقة ويميل صوته عجباً وتبها وافتخاراً ، وكذلك بنو نمر كانوا قبل هذا البيت يتكبرون ويفخرون بنسبهم ، فلما أن شاع البيت طأطأوا رؤوسهم وغضوا من صوته ، وانخللوا أمام عدوهم ، وصغروا في المحافل ، ولقد كانت هذه حال العرب كما ترى في شعر حسان مدح

ملوك الفسائيين ، وزهير بن أبي ساهي ماح هرم بن سنان ، والنايفة الدياني ماح النعمان وغيرهم ، فترى
النايفة يقول في النعمان :

كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ * إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبٌ

ويقول أيضا

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً * تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ

ويقول أيضا

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ لِلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي * وَإِنْ خِلْتَ أَنَّ الْمُنْتَهَى عَنْكَ وَاسِعٌ

ويقول زهير في هرم

قَدْ جَعَلَ الْمُبْتَغُونَ الْخَيْرَ فِي هَرَمٍ * وَالسَّائِرُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طُرُقًا

وقال في قومه أيضا

عَلَى مُكْثَرِهِمْ رَزَقُ مَنْ يَغْتَرِبُهُمْ * وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذَلُ

وَهَلْ يُذْنِبُ الْخَطِيءُ إِلَّا وَشَيْجُهُ * وَهَلْ نَبَتَتْ إِلَّا بِمَغْرَسِهَا النَّخْلُ

يريد أن الفقراء منهم كرماء ، والأغنياء يعطون ما يسألون ، ثم يقول وهل الرماح الخطية التي تجلب
من الخط ، وهو صرفاً ببلاد البحرين كانت تردله الرماح تنبت إلا في شجرها ، وهل النخل ينبت إلا في منابته .
هذا قل من كثير ، ومثل من عادات العرب في الجاهلية ، فكانت الحماد من الشعراء تلقى إلى الملوك ،
وكانت أنظارهم قاصرة على رؤسائهم ، فلما جاء القرآن فاجأهم بقوله : لاتحمدوا الملوك والمحسنين ولكن
اجدوا الله ، كما قال الأعشى في قصيدته :

وَصَلِّ عَلَى حِينَ الْعَشِيَّاتِ وَأَضْحَى * وَلَا تَحْمَدِ الْمُثْرِينَ وَاللَّهَ فَاتَّحَدَا

أمر العرب أن يولوا وجوههم قبل الله وأن يصدوا عن المدائح الملكية ولذوى الشرف إطلاقاً انفسهم
من الأسر ، واعتقوهم من الغفلة ، وتعويدها لهم على الحرية العقلية ، وأن ينسوا الاحسان القليل الصادر من
المخلوق الضعيف ، وأن يطلبوا الخير والمعروف عند الله الذي هو المربي لجميع العالمين من الملوك والمثريين وغيرهم
فاذا فعلوا ذلك أصبحوا سادة العالم ، لأنهم بنظرهم في العوالم ، وبحسبهم في نظامها وعجائبها ، وما أودع فيها من حكمة
وغنى وشرف ، ينالون الخير من المربي العظيم والخالق الحكيم بجدهم واجتهادهم ، لا بالاستجداء من الملوك
ولا بالتوسل للمحسنين ، ولقد حقق الله بعض ما ذكرناه ألا ترى أنهم فتحوا الأمم شرقاً وغرباً باتحادهم ونالوا من
الخيرات فوق ما يبتغون ، وفي هذه السورة أمر الله المسلمين أن يخصوا الله بالحمد والعبادة كما جاء في سورة
البقرة إذ أمرهم أن يذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً إذا قضوا مناسكهم : إذ قال « فإذا قضيتُم
مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً » فرجع الأمر إلى توجيه العبادة والحمد والذكر لله
وتحريم عبادة المخالف والخضوع فتتوفر لهم على الأعمال العظيمة : ألا ترى ما قاله النعمان بن مقرن إلى يزيد جرد
ملك الفرس أيام حرب القادسية في زمن عمر رضى الله عنه (ان نبينا صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نبتدىء
بمن يلينا من الأمم فنندعوهم إلى الانصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله
فان أبيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر منه الجزية فان أبيتم فالمناجزة الخ)

وتأمل قول زهرة لرستم قائد جيش الفرس إذذاك (انا لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة) فقال له رستم : ما دين الاسلام ؟ (قال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) قال وأى شيء أيضا ؟ قال (إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم) قال ما أحسن هذا ، ثم دعا رستم قومه فأنفوا من ذلك ، ثم طلبوا من سعد بن أبي وقاص رجلا آخر يكلمهم ، فأرسل ربي ابن عامر ، فلما وصل إلى رستم داس بفرسه على المنارق والبسط والزينة والحريز ، وامتنع أن ينزع سلاحه ، وأخذ يمزق الوسائد والبسط ، ثم ركز رمحه على البسط ، ومما قاله (قد بعثنا الله لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام الخ) فأعجب بكلامه رستم وخلا بقومه . وقال لهم هل رأيتم كلاما أعزّ وأوضح من هذا ؟ فقالوا معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكتاب . ثم أرسل لهم المغيرة بن شعبه ، فجلس مع رستم على سريره ، فأزلوه ، فقال (ما أرى قوما أسفه أحلاما منكم انا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضا ، وإنى رأيت أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم) اهـ

ألمست ترى أن هذه المحاورات والخطب تتقارب مع ما ذكرناه في فاتحة الكتاب ، وأن العبادة والحمد مختصان بالله عز وجل ، وأنه هو الذي يطلب منه الاعانة والهداية إلى الصراط السوي ، أولاترى أن الاسلام كان له في الصدر الأول معنى غير الذي يفهم المسلمون الآن ، وأن الأمة الاسلامية اليوم غير أولئك الذين كانوا في القرون الأولى ، والاف كيف نسمع منهم العدل والمساواة ، وأن لا يستعبد بعضهم بعضا ، وأنهم خلفاء الله في أرضه ليعطوا عباده الحرية : فالاسلام إذ ذاك مبنى على الفهم والعلم والعقل ، فأما الآن فانه مجرد ظواهر وأعمال لا تصل إلى أعماق القلوب ، فلذلك انحطت الأمة الاسلامية اليوم ، وقد آن أن ترجع الى عزها القديم ومجدها العظيم .

الشرعية الاسلامية والنظر في الآفاق وفي الأنفس

قد تبين لك مما ذكرناه أن الحمد والعبادة مختصان بالله ، والقرآن طافح بهذه المعاني ، وقد ظهرت آثاره في أقوال السلف الصالح كما رأيت : وهكذا كانت أفعالهم وبالشرعية من الحدود والأحكام والبيع والقرض والميراث وأحكام القضاء (التي تقوم مقام الجنايات والجناح والمخالفات بل هي أفضل منها) في كتب الفقه ، حكموا الأمم وعدلوا ، فلكوا أشرفا وغر با هذا كله بالشرعية ، وهي الأحكام الشرعية المعروفة التي تدرس في بلاد الاسلام وآياتها محدودات ، فأما آيات العلوم الكونية ، فانها تبلغ نحو ٧٥٠ آية كلها في عجائب هذا الكون ومنافعه وغرائبه ، والذي أراه أن المسلمين في مستقبل الزمان سيقروهون هذه الآيات ويعرفون هذه العجائب ، وكما أن الذين قبلنا درسوا الشريعة وأحكموها وحكموا الأمم بها ، ثم دالت دولتهم ، فهكذا سيكون في هذه الأمة من يرون الكون خلق الله وآياته وعجائبه وحكمه ، وقد ذكرها الله في كتابه أكثر مما ذكر من الأحكام الشرعية ، والعناية الالهية توجهت إليها أكثر من توجهها إلى أحكام الفقه ، فيدرسون علوم الهيئة ، والفلك ، والحساب ، والهندسة ، وعلم المعدن ، والنبات ، والحيوان ، وسائر علوم هذه الدنيا ، ويرون أن ذلك من الدين ، فيكون علم الدين على قسمين حينئذ : العلم الأول علم الآفاق والأنفس : أي معرفة العوالم العلوية والسفلية المشروحة في هذا التفسير ، وعلم النفس : والعلم الثاني علم الشريعة فنرى العالم الديني شارحا للنبات ، والحيوان والآخري مدير المعمل الكيميائي ، وهذا من قوله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ومن قوله هنا (الحمد لله رب العالمين) والعالم علوي وسفلي ، والله ربهما والمساءون خلفاؤه في الأرض بالقضاء والعدل بين الناس ، وبالباحث ومعرفة العوالم ، فكما برع آبائنا في القضاء ، والحكم بين الناس فلنقم نحن

بذلك وندرس علوم العوالم كلها باعتبار أن ديننا يأمرنا به ، والا فلا فرق بين « قل أنظروا ماذا في السموات والأرض » وبين قوله « فاستقم كما أمرت » كلاهما أمر ، والأمر للوجوب فإذا نحن قرأنا الأحكام الشرعية وقضينا بها فلنقرأ المجائب الكونية ، ولنعمل بها فنرقى الزراعة والصناعة والتجارة .

واني أدعو جميع أئمة الاسلام في مشارق الأرض ومغاربها أن يمتحنوا النظر فيما أقول ، والا فكيف يقول الله تعالى « ليظهره على الدين كله » وكيف يظهر على الأديان إلا بهذه المزية ، وهي أن الديانات لا تعرض لعلوم الكائنات ، والاسلام يدعو إليها ويأمر بها ، وهذه خاصة به لا يشاركه فيها دين من الأديان . ليعلم كل عالم أوملك أئمة جميع العلوم باعتبار أنها من الاسلام كما سيظهر ان شاء الله في هذا التفسير ، فإذا أبى المسلمون ماذا كرهناه فاني أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، وقد بدت بوادرها من الطيارات النازقات على القرى ، والشيخوخ ، والصبيان ، فن تكاسل من المسلمين عن هذه العلوم فلا يلبثون إلا نفسه « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له « ألا وان أرباب المذاهب من شيعة وسنية ، ومالكية ، وحنابلة ، وحنفية ، وشافعية ، وزيدية ، كان اختلافهم في مسائل من الشريعة المطهرة ، فإذا قرءوا علوم الآفاق التي أرشد إليها القرآن لم يكن بينهم اختلاف فيها ، لأنها مكشوفة ظاهرة ، والله هو الذي منحهم إياها ، فليقرأ المسلمون في الشرق والغرب جميع العلوم التي برع فيها الافرنج ، وهي علوم الأنفس والآفاق واذ ذاك يرون أن الخلاف بينهم في الشريعة يسير جدا بالنسبة لما اتفقوا فيه .

إلى هذا أدعو جميع المسلمين ، والله يهدي إلى سواء الصراط ، ان علماءنا السابقين شرحوا هذا في كتبهم ودونوه في دفاترهم ، ولكن المسلمين كانوا في غفلة ساهين ، ليقف العالم بين الناس شارحا لهم جمال الزهر ، وبهجة القمر ، وبدائع النبات ، وغرائب الطب ، والمعادن ليفهم غيره ، وليكثر من هذا : أولا يرى علماء الاسلام من سنيين ، وشيعيين ، وزيديين وغيرهم ، أن علوم الخلق من العوالم العلوية والسفلية غذاء ، وأن علوم الشريعة ، وهي الأحكام الفقهية التي صرفوا فيها أعمارهم دواء ، وكيف يعيش الانسان الا بالغذاء ؟ وهو إذا تعاطى الدواء وحده هلك ، بل الغذاء هو الدائم الطلب ، أما الدواء فانما يكون عند انحراف الصحة .

فيأيتها المسلمون : اطلبوا علوم الغذاء وعلوم الدواء : أي العلوم الكونية ، والعلوم الشرعية ، وجميعها يطلبها القرآن ، وقد اعتنى بعلوم الغذاء أشد من عنايته بالدواء فإلى أراكم عما قدمه الله معرضين ، وعلى ما أخره الله عاكفين ؟ قدّم تربيته للعالمين ورجته للخلائق على العبادة وهداية الصراط المستقيم ، كأنه يشوقكم إلى دراسة رجائه ، ويأمركم بمعرفة كلماته الكونية ، وآياته الرجائية ، وعجائبه الحكمية ، وبدائعه الفطرية ، وما ذرأ من البهجات ، وما زوّق من المصنوعات ، ولقد ساء في والله ما أرى من إعراض بعض العلماء بالدين عن عجائب الخلق ، ولقد كنت أود أن أرى أولئك الذين نزحوا إلى أوروبا بعلم الطبيعة مغرمين ، ولعجائب الخليفة مسارعين ، ولكني رأيته منصرفين ، إلى الوظائف الوقتية ، والأعمال الادارية ، وما رأيت أحدا منهم بالعلوم الكونية مغرما ، فتشابه في بلادنا العلماء الدينيون ، والشبان الذين هم للكون دارسون ، فالأولون على أحكام الفقه مقتصرون ، وهؤلاء بالوظائف قانعون « كلّ حزب بما لديهم فرحون » إلا قليلا من الفريقين نالوا حظا عظيما « وقليل ما هم . وقليل من عبادي الشكور » .

فإذا تأمل المسلمون ماذا كرهناه كان حدهم حقيقيا اذا عملوا بمقتضاه ، ولما كان كلّ جد لا بد له من سبب يستوجه ، وقد ذكرنا السبب اجاليا ، وهو الرحمة ، وكان الاجمال لا يغني عن التفصيل ذكر الله أهم النعم ، وهي أنه مربّي العالمين ، فقال (ربّ العالمين) أي مربّي العوالم كلها ومربيها من حال النقص الى حال الكمال وغايات التمام ، فهو الذي يتعهد النبات بالتغذية ، والانماء ، وهكذا الحيوان والانسان ، وكذا العوالم

العلوية ، وهذه هي التربية التي كان مبدؤها الرحمة ، ولأ ذكرن لك مسائل من التربية .
المسألة الأولى : الذرة

ان المسلمين في أنحاء المعمورة يأكلون الذرة ويشاهدون مزارعها ، وأكثرهم يجهلون مادبر الله عز وجل فيها ، وكيف ربي الحبة الواحدة في (المطر) وهو المسمى (الكوز) عند العامة في بلادنا المصرية ، وهو جمع الحب الذي يتكوّن حوله سطورا منظمة ، لو يعلم المسلمون كيفية تربية الله للحبة الواحدة لعجبوا من صنع ربهم ، وفهموا كيف يربي العوالم كلها ، ان لكلّ عود من أعواد الذرة ذكورا في أعلاه وإناثا في وسطه ، أما الذكور ، فهو ما يسميه العامة (الكذاب) وهو أغصان بيضاء فيها طلع مخفي عن الناس ذلك الطلع ينزل على ذلك (المطر) الذي هو جمع الحب ، وله خيوط طويلة حريرية حر أو بيض تلك الخيوط الدقيقة مثقوبة من أوسطها ثقبا ، لا يشعر به الناس فينزل الطلع من أعلى العود الى تلك الخيوط التي يسميها العامة في مصر (شرابه) فيدخل ذلك الطلع في التجويف الذي في تلك الخيوط ، ويسرى حتى يصل إلى محل الأثى في (المطر) أي محل الحب فتأقح تلك الأثى فتخرج حبة واحدة بذلك التدبير ، فانظر وتعجب كم في ذلك المطر من حبة ، وكيف كان لكلّ حبة رحم مخصوص ولقح ينزل على ذلك الخيط حتى يصل في التجويف إلى الأم فتحمل تلك الحبة ، ولقد ذكرت هذا في كتابي (جواهر العاوم) وأوضحته أيعا إيضاح .

المسألة الثانية : حبة القمح

لقد توجهت إلى مدرسة الزراعة المصرية بالجيزة ، فأروني حبة القمح مكبرة مجسمة بشكل الكفرى : أي الغلاف الذي في جوفه طلع ذكور النخل ، فأريت أن لكل حبة من حبات السنبلة ثلاثة أغشية ملتفة حولها ، وفي أعلى تلك الأغشية (السن) جمع سفاة ، كأنها أسنة تحمل أكياسا مملوءة طلعا كطلع النخل ، أو كطلع الذرة المتقدم ، وهذه الأكياس المحمولة على تلك الأسنة تنزل ذلك الطلع على محل الأثى ، وهي موضع تلك الحبة من السنبلة ، وحتى وقع طلع الذكور عليها حلت بتلك الحبة .
ألا فليعجب المسلمون من تربية الله مربى العالمين ، وكيف كانت عنايته تامة بالحبة الواحدة من الذرة ومن القمح ، وكيف جعل لها أثى وذكر وألف بينهما ، وجعل الحبة نتيجة لذلك الحكمة ، وكيف يقرأ المسلمون في صلواتهم كلّ آن إن الله مربى العالمين ، وأكثرهم يجهلون تربيته ، انى لأعجب غاية العجب من أمة يكون مبنى عبادتها ودينها على معرفة حكمة الله وتربيته ، ثم يحجى الفرنجة فيسبقونهم بتلك المعارف الشريفة العالية .

يا أمة الاسلام كيف نقرأ في صلاتنا إن الله رب العالمين ، ونحن نجهل تلك التربية في صغيرات الأمور وكبيراتها ، واذا كانت عناية الله قد بهرت وظهرت في حبة ذرة وحبة قمح ، فكم من حبات فيهما يزدردا الانسان ، وهو أشبه بالبهائم ألا لافرق بين الانسان والحيوان إلا بهذه العاوم ، لو كان المدار على الخبز ، والماء والملابس ، والزينة ، لقال لنا الله الحمد لله الذي أروانا ، أو الذي أشبعنا ، أو الذي ألبسنا ، أو الذي جاء لنا بولد ، أو بمال ، بل قال لنا الذي شمل العالم بالتربية ، فكأنه يراد منا أن نكون مفكرين علماء ، لأن نأكل كلّا تأكل الأنعام ، ونموت كما يموت الدود ، ولو كان المراد أن نعرف الله بأنه مشيب ومعاقب على الحسنات والسيئات فقط ، لقال لنا الحمد لله ربّ الحسنات والسيئات : إن الله واسع الرحمة عظيم الهبة ، واسع العطايا فاقنصار الوعاظ على ذكر الثواب والعقاب قصور معيب : اللهم إني أفرغت جهدي في إيقاظ الأمة وأدّيت ماعلي وإني أسألك أن تعينني على اتمام هذا التفسير إنك أنت السميع المجيب .

المسألة الثالثة : تربية التمرة في النخلة

ذلك أن النخلة تجذب مرقّ وراق من خلاصة العناصر الأرضية لتغذى بها أجزاؤها فيرتفع ذلك الغذاء فيغذى جذع النخلة بما غاظ منه ، وأما خلاصته فتذهب صاعدة الى الجريد فيغذى بها ، ويبقى ما هو أطف من تلك الخلاصة فيرتفع إلى القنوان فيغذى القنوّ بذلك الطائف ، ثم مرق وراق من ذلك يرتفع الى شماريح التمر فتغذى به وترتفع الخلاصة الى التمرة فتقابلها في أولها تلك التي على فيها المسماة بالقمع ، وذلك القمع مصفاة تصفى الغذاء وتأخذ أطفه وتوصله الى جرم التمرة ، وهذه الخلاصة المصفاة يؤخذ ما غاظ منها ، فيصير نواة ، وما لطف يكون جرم التمرة الخلو اللذيذ ، ثم جعل هناك منسوج حريري رقيق صفيق فوق النواة فاصلا بينها وبين المادة الحلوّة لئلا تصل المرارة من النواة إلى ما فوقها فتذهب بالحلوّة ، وجعل في شق النواة ذلك القليل الطويل ووظيفته إيصال الغذاء إلى سائر أجزاء التمرة .

فتأمل كيف صفى الغذاء سبع مرات حتى وصل الى ما يأكله الانسان من التمر والرطب والبسر فتصفية الجذور في الأرض من خلاصة العناصر ، ثم جذع النخلة ، ثم الجريد ، ثم القنوّ ، ثم الشماريح ، فالمصفاة ، فالنواة ، فتعجب من تربية الله للتمر والرطوبة ، وكيف راعاها حق رعايتها حتى صارت الى ما هي عليه الآن من اللذة والمنفعة .

المسألة الرابعة : تربية الله للؤلؤ في البحر ، ويسمى الدرّ والجمان

وهو حيوان يعوم على وجه الماء ، ثم يهبط في الأعماق ، وهو داخل صدف من المواد السكسية وقاية له من الأخطار والدر يتكوّن في لحمه . ومن عجيب صنع الله عز وجلّ أن يجعل هذا الحيوان مخالفا لما نعرفه من سائر الحيوانات : ان الحيوان يشم بأنف ويأكل ويشرب بفم ، ويتنفس بهما ، ويمنع المضار عنه بيديه وقرونيه وقواه وحصونه وجيوشه . أما حيوان اللؤلؤ ، فإن له شبكة دقيقة كشبكة الصياد متدخلة عجيبه النسيج تكون مصفاة له ، فيدخل الى جوفه الماء والهواء ومواد الغذاء ، ويمنع الرمال وغيرها من المضار من الدخول في جوفه ، وتحت تلك الشبكات أفواه لسكل فم أربع شناه تقبل الملائم من تلك المواد وتدفع غيره ، واللؤلؤ ينشأ من تجمع رمل أو حيوانات ضارة تدخل قسرا الصدفة ، فيفرز حيوانها مادة لزجة يغطيها بها ، ثم تجمد وتتحجر ، ومن اللؤلؤ ما هو أصغر من العدسة ، ومنه ما هو أكبر من بيضة الحمام ، وينبت في خليج فارس وخليج المكسيك وجزيرة سيلان ، فتعجب من تربية الله لحبة النرة وحبة القمح والتمر والدرّة في البحر التي تتحلّى بها الحسان وتيجان الملوك ، ألا وان حليتها في صدور الحسكاء ، وعلم ترتيبها في أئدة العلماء أبقى أثرا وأشرف ذكرا وأرفع مقاما ،

المسألة الخامسة : تربية الجنين في بطن أمّه

ان للأجنة علما خاصا يدرس في مدارس العالم الراقى ، وهي من التربية الالهية الداخلة في قوله (رب العالمين) ان الحيوان المنوى الجارى من الحيوانات التي تعدّ بالآلاف ومئات الآلاف في الماء المهيّن يسارع في مجراه عند مصبه حتى يلاقى حيوانا من التي سارعت جارية من ماء الأنث فيلتقيان ويكوّنان خلية واحدة ، ثم تكبر بالانقسام ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ ١٢٨ وهكذا بطريق المتوالية الهندسية المحتوية على بيوت الشطرنج ذات الأسرار العجيبة في علم الارتعاطيق ، وهكذا التكاثر المنتظم السريع بهذه المتوالية يستمر الى تسعة أشهر . ومن عجب أن هذا الانقسام العددي في الخلايا يتبعه نظام مدهش في الأعضاء والشرابين والأوردة والعروق والرباطات واللحم والشحم والظفر والشعر والخواص المدهشة الدقيقة الصنع ، عجب وأى عجب . انقسام الخلية (المكوّنة من الحيوان المذكور ومن الحيوان المؤنث) الى المضاعفات بنظام تام آلاف

مؤلفة يتبعه نظام في الأعضاء ، فكان ظفر وحنج وماء زجاجي في العين : ان في ذلك للحجبا عجبا ونظاما غريبا ،
حرام على المسلمين أن يجهاوا تربية الله للأجنة في بطون أمهاتها ،

حكاية

حكى في أيامنا هذه أن رجلا أمريكيا أراد أن يستخرج النراخ من بيض الدجاج بدون واسطة الدجاجات
وحضنها للبيض ، فخطر له أن يجعل البيض في حرارة تضارع الحرارة التي ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة
له ، فلما جمع البيض وابتدأ العمل قال له فلاح : يا أيها السيد لابد لك أن تقلب البيض كل أربع وعشرين
ساعة مرة لأني رأيت الدجاجة تقلبه هكذا ، فسخر منه ذلك العالم ، وقال له : أيها الفلاح ان الدجاجة تقلب
البيض لتعطي الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذي حرمته : أما نحن فحرارتنا محيطة بالبيض من جميع جهاته
فأني يستوى عملنا وعمل الدجاجة ؟ ثم استمر في عمله ، فلما جاء دور الفقس لم تفقس بيضة واحدة ولم ينل
منها فرخا ، فقال لابد أن أفعل في المرة الثانية ما أشار به الفلاح ، ثم صار يقلبه كما لقنه الفلاح ففقس جميع
البيض وخرجت منه أفراخ كثيرة ، فطار الخبر في أنحاء المعمورة وطلب من العلماء تفسير هذه الحادثة ، وآخر
مارأوه أن قالوا : ان الفرخ حينما يخلق في البيض إذا بقي بدون تحريك انحدرت المواد إلى الجهة السفلى من
جسمه فتتمزق أوعيته ، فإذا بقيت رأسه لم تحرك مثلا تمزقت من الأسفل لكثرة المواد في الجهة السفلية ، وهكذا
بقية الأعضاء ، فهذه وأمثالها مما لا يتناهى يدانا على أننا في حومة الجهالة في وسط بحر لجي من الحكمة
لا يعرف قراره ولا يدري منتهاه .

المسئلة السادسة : تربية الولد باللبن

خلق الله اللبن في الثدي قبل أن يولد الطفل ، وكلما كبر الجنين ازداد اللبن في الثدي حتى إذا ما تم حمله
وكانت الولادة در له لبن مناسب لسنه ، فكلما كبر سنا اقترب اللبن من طبعه وتناسب مع قوته ، حتى ان
علماء الطب حرموا أن يرضع حديث الولادة من امرأة قديمة العهد بها ، لأن الطفل لا يتحمل لبنها ، وقالوا
أيضا الأولى بكل طفل أمه في الرضاعة ، فان لبنها أنسب له ، وذلك من التربية التي تضمنها لفظ : الحمد لله
رب العالمين « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ومن عجب أن المجوز والصغيرة جدا لا تشتهيان
ولا يقترب منهما الرجال لحكمة الله عز وجل ، لأنهما لا قبل لهما باللح ولا الولادة ولا الارضاع ، فهذه
الحكمة ناطقة بلسان فصيح قائلة : ما جعل الذكر والأنثى في الانسان والحيوان الا للاتجاج ، فأما الشهوات
والمذات فإما هي مقدمات وممهديات للنسل .

المسئلة السابعة : التربية الطبية

ولندكر منها قليلا فنقول : قال الأطباء مراعاة الصحة أفضل من استعمال الدواء يعني أنك اذا حافظت
على جسمك وراعت صحتك ونظمت أغذيتك لم تحتج الى الدواء . وقالوا : ان جميع الاستفراغات والمسهلات للبدن
مثل الصابون للشوب اذا أكثر استعماله أبلاه سريعا وأكثر المسهلات سمية قاتلة اذا لم يعرف القدر المستعمل
منها ، وربما يحرك المسهل أخطا رديئة كامنة في الجوف فيشور منها علل عظيمة وداء لدواء له ، فترك المسهل
والاستفراغات جميعا أولى وأوفر ما وجد الانسان سبيلا الى السلامة الا عند الضرورة الملاجئة ، فيستعمل منها
القدر اليسير الأسلم . وقال الأطباء متى أمكنك أن تعالج المريض بالغذاء فلا تعطه شيئا من الأدوية ، ومتى
قدرت أن تعالجه بدواء خفيف مفرد فلا تعالجه بدواء مركب ولا قوي ولا تستعمل الأدوية الغريبة المجهولة
ما أمكنك الا أن يصح لك منها شيء بالتجربة ، واذامالت شهوة المريض الى غذاء لا يوافقها فأعطه منه اليسير .

هذا ما أردت ذكره من تربية الله للناس بعلم الطب الذي لم تراع أصوله في بلاد الاسلام ، والعالم كله لا يزال فيه طفلا لا يدري ما منتهاه .

المسألة الثامنة : التربية في المدارس والتعليم

ان علم التربية في المدارس يدرس للدرسين ، ولأذكرن لك منه مسألة واحدة ، لأنها من تربية الله للعالمين . اعلم أن الله تعالى خلق المخ وجعله مركز الفكر والخيال والتذكر والحس المشترك والحافظة ومادته سمراء من خارجها بيضاء من داخلها ، وقد ربي الله مخ الناس فجعل أذنهم يبلغ مخه نحو ست عشرة أوقية ، وأعلاهم وهم النابغون يبلغ المخ فيهم أربعاً وستين أوقية ، وقد تبين لك فيما تقدم أن أجسامنا مركبة من خلايا كثيرة تتكاثر بالانقسام ، والمخ منها مركب من آلاف الآلاف من الخلايا الدقيقة ، وهذه الخلايا أشكالها صغيرة مستديرة حولها تتوأت صفيرات . فمن عجائب صنع الله عز وجل أن جعل هذه الخلايا لوحاً محفوظاً في الدماغ لما يرد على النفس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس . فهناك خلايا مختصة بقبول المحسوسات . فمنها ماهو للسمع ، ومنها ماهو للبصر ، ومنها ماهو للشم وهكذا ، ومنها ماهو للتفكير والتعقل ، ومنها ماهو للتذكير ، ومنها ماهو للقوة الناطقة ، ومنها ماهو للقوة الكتابية والصانعة في اليد ، فإذا اختل منها بعض الخلايا تعطلت القوة الكامنة فيها ، ولا ينفع فيها التعليم أبته ، فلو أن الخلايا المعدة لعلم الأعداد فقدت ، فانه لا يمكنه أن يتعاه . فكأنما هذه الخلايا المختلفة المتباينة رياض وغياض يخرج فيها مختلف الزرع والشجر والفاكهة والأب ، ولكل منطقة من مناطق الأرض مزارع خاصة بها كالقطن والنخل : فهكذا هنا في خلايا المخ . ونتيجة هذه المعرفة في التعليم أن المعلم إذا ألقى الدرس على التلميذ فنظره ببصره مكتوباً بخط جميل وسمع نطق المعلم ونطق به هو وكتبه بخط جميل فهناك تكون آثار أربعة : آثار البصر ، وآثار السمع ، وآثار النطق ، وآثار الكتابة كل ذلك في المخ ، وهناك تتكيف الخلايا المختصة بها ويحصل بينها علاقات فتمتد خلايا النطق بخيوط رقيقة الى خلايا السمع ، وخلايا البصر ، وخلايا الكتابة : فتتعاون وتحفظ الكلمة في ذهن التلميذ ويصير الدرس مفهوماً جذاً ، وان قصر في بعض هذه كأن قبح خط الكاتب أو لم يصغ التلميذ أو لم يكتب بيده كان الأثر في العقل ضعيفاً والحفظ ضائعاً .

وهذه الخلايا المتصلة المتعاونة محال لما يسمى (الحس المشترك) الذي يجمع مائتي به الحواس ثم تأخذه القوة التخيلية فتحلل فيه وتركب ، ثم القوة المفكرة فستنتج ، ثم القوة الحافظة فتحفظه وهكذا ، فهذه المسألة من علم (البيداغوجيا) وهو فن يعرف به كيفية تربية الناشئين على أكمل وجه ، وهو يستمد من علم التشريح وعلم النفس كما رأيت ، وهذه التربية داخلية في قوله تعالى (رب العالمين)

المسألة التاسعة : تربية الله للعقول الكبيرة بعلم المنطق لادراك العلوم العالية

فنقول : اعلم أن كل حاسة من الحواس الخمس لا يمكنها أن تحكم بما ارتسم فيها ولكن الذي يحكم هو العقل : مثلاً إذا رأى الانسان سراباً وسط النهار فليست الباصرة مخطئة في رؤيته وإنما المخطيء الفكر في استنتاجه : إذ ظنه ماء وإنما سبيل المفكرة أن تتربص وتنظر حكم القوة اللامسة والقوة الدائقة فإذا لمسه باليد وذاقه باللسان فعرفه ماء ، فهذا إذا نظر الانسان بقوة الباصرة تفاحة مصنوعة من كافور مصبوغة كالون التفاح فورد خبرها الى التخيلة فالمفكرة فليس للمفكرة أن تحكم أن طعمها ورائحتهما وملمسها مثل التفاحة فلا بد لها أن تستخبر قوة الدائقة والشامة واللامسة ، وحينئذ يمكن الحكم عليها بالإثبات أو النفي . هذه من تربية الله للعالمين العقلاء : فإذا سقط الفراش في النار ومات فالعيب على ضعف قوته المفكرة الضئيلة لأنها حكمت على ضوء النار أنه كضوء الشمس وقنعت بالقوة الباصرة ، وهنا كان يجب أن يحكم القوة اللامسة

ليعرف الحارّ من البارد : وهكذا ترى سائر البشر يذهبون في الدنيا والدين ضحية جملتهم وحكمتهم بأحكام مقدّماتها ناقصة ، وهذا من قوله تعالى : رب العالمين .

الحمد يكون على مقدار علم الحامد

ألا وإن الحامد كلما كان أعرف، بصفات المحمود كان أصدق حمداً ، وكلما كان قليل العلم بها كان أقرب الى الكذب في حده ، ولذلك نجد الناس اذا أرادوا تأبين ميت أو تكريم حيّ جمعوا من الكتب ما كان له من محمّدة ، واذا أرادوا ذمّا نقبوا عن الأعمال السيئة فوكذا هنا ، لن يعرف المسلمون محامد الله حتى يقرءوا بنظام الطبيعة لأنها أفعاله وآثاره وعجائب صنعته ، وهي كتاب التاريخ الذي حفظ في سجل الدهر ، فاذا أراد المسلمون أن يحمّدوا الله حق حده فليقرءوا عقلاؤهم نظام الطبيعة وليعقلوها وليفهموا دقائق النكوتين فلا يتركون علما الا درسوه ، ولا فئا الاعرفوه ، وحينئذ يحمّدون الله حق حده كما تحمّد الأمم رجالها وتمدح شجعانها بذكر ما ثرهم التي انتفعوا بها : فاذا قلوا : الحمد لله كان ذلك على الحقيقة والواقع لا بمجرد اللفظ ، ولعلك تقول ها أناذا قد عرفت أنه لا بد من معرفة نعم الله حتى أكون حامدا له حق حده بحسب طاقتي البشرية ، فما مجامع تلك النعم ؟ أقول : كل العلوم مجامع الحمد وسأفصلها لك في التفسير ، بل كل ما أشار له القرآن هو ما ثر تربية العالمين التي تستوجب الحمد ، ولأذكرن لك مجملها فأقول :

معنى العالمين

اعلم أن العالمين جمع عالم وهو ماسوى الله تعالى ، والعالم قسمان : عالم علوى وعالم سفلى ، والعلوى هو الكواكب والشمس والقمر والسيارات وأقمارها ، ولا يتسنى لك معرفتها الا بضرب مثل : تصوّر امرأة جيلة الصورة طويلة القامة كثيرة الحلى والحلل مشرقة الوجه ، وهذه المرأة قد ولدت عشر فتيات وهن أقلّ منها قامة وحليا وحللا واشراق وجه ، وقد أحطن بها كاهلة بالقمر وأخذن يدرن حولها بنسب معلومة ومواقيت محدودة ، وكل واحدة من الفتيات العشر ولدت عشر فتيات أقلّ منها قامة وحليا وحللا واشراق وجه وهن يدرن حولها بنسب محفوظة وأوقات معلومة ، ثم كل واحدة من هؤلاء ولدت عشر فتيات أقلّ منها طولا وجالا واشراق وجه وحليا وحللا وهكذا ، فالجيل الأول عشر فتيات ، والثاني مائة ، والثالث ألف ، والرابع عشرة آلاف ، والعاشر عشرة آلاف ألف (عشرة بلايين) وكل جيل أقلّ مما قبله جالا وقامة وحللا واشراق وجه وأرقى مما بعده : فالمرأة الأولى ذات الجلال هي المجرة التي ترى في الليالي المظلمة مستطيلة في السماء كسحابة بيضاء لبنية ، وهذه أصل جميع الشمس ونشؤها ومستقرّها ومستودعها ، وهي شمس لا يعرف عددها ، بعدت عن الأبصار ، وتباعدت في الأقطار حتى صغرت في العيون وتضاقت ، فصار كل ألف ألف منها يكاد يكون ذرّة من اللبن في عين الرائي ، فهذه المجرة فيها هناك على أبعاد لا يتصوّرها العقل أصل الشمس وأمتها التي عبرنا عنها بالمرأة الجيلة ، وحولها شمس كل شمس حولها شمس ، وهكذا الى أن ينقطع الفكر عن التصوّر ويقف العقل عن التعقل ، وآخر هذه الشمس مقابل للفتيات اللاتي في الجيل العاشر ، وشمسنا كفتاة منهنّ لا نعرف عدد أترابها من الشمس كما كثر عدد فتيات ذلك الجيل . واذا نسبت هذه الفتيات في الحسن والقامة والحلى والحلل والاشراق الى الأم الأولى كانت كالقردة بالنسبة الى الانسان بل أقلّ ، فهكذا تقول في الشمس المضيئة عندنا انها بالنسبة الى الشمس الأولى كالغجر بالنسبة للنهار وفي الحجم كالبطيخة بالنسبة للجبل ، وسيأتى في هذا التفسير أن احدى شمس الجوزاء أكبر من شمسنا ٢٥ مليون من الشمس ، وضوءه بالنسبة لضوئنا كضوء الجباب بالنسبة لضوء شمسنا ، وأنت تعلم أن الشمس أكبر من الأرض ألف ألف مرة وثلاثمائة ألف مرة ، وفيها من الجلال والبهاء ما يبهّر العقول انها

ترسل ضوءها على الأرض فينير السبل ، ويوضح المسالك ، ويفتح الأعين ، فترى الصور المرسومة على سطح الهواء وخلال الأثير جلية واضحة وترسل الحرارة فيجري الماء وينمو النبات والحيوان والانسان وتصبح الأرض مخضرة باجتماع الماء مع الشمس والعناصر والهواء ، ثم ان سيرها وانتقالها من مكان الى مكان بحساب منقن يعرف الناس السنين والحساب فلا يضلون في أحوالهم الزراعية والصناعية والمدنية ، هذه بعض محاسن الشمس ، وهذه من عجائب جمالها الذي لانسبة بينه وبين جمال الشمس الأولى ، وقد قلنا ان لها نظائر تسير معها حول شمس أخرى ، وهذه الاخرى لها نظائر وهكذا فما مقدار السنة التي تسيرها حول شمس أخرى (في السكواكب المسماة بالجائى على ركبتيه) وربما كانت آلاف آلاف من السنين المعلومة فكيف يكون جمال الشمس الأولى ومقدار عظمتها وبعدها ، ان في ذلك لذكرى لأولى الألباب ، وهذه الشمس التي هذا وصفها حولها السيارات الثمانية ، وهى : نبتون ، وأورانوس ، وزحل ، والمشتري ، والمريخ ، والأرض والزهرة ، وعطارد : فأرضنا سيارة تسير حول الشمس ، فالشمس أم ، والسيارات فتيات حولها كما أنها فتاة لأم قبلها ، والأرض قد ولدت القمر : فجري حولها كما أن زحل والمشتري وغيرها لها أقمار تجرى حولها والأقمار أقل جلالا وحجما وبهجة من السيارات ، والسيارات أقل من الشمس ، والشمس ترتقى طبقات طبق الى الأم التي في المجرة ، وما يقال في هذه المجرة يقال في مجرات أخرى « وما يعلم جنود ربك الا هو » فلك عرائس في الجوسائرات وجنود مصطفات الى أن تقف العقول ، وهذه الشمس وحركاتها ونظامها لا يتسنى لك معرفتها الا بعلم العدد والحساب والهندسة وعلم الجبر والفلك « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » ولعلك تقول : انك ما قرأت مسألة الشمس وأنها تدور حول شمس أخرى ، وهكذا دائرة بعد دائرة الى أن ينقطع الفكر ويقف العقل انك لم تقرأ ذلك الامن تعاليم الفرنجة وهم الذين قالوا ان تلك الشمس أكبر من شمسنا فهل ورد في ديننا ما يؤيد ذلك ؟ فقلت : ان ديننا لا يمنع ذلك ولا يشبهه ، وفيه « وما أوتيتم من العلم الا قليلا - ويخلق ما لا تعلمون - والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » الى هنا قد أجبنا الكلام على العالم العلوى (١)

العالم السفلى

العالم السفلى ما في البحر من مخلوق حي ، وما على الأرض من معدن ونبات وحيوان وانسان ، فأما عالم البحر فقد جعل له العلماء في هذه الأيام علما مستقلا ليطالع الناس على غرائبه ، ومما قرأناه عنهم أنهم استخرجوا من قاع البحار على بعد أميال حيوانا يعيش في الظلمات في تلك الأصقاع الغائرة ، وقد وجدوا له آلة للضوء اذا حركها أضاعت ما حولها ، وقد خلق لها على جسمها في مقابلة تلك الآلة سطح قائم بزوايا مناسبة حتى أشرق النور عكسه ذلك السطح فأبصر ذلك الحيوان المسالك البحرية ، فكأن ذلك الحيوان لما حرم ضوء الشمس خلقت له في قاع البحار شمس خاصة به يفتحها متى شاء وأمامها سطح يعكس شعاعها فيرى المسالك والطرق « فتبارك الله أحسن الخالقين »

وفي البحر سمك شفاف سمين طوله نحو ثمانية أقدام وشحمه أبيض نقي يصيده سكان الأسكا ويحفظونه ثم يوقدونه من ذنبه فينير بلهب صاف شديد اللعان ، ومن السمك نوع يبحر الصين اذا أكله الانسان أخذ يضحك حتى يموت ، وهذا السمك يختص به الوزراء والعظماء اذا حكم عليهم بالاعدام فيشترونه سرا وبه

(١) اقرأ الكلام على عجائب السموات في سور كثيرة كآية : « ان في خلق السموات والأرض » في البقرة وآل عمران وغيرهما مما سنبيه ان شاء الله في ملحق هذا التفسير الذي عزمنا على إصداره كما ذكرناه قبل

يموتون من الضحك ، وحكومة الصين تمنع بيعه ، ومن عجائب البحر الدرّ والمرجان ، ثم من العالم السفلى
عالم المعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد والحارصين والبلاطين والكبريت والزئبق والمغنيسيا والملح
والزئبق والرصاص وغيرها ، ثم الآثار العارضية من حوادث الجوّ وتغير الهواء من النور والظلمة والحرّ والبرد
وتصرف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، ثم الأنهار وما يكون من الغيوم والضباب والطلّ
والندى والأمطار والرعود والبرق والثلوج والبرد والهالات .

عالم النبات

ومن العالم السفلى عالم النبات وله علم يعرف به اختلاف أنواعه وأشكاله وألوانه وطعومه وروائح وأوراقه
وأزهاره وثماره وحبوبه وبزوره وصموغته ولحائه وبنية تكوينه وتناجه وتربيته لأولاده .

عالم الحيوان

وله علم يعرف به صنوفه وأنواعه وأجناسه وسكان البرّ منه والتراب والهواء والبحر كالأنعام والحشرات
والطيور والسمك وهرفة تزواجها وتوالدها ومستقرّها ومستودعها ويتبع ذلك معرفة تشريح الانسان .

علم التشريح

يعرف منه أن أعضاء الانسان ٢٤٨ عضواً ، وتعرف أوردته وشرايينه وأعصابه والدورة الدموية والدورة
التنفسية والدورة الغذائية والدائرة العقلية والحواس الخمس ونظامها والقوى الخاصة التي في الدماغ ، وتقدّم
الايحاء اليها عند تفسير لفظ رب من (رب العالمين) وهي الحس المشترك والخيالة والمفكرة والذاكرة والواهمة
هذه هي بعض العلوم الطبيعية في العوالم السفلية . وأما العوالم الالهية فلها علوم خاصة بها تبحث في أمثال ملائكة
كما ستراه في صورة البقرة عند قوله تعالى « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة » فسيظهر
هناك ان شاء الله أن في معنى الخلافة ما يفهم المقام من معرفة الله والملائكة وهذه العلوم أيضا تعرف الأمور
العامة والمقولات وتقسم العلوم ، انتهى الكلام على العالم السفلي وما بعده .

هذه هي العوالم العارضية والسفلية التي تضمنها لفظ العالمين ، والله هو الربّ لها والمكمل لذواتها ، ألا فليعلم
المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أنهم لا يحمدون الله حق حمده ولا يشكرونه حق شكره الا اذا
درسوا هذه العلوم كلها وعرفوا ما تفرّع عنها وانتفعوا بها ونفعوا الناس بفوائدها ، واذن يحق لهم أن يقولوا : الحمد
لله رب العالمين ، أما اذا بقوا على جهلهم ولم يعرفوا هذه العوالم ولا نظامها فليعلموا أن حمدهم لفظي وشكرهم
ظاهري . ولأضربن لك مثلا : اذا أنت مدحت امرا في مجلس وكان فيه من هو أعرف به منك وسألك عن
بعض صفاته فوجدك بها جاهلا فانه لا جرم يقول أنت به جاهل ثم يشرح صفاته فتقرّ له بالفضل عليك .

يحكى أنه في زماننا قدم مؤلف عظيم على رجل من رجال الجرائد وكان هو وزوجه لا يتركان مجلسا الامدا هذا
المؤلف فيه ولا ناديا الا أنثيا عليه وهما في كل واحد يمدحان ويحمدان صنيع ذلك المؤلف وأنه أحسن الى أمته
وأنا لها شرفا عاليا ونفرا تالدا ، فلما أن حلّ بساحتهم وهما لم يريا قبل ذلك فرحا به واستبشرا وأكرماه
غاية الاكرام . ولما قاما الى بعض شأنهما نظر فوجد كتابه لم يفيض ختامه ولا يزال ورقه متصلا غير منفصل
دلالة على أنهم لم يقرأ منه حرفا ولم يعرفا منه كلمة ، فلما ودّعتهما وانصرف أرسل لهما مقصدا ليفهمهما أنه أدرك
أن المدح والحمد كانا على جهالة عمياء وأن الثناء رياء وانقلب سروره غما وفرحه حزنا ، أفلا يكون نصيب
المسلمين من ربهم نصيب ذلك الرجل وزوجته من المؤلف ، أفلا يقول الله للمسلمين : أنتم تحمدونني ولكنكم

لا تعرفون من صفاتي وأفعالي الا قليلا فلا أعطينكم من نعمي على مقدار ما عرفتم وأخذ يقص أرضنا مباشرة المسلمين و يعطيها للأعم الأخرى التي درست العوالم . الله لم يرسل مقصدا للمسلمين كما أرسل المؤلف ولكنه أرسل رجالا وأما قصوا من أرضنا وحرموننا منها جزاء وفاقا ، وقد آن أن يرجع مجدنا ويزرع نجمنا ونعرف ربنا وأن الأرض يرثها عباده الصالحون فأرض الجنة يرثها الصالحون لها بالعمل وأرض الدنيا يرثها الصالحون لها بالعمل والعمل يتقدمه العلم ، فكل أمة أعرف بهذا العالم فهي أحق به وأولى بالفضل وأعرف بالحمد .

أسباب الحمد : زيادة ايضاح لما سبق من قبل فيها

اعلم أن لكل حمد سببا كما أشرنا اليه آنفا ، فالجائع يقول : الحمد لله الذي غذاني ، والظماآن يقول : الذي أرواني والفقير يقول : الذي أغناني ، والجاهل يقول : الذي علمني ، وفي القرآن على لسان ابراهيم « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق » وفيه على لسان يوسف « وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن » وهذه الجملة حمد على نعمة الخروج من السجن ولم شمل أسرة يوسف عليه السلام ، وقال الشاعر الجاهلي لما أسلم : الحمد لله إذ لم يأتني أجلى » حتى اكتسبت من الاسلام سر بالا

فأما الحمد في هذه السورة فسببه أن الله صرني جميع العوالم ، فاذا قال ابراهيم الخليل : أنا أحمده الله لأنه أعطاني ولدا أيام كبري ، يقول المسلم في صلاته : أنا أثني على الله لأنه هو الذي ربي جميع العوالم من العلويات والسفليات ان ابراهيم يعرف نعمة الله في ابنه ، والجائع يعرف نعمة الله في أكله ، والمسلم يجب أن يعرف نعمة الله في تربيته العوالم ، وليس معنى هذا أن يكون جميع المسلمين حكماء فلاسفة ، وإنما المراد أن يكون فيهم طائفة تقوم بجميع العلوم كالفرنجية أو أكثر ، ألا تراه يقول (اياك نعبد) ولم يقل أعبد للإشارة الى أن المقصود الجماعة .

وإذا بقى المسلمون على ما هم عليه من الجهل بنظام الله في العالم فلا حظ لهم من حمد الله وشكره الا حظ الجائع من النسيم ، ولما عزّ الحامدون الحقيقيون الشاكرون العاقلون قل الله « وقايل من عبادي الشكور » سؤال وجوابه وضرب مثل لحال القرآن بما أبدع الله في العالم

لعلك تقول : مالي أراك تحمل الفاتحة مالا تتحمل وتدخل فيها من العلوم مالا يعقل ؟ مع أن الناس يقرءونها ولا يلحظون ما نذكرون ويكررونها صباحا ومساء ولا يتبها لهم ماتصفون ، وإنما أنتم تقولون هذا استطرادا لا استنباطا ، وتطويلا لاتأويلا ، وتعلما لاتفسيرا ، واكثرارا لاستخراجا

أقول : على رسلك واصغ لما ألقى عليك من مثل أضربه تذكرة لأولى الأبواب : تأمل حال الرجل الزارع وقد استصحب دابته وولده الصغير ولما وصل الى الحقل رأى مهندسا للرّى وعالما طبيعيا وحكما إلهيا ، فهل ترى أن هؤلاء والحقل أمامهم متفقون في الرّى متحدون في الفكر ، كلا ، فان الدابة لا ترى في الحقل الا حاجتها من البرسيم ليست جوعتها والصبي يتعالى عن الدابة فينظر الى خضرة البرسيم والمزارع وترنحها يمينا وشمالا ويرى بهجة الزهر وجمال منظره وهبوب الرياح عليه ، والفلاح يتعالى عن ذلك ، فينظر في أمر الزرع والحصاد والمكسب والخسارة ، ورى الأرض ، وحساب المزارعين وما شا كل ذلك ، والمهندس يتعالى بنظره الى نظام الرّى العام في هذا الجدول وفي سواه من نظائره ، ويقارن المصارف والترع ببعضها ، ويتسع نطاق عمله حتى يشمل آلافا من المزارع ليحفظها من العطب ، ويحرسها من الهلاك ، والعالم الطبيعي أو الزراعي يتأمل في العناصر كيف تكون منها النبات ، ويحللها ويعرف وزنها بالنسبة لبعضها كما سيأتي في سورة البقرة ، ثم يتولى عمل المناسبة بينها ويقول : ان السماد يكون على مقدار الحاجة ، فكل عنصر قل في الأرض يعتاض عنه بآخر من السماد بوزن معلوم . ثم ان الحكيم الرباني يتعالى عن هذه الطبقات ، فيرى أن هذه النباتات كلها من عناصر أرضية اختلفت طعموها ، وروائحها ، وأثمارها ، ولحاؤها ، وأوراقها ، وأزهارها ، وأعمارها ،

و بلدانها ، وطقوسها ، ومناخها ، ومنافسها العلمية ، والعناصر واحدة لا تتجزأ الثمانين عدداً منبثة في الأرض والهواء والماء ، ثم ان تلك العناصر ترجع إلى مادة واحدة ، وهي الأثير الذي يكون ضوءاً وكهرباء وحرارة ثم ان الجوهر الفرد الذي كان آخر آراء العلماء فيه أنه مكون من ذرات كهربائية : منها الموجبة ، ومنها السالبة ولهما نواة حولها ذرات تدور كديران السيارات حول الشمس ، ثم يقول ان هذه كلها صرجمعها حكمة وراءها وقدرة وعلم وذات مدبرة وإله منظم ، وإلا فما بالنا نرى نظاماً عالياً وحكمة باهرة « وأن إلى ربك المنتهى » هذه هي النظرات في الحقل .

فقس عليها نظرات الناس في الفاتحة : إن الفاتحة كلام الله ، والحقل وما فيه من الزرع فعل الله أفلا ترى أن تختلف الأنظار في الثاني كما اختلفت في الأول . أو لست ترى أن حافظ القرآن الذي لا يهنيه إلا أن يعيش به كالجار يحمل أسفارا ، وكالجاموسة في المثال المتقدم لم يعنها إلا البرسيم ، أو ليس العامة الذين يفرحون بنعمات القرآن في مآثمهم وأعراسهم : أشبه بالصبي الذي راقه مناظر النبات وأزهاره ، أو ليس العابد الذي يخاطب ربه بالفاتحة ويثني عليه ويتوجه إليه بقلبه أشبه بصاحب الحقل المقبل على تنظيمه ، أو ليس المفسر للقرآن الناظر في معانيه العامة ، وهو أرقى من العابد أشبه بالمهندس الناظر في سائر الحقول ، أو لست ترى أن من يعرف هذه العوالم العالوية والسفلية ويدرك نظامها وجمالها ويعرف من كل فن طرفاً أرقى من المفسر وأعلم منه ، وأنه أشبه بالرجل الطبيعى أو الزراعى الذى عرف نظام الزرع وتركيبه من العناصر ، أو ليس الذى يحمل الأمة على معرفة سائر العلوم ، فتكون راقية ذات مدنية ونظام وسعادة في الدنيا لتحفظ كياناتها وتصون بلادها وتستغنى عن غيرها وتمتد الأمم بعلمها وصناعاتها فضلاً عن أنه عرف تلك العلوم ، أليس ذلك في مثالنا كالحكيم الربانى في المثال المتقدم الذى وصل الى الله من طريق الحكمة والعلم .

وبهذا فلنفهم قوله صلى الله عليه وسلم « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا » فظاهره معلوم للناس والعامة ، وحقيقته ما ذكرناه لك .

ألا إنما ذلك العالم العظيم والملك الكبير في الاسلام الذى يحملهم على معرفة العلوم والصناعات ليحفظوا مدينتهم و يقيموا الوزن بالقسط ويكونوا خلفاء الله في الأرض في المثال الثانى ، وذلك الحكيم العظيم الربانى في المثال الأول الذى أدرك سر الخليفة بقدر طاقته ، هذان وأمثالهما هم أولياء الله وخلفاؤه في الأرض وخلفاء أنبيائه . فأمثل هذا فليعمل العاملون . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون هؤلاء هم الذين يكونون في أعلى الجنة . وقد تركوا أدناها للجهلاء كما في الحديث « وعليون لأولى الأبواب » فالجنة مفتاحها المعارف وفاتحة الكتاب فاتحة المعارف « وما يعقلها إلا العالمون » * ها أنا ذا قد أبنت العوالم التى تولى الله تربيتها وترقيتها ، وأنت تعلم أن التربية يعوزها أمران : الرحمة والشدة ، فإذا لم تكن رحمة أوعدم الجزاء والمكافأة بالاحسان والاساءة كانت التربية ناقصة ، ولقد جعل الله الأم أقرب إلى الرحمة والأب أقرب إلى الشدة والمجازاة ، فإذا فقد أحدهما ساءت التربية ، فأشار إلى الأول بقوله (الرحمن الرحيم) وإلى الثانى بقوله (مالك يوم الدين) أعنى مالك الأمر في يوم الجزاء ، أما الرحمة فقد عرفتها فيما تقدم ، وأما الجزاء فانه تابع للأعمال كما قال تعالى « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » ألا ترى أن الرجل الكاسل يصيبه المرض والفقر ويزدرية الناس وهكذا من يكره الناس أو يؤذيهم ، وترى حكومات الأرض قاطبة نصبت القضاة ، وأقامت الجند ، وجعلت لها دوراً للحبس ، وأخرى لاكرام الوافدين من الأقطار ، ووضعت القوانين والحدود ، وذلك سائر على نظام في مشارق الأرض ومغاربها ، ولما كان القانون البشرى يلحقه الخطأ لخلل فيه أو لاضلال القضاة والحكام أوجهلهم جعل الله الجزاء الأوفى يوم القيامة « لتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » فالله عز وجل

مالك جميع الأمور محيط بالخلق في الدنيا والآخرة يشيب الطائعين والعامالين ، ويقهر العاصين والكاسلين ويذلّ الباغين ، إما في الدنيا ، وإما في الآخرة ، وإما فيهما معا ، وبهذا تمت التربية ونظم العالم : ان هذه الصفات التي حصرت الرحمة والمالك في ذات الله وأنه هو المربي للعالم كلها المالك لها تحصر قلب القارئ والمصلي والذاكر في الله تعالى وتجعل الحمد خاصا به ، فجميع الحمد التي يفوه بها الناس للحسين راجعة إليه ، لأنه المحسن الحقيقي ، وفوق الحمد يختص بالعبادة التي هي غاية الخضوع ، ومنه طريق معبد : أي مذل ، فكأن القارئ يقول : يا من اتصف بهذه الصفات التي يمتاز بها عما عداه (إياك نعبد) أي نخصك بالعبادة والخضوع فضلا عن الحمد ، فالنصف الأول من السورة أحضر في قلب القارئ الصفات المميزة للربوبية ، فلما تمتثلت في ذهنه تلك العظمة صارت كأنها مشاهدة أمامه ، فالتفت عن الغيبة إلى الخطاب ، وكأنه يشاهده ويراه ، وفي الحديث « اعبد الله كأنك تراه » ولن يكون ذلك إلا باستحضار صفاته العالية في قلبه ، وإلى هنا وصل القارئ إلى آخر درجات التقرب ، وهو الخضوع والتذلل كما في قوله تعالى « واسجد واقترب » فلم يبق بعدها الا السؤال والطلب من المتقرب إليه ، فقال (وإياك نستعين) في أمورنا الدنيوية والأخروية كالصحة والغنى والمال والولد ، وأهم الحاجات أداء العبادات والهداية إلى الصراط المستقيم ، فكأنه يقول : نحن نعبدك ولن نقدر على أداء العبادة إلا إذا أعنتنا ، ولما طلب العبد الاستعانة بالله ، كأنه قيل له مأهم ما نستعين فيه ؟ فقال العبد (اهدنا الصراط المستقيم) والهداية دلالة بلطف ، وهي على أقسام . الأول هداية الغريزة التي اهتدى بها الحيوان في غدوّه ورواحه ، والطفل لرضاع أمه ، والنحل لبناء المسدسات التي يجمع فيها العسل بنظام يحار فيه المهندسون . الثاني هداية العقلاء الأولية بأن يميزوا بين الحسن والقبيح والجلال وضده وتعرف الأوليات ومبادئ العقول التي يرجع إليها في العلوم ، مثل الكلّ أعظم من الجزء ، والضدان لا يجتمعان . الثالث معرفة العلوم وفهمها والتصرف في أصولها وفروعها . والرابع الملكة الراسخة بحيث تحضر العلوم والمسائل التي عرفت أنى شاء العارف ويتبع ذلك قوة التصرف والخذق في الأمور والالهامات وسداد الرأي والوحي الخاص بالأنبياء ، والمراد بالهداية هنا هذا الأخير وما قبله . فلما أن يقال أدمننا على الهداية ، وأما أن يقال زدنا في مراتبها لترقى إلى أعلاها وننال الزلفى لديك والقربى . ويقرب من هذا قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم » والمراد بالفرقان نور يقذفه الله في قلب العبد يفرقه بين الحق والباطل ، والصراط المستقيم هو الطريق المستوي ، وهو مثله في التذكير والتأنيث ، ثم أبان ذلك الصراط ، فقال (صراط الذين أنعمت عليهم) من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهم عظماء كل أمة وأشرفها ، أو الذين أنعمت عليهم من الأمم وهم المسالمون (غير المغضوب عليهم) وهم اليهود (ولا الضالين) وهم النصارى : وتبينه أن يقال ان الصراط المستقيم يراد به هنا الطريق الوسط ، وهو في علوم الأخلاق .

العفة - التي هي وسط بين الوقوع في الشهوات والفسق والفجور ، وبين الجود والبخل والامساك والشح والشجاعة - وهي وسط بين التهور ، والطيش ، والظلم ، وبين الجبن ، والخوف ، والحزن ، والجزع ، وأمثالها .

والحكمة - وهي الوسط بين الجهل ، والغبالة ، والبلادة ، وبين المكر ، والخداع ، والاحتيال ، والطيش في الآراء .

والعدل - وهو المساواة بين هذه الأمور .

وقد فرع العلماء على هذه الأربع فروعا شتى تربو على المائة ، وكلها داخلة في الصراط المستقيم ، وهو

الوسط ، وما جاوز الوسط ، فإما إلى زيادة فهو التهور والطيش والتبذير وما أشبهها ، وإما إلى نقص كالجن والبخل والخوف وما أشبهها ، والمسامون وسط في أمر سيدنا عيسى عليه السلام إذ يعتقدون نبوته . أما اليهود فانهم قد غضب الله عليهم لأنهم جعلوه ابن زانية . وأما النصارى فانهم أفرطوا في اعتقادهم وجاوزوا الحد في دينهم وغاوا في أمر المسيح ، فقالوا انه إله ، فهؤلاء هم الضالون في أمر عيسى ، فاعتقاد المسامين صراط مستقيم ، واعتقاد اليهود تفریط ، واعتقاد النصارى افراط : أى مجاوزة الحد . وقد قلنا ان الحكمة وسط فلا تغالى كما قالت النصارى ، ولا جود وانكار كما قالت اليهود ، ولقد ورد تفسير الصراط الخ بهذا المعنى مرفوعا الى النبي ﷺ ، وهذا الذى قلناه توجيهه ، وكأنه عليه الصلاة والسلام أراد بذلك ضرب مثل للصراط المستقيم والا فهذا الوسط في الاعتقاد في مسألة المسيح يماثل مسائل كثيرة كالكرم والشجاعة والعفة والصدق كما تقدم فافهم . وقوله (غير المغضوب عليهم) يدل من الذين أنعمت عليهم ، ولا في قوله (ولا الضالين) للتأكيد (آمين) اسم للفعل الذى هو استجب ، وليس من القرآن بالاتفاق ، ولكن يسق ختم السورة به .

واعلم أن النعم امامال ، وأما أصحاب وأهل وأعوان ، وأما صحة بدن ، وأما عقل وحكمة وصدق روية ، وكل نعمة مقدمة لما بعدها ، فأعلاها العقل والحكمة ، وأدناها المال الذى لا بد منه لحفظ الثلاثة بعده من الأصحاب والصحة والعقل ، والمراد بالنعمة هنا أعلاها التى تقوى وتبقى بما قبلها . وقد يراد بالمنعم عليهم المطيعون ، وبالمغضوب عليهم العصاة ، وبالضالين الجهال . واعلم أن المنعم عليهم هم الأنبياء وورثتهم والمخلصون من بنى آدم ، وهم الذين نصبوا أنفسهم لهداية الناس وارشادهم .

وكأنهم آباء والناس أبنائهم ويتشبهون بالله في أفعالهم وأقوالهم ويقودون الأمم إلى سبيل الرشاد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقال ان غاية الحكمة التشبه بالله ، فيعرفون نظام العالم وحكمة الخالق ويتركون آثارا فى البرايا ويتحمّلون ما ينالهم من الآلام فى سبيل اسعاد الأمم ، فينالون أجرهم مرتين فهم فى الآخرة مكرمون ، وفى الدنيا مذكورون بالثناء والاكرام ، تشتاق اليهم النفوس ، وتحق اليهم القلوب ، وتطمئن اليهم الأفتدة ، وتذكرهم الأجيال .

وأضرب لك مثلين : الأول ما جاء فى القرآن فى سورة والصفات ، فانظر كيف ابتدأها بذكر أهل الجنة والنار وتوبيخهم ، فقال « ولقد ضلّ قبلهم أكثر الأولين » وأقام عليهم الحجة فقال « ولقد أرسلنا فيهم منذرين » وأخذ يذكرهم بالثناء واحدا واحدا فذكر نوحا بالثناء ، ولما انتهى من القصة قال « سلام على نوح فى العالمين » ثم ذكر ابراهيم وتاريخه ومالقي من المحن فى قومه وختمها بقوله « سلام على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين » ثم ذكر موسى وهرون ونجاتهما من فرعون وقومه ، ثم ختمها بقوله « سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزي المحسنين » ثم ذكر الياس وكيف كان يدعو قومه وختمها بقوله « وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إل ياسين انا كذلك نجزي المحسنين » ثم ذكر لوطا ونجاته ويونس وختم السورة بقوله « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » فانظر كيف ذكر المرسلين بالثناء فمن كان منهم أقوى عزيمة وأطول بلاء . قال فيه « وتركنا عليه فى الآخرين سلام على » فلان ، فكأن الله عز وجل يجعل الثناء الباقي فى الأعقاب للمجاهدين الأبطال من المكافآت للفضلاء .

وهذا هو الذى ينبغى أن يكون فى أمة الاسلام . يعاين الله بهذا أن نعلن فضل الفضلاء ، وعلم العلماء وحكمة الحكماء ، وجهاد الأبطال ، وننشر فضائلهم ليقبلهم من بعدهم وليؤخذ عنهم كما تفعل الأمم الغربية اليوم بكل مشهور الفضل ، ولو كان سفيه النفس سيء الخلق ضيق الفطنة ، ويذكرون علمه ليقبلى به

الناشئون . ولعلك تقول ما للفاطحة وسورة الصافات ؟ . أقول : على رسلك ان الفاتحة تسمى أم الكتاب والمنعم عليهم والمغضوب عليهم ورد ذكرهم في القرآن ، فهل هذه القصص واردة لغير غرض أم للهو واللعب أم لمجرد الحكاية ؟ كلا ، فالمنعم عليهم : مثني عليهم ، والمغضوب عليهم : مذمومون ، وليس للمسلمين أن يعيشوا خامدين جامدين أمام القرآن والأمم الغربية ، فعليهم أن يتبعوا القرآن ، فمن رأوه يبذل مهجته في خدمة الأمة ، أو ينشر العلم ، أو يضحى ماله ، فليرفعوا قدره ، بهذا أمرهم الله ، والافكيف يقول في سورة أخرى « واذكر في الكتاب ابراهيم . واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادقا الوعد » ويقول « واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصا . واذكر في الكتاب مريم » أليس هذا أمرا بذكر الفضلاء المخلصين ونشر محاسنهم ، فليقم بذلك المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها والا فليبقوا جامدين جاهلين . الى هنا انتهى المثل الأول للمنعم عليهم . المثل الثاني : ماقرأناه في كتب المتقدمين عن اليونان أن (سولون) الحكيم المولود سنة ٦٤٠ ق م المائت سنة ٥٥٩ ق م لما خرج من أثينا مغاضبا لقومه اذ عصوا نصيحته أرسل اليه الملك (كروسيوس) خطابا ، فلما قدم عليه حقر مارآه من الزينة والزخرف ، فقال له الملك : من أسعد الناس في نظرك ؟ فقال له الملك طيلوس كان محبا الى أهل أثينا مسبغا النعم عليهم ، فلما أن مات خزنوا عليه كلهم أجمعون ، فتعجب كروسيوس من سولون وقال من بعده ؟ قال أخوان شابان كانا شجاعين أكرما أمهما ، ولقد كانت تغدو كل يوم للصلاة في المعبد ، فاتفق أن سائق العربى لم يوافها يوما فجرّ الاخوان عربتها بدل الثورين فدعت الله لهما فعاشا قريرى العين وأحبهما الناس حبا جما ، ولما ماتا خزن عليهما أهل أثينا ، فقال الملك أفلا تعدنى سعيدا ياسولون ، فقال أنت أسعد من كثير من الناس ، ولكن انتظر العاقبة فغضب الملك من سولون وأبعده ثم دارت رحى الحرب بين الملك وبين ملك العجم فوقع كروسيوس فى الأسر ، فأمر باحراقه وأوقدت النار ، فصاح كروسيوس سولون سولون ، فسأل فيروس ملك العجم مامعنى هذا ؟ فقص عليه القصص فرق قلب فيروس وأنعم عليه وواساه .

وانما ذكرت هذا المثل ليعلم المسلمون فى أقاصى الأرض أن الذين أنعم الله عليهم بحبّ الاخوان والصبر على أذاهم ، والزهد فى الدنيا ، ونشر الفضيلة والعلم ومدحون على كل لسان أينما كانوا ، وأوائك المنعم عليهم شמוש وأقمار ، فانظر كيف ذكر سولون أن السعيد هو الملك طيلوس ، لأن أهل أثينا خزنوا عليه لعموم نفعه لهم ، وأن الشابين اللذين أكرما أمهما أحبهما الناس ، ولما ماتا خزنوا عليهم ، لأن المحسنين محبوبون والنفوس الشريفة يشرق ضوءها فى الأرض ، وتلك النفوس العالية إنما جاءت الى الأرض لتحرس أهلها وتخدمهم فاذا أدوا ما خلقوا له سارت بذكرهم الركبان ، فما أجل العلم وما أجل الحكمة .

الفاطحة أم القرآن

هذه السورة تسمى فاتحة الكتاب ، وتسمى سورة الحمد ، وتسمى أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني ، لأنها تشتمل فى كل صلاة ، وتسمى الوافية والكافية . ولقد يحب القارئ من تسميتها بأمر القرآن وبأمر الكتاب وبالكافية وبالوافية ، وكيف تقرأ فى كل صلاة ، فليعلم ذو اللب أن الذى يتلى على اللسان دائما ، ويتلوه الجاهل والعالم سرا وجهرا ، يصبح فى أنفس النالين من المؤلفات التى لا يسعى الى شىء وراءها وتصبح كالسمع والبصر والعقل والجسم الانسانى عند الجهلاء ، فالناس لما رأوا أجسامهم والأنهار والسماء والأرض لم يظنوا فيها عجائب ولا غرائب لأنها مكشوفة أمامهم معروضة كل حين ، كالعالم فى بلده والنبي فى قريته ، فهكذا فاتحة الكتاب يقرؤها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها وأكثرهم جاهلون لا يعقلون ، ولذلك

داستنا الفرنجة فقتلت أبناءنا واستحيت نساءنا ونحن في غفلة معرضون .

واعلم أن العلماء هم الذين يعرفون أسرار الأشياء ، فعالم النبات وعالم الطب يعقلان حكم النبات وعجائب الجسم ، فكذلك هنا المفكرون في القرآن الدارسون للعلوم حديثها وقديمها هم الذين يعقلون الفاتحة وعالومها فاعلم أن الفاتحة تشتمل على الاشارات لجميع ماورد في القرآن ، والذي ورد في القرآن عشرة علوم عامة كما قاله الغزالي : وكل علم تحته علوم . الأول : معرفة ذات الله . الثاني : معرفة صفاته ، فأما الذات فبالتقديس والتنزيه فهو الذي ليس كمثله شيء ، وأما الصفات فانه قادر ومريد وعالم وحى وسميع الخ . الثالث : انه خالق العالم ومبدعه ، وهو الذي رفع السموات وبسط الأرض . الرابع : ذكر المعاد من الجنة والنار والثواب والعقاب . الخامس والسادس : ذكر الصراط المستقيم وترك الأفعال الخزية والأخلاق المزرية ، وبالتحلى بفضائل الأعمال والأخلاق الشريفة ونشر الفضيلة . السابع : ذكر المنعم عليهم ومدحهم والثناء عليهم . الثامن : ذكر الظالمين والطاغين والكافرين . التاسع : ذكر محاجة الكفار . العاشر : ذكر حدود الأحكام هذه هي العلوم التي ورد ذكرها في القرآن ، والفاتحة قد اشتملت على ثمانية منها على رأى الايام الغزالي . الأول : ذات الله تعالى في قوله (بسم الله) . الثاني : الصفات بذكر (الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) فان الرحمة والملك يستلزمان القدرة والارادة والعلم ، وهى من الصفات الواردة في أكثر سور القرآن كقوله : الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن الخ . الثالث : علم الأفعال وهو العلم الذي أشرت إليه فيما تقدم المندرج في قوله (رب العالمين) المنظوى تحته أكثر العلوم ، وقلت أن العالم قسيمان علوى وسفلى ودخل فيهما أكثر العلوم لأنها كلها أفعال الله تعالى الداخلة في آثار رحته وتر بيته للعالمين . ونقول الآن أيضا فوق ما تقدم أن العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية اللتين دخلتا في تربية العالمين يلحقهما صناعات كثيرة ، فمنها علم البنكومات (آلات قياس الزمن كالساعات المعروفة) وعلم جر الأثقال : كقطر السكك الحديدية ، وعلم انبساط المياه ، وعلم الآلات الحربية كالمجانيق وغيرها ، والغازات الخائفة الموقظة للأعم النائمة ، فأيقظت أهل الشرق من سباتهم . وهذا من عجائب التربة ، وكلمدافع الفتاكة بالغافلين ، وعلم المرايا المحرقة ، وعلم عقود الأبنية لتتضيد المساكن وشق الأنهار ، وعلم المناظر المعروفة أشكالها وأوضاعها ، وعلم مراكن الأثقال ، وعلم المساحة ، وعلم الطب ، وعلم الزراعة . وهذان الأخيران يتبعان علوم الطبيعة ، وأما ما قبلهما فعن الرياضيات تنفرع وكلها داخلة في تربية العالمين . واعلم أن جميع الصناعات ما كان منها وما يكون ترجع إلى هذه الموجودات ، فإذا رأيت النجار ، والحديد ، والخراط ، والزجاج ، والجوهرى ، والصيرفى . فاعلم أن الأول تابع لعلم النبات ، لأن عمله في الخشب . والثانى لعلم المعادن لأنه في الحديد . والثالث في النبات كالأول . والرابع في المعدن لأنه في الزجاج والزجاج رمل مخلوط ببعض المعادن . والخامس والسادس في المعادن ، لأن الخامس في الجوهر المستخرج من الصدف . والسادس في الذهب والفضة ، هذا ما أردت ذكره في العلم الثالث ، وهو علم الأفعال ، وقد دخل تحته أكثر العلوم والصناعات . العلم الرابع : ذكر المعاد وفيه الجنة والنار والنعيم والجحيم والثواب والعقاب والقرآن طافح بذلك ، وهو هنا في قوله (مالك يوم الدين) . العلم الخامس والسادس (الصراط المستقيم) وهو قسيمان . الأول : ترك الضلال والفسوق والعصيان كالسكذب والخيانة والزنا . والثانى : التحلى بالطاعات كالسكرم والعلم والمساعدة ونشر العلم وما أشبه ذلك . العلم السابع : قصص الأنبياء والصالحين والمؤمنين والفضلاء وهو داخل في قوله (الذين أنعمت عليهم) . العلم الثامن : قصص المغضوب عليهم والضالين ، وفي القرآن كثيرا من قصص الغاوين وتاريخ أعمالهم التي أورثتهم البوار والخسار ، هذه هي العلوم التي اشتمل عليها القرآن ، ودخلت في ضمن الفاتحة ، فهل اذا سميت أم القرآن ، أو الكافية ، أو الوافية ، لا تكون بذلك

حرية ؟ بلى ، فالفاتحة أم القرآن بما بيناه ، كافية بما أبرزناه ، وافية كما قررناه ، فتعجب من المسامحين . واعلم أن القرآن أشبه بضوء الشمس الذي يجري في الجو ولا يظهر الا على سطح الأرض أو على جسم قابل ، فأما الهواء فإنه لا يعكس ضوءها ولا يراه الطائر في جو السماء : كذلك الأئمة الخالية من العلم والحكمة يمر بها القرآن وأم القرآن ، ولا تشعر بمعانيها والضوء المشرق فيها ، وهم يقرءونها صباح مساء كذلك الطائر في الجو السائح في مخارقه حتى اذا قرأ القرآن من يعرفه فهمه حق فهمه . واعلم أن هذا الزمان هو الصالح لظهور المقصود من القرآن في بلاد الاسلام « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » .

ولم يبق من العلوم التي في القرآن الا الحاجة الكفار ويقوم مقامه علم التوحيد ، وعلم الأحكام الفقهية التي يقصد بها حفظ النظام الاجتماعي للأمة ، وانما احتيج هذين العلمين لحفظ العقائد ولحفظ نظام المجموع ، ثم ان هذا التقسيم الأخير مستمدة أصوله من كلام الامام الغزالي مع زيادة وتصرف ، ومن هذا تعلم ان علم ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ، وهي العلوم المعروفة اليوم ، والصناعات مقدمات على علم الفقه وعلم التوحيد ، والأمم الاسلامية اليوم أحوج الى معرفة الكائنات لمعرفة الله ولبقائهم في الدنيا ليزاحوا الأمم الغربية ، وهي أهم من معرفة علم الفقه وعلم التوحيد وجميع هذه العلوم فرض كفاية ، ولكن الفقه والتوحيد لم يظهر اظهورا جليا في الفاتحة : اللهم الا في العبادات ، أما الفقه فيما عدا ذلك ، فلم تشتمل عليه ، والمسامحون يجب عليهم النبوغ في علوم الكائنات لعناية القرآن بها والفاتحة خصوصا لدخولها ضمن تربية العالمين .

فاذا سمعت قول القائل : ان سر القرآن في الفاتحة ، وقرأت الحديث المتقدم ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام لأبي « ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والانجيل والقرآن مثلها » ثم قال هي فاتحة الكتاب ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم ، ثم قرأت ما كتبناه بامعان أدركت السر المصون وتجلت لك عظمة الفاتحة وعرفت معنى قوله صلى الله عليه وسلم في الفاتحة « انها القرآن العظيم » وعسى أن يكون فتح لك باب قولهم : سر القرآن في الفاتحة ، فن هذا الطريق فلتسروا لتعلم أن ما كتبناه شذرة مما نعلمه ، ثم مانعلمه ذرة من علم العلماء ، ثم علم العلماء ذرة من علم الله عز وجل ، فتعجب للنبوة وحكمتها وعلمها الواسع . ان هذا يفتح لك أبوابا تدخل منها إلى سر عظمة الفاتحة ، وسرها أنها سبع آيات تؤدي معنى ست آلاف آية وهي جملة القرآن كله تقريبا ، ثم ان خروج الفقه والتوحيد من ضمن الفاتحة هو رأى الامام الغزالي ، ولكن عسى أن يكونا ضمن الصراط المستقيم أو التربية للعالمين ولو بطريق التبعية فتأمل فيما كتبناه فعسى أنك في غضونه تلقاه ، هذا ما فتح الله به وأردت إثباته في تفسير الفاتحة « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

مقارنة فاتحة الكتاب بفواتح البلغاء وأصحاب المعلقات

لقد سبق الكلام على ما في الفاتحة من الإشارة إلى العلوم وما تضمنت من الحكمة ، فلنذكر الآن نبذة مما تضمنت من البلاغة لتكون تذكرة وبصرة لدى لب ، وإثما قدما الكلام في العلوم لأنها أعم وأهم وأدعى إلى رقي الأمم الاسلامية وأدنى إلى حاجتها وأقرب إلى سعادتها . فنقول :

تأمل أيها العاقل الفطن ، وانظر بعقلك وإياك والتقليد ، بل ليكن نظرك عقليا وفهمك نفسيا ، واحذر أن تكون إمعة ، فيها أنا ذا سأناو عليك من أقوال الشعراء فواتح المعلقات وماشا كلها لتقارن بصفاء ذهرك ونور عقلك وصادق سريرتك بينها وبين فاتحة الكتاب لتعرف الفرق بين كلام الوحي وكلام الشعراء الذين كان لهم القدر المعلى في سوق عكاظ وذى المجنة وذى المجاز ، وهم الخافضون الرافعون بذمهم ومدحهم كما مرى القيس

وطرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى وليد بن ربيعة ومن على شاكتهم ممن طأطأت لهم الرؤوس ، وخلاهم الجوّ وخشعت لهم الأصوات ، وذلت لهم الرقاب ، وكانوا شمس الجاعات وسادات الشعراء :

ان للوحى لسمة ظاهرة وعلامة بينة ، ألا ترى أنه ينحو منحى الأمور العامة ، ويتعالى عن الجزئيات ومحقرات المقاصد ، فأما كلام الشعراء فى فواتحهم فهناك مقال امرئ القيس بن حجر بن حارث إذ ابتداء قصيدته المعلقة ، وهى فاتحته فوصف أنه بكى واستبكى على حبيبته ومنزلها الذى بسقط اللوى بين الأماكن الأربعة ، وهى الدخول وحومل وتوضيح والمقراة ، فقال :

قِفَا نَبْلِكَ مِنْ ذِكْرِى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ * بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَخَوْمِ
فَتَوْضِيحٍ فَالْمُقَرَّاةُ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا * لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنْوَبٍ وَشَمَالِ

وطرفة بن العبد بن سفيان كانت فاتحة قصيدته أن قال ان خولة محبوبتى لم يبق لها الا آثار الديار الخفية التى صارت كآثار الوشم فى ظاهر اليد ، وهذه الآثار فى موضع ، وهو برقة ثممد ، وهى مكان لبنى دارم اذ قال :

لِخَوْلَةٍ أَطْلَالَ بِرُقَّةَ ثَمَمٍ * تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَمْرِ

وزهير بن أبى سلمى من الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية كانت فاتحة قصيدته أن قال :

أُمُّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلِّمْ * بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَلَمْ تُتَسَلِّمْ

أم أوفى كنية محبوبته والدمنة آثار الدار وما فيها من البعر والرماد وغيرها والحومانة ماغلظ من الأرض والدراج والمتسلم موضعان من العالية (يقول هل من منازل محبوبتى أم أوفى تلك الدمنة التى سألتها فلم تجبني) وليد بن ربيعة العامري من الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية كانت فاتحة قصيدته أن قال : اندرست ديار محبوبتى وهى ماتحل فيه وتقيم ، وهى بالمسكان الذى يسمى منى ، وقد توحش الموضعان اللذان فيها ، وهما الغول والرجام اذ قال .

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلَّهَا فَهَقَامُهَا * بِمَنَى تَأَبَّدَ غَوْهَا فَرَجَامُهَا

وعمر بن كلثوم كانت فاتحة قصيدته ، أن قال لجاريته : قومي من نومك ، واسقيني الخمر أول النهار بقديحك العظيم ولا تدخرى عنى شيئاً من خرة القرية المسماة الاندريين من قرى الشام كثيرة الخمر جيدته اذ قال :

أَلَا هُبِّ بِصَحْنِكَ فَاصْبِحِينَا * وَلَا تُبْقِي مُخُورَ الْأَنْدَرِينَا

وعنترة بن شداد العبسى يقول : ما ترك الشعراء شيئاً يرقع الارقعوه : أى ما تركوا فنا من فنون الشعر الا ساكوه ، ثم قال : أنا لم أعرف دار محبوبتى لطول عهدي بها إلا بعد عناء شديد اذ قال :

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُنَرِّدٍ * أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ

والحارث بن حازة اليشكري قال : فى فاتحة معلقته فى حضرة الملك عمرو بن هند ، أعلمتنا أسماء بقرب ارتحالها فشق علينا ، ومن المقيمين من يملّ قريهم ، ولكن أسماء ماملناها اذ قال :

أَذْنَنَّا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءَ * رَبِّ تَأْوِيْلُ مِنْهُ الشَّوَاهِ

والنابعة الديباني ، وهو زياد بن معاوية كانت فاتحة قصيدته أن قال :

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالْسَّنَدِ * أَفَوْتَ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ

العلياء المكان المرتفع ، والسند حيث يسند الى الجبل : أى يرقى ، وأقوت خلت ، والأمد الدهر ، يخاطب دار محبوته مية متوجها متأسفا على ارتحاضها عنها وابتعادها عنه ، والأعشى ميمون بن قيس بن جندل كانت فاتحة قصيدته أن قال :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا * وَبِتْ كَمَا بَاتَ السَّالِمُ مُسَهَّدَا

أرمد : أى رجل أرمد ، والسالم اللديغ ، والمسهد الذى شرّد عنه النوم ، يقول : انه أرق ليلة فلم تغتمض أجفانه ، كالأرمد الذى لا يطيق اطباق أجفانه من حرّ ما بها من الألم ، ولم ينم كأنه لديغ ، وعبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلى أحد المعمرين ، يقال انه عاش عشرين ومائتى سنة كانت فاتحة قصيدته أن قال :

لَيْسَ رَسْمٌ عَلَى الدِّفْنِ بِهَالِي * فَلَوْى ذِرْوَةَ فَجَنَبِيْ ذِيَالِ

الدفن واد قريب من مكة ، واللوى منقطع الرمل ، وذروة وادبنى فزارة ، وذيال رملة أخرى ، يقول ان الدفين ، والذروة ، وذبالا ، وهى منازل الاحبة لها آثار ظاهرة ورسوم شاخصة تذكر نامسبق لنا من لذيذ العيش . فيها أناذت لك بفوائح عشرة من فحول شعراء الجاهلية ، وهل خرجت فوائحهم عن آثار الديار ، وفراق المحبوبة ، والتحسر ، والتوجع عليها ، وذكر سهر العين ، ورمدها وشرب الخمر بالقدح ، وهل رأيت الامدارا واحدا داروا جيعافيه ، أو ليست الفوائح يكاد يتحد معها ، وان اختلف مبنائها ، وهل ترى هذه المعانى التى طرقتها فى فوائحهم رافعة رأس الانسانية ، أو بانية لها صرحا ، أو شائدة لها ذكرا ، أو ناظمة لها عقدا ، أو مربية لها أمة ، أو سانة لها قوانين ؟ كلا ، وإنما هى كلمات محدودات فى معان ضئيلات يذكرها الفتى أيام صوته ، ولا تبقى له أيام كهوانه لم تخرج عن مداعبات غراميه ، وأناة شوقيه ، قد يقولها الشاعر تكلفا لا غراما واتباعا لا ابتداعا ، واحتذاء لا ابتداء ، فلمعمرى لقد بهر العرب ، وسحرهم أن سمعوا هذه الفاتحة ، فقبل لهم أيها الناس تبركوا باسم إلهكم الرحمن الرحيم ، ولا تنزلوا الى صفائر الأمور بمدح الملوك وأربؤا بأنفسكم عن ذلك فأجدوا من رفع السماء وبسط الارض ، وأطلبوا منه الهداية .

أقول أيها الذكى اللبيب بمثل هذا فلتعرف البلاغة فى القرآن ، وبهذه الطريقة وأمثالها تزن كلام القرآن وكلام العرب ، وقد مهدت لك الطريق ، وبسطت لك السنن فى البلاغة ، فانظر فى أوائل السور ، وأوائل قصائد الجاهلية مثلا ، وكذلك نمط القرآن فى المعانى والمقال ، ونمط كلام شعرائهم ، وهذا هو النمط الذى جرى عليه العرب فى تعظيمهم القرآن ، ألا ترى كيف يقول بعض سادات قریش ، لما أنطلق إلى رسول الله ﷺ ليفتك به ، فسمعه يقرأ « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول » وكان ذلك فى صلاة المغرب فلم يصبه بأذى ، ورجع إلى قومه ، وقال والله لو كان من كلام العرب لعرفناه ، وان أسنله لمغدق ، وان أعلاه لمثمر ، وانه يعلو ولا يعلى عليه الخ .

وتأمل فى قصة اسلام عمر رضى الله عنه أن رجلا من قریش لقيه فى بعض طرق مكة ، فقال أين تذهب ؟ إنك الصلب القوى فى دينك ، وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك (أى دين الاسلام) قال : وما ذاك ؟ قال أخذك قد صبأت (خرجت عن دينك) فرجع مغضبا فقرع الباب على أخته فدخل عليها ، وقال يا عدوة نفسها قد بلغنى عنك أنك صبأت ، ثم لطمها لكمة شج بها وجهها وأمسك بلحية زوجها سعيد بن زيد وضرب به الأرض ، ولما رأت أخته الدم بكت وغضبت ، وقالت أتضربنى يا عدو الله على أن أوحده الله لقد أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب فما كنت فاعلا فافعل . قال عمر رضى الله عنه فاستحييت حين رأيت الدم فقممت وجلست على السرير وأنا مغضب ، فنظرت فاذا كتاب فى ناحية البيت ، فقبلت أعطونى هذه الصحيفة فأبت

أخته أن تعطيه إياها ، وقالت إنك رجس فاطلق فاغتسل فانه كتاب لا يمسه إلا المطهرون ، فلما اغتسل ناولته الصحيفة ، فاذا فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » . قال عمر ، فلما صررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي ، وجعلت أفكر من أى شيء اشتق ؟ قال : ثم رجعت إلى نفسي وأخذت الصحيفة فاذا فيها « سبح لله ما فى السموات والارض ، وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والارض يحيى ويميت ، وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخِر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم . هو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها » الى قوله « إن كنتم مؤمنين » فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، واطلع على أخرى فوجد فيها « بسم الله الرحمن الرحيم : طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا عن خلق الارض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » قال رضى الله عنه فعظمت فى صدرى ، وقلت من هذا فرّت قریش .

قال مؤلف هذا الكتاب : وأنا أقول من هذا تعرف البلاغة ، وبهذا كان العرب يدركونها فانهم يعرفون الفرق بين قوله * ألهى بصحنك فاصبحينا * وبين قوله تعالى « له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى » وكلاهما فى فاتحة الكلام ، ثم لما بلغ قوله تعالى « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري » قال ما ينبغي لمن يقول هذا أن يعبد غيره ، دلونى على محمد الخ .

ومن ذلك : أنه ﷺ ، ومعه أبو بكر لقي سادات بنى شيبان بن ثعلبة ، وهم مفروق بن عمرو وهانىء ابن قبيصة ، ومثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان مفروق بن عمرو أجملهم وجها وأفصحهم لسانا فعرفهم أبو بكر بشأن رسول الله ﷺ ، فقال مفروق لإمام يدعو ؟ فتقدم رسول الله ﷺ ، وقال « أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله وأن تؤوونى وتنصرونى فان قریشا قد تظاهرت : أى تعاونت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق - والله هو الغنى الجيد » . قال مفروق وإمام تدعو أيضا يا أخا قریش ؟ فقال رسول الله ﷺ « قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقر بوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » قال مفروق ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه ، ثم قال وإمام تدعو أيضا يا أخا قریش ؟ فتلا رسول الله ﷺ « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » ، فقال مفروق : دعوت ، والله الى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم صرفوا عن الحق وكذبوك وظاهروا : أى عاونوا عليك .

آيات العلوم والأخلاق : فى سورة الفاتحة

سورة الفاتحة كلها آيات علوم ، ولنا أن نجعل القسم الثانى منها أخلاقا ، فان الهداية الى الصراط المستقيم وما بعدها تفيد تهذيب النفوس

تفسير سورة البقرة

مدنية ، وهى مائتان وستة وسبعون آية
(تقسيم سورة البقرة الى بابين عظيمين)

الباب الأول

من قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) الى قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) .

وهذا القسم : غلب فيه التوحيد ومحاجة اليهود ، وفيه عشرة مقاصد (الباب الثانى) من قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم) الى آخر السورة ، وغلب فيه الأحكام الشرعية ، وفيه عشرة مقاصد

مقاصد الباب الأول

مدح القرآن . وبشارة المؤمنين . ذم المنافقين والكافرين . ضرب مثلين لحال الطائفتين المؤمنين والمنافقين . نداء عام للناس أن يؤسسوا الايمان على قاعدة النظر فى السموات والارض . كيف بدء الخلق . خلق آدم * وكيف تشير القصة الى قوة الغضب والشهوة وقوة العقل بابليس وحواء والعلم . ذكر بنى اسرائيل . وأنهم ضلوا واتبعوا الشهوات ، وذلك فى فصلين .

الفصل الأول وبه عشرة يواقيت

تذكيرهم بنجاتهم من آل فرعون . فرق البحر لهم . إغراق فرعون . إعطاء التوراة لموسى . توبة الله عليهم بعد الذنب . تظليل الغمام . إزال المن والسلوى . الأعين المنفجرة . تعنتهم وطلبهم الشرف . مسألة البقرة وكيف ظهر بها القاتل .
« تلك عشرة كالة » وهذا آخر يواقيت الفصل الأول من المقصد السابع فى الباب الأول من سورة البقرة .

الفصل الثانى من المقصد السابع من الباب الأول من سورة البقرة

وبه خمسة مقاصد

المحرّفون لكتاب الله منهم وهم العلماء . المنافقون والأذكىاء صرفوا ذكاهم للفسدة . الأميون ، وهم العامة المقلدون . مجمل الآداب المنزلة على بنى اسرائيل وبها سعادة الأمم . تقرّيعهم على هتات ارتكبوها وارتموا فى أوحالها ، وهذا الخامس يشتمل على ١٠ زبرجدات . قتلهم الأنبياء . إشرابهم العجل فى قلوبهم . دعواهم الاختصاص باليوم الآخر . عداوتهم لجبريل . نقضهم للعهود . كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد اعترفوا به . اتباعهم علم السحر . إيذاؤهم للنبي بلفظ راعنا . تأييد النسخ بالحجة وتعنتهم على النبي كما تعنتوا على موسى بقولهم : أرنا الله جهرة . إرادتهم السوء بالمؤمنين ، ودعوى النصارى واليهود أنهم هم الناجون لا غير ثم ذكر المساجد وظلم أهلها الخ .

المقصد الثامن

قصة ابراهيم الخليل واسماعيل و بناء الكعبة بعد ذكر اسحق و بنيه وكأنه هدم اليهودية بنحو عشرين
برهانا ، وأخذ يؤسس الاسلام على قواعد ابراهيم ويذكر بناء الكعبة ، ولم يكن دين اليهودية دين ابراهيم
ولا يعقوب ، ثم دعوة الناس جميعا لدين واحد اتفق عليه الأسيباط وبنو النصرانية والتعميد .

المقصد التاسع

ذكر الله قصص آدم وقصص بنى اسرائيل وهدم اليهودية و بناء الاسلامية عليها بين النداء الأول العام
وبين النداء العام الثاني ، وهو (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق السموات
والأرض) فقد قال أولا (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) ثم أعاد المكررة فأوضحه ، وقال (إن في خلق
السموات والأرض) ليبرهن بعلم الطبيعة .

المقصد العاشر

تقليد الرؤساء والآباء في الدين والحلال والحرام جهلا ، وتقريع المقلدين الغافلين بعد تبين الحقائق الناصعة
فيما تقدم نفيًا وإثباتًا * وهناتم بيان مجمل المقاصد في الجزء الأول ، فلنشرع في تفصيله .

ابتداء التفسير

المقصد الأول

﴿ مدح القرآن وبشارة المؤمنين في قوله عز وجل ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِنْ
قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *

التفسير اللفظي

(أَلَمْ) ستقرأ الكلام عليها وعلى غيرها في أول آل عمران وفي أول كل سورة مبدوءة بمثل هذه الحروف
وسندستوفي الكلام على أسرارها الخاصة بهذه السورة في الملحق

(ذلك الكتاب) القرآن (لا ريب) لا شك (فيه) أنه من عند الله (هدى للمتقين) يهديهم
إلى الحق ، وخص المتقين لأنهم المنتفعون به ، وإن كانت دلالة عامة لكل ناظر (الذين يؤمنون بالغيب)
يصدقون بما غاب عنهم كأمر البعث والحساب (ويقيمون الصلاة) يداومون عليها في مواقيتها بمحدودها

وإتمام أركانها ، وحفظها من أن يقع فيها خلل (ومما رزقناهم ينفقون) أى ومما أعطيناهم من الأموال يتصدقون ويؤدّون زكاة أموالهم (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) كعبد الله بن سلام معطوف على الذين قبله (وبالأخرة هم يوقنون) الايقان : إيقان العلم بانتفاء الشك والشبهة (أولئك على هدى من ربهم) على رشاد ونور واستقامة (وأولئك هم المفلحون) الناجون الفائزون : نجوا من النار وفازوا بالجنة .

يقول عز وجل : إني أرسلت رسولا حكيمًا ، فصيح اللسان كما سترون في هذه السورة من القصص وتأنجها ، والحجج وبدائعها ، والآيات وشرائعها ، وما في هذه الآيات المنزلات الاجل بليغات ، وهى حروف مركبات ال م ، فما منعكم أن تنسجوا على منواله ، وتبنوا مجدا كما بنى ذلك الكتاب يهدى المتقين الذين جمعوا ثلاث صفات . الحكمة والعلم ، واليهما الرضى بالإيمان بالغيب ، وتسخير البدن فى العبادة كالصلاة . وبذل المال مما رزقوا ، ثم خصص طائفة منهم بالذكر تشريفا لهم ، وهم الذين آمنوا بما سبق انزاله من الكتب وما نزل من الدين ، وما سيكون من اليوم الآخر : أى الماضى والحال والاستقبال تلميحاً الى أن الانسان صاحب الدهر ، وعليه النظر فى حقيقة جميع الاشياء .

المقصد الثانى : وفيه غرضان

الغرض الأول : ذم الكافرين ، وتبيان أن فريقا منهم حرموا من الهداية ، وسجل عليهم الحرمان والطرده ، فان أُنذروا أولم يندروا فهم لا يؤمنون ، وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم لا تمتاز عما للحيوان ولا تعالو بهم الى مصاف نوع الانسان فقد طبع على قلوبهم ، فهم لا يفقهون الخير ، وعلى موضع سمعهم فلا يذتفعون بالحق ، وحيل بينهم وبين الانتفاع بما يبصرون : كأن على أعينهم غطية . وهو معنى قوله تعالى .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *

التفسير اللفظى

(إن الذين كفروا) جحدوا وأنكروا (سواء عليهم) أى متساو لديهم (أأنذرتهم) أى خوّفتهم وحذرتهم (أم لم تنذرهم لا يؤمنون) لا يصدقون (ختم الله على قلوبهم) طبع عليها (وعلى سمعهم) أى وختم على موضع سمعهم ، فلا يسمعون الحق ولا يذتفعون به (وعلى أبصارهم غشاوة) غطاء فلا يرون الحق (ولهم عذاب عظيم) شديد فى الآخرة .

الغرض الثانى : بيان حال المنافقين ، وأنهم ذوو باطن وظاهر متناقضين ووجهين مختلفين ، وأطال فى وصفهم وشرح سوء طباعهم وخبث نفوسهم ، وكيف يظهرن مالا يخفون ، ويضمرون مالا يظهرن ، وكيف تسوء عاقبتهم وتخبو نارهم لاعتبار بذلك فلا تقع فيما يحتالون ، فكهم جلب الصديق الملقى اللسان ضررا لا يجلبه الأعداء ، وكهم للعدو من فضل على الصديق المنافق ، وما أقل الصديق وما أكثر المنافقين فى كل زمان وهو .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا
 نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا
 كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ *
 وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
 مُسْتَهْزَءُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا
 الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ *

التفسير اللفظي

(ومن الناس من يقول آمنا بالله) وهم المنافقون : كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه (وباليوم
 الآخر) وبالبعث بعد الموت (وما هم بمؤمنين) في السر ولا مصدقين (يخادعون الله والذين آمنوا وما
 يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)
 الخداع الحيلة والمكر ، والخداع يظهر خلاف ما يبطن ، وهؤلاء يخادعون رسول الله والذين آمنوا ، وضرر
 الخداع راجع إليهم . كما قال تعالى « ولا يحقيق المكر السيئ إلا بأهله » ، والمنمادي في الذنوب المعتاد لها ،
 لا يشعر بذنوبها الكامنة فيه البادية في سائر أحواله ، فهو لاء أصبحوا وقد أكل الحسد قلوبهم وأحاط الجهل
 بها ، فصار ذلك مرضا لازما لها (فزادهم الله مرضا) باعلاء شأن النبي ﷺ وتضاعف النصر وتكرار
 الوحي (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض) بالكفر وتمويق الناس عن دين محمد ﷺ (قالوا إنما نحن
 مصلحون) يعني يقولونه كذبا (ألا) كلمة تنبيه (إنهم هم المفسدون) في الأرض بالكفر (ولكن
 لا يشعرون) لأنهم يظنون أن نفاقهم صلاح (وإذا قيل لهم) أي المنافقين (آمنوا كما آمن الناس) يعني
 المهاجرين والانصار (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) الجهال (ألا إنهم هم السفهاء) الجهال (ولكن
 لا يعلمون) أنهم كذلك (وإذا لقوا الذين آمنوا) كأبي بكر وأصحابه (قالوا آمنا) كإيمانكم (وإذا خلوا)
 أي رجعوا (إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) إنما نحن مستهزون . الله يستهزي بهم ويمددهم في طغيانهم يعمهون
 أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (الشياطين كبار المنافقين ، والمستهزي
 المستخف (الله يستهزي بهم) يجازيهم (ويمددهم) يزيدهم ، والطغيان تجاوز الحد ، والعمه في البصيرة
 كالعمى في البصر (اشتروا الضلالة بالهدى) اختاروها عليه واستبدلوها به ، والربح في الأصل الفضل
 على رأس المال .

(المقصد الثالث)

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي
 ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * ضُمُّ بُكْمٍ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ

ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْمَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ
 بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ
 عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

التفسير اللفظي

(مثلهم) أى مثل المنافقين مع محمد ﷺ (كمثل الذى استوقد نارا) أوقد نارا (فلما أضاءت) أى النار (ماحوه) أى حول المستوقد (ذهب الله بنورهم) جواب لما والضمير للذى ، وجعه للحمل على المعنى : كقوله « وخضتم كالذى خاضوا » (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) الهدى (صم) عن سماع الحق (بكم) خرس عن النطق به (عمى) لا يبصرون لهم (فهم لا يرجعون) عن ضلالهم ونفاقهم (أو كصيب) أى كأصحاب صيب ، وهو المطر (من السماء) من السحاب (فيه) أى الصيب (ظلمات) جمع ظلمة (ورعد) هو الصوت الذى يسمع من السحاب . اقرأ إبطاحه فى سورة الرعد (وبرق يجمعون أصابعهم فى آذانهم) الضمير لأصحاب الصيب (من الصواعق) جمع صاعقة ، وهى قصيفة رعد هائل معها نار ، وهذه المعانى كلها واضحة فى سورة الرعد مثل سابقنها فافقأه هناك (حذر الموت) خوف الهلاك (والله محيط بالكافرين) عالم بهم وجامعهم فى النار (يكاد البرق يخطف أبصارهم) يختلسها (كلما أضاء لهم) البرق (مشوا فيه) فى نوره (وإذا أظلم عليهم قاموا) بتوا فى الظلمة كذلك المنافقون (ولو شاء الله لذهب بسمعهم) بصوت الرعد (وأبصارهم) بوميض البرق (إن الله على كل شىء قدير) أى هو الفاعل لما يشاء اهـ التفسير اللفظي .

هاهنا أنشأ فصلا انتزعه من أصول هذه المشاهدات تخيلا لعقولنا وتدرى على الأمثال وضررها وتشبهها للمعقول بالمحسوس ، مثل حال المنافقين وقد تبوؤوا الاسلام ، وأظهروا الايمان فسعوا فى الحياة بنوره ، وحرموا بعد الموت من ثمره لما أضمرت النفوس من الجهل والعداوة بحال قوم باتوا فى ظلام ، فأوقدوا نارا أضاءت لهم الحالك وأرتهم المسالك وشرحت صدورهم وأنستهم بوجهها الجليل ، ثم خبت نارهم وأظلمت سبلهم وحلك ليلهم ذلك مثلهم .

المثل الثانى : يقول انظر السحاب المعصرات وهى تمطر والظلمات حالكة والرعد يزجر والبرق يخطف . تصور السحاب مظلمة مخيمة فى جوف السماء وقد اكفهر وجهها وأرعدت وأبرقت وأمطرت : ان هذا وصف حال القرآن والكافرين ، فالعلوم فى الكتاب كودق السحاب وتوصيف الكفر والنفاق وذم الأصنام أشبه بالظلمات والحجج العقلية ، والبراهين الطبيعية على صدق الايمان أشبه بالبرق الخاطف للأبصار ، والوعيد والتخويف أشبه شىء بالرعد القاعف ، فكأنما هذا الكتاب مع أولئك المنافقين سحاب نشر ملأته على الأنظار والظلام حالك والرعد يزجر والبرق يومض وهم بين حزن وفرح وخوف وطمع وادبار واقبال وظلام ونور ، وهذا من أعجب الأمثال ، فان سمعوا البراهين العقلية أصغوا اليها وكادت تخطف أبصارهم وتميل عقولهم ، وان سمعوا ذم الأصنام نفروا معرضين كما يفعل أولئك السائرون فى الظلمات اذا برقت لهم بارقة تبعثها ظلمة حالكة .

(المقصد الرابع)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *

التفسير اللفظي

(يا أيها الناس) خطاب لأهل مكة ، ويا أيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة ، وهو هنا خطاب عام لسائر المكلفين (اعبدوا ربكم) وحدوه (الذي خلقكم) من نطفة (والذين من قبلكم) أى وخلق الذين من قبلكم (لعلكم تتقون) أى لكي تتقوا السخطة والعذاب (الذي جعل لكم الأرض فراشا) بساطا (والسما بناء) سقفا مرفوعا (وأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) السحاب (ماء) مطرا (فأخرج به) بالماء (من الثمرات) من ألوان الثمرات (رزقا لكم) وعلفا لدوابكم (فلا تجعلوا لله أندادا) أمثالا (وأنتم تعلمون) بعقولكم أن هذه الأشياء والأمثال لا يصح جعلها أندادا لله (وإن كنتم في ريب) في شك (مما نزلنا على عبدنا) محمد ﷺ (فأتوا بسورة من مثله) أى مثل القرآن ، أو من مثل محمد ﷺ من لم يحسن الكتابة ولم يجالس العلماء (وادعوا شهداءكم) استعينوا بأهلتمكم (من دون الله) من غير الله (إن كنتم صادقين) في مقالكم (فإن لم تفعلوا) فيما مضى (ولن تفعلوا) فيما بقى (فاتقوا النار) فاحشوا النار إن لم تؤمنوا (التي وقودها) حطبها (الناس) الكفار (والحجارة) حجارة الكبريت أو جميع الحجارة (أعدت للكافرين) هيئت لهم (وبشر الذين آمنوا) بمحمد ﷺ (وعملوا الصالحات) الطاعات (أن لهم جنات) بأن لهم بساتين (تجري من تحتها الأنهار) أى من تحت شجرها ومساكنها (كلما رزقوا منها) أى كلما أطمعوا من الجنة (من ثمرة رزقا) أى طعاما (قالوا هذا الذي رزقنا من قبل) في الدنيا

وقيل ان ثمار الجنة متشابهة في الصورة مختلفة في الطعم ، فاذا رزقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الأولى (وأتوا به) بالرزق (وتشابهها) في اللون مختلفا في الطعم ، وهذه الجملة اعتراضية لتقرير ذلك (ولهم فيها) في الجنة (أزواج) حور (مطهرة) من الحيض ونحوه ومن كل دنس (وهم فيها) في الجنة (خالسون) دائمون لا يموتون (ان الله لا يستحي) لا يمنعه الحياء (أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) أى يبين للخلق مثلا في بعوضة فكيف ما فوقها ؟ يعنى الذباب والعنكبوت ، وذلك أن الكفار واليهود كانوا يقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، وكيف يذكر الله هذه الاشياء الخسيسة ، فرد الله عليهم بأنه لا يستحي من ذلك ، وكيف يستحي من ذكر شيء لو اجتمع الخلائق كلهم على تخليقه ماقدروا عليه ، واعلم أيها الدكي أن هذا المقام مشروح موضح بالتصوير الشمسي في آخر سورة الحج ، وهناك ترى أسرار هذه الآية ، وكيف كانت الذبابة وتشريحها موضوع درس في المدارس العظيمة في زماننا ، ومنه استخرج تقسيم أنواع الحيوان فقرأها هناك وأعجب من جلال الله وبدائعها هناك ، وفي سورة العنكبوت وصورها الشمسية وعجائب الخلقة والحكم المودعة فيها ، فهناك هناك ترى عجائب كتابنا المقدس « فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » (فلما الذين آمنوا) بمحمد ﷺ والقرآن (فيعلمون أنه) ضرب المثل (الحق) الصدق الثابت (من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) أى بهذا المثل (يضل به كثيرا) أى من الكفار لانهم يكذبونه فيزدادون به ضلالا (ويهدي به كثيرا) يعنى المؤمنين يصدقونه (وما يضل به) بالمثل (إلا الفاسقين) الكافرين والمنافقين واليهود ، ثم وصفهم فقال (الذين ينقضون عهد الله) أمر الله (من بعد ميثاقه) من بعد عقده وتوكيده (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) نقطع الأرحام والاعراض عن موالاته المؤمنين والفرقة بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والكتب في التصديق وترك الجاعات المفروضة وسائر ما فيه رفض خير فذلك كله قطع الوصلة بين الله وبين العبد (أولئك هم الخاسرون) المغبونون حيث استبدلوا النقص بالوفاء ، والقطع بالوصل ، والفساد بالصالح والعقاب بالثواب ، انتهى التفسير اللفظي الجميل .

إيضاح وتفصيل

قيل المراد بالحجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها ليروا نقيض ما كانوا يتوقعون ، وقوله - هذا الذي رزقنا من قبل - أى ان الثمر الذي في الجنة يشابه الذي كان في الدنيا لأن النفوس تواقه الى ما كانت تألفه ، ولتعلم أن ذلك أقرب لقوله تعالى (ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم) ولذلك أمر الناس بالعبادة ، وضروب الحكمة ليرتقوا الى الدرجات التي تناسب ما رفعوا أنفسهم اليه في الدنيا فتأمل ، وطهارة الأزواج تكون من دنس الطبيعة وسوء الخلق ، وما يستقذر من أحوالهن كالحيض والنفاس كما تقدم .

عجب لهذا النظام ، وما أبدع هذا الترتيب ، انظر كيف ذكر المؤمنين والكافرين ، وأتبعهم بالمنافقين ، وجاء المثان لتصوير حال المنافقين وشرح صورتهم الباطنة بالمشاهدات الطبيعية والعجائب الحكمية في الآفاق وإيضاح تلك المعاني التي خفيت في النفوس بما يماثلها في العالم المشاهد المحس من سحاب وماء وظلام وضياء فلا جرم أن ذلك دعاء حثيث الى تذكار العجائب الكونية وحب ما في العالم من البدائع الخلقية ، ذكر المثليين لتبيان أخلاق المنافقين على نموذج البغاء ، فتأمل كيف أتبعه بما هو المقصود الأتم ، والمنهج الأقوم من علم التوحيد وشرح عجائب الكائنات ، انظر وتعجب كأنه يقول : هاأنذا أبنت لكم سبل ذوى النفاق والكافرين وشرحت حالهم ، وليس ذكرها هو المعنى بذاته ، فلا تضع وقتك في مناوشة الأعداء ، ومقاومة الخصماء وتعال عن تلك الطائفة العمياء ، واسلك سبل الحكماء ، وكأنما المثان وسط متناسب بين المقامين ، مقام نبذ الضالين ، ومقام العلم والفضل المبين ، فقال (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) يقول : اعبدوا ربكم فانه خلقكم

وخلق آباءكم ، وجعل فوقكم سماء تظللكم ، وتحتكم أرضا تغطيكم . وقال لكم ها هوذا سحاب يحيطكم ، وهذه الأرض تنبت وتثمر « ومنها تأكلون » يقول آويتكم الى بيتي فسكنتموه فسمواؤكم مطرة ماء وأرضكم مثمرة ها أنتم أولاء تبنون وتسكنون ، فويل تستطيعون أن تنزلوا من سماءكم ماء عند حاجتكم وأن تنبتوا من حجركم فتأكلون خبزاً وفواكه ، تأكلون من تحت أرجلكم وتشربون من فوق رؤوسكم ، تنظرون فترون الأرض يابسة ، فما أسرع أن تكسى جلايب سندسية ، وتفرش أنماطاً ملونة زبرجدية ، ثم تمدكم بما تأكلون ، وتعطيكم مابه تشفون ، الأرض مهاد لكم عابها تنامون وجمال لكم ولها تنظرون ، وغذاء منها تأكلون ، ودواء وجمال وحسن ونظام ، السماء قبة صافية ذات جلايب زرقاء مرصعة بالدراري الحسان ، والهواء بينهما يحمل الأضواء ، ويزجي السحاب ، ويقدر المطر ، وينزل الودق رحة عظيمة وحكمة عجيبة بهاء وجمال تحوّل لعظمته العقول ، وتخضع لجلالها النفوس ، وتقرّ بأن هذه البدائع لامندوحة لها عن مبدع فطرها ، وحكيم نظمها وإله أتمها (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) أيها الناس أنتم أسرة واحدة أسكنتمكم داري وآويتكم الى فراشي ، وكسوت الأرض لكم حلالاً بهجة للناظرين ، وصبغتها من كل صبغ وزيتها بكل لون وأوسعت لكم الأمد والمدد والبلد ، وجهات سقفكم بهجة أزرق بهيا لطيفا نظيفا لم تبنوه بأيديكم ، أليس من عجب أنه قديم حديث وجديد عتيق لم يتغير منظره ، ولم تقدم جدته ولم تهرم الحسان من نجومه الباهرات وان شاب الزمان وهرم الهرمان ، ومن ذا يتصور سقفا يبنيه بلا بناء ، وينظمه بلا عناء ، ويبقيه بلا فناء ، ويبقى حسنه بلا خفاء ، ألا ان نسبة المخلوق الضعيف للخالق العظيم ، كنسبة عمله الضئيل الى سقف السماء ذات الجلال والصفاء .

فصل آخر في هذه الحكم الكونية

عجب أمر هذا الأسلوب من الكلام مثل للعلم والكفر ، والوعيد بذلك المشل مثل بديع رائع أراك السحاب والقطر والرعد والبرق جعلها مثلاً لما عقلته النفوس وفقهته الفكر ، مشل الأنفس بالآفاق وتعالى على ما نظمه الشعراء في الجاهلية والإسلام ، ألم تر إلى امرئ القيس الجاهلي . وقد ضرب مثلاً لقوة العقاب بقوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا * لدى وكرها العناب والخشف البالي

وحسده بشار حتى قال بيته المشهور :

كأن مثار النقع فوق وعوسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كوا كبه

مثل الغبار . وقد علا تتخلله بيض السيوف بالليل الخالك تتساقط فيه السكواكب ، ولقد جاء من بعده ابن المعتز في نحو القرن الثالث وأبدع فقال :

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا * على الجود كسنا والحواشي على الأرض

يطرزها قوس السحاب بأصفر * على أخضر في أحر تحت مبيض

وصف السحاب بالسواد ، وأنها كست الجوّ وأسبلت حواشها على الأرض . وقد زوّقت تلك الحواشي بقوس قزح ، وكان منه جدد بيض وجر وصفر وخضر وبنفسجي وبرتقال وأزرق ، هذا أحسن ما تخيله قدماء العرب والمحدثون وتبينه المتقدمون والمتأخرون . فأما القرآن فقد امتطى غارب البلاغة وتعالى في الفصاحة وسما إلى مقام لا يصله منطيق ولا يدركه مصقع لبيب ، ألا ترى أن مقالهم في وصف عقاب ، أو خر ، أو شراب ، أو حرب ، أو ضراب ، ولم تحم يوما هذه المعاني الشريفة بعقولهم ، ولم تسم قط اليها نفوسهم رقة المعاني وجزل اللفظ في القرآن وحسن العبارات ، فبئس الأخلاق النفيسة وأبرزها في صورة محسة مشاهدة تهدي

إلى هدى وتدفع عن ردى وترفع أذى وتزيل غمة ، فيالله ما الذى يرفع من هممة انسان من وصف طعام وشراب وسحاب حالك وقت شراب الراح وتعاطى الأقداح ، هاهنا تجلت البلاغة وسطعت شموسها ، ولما كان المثل المذكور مقتبسا من الكون منظوما من المشاهدات معروفا من المحسات ، أخذ فيما بعد ينقل النفس من الخيال الى الحقيقة والوجدان . وقال نحن وان ضربنا لكم الأمثال من الكون فانا وأصفوه لكم لتفقهوه « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » الخ هذه هي العبارة الحكمية ، والآيات العلمية ، والمجائب الخلقية .

بدائع العلم

الأول : روى أن النبي ﷺ . قال عمران بن حصين كم لك من إله ؟ قال عشرة ، قال فمن نعمك وكر بك ودفع الأمر العظيم إذا نزل بك من جاتهم ؟ قال الله ، قال عليه الصلاة والسلام مالك من إله إلا الله الثاني : جاء جماعة من الدهرية لأبي حنيفة رضى الله عنه ، فقال ماتقولون فى خشب قطع من الاشجار بلا نجار ، واجتمع ثم كوّن سفينة تجرى فى البحر ، وهى مشحونة بالاحمال مملوءة من الأثقال قد احتوشها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة ، وهى من بينها تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك فى العقل ؟ قالوا لا : هذا شيء لا يقبله العقل ، فقال أبو حنيفة ياسبحان الله اذا لم يجوز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها ، وتغير أعمالها ، وسعة أطرافها ، وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ فبكوا جميعا ، وقالوا صدقت . الثالث : سأل جماعة من الدهريين الشافعى رضى الله عنه ، ما الدليل على وجود الصانع ؟ فقال ورقة الفرصاد (التوت) طعمها ، ولونها ، وريحها ، وطبعها ، واحد عندكم ؟ قالوا نعم : قال فتأكلها دودة القز فيخرج منها الابر يسم والنحل ، فيخرج منها العسل والشاة ، فيخرج منها البعير ويأكلها الظبي فينعدق فى نوافجها المسك ، فمن الذى جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد فاستحسنوا منه ذلك وأسأموا على يده ، وهم سبعة عشر . قال أبو نواس :

تأمل فى رياض الأرض وانظر * الى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات * وأزهار كما الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات * بأن الله ليس له شريك

الرابع : قال الفيلسوف هربرت سبنسر المتوفى فى بريطانيا مدينة من بلاد الانجليز سنة ١٩٠٣ فى كتابه فى التربية : العلم الطبيعى لا يناقض الدين ، ونقل عن الأستاذ هكسلى ما يأتى [العلم الطبيعى الصحيح والدين الصحيح توأمان اذا انفصل أحدهما من الآخر خراسر يعين وماتا حثف أنفهما] ثم قال سبنسر : متى اتفق العلم والدين نموا نموًا صحيحا ، فالدين ينمو بامتداد جذوره وتغذية أصوله فى رياض العلم الصحيح ، والعلم الصحيح يؤيده الدين ويشد ازره ، فيكون قويًا متينًا .

ألا وان الفلاسفة الذين أثمرت أذهانهم أجل الأثمار ، وأفادوا النوع الانسانى بجميل علومهم انما كان ذلك بياعث دينى بعثهم على التفكير والبحث ، وذلك أخرى من أن ننسبه لتلك الازهان وحدها * ثم قال : من ذا الذى يرى منافاة الدين للعلم ، ألا انما المنافى للدين هو ترك العلم والجهل بما أحاط بنا من المخلوقات * ثم ضرب مثلا ، فقال لو أن الناس أخذت تدمح مؤلفا عظيم الشأن ، على الصيت ، رفيع المنزلة ، وهم لم يفتحوا له كتابا ، ولم يقرءوا له حرفا ، وانما كانوا ينظرون إلى ظواهر شكله ، وتزويق جلدته فما قيمة تلك المدائح ، وما معنى ذلك الثناء انما هذا هراء ، إذا عرفت هذا فالناس جميعا هم هؤلاء المادحون ، والله منظم الكون

والكون تأليفه ، فاعمرى ما أجهلهم حين يثنون عليه ، وهم عن عجائبه معروضون ، وما كفاهم أن صرفت أذهانهم عن المعرفة حتى أخذوا يحقرون من أظهر اهتماما بشأنها وصرف وقته في تحصيلها * ثم قال : لذلك أكرر القول : ان مخالفة الدين ليست بدراسة العلم الطبيعي ، بل هي في تركه والانصراف عنه .

ألا وان التوجه للعلم الطبيعي عبادة صامتة وتسبيح عملي * ثم قال : ان العلم الطبيعي موافق للدين ومقتوله ومؤيد له من جهات كثيرة ، أولا يرى الانسان عالما منظما بحركات ثابتة جارية بقانون لا تتخطاه ، وناموس لا تتعداه ، وهذا النظام يدل على قوة وراءه وحكمة أبدعته وسوته أحسن تسوية .

العلم الطبيعي يعرفنا سبب الكائنات معرفة صحيحة ، ويعرفنا أن النتائج تتبع المقدمات والمسببات الأسباب وأن العقاب والثواب مرتبطان بالأعمال ارتباط المسببات بالأسباب فيوقن الطالب ايقانا تاما بهما ، وان ذلك ارتقاء في معارج الكمال والسعادة العليا .

والعلم الطبيعي يعرفنا أن لنا حدا محدودا لا نتجاوزه في العلم ، فلا نتخطى الى معرفة السبب الأول وحقيقته ، فالعلم لا يستبد بنا في تعريفنا صانع الكائنات ، ولكنه يهدينا الى الحدرد التي لا نتجاوزها ونقف دونها ، فلا نصل الى كنهه ومعرفة حقيقته .

ان هذا العلم يرفعنا عن الوقوف أمام التقاليد الموروثة الخرافية ، ولكننا عند ما نصل الى حدود المحيط العامى الذى وراءه ذلك السبب الأول ، وهو صانع الكون أقررنا بالتواضع ورجعنا بخفي حنين .

ثم قال : وإياك أن تظن أن عالم الطبيعة من يعرف التحليل الكيماوى أو يقرأ الهندسة ، وانما نعى به ذلك العالم الذى يتخذ أسافل الحقائق سلما لأعاليها حتى يباغ الحقيقة العليا ، ومن ذاسواه يعرف الهوة السحيقة الفاصلة ما بين ذلك الصانع الحكيم الذى جعل الطبيعة ، والحياة والعقل من مظاهر ذاته ، وبين العقل آدمى والفكر الانسانى ، ان الفرق لعظيم اه باختصار .

أقول : أيها الفطن اللبيب ، اعلم أنى عند كتابة هذا الموضوع فى هذه الأسطر كنت أشعر بالم فى النفس وأسف واعترتنى دهشة ما كنت أشعر بها واحتاجت أعصابى ، وقلت فى نفسى ياليت شعرى : أى الفريقين أحق بالشكوى والأسف ، أنحن أم فلاسفة الانجليز كالعلامة سبنسر الذى نحن بصدد الكلام فيه ، يقول ان أقوالا يزدرون المبتهجين بالمعارف الطبيعية ولا يعبئون بها فهم يصدون عن سبيل الهدى وهم لا يهتدون يقول هذا شا كيا بائسا ، ولئن شكا مرة لأشكون ألفا كيف لا ؟ وأمتة عالمة ، وأمتى جاهلة ، وأمتة حاكمة ، وأمتى محكومة ، وأمتة قوية ، وأمتى ضعيفة ، وأمتة راقية فى التجارة ، والصناعة ، والزراعة ، والامارة ، والسلاح ، والكراع ، وأمتى على نقىض ذلك ، فهو يشكو أمتة طالبا المزيد ، وأنا أشكو لضعفها وأنا أشكو لأن أنا أحق بالجد والتشمير لذلك يشكو ، ودينه المسيحى لم يكن مؤسس القواعد على الطبيعة ، وأنا أشكو لأن دين الاسلام مبناه الفطرة وعماده دلائل المخالقات الطبيعية ، خالفنا الدين والعلم فكنا أول فريسة للقانصين .

مالى أرى أمة الاسلام نائمة مالى أرى سفيتها تجرى بلا ملاح ، أيجوز فى دين المروءة ، ومنهج العقل أن يسبقنا الفرنجة بذلك ، والعلم عامنا ، والدين ديننا ، ومن أعجب العجائب بل من أبكا المبكيات أن كثيرا من الشبان يحقرن الديانات اتباعا لسبنسر ، ويقولون أنه ينكر الله أو ليس مما يذيب القلب ويوقع الأسى فى النفس أن بعض الشبان يجهلون العلوم التى عند الفرنجة ويدعون أنهم بها عالمون يدعون أنهم قرءوا مذهب سبنسر ، ومذهب داروين : وهم كاذبون فيما يدعون ، فوالله ما أغرانى بقراءة الكتب الانجليزية الا مارأيت من دعوى هؤلاء الجهال .

يقول سبنسر العلم الصحيح والدين توأمان ، أوليس هو دين الاسلام ، أوليس قوله تعالى فيما نحن بصدد

« يأيتها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم » ، ثم شرح الارض والسماء وجاهاهما (علم الطبيعة)
أو ليس دين الاسلام هو هذا العلم

يا أمة الاسلام ألهذا الحد وصل جهلنا بديننا انى أرفع صوتى أمامكم أيها المسلمون ، وأقول : أبعد تجارب
ألف وثلاثمائة سنة نكون أجهل الأمم بالدين ونجتزئ بعلم التوحيد ، وتلك الحكامات الجدلية فيه ، وهى
- لا تسمن ولا تغنى من جوع - ولقد وضعت لغرض خاص ، فكيف تكون للعموم .

أيها المسلمون : ان الخزى الذى حاق بنا ، والسوء الذى أحاط بنا انما منشؤه جهلنا فى القرون الاخيرة ،
ويقول سبنسر : ان الدين هو السبب فى سوق النفوس الى علم الطبيعة ، فباللحج انى قرأت التوراة والانجيل
فلم أجد فيهما من علوم الطبيعة الا آثارا ضئيلة منحرفة ، والقرآن هو الذى يأمر بالطبيعة وفهمها ، فاذا كان
الدين الذى لاعلم فيه يصبح غنيا بالفلاسفة والحكام فما بالك بالقرآن الذى لو علم حق عامه لكان أكثر أتباعه
ربانيين منهم أكابر الحكماء ، أفلا ينبغي أن يكون أكثر العقول الكبيرة من أتباعه ، أو ليس قوله تعالى « ألم
تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها
وغرايب سود » الى قوله « إنما يخشى الله من عباده العلماء » يشير إلى المعنى الذى قاله سبنسر : وأن علم
الطبيعة به تكون العقول الكبيرة الناضرة فى الماء ، والأشجار ، والثمار ، والجبال ، واختلاف الألوان
فتخشى الله وأولئك هم العلماء ، أفليس هذا هو دين الاسلام .

وأما المثل الذى ضربه سبنسر بالمؤلف ومدح الناس له مع جهلهم بما فى الكتاب ، فلقد رأيت نظيره فى
كتب أسلافنا ، كقول بعض القدماء فى إخوان الصفاء مامعناه : العلوم التى نقرؤها أربعة : كتاب الله ، وكتاب
الطبيعة ، وكتب الحكماء ، وكتاب النفس الانسانية ، ومعرفة عجائبها .

وأما تحجبه من اعراض الناس عن العلم وعجائب الطبيعة فذلك كثير فى القرآن ، كقوله تعالى « وكم
من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » .

وأما قوله ان العلم الطبيعى عبادة صامتة ، فاعلم أن هذا هو الذى عليه مدار الاسلام ، كقوله عليه الصلاة
والسلام « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » وجاء فى حديث أن النبى ﷺ قال « لقد أنزلت على الليلة
آية ويل لمن قرأها ولم يتدبرها ويل له ويل له ، ثم قرأ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل
والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء » الآية ، واعلم أن هذه
الآية كانت السبب فى محبتي بحث الطبيعة ، وإنى وجهت وجهى لتلقائها فى أوائل أيام تعليمى ، ولو لم أطلع
عليها ما توجهت هذا التوجه منذ أيام الشباب .

وأما قوله : العلم الطبيعى مقول للدين والدين مقوله ، فاعلم أن الامام الغزالى يقول الدين دواء والعلم غذاء ،
وليس الدواء بمغن عن الغذاء ولا الغذاء بمغن عن الدواء .

وأما قوله ان علم الطبيعة يعرفنا بلا استبداد أن لنا حدا لا نتجاوزه ، فلا نصلى الى معرفة صانع العالم
وحقيقته فهو الذى ورد فى الحديث « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فان التفكير فى ذات
الله اشراك » وورد أيضا أنه ﷺ قال « إن الشيطان ليقول لأحدكم من خلقك ؟ فيقول الله ، فيقول ومن
خلق الله ، فاذا قال ذلك فليقل أحدكم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لا يعرف الله إلا الله » .

حكاية

سألنى تلميذ وأنا مدرس بالمدرسة الخديوية ، فقال وفى يده كتاب انجلىزى ان سبنسر ينسكرك الله ، فقلت
أسمعنى قوله ، فقال يقول : ان الله إما أن يكون خلق نفسه وإما أن لا يخلقه أحد ، فان كان الأول فهو

مستحيل لأن الشيء يكون منقلاً على نفسه وهو باطل ، وأما الثاني فباطل أيضاً لأنه لا موجود بلا موجد ، فقلت أو تظن أن هذا كفر ؟ قال نعم ، قلت كاذب »

واعلم يا بني أن هذا شذرة من أقوال علمائنا ، بل قطرة من بحر وذرة من جبل ، فقد حققوا هذا المقام وأنفروا فيه جهدهم ، فلقد برعوا في المباحث العقلية كما برع الفرنجة في الصناعات الحربية الآن ، ألا ترى ما قرروه أن المعلومات التي تصل لنا لا تكون إلا من طرق أربع : طريق الحواس كالسمع والبصر ، وطريق ما ندركه من أبداننا بالوجدان ، كالآلم والمذاة ، والجوع والعطش ، والفرح والحزن ، والغضب والحقد والابتهاج ، وطريق العقل كالعلم ، بأنه إذا زيد على شيئين متساويين شيئين غير متساويين فالجموعان يكونان غير متساويين ، وكذلك إذا نقص من المتساويين شيئين غير متساويين ، فالباقيان يكونان غير متساويين ، والطريق الرابع ما ندركه مستنتجاً بطريق المنطق من هذه الثلاثة ، فهذه الطرق الأربعة هي التي لا علم للبشر بالتحقيق إلا منها ، وهنا يقال كيف عرف الناس الله ، أذاته تعالى عرفوا ، أم وجوده ، أم سائر صفاته ؟ وبالتحقيق أنه لم يعرف الناس إلا أنه موجود أولاً ، وأنه دائم الوجود ثانياً ، وأنه منزّه عن المادة وجميع الحوادث ، وهي المسماة صفات الجلال ثالثاً ، وأنه متصف بصفات الإكرام ، وهي صفات المعاني كالقدرة والارادة والعلم الخ هذه هي الصفات التي عرفها الإنسان بالطرق المتقدمة ، أما معرفتهم ذاته فذلك أمر غائب عن العقول لا يتبيها لها الوصول إليه ، وليس ذلك بداخل في الطرق المتقدمة الأربعة للمعرفة فلا هي بطريق حواسنا ولا وجداننا ولا البديهيّات ولا ما يستنتج منها ، وهذه هي الطرق التي بها سائر العلوم والكشف والاختراع ، فأما ذات الله فلا تعرف بواحد منها .

وقالوا أيضاً إن المعرفة على قسمين : معرفة ذاتية ، ومعرفة عرضية ، فإذا رأينا تمثلاً هندسياً منظماً متقناً جميل المنظر حسن الشكل بهيئة الطلعة حصلت لنا هنا معرفتان : معرفة ذاتية ومعرفة عرضية ، أما المعرفة الذاتية فانا نقول هذا اللون ، وهذا المقدار ، وهذا الشكل التي نظرناها بأنفسنا ، وهذه النعومة ، وهذه الخشونة ، وهذا الثقل ، وهذه الخفة التي لمسناها بأيدينا كلها حقائقي ذاتية فانه لاحقيقة للون ولا للمقدار ، ولا للشكل ، ولا للنعومة ، ولا للثقل ، ولا للخفة ، إلا هذا الذي أدركناه ، وأما المعرفة العرضية فانا نقول هذا الشكل الجميل لابد أن يكون له فاعل وعامله وقدرته على مقدار ما برز لنا في صفاته المشاهدة فهذه معرفة عرضية فانا لا ندري ذات ذلك الصانع ولا طوله ولا عرضه ولا أوصافه الظاهرية والباطنية ولا طباعه ، وإنما نعرف منه على مقدار ما وصل إلينا من ذلك التمثال فمعرفة الله لنا من القليل العرضي ، وليس من الذاتي (هذه أقوال علمائنا رجعهم الله في إثباتهم العجز عن إدراك ذات الله تعالى) وهكذا ورد عن رسول الله ﷺ قال وكيف ذلك ؟ قلت لأن النبي ﷺ يقول اللهم اني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ومعنى هذا لا يعرف قدرك إلا أنت ، فكيف يمكنني أن أعرف صفاتك ، بل أنت الذي تعرفها ، فيكون منك الثناء وإليك يعود : وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه « العجز عن الإدراك إدراك » وأما قول سبنسر العالم الطبيعي ليس من يعرف التحليل والهندسة الخ ، وإنما هو من يرتقي في الأسباب فقصده بذلك العلم الأعلى في فنّ الفلسفة الذي حرمت منه الأمة الإسلامية نزاع الطلاب وتاهوا في بيداء الجهالة لأنهم قرءوا قشوراً من العلوم الجزئية وجهلوا العلم السكّليّ أو العلم الأعلى الذي يبحث في سائر العلوم وهي تستمد منه . وقال القسداخي من علمائنا إن قراءة العلوم الجزئية تورث الضلال ، فأما قراءة العلوم السكّلية فانها تعرف الإنسان ربه ، وقالوا أيضاً في قوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » إن مرتبة

الملائكة في العلم بعد الله ، ويلهم أولو العلم الذين يعرفون نظام هذا العالم المتقن لمعرفة حقيقة هذه الصنعة وتركيبتها وانها مسيرة بنظام متقن .

واعلم أن العلم المنتشر في مدارسنا المصرية مبستر منتشر لا يهتدى الطالب ولا ينير المسالك بخلاؤه من العلم الأعلى ، فتأمل وتجب من أمة الاسلام النائمة . وقد آن أن تقوم من نوبتها وتستيقظ من غفلتها ، وأما قول سينسر : ان الثواب والعقاب نتائج للأعمال ونظام الطبيعة يعرفنا ذلك ، فقد شرجه أكارعنا كالفراخ ، فما قال في ذلك ما معناه : إياك أن تقول ان الله يغفر لي ، وإنما الثواب والعقاب نتائج لا بد من حصولها ، ولكن المسامون في مشارق الأرض ومقاربها نائمون ، اللهم اهد أمتنا وأيقظها من غفلتها انك أنت السميع العليم .

وإنما أطلت في هذا المقام لنعلم أن أكثر الشان المتعلمين في ديار الاسلام لم يبقوا مع العامة مقلدين ولا هم من الحكماء المحققين ، وإنما هم في وسط الطريق ، فلا إلى العلو وصلوا ، ولا إلى أسفل نزلوا فما أحراهم أن يهكنوا على العلوم حتى تطمئن نفوسهم وترتقى مدنهم ويتم نظامهم وتكرن أمتهم من الأمم العظيمة القوية المتينة بهذا أمرنا الله بقوله « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم » إلى آخر الآية . ولما فرغ سبحانه من وصف الأرض والثمار والعجائب التي ذكرها والحكم التي صورها أخذ يذم الأصنام وينهى عن عبادتها .

تفصيل الكلام على الأنداد وعبادة الأصنام

أريد في هذا المقام أن أشرح بقول وجيز مسألة الأصنام وعبادتها كما شرحت في أواخر سورة الفاتحة البلاغة ومقارنة القرآن بكلام العرب وكما ستري في تفسير قوله « وأتوا به متشابهها » مسألة الجنة والنار ومراتب السعداء ومسألة ترتيب النجوم في عصرنا عند قوله « سبع سموات » ومسألة نفس الانسان وجسمه عند قوله « خليفة » والكلام على الملائكة ، وهل هم يثبتون بالعقل أم يكتفى فيهم بالنقل بمناسبة قوله « وإذا قال ربك للملائكة » حتى اذا طال الأجل ووصلنا في التفسير إلى آيات أخرى في هذه المعاني أشرنا إلى الرجوع إلى ما ذكرهنا ليقول التكرار وليقف القارئ على عجائب العلم وغرائب الحكمة في غضون التفسير والله يهدي من يشاء الى الصراط السوي ، فلنشرع في موضوع الأوثان فنقول : لألخص لك ما عثرت عليه في هذا المقام قديما وحديثا حتى لا يشذ عنك شيء منها وتطلع على آراء الأمم والأجيال الغابرة والحاضرة . اعلم أن عبادة الأوثان قديمة العهد بعيدة المدى درجت عليها الأمم البائدة واتبعتها الحاضرة ، وأنت لو سرت في بلاد الصين واليابان والهند لرأيت الأوثان مائة أمامك معبودة ، والناس حولها ملتفون عابدون خاشعون حامدون راكعون ساجدون ، وأنت ترى أن أهل الصين قوم فيهم العلماء والحكماء قديما وحديثا وهكذا الهند ، وإذا أبيت إلا المدنية الحديثة والنموغ في فنون القتال والحرب وجندلة الأبطال وغلبة الأمم والتفوق في الحرب ، فهناك أمة اليابان عابدة الأصنام كثيرة التماثيل ، تلك الأمة التي تعبد إلهاله جوادان عابدين يركب ذلك الاله جاثمان دائما بادارة المعبد بجوار تماثله ، وهذان الجوادان من أسعده الحظ وقدم إليهما قبضة من شعير يوم خروجهما في الأوقات المعلومة ، فقد نال حظا عظيما لأنه قبلت هديته جواد الاله ، هذا مثل من أمثال عبادة الأوثان ببلاد اليابان اليوم . وهنا يقال هل يعقل أن أسرا تأباه الفطرة وينقضه العقل وهو بدهي البطلان يبقى مع طول الزمان وفناء الأجيال ويعمر في الأرض ويبقى هكذا الى يوم العرض : هل يعقل أن يكون هذا الانسان قد باع من البلاغة حدا : بحيث لا يعرف أن هذا الحجر الذي نحت أمامي من الجبل لم يخلق السموات والأرض وما بينهما ولم يخلق أنفسنا ونحن الذين أوجدناه وهندسناه وأبرزناه .

ان العقل يأبى أن يصدق أن هذه الأمم العظيمة الكبيرة الحكيم عالمائها تبقى مخدوعة هكذا : آلافا وآلافا من السنين ، إذن لابد أن يكون هناك أصول رجعت اليها وعوامل عوّلت عليها وأحوال فقّهتها حتى بقيت تلك الديانات فيها ، وهل يدوم مالا أصل له ؟ وهل الخداع له ثبات ؟ ، فلا ذكر ما عثرت عليه للجواب على هذا ، فأقول : يقول الامام الرازي : انه لم يكن في الأرض أمة تقول ان لله شريكا يساويه في الوجود والقدرة والعلم والحكمة ، وهذا مما لم يوجد إلى الآن ، ولكن الثنوية يثبتون إلهين : أحدهما حلیم يفعل الخير ، والآخر سفيه يفعل الشر ، وأما اتخاذ معبود سوى الله ففي الذاهبين إلى ذلك كثرة اه ، وها أنا ذا ألخصها لك ، فأقول :

أولا : من الأمم من مات عندها العظيم الجليل القدر الكبير المنزلة ، وقد اعتقدوا فيه أنه مجاب الدعوة فعبدوه ليشفع لهم عند الله وعكفوا على قبره ، ثم اتخذوا له تمثالا ، ثم مضت الأجيال تلو الأجيال ، فصار معبودا ، وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم فهم دائبون على عبادته ، فانظر كيف كان أصله أنه آدمي مجاب الدعوة ، ثم انتهى الأمر بأن نسوا الأصل فهم ضالون .

ثانيا : ان الصابئين كانوا يرون أن الله عز وجل خلق ملائكة مجردة عن المادة ، وهي المتصرفنة في العالم ، وهذه الملائكة هي المسيرة للكواكب ، والكواكب مؤثرة في الأرض وأهلها ، وقالوا ان الشمس والقمر والكواكب ترسل أشعتها إلى الأرض وأهلها ، وبها الحياة ، ولولا ضوء الشمس ما عاش حيوان ولا نبات على الأرض والكواكب الأخرى تساعد في ذلك ، وزعموا أن السعد والنحس للأشخاص تابعان لتلك الكواكب ، كما أن حياة الحيوان والنبات تابعة لضوء الشمس واشراقها على الأرض ، وهذه الأجرام الثلاثة المشرقة يحركها ويتصرف فيها الملائكة فعبدوهم ليكونوا شفعاء عند الله ، ولما طال الأمد عبدوا نفس الكوكب الذي هو كجسم والملك روحه ، ثم لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم صوّروا للكوكب صورا على حسب ما تخيلوه لها من النعوت والأوصاف ، وهي الأصنام ، فعبدوها لتكون واسطة بسبب المناسبة بينها وبين الكواكب ، والكواكب واسطة للملك ، والملك واسطة لله ، ثم لما طال الأمد نسوا الكواكب وعبدوا نفس الصنم ولهم أبحرة خاصة واستحمامات ودعوات وملابس ، حتى أن حفلات (الزار) المعروفة في مصر إنما هي صورة محورة من صوردين : الصابئين ، وهذه الطائفة تقول ان البشر لن يكونوا واسطة بين الله وخالقه ، وينكرون الأنبياء ويقولون لا واسطة إلا الملائكة ، ويقولون انهم أفضل من البشر لتجردهم عن المادة ، وهناك محاورة بين هؤلاء ، وأتباع الأنبياء مذكورة في كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، وختم القول فيها بفضل الأنبياء على الملائكة ، لأنهم جمعوا بين القوة الروحية والقوة الجسمية ، ومن جمع بين فضيلتين أفضل ممن له واحدة ، ولقد كان لقدماء المصريين من الأوثان والأصنام ما يضرب به المثل بين الأمم ، ولقد كانوا يقولون ان الله هو الواحد الحق ، ورتبوا العالم بعده مراتب ، فالمادة لها عدد ٢ وزحل ٣ والمشتري ٤ والمريخ له عدد ٥ والشمس لها عدد ٦ والزهرة لها عدد ٧ وعطارد له ٨ والقمر له ٩ ، وقد كانوا يجعلون لها مربعات يكتبونها في صفايح من ذهب في أوقات خاصة لمنافع زعموا أنهم ينالونها ، وتلك المربعات ناشئة من ضرب العدد في نفسه ، فالله واحد مربعه ١ ، والمادة ٢ مربعها ٤ ، وزحل مربعه ٩ ، والمشتري ١٦ ، وهكذا إلى القمر ٨١ ، وكل هذه لها حساب بديع مربعات يكون طول أضلاعها الأتقية والرأسية والقطرية متساوية ، وهذه لعمر كعبادة يتقربون بها إلى الكواكب ، وان أردت الاطلاع على ذلك الحساب البديع فعليك بكتاب خواص الأعداد للرحوم علي مبارك باشا ، وهذا العلم نقله فيثاغورث وأدهشه عجائب خواص الأعداد ، فقال ان العبد أصل العالم .

ثالثا : دين التثليث . كان القدماء من الفلاسفة اليونانيين الذين نقل عنهم علماء الاسكندرية بعد المسيح واتصل بأسلافنا العرب يقولون : ان الله خلق العقل الأول ، لأنه لا يليق بالجرّد عن المادّة أن يخلق إلا ما هو أقرب اليه ، وبواسطة العقل الأول خلق الله النفس ، والنفس بها تحركت الكواكب ونظمت الطبيعة وكانت نفوسنا أشعة من تلك النفس ، ولذلك تراهم دائما يقولون : الله العقل النفس .

قال العلامة [دوان] كان القسيسون في هيكل ممفيس يقولون للتلاميذ أن الله الأول خلق الثاني ، والثاني مع الأول خلقا الثالث ، وكانون يسمون الثاني [الكلمة] المعبر عنها بالعقل عند الفلاسفة ، ولما سأل الملك تولسيو ملك مصر الكاهن تنيشوكي أن يخبره هل كان قبله أحد أعظم منه ؟ أو يكون بعده أحد أعظم منه قال له الله ، ثم الكلمة وهما روح القدس ، وهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بالذات ، وعندهم صدرت القوة الأبدية ، فذهب يافاني يا صاحب الحياة القصيرة ، والآلهة الثلاثة الهندية هم برهمه ، وفشنو وسيفا ، ويقولون لما أراد برهمه [خالق الوجود الذي لا شكل له ولا تؤثر فيه الصفات] أن يخلق الخلق اتخذ صفة الفعل وصار [برهمه الخالق] ، ثم زاد في العمل فانقلب إلى الصفة الثانية ، فكان فشنو [الحافظ] ثم انقلب إلى الصفة الثالثة فصار سيفا : أي المهلك ، ويسمونها [ترى مورتى] الأقانيم الثلاثة ويشبهونها بالنار ، وفشنو هو الابن ، وسيفا المهلك ، والمعيد وهو روح القدس ، وقد اطلعت في بعض الكتب على صورة هذا التثليث منقولاً من كتاب العلامة موريس في آثار الهند القديمة ، وقال لقد وجدنا بأنقاض هيكل قديم دكته مرور القرون صمما له ثلاثة رؤوس على جسد واحد ، والمقصود منه التعبير عن الثالوث ، وهكذا نجد عند البوذيين ثالوثا ، فانهم يقولون بوذا مثلث الأقانيم ، والصينيون يعبدون بوذا ويقولون مثلث الأقانيم ، ويرمزون للثلاثة بهذه الحروف الثلاثة [أوم] فلهزمة أولها والميم آخرها من أقصى الخلق إلى الشفتين ، فهؤلاء هم الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهكذا تعبر الهند بنفس هذه الحروف عن برهمه ، وسيفا ، وفشنو ، وقد جاء في الكتب الصينية الدينية أن أصل كل شيء واحد ، وهذا الواحد الذي هو أصل الوجود اضطر إلى إيجاد ثان ، والأول والثاني انبثق منهما ثالث ، ومن هذه الثلاثة صدر كل شيء ، وهذا القول بالتوليد والانبثاق أدهش العلامة موريس ، لأن قائله وثني ، ولقد تنزل الهندو بتثليثهم إلى درجة مخجلة مخزية ، فقد رأيت لهم صورة هيكل مقدّس كشف حديثا مثلث يمثل برهما وهو بحالة الذكورة والأنوثة معا وعلامة التأنيث وبعبارة أوضح عضو التأنيث مع التناسل يفيد قوة الإيجاد ، وأنه خالق الأشياء فانظر كيف تنزلت الثلاثة عند بعضهم من رفيع مقام العقل والنفس إلى ماتباشره الأنعام ، ويقولون ان هذا الثالوث المقدّس حاضر في كل مكان بالروح والقدرة .

وقد وجد التثليث أيضا عند الفرس القدماء . قال العلامة هيجن : كان الفرس يدعون متروسا [الكلمة] والوسيط والمخلص ، وكان القدماء من اليونان يقولون ان الله مثلث الأقانيم ، وهذا التعليم الثالوثي أصله من مصر وقال مؤلف كتاب [الخرافات ومخترعوها] كان الرومان يعتقدون التثليث قبل المسيح .

وقال العلامة [نيت] هكذا وجد سكان الجزائر في الأوقيانوس والمكسيكيون الذين ظلمهم الاسبان فغرقوا كتبهم كان لهم دين يثبت ثلاثة آلهة : الأب والابن والروح القدس والابن اسمه [با كاب] مولود من عذراء وصنمهم المعبود يمثل ذلك ، وأهالي النيبال يعبدون إلهها اسمه [اندرا] وهو كان مصابوا كما صلب المسيح وسفك دمه بالصلب وثقب بالمسامير كي يخلص البشر من ذنوبهم ، وصورة الصلب في كتبهم [أقول] وقد رأيت صورتها في بعض الكتب المنقولة ، ويقول المصريون أوسيريس مخلص الناس وبإخلاصه يقتل ، ويسمى الولد والفادي والولد الوحيد ، وكان قدماء اليونان يقولون ان الله مثلث الأقانيم ، وكان القسيسون

يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ، وكان الفرس يعبدون إلهامثلث الاقائيم مثل الهند ، وهم أورموزد ، ومترات ، واهرمان . فأورموزد الخلاق ، ومترات ابن الله المخلص والوسيط ، واهرمان المهلك ، وسكان سيديريا القدماء كانوا يعبدون ثلاثة آلهة ، فالأول خالق كل شيء والثاني إله الجنود ، والثالث روح المحبة السماوية .

وكل هذه الديانات قائمة بأوثان وأصنام . وأنت ترى أن هذه الوثنية قسمان : قسم يرجع لعبادة الملائكة فالسكواكب فالأصنام ، وقسم يرجع الى عبادة ثلاثة اتحدت فصارت واحدا ، ولها قوة الخلق والحفظ والاهلاك والاعادة ، وهذا هو القسم الذي تنوع حتى ملأ الكرة الأرضية فتراه في الصين والهند وأوروبا بصور مختلفة وأحوال متباينة ، وكل يقول إني أعبد الخالق ، فتبين أن سائر الناس جعلوا الأوثان والأصنام من الوسائط لعبادة الله تعالى ، وهذا معنى قوله تعالى على لسان الكفار « مانعبدكم إلا ليقرّبونا الى الله زلفى » ، ولكن جاء في القرآن ما يفيد يا أيها الناس انكم تقيّدون أنفسكم وتكونون عبيد الأصنام أرقاء الأوهام ، فكونوا أحرارا والأرض لله ، والله معكم أينما كنتم ، فلا تتقيّدوا بصنم ولا حجر ولا تمثال ولا وثن ولكن انظروا [الى السماء كيف رفعت الى الأرض كيف سطحت ، اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم] فانظروا في هذا الجلال وفيه من الصور والتماثيل وأنواع الجبال الدال على قدرتي وعلمي وحكمتي ولا تكونوا مقيدين بتلك التماثيل التي صنعها البشر فان جاهلها ضئيل بجانب الجبال الذي أبدعته في سمواتي وأرضي والجبال التي عليها والجمال الباهر في محاسن الصور المنقوشة في زينتها تبصرة لكم وتذكرة لأولى الألباب « فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » .

الأصنام عند العرب الذين نزل بلغتهم القرآن

يقال ان عمرو بن لحي لما ساد قومه ورأسهم وولى أمر البيت الحرام اتفقت له سفرة الى البلقاء ، فرأى قوما يعبدون الأصنام ، فسألهم عنها ، فقالوا هذه أرباب نستنصر بها فتصيرنا ونستسقي بها فنسقي ، فالتمس اليهم أن يكرموا بواحد منها ، فأعطوه الصنم المعروف (بهبل) فسار به الى مكة ووضعوه في الكعبة ودعا الناس الى تعظيمه ، وذلك في أول ملك سابور ذي الأكتاف ، ومن بيوت الأصنام المشهور غمدان الذي بناه الضحّاك على اسم الزهرة بمدينة صنعاء وخرّبه عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومنها نوبهار بلخ الذي بناه منوشهر الملك على اسم القمر ، وكان لقبائل العرب أوثان معروفة : مثل ودّ بدومة الجندل لسكاب ، وسواع لبني هذيل ويعوث لبني مذحج ، ويعوق لهمدان ، ونسر بأرض حيرلذي الكلّاج ، واللات بالطائف لثقيف ، ومناة بيشرب للخزرج ، والهزى لكتانة بنواحي مكة ، واساف ونائلة على الصفا والمروة ، وكان قصي جدّ رسول الله ﷺ ينهّاهم عن عبادتها ويدعوهم الى عبادة الله تعالى ، وكذلك زيد بن عمرو بن نفيل ، وهو الذي يقول :

أربا واحدا أم ألف رب * أدين اذا تقسمت الأمور

تركت اللات والعزى جميعا * كذلك يفعل الرجل الخبير

والله فوق الجميع المحيط بالعالمين علما يخاطب الناس بقوله (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) . ولما لم يكن عند المعاندين من العقل والمعرفة ما به يعرفون نظام هذا العالم ، ويدركون أن الأصنام لا تستحق العبادة أخذ يصف لهم ما جاء به على لسان الرسول من البلاغة ، ويتحدى بما يعجزهم ، كأنه يقول : اذا عجّزتم عن إدراك ما أبدعته في الأرض والسماء ، ولم تبلغ عقولكم كنهه ، وغلبت عليكم الجهالة

ولم تفهموا إلا ما دار في أُنديتكم : من أحاديث البلاغة ، وآيات الفصاحة ؟ فاسمعوا لهذا القرآن والا فأتوا بمثله ، فلما عجزوا أوعدهم بالنار ، ووعد المتقين بالجنة ، وأخذ يصف نعيمها ، وحورها ، وجمالها ، وبهاءها ، وثمارها من بعد ما قدم وصف العالم الديوى إيماء الى أن علم الحكمة يدعو الى النجاة ، ولا يرقى الى عابيين إلا من نظر في خلق العالمين :

فقال (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) فتحرق الأصنام معهم في جهنم نكابة بهم ، وإذلالا لنفوسهم ، وتخيبا لآمالهم ، فقد كانوا يظنون أنها تشفع لهم ، نخب فآلمهم وضلّ سعيهم ، وهذه هي الحسرات (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل) أى ان الثمر الذى فى الجنة يشابه الذى كان فى الدنيا لأن النفوس توافقه الى ما كانت تألفه ، وذلك أقرب الى نظم القرآن ونسقه ، والى علم الحكمة ، وفى هذه الآية مفتاح لعلوم الآخرة ، وأنها نتائج الدنيا والنتائج تتبع المقدمات ، فإذا كانت الثمرات التى يتناولها أهل الجنة أشبه بما كانوا يتعاطونه فى الدنيا ليأنسوا به ، وليستلذوا بتناوله ، وليكون لهم نعيما وبهجة ، فذلك نموذج لما فى الآخرة والأولى من التناسب والتوافق والتشابه ، وبيانه أنا نرى أن درجات الانسان فى حياته متناسبة متشابهة فدور الصبا يتبعه الشباب ، فالفتوة ، فالسكولة . فأن يكون شيخا فهرما ، وهو فى ذلك كله يحفظ صورته الأصلية وان اختلف أحوالها : من مرض وصحة وهزال وامتلاء وشباب وشيب ، ونرى المتعلمين لا يدرسون فى الثانوى : الا ما يناسب ما سمعوه فى الابتدائى ، والدراسة العليا تتبع الثانوية . ونرى علماء فنّ التربية يحرصون الحرس كله أن تضرب الأمثال للصبيّ فى أول حياته فى المدرسة بما يأنس به من هرة يداعبها ، وشاة يلعب بها ، وكرة يضربها وما أشبه ذلك . ويقول علماء الحكمة : ان أحوال النفس بعد الموت لا تعدو هذا المنهج ولا تعدل عنه بوجه . فالجهال ، والفسقة ، وأهل الضغائن ، والمنافقون ، والكسالى وأهل الشره والحرص تكون أرواحهم بعد فراق الجسد فى جوّ من نار تلك الأخلاق والأعمال والجهالات . وأهل الاحسان والفضل وألو الألباب والعلم وذو الاخلاص والصدق والاحسان للناس فى حال أشبه بما كانوا عليه فى الدنيا ، وجوّ من الصفاء والنضارة والجمال نتيجة لما كانوا يعملون ، ولم يكن الله يعذب الكافر والفاسق تشفيا ، وانتقاما كما ينتقم أهل الأرض ، ويشفوا غيظهم السكامن فى نفوسهم من أعدائهم ؟ « تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا » وانما جاء ذلك فى القرآن ليفهم بالفاظ يعرفها الناس على قدر طاقتهم ، وانما ذلك العذاب جزاء من جنس العمل ، كما فى قوله تعالى « جزاء سيئة سيئة مثلها » وقوله تعالى « إنما تجزون ما كنتم تعملون » وقوله « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ، وكقوله فى أهل النعيم « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون » وذلك بعد قوله « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » فكأنهم لما أنسوا برّبهم وأحسوا بروح ولذة العبادة ، وذلك أمر لا يطلع عليه الا صاحبه : كان جزاؤهم نتيجة ملازمة لعملهم ملازمة الظلّ للشبح والهواء لسكان الأرض ، فقال « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين » وترى فى الدنيا أن أهل العلم يأنس بعضهم ببعض ويفرحون بالملاقاة والمحادثة والمشاكلة ، وترى قطاع الطرق والمجرمين يساقون الى السجون ، ويعاقبون على ذنوبهم فى الدنيا كما تكون حالهم فى الآخرة : إذ قال تعالى « فككبكبوا فيها هم والغاؤون وجنود إبليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين » .

ولذلك جاء فى علم الأخلاق أنه ينبغى للانسان أن لا يجالس أربع فرق من الناس : الصبيان والنساء

والجهال وذوى الأخلاق الفاسدة . اللهم إلا لتعليم أو تأديب أو حكم عليهم أو انعام أو ما أشبه ذلك وورد في الحديث « إنما أنت مع من أحببت » وفيه « إنما هي أعمالكم تعرض عليكم » وجاء في الآية « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

قال الامام الغزالي في الاحياء ، وكما أنك في الدنيا تجدد من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح ، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض ، وسائر الأمور الالهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا ، فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا من إثارة لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب ، وسائر الخلق مشغولون به ، ولذلك لما قيل لرابعة ما تقولين في الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار ، فبينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة ، بل إلى رب الجنة ، وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة ، إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ، ولا يحصل أحد إلا ما زرع ، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ما عاش عليه : فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته ، فان ذلك منتهى لذته ، وإنما طيبة الجنة أن لكل واحد فيها ما يشتهي ، فن لا يشتهي الا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره ، بل ربما يتأذى به ؟ فاذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته . فأصل السعادات : هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالايمان اه .

وبالجملة : فما من حركة نفسية أو عمل أو خلق أو رأى إلا لها آثار في نفوسنا ، ويقول الحكماء : العلم والأخلاق الفاضلة : تكون سعادة وروحا وريحانا ، والجهل وسوء الخلق رأس الشقاء في الدنيا والآخرة ، ولهذا الرمز يقول تعالى هنا (وأتوا به متشابهها ولهم فيها أزواج مطهرة) من دنس الأخلاق ورداء الطباع وما ابتلى به نساء الدنيا من الحيض والنفاس والمرض مشاكلة لما كانوا يستلذون به في الدنيا ، وان كان الفرق شاسعا بين الدارين أبعد مما بين السراج والشمس والنرّة والفيل .

ضرب الأمثال

واعلم أن فيما سبق من هذه السورة أمثالا منها ما هو ظاهر ، ومنها ما يحتاج إلى تأمل ، فأما ما هو ظاهر فقوله (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) وقوله (أو كصيب من السماء) ، ومن هذا القبيل قوله تعالى « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا » وقوله « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه » ، وهذه كلها أمثال مضروبة لأحوال الكفار ، وأما ما يحتاج إلى تأمل فأوصاف الآخرة وأحوالها ، فان قوله (قالوا هذا الذي رزقنا من قبل) فيه المشابهة والمماثلة ، وأن عالم الآخرة يمثل له بعالم الدنيا ، ألا ترى إلى قوله تعالى « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى » فهناك صرح بأنها أمثال ، وأن هذه التي في الدنيا مضروبة مثلا لأحوال الآخرة ، ولقد تعالى المعنى في آية أخرى إلى ما فوق هذا في قوله تعالى « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين » وجاء في الحديث [ان في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر] وفي الحديث [أريت الجنة فإذا أكثر أهلها

البلاء ، وعليون لأولى الأبواب [وفسره علماؤنا بأن المفكرين في خلق السموات والأرض وذوى النفوس العالية هم الذين يزهدون في الجنة الحسية ، ويرغبون في جوار ربهم مع الأرواح الطاهرة الخالصة من المادة المبرأة من عيبها العارفة بنقصها ، فأما أولئك الذين لا يعبدون الله إلا لأجل الشهوات بعد الموت ، فان نفوسهم تحن هناك الى اللذات الحسية ، ومعلوم أن المرء يحشر على مامات عليه من خلق ورأى وعقيدة ، وأن العبادة الظاهرة الخالية من معرفة جلال الله وعظمته ، والتفكير في هذا العالم ، وأن المادة سجن للذين فيها لا ينال المرء بها إلا الجنة المحسوسة التي يرغب في أعلى منها الأنبياء والحكماء وأصحاب النفوس الشريفة ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى « ولدينا مزيد » وبقوله « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » وبقوله « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » فالزيادة : هي النظر لوجه الله الكريم ، وقدمثلوا لهذا بالقصر المشيد للملك ، وقد حضر فيه أقوام فذوو النفوس العالية والمقامات الشريفة لا يفرحون إلا بمجالسته ، فأما الصعاليك فلا يهتمون إلا بما يستجوعهم ويفرج كربهم لاختلاف الناس في معارفهم ، وفي الأمثال المضروبة : اعلم أن الناس مختلفو الأخلاق والمشارب والعادات والأحوال « ولكل وجهة هو موليها » ، ولولا اختلاف المشارب والاهواء ما انتظم هذا العالم فما يحبه زيد يكرهه عمرو وما يليق لأحدهما لا يناسب الآخر ، ولهذا الاختلاف كان النظام عجيبا ، ولولا زهد زيد في التجارة والصناعة ونحوها ما كان فقيرا عالة على الناس ، الناس مختلفون في أكثر الأشياء ، وعلى ذلك نرى أناسا نبغوا في اختراع ، أو علم ، أو تجارة ، أو عمل عام ، وقد كانوا قبل ذلك يستهزئ بهم أقرانهم ويسخر منهم أصحابهم ، ولم يكن نبى ، ولا عالم ، ولا صالح إلا كان في مبدأ أمره محل سخرية واحتقار وازدراء ذلك أن الناس قلما يفقهون ما يفقه هؤلاء فينالهم مقت واحتقار ، ومن هذا القبيل الأنبياء [ومنهم خاتمهم سيدنا محمد ﷺ] فكان عرضة للاستهزاء من الجاحدين والكافرين ، فلما سمعوا ضرب الأمثال بالنار وبالماء ، وبالذباب ، وبالعنكبوت عدوها فرصة للسخرية وقالوا هل يضرب الله الأمثال بهذه المحقرات ، وهو العظيم العلى الكبير هذا لا يعقل ، ولو أن الاستهزاء توالى على فاضل ولم يكن له عزيمة لا تحلت عزيمته واختلت أعماله ، ولذلك نجد النابغين قليلا ، لأن الساقطين في ميادين العمل المجتدين في ساحات المناظرة والمباراة كثير وليس ينجو منهم إلا القليل ومنهم الأنبياء فأخذ نبينا ﷺ يثابر على الرد عليهم ونبذهم وقهرهم بالوحى ، ومنه ما جاء هنا إذ قال (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما) أى أى مثل كان وإذا كنتم تستصغرون التمثيل بالذباب والعنكبوت فالله لا يستحي أن يضرب مثلا بالبعوضة التي هي أقل من الذبابة ، بل بما هو أقل منها مقدارا وأعلى في تمثيل الحقارة عند إرادة تحقير الأشياء ، فالنبوة ورد فيها التمثيل بجناح البعوضة عند ذم الدنيا وأتم أيها الناس قسمان : قسم يرى الأشياء بمنظار مظلم وعين عوراء ، وقد غشى على سمعه وبصره فيرى الخير شرا والشر خيرا ، ولما رأيتم الرسول يعلمكم وقد دخل الحسد في قلوبكم وأكل الغل أفدتكم أيتم واستكبرتم وأخذتم تعيبون الكتاب وتسخرون من القول ، والقسم الآخر متواضع لا يتعالى عن الحق فيقبله ويسعى للنجاة من الجهل ، والاثم ، والعار ، والهلاك في الدنيا والآخرة ، وإذا سمع الأمثال اتعظ بها فهو من المفاهين .

أقول : ولأضرب لك مثلا تتبين منه اختلاف مشارب الناس في الفهم ، فاعلم أن ما يراه الانسان في كل يوم من الأحوال الانسانية وغيرها فيه علوم جمة لمن تفكر وتدبر .

فتفكر في حال امرأة جميلة فترى للناس في شأنها طرقا شتى ولأذكر لك شيئا من هذه الطرائق فأتمها تنظر اليها نظر الاشفاق والعطف والود والحنان والرأفة والحزن لحزنها والفرح لفرحها ، وأبوها ينظر اليها نظر المساعدة الأبوية ، والأخ أقل منه ، وابنها نظره اليها من قبيل الالتجاء والاستعانة ، وأنها حصنه ومأواه

ومرجعه ، وزوجها ينظر اليها نظرة أخرى بامتزاج المصالح والمشاركة والمعاونة ، وخاطبها القديم ينظر اليها نظرة الحسرة والحرمان والغيرة والندامة وما أشبه ذلك ، فهذا مثل ضربته مما يراه الناس ، فهكذا كل حكمة وعلم ومحسن ومعقول يدركها الناس على درجات شتى لا حصر لها ، وهذا سر الوجود ، فالأمثال التي جاء بها الأنبياء وورد بها القرآن يعنونها ما يعنرى الموجودات من اختلاف النظر ، فينظر الجاهل استهزاء ، وينظر العاقل اعتبارا ، ولقد ورد من الأمثال نحو ذلك من كلام العرب مثل : أسمع من قراد ، وأطيش من فراشه ، وأعز من مخ البعوض ، وإذا اختلفت الأنظار في كلام الله كغيره لاجرم يضل به قوم ويهتدى به آخرون ، كما أن من النبات ما يقتل ، ومنه ما يشفى ، ومنه ما يغذى ، وهو من فعل الله ، والقرآن من كلامه فكما يضر الله بالسم ، ويشفى بالسنا ، ويغذى بالحنطة يضل قوما بالقرآن اذا نقص استعدادهم وخبت نفوسهم كما يرض الرجل بشرب الشهد اذا كان مجموما ويزيد الضعيف المعدة مرضا بالامتلاء من اللحم والماء كل الغليظة وشرب الماء المثلوج ، ومثال ذلك في القرآن أن يقرأ أربعة علماء هذه الآية « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » ، ثم تطرح أمامهم ، مسألة السلاح في الحرب ، فيقول أحدهم ان لنا في رسول الله أسوة حسنة فلانخالفه ورسول الله انما حارب بالسيف والرمح فحرام علينا أن نغير سلاحه ، كما أخبرت بذلك عن بعض علماء التركستان منذ سنين إذ استفتاهم أمير بخارى فأجابوا بذلك ، وأفتوا بقتل التاجر الذي حضر من الروس إذ ذاك ، وقال ان لهم مدافع فلنقلدهم فحكموا بقتله فقتله الأمير ، ثم دخل الروس بعد خمس سنين ، ويقول الآخر : كلا فلتتوكل على الله والنبي ﷺ خلقه القرآن ، وقد أمره الله بالتوكل فعلمنا أن نرضى بقضاء الله وقدره ، ويقول الثالث : كلا فلنقرأ البخارى وسورة يس ، وقد حصل ذلك في بعض الحروب منذ عشرات السنين ، وهذان رأيان لذوى الكسل والبلاهة ، ويقول الرابع : كلا فالنبي ﷺ كان يحارب بالسلاح الذي يحارب به أعداؤه ، ولو أنهم حاربوا بالمدافع والطائرات لحاربهم بها ، وهذا هو الفقية النبيه ، فانظر كيف ضل ثلاثة واهتدى الرابع ، ولما كثرت الضلال في الأمة الاسلامية قل فيها النبوغ وساء مصيرها ، فليكن فيها المفكرون والمستبصرون والعقلاء المتدبرون ، فبذلك وحده تنجو من الخطر الداهم ، ولقد زارنى منذ عشر سنين أمير ، يقال له « جمال الدين » من مدينة مدراس على ما ذكر ومعه تراجته ، فقال جئت لأسألك عن علم الجغرافيا والتاريخ فأتيت تحت هناك مدرسة ، وقد حرم علماء الاسلام هناك أن يدرس هذان العلمان فحجبت كل العجب وكتبت له أن جميع العلوم والصناعات فرض كفاية على المسلمين ، ففى ترك المساهون علما أو صناعة فالاثم واقع على جميعهم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبالذلة والاحتلال والاحتلال ، وأما فى الآخرة فبعذاب النار « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » وقوله « ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » وقوله « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » وهذا انما جاء من نقص العلم فى بلاد الاسلام ، وهذا داخل فى قوله (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) ولما كان أولئك الفاسقون منهم من يمكن اصلاحه أعقبه موجبا على عدم التفكير بقوله فى .

(المقصد الخامس)

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *

التفسير اللفظي

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم) ذكر الناس بما كان من عدمهم ، ثم حياتهم ، ثم يموتون ، ثم يحيون ، ثم يحاسبون ، هذه قصة الانسان ومبدؤه ومنتهاه . وقص قصة العلم ، فذكر الأرض وما فوقها ، والسماء وزينتها ونظامها ، وكيف كانت هذه العوامل الكبيرة مسخرة للانسان ، ساعية لسعادته وهنائه ؟ فهل يجمل به أن يكفر بالله ؟ وهل يحسن بمن كان عدما فأصبح موجودا وهيئت له السموات والأرض ، وخدمته الأعوام والسنون وأفرغت النعم عليه ، ولم يكن له ملك ولا حياة ؟ هل يحسن به أن يكفر بالله ، ويقطع رحم الفضيلة ، وينسى المنعم ، ولا يشكر المتفضل ؟ وهل يليق أن يكون من الضالين والفاجرين .

وقوله (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا) تسجيل على المسلمين في أنحاء المعمورة ، فياليت شعري : كيف يخاطبنا الله بقوله « خلق لكم ما في الأرض جميعا » ونحن أجهل الأمم بالأرض والسماء ، وكيف تكون المعادن في باطنها والجبال عليها والغابات والممالك ، وكيف تكون الكهرباء شاملة لأجزائها والاضواء والحرارة والخواص الطبيعية الكامنة في هذه المخلوقات ، ونحن لا نعرف منها الا ما جادت به علينا يد الأمم الغريسة ، فوالله ان العلوم التي كشفوها في الأرض والسماء لتسجل علينا الخزي والعار أمام الله والناس .

أيها الناس كيف يقر لكم قرار أو يكون عندكم اضطراب ور بكم يخاطبكم ، فيقول « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا » وأنتم لا تملكون قطميرا . منها المرجان النابت في البحر في يد غيركم ، والدرّ يصطاده سواكم ، والغابات لغيركم ، فهل ظننتم أيها الناس أن الموجه له كاف الخطاب : هم أمم الفرنجة ، فيقول (هو الذي خلق لكم) يا أمم الفرنجة : أولستم داخلين في كاف الخطاب : أليس من العار عليكم أن تجهلوا نعمة ربكم ، ولعمري ان هذا الكفر للنعمة وقلة عقل وغاية الجهل ، وكيف نقول : ان الله شاكرن ، والشكر انما يكون باستعمال العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، والله قد صرح لنا بقوله : خلقت لكم ما في الأرض جميعا ، واذا أنعم عليه الملك بنعمة فقرتها كان غضبه عليك شديدا ، وها هو ذا إلهنا لما رأى اعراضنا عن نعمه فازدريناها ونسيناها وتجاهلناها غضب غضبه ، فسلط علينا الأمم ، وهذا جزاء الكافرين بالنعم ، ألم يأن لكم أن تخشع قلوبكم لذكر الله ، وما نزل من الحق ، أفيقوا أيها المسامون من غفلتكم واستيقظوا من رقدتكم ، واعلموا أن ما فات فات وانقضى ، وأن الزمان قد استدار وستكونون علماء بهذا الوجود ، وستنالون منه حظا عظيما بفهم القرآن « ليظهره على الدين كله ، فاستبقوا الخيرات » وانظروا في الأرض وما حوت ، والسماء وما وعت ، وتأملوا ما أنالوا عليكم في مسألة السموات : إذ قال تعالى (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، وهو بكل شيء عليم) .

ايضاح هذا المقام

الكلام على السموات السبع

اعلم أننا على هذه الأرض محبوسون مغمورون في حوائطها تحيط بنا أنواع الآلام والشهوات ، فتحجبنا عن معرفة العوالم وادراك حقائقها والتفرج على عجائبها . ولما كان عالم السموات أعظم ما نشاهد ، وفيه أنواع

الجمال والضياء والبهجة والحسن : اتجهت إليه أنظار العقلاء ورجال الدين . وأقدم ما وصل إلينا من العلم بذلك ما ذكره اليونان وقفي على آثارهم علماء الأسكندرية أيام البطالسة واستقرت آراء هؤلاء على أن الأرض في مركز العالم ، وأن القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل سيارات حولها ، وكل واحد منها في فلك دائر حول الأرض من الشرق إلى الغرب ، فأما السيارات فإن لها سيرا خاصا بها ، تسير إلى جهة الشرق عكس الحركة اليومية للأفلاك السبعة ، وتكون تلك الكواكب على أفلاكها أشبه بنجمة دائرة على عجلة تسير في طريق يخالف سيرها ، وبهذه الحركة الكوكبية يكون شهر القمر وسنة الشمس وسنون لسائر الكواكب ، ويقولون إن هناك فلكين آخرين يحيطان بالأفلاك السبعة ، وهما فلك الثوابت فالأطلس وقالوا نحن علينا أن نفرض فلكا ثامنا لتكون فيه الكواكب الثابتة ، وفلكا تاسعا يكون مبدأ الحركة اليومية ، وأما ترتيب الأفلاك على هذا المنوال فله أدلة مطولة لكنها ضعيفة جدا ، حتى إن فلك الشمس لما جعاه رابعا شبهوه بشمس القلادة في جيد الحسناء لأنها تكون في الوسط ، وأما بقية الأفلاك ، فقد يستدلون عليها بأن الكوكب الأسفل يكشف الأعلى ، والكاسف يكون تحت المكسوف هذا ملخص علم أولئك العلماء ، ولقد ظهر أثر هذا في إنجيل (برنابا) وهو أقرب الأنجيل إلى الحق .

قال المسيح : الحق أقول إن السموات تسع موضوعة بينها السيارات التي تبعد إحداها عن الأخرى مسيرة رجل خمسمائة سنة ، وكذلك الأرض على مسيرة خمسمائة سنة من السماء الأولى ، ولكن قف عند قياس السماء الأولى التي تزيد عن الأرض برمتها كما تزيد الأرض عن حبة رمل وهكذا تزيد السماء الثانية عن الأولى والثالثة عن الثانية ، وهلم جرا حتى السماء الأخيرة كل منها تزيد عما تليها ، والحق أقول لك إن الجنة أكبر من الأرض برمتها والسموات برمتها كما أن الأرض برمتها أكبر من حبة رمل ، ثم قال في الإنجيل حينئذ جاء الملاك جبريل ليسوع وأراه مراة براقعة كالشمس رأى فيها هذه الكلمات : لعمرى أنا الأبدى كما أن الجنة أكبر من السموات برمتها والأرض ، وكما أن الأرض برمتها أكبر من حبة رمل هكذا أنا أكبر من الجنة بل أكثر كثيرا من ذلك عدد حبوب رمل البحر وقطرات الماء في البحر وعشب الأرض ، وأوراق الأشجار ، وجلود الحيوانات . بل أكثر من ذلك كثيرا عدد حبوب الرمل التي تملأ السموات والجنة بل أكثر اه ؟ هذا ما في كلام القدماء وما في الإنجيل ، ثم إن فلسفة اليونان نقلت إلى العربية على يدى الفارابي والشيخ الرئيس ابن سينا ، وقررت أن الأفلاك تسعة ، فوثق بذلك علماء الاسلام الذين درسوها ، وقالوا هي سبع سموات والكرسى والعرش فالسموات السبع تقدم ذكرها ، والكرسى فلك الثوابت ، والعرش هو الفلك المحيط الذي به الحركة اليومية لسائر الأفلاك وبها الشروق والغروب .

مضت قرون فاستيقظ أجلة العلماء وكبار الحكماء من الأمة الاسلامية ورأوا أن هذا المذهب باطل لمخالفته الشرع والعقل . وقالوا إن القول بأن السموات سبع في القرآن ليس حاصرا ، فالعدد ليس له مفهوم ، فذا قال رجل : عندي فرسان لا ينافي أن يكون عنده ألف ، وهذه الأفلاك القديمة لا يمكن فناؤها عندهم ، وكذلك الكواكب ، وهذا مخالف للعقل والدين معا . وقالوا إن الأرض تدور حول نفسها ، وليس هناك فلك أطلس ولا غيره ، وإنما هذه الكواكب دوائر في الفضاء .

وهذه الآراء كانت في القرن السادس والسابع أيام انقراض الدولة العربية وظهور الدول التركية وغيرها . ولقد كان ذلك توطئة للرأى الحديث الذي ملأ الآفاق وعرفه الخاص والعام ، وملخصه : أن هذه العوالم كلها من شمس وأقمار وأرضين كانت في قديم الزمان كالسخان المنتشر سريعة الحركات فبسرعة الحركة آلاف آلاف من السنين تكوّنت الشمس ودورت ملايين من السنين ، ثم انفصلت عنها

السيارات وشمسنا إحدى تلك الشموس ، فولدت عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، والمشتري ، وزحل ، وأورانوس ، ونبتون ، فهذه ثمان سيارات ، ثم انهم وجدوا بين المريخ والمشتري نحو ٦٠٠ نجمة صغيرة جدا ولو اجتمعت كلها لم تصل لمقدار جرم القمر ، وأكبرها المسماة (سرس) لا يزيد قطرها عن خمسمائة ميل وبعضها لا يزيد قطره عن عشرة أميال ، وربما كان هناك نجومات أصغر منها لا يمكن رؤيتها .

ثم ان هذه السيارات تدور حول الشمس ، فعطارد يتم دورته في ٢٨ يوما من أيامنا ، والزهرة في ٢٢٦ ، والمريخ في ٣٢١ ، والأرض في سنة ، والمشتري في ١١ سنة و ٣١٣ يوما ، وزحل في ٢٩ سنة و ١٦٧ يوما ، وأورانوس في ٤٨ سنة و ٧ أيام ، ونبتون في ١٦٨ سنة و ٢٤٨ يوما ، ويظن أن هناك سيارات أخرى حول الشمس لم تظهر .

ومن عجائب العلم وغرائبه : أن علماء العصر الحاضر بحثوا عن تلك النجومات الصغيرة التي بين المشتري والمريخ بحسب القاعدة التي وضعوها لبعث السيارات عن الشمس فانهم رأوا أنها هكذا :

العدد	يضاف اليه	يكون المجموع	يضرب في ٩	مليون ميل
٠	٤	٤	$9 \times$	٣٦ =
٣	٤	٧	$9 \times$	٦٣ =
٦	٤	١٠	$9 \times$	٩٠ =
١٢	٤	١٦	$9 \times$	١٤٤ =
٢٤	٤	٢٨	$9 \times$	٢٥٢ =
٤٨	٤	٥٢	$9 \times$	٤٦٨ =
٩٦	٤	١٠٠	$9 \times$	٩٠٠ =
١٩٢	٤	١٩٦	$9 \times$	١٧١٤ =
٣٨٤	٤	٣٨٨	$9 \times$	٣٥٩٢ =

هذه هي أبعاد السيارات عن الشمس : أي انها منظمة تنظيما تقريبا ، فاذا بعد عطارد عنها ٣٦ مليون ميل ، فقد فرضوا أن بعده ٤ بعد الصفر وهكذا الزهرة ٣ ، والأرض ٦ ، والمريخ ١٢ بطريق التضعيف ويضاف لكل ضعف ٤ ، وهذا العدد يضرب في ٩ مليون ميل ، فلما وصلوا الى ما بين المريخ والمشتري وجدوا هناك مكانا خاليا ، فكان يجب أن يكون فيه كوكب ، فلما وجدوا تلك النجومات المتقدمة ظنوها شظايا من تلك النجمة البائدة ، واعلم أن هذه الأرقام الدالة على الأميال تقريبية ، فان بعد الزهرة ٦٧ وبعد الأرض ٩٣ ، وبعد المريخ ١٤٣ ، وبعد المشتري ٤٨٤ ، وبعد زحل ٨٨٧ ، وبعد أورانوس ١٧٨٢ وبعد نبتون ٣٧٩٢ ، وهي تختلف عن الجدول السابق قليلا ، وهذه الأعداد ملايين الأميال .

واعلم أن الزهرة وعطارد هما السيارتان الأدنىان ، لأن فلكهما ضمن فلك الأرض ، أما بقية السيارات فتسمى السيارات العليا ، لأن فلكها خارج عن فلك الأرض : هذا ما أردت ذكره في المجموعة الشمسية . أما الكواكب الثابتة ، فانها لا يحصر عددها إلا الله ، ولقد بحثها العلماء فوصلوا منها إلى معرفة مئات الملايين بالمنظار المعظم ، وبالألة الراسمة المسماة فتوغرافيا .

واعلم أن نور الشمس يصل إلى الأرض في ٨ دقائق و ١٨ ثانية ، ولو أن أسرع قطار جرى من الأرض إلى الشمس ليلا ونهارا لم يتمكن من وصوله اليها في أقل من ثلثمائة وخمسين سنة ، وأنا ذكرت لك هذا لتعلم مقدار عظمة الله عز وجل ، وتفهم مأسأ ذكره لك في أبعاد النجوم الثابت .

واعلم أن نور الشمس يسير في الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل وفي السنة ٦ بليون .
واعلم أن أقرب نجم يصل نوره إلينا في ٤ سنين نورية ، فإذا كان ضوء الشمس يصل لنا في ٨ دقائق
و ١٨ ثانية وبعدها عظيم جدا ، فبالك بأقرب كوكب ثابت وهو ٤ سنين ، وأين ٨ دقائق من ٤ سنين
ومن الكواكب مالا يصل ضوءه إلينا في أقل من ألف سنة نورية ، والشعري العبور يصل ضوءها إلينا في
٩ سنين نورية ، والنسر الطائر يصل ضوءه إلينا في ١ سنة نورية ، والنسر الواقع في ٣ سنة ، والعيوق
في ٣ سنة ، والسمالك الرابع في ٥ سنة ، واعلم أنهم قسموا الكواكب الثابتة باعتبار ضوءها ، فما كان منها
أضوأ سموه القدر الأول وما يليه القدر الثاني ، والقدماء أوصولها إلى ستة أقدار ، والمحدثون أوصولها إلى ٢٠
فالقدر الأول ضوءه كامل ، وعدد نجومه ٤ منها : الشعري العبور ، والنسر الواقع ، والسمالك الرابع .
والقدر الثاني عدده ٢٧ نجما ، ومنها سعد السعود .
والقدر الثالث عدده ٧٣ نجما منها الفرقدان .

والقدر الرابع عدده ١٨٩ ، والقدر الخامس ٦٥٠ ، والقدر السادس ٣٣٠٠ : وهكذا يتزايد العدد
ويقل الضوء ، فيكون القدر العشرون ٧٣ مليونا وضوؤها ضعيف جدا ، ومجموع الذي علمه نوع الانسان
إلى الآن ٢٢٤ مليونا من النجوم . وسيأتي في بقية أجزاء هذا التفسير في الطبعة الأولى ان الكشف أظهر
أضعاف أضعاف هذه النجوم بعد طبع هذه السورة اهـ

هذا هو الذي عرفه الانسان من السموات . فقايس رعاك الله بين ما ذكره علماء الأسكندرية وما جاء
في الانجيل برنابا ، وبين ما عرفه الانسان الآن . ان عظمة الله تجلت في هذا الزمان ، ألا ترى إلى ما جاء في الانجيل
مما أشبه كلام القدماء أن بين كل سماء وأخرى خمسمائة عام . وذكر ان السموات تسع ، وهي عند المسلمين
سبع يزيد عليها الكرسي والعرش ، فيكون مجموع المسافات ٥٠٠ سنة بسفر الانسان ، وهو قدر يسير جدا
بالنسبة لما عرف الآن . ألا ترى أن هذه المسافة يقطعها الضوء في أقل من أربع دقائق ، فكأن ملك الله
المعلوم للناس فيما مضى لا يزيد عن نصف المسافة بيننا وبين الشمس البالغة ٨ دقائق وثواني ، وأي شيء
بعد الشمس ، ان بعدها يسير جدا ، ان الشمس لقريبة ، وأين ثمان دقائق من ٤ سنين التي هي لأقرب
كوكب ثابت ، بل أين بعدها من بعد الكوكب الذي يستغرق ألف سنة في وصول ضوءه إلينا [تاهت
العقول ، وزاغت الأبصار ، وحارت الأفكار] فأين ما ذكره الأقدمون من عظمة الله تعالى التي عرفت ، وانك
لو أردت أن تعرف مقدار الزمن الذي يصل فيه ضوء الكواكب إلينا ، ونحن نشاهدها كل ليلة لم تشك أن
كثيرا منها سافر ضوءها إلينا قبل خلق الأرض حتى وصل إلى أعيننا الآن ، ومنها كواكب قد بادت وهلكت
قبل خلق الأرض واندرست معالمها ومع ذلك نحن الآن نشاهد ضوءها الذي أرسلته قبل خفائها ، وهو مسافر
إلينا . إذن ما جاء في الانجيل المذكور المبني على علم علماء الاسكندرية أصبح لاقيمة له بالنسبة للكشف الحديث الذي
يوافق القرآن ، إذن دين الاسلام صار الكشف الحديث موافقا له ، وهذه معجزة جديدة جاءت في زماننا .

أسئلة وردت على المؤلف

ولما وصلت إلى هذا المقام زارني عالم فاضل ، فاطلع على ما كتبه فسر . وقال الله درك ، فقد أثبت جلال
الله وجهاله ومعجائب صنعته ، ولكنك في الحال قد خالفت القرآن ، فقلت وكيف ذلك ؟
قال انك ترى أن الكواكب تسير في الفضاء ، لأن هذا هو الرأي الحديث . فقلت ان من يقول ان
الكواكب تسير في الفضاء ليس عالما بالرأي الحديث ولا القديم . أما القدماء فانهم أثبتوا أنه لافضاء موجود .
وقالوا ان الخلاء مستحيل لأننا اذا تصورنا مكانا خاليا لا يتخلو : اما أن نتصوره مضيئا . أو مظلم : والضوء والظلمة

إما عرضان . أو جوهرا . أو أحدهما عرض والثاني جوهر ، فإن كانا جوهريين فهما ، وإن كانا عرضيين فالعرض لا يقوم إلا بجوهر ، وإن كان أحدهما عرضا والآخر جوهر ، فالأمر واضح ، فثبت أنه لا فراغ موجود في الكون .

وأما المحدثون فقالوا إن الضوء يصل من الكواكب إلى الأرض ولا بد أن يكون محمولا على جرم [وعلى هذه النظرية اخترعوا التلغراف الذي لاسلك له] فثبت أنه لا فراغ في الكون عند القدماء ولا عند المحدثين فن قال إن الكواكب تسير في فضاء ، فإنه جاهل بعلوم العالم أجمع ، وهم صغار الطلبة المغرورون ، فقال سلمت أن الكواكب تجري في أجرام موجودة ، ولكن كيف يقول الله إن السموات سبع ؟ فقلت له إذا أثبت وجود الجرم الأثيري اللطيف الذي تجري فيه الكواكب ، فما أسهل فهم القرآن . واعلم أن العدد ليس له مفهوم ، وبه قال أكابر المفسرين والحكماء ، فإذا قال الله سبع سموات ، فليس ذلك بمانع أن يكون العدد أكثر ، وإذا عرفت أن هذا الجرم اللطيف الحبيب الممتد إلى أمد ينقطع الفكر دونه ، ومجال لا يصل إليه الوهم فيه من العجائب والبدائع والكواكب والمخلوقات ما لا يحصى ، فسواء أكان سبعا أم ألفا ، فذلك كله من فعل الله دال على جلاله وكماله ، وهو تجلياته وأنواره المشرقة المتلائة الفائضة من مقام القدس الأعلى منزلة في العوالم ، وكل كوكب من الكواكب الجارية له مدار خاص به ، وكل شمس من الشمس التي ذكرناها لها مدار خاص وسيراتها كذلك ، والله هو الفاعل المختار مفيض الخيرات والجمال والحسن والاشراق . قال الامام الغزالي : في كتاب [تهافت الفلاسفة] .

[إذا ثبت حدوث العالم ، فسواء أكان كرة أو مشمنا أو مسدسا وسواء أكانت السموات وما تحتهما ثلاث عشرة طبقة كما قالوه أو أقل أو أكثر ، فنسبة النظر فيه إلى البحث الإلهي كنسبة النظر إلى طبقات البصيلة وعددها وعدد حب الرمان ، فالمقصود كونها من فعل الله فقط كيفما كانت] .

أقول : إياك أن يصدك أيها الفطن لفظ سبع عن البحث والتنقيب ، فالعدد ليس بقيد وانظر إلى هذا الجلال ، ولا تسكن من الخائفين الجبناء الذين يظنون أن هذا يناقض القرآن ، أو تكون من المساكين الذين يلحدون ويكفرون لسمع مثل هذا اللفظ ، وذلك لسخافة عقولهم ، وقلة علمهم ، وهذان الفريقان من الذين قال الله فيهم (يضل به كثيرا) فقال صاحبي إذن أنت تؤيد المذهب الحديث ، فقلت له حاشا لله أن يؤيد حديثا أو قديما ، وإنما القرآن طبقناه على المذهب القديم ، ثم ظهر بطلان ذلك المذهب وجاء الحديث ، فوجدناه أقرب إليه ، والافهوا على منهما وأعظم ، وما يدرينا أن يكون هناك مذاهب ستحدث في المستقبل ، فهل القرآن كرة طرحت بصوالة ، يتلقفها رجل رجل كلا إنما هذا التطبيق الذي ذكرته ليطمئن قلب المسلم ، وليعلم أن عمل الله وصنعه لا يناقض كلامه ، فالتطبيق للأطمئنان .

فقال : ولم كان المذهب الحديث أقرب إلى القرآن ؟ قلت

أولا : جاء في القرآن « ويخلق ما لا تعلمون » والمذهب الحديث أرانا سعة مخلوقاته وإنما لا تدرك .

ثانيا : كان القدماء يقولون : الكواكب والأفلاك لا تنفني ، والرأي الحديث يقول : إن الكواكب تتجدد وتنفني كالإنسان والحيوان . وقالوا إنهم رصدوا كواكب لا تزال في طور التكوّن ، وذكروا منها نحو ستين ألفا وأن كواكب قد فنيت يقول الله « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات » ومنها ذلك الكوكب الذي بين المشتري والمريخ ، وصار كواكب صغيرة جدا ، فهذا أقرب إلى القرآن لقوله تعالى « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

فقال صاحبي : ماملخص ماضى ؟ فقلت

أولا : أن السماء يراها الناس واحدة .

ثانيا : ان الدين جعلها سبعة ، والفلاسفة جعلوها تسعة :

ثالثا : المسامون القدماء جعلوا سبعة منها سموات ، والكرسى والعرش : هما الفلكان الباقيان اتباعا للفلسفة القديمة ، وانجيل برنابا تبعها ، فقال تسع سموات ، والمذهب القديم أبطل فبطل تبعاله ما جاء في انجيل برنابا وما جاء عن العلماء الذين صدقوه من المسامين .

رابعا : أن المذهب الحديث أبان أن عظمة الله فوق ما ذكره القدماء ، وأصبح ما كان عند القدماء بالنسبة للعلم الحديث أشبه بذرة بالنسبة للأرض والجبال والبحار ، بل أقل كثيرا جدا .

خامسا : العالم لا فراغ فيه ، فالسموات موجودة فعلا يراها القدماء والمحدثين .

سادسا : وهي سبع سموات وذلك حق لأنها طباق بعضها فوق بعض

سابعا : المذهب الحديث يثبت فناء العالم ، وفناء السكواكب ، وهو موافق للقرآن فهو معجزة له .

ثامنا : ان ما قلناه ليس القصد منه أن يخضع القرآن للمباحث ، فانه ربما يبطل المذهب الحديث كما بطل القديم ، فالقرآن فوق الجميع ، وإنما التطبيق ليأمن المؤمنين بالعلم ولا ينفروا منه لمخالفته لألفاظ القرآن في نظرهم .

فقال صاحبي قد أفدت إفادة تامة ، ولم يبق عندي إلا سؤال واحد ، وهو لم عبر الله بسبع سموات ولم يعبر بسما واحد مع أن الناس لم يروا غيرها ؟

قلت : اعلم أن الله لو ذكر سما واحد لو قفت عقول المسامين عليها ، ولم يبحثوا عن غيرها ، ولكنهم لما سمعوها أخذوا يقرءون فلسفة اليونان ، ثم قرأنا الفلسفة الحديثة ، فعرفنا نعمة الله وحكمته ، والتعبير بالسبع امتحان وابتلاء من الله لأنها تحير عقول الباحثين ، فمن كان مريض النفس ، صغير العقل ، ضئيل الفكر جبن وجزع وخاف . وقال : انى أخاف الله رب العالمين ، فلا يبحث في العوالم ، ويظن أن الله يغضب على من بحث من المؤمنين في جلال جلاله ، ومن قويت عزيمته ، وعلت همته ، وارتقت نفسه ، فانه يبحث ويعرف فعل الله عز وجل ، ويقول في نفسه : ان هذا فعل الله ، وأنا أقرأ كلامه ، وكلاهما دال عليه . وقوله لا يناقض فعله الا عند الجاهلين .

أما أنا فاني أبحث صنعة ، وبعد ذلك أطبقها على كلامه ، بهذا فليرتقى المسامون وليتعلموا ، فكم من ذكى مسلم قرأ العلوم الحديثة وكفر بالدين ظانا أنه نال من العلم ما جهله الأنبياء ، وكم من غبي مسلم اطلع على هذه المباحث فنفر منها لاعتقاده أنها تنافي الدين [والحق أقول] ان قليلا من الأذكياء المسامين من يصدقون بالدين مع العلوم ، وأكثر المصدقين بالدين من الجهلاء وعلماء الدين . أما أكثر المتعلمين العصريين ، فانهم يقولون : الدين شيء والعلوم شيء .

ولقد أفضت في هذا المقام لدقته على الأفهام ، ولأنه في أعظم النعم الإلهية التي أنعم الله بها على الانسان وقد كفر بها مع وضوحها وظهورها ، فلذلك أعقبها بالكلام على قصة آدم في المقصد السادس .

(المقصد السادس)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ الْمَلَائِكَةَ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (و) اذكريا محمد (اذ قال ربك للملائكة) الأرضيين أو عموم الملائكة (إني جاعل في الأرض خليفة) وهو آدم، وهكذا الأنبياء فهم خلفاء الله في سياسة العباد وهدايتهم لبعث مراتبهم عن الفيض الإلهي فكان الأنبياء واسطة القبول من الحق والايصال للخلق كما كان الغضروف موصلا للعظم الغذاء الذي يحجز اللحم أن يوصله إليه لتباعد ما بينهما من المناسبة (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فتجعل أهل المعصية مكان أهل الطاعة (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) التسبيح : تبعيد الله عن نقصان ، من سبح في الماء والأرض ، وكذلك التقديس من قدس في الأرض : اذا ذهب فيها وأبعد (قال إني أعلم ما لا تعلمون) أعلم أن فيهم من يعبدني ويطيعني (وعلم آدم الأسماء كلها) تعليمه الأسماء كلها بأن خلق من أجزاء مختلفة وقوى متباينة وهو مستعد لادراك أنواع المدركات من المعقولات ، والمحسوسات ، والمتخيلات ، والموهومات ، وألهمه المعرفة والاختراع ، وسائر الصناعات ، وهو متى عرف الألفاظ كلها عرف المعاني كلها (ثم عرضهم على الملائكة) أي عرض المسميات على الملائكة وقال لهم تبكيثا (أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) فمن لم يقدر على معرفة مراتب الأشياء لا يستحق أن يكون خليفة عليها (قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) وهو اعتراف بالجزء ، وأمر آدم أن ينبئهم بأسماء الأشياء كلها ، فلما أعلمهم (قال) الله لهم (ألم أقل لكم) الخ وقوله (وأعلم ما تبدون) أي من قولكم «أتجعل فيها من يفسد فيها» (وما كنتم تكتمون) من قولكم انكم أحق بالخلافة (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) * وقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) سجود الملائكة لآدم تسخيرهم واتباعهم للسعي لمنافع

آدم وبنيه فيما يكفل معاشهم فسجدوا وامتنع إبليس لأنه لا يلهم بالخير كالملائكة ولا يسعى في المنافع المعاشية فأبى امتنع باختياره ، وكان كفره في علم الله ، ثم أمر آدم أن يسكن في الجنة هو وزوجته وأن يأكل رعدا واسعا حيث يشاء ، ونهيا عن الاقتراب من شجرة لا يهيم تمييزها للناس فحملهما الشيطان على الزلة بسببها (فأخرجهما مما كانا فيه) من الكرامة ، فأمر آدم وحواء وذريتهما بأن يهبطوا إلى الأرض وهم متعددون ولهم في الأرض موضع استقرار وتمتع إلى وقت الموت (فتلقى آدم من ربه كلمات) .
 منها أنه قال يارب : ان تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة ؟ قال نعم فتاب آدم فتاب الله عليه أي رجع عليه بالرحمة ، وقوله (فمن تبع هداي) إلى آخره أي بانزال الرسل (فلاخوف عليهم) إلى آخره ، وبقية الآيات واضحة انتهى التفسير اللفظي .

الايضاح

ما أعجب هذه الآيات وما أبدعها أنا الآن في أول سورة قرآنية من حيث النظام والترتيب ابتداء بآدم أبي البشر وجعله مبدءاً لنظام الانسان وتجب لم يتقدم عليها غيرها ولم يصدر القرآن من السير الا بها ولعلك تقول انها قصة أيهم والأب مقدم طبعاً فقدم وضعها . أقول هذه أدلة المصنفين المحدثين ، وأجوبة بعض الخلف الجاهلين . وليست هذه النكات الصغيرة المبتذلة الضئيلة تليق برب الأرباب العالم بالجزئيات والسكريات ، فاصغ لما أقول وارعه حق رعايته واعلم أن هذه القصة نموذج علم الأخلاق والحكمة . ولتقدم لك مقدمة فنقول .
 اعلم أن الحكمة تنقسم إلى عامية وعملية ، والعامية الرياضيات والطبيعات والالهيات ، والعملية سياسة الشخص والمنزل والمدينة ، والطبيعات قدم وصفها في خلق الأرض والسماء والالهيات تلازمها ملازمة العرض للجوهر والظل للشبح والنتيجة للمقدمة والمزوم للآزم . فأما الحكمة العملية وهي تدبير الشخص والمنزل والمدينة فلها أصول ثلاثة في الانسان : وهي القوة الشهوية . والقوة الغضبية . والقوة العقلية ، فبالشهوة الطعام والشراب والتزوج والغضبية الاقدام والحرب والكفاح والكبر والعجب والحسد وما أشبهها ، وبالقوة العقلية الحكمة والعلم . ومن أعجب العجب أن تشتمل قصة آدم على هذا العلم بمخاديفه ، ألم تر إلى حسد إبليس وطغيانه وتكبره واستعظامه واستطارة شرر النار من كبريائه وعظمته ، وكيف كان ذلك قبساً من القوة الغضبية ، وشررا من نارها ولهبها ، وسعيراً من جهنمها ثم كيف حرم آدم وحواء من الجنة ثمرة أكلها وطردا منها بنار جوعة أطفالها واستمر أمرها نخرها منها نادمين وكانا في الجنة منعمين ، أليس أولهما إشارة لغضب الانسان ، وثانيهما لشهوته . وأما العلم فقد سطع نوره ونجم كوكبه وبرزت شمس في منازل قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة) نعم سخرت له السموات والأرضون والبر والبحر والروض والقفر والجبل والسهل فعلم الأسماء والصفات وخواص المخلوقات ليعرفها وتنفعه . ولذلك يقول (وعلم آدم الأسماء) الخ وحري بمن سخرت له الافلاك وقامت بنظامها الاملاك ومن سجدت له العوالم سجود تسخير وقامت له تعظيماً بالتدبير أن يتحلى بالعرفان ليفهمها وينطق باللغات وينظمها دعت حاجته الى العوالم فعرفها له مبدعة فصورتها العقول وخزنتها القلوب ونطقت بها الألسن والشفاه فهنا ظهرت عجائب القرآن وبدائع الفرقان وكيف كان هذا القصص مبدأها لآية بدیعة وحكمة عجيبة تدعو للنظر في علم الأخلاق والبحث في أغوارها والتنقيب عن أسرارها .

الله والملائكة وآدم خليفته

اعلم أن في هذه القصة عجبا عجيبا ، ذلك أنه ذكر الرب والملائكة وآدم وأنه خليفة في قوله (واذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) فنحتاج أن نبين آدم وخلافته والملائكة فنقول : ان معرفة

الله عز وجل وملائكته تجلّ عن العقول ، وتدق عن الأفهام ، وليس يتم ذلك للإنسان إلا بمثال يعرفه ، وشاهد يعقله ، ويحس به من نفسه لأننا في هذه الدنيا محجوبون عن الملائكة الأعلى ، وأقرب الأشياء إلينا أنفسنا فنفسنا فيها رأى شواهد تشير بطرف خفي إلى ما في هذا العالم المشاهد والعقول ، لذلك كان الإنسان خليفة الله ، ومتى أدركنا أنفسنا عرفنا خلقتها واقتربنا من فهم الملائكة وتدبير الله للخلق - ولقد اعتاد الفلاسفة أن يبينوا ذلك بشواهد كما قال سقراط لتلميذه وقد سأله ما الذي يعرفنا أن في هذه العوالم عقولا ؟ فأجاب أليس جسمك مركبا من مواد ترابية ، وأخرى مائية ، وهواء وحرارة ؟ قال بلى : قال فإذا كانت تلك الأجزاء الضئيلة التي تركبت منها صحبها عقل وخامرها فكر فكيف يحرم من العقل والفكر تلك العوالم الكبيرة من الماء والتراب والهواء وعالم النور والنار : لاجرم أن من حكم بأن له عقلا وقد علم أنه من مواد ضئيلة لا يستكثر على الأصول التي تركب منها أن يحكم أنه يحيط بها عقل - أما في القرآن هنا فقد ذكر خلافة الإنسان لله والخلافة تحتاج إلى شرح طويل ، وعلم غزير ، وإنى سألخص لك أيها الفطن هنا قليلا من كثير لتكتفي به خيفة السامة والتطويل .

اعلم أن علماءنا السابقين شرحوا جسم الإنسان ونفسه فجعلوه مشبها للعوالم المحيطة بنا والنفس متصرفة فيه كما تصرف الله عز وجل في العوالم فقالوا : إن الجسم أربع طبقات . طبقة تشبه الأرض . وأخرى تشبه الماء المحيط بها . وأخرى تشبه الهواء . وأخرى أشبه بضوء الكواكب وأشراقها ، فإذا كانت الأرض أسفل والماء يحيط بها والهواء يحويه والضوء مشرق فوق الجميع سائر من الشمس والكواكب إلينا هكذا نرى الرجلين والفخذين يستقر عليهما ما فوقهما مما فيه الماء المخلوط بغيره : وهي الأمعاء والمعدة وفوق ذلك الهواء الداخل في الرئتين وفوق الجميع نور العينين وسمع الأذنين وشم المنخرين وذوق اللسان ولمس اليد ونور الفكر وهذه هي المشرقات اشراقا على الجسم للإحساس والادراك كاشراق أضواء الكواكب ، بل هي أرق وأشرف ، وإذا كان في هذه العوالم بخارات ورياح وسحاب وأمطار وحيوان ونبات ومعادن ، هكذا نرى أنه من هذا الجسد يخرج المخاط والدموع والبصاق وفيه الرياح والرطوبة فالجسد كالأرض وعظامه كالجبال والمخ كالمعدن والجوف كالبحر والأمعاء كالأنهار والعروق كالجداول واللحم كالتراب والشعر كالنبات ومنبته كالتربة الطيبة وما لا نبات فيه كالأرض السبخة وتنفسه كالرياح وكلامه كالرعد وأصواته كالصواعق ونضحكه كالضوء وبكاؤه كالطر وبؤسه وخزنه كظلمة الليل والنوم كالموت واليقظة كالحياة وأيام صباه كفصل الربيع وشبابه كالصيف وكهولته كالخريف وشيخوخته كأيام الشتاء ، هذه نبذة من الكلام على جسمه وبنية هيكله : أما نفسه فاعلم أن للنفوس قوى كثيرة لا يحيط بها العد ولا يعرفها إلا مبدعها وهي مختلفات .

فترى أن النفس أشبه بملك له خمس فرق موكلات بالأخبار كل فرقة تأتي بأخبار ناحيتها لا تشاركها الفرقة الأخرى ولا تعاونها ولا تعرف عنها شيئا ، فترى حاسة البصر تدرك الألوان والحركات والسكنات والظلمات والنور والكواكب البعيدة والأجرام المشرقة والأذن لا تعرف شيئا عنها ولا تدرك إلا حركات الهواء المسماة أصواتا من حيوان أو نبات أو إنسان أو غيرهما ، وحاسة الشم التي في المنخرين ليست تعرف صوراً ولا أصواتاً ، ولكنها تدرك الروائح المنبثة في الهواء الجارية في الأنف السارية في الحاسة المتصلة بالمخ ، ثم حاسة الذوق التي تعرف الطعوم من الحلاوة والمرارة والحوضة والمالحة والدسومة والغفوصة والحرافة والقبوضة والعذوبة ، وهي لا تعلم شيئا من الصور والأنوار والأصوات والروائح ، ثم حاسة اللمس التي تدرك الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة ، وليست تعرف شيئا عما تقدم ، وكل حاسة من هذه توصل أخبارها إلى أوائك الوزراء والكبراء والعظماء الذين هم متعاونون متشاركون متحابون ،

فأولها القوة المتخيلة التي تجتمع عندها هذه الصور من المراتب والمسموعات والمشمومات والمذوقات وتساهمها إلى القوة المفكرة لتحكم بينها ، ثم تجعلها في خزانة إلى وقت الحاجة ، وهي القوة الحافظة ، ثم يأتي الترجان وهو اللسان فيعبر عنها جميعها بكلمات ، ثم تأتي قوة أخرى أشبه بالوزير للملك ، وهي القوة الصانعة في اليد بالكتابة والصناعة ، فانظر أيها الذكي وتجب أفليست ترى أن النفس الانسانية ذات ملك وسلطان على عالم جسماني وآخر معنوي ، والجسماني شابه العوالم المحيطة بنا وكأنه نموذج لها ، ولست أقول إني أبنت لك كل شيء ، ولكنك تستدل به على الباقي بفكرك ودراستك ، واعلم أن الذين لم يمارسوا العلوم لا يعتقدون ما ذكرت إلا تخيلا ولا يدركونه إلا من وراء حجاب .

اجتماع خصائص الحيوان في الانسان

ان لكل نوع من أنواع الحيوان خاصية طبع عليها ، وكلها توجد في الانسان فتراه يطلب المنافع تارة بالبصيرة كالكلب والسنور ، وتارة بالحيلة كالغيبوت ، وتارة بالغلبة كالأسد ، وتارة يفر من اهلاك كالأرانب والظباء والطيور ، وقد يدفع بالسلح كالقنفذ ، وقد يتحصن في الأرض كالقار والهوم ، وهو شجاع كالأسد ، وجبان كالأرنب ، وسيخى كالديك ، وبخيل كالكلب ، وعفيف كالسمك ، وفخور كالغراب ، ووحشى كالغمر ، وأنسى كالجم ، ومحتال كالثعلب ، وسليم كالغنم ، وسريع كالغزال ، وبطىء كالدب ، وعزيز كالفيل ، وذليل كالجل ، ولص كالعق ، وتائه كالطاووس ، وهاد كالقطا ، وضال كالنعامة ، وماهر كالنحل ، وحليم كالجل ، وحقود كالجمار ، وشموس كاليفل ، ومستحل كالذئب ، ومضمر كالقار ، وجهول كالخنزير وغير ذلك ، وهذه كلها راجعة إلى أخلاقه التي اكتسبها بالبيئة والتعليم والميراث وغير ذلك ، ثم اعلم أن القوى المنبثة في الجسم السارية في الأعضاء وأجزائها من اللحم والعروق والأعصاب والعظام والسم والشعر والظفر كثيرة لا يحصى الانسان ، وأنها جميعها متصلة بالمشخ الذي هو عرش النفس وسرير ملكها ، ألا ترى أنه لو قطع عصب العين فلم يتصل بالمشخ لم ير الانسان الأشباح مع سلامة عينه وصحة جسمه ، أولا ترى أن الذي به شلل لا يحس بوخ الأبر في العضو الا شل ذلك لقطع الصلة بين ذلك العضو وبين المشخ . هذه هي صورة الانسان الحسية والمعنوية ، وهو الخليفة لله ، وبمعرفة هذا الخليفة تتصور بعض صفات المستخلف وتديره وملائكته ، النفس واحدة تشرف على الجسم كذلك الله واحد يشرف على العالم ، النفس لها طبقات يابسة وأخرى مائية ، وأخرى هوائية ، وأخرى مضيئة ، هكذا كان لله أرض وماء وهواء وشمس وكواكب : النفس لها حواس كل منها له عالم مخصوص من العوالم وليس يدرك أحدها العالم الآخر ، هكذا خلق الله عز وجل أمما ودولا وجعل ديانات ومذاهب ولغات مختلفات ، وأمما من الحيوانات وكل يعمل على شاكلته ولا يدري الآخر مآلديه كما لا يدري عالم الماء ولا عالم الأرض عالم الكواكب الأخرى ولا عالم القردة مثلا عالم الفراش ، ونرى أهل الأرض لا يعرفون سكان أى عالم آخر ، وكلها عاملة ناصبة راجعة إلى ربها كما رجعت الحواس إلى نفوسنا هذا ولا أطيل عليك في تعداد تلك المشاكلات يفكر ونفسك تستبصر ، وإذا كان في سائر أعضاء الجسد قوى لطيفة معنوية منبثة سارية في جميع الجسم مرتبطة بالنفس المستوية على عرش الجسم في المشخ ، هكذا نقول لله ملائكة مأمورون مقابلة لتلك القوى في أجسامنا ، وبيانه أنك ترى الطعام يصير في المعدة كيموسا ، ثم ينقلب دما فلهما فعظما الخ ، وتصور هناك صور منتظمة بدقة كطبقات العين والمشخ ودقائق تركيبهما ، وهذه تكون بقوى لطيفة ، هكذا جرى الكواكب والشمس والقمر ونحو النبات والحيوان كل ذلك بعالم خفي عن الأبصار يسمى ملائكة مرسله من الله في العوالم كما نبئت تلك القوى في أجسامنا من

عند أنفسنا ، وكما أن النفس تحسّ بكل حركة في الجسم وألم في العظام وفكر في النفس ، هكذا الله تعالى يحيط بالعالم ويعلم سرّه وجهه : واعلم أن هذا مجرد تنظير والافاللة ليس كمثل شيء ، هذا ولا كتف بهذا القدر فقد أثبت لك كيف كان الانسان خليفة بما أثبت من تشابه جسمه ونفسه للعالم المنظور والملائكة وعرفت أنه مثال لعلم الله كل شيء وتديره للعالم ووحدايته ، وذلك بما تحسه من نفسك ، وانما ذكرت لك هذا لتكون تبصرة وذكرى عند ما تصل الى آيات أخرى في القرآن كقوله تعالى « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ، وقوله « بل الانسان على نفسه بصيرة » وكأن الانسان في الأرض عالم صغير يضاهي هذا العالم الكبير ، ولذلك سمى خليفة ، فكانت الخلافة المذكورة هنا ليكون منها استنتاج التبصر في عالم الملائكة ومعرفة الله والتبني المحاورة المذكورة عليها ، وهي (إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) الخ واعلم أن هذه الآية كما جمعت ملخص علم النفس والتشريح في لفظ خليفة جمعت علم الاخلاق في هذه المحاورة ، وهي (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون) .

تفصيل الكلام على الملائكة

ها أنا ذا قد أثبت لك طرفا من علم التشريح وعلم النفس ، وذكرت لك أن القوى التي في نفوسنا تمثيل للملائكة ، وهذا ليس دليلا وانما هو استئناس بضرب الأمثال والمشاهمات ، ولأسمعك دليلا اقناعيا لا يقينيا على وجود عالم الملائكة قبل ذكر آراء نوع الانسان من الأمم المختلفة والأجيال البائدة ، وهذا الدليل استنتجه العقلاء من المشاهدات ومن العوالم المحيطة بنا . انظر الى عالم المعادن والنبات والحيوان والانسان ، فانها كلها انحطت في دركات الجهالة كانت منازلها في الدركات السفلى ، وكلما ارتقت إلى عالم العقل كانت في أوج السكال ، فخذ الحديد مثلا انه أدنى مرتبة من الحشرات والديدان ، وهي أقل مرتبة من الآساد والنور وهي أقل كمالا من القرود ، وهي أنقص من المتوحشين من بنى آدم وهؤلاء يعلمهم النابغون من نوع الانسان وهؤلاء يسوسهم العلماء والحكماء والأنبياء ، وهؤلاء أرقاهم مقاماً وأحلامهم كلاماً ، ولا جرم أن ذوى الشهوات من الانسان يشاركون نظائرهم من الغزلان والخنزير في ما ربههم ، ويعاينهم رجال الجيش والجنود المقابلون لنظائرهم من الآساد والنور . وهؤلاء يسوسهم الملوك والحكماء والأنبياء ، فانظر كيف ترقى العالم المشاهد من من حشرة إلى غزال إلى أسد إلى قرد إلى إنسان إلى حكيم عالم .

واذا كان العلم والحكمة أقصى ما وصل اليه نوع الانسان ، وقد وجدنا الطرف الأدنى من المواليد في غاية الخسة أفلا يقال على سبيل القياس ان الطرف الاعلى في غاية السكال وهي الملائكة ، ولا بد أن تكون قوة السكال الادراك تامة فيهم كما انتهى النقص إلى نوع الجاد ، وأولى الدود الذي هو من أخس أنواع الحيوان وبالأجل نقول انا وجدنا ههنا شهوة بلا عقل في البهائم ، ووجدنا شهوة وعقلا في الانسان ، أفلا نقول ان في الوجود عقلا كاملا بلا شهوة تزرى به .

آراء أهل الديانات والحكماء في الملائكة

فمنهم من ظنّها أجساما هوائية لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السموات .
ومنهم : من ظن أنها هي المرسلات النحوس والسعود من الكواكب ، والكواكب أحياء ناطقة كالانسان : ومدبراتها هي الملائكة كتدبير نفوسنا لأجسامنا .
ومنهم : من يرى الظلمة عنصر الشياطين ، والنور عنصر الملائكة .
ومنهم : من يرى أن الملائكة هي الأرواح البشرية الصافية ، وأن الشياطين هي الأرواح الانسانية الخبيثة .

إذا فارقا أبدانهم .

ومنهم : من يرى أنها هي المدة لنفوسنا الناطقة ونسبتها إليها كنسبة الشمس إلى ضوءها وهناك ملائكة مستفرقة في معرفة الله ، ونسبتها إلى الأولى المدة للأفلاك ولنفسنا : كنسبة الأولى إلى نفوسنا . وهناك مدبرات لأحوال العالم السفلي ، فإن كانت للخير ، فهي الملائكة ، وإن كانت للشر ، فهي الشياطين . فالقول الأول لبعض علماء الاسلام . والثاني لطوائف من عبدة الأوثان . والثالث قول معظم المجوس والثنوية . والرابع للنصارى . والخامس للفلاسفة ، هذا .

ومن الناس من قال لا سبيل إلى إثبات الملائكة بالعقل . ومنهم من قال انهم به ثابتون ، والفلاسفة على هذا ، وقد نذكر أدلة إقناعية . منها أن الصناعات البشرية لن تتقن إلا بصانع ذي عقل عالم بها . والعالم المشاهد حولنا فيه ذلك الاتقان : كالنبات والحيوان ، فلا بد من نفوس تصورت تلك المصنوعات ، ونفوس أخرى عامت تلك الصناعة ، فالأولى تسمى نفوسا . والثانية تسمى عقولا . وذلك كما في أحوال الناس ان كل ذي علم أو صناعة لابد أن يكون له معلم أعلى منه أخرج ما في القوة منه إلى الفعل .

ويقول أصحاب المجاهدات أنهم أثبتوها من جهة المكاشفة ، فهي في حقهم يقين وفي حق غيرهم اقناع ، وقد يستدل بالرؤيا الصادقة .

ولقد رأيت دليلا في كتاب يسمى « راجايوفا » بالانجليزية مترجما من الهندية . قال ان الناس يصدقون أصحاب العلوم وان لم يمارسوها لعلمهم أنهم ان سلكوا سبيل أربابها ، وصلوا إلى ما وصلوا إليه ، ألا ترى أن علماء الطب موثوق بهم في عالم الحيوانات الصغيرة المسماة (بالمكروب) التي تفتك بالاجسام . وتأتي بأمراض الحصباء والجدرى والطاعون : كذلك يصدقون علماء الفلك في أبعاد ومقادير الكواكب وتحليلها بطريق الضوء ، هكذا يقال : في أمر الملائكة ، فقد أجمع المصفون نفوسهم ، والمجاهدون من سائر الملل والنحل : أنهم كشفوا ذلك العالم وعرفوه ، ومن ذوى الحاجات من اعتقد ذلك بما وصل اليهم من بلوغ مقاصدهم عند الاستغاثة بتلك النفوس الشريفة . هذا ملخص ما قرأته من كلام أهل النظر . أما الدلائل النقلية فلا نزاع أن الأنبياء متفقون على إثبات الملائكة ، فلنبسط الكلام عليها الآن ليرجع إليه عند الوصول إلى مكرراتها . وحاصله أنها مسوقة لعلم الأخلاق المرموز له بكبر ابليس ، وحرص آدم ، وحسد قاييل الآتي في سورة المائدة .

بيان علم الأخلاق من قصة آدم وقاييل وهابيل

ان الأخلاق أربعة أنواع لا تزال النفس بعد مفارقتها البدن ، وهذه الأربعة هي : الأخلاق المكتسبة المعتادة . العلوم التعليمية . الآراء المعتمدة . الأعمال المكتسبة بالاختيار والارادة . والأولى منها وهي : الأخلاق المكتسبة تنقسم إلى قسمين : رديئة وحيدة ، والأخلاق الرديئة جميعها ترجع إلى ثلاثة أصول . كبر ابليس ، وحرص آدم ، وحسد قاييل ، وهذه الخصال الثلاث أمهات جميع الخبايا والمعاصي ، وبيانها :

أن الكبر من أشكاله ومشابهاته : عجب المرء برأى نفسه ، والأنفة عن قبول الحق ، وترك الإقرار به ، والتعدي والخروج عن الحد والظلم والجور عند القدرة في الحكومة ، وترك الانصاف في المعاملة ، والتهاون في الواجبات ، والاعراض عن اللوازم من الحقوق والقيحة والصلافة في الوجه في دفع الحق والفحش والسفاهة في الخطاب والجدال والليجاج في الخصومات والحزن والنزق في العشرة والخدمة ، والبطش في التصرف ، والغش والمكر في المعاملة ، والاستصغار والاحتقار لأبناء الجنس ، والاستطالة عليهم ، والافتخار في الأمور بما خص

من المواهب ، والانكار لفضل من فضل عليه ، والبغى والعدوان وماشابه ذلك . هذا باب الكبير .
أما الحرص وهو الخصلة الثانية : فمن أشكاله وأمثاله ومشابهاته : الطمع الكاذب ، وشدة الرغبة ، والطلب الخيث ، والمجالة في السعي ، وتعب البدن ، وعناء النفس ، وكد الروح في الجمع ، والادّخار ، والاستكثار ، والاحتكار من خوف الفقر ، والبخل ، والمنع ، والشح ، واللؤم ، والنكد وما يتبعها من الشؤم والخذلان ، وقلة الانتفاع بالموجود ، والحرمان للذخور ، والمضايقة في المعاملة ، والمناقشة في الحساب ، وسوء الظنّ بالأمين ، والتهمة للثقات المؤمنين ، والخيانة في الأمانة ، وطلب الحرام ، وهتك الحرم ، وارتكاب الفحشاء ، واضمار القلب على الاصرار ، واطهار الكذب ، والحيل في أسباب الطلب من البيع والشراء ، والغش في الأمتعة ، وقلة النصيحة في الصنائع ، والخلف واليمين الكاذبة عند الاعتذار في الحكومات ، وأقاويل الزور في أسباب الخصومات والعداوة والتعدى في الحدود وما شاكلها من الخصال المذمومة ، والأخلاق الرديئة ، والأقاويل الباطلة ، والأفعال القبيحة ، والأعمال السيئة . هذا باب الحرص وأخواته .

أما الخصلة الثالثة ، وهي الحسد : فمن أشكاله الحقد ، والغل ، والدغل ، وهذه تدعو الى المكاشفة بالعداوة ، والبغضاء ، والبغى ، والغضب ، والحرص ، والتعدى ، والعدوان ، وقساوة القلب ، وقلة الرحمة ، والفظاظة ، والغلظة ، والطعن ، والالغو ، والفحشاء ، وهي تكون سببا للخصومة ، والشر ، والحرب ، والقتال إن أمكن جهرا ، وإلا كان بالحيل ، والخداع ، والغدر ، والخيانة ، والسعاية ، والغيبة ، والنميمة ، والزور ، والمبهتان ، والكذب ، والمداهنة ، والنفاق ، والرياء ، فيكون سبب تشتيت الشمل ، وقطيعة الرحم ، والبعد من الاخوان ، ومفارقة الالف ، وخراب الديار ، ووحشة الوحدة ، والحزن ، والغم ، وألم القلب ، وهموم النفس وعذاب الارواح ، وتنغيص العيش ، وسوء المنقلب ، وخسران الدنيا والآخرة : نعوذ بالله من هذه الخصال انتهى ملخصا من اخوان الصفا .

وأنا أقول تعجب : كيف فصل علماءنا الاخلاق السيئة والاعمال القبيحة ، واستنتجوها من كبرابليس وحرص آدم وحسد قابيل ، وانظر كيف كانت قصص القرآن لغايات سامية وعالوم عالية .
هذه قصة آدم كيف تكرر ذكرها في القرآن وجاء في سور مختلفة ليتلوها المسلمون صباحا ومساء ، وغاية القصد منها تطهير النفوس ، وصفاء القلوب ، وسعادة الحياة ، واتحاد الأمة بمحاسن الاخلاق ، فأما العائمة وصغار العلماء والقراء والفقهاء ، فانهم لاحظ لهم منها الا أن يسمعوها بصوت حسن ويعربوها ، ويعرفوا صرفها واشتقاقها وما حوته من البلاغة والفصاحة ، وأن القرآن مجز للبشر [واني لعلّى ظن أن أمة الاسلام ستنتظر عما قريب في مقصود القرآن] من هذه القصص وعجائبها ، وما في باطنها من طهارة الاخلاق وجمال الشرائع فلعمري لم أر في بلادنا المصرية شركة تجارة رائجة ، ولا معاملة صادقة ، ولا أمانة في بيع وشراء الا قليلا . وأرى أمم الفرنجة هم أصحاب الحل والعقد في البلاد سياسة وتجارة ، فتجارتهم رابحة ، وسياستهم قائمة ، وترى أما كنهم نظيفة ، وأسعارهم محددة ، ووجوههم باسمية ، ووعودهم صادقة ، فعلى العلماء الاسلاميين أن ينفضوا غبار الكسل عن أنفسهم ، ويدعوا الأمة الاسلامية للأمانة والصدق والاخلاص ، وعدم الحسد ، وطهارة القلوب ، هذا هو الطريق المستقيم لسعادتهم في هذه الدنيا ثم الأخرى ، ولقد رأيت بعض المصريين المسلمين قد أخذوا يصدقون في الموعد والمعاملة ، وسيقوم في الأمة ان شاء الله رجال صادقون يرقون الاخلاق وسيظهر فضل الاسلام في أقرب زمن والسلام [ولما كان بنو إسرائيل] من أقدم الأمم ، وهم بنو آدم أخذ يشرح حالهم ويذم صنعهم ، وهم ما اعتبروا بما أنزل على آدم من العبر ، وهم يقرءون ذلك في التوراة وما حلّ جيدها الا تذكرة لليهود ، وليعلموا أن من عصى وتكبر زالت نعمته ، ودامت حسرته .

المقصد السابع ، وفيه فصلان

الفصل الأول

ما اقترفه قدماء بني اسرائيل اليهود وما أوتوا من نعمة فلم يشكروها .
مما جاء في التوراة في سفر الخروج وانزال القرآن مصدقا ، وهي عشرة يواقيت

الياقوتة الأولى

نجاة بني اسرائيل من عذاب المصريين في قوله تعالى :

يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيَّائِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ * اتَّامِرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَثُلُونُ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ *

التفسير اللفظي

(يا بني اسرائيل) أى أولاد يعقوب ، واسرائيل لقبه ، ومعناه بالعبرية صفوة الله ، ويقال عبد الله أيضا ، (اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) من المال والولد والصحة والحواس ، وانى أنجيت آباءكم من فرعون وأغرقته وعفوت عنهم بعد اتخاذهم الجمل ، ثم انى أرسلت لكم محمدا مصدقا للتوراة ، فتفذكروا في ذلك كله واشكروا النعمة بالقيام بما وجب فيها بالأعمال الصالحة والنصيحة ، والایمان بالنبي الذي أرسلته (وأوفوا بعهدى) بالایمان والعمل الصالح بما نصبت من الدلائل الكونية ، والمعارف الالهية ، وما أنزلت من الكتب السماوية لاسيما آخرها ، وهو القرآن (أوف بعهدكم) فأدفع عنكم ما أثقلكم من الأغلال ، وأحسن لكم الاثابة والكرامة والنعيم المقيم (وإيى فارهبون) فى كل ما تتركون وما تفعلون ، فراقبوني فى حركاتكم وسكناتكم ، والرهبه خوف يصحبه احتراس (وآمنوا بما أنزلت مصدقا لماعكم) وهو القرآن ، وهذا تخصيص

بعد التعميم اهتماماً بشأنه لأنه أهم ما عاهدوا عليه ، فهو أولى بالوفاء به بأن يكونوا به مؤمنين لأنه مصدق للتوراة والإنجيل مطابق لأوصافه المذكورة فيهما ، وموافق لهما في تحريم الحرام وإباحة ما يحل مع مراعاة الزمان في السابق واللاحق ، وفي التوحيد ، ونصب الدلائل ، وطالب الاستقامة ، وهداية الناس (ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) ولما كنتم أهل نظر وكتاب ، وقد بشرتم برسولي وجب أن تكونوا أول فريق مؤمن به فلا تكفروا به ، فكيف تكونون أول من كفروا به من أهل الكتاب ، وكيف تشترون أي تستبدلون بالإيمان عرض الدنيا من الهدايا والتحف التي تنالونها من الناس بسبب ما نلتهم من الرياسة عليهم في الدين وعرض الدنيا قليل ، والإيمان لا يدانيه شيء عندى (وإياي فاتقون) بالإيمان (ولا تلبسوا الحق بالباطل) ولا تخطوا الحق الذي أنزلته بالباطل الذي تخرعون عنه (وتكتموا الحق) الذي تعاهدونه عن الجاهلين به (وأتمتعوا به) أنكم قد لبستم وكتمتم ، فان سكتكم فحق حتى لا يعرف ، وإن نطقتم أتيتكم بالباطل لتدحضوا به الحق ، وأتمتعوا به أنكم في الحالين حائدون عن الصراط السوي (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) كما أمرتكم بالإيمان بالذي وبالقرآن آمركم أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، ولتكن الصلاة جماعة ، فانها أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة لاجتماع النفوس واتحادها ، فتكون أقرب إلى الله (أناأمرون الناس بالبر) التوسع في الخير (وتنسون أنفسكم) وتركونها من البر (وأتمتعوا الكتاب أفلا تعقلون) كان أحبار اليهود ينصحون سرّا بإتباع محمد ﷺ ويأمرون الناس بالصدقات ، أما هم فكانوا لا يتبعونه خوفا على الرياسة ولا يتصدقون خيفة الفقر ، والتوراة بين أيديهم وفيها الوعيد الشديد على من ترك البر وخالف قوله فعهله ، فهلا منعتم عقولهم وصاتهم ألبابهم عما يعملون من مخالفة الأقوال للأفعال ، وليس المراد أن يمنع الفاسق من النهي عن المنكر ، كلا ، وإنما تجب مطابقة الأقوال للأفعال ، والا فنحن مأمورون أن نترك المعصية ، وأن نهى عنها ، وليس ترك أحدهما بمانع من القيام بالآخر ، فالآية تحضنا على الجمع بين الأمرين لأنها تمنعنا عن أحدهما إذا تركنا الآخر ، وإذا كنتم أيها الأحبار شق عليكم ترك الرياسة ، وخشيتكم الذلة والفقر بإتباع القرآن والإيمان بمحمد ، فلتعلموا أن الصبر والصلاة بهما تنالون الفرج ، فالصابر المنتظر الفرج من الله الذي يدعو سبحانه وتعالى يجاب لمطالب مادام مضطرا كما قال « أمتن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض » ، وذلك قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) فتكون الصلاة بمعنى الدعاء ، والدعاء مستجاب لمن صدقت نيته وعزمته ، وقد يراد بهما الصوم والصلاة الشرعيان (وانها لكبيرة إلا على الخاشعين) أي وإن الاستعانة بالصبر وانتظار الفرج والدعاء مع توجه الهمة لثقيلة إلا على الخاشعين ، ويصح رجوع الضمير للصلاة (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) أي يتوقعون لقاء الله تعالى (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) وهذا ظاهر مما تقدم (وأنى فضلتكم على العالمين) أي عالمي زمانهم : أي تفضيل آبائهم على عالم زمانهم أيام موسى (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعا ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) أي لا يقبل من النفس العاصية شفاعا الشافعين ، ولا يؤخذ منها فدية ، ولا ناصر ينصرهم . وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية لنفي الشفاعا عن مرتكب الكبيرة ، وخصها بالجهور بالكفار لما ورد من الآيات والأحاديث في الشفاعا (واذ نجيناكم من آل فرعون) من فرعون وقومه وأصل آل أهل ، ولذلك يصغر على أهيل ، ويخص استعماله بأولى الخطر كالمملوك وأشباههم . وقوله (يسومونكم) حال من آل فرعون : أي يولونكم ، وقوله (سوء العذاب) مفعول ثان ليسومونكم ، ثم أبان سوء العذاب بقوله (يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم) يتركون بناتكم أحياء للخدمة (وفي ذلبيكم بلاء من ربكم

عظيم) محنة عظيمة ، أو نعمة كذلك : اذا أريد صنع فرعون في الأولى ، أو أريد الانجاء في الثانية ، والبلاء الاختبار والامتحان ، وهو شائع فيهما انتهى التفسير اللفظي .

ايضاح المعاني

اعلم أن هذه الآيات فيها الكلام على العهد وعلى الشفاعة وعلى تفضيل بني اسرائيل ، فلنبسط الكلام عليها . فنقول :

اعلم أن العهد الذي أمر اليهود أن يوفوا به ، إما أن يكون المقصود به فعل الطاعات واجتناب المعاصي ، وإما أن يكون المراد به ما أثبت في الكتب السماوية في نبوة سيدنا محمد ﷺ . ولقد ذكر تلك العهود المفسرون ، كالامام الرازي اذا ثبت ما جاء في الفصل التاسع من السفر الأول من التوراة وتبشير الملك لهاجر أن يكون لها ولد فوق الجميع . وما جاء في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس . وما جاء في السفر العشرين من هذا السفر وما جاء في كتاب أشعياء في الفصل الثاني والعشرين . ولما نظرت في التوراة وجدتها قد حذفت منها تلك العبارات وطاحت تلك البشارات ولم يبق من الكتب السماوية كتاب لم تمتد اليه أيدي المغيرين الا انجيل برنابا الذي كان سرا مكتوما عند النصاري قديما [وقد ترجمه حديثا الدكتور خليل بك سعاده من الانجليزية] ونشره صديقنا العلامة السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار .

قال في الفصل الثاني والسبعين قال يسوع : لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا لأنني لست أنا الذي خلقتكم بل الله الذي خلقكم يحميكم ، أما من خصوصي فاني قد أتيت لأهني الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص للعالم لكن احذروا أن تغشوا لأنه سيأتي أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامي وينجسون انجيلي ، حينئذ قال اندراوس : يا معلم اذكر لنا علامة لنعرفه ، أجاب يسوع انه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعدة سنين حينما يبطل انجيلي ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنا في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء يعرفه أحد مختاري الله ، وهو سيظهره للعالم وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ويبعد عبادة الأصنام من العالم ، واني أسر بذلك لأنه بواسطته سيعلمن ويمجدن الله ويظهرن صدقي وسينتقم من الذين سيقولون اني أكبر من انسان ، الحق أقول لكم ان القمر سيعطيه رقادا في صباه ومتى كبر هو فليحذر العالم أن يذبذه لأنه سيفتك بعبدة الأصنام ، فان موسى عبد الله قتل أكثر من ذلك كثيرا ولم يبق يسوع على المدن التي أحرقوها وقتلوا الأطفال ، لان القرحة المزمنة يستعمل لها السكى .

وسيحيى بحق أجلى من سائر الأنبياء ، وسيخرج من لا يحسن السلوك في العالم ، وستحجى طربا أبراج مدينة آبائنا بعضها بعضا ، فتنى شوهد سقوط عباد الأصنام إلى الأرض ، واعترف بأني بشر كسائر البشر فالحق أقول لكم ان نبي الله حينئذ يأتي .

وقال في الفصل الثاني والثمانين : ثم التفت الى المرأة ، وقال أيتها المرأة انكم أنتم السامريين تسجدون لما لا تعرفون ، أما نحن العبرانيين فنسجد لمن نعرف ، الحق أقول لك ان الله روح وحق ، ويجب أن يسجد له بالروح والحق ، لأن عهد الله انما أخذ في اورشليم في هيكل سليمان لافي موضع آخر ، ولكن صدقيني أنه يأتي وقت يعطى الله فيه رحته في مدينة أخرى ، ويمكن السجود له في كل مكان بالحق ويقبل الله الصلاة الحقيقية في كل مكان برحمته ، أجابت المرأة : اننا ننتظر مسيا فتى جاء يعامنا ، أجاب يسوع أنعمين أيتها المرأة ان مسيا لا بد أن يأتي ، أجابت نعم ياسيد حينئذ تهلل يسوع ، وقال يلوح لي أيتها المرأة انك مؤمنة فاعلمي اذن أنه بالإيمان بمسيا سيخلص كل مختاري الله اذن وجب أن نعرف محبي مسيا ، قالت المرأة لعلك أنت مسيا أيها السيد ، أجاب يسوع اني حقا أرسلت إلى بيت اسرائيل نبي خلاص ، ولكن سيأتي بعدى مسيا المرسل

من الله لكل العالم الذي لأجله خلق الله العالم ، حينئذ يسجد لله في كل العالم ، وتنال الرحمة حتى ان سنة اليوبيل التي تجيء الآن كل مائة سنة سيجعلها مسيا كل سنة في كل مكان ، حينئذ تركت المرأة جرتها وأسمرت إلى المدينة لتخبر بكل ما سمعت من يسوع .

وقال في الفصل السادس والتسعين : ولما انتهت الصلاة . قال الكاهن بصوت عال : قف يا يسوع لأنه يجب علينا أن نعرف من أنت تسكيننا لأمتنا ؟ أجاب يسوع : أنا يسوع ابن مريم من نسل داود بشر مائت ويخاف الله وأطلب أن لا يهطى الاكرام والمجد الا لله ، أجاب الكاهن انه مكتوب في كتاب موسى : ان إلهنا سيرسل لنا مسيا الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله ، وسيأتي للعالم برحة الله ، لذلك أرجوكم أن تقول لنا الحق ، هل أنت مسيا الله الذي نتظره ، أجاب يسوع حقا ان الله وعد هكذا ، ولكني لست هو لأنه خلق قبلي ، وسيأتي بعدى ، إلى أن قال لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسى انى لست مسيا الذي نتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلا بذلك أبارك كل قبائل الأرض ، ولكن عند ما يأخذنى الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله فيتنجس بسبب هذا كلامى وتعليمى حتى لا يكاد يبق ثلاثون مؤمنا ، حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذى خلق كل الأشياء لأجله الذى سيأتى من الجنوب بقوة وسيبيد الاصنام وعبدية الاصنام وسينزع من الشيطان سلطته على البشر ، وسيأتى برحة الله لخلاص الذين يؤمنون به ، وسيكون من يؤمن بكلامه مبارك إلى أن قال : ولكن تعزيتى هى فى محبى الرسول الذى سيبيد كل رأى كاذب فى وسيمتد دينه ، ويعم العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم ، وان ما يعزىنى هو أن لانهاية لدينه ، لأن الله سيحفظه صحيحا وبعد أسطر قال حينئذ الكاهن : ماذا يسمى مسيا ، وما هى العلامة التى تملن مجيئه ؟ أجاب يسوع ان اسم مسيا عجيب ، لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها فى بهاء سماءى . قال الله اصبر يا محمد لأنى لأجلك أريد أن أخلق الجنة ، والعالم وجاغفيرا من الخلائق التى أهبالك ، حتى أن من يباركك يكون مباركا ، ومن يلعنك يكون ملعونا ، ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولى للخلاص ، وتكون كلمتك صادقة حتى ان السماء والأرض تهتأن ، ولكن إيمانك لا يهن أبدا ، ان اسمك المبارك محمد ، حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : يا الله أرسل لنا رسولك ، يا محمد تعال سر يها خلاص العالم .

وقال فى الفصل السادس والثلاثين بعد المائة : وبعد هذه السنين يجيى الملاك جبريل إلى الجحيم ويسمعهم يقولون يا محمد أين وعدك لنا ان من كان على دينك لا يمكث فى الجحيم إلى الأبد ، فيعود حينئذ ملاك الله إلى الجنة ، وبعد أن يقترب من رسول الله باحترام يقص عليه ما سمع ، حينئذ يكلم الرسول الله ويقول : ربى وإلهى اذكر وعدك لى أنا عبدك بأن لا يمكث الذين قبلوا دينى فى الجحيم إلى الأبد ، فيجيب الله : اطلب ما تريد يا خيلى لأنى أهبك كل ما تطلب .

وقال فى الفصل السابع والثلاثين بعد المائة ، حينئذ يقول رسول الله : يارب يوجد فى الجحيم من لبث سبعين ألف سنة أين رحمتك يارب ؟ انى أضرع إليك يارب أن تعتقهم من هذه العقوبات المرة ، فيأمر الله حينئذ الملائكة الأربعة المقرين لله أن يذهبوا إلى الجحيم ويخرجوا كل من كان على دين رسوله ويقوده إلى الجنة ، وهو ساسيفعلونه ، ويكون من مبلغ جدوى دين رسول الله أن كل من آمن به يذهب إلى الجنة بعد العقوبة التى تكلمت عنها حتى لو لم يعمل عملا صالحا لأنه مات على دينه اه .

أقول : وهذا القول وأمثاله ان ثبت يكون مؤولا ، والا فالله عز وجل يعلم كل شيء ، ونحن انما نقلنا هذا لاثبات ما رأيناه فى الانجيل .

وجاء في الفصل الثاني والاربعين بعد المائة قال : الكتبة والفريسيون لرئيس الكهنة ماذا نفعل لو صار هذا الرجل ملكا حقا ان ذلك يكون وبالاعليتنا ، فانه يريد أن يصلح عبادة الله على حسب السنة القديمة ، لأنه لا يقدر أن يبطل تقاليدنا ، فكيف يكون مصيرنا تحت سلطان رجل هكذا ؟ حقا اننا نهلك نحن وأولادنا لأننا اذا طردنا من وظيفتنا اضطررنا أن نستعطي خبزنا ، أما الآن فالجدة لنا ، لك ووال أجنيان عن شريعتنا ولا يباليان بشر يعتنا كما لا نبالي نحن بشر يعتهم ، ولذلك نقدر أن نفعل كل ما نريد ، فان أخطأنا فان إلهنا رحيم يمكن استرضاؤه بالضحية والصوم ، ولكن إذا صار هذا الرجل ملكا علينا فلن يسترضى الا إذا رأى عبادة الله كما كتب موسى ، وأنتكي من ذلك أنه يقول : ان مسيا لا يأتي من نسل داود [كما قال لنا أحد تلاميذه الأخصاء] بل يقول : انه يأتي من نسل اسماعيل ، وان الموعد صنع باسماعيل لا باسحق ، فإذا يكون الثمر اذا تركنا هذا الانسان يعيش ، من المؤكد أن الاسماعيليين يصيرون ذوى وجاهة عند الرومانيين فيعطونهم بلادنا ملكا ، وهكذا يصير إسرائيل عرضة للعبودية كما كان قديما ، فلما سمع رئيس الكهنة هذا الرأي ، أجاب أنه يجب أن يتفق مع هيرودوس والوالى ، لأن الشعب كثير الميل اليه حتى أنه لا يمكننا اجراء شيء بدون الجند وان شاء الله نتمكن بواسطة الجند من القيام بهذا العمل .

وجاء في الفصل الحادى والتسعين بعد المائة ، فقال من ثم الكاتب : لقد رأيت كتيباً قديماً مكتوباً بيد موسى ويشوع [الذى أوقف الشمس] خادمى ونبي الله ، وهو كتاب موسى الحقيقى فففيه مكتوب : ان اسمعيل أب لمسيا واسحق أب لرسول مسيا ، وهكذا يقول الكتاب ان موسى قال : أيها الرب إله إسرائيل القدير الرحيم اظهر لعبدك فى سناء مجدك ، فأراه من ثم رسوله على ذراعى اسمعيل ، واسمعيل على ذراعى ابراهيم ، ووقف على مقربة من اسمعيل اسحق ، وكان على ذراعيه طفل يشير بأصبعه الى رسول الله قائلاً هذا هو الذى لأجله خلق الله كل شيء ، فصرخ موسى من ثم بفرح : يا اسمعيل ان فى ذراعيك العالم كله والجنة اذ كرنى أنا عبد الله لأجد نعمة فى نظر الله بسبب ابنك الذى لأجله صنع الله كل شيء .

وجاء في الفصل الثانى والتسعين بعد المائة : لا يوجد فى ذلك الكتاب ان الله يأكل لحم المواشى أو الغنم ، ولا يوجد فى ذلك الكتاب ان الله قد حصر رجته فى اسرائيل فقط ، بل ان الله يرحم كل انسان يطلب الله خالقه بالحق ، لم أتمكن من قراءة هذا الكتاب كله ، لأن رئيس الكهنة الذى كنت فى مكتبته نهانى قائلاً [ان اسماعيليا قد كتبه] فقال حينئذ يسوع : انظر أن لا تعود أبداً ، فتحجز الحق لأنه بالايمان بمسيا سيعطى الله الخلاص للبشر ولن يخلص أحد بدونه اه .

هذه هى البشارات الواردة فى انجيل برنابا ، وانما أثبت هنا هذه البشارات ، لأن هذا الكتاب قد ورد الأمر بعدم نشره وباحراقه فى بلادنا المصرية ، فانهزت فرصة اطلاعى عليه ليمقى تذكرة لمن بعدنا ، ولقد طبع سنة ١٣٢٥ هجرية سنة ١٩٠٧ ميلادية ، ولم يبق منه الا نسخ تمحى بعد قليل من الوجود وتنساه الأجيال المقبلة ، ولقد اضطرت آراء الباحثين فى هذا الانجيل ، وقد ثبت ثبوتاً لا شك فيه أن المسلمين جميعاً من عصر النبوة الى العصور الأخيرة يجهلونه حق الجهل ، ولم يتعرض له أحد من الباحثين الذين يردون على المسيحيين بكتابهم ، وقد جاء ذكر النبى ﷺ فيه صريحاً مراراً ، ويقول بعض المعترضين : ان هذا هو الذى يورث الشك ، لأن الصراحة الى هذا الحد غير معروفة عن الكتب السماوية فى أمثال هذه البشارات ويقول المؤيدون له : انه لم يكتبه مسلم بدليل أنه لم يكن له ذكر فى فهارس مكاتب المسلمين ، ويقولون : ان البابا جلاسيوس الأول الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٣ ميلادية أصدر أمراً يعدد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها ، وفى عدادها كتاب يسمى [انجيل برنابا] فيسكون هذا الانجيل موجوداً

قبل ظهور الاسلام بزمن طويل :
وأجمع الباحثون على أنه انجيل ملئ علما وحكمة وأخلاقا وعفة يضيء النفوس البشرية بأنواره ، وهو أفضل من الأنجيل ، ولقد قالوا أيضا : ان المسيح ليست عنده هذه الملكة العالمية والحكمة العالية الحقيقة وبالجملة فالكتاب نافع من حيث الاطلاع عليه والله أعلم ، ثم اعلم أن برنابا من حوارى عيسى ، وفى انجيله مخالفات للأنجيل ، مثل ان المسيح لم يصاب انما هو يهوذا الخائن الذى شبه به فجاء مطابقا للقرآن « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » ، ومثل قوله : إني لست إلهًا ولست ابن الله ، وفى تصريحه بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

أما الشفاعة : فاعلم أن أهل السنة قالوا بأسقاط العذاب عن المستحقين للعقاب . إما بأن يشفع لهم يوم القيامة فى العرصات حتى لا يدخلوا النار ، وان دخلوا النار يشفع لهم حتى يخرجوا منها ويدخلوا الجنة ، وقالت المعتزلة انها تكون للمستحقين للثواب بأن تحصل لهم زيادة المنافع على قدر ما استحقوه ، وانفقوا على أنها ليست للكفار ، وقد كتبت فى هذا الموضوع مقالا مقتبسة أصوله من كلام الأستاذ محي الدين بن عربى والامام الغزالى ، فأحببت ذكره هنا تذكرة للعقلاء وتبصرة للمسامين وتقوية للتربية الاسلامية فى مستقبل الزمان :

مبحث الشفاعة

اعلم أن الأئمة الاسلامية ، قد أجمعت أنه ﷺ يشفع فى أمته ، وهذا أمر مجمع عليه لافرق بين السنية والمعتزلة والفلاسفة منهم ، ولكنهم اختلفوا فى المقصود منها ، وها أنا ذا أذكر لك الحقيقة واضحة جليلة خالصة ظاهرة ، ثم أطبق عليها سائر الأقوال ، والآيات ، والأحاديث ، بحيث يتفق المشرب الدينى ، والمنهج القويم للتربية الاسلامية ، وهذا هو الذى انشرح له صدرى وصرت موقنا به تحقيقا .

فاعلم أرشدك الله أن النبى ﷺ كالشمس المشرقة ، كما قال تعالى « وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » والشمس مشرقة على اليابسة ، والبحار ، والآكام ، والغياض ، والنبات ، والشجر ، والأرض السبخة والأرض الطيبة ، وكل من تلك المواضع يأخذ حظه من ضوئها على مقدار استعدادها ، فأما البحر فانه يزجى السحب بأشراق الشمس على أرجائه ، فيكون بخار فسحاب فطريحي الأرض ، وأما الجبال فان ماعلى بعضها من الثلوج المتراكمة تنزل ماء شيئا فشيئا الى باطنها ، ثم تخرج ينابيع فتجى الأرض ، وأما الهواء فيتمدد وتكون منه الرياح ، والأعاصير ، والزلازل ، وأما الأرض الطيبة فتخرج زراعا مختلفا ألوانه ، وأما الأرض السبخة فلا تخرج شيئا ، وقد تخرجه نكدا ، هذا هو المثل الذى أردت ضربه لحال النبى ﷺ مع الناس ، فلنشبه القلوب النقية الطيبة بالبحار ، اذا سمعت الدين أزجت السحب ، ونفعت الناس وأحيت قلوبهم ، ولنجعل القلوب الطيبة كالصالحين ، والأرض السبخة كالفسجار الذين لا يرجى نفعهم ، والملوك والأمراء ورجال الدولة والوعاظ كذلك الرياح التى يهتز لها جميع ماعلى الأرض ، وفى الجوف فتعتدل وتجد وتستقيم وتحوط الملوك العلماء ، والشعب بالجيوش محافظة عليهم ، فكما اختلف الزرع لونا ورائحة وطعما ، وهكذا الشجر ، والبر ، والبحر ، والشمس ، واحدة ، هكذا تختلف الأمة التى تتبع نبيا فى أطوارها وأحوالها الدينية على حسب أمرجتها وأخلاقها وعوائدها ويثتها ، فالله نور السموات والأرض أشرق نوره على رسول الله ﷺ ، وهو مشرق على الناس ، فلا جرم يختلفون فى قبوله اختلف أحوالهم ، وتكون أحوالهم فى الآخرة على مقتضى ذلك الاختلاف ، فالمرسلون واسطة للتعليم ، والناس المرسل اليهم ، هم الذين يختلفون فى الاتباع باختلاف أطوارهم واستعدادهم ، وهم مسئولون يوم القيامة عن أعمالهم على مقتضى ما بلغهم الواسطة ، فاذا كانت الأرض

الطيبة ، والأرض اليابسة ، والبحر اختلفت في القابلية ، والسبخة ، هكذا سيكون الناس في أحوال الآخرة على مقتضى ما كسبوا من الوسطة الشفيع لهم عند الله تعالى « وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » ويقرب من هذا ما ورد ، فمن أبي موسى عبد الله ابن قيس الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ [ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به] فهذا الحديث أفادنا أن اختلاف النتائج عاما وعملا وجهلا لاختلاف الناس في أطوارهم ، كما اختلفت الأرض لما ورد عليها الماء في كيفية قبوله ، وكما قلنا باختلاف أحوال الأرض وما عليها باختلاف قبولها لضوء الشمس ، فالغيض من الشمس ، ومن الغيث كامل غير منقوص ، والاختلاف إنما جاء من الجهات القابلة للضوء والغيث .

واعلم ان للشفاعة بذورا ونباتا وثمارا ، فبذورها العلم ، ونباتها العمل ، وثمرها النجاة في الآخرة ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام عاموا الناس في الدنيا ، وفيها غرسوا البذور ، والناس إذا عملوا بما سمعوا منهم ، ولم تكن تلك الشرائع منسوخة فقد استعدوا للنتيجة ، ويوم القيامة ينالون تلك الثمرة ، وهي النجاة والارتقاء ، ولكن تلك الثمرات تختلف باختلاف أعمالهم وجددهم وحبههم للخير وأخلاقهم ، فبإحدى الشفاعة العلم ، وأوسطها العمل ، ونهايتها الفوز والرقى في الآخرة ، بل كثيرا ما تظهر بعض الثمرات في الحياة الدنيا بالتوفيق ، والنصر والعز ، وفي الحديث يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء ، فهذا يفيد أن الشفاعة تابعة للإقتداء ، فالأنبياء عاموا العلماء والعلماء عاموا الناس ، وأفضل الناس بعد الأنبياء العلماء ، فالشهداء : وهم بما قدّموا أنفسهم في سبيل الله أصبحوا قدوة للناس وأعطوهم درسا نافعا يتبعونهم فيه ، فكانوا بعد العلماء في هداية الناس لأن العلم أوسع والشهادة أقل ، ولكنها أنجع ، فمن لم يعمل بما أنزل الله وتجافى عن الحق فقد عطل ما وهب له من بذر الشفاعة ولم يسقه ولم يربّه ولم ينمّه بالعمل ، فيحرم ثمرته مع أنه ساوى جميع المسلمين في حصول البذر عنده وخالفهم في قعوده عن استثماره ، ساوهم في نوال بذر الشفاعة وخالفهم ونقص عنهم فيما بعد ذلك ، وعلى هذا يحمل قوله عليه الصلاة والسلام في رواية أبي هريرة [لألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول لأمالك لك من الله شيئا قد بلغتك] فانظر في قوله صلى الله عليه وسلم قد بلغتك ، كأنه يقول له التبليغ بذر الشفاعة ، وعليك العمل يتبعه النجاة .

وعن أبي هريرة أيضا قال : قال عليه الصلاة والسلام [ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يوفه أجرته] .

وروى عبد الرحمن بن سابط عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال [يا كعب بن عجرة يا كعب أعينك بالله من إمارة السفهاء ، إنه سيكون أمراء من دخل عليهم فأعانهم على ظلمهم وصدقهم بكذبهم فلست منه وليس مني ، ولن يرد على الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم ، فهو مني وأنا منه ، وسيرد على الحوض : يا كعب بن عجرة : الصلاة قربان ، والصوم جنة ، والصدقة تطفي الخطيئة كما يطفى الماء النار : يا كعب بن عجرة لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت] .

وروى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام [دخل المقبرة ، فقال :

السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا ان شاء الله بكم لاحقون ، وددت انى قدرأت إخواننا ، قالوا يارسول الله ألسنا إخوانك ، قال بل أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد ، قالوا يارسول الله كيف تعرف من يأتى بعدك من أممتك ، قال أرايت ان كان لرجل خيل غر محجلة فى خيل دهم ، فهل لا يعرف خيله ، قالوا بلى يارسول الله ؟ قال فانهم يأتون يوم القيامة غرا محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الخوض ألا فليزادن رجال عن حوضي كما يزداد البعير الضال أناديهم ألا هلم ؟ فيقال انهم قد بدّلوا بعدك أقول : سحقا فسحقا .

وهذه الأحاديث هى المناسبة لقوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ولقوله تعالى « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

فهؤلاء الذين أعانوا الأمراء على ظلمهم ، وأولئك الذين بدّلوا بعد نبيهم ، وأولئك الذين جاءوا يحملون شيئا قد ظلموا فى حبلها ، كل هؤلاء قد بذرت لهم بذور الشفاعة ، ولكنهم حرموا أنفسهم ثمرتها بتفريطهم فيها جزاء وفاقا ، فاذا قيل إنه يشفع فى أهل الكبائر ، أو فى زيادة الحسنات للحسين ، فقد دخل ذلك كله فى هذا الذى أوضحته لك ، وإذا سمعت عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال [قلت يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال لقد ظننت أن لا يسألنى عن هذا أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه] أخرجه البخارى ، فاذا سمعته فاعلم أن هذا قد نال من الشفاعة بذرها ، وهو العلم ، والعلم يتبعه العمل ، والثمره نتيجة ، وهى النجاة فى الآخرة ولا جرم أن العمل لا يكون الا بعد العلم ، فاذا كان العمل مبنيًا على جهل فلا يستحق شفاعته ، وأما صاحب العلم فان لديه أقوى ركنى الشفاعة ، وهو العلم ، ولم يبق الا استثماره ، فعلى هذا فقس فيما يرد عليك من الأحاديث ، واعلم أن هذا المعنى : أخذت أصوله من الفتوحات المكية لمحيى الدين بن عربى ، وكذلك يفيد كلام الامام الغزالى ، وبعض الأقوال التى أوردها الفخر الرازى .

قال الامام الغزالى فى الاحياء

فينبغى أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ، ثم أمدّه بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه فى أوقاته ، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة الى أن يتم الزرع ويبلغ غايتهسمى انتظاره رجاء ، وان بثّ البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب اليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم انتظر الحصاد منهسمى انتظاره حقا وغرورا لارجاء ، وان بثّ البذر فى أرض طيبة لكن لاماء لها وأخذ ينتظرمياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضاسمى انتظاره تمنيا لارجاء ، فاذا اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات ، فالعبد اذا بثّ بذر الإيمان ، وسقاه بماء الطاعات ، وظهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تهيئته على ذلك الى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا مجودا فى نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان فى اتمام أسباب المغفرة الى الموت ، وان قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات ، أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق ، وانهمك فى طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حق وغرور . قال صلى الله عليه وسلم : « الأحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » وقال تعالى : « تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » وقال تعالى أيضا :

« خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا » وذنم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته و « قال ما أظن أن تبدي هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا » فإذا العبد المجتهد في الطاعات ، المجتنب للمعاصي ، حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وتمام النعمة إلا بدخول الجنة . وأما المعاصي فإذا ناب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير حقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة إذا كان كارها للمعصية تسوؤه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويأومها ويشتهي التوبة ويشتاق إليها ، حقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ، لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذي قد ينضى إلى التوبة ، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب ، ولذلك قال تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله ، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء ، لأن غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء . فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ، ولا يهزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعبده بسقى ولا تنقية اهـ

فوكذا ينبغي أن يقرر في الأمة الإسلامية تعليم الأخلاق حتى يشب الشبان مجتدين ، وليعلموا أن الإنسان تابع لعمله وأخلاقه ، وهذا هو الموافق للظنرة والمتصود الاسلام ، ففي الحديث : « أنت مع من أحببت » والأنبياء يتبعهم العلماء حبا في مناهجهم ، ويتبع العلماء العامة ، فيؤلاء إلى مقدار اتصاهاهم في الحياة الدنيا يتصلون يوم القيامة فلا يرد الخوض على النبي صلى الله عليه وسلم إلا من كان به في الدنيا متصلا ، أى عاملا بشريعته ، سائرا على نهجه ، والناس يحشرون على حسب الأخلاق التي ماتوا عليها ، لأن الثواب والعقاب كما قاله المحققون نتائج وثمرات ، وليس الله عز وجل يريد أن يشفي غيظه ، وإنما هو مربى العالمين ، وتعالى الله عن صفات المحدثين ، والحياة الآخرة تابعة للحب ، ولا يحب المرء إلا من كان على شاكلته ، ومثل الآخرة كمثل الدنيا ، فكما أنك لا تعيش مع السمك في البحر ، ولا يقدر السمك أن يعيش في البر ، ولا يستطيع حيوان البحر وحيوان البر أن يطيرا في جو السماء ، ولا يستطيع الطير أن يعيش في البحر ، هكذا بنو آدم في الآخرة كل يوضع في المكان الذي استحقه ، ولا يقدر أن يتجاوز ، على حسب الأخلاق التي اكتسبها ، وفي الحديث : « يحشر المرء على ما مات عليه » وفي الآية : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » وهذا التفسير الذي اخترته للشفاعة كما جمع بين الأقوال كلها ، والأحاديث ، ونظام الله عز وجل في ملكه ، وآيات القرآن ، وعدل الله سبحانه وتعالى ، هكذا يناسب ما يجب أن تكون عليه الأمة الإسلامية في مستقبل الزمان ، فإن الأمم كلها قد ارتقت بالعلم والحكمة ، وبقى المسلمون في مؤخرهم ، بسبب جهل الوعاظ وتسهيلهم على الناس ، ولعمري ان هذا ليجدد النشاط ، والجِد والعمل في الأمة ، ويرقى المسلمين علما وعملا واذن يفهمون قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ويعرفون انه عز وجل عدل ، ولن يخرج من بذر القمح إلا القمح ، ولا من النواة إلا ما كان من جنسها ، فالصدق مشاهد في العالم الذي أمامنا ، ولولاه لاختل نظام الحياة ، فإذا زرعت البرسيم للدواب ، أو الخنطة والتفاح للإنسان ، جئنا الثمر على مقتضى البذر فأكلت الدواب والإنسان ، ولو كان الأمر فوضى فأخرج البرسيم بدل التفاح ، والتفاح بدل الخنطة ، لحار الناس في أمورهم ، ولضلوا سواء السبيل ، ولم تكن لهم حياة رشيدة ، وتخطوا في ديجور المذلة وسوء الحال ، وكانت الفوضى ، والناس لا يشعرون بهذا العدل وحسن النظام ، لأنهم فيه مغمورون لا ينظرون فيه وإنما كل منهم مهتم بما يشبع بطنه ويوفي شهوته ، مشغول بجمع ذلك ليلا ونهارا وهم عن العلم بما حولهم غافلون « وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » وهانحن أولاء

نرى طلوع الشمس وغروبها ، وكذلك القمر والكواكب الأخرى بنظام مرتب في جداول يطالع عاينها الناس وأكثرهم لا يتعجبون من حكمته عز وجل في اتقان الحساب وحسن النظام الذي لواختل لحظة هلك الحرث والنسل ، ولو أن الشمس تأخرت عن موعدها وقت الظهيرة دقيقة واحدة يوما ما فقط لضاع من نوع الإنسان مئات الألوف ، ومن أموالهم مئات آلاف الآلاف ، فإن هذا التأخير يحدث تصادما في القطارات الجارية بالسكك الحديدية فيموت الراكبون ، وتختل مواعيد الأعمال في التجارة ، صادرها وواردتها ، فنحن هنا على الأرض مغمورون في نظام تام لا يعقله إلا العالمون ، وإذا كان هذا في الدنيا فإن الآخرة أتقن نظاما ، والمنظم للدارين واحد ، أفلا تكون الأعمال لها نتائج كنتائج النبات والشجر ؟ أولا يكون الأنبياء والعلماء الذين اتبعوهم أشبه بضوء الشمس ، وقطرات الغيث على العقول فتكون الأعمال فالنتائج . هذا ما فتح الله به وشرح له صدرى .

حكاية

قد قدمت الى مصر سيدة روسية كانت تعيش الجميات العلمية في برلين وباريس وفيينا وسائر عواصم أوروبا وكانت من أهل العلم ، تحسن لغات كثيرة ، وكان أكثر ميلها الى علم التصوف ، وقد أشار عليها أستاذها [ماركس الألماني] أن تترجم كتابا في علم التصوف الى اللغة الفرنسية ، واختار من بين الكتب رسالة القشيري التي ألفها في القرن الرابع في هذا الفن لصوفية المسلمين ، ولما جاءت الى مصر طلب مني وزير المعارف إذ ذاك أن أساعدها فساعدتها في فهم الكتاب عند الترجمة تسع سنين ، وكانت تعجب بعالم المسلمين ، وذوقهم وآدابهم وفي أواخر المدة قبيل الحرب الكبرى ، قالت لي يوما : اني بعد أن سافرت هذه السنة الى أوروبا تبين لي أن الدين الاسلامي على خلاف ما كنت أظن ، نعم هو حق ولكن أقل من الدين المسيحي ، وهذا الاعتقاد خلاف ما كنت أعتقد من قبل ، فقلت : ولم ذلك ؟ فقالت : قابلني شاب من الذين يتعلمون من الرهبان في طور سيناء ، وعنده شهادات عالية من ألمانيا ، ويجيد بعض اللغات الأوروبية ، فأخذ يحدثني عن الاسلام وهو يعرف ميلى إليه ، فقال : ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان وهو صغير تلوح عليه مخايل النبوة ، ولما رآه بحيرا الراهب ، وأدرك فيه هذا المعنى ، قال في نفسه : اذا كان هذا نبيا نغير لنا أن يكون مسيحيا ، فعلمه الدين المسيحي ، وأخطأ بحيرا في بعض تعاليمه ، فانه أفهمه أن عيسى لم يصلب لجهله باللغة ، لأن بحيرا صالح ، ولكنه ليس مدققا في اللغة ، فجاء دين الاسلام وليس فيه الصلب مع أن المسيح أول من مات فأحياه الله ، فيكون هذا برهانا على حياة الناس يوم القيامة ، فالمسيح الذي يفدى الناس قد صلب لهذه الحكمة ، قالت : فأنا على ذلك أصبحت أرى أن الاسلام حق ولكن أقل من المسيحية التي آمنت بمن صلب ثم حي . فلما أتمت قولها قلت لها : هل تحبين أن تسمعي رأيي ؟ فقالت نعم واني ماذا كرت لك هذا إلا لأسمع ريك ، فقلت : أما قول صاحبك ان المسيح أول من مات ثم حي ، فهذا لاحظ له من الحقيقة ، لأن في التوراة أن قوما ماتوا ثم أحياهم الله لانهم كانوا قد فروا من الطاعون فليس المسيح على زعم من آمن بالصلب أول من حي وفي التوراة من ذلك كثير .

وأما قوله : ان عيسى يفدى الناس فهذا كلام له معنى غير ما يفهمه الجهلاء من المسيحيين ، فقالت وكيف ذلك ؟ فقلت أرأيت لو أن رجلين أحدهما يعلم أولاده الأدب ، والثاني يقول : كونوا أحرارا يا بنيائي واقتلوا واسرقوا وأنا أدافع عنكم : فأى الأبوين أفضل ؟ قالت الأول : قلت هكذا يطلب منا علم التربية الحديثة والقديمة ، قالت نعم : قلت فهل المسيح ؟ وهو نبي في اعتقادنا نحن معاشر المسلمين يقل في العلم والتعليم عن أفضل الأبوين المذكورين ، قالت كلا ؟ بل هو أفضل منهما ، وهو معاهما ، والمعلم أفضل من المتعلم ، وأعلم

منه : قلت اذن لايجوز في علم التريية أن يقول نبي عن ربه افعلوا ما تشاءون وأناساً كون فداء لكم ، وبعبارة أخرى ينقض شريعته بنفسه فأخذ منهم بالشمال ما أعطاهم باليمين ، قالت والله ان كلامك لحق ومعقول ، فقل لي اذن ما يقصد بكون المسيح يفدى الناس في نظرك ؟ فقلت أما ديني فينكر الصليب ؟ اذن أنا ليس لي نظر في مسألة يخالفها ديني ، وإنما أقول : الحق أن العامة يتكلمون عليه في تخليصهم من يد القضاء يوم القيامة ، ويكون الدين إذ ذاك هادماً للإنسانية مؤخراً للمدنية راجعاً بالإنسان القهقري ، وهذا بهينه هو السبب فيما بلغنا لهذا العهد عن الاحصاء في فرانسأ لأحكام القضاء فانهم وجدوا أن الملحددين الكافرين بالله هناك أكثر صدقاً وأقرب للعدل من المتدينين لانهم كانوا يسألونهم لم فعلتم ذلك ؟ فكانوا يقولون رجونا أن نشفع لنا العذراء أو القديس فلان ، وهكذا : ولذلك نرى أن الديابات التي طال عليها الأمد ، ولم تجد لها من يجدد أمرها تولاها الخور ، وقعدت بتابعيها عن الرقي وساءوا مصيراً ، وإنما كان الملحدون في فرانسأ أرق أخلاقاً من المتدينين ، لان الأولين أثاروا عواطفهم وعقولهم وفطرتهم التي فطرهم الله عليها ، وفيها أصول الأخلاق . أما الآخرون فانهم تركوا فطرتهم وسلموا أنفسهم للدين ، والدين دخله التحريف والتخريف ، فنزل بأخلاقهم فسفات فكانوا من الخاسرين ، فرأيتها أشرقت سروراً ، وأبرقت أسرتها واستبشرت ضاحكة ، وقالت نعم : لقد أفدت وأحسنيت ونطقت بعلم اه .

فتأمل أيها المسلم في هذه الحكاية فاني ما قلتها لك اعتباطاً ، وإنما ذكرتها لتنظر سيرة سيدنا محمد ﷺ وأخلاقه وآدابه ومعاشرته وسيره للحرب ومقارعتة الإبطال وغزواته ، ثم تتبعه في أخلاقه ، وفي القرآن الذي أنزل عليه ، فأما إذا ظننت أن الشفاعة ترجع الى المعنى الذي يفهمه العامة ، فان ذلك يقود الأمة الى الانتكاس على أم الرأس ويبقى الدين من أسباب التأخر لا الرقي ، وقد آن أوان أن يعرف الناس مقام النبوة الشريفة ، ويتبعوا النبي ﷺ في أعماله وأخلاقه ، وسيرته الصالحة ، وآدابه العالية ، ومعارفه الواسعة ، ودينه السامع المرشد الى السعادة ، والأعمال الشريفة ، وهذا أوان ارتقائه وزمان إبعاده « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

ايضاح للشفاعة

اعلم أن الناس اعتادوا أن يتقرّوا بالملوك والأمرء والأغنياء بمن لهم عندهم جاه ومنزلة ، فيكونون شفعاء لهم في ايصال الخيرات من وظائف ومال . وأصل هذه الكامة من الشفع الذي هو ضدّ الوتر ، كأن صاحب الحاجة كان فرداً ، فصار الشفيع له شفعا : أي صار زوجاً ، وهذا في الأمور المادية التي يقدر عليها الناس . أما العاوم والمعارف ، فلو أن أعظم الملوك قدراً ، وأكثر الأغنياء مالا أحضر أساطين الحكماء ، وأكابر العلماء لولده الغني وأغدق عليهم النعم ليصير عالماً لم يقدر على ذلك ، أما هو فيقدر أن يفيض المال على أي فقير فيصير غنياً في الحال ، فشفاعة الأنبياء ليست من قبيل الهبات المالية ، ولا الوظائف الادارية ، وإنما هي نفحات عامية ، وأخلاق حكمية ، وآداب نبوية ، فمن فقه ما قالوه ، واتبع ما رسموه ، واستثمر من بذور الشفاعة ما بذروه ، تمت له الشفاعة ، ودخل مع الجماعة ، أما أولئك الكسالى الجبناء المتواكلون ، فانهم يظنون أن مجرد الاتباع اللفظي مع النوم والكسل الفعلي يجد لهم نفعا كبيراً ، ويحسن لهم صنعا جليلاً ، كلا : انهم لمخدوعون ، وليس هذا القول بمخالف أهل السنة ولا المعتزلة ، فان خروج العاصي من النار بالشفاعة أو إبعاده عنها قبل الدخول ، وكذلك زيادة الحسنات في الأعمال للصالحين ، كل هذا جاء من شفاعة ﷺ ، واتباعه بل كل ثواب فائما هو بسبب ذلك ، وهكذا كل نجاة ، فانه صلى الله عليه وسلم لولم يأت لنا بالشرعية لكننا

أقرب الى الحيوان فصرنا باتباعه داخلين في شفاعته ، لأنابه صرنا شفعاء ، ولا يكون ذلك الا باتباعه ، ولا ننال الا ما استعدنا له .

ولأضرب لك مثلاً بما عرفناه في زماننا

أمة تألبت عليها الخيران ، ووثبت عليها أمم الفرنجة من كل جانب ، وهي قليلة العدد ضعيفة العدد قلّ فيها المال والولد فاستسلموا للعدوّ خاشعين ، وانقادوا له صاغرين ، فقام منهم رجل من قوّد جيوشهم فهبّ فيهم صارخاً ، وقال قوموا من مرافدكم ، والله ناصركم ، وأجمعوا صفوفكم فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله فأجاب دعاءه الرجال ، والنساء ، والأطفال ، والشيوخ ، والشبان رقابوا قومة واحدة فانهزم العدو المغير ، ورجع وهو حسير ، فرجعت الأمم المغيرة إلى الخلف ، وثبت للضعفاء النصر ، تلك الأمة هي الأمة التركية في هذه الأيام . أفترى أيها الذكي أن ذلك النصر يكون بالاتكال على ذلك القائد المرشد النصيح ، فيقولون له أيذك الله قاوم العدو بهمتك ، وحارب به ببأسك وقوّتك ، انا مادحوك وداعون لك بخير وتابعوك . أم يقومون معه قومة رجل واحد ، ويتبعون سننه في العمل فينهزمون العدو بتضافرهم وتآزرهم . لا جرم أنك تعلم أن النصر تابع لخير الأمسين ، وهو الوجه الأخير ، فكذلك يكون الأنبياء مع أممهم ، فالأنبياء قوّد فوق كلّ قائد يتودون الناس إلى سعادتهم وشفاعتهم لهم على خير الوجهين السابقين . فإذا سمعت قوله تعالى « فاستمعوا له يا أُولِي الْأَلْبَابِ لعلَّكُمْ ترحموا » وقوله « ولا تأخذاً من الدين شيء » وقوله « ولا تأخذوا من الدين شيئاً » وقوله « من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون » . فاعلم أنها تلك الشفاعة الأولى في المثال المتقدم ، وهي أن يتكلموا على الأنبياء ويناموا نومة الاغبياء ، ولو كان الله يريد منا أن نكل نفوسنا إليهم لأطال آجالهم جميعاً ، وأنت ترى أن في أممتنا من طالت أعمارهم أكثر من نبينا ، فن حكمة موته في سنه المعروفة أن تستقل الأمة في شؤونها ، وتقوم بأعبائها ، ولعلك تقول مالى أراك تخصّ الأنبياء بالاعظام والاحلال والا كبار ، وما أراك الامسيرا للجمهور . ولقد رأينا في هذه الأعصر من أضاءت الكهرباء باختراعهم وابتدعوا في الحروب ماشاءوا وبذ كائهم ومدّوا الاسلاك البرقية بعقولهم وفي الأرض فلاسفة وحكّاء كسقراط وأفلاطون وروسو الفرنسي ، فكيف تخصّون النور بالأنبياء والارشاد للرسلين ، وكيف تخصّون نبينا بأنه سراج منير ، وأن العلماء يتبعون وأنه يشفع في الناس بالمعنى الذي قرّره مع أن كلّ الناس يعامون ويتعلمون .

أقول : اعلم ان الله عزّ وجلّ مشرق نوره في العالمين ، فكما أن الشمس ، والقمر ، والكواكب ، والكهرباء ، والبخار الناجم من الفحم ، وكذلك الزيت والشمع تكون منها الأنوار الحسية التي أودعها الله في المواد المحسوسة ، هكذا أودع نورا أتمّ وجلالاً أبهى وأكمل واشراقاً أتمّ وأعظم في نفوسنا الانسانية وعقولنا وحواسنا وادراكنا ، وفي سائر الحيوان فلكل حيوان هداية تمت بها سعادته ، والانسان من بين الحيوان هداه الله هداية أعلى ، وجعله في مقام أتمّ وأكمل ، وألهم طوائف منه ، فكانوا أكمل من غيرهم فيرشدون اخوانهم إلى داهوا أكمل وأشرف .

فقولك : ان في الناس من هدوهم الى الكهرباء والى مدّ أسلاك البرق وماشا كل ذلك ، فاني أقول لك ليست الهداية خاصة بهؤلاء فالهداية عامة في الحيوان والانسان ، فأما ارشاد الناس الى الامور المعاشية بالأنوار وسرعة النقل وماشا كل ذلك فهي لم تخرج عن الهداية العامة ، فان الشمس مشرقة مبذولة ، فاذا زاد المخترع أنوارا للناس فهو خير من جنس ما بذل لهم في الطبيعة المعالومة الحسية . وأنت تعلم أن الهداية النفسية أرقى من الحسية فانه لولا ادراكنا وعقولنا لم نستفد من المادة شيئاً ، والذين يهدون الناس بهذا المعنى أربع فرق : الحكماء

من الأمراء ، والملوك ، والوعاظ ، والحكام ، والأنبياء ، فالوعاظ العامة ، والحكام الخاصة ، والأمراء للحكم على أجسام الناس لاعتقولهم ، أما الأنبياء فانك تراهم قد اتبعهم الخاصة والعامة والوعاظ وكانوا أعم من الجميع . وأنا لأقول لك إلا ما هو حاصل في النوع الانساني ، وما هو واقع فعلا ، فسقراط لا يعقل حكمته ولا يفهم رأيه إلا الخواص ، وأما العامة فهم في واد سحيق ، والوعاظ لا يكلمون إلا الجهال ، ونحن نرى أن الأنبياء اتبعهم من سائر هذه الطوائف ، فاذا كان الناس مهتدون بحواسهم وبعقولهم وبمحكماتهم وبمخترعهم وبتقوؤاد جيوشهم ، فانا نرى أن سائر الأنبياء قد اتبعهم كل هؤلاء ، وهأنذا قلت لك ماتراه واقعا كما قدمنا ، اذ اعلمت هذا فهمت قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم « إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » وقد جاء في ﴿ سورة النبأ ﴾ : « وجعلنا سراجا وهاجا » متلا ثا وهو الشمس « وأنزلنا من المعصرات » السحاب « ماء ثجاجا » منصبا بكثرة « لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا » ملتفة بعضها على بعض ، وانما ذكر السحب بعد الشمس لأنها ناجية من إثارة الحرارة للبخار من البحار فيكون مطرا فيحيي النبات كما قدمنا هذا في العالم المشاهد المحسوس ، فيمكننا جاء في هذه السورة تشبيه القرآن بالمطر النازل من السماء ، وجاء في سورة أخرى أن النبي سراج منير ، وجاء في حديث البخاري المتقدم : « ان مثل العلم الذي أنزل عليه عليه الصلاة والسلام كمثل الغيث » الخ فتشابه العالم الحسى والعالم المعقول ، فالعلم العام النبوى ينزل على صدور العلماء والعامة والخاصة فهو كالشمس ومن سواه لهم أعمال خاصة ، فالشفاعة العامة لهم مشرقة على الجميع ، ولكل امرئ ما اكتسب « وما يهزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » .

تفضيل بنى إسرائيل

وأما الكلام على تفضيل بنى إسرائيل فان الله يقول : يا بنى اسرائيل انى قذفت في قلوب أبنائكم الحية والشهامة والعز بما أوحيت الى موسى أنه يقول لهم أتم شعبي وأفضل العالمين كما هي السنة المرغوبة في تمدن الشعوب أن يبتدأ بادخال الأمل وطرده اليأس وافهام الأبناء أنكم ذوو شرف وعز وفضل ، ولعمري ان هذا هو السان الوحيد والعلاج المفيد الناجع لاثارة الحركات العامة والعملية في الأمم التي أخلها الاهمال وأضاعها يد الزمان ، وأنامها الحدثان ، كما كان في بنى اسرائيل إذ ذبحت أبنائهم ، واستحييت نساؤهم ، ابتلاء من الله وامتحانا ، وهذا هو المذكور في الاصحاح الأول في سفر الخروج :

وكلم ملك مصر قابلي العبرانيات اللتين اسم إحداهما سفرة واسم الأخرى فوعة ، وقال حيثما تولدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسى اذا كان ابنا فاقتلاه ، وان كان بنتا فتحيياه ، وفي الاصحاح الثالث عشر انهم خرجوا من مصر في شهر أبيب ، وأمرهم الله في الاصحاح الثاني عشر والثالث عشر بعيد الفصح أن لا يأكلوا خجرا سبعة أيام ، ويكون السابع عيد الفصح شكرا لله تعالى كل سنة على نعمة أغدقها عليهم إذ أخرجهم من دار الهوان الى دار الحرية والكرامة ، أليس من عجب هذا التهييج والحث على الحرية للتناثي عن مقام الذل ، وليربوا بأنفسهم أن يردوا ماء الحياة اذا مزجه صاب المذلة وعلمهم الهوان .

وللوت خير من حياة دنيئة * وللوت خير من مقام على الذل

ثم تعجب كيف جاء في التوراة مروة هاتين القابلتين ولم تخونا ولم تقتلا ولدا كيف خافتا ربهما وحفظتا أبناء بنى اسرائيل ، فتولى فرعون ذلك بنفسه وأمر المصريين فقتلوا ورهوا كل مولود ذكر في البحر ، ولما كان شأن الله أن يجعل من كل ضيق فرجا ، وأن بعد العسر يسرا ، نجاهم وأغرق فرعون وجيشه .

(الياقوتة الثانية ، والثالثة ، والرابعة ، والخامسة)

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ
وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ
فَتُوبُوا إِلَى بَرِّئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَرِّئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ
إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .

التفسير اللفظي

يقول تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر) فلقناه (فأنجيناكم) من فرعون وقومه (وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) الى ذلك وتشاهدونه (وإذ وعدنا موسى أربعين ليلة) وعد الله موسى أن يعطيه التوراة وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذي الحجة (ثم اتخذتم العجل) إلهها (من بعده) من بعد انطلاقه الى الجبل (وأنتم ظالمون) بوضعكم العبادة في غير موضعها (ثم عفونا عنكم) محونا ذنوبكم عنكم (من بعد ذلك) من بعد اتخاذكم العجل (لعلكم تشكرون) لكي تشكروا النعمة في العفو عنكم (وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان) أى الجامع بين كونه كتابا منزلا ، وفرقانا يفرق بين الحق والباطل (لعلكم تهتدون) لكي تهتدوا بتدبر الكتاب (وإذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم) ارجعوا الى خالقكم بالتوبة ، قالوا كيف تتوب ؟ فقال (فاقتلوا أنفسكم) أى ليقتل البريء منكم المجرم (ذلكم خير لكم عند بارئكم) من الاصرار على المعصية (فتاب عليكم انه هو التواب) المفضل بقبول التوبة وان كثرت (الرحيم) بعفوا لحوته وان كبرت (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك) أى لن نصدقك (حتى نرى الله جهرة) معاينة ، وهؤلاء سبعون رجلا من خيارهم جاءوا الى الطور ليعتذروا عن عبادة العجل مع موسى لميقات ربه وسمعوه يكلم موسى فقالوا ذلك ، قال تعالى (فأخذتكم الصاعقة) الآتى شرحها في (سورة الرعد) (وأنتم تنظرون) ما أصابكم (ثم بعثناكم من بعد موتكم) بسبب الصاعقة (لعلكم تشكرون) نعمة البعث (وظللنا عليكم الغمام) في التيه ليقمكم حرّ الشمس . انتهى التفسير اللفظي الاجالى .

ايضاح

أبان الله في هذه اليواقيت ما قصه في سفر الخروج في التوراة ، وكيف أغرق فرعون وجنوده ، ونجى موسى وقومه ، كما جاء في الاصحاح الرابع عشر من السفر المذكور ، فدفع الرب المصريين في وسط البحر فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم في البحر ، ولم يبق منهم ولا واحد ، وأما

بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سورهم عن يمينهم وشمالهم . انتهى بالحرف
وقال في الاصحاح الثاني عشر : فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس ، وهي بلدة قريبة من السويس الى
سكوت نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد ، ثم قال : وأما اقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر
فكانت أربع مائة وثلاثين سنة ، ولقد حشهم على تذكار يوم الخروج ليستديموا الحرية تذكرة للعاقلين ،
وتبصرة للمسلمين الغافلين ، وقد قال تعالى لنا : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » عدولا ، وقال : « كنتم
خير أمة أخرجت للناس »

فليبحث المسلمون عن أنفسهم ، ولينظروا أهم تلك الأمة التي عناها الله بالخطاب ؟ أم قوم غيرنا سلفوا ؟
أم سيخلفونا ؟ وليعتبروا كيف قرع الله بني إسرائيل ووبخهم إذ آتاهم التوراة على لسان موسى وقد دخل في
وسط السحاب ، وصعد الى الجبل ، وكان موسى في الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة ، فاتخذوا العجل وعبدوه
كما وضع في التوراة في نفس هذا السفر . وما مثل اليهود في نبذ التوراة والعمل بها إلا كمثل المسلمين اليوم
وجهلهم بما تضمنه القرآن من الحكم العجيبة ، والآيات البديعة ، ولما أعرضوا عن الصراط السوي عذبوا
وأذيقوا طعم الموت ، فقتل المؤمنون الصابرون تلك الفئة التي عبت العجل .

وفي التوراة : أن القتلى ثلاثة آلاف لاسبعون ألفا كما يقول بعض المفسرين ، قال في الاصحاح الثاني والثلاثين
وقف موسى في باب المحلة وقال : من للرب فالى ، فاجتمع اليه جميع بني لاوى ، فقال لهم : هكذا قال الرب إله
إسرائيل ، ضعوا كل واحد سيفه على نخذه وصرخوا وارجعوا من باب الى باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه
وكل واحد صاحبه ، وكل واحد قريبه ، ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو
ثلاثة آلاف رجل .

(الياقوتة السادسة ، والسابعة)

وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (وأنزلنا عليكم) في التيه (المَنَّاءَ والسَّلَوى) الترنجيين والسمانى ، والأول شيء يقع على الشجر طعمه
كالشهد (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أى قلنا لهم ذلك فظلموا بأن كفروا هذه النعم (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم
يظلمون) بالكفران لأنه لا يتخطاهم ضرره (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) أى بيت المقدس ، وقيل أريحا
أمروا به بعد التيه (فكلوا منها حيث شئتم رغدا) واسعا ، نصب على المصدر (وادخلوا الباب) أى باب القرية
أو القبة التي كانوا يصلون إليها (سجدا) حال ، وهو جمع ساجد (وقولوا حطة) أى مسألتنا أن تحط عنا خطايانا
(نغفر لكم خطاياكم) بسجودكم ودعائكم (وسنزيد المحسنين) ثوابا (فبدل) فغير (الذين ظلموا قولا غير الذى

قيل لهم) إذ بدلوا الحطة بالحنطة وقالوا ما معناه « حنطة حراء » أو نحو ذلك استخفافا بأمر الله (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا) عذابا (من السماء) إذ أرسل الله عليهم طاعونا فهلك منهم كثير (بما كانوا يفسقون) أي يعصون ويخرجون عن أمر الله . انتهى التفسير اللفظي .

الايضاح

يقول تعالى : وأنزلنا عليكم في التيه المن والسلوى وقلنا كلوا من هذه الطيبات ولا تذخروا فكفروا النعمة وادخروا فنع عنهم ذلك الرزق وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، واذ قلنا لهم بعد خروجهم من التيه على لسان يوشع ادخلوا بيت المقدس الخ وقوله رغدا أي واسعا لا حجر فيه سجدا أي متواضعين خاشعين لله عز وجل والمن هو الترنجيبين كان ينزل كالندى من الفجر الى طالع الشمس ، والسلوى هو طير السمانى .

قال في الاصحاح السادس عشر من سفر الخروج : فكلّم الرب موسى قائلا سمعت تذمر بنى اسرائيل كلهم قائلا : فى العشيّة تأكلون لحما ، وفى الصباح تشبعون خبزا ، وتعلمون أنى أنا الرب إلهكم ، فكان فى المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة ، وفى الصباح كان سقيط الندى خوالى المحلة ، ولما ارتفع سقيط الندى اذاعلى وجه البرية شئ دقيق مثل قشور كالجليد على وجه الأرض ، ثم قال لهم موسى : هو الخبز الذى أعطاكم الرب لتأكلوا هذا هو الشئ الذى أمر به الرب لتعطوا منه كل واحد على حسب أكله اه

وهذا قادهم الى سوء فعلهم وأضلهم جهلهم ، فبدّلوا قول الله عند دخول باب القبة التى كانوا يصلون بها « قولوا حطة » أى فاستهزءوا وقالوا « حنطة فى شعرة » على رأى غير ما تقدّم ، يريدون أنهم لا يعينهم شأن الذنوب والخطايا ولا التوبة وما أشبهها ، وإنما همهم الطعام والغذاء ومستلزمات الحياة ، فهذه الخازى الفاضحة ، والعيوب الواضحة ، سجلت عليهم فى التوراة والقرآن ، وحفظها لهم فى سجله الزمان ، عبرة للمذكّرين ، وتبصرة للمسلمين .

(الياقوتة الثامنة ، والتاسعة)

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
 مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا
 فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ
 فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا
 وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ *

التفسير اللفظي

قال تعالى (واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر) أى حجر كان ، فضرب (فانفجرت منه
 اثنتا عشرة عينا) على عدد الأسباط (قد علم كل أناس) كل سبط (مشر بهم) عينهم التى يشربون منها ،
 وقلنا لهم (كلاوا) من المن والسوى (واشربوا) من ماء العيون (من رزق الله) أى الجميع مما رزقكم الله
 (ولا تعثوا فى الأرض) لا تفسدوا فيها ، والعيث أشد الفساد (مفسدين) حال مؤكدة (واذ قلتم يا موسى لن
 نصبر على طعام واحد) وهو ما رزقوا فى التيه من المن والسوى (فادع لنا ربك) سله وقل له (يخرج لنا)
 يظهر لنا ويوجد (مما تبت الأرض من بقلها) وهوما أنبتته الأرض من الخضر ، والمراد به أطيب البقول
 كالنعناع والكرفس والكراث ونحوها (وقثائها) معروفة ، وقيل هو الخيار (وفومها) هو الحنطة أو الثوم (وعدسها
 وبصلها) قال أتستبدلون الذى هو أدنى) أدون قدرا (بالذى هو خير) يريد به المن والسوى (اهبطوا مصرا)
 أى ان أيتم إلا ذلك فأتوا مصرا من الأمصار (فان لكم) من نبات الأرض (ماسأتم وضربت عليهم الذلة)
 أى جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم (والمسكنة) الفقر والفاقة (وباعوا) رجعو (بغضب من الله ذلك)
 أى ماسبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين غير الحق)
 بسبب كفرهم بالمعجزات (ذلك) القتل والكفر (بما عصوا وكانوا يعتدون) يتجاوزون أمرى (إن الذين
 آمنوا والذين هادوا) أى اليهود (والنصارى والصابئين) قوم كانوا يعبدون الكواكب التى يزعمون أنها تقر بهم
 إلى الله (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) أى من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدأ
 والمعاد ، عاملا بمقتضى شرعه (فلهم أجرهم عند ربهم) الذى وعد لهم على إيمانهم (ولا خوف عليهم ولا هم
 يحزنون) حين يخاف الكفار من العقاب (واذ أخذنا ميثاقكم) عهدكم يامعشر اليهود (ورفعنا فوقكم الطور)
 يعنى الجبل العظيم لما عصيتم أن تقبلوا التوراة لما فيها من التكاليف الشاقة فصار كالظلة فوق رؤوسكم وقلنا
 (خذوا ما آتيناكم) أى ما أعطيناكم (بقوة) بجد واجتهاد (واذكروا ما فيه) أى ادرسوا ما فيه وتفكروا فيه
 (لعلكم تتقون) لى تتقوا المعاصى (ثم توليتم من بعد ذلك) أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق (فلولا فضل
 الله عليكم ورحمته) بتوفيقكم للتوبة (لكنتم من الخاسرين) المغبونين بالانهماك فى المعاصى (ولقد علمتم
 الذين اعتدوا منكم فى السبت) وهو مصدر سببت اليهود إذا عظمت يوم السبت ، وقد اعتدوا فيه أى جاوزوا
 ما حد لهم فيه من التجرد للعبادة وتعظيمه ، واشتغلوا فيه بالصيد ، وسيأتى إيضاحه فى ﴿سورة الأعراف﴾
 عند قوله تعالى «واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر» الآية (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) جامعين
 بين القرية والخسوة ، وهو الصغار والطرود (فجعلناها) أى المسخنة والعقوبة (نكالا) عبرة تنسكل أى تمنع

المعتبر بها (لما بين يديها وما خلفها) أى لما قبلها وبعدها (وهو عظة للمتقين) لكل متق سمعها . انتهى
التفسير اللفظي .

الايضاح

لما أسلف الله ذكر إظهارهم بالعمام واغداقه النعم عليهم بالغذاء ، وكيف أعرضوا كافرين ، وتولوا مشركين : أبان الله في هذه الآيات كيف فجر لهم ينابيع الماء من الصخر ، وكيف تولوا بعد ذلك الانعام باظلال العمام من الحر ، وإنزال المن والسوى وتفجير الماء إذ ضرب موسى بعصاه ، ثم كيف سئمو النعمة ويطروا الفضل وجهلوه فلم يشكروه فطلبوا أن يستبدلوا النذل بالحرية ، وطعام المدن بما أكرموا به في البدو ، وهم في أمن ودعة وراحة ، وكيف كفروا بالرحمن وقتلوا المصطفين الأخيار من الأنبياء والمرسلين ، وكيف عصوا أن يقبلوا التوراة فأرغموا على قبولها ، ورفع الطور فوق الرؤوس فذلوا صاغرين ، وقبأوها مكروهين ، وكيف ضل منهم فريق أيام داود عليه السلام في مدينة أيلة [العقبة] فصادوا السمك يوم السبت بحيلة دبروها وقشور شرعية من الجهل استخرجوها فسخوا قرده في أعماهم وضاروا في صورة انسانية ونفوس قردية . كما هو شأن المقلدين في الباطل الغافلين الذين لا يفكرون .

ويقولون : قد أفتانا شيخنا فلان ، وما هو بمغن فتيل ولا قطمير « وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تباعا فهل أتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إنا لله قد حكم بين العباد » فليعتبر المسامحون اليوم وليعلموا أنه لن ينفعهم أضاليل السجالين ولا أكاذيب المرجفين لهم المسهلين طرق الكسل حتى ناموا على وساد الراحة وخذوا خود النار ضربها البرد بما أزجاء المشبثون اللهم لينموا الناس على مهد الرجاء فأصبحوا لا ترى الاجسومهم ، وهم غافلون عن الأعمال محرومون من الآمال .

ايضاح الكلام في قوله تعالى « اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » الآيات

اعلم أن هذه القصة وغيرها تعليم للمسلمين وتربية وتذكير لهم ، لأن بنى إسرائيل انقضى أمرهم ، وذهب ريحهم ، وفات دورهم . ذلك أنهم لما كانوا في التيه ، وهواؤهم طلق : وهم في البادية وشطف العيش تبرعوا من رجس المدنية وخبث المدن ، وفسق أهلها ومرضهم وبطنهم وجشعهم ، وقلة أدبهم ، وسقوط أخلاقهم وكذبهم ، ونفاقهم ، وحقهم ، وحرصهم ، وادخارهم ، وكدهم ليلا ونهارا ، فالشهوات الحارة تلدغهم وتحرقهم فيصطاون بنارها ، ويقارفون الفجور ويأكلون أكلا لما يحبون المال حبا جما ويتخبطون في دياجير الذنوب والمعاصي والعيوب ، ويكون رؤسائهم أحسنهم مقاما ، وأردأهم أخلاقا ، وأشدهم نفاقا ، وأقربهم إلى الشرور وأبعدهم عن الخيرات ، وتقل بينهم الأمانات ، ولا يخافون رب العالمين ، بل سطوة الخاكين ، وتكثر أمراضهم لكثرة الألوان في طعامهم ، ويكونون جناء هلعين فزعين ان فاجاهم عدو فرأوا خائفين ، وولوا هاربين . هذا شأن المدن ، وهذه سجية أهلها ، ولا تستثن منهم أحدا . إلا أن الممالك الكبيرة تكون لها جيوش مدربة على الحرب يحرسون بلادهم ويحاربون أعداءهم ، وهم في أنفسهم خوَّارون ، قتلهم شهواتهم فلا ينفعهم في قتال عدوهم الامضاء أسلحتهم ، ووفرة مدافعهم ، وكثرة الطيارات في جيوشهم . فأما أهل البادية الذين تنزهوا عن رجسهم ، وخلصوا من بطشهم ، وتجاؤوا عن جنبهم ، وقربوا من الفضيلة ، وابتعدوا عن الرذيلة وقويت أبدانهم ، وعظمت نفوسهم ، وهم شجعان كرماء فأولئك إذا أعطوا سلاح أهل المدن قاتلوهم فغلبوهم واستأصلوهم ، ولذلك ترى أن الأمم التي في المدن إذا طال عليها الأمد غلبتها على أمرها تلك الأمم البدوية ، وورثت أرضها وديارها ، وحلت مكانها ، ثم يتناسل هؤلاء في المدن جيلا بعد جيل ، ويتبعون سنن من قبلهم

شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، ثم يأتي آخرون فيغلبونهم على أمرهم « وتلك الأيام نداؤها بين الناس » على ذلك درج الأمم قديما وحديثا . فدولة الرومان : لما استفحل أمرها ، وعانت كلمتها ، وخضعت لها الرقاب ، وذلت لها الأعناق ، هجمت عليها الأمم الوحشية البدوية العانية الجاهلة العارية من سابغ الرغد ونعيم الحياة ففتكت بهم ، وورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهاهم أولاء اليوم أصحاب الحول والطول في أوروبا . وقد مضى على ملكهم نحو ألف سنة ، وكانهم أيضا أصبحوا وقد ملك رقابهم الترف وانغمسوا في اللذات وغرقوا في بحر لحي من الظلم والمعاصي والفتك فأصبحت مدارسهم لتعليم الاجرام ، والفتك والاغارة على الأمم ، وقد آن أوان أن تبيدهم أمم أبعد عن الترف ، وأقرب الى حال البداوة ، وتحل محلهم كما فعل آبائهم مع دولة الرومان . وهكذا ترى أن الأمة العربية ، لما نزل عليها القرآن أنار بصائرهم ، وأغلى مرآجلها ، وبعث الحرارة الدينية في نفوس أبنائها فأخذت تمتد الى سائر الجهات ، فملك دولة الفرس التي قتلها البطنة والنعيم وامتدت من جهة أخرى الى بلاد الروم وأحاطت بها وحلت محل الأمتين . ثم طال على الأمة العربية الأمد وأسكرها النعيم فجاء إليها التتار من المشرق ، والفرنجة من المغرب فحلبوا بساحتها وساء صباح المنذرين ، وصارعوها فصرعوها فنامت الى حين . ثم هي الآن تريد أن تأخذ مكانها . وبالجملة ليس للأمة من سعادة الا بالتجافي عن اللذات والتباعد عن الشهوات ، والاقلاع عن البطنة ، والاقلال من دواعي الترف والنعيم ، فهؤلاء بنو إسرائيل لما كانوا في مصر ذاقوا حلاوة المدنية ، ونعيم العيش فأنسوا باللذات واستخذوا للشهوات فذبح فرعون رجالهم واستحيا نساءهم ، فأمر موسى أن يخرج بهم فخرجوا وبعد ما أمروا بقتال الجبارين ضلوا في التيه وتاهوا في بيدائه وجالوا في فسيح هوائه الطلق وعاشوا في صحراء قحلة تعلموا فيها ضروب الشجاعة والعفة والاعتماد على النفس فتربوا هناك أربعين سنة . يقول العلماء حضارة الأخلاق أربعون ، وحضارة العلم عشرون ، فلما أنسوا من أنفسهم القوة وأحسوا بالمنعة ، وأنهم أقوى من آبائهم الذين ختم الترف ونعيم العيش في مصر على قلوبهم راموا أن يتمتعوا بلذات العيش ونعيم المدن ، فقالوا (يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) يقول الله أتذرون ما هو خير ، وتأخذون ما هو أدنى ، وكيف ترضون أن تتركوا عيشة البادية الهادئة الحرة النقية الصافية التي تقل فيها الأطعمة فتصح الأبدان ، وتطول الأعمار ، وتقوى النفوس وتطوِّحون بأنفسكم الى المدن التي تسقم الأبدان ، وتذل النفوس بالمرض ، واذلال الحكام ، وموت الشجاعة والانسكال على الجماعة ، وتكون حراسة المدن بطائفة من الجنود ، والأمة كلها عالة على حكامها عارية عن المنعة والقوة يسامون الخسف ويبدسون لباس الذل . إذا أبيتم إلا ذلك ف (اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) ثم ان جميع ما خاطب الله به بنو إسرائيل لم يقصد به الا نحن أبناء العرب ، ومن معنا من الأمم ، وان جميع قصص الأنبياء تنبيه وارشاد . قال تعالى « الذين يستمعون القول فيتعوبون أحسنه » وقال « اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم » وقال « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب » ، وروى أن قتادة قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول : قدمضي والله بنو إسرائيل وما يغني ما تسمعون عن غيركم ، فليكن للمسلمين عبرة في هذه القصة . وفي التاريخ : فان بنو إسرائيل لما دخلوا أرض كنعان واستفحل ملكهم مئات السنين أخذهم الترف وجاءهم بختنصر فأسرهم وأجلاهم وأخرب ديارهم ثم رجعوا بعد حين فأجلاهم الروم مرة أخرى بعد المسيح ، وهاهم أولاء في الأرض متفرقون شذر مذر « في كل واد يهيمون » .

الفوائد الطبية في هذه الآية

لقد أظهر الطب الحديث في هذا العصر مخزيات المدنية ، ومصائبها الطبية ، وأبان أن الاكثار من اللحم وشرب الخمر والتدخين بالتبغ ، وشرب القهوة ، والشاي ، والسكر ، وأضرارها من الممرضات والقاتلات . وقال أساطين الأطباء : ان معيشة المدن اليوم أصبحت لا تطاق . فعلى الناس أن يقللوا من الأدوية التي في الصيدليات المسماة [أجزاء] بل قال أكابرهم ان هذه ستمحى من الوجود لما فيها من الضرر بنوع الانسان ، وأثبتوا أن الماء كل المركبة ، والتي هي كثيرة الغذاء ضررها كثير ، ومنعوا شرب الماء على الطعام وأكل الطعام وشرب الشراب الحارين لضررهما بالأسنان والحنك واللسان . وقالوا ان أهل البادية أقوى أجساما وأصح عقولا لاقتصارهم على الخنطة والتمر ، وطلبوا من الناس الاقتصار على الحبوب والفاكهة ، وأن يقللوا ما استطاعوا لذلك سبيلا .

ويقول هؤلاء الأطباء العصريون : ان العناية الالهية تكفلت باصلاحنا . ألا ترى أن الجرح يأخذ في الاندمال شيئا فشيئا بلا عمل من الانسان ، وهل ذلك الا للعناية الالهية القائمة في الطبيعة ، فعلينا اذن أن يكون جلّ عنايتنا بالهواء النقي والرياضة والغذاء الصحيّ معرضين عن الأغذية المهيجة ، وعن اكثار اللحم ولتقصد العمل المعتدل ولتستحمّ بالماء البارد أو الفاتر ، حتى يقوى المريض على مكافحة المرض ، وتترك الأدوية المعتادة ما وجدنا الى ذلك سبيلا . وقد منع التداوى بالعقاقير المتراكمة في الصيدليات الدكتور [غرانديشتان] وهو من عظماء الاساطين في الطب بألمانيا . ومن العجيب أنه منع المداواة بها سواء أكانت جيدة أم رديئة ويقرب منه في ذلك الدكتور كيسر الذي قال : يجب أن يعزل المريض عن الطبيب كما يجنب السم القتال ، وإعما قال ذلك مبالغة ، يحرض الناس على حفظ صحتهم . وقال الأستاذ ستيفنس الأستاذ بالكلية الطبية في نيويورك كلما كثرت تجارب الأطباء ، قل اعتقادهم في تأثير العقاقير ، وزاد اعتقادهم في قوى الطبيعة ويقرب منه الدكتور سميث ، وقد قال مثل هذه الأقوال ما يربو على ثمانين عالما من الأمم المختلفة في زماننا .

واعلم أني كنت في زمن الشباب ، قد اعتراني مرض ولم أجده طيبا يداويني لأنني كنت في بلاد الريف فوقع في يدي كتاب يسمى الطب النبوي للشيخ الذهبي ، فكنت أستخلص منه فوائد أعمل بها . ومن عجب أن ما نقلته لك عن أطباء أوروبا صورة مكبرة له ، ولست أقول انهم نقلوا عنه كلا ، وانما رأيت تشابه الأقوال فلقد قرأت في هذه الكتاب ان الادوية ضارة الا عند الاضرار ، وأن المرض له نمو كنمو النبات ودور انحطاط بميزات معلوم والطبيب لا يعمل له الا لتلطيف المرض ، وفيه : إياك أن تقرب المسهل الا عند الضرورة ، واذ قدرت أن تتداوى بالغذاء فاحذر أن تتداوى بالعقاقير ، وحرّم الشرب على الأكل ، وقد عملت به إذ ذاك وانتفعت به وصح جسمي ، ولقد كنت أيام تلك الحجة كثيرا ما أترك الشراب بعد الأكل ثلاث ساعات أو أربعا كما قرأته في كتب الطب القديمة التي لم أكن أعرف سواها ، ففيها أن ترك الشرب بعد الأكل من ساعة إلى أربع على حسب اختلاف الأمزجة ، أما علماء العصر الحاضر فقد توسطوا وقدروها بساعتين اثنتين غالبا ، وقد انتفعت بتلك الحجة ولله الحمد ، ولكن لما طال الزمن لم أجده من الأطباء من يؤيد هذا في عصرنا الا قليلا حتى قرأت هذا عن أطباء أوروبا فأوضحوا مناهجهم ، أوليست هذه المناهج هي التي نحاها القرآن ، أو ليس قوله « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير » رمزا لذلك ، كأنه يقول العيشة البدوية على المن والسوى : وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مريض يتبعهما مع الهواء النقي ، والحياة الحرة أفضل من حياة شقية في المدن بأكل التوابل واللحم والاكثار من ألوان الطعام مع الذلة ، وجور الحكام والجبن وطمع

الجيران من الممالك فتختطفكم على حين غفلة وأنتم لا تشعرون ، بمثل هذا تفسر هذه الآيات ، وبمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله ، وبهذا فليعملوا وليوصوا الأبناء بالاقبال من اللحم وتحريم شرب غير الماء إلا في أحوال خاصة وأن يستنشقوا الهواء النقي ، ويروضوا أجسامهم بالتعاليم العسكرية ، وليكن جميع الشبان متمرنين عليها ، وذلك لا يمنعهم من مراولة أعمالهم في الحقول والمدارس : ولتعلم جميع الأمة الأعمال العسكرية ، وليست فرق الكشف في المدارس بمغنية عن ذلك ، وليقلل من الاسراف والشهوات ، فالنعيم في ترك النعيم والافليخافوا من قوله تعالى (اهبطوا مصرا فان اكم ماسألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) وتعاليم القرآن والسنة تنحو هذا المنحى والا فلم يقول الله « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » ؟ أفلم تروى أن الطيبات وإن كانت حلالا لنا إذا أكثر الناس منها ، كما قال الأطباء في هذا المقام يمسه المرض في الاجسام ، والذل في المدن ، والعذاب في الآخرة ، والقرآن عبر عن هذا كله بقوله « فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق » أو ليس قوله « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » ينحو هذا المنحى ، وهو أن نفوسهم تمرض وتجن وأجسامهم ينهكها الضعف وعدوهم يقتلهم ، وهذا سر تلك المحاورة المشهورة بين ابن زياد وسيدنا عمر رضي الله عنه إذ قال ابن زياد : مامعناه لو اتخذت لك يأمر المؤمنين طعاما طيبا ولجأ طريا لكان أوفق لك ؟ فقال يارببع لو شئت لاتخذت طعامي من الرقاق والصناب [وهو الزبيب المصنوع مع الخردل يقوى شهوة الطعام] ولكني رأيت الله غير قوما ، فقال « أذهبتم طيباتكم في حياتكم » الآية .

وأقول : كره أخرى على المسلمين في أقطار المسكونة أن يتعلموا الفنون الحربية تعلما اجباريا ، وأن يمنعوا من الكسل ويلزموا العمل ، وأن يربوا أبناءهم على الشهامة والمروءة والقناعة . ألم تر إلى أسلافنا العباسيين والأمويين إذ كانوا يرسلون أبناءهم في صغرهم إلى البادية تقوية لأبدانهم واجادة لصحتهم ونموا لعقولهم ، أو ليس أهل أمريكا اليوم يرسلون أبناءهم إلى الجبال مكشوفين لضوء الشمس ونور القمر وجمال الكواكب ، هكذا فليفعل المصريون من أهل النعيم ، وليرسلوا أبناءهم إلى اخوانهم العرب المصريين ليتربوا هناك قبل دخولهم المدارس ليعيشوا في جبال مصر وأوديتها لتقوى أبدانهم ويكون منهم شجعان أقوياء ، ولينح هذا المنهج جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، ولقد بلغنا أن اخواننا الفرس بلغوا في ذلك مبلغا عظيما في هذا الوقت الحاضر ، وأنهم يمرنون أبناءهم من ابان صغرهم على الفروسية والاقدام ، وهذا من أعظم مقاصد الدين .

أما الاستخذاء للشهوات ، فانما هو الاستعباد بعينه والاسترقاق ، فان الترف داع إلى المعاصي والمحرمات وتجاوز الحدود والاعتداء ، وهذه تدعو الى ترك نصيح الناصح والتمادي في الضلال ، بل ربما فتك العصاة بمن نهاهم عن القبيح واسترسلوا فيه ، بل ربما قتلوا العلماء والحكماء ونفوهم عن الأوطان وشردوهم كل مشرد ، كما ترى في زماننا أن الفسقة والفجار يخلعون العذار ويذمون الأبرار ، وإذا قدروا على سجنهم أو نفهم أو قتلهم كان ذلك لا محالة ، وهذا قوله تعالى (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلوا النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) فهي مراتب ثلاث بعد المعيشة في البادية : الأولى الاسراف في الترف ، الثانية العصيان والتعدى ، الثالثة قتل الأنبياء ، ولأولى الإشارة بقوله (اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم) ، وللثانية الإشارة بقوله (ذلك بما عصوا) الخ ، وللثالثة الإشارة بقوله (ويقتلون النبيين بغير الحق) « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » انتهى .

ايضاح الكلام في قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا .** الآية

يقول « **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا** » بدين محمد بألسنتهم وفي قلوبهم الشك « **وَالَّذِينَ هَادُوا** والنصارى » جمع نصران « **وَالصَّابِئِينَ** » وهم عبدة الملائكة فالكواكب فالأصنام ويقولون إنها شافعة ، فالأصنام تقوم مقام الكواكب والكواكب كأنها أجسام ، أو محال التصرف للملائكة ، والملائكة شفعاء عند الله ، كل هؤلاء « **مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ** واليوم الآخر وعمل صالحا » أى استكمل قوتى العلم والعمل « **فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ** عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » والمراد باليهود والنصارى والمجوس الذين اتبعوا دينهم قبل النسخ ، أما إذا نسخ الدين فإنه ينزل بمن اتبعه الى أسفل . واعلم أن هذه الآية ترشدنا الى مكارم الأخلاق فى معاملة الناس ، فان الجاهل يحقد على من آذاه ، ولا يعفو ، وينتقم ولو بعد حين ، أما العاقل فإنه اذا رجع المذنب عن ذنبه ، وانضم الى جانب من أذنب اليه قبله وانتفع به ، فالمنافقون وأهل الكتاب المعادون للأنبياء متى آمنوا وتابوا كان لهم مالنا ، وعليهم ما علينا . ومن عجب أن هذا نفسه تفعله الدول ، فأى دولة غيرت سياستها مع أخرى بعد أن ذبحت رجالها ، واستحيت نساءها ، وقالت لها . ان مصلحتى أن أكون معك ، تبدلت العداوة بالمحبة وتضافتا وتضامتا ، وهذه هى السياسة التى يقوم بها السؤاس فى المدن التى يسير عليها مجموع كل دولة . وقد قال علماء الأخلاق : لتكن سياسة الانسان مقيسة على سياسة الأمة ، فالفرد كالأمة ، هذا كلام علماء الأخلاق ، فأما هنا فهى السياسة العليا ، والمثل الأعلى ، والمقام المحمود ، مقام النبوة المنبثق نوره من الجلال الأقدس ، والنور الأعلى ، والجمال الأجلى ، والكمال الذى ليس فوقه كمال ، ففى تاب المرء ذهب خطيأته كائنه ما كانت ، فلنسر على ماسنه الله ولا نحمل الحقد على من قدم لنا توبة خالصة ، ولنعامله ، ذلك هو السان والصراط المستقيم اه

(الباقوتة العاشرة من الفصل الاول)

قصة البقرة وما أودع فيها من الحكم :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النََّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُدِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقَى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً

وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *

مقدمة لتفسير الآية

روى المفسرون حكاية عن بنى اسرائيل كانوا يتوارثونها كابرا عن كابر تهذيباً للنفوس ، وحبا للوالدين ، وطاعة لله تعالى ، ونحن نذكرها مختصرة للفائدة النافعة :

حكى أنه كان رجل صالح في بنى اسرائيل ، وكان له طفل ، وله عجلة ، فانطلق بها الى غيضة ، وقال : اللهم انى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى يكبر ، فلما مات الرجل وكبر الولد كان باراً بأمه ، يقسم ليله ثلاثة أقسام يصلى ثلثاً ، وينام ثلثاً ، ويجلس عند رأس أمه ثلثاً . وفى النهار يحطب فيتصدق بالثلث ، ويأكل الثلث ، ويهطى أمه الثلث ، فقالت له أمه يوماً : يا بنى انطلق الى غيضة كذا ففيها العجلة التى تركها لك أبوك ، وأفهمته علاماتها ، فلما ذهب الى الغيضة عرفها وقادها ورجع الى أمه ، فقالت له : بع البقرة فى السوق بثلاثة دنانير على شرط أن تشاورنى ، فذهب الى السوق ، فأعطى أكثر من ثلاثة ، فلم يرض إلا باستشارة أمه ، وقال لطالباها : لو أعطيتنى ملء جلدتها ذهباً لم أبعها إلا باذن أمى ، فلما رجع الى أمه ، قالت : لاتبع هذه البقرة ، فسيكون لها شأن ، واتفق أنه كان فى بنى اسرائيل شيخ موسر فقتل بنو أخيه ابنه طمعاً فى ميراثه ، وطرحوه على باب المدينة ، ثم جاءوا يطالبون بدمه ، وسألوا سيدنا موسى . انتهت المقدمة :

التفسير اللفظي

فلنشرع فى التفسير المبني عليها . قال الله تعالى (وإذ قال موسى لقومه) لما سأله أن يبين لهم ما أشكل عليهم من أمر القتل (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا ألتخذنا هزواً) أى نحن نسالك أمراً القتل وأنت تستهزئ بنا وتأمرنا بذبح البقرة (قال) موسى (أعود بالله) أمتنع بالله (أن أكون من الجاهلين) بالجواب إذ يجعلونه غير موافق للسؤال (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) ما حاطها وصفتها (قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر) لا مسنة ولا فتية (عوان) نصف : أى وسط بين الصغير والكبير (بين ذلك) أى بين ما ذكر من الفارض والبكر (فافعلوا ما تؤمرون) ولا تسألوا (قالوا ادع لنا ربك) سله (يبين لنا ما لو أنها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها) شديد الصفرة (تسر الناظرين) حسنها (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) أسامة هي أم عاملة (إن البقر تشابه علينا) أى ان البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا (وانا ان شاء الله لمهتدون) الى المراد بذبحها (قال انه يقول انها بقرة لا ذلول) لا مذلة (تثير الأرض) تحث الأرض (ولا تسقى الحرث) لا يستسقى عليها بالسواقي الحرث (مسامة) من كل عيب (لاشية فيها) لالون فيها غير لونها (قالوا الآن جئت بالحق) بالبيان التام (فذبحوها وما كادوا يفعلون) أى وما قاربوا أن يفعلوا ما أمروا به قبل لغلاء ثمنها ، وألحزة وجودها بهذه الأوصاف (وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها) اختصمتم فى شأنها (والله مخرج ما كنتم تكتمون) مظهره لا محالة ، ثم عطف على ادّارأتم قوله تعالى (فقلنا اضربوه) القنيل (ببعضها) أى بأى بعض كان ، فضر به فخي ، ثم خاطب الله من حضروا حياة القنيل ، أو من حضروا نزول الآية ، فقال (كذلك يحيى الله الموتى) للبعث (ويرىكم آياته) دلالة على كمال قدرته (لعلمكم تعقاون) تمنعون أنفسكم عن المعاصى (ثم قست قلوبكم) القساوة الغلظ مع الصلابة كما فى الحجر (من بعد ذلك) أى بعد إحياء القنيل (فهي كالخجارة) فى قسوتها (أو أشد قسوة) منها (وان من الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ) يخرج (منه الأنهار وان

منها لما يشقق) يتصدع (فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط) أى يتدحرج من أعلى الجبل الى أسفله (من خشية الله) وقاوبكم لاتتحرك من خوف الله (وما الله بغافل عما تعملون) أى ان الله بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم حافظ لأعمالهم حتى يجازيهم فى الآخرة . انتهى التفسير اللفظى .

ايضاح هذه الآيات وعجائبها

خالط بنو إسرائيل الأمة المصرية ، وأشربوا فى قلوبهم العادات الوثنية ، والأخلاق الفرعونية ، فعبدوا عجولهم ، وقدسوا أصنامهم ، ولصقت بهم عاداتهم ، ورسخت فى طباعهم رذائلهم كما هو شأن المغلوب مع الغالب والضعيف مع القوى ، والولد مع الوالد ، والتلميذ مع الاستاذ ، والجاهل مع العالم ، والفقر الضعيف مع القوى الغنى ، وكما هو شأن الأمم التى استضعفتها الأقوياء ، واستذلها الباطشون ، وشأن ضعاف الأمم الشرقية مع الأمم الغربية ، فانظر كيف غلب على بنى إسرائيل ماعلق بأذهانهم ، ورسخ فى طباعهم من عبادة العجول حتى اتخذوا العجل وعبدوه كما كانوا يرون [ايس] معبود المصريين ، وهذا شأن البشر يتخذون أوهام الغالبين الذين استوثق لهم الأمر ، وتم لهم النصر عليهم ، وما حال بنى إسرائيل فى التيه العابدين للعجل إلا كمثل من أذلهم المستعمرون الغاصبون ، فتعلقوا بأذيال ظالمهم ، وغرهم سرابهم الخادع ، وهذا شأن البشر فى كل قبيل ، وكما يقول المتعلم الشرقى قال المسيو فلان والسير فلان ، وهم قد ضربوا بيد من حديد ، فلم يكن للنبي موسى عليه السلام بد من انتهاز فرصة القتل الذى اشتجروا عليه وتخاصموا وكان من الأغنياء الموسرين فقال اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ، فضرب بحجرين ورمى الجمل بسهمين ، فأنساهم عبادة العجل ، وأراههم أن للأموال حياة وبها بعد أن أرهقهم بأمر الله بما وصف من البقرة النادرة العزيزة النظير بعد أن عبدوا العجل الذهبى وكيف وصف قلوبهم بأنها كالخجارة أو أشد قسوة وفصل الحجارة عليها بأن قال : « وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء » .

لقد سبق أن ذكر الحجر المضروب بالعصا وهو معجزة نادرة الوقوع صارت على يد نبي ، ولقد ألمع فى هذه الى رحمة الله الواسعة ، وفضله العميم ، وخيره الجسيم ، إذ كانت الجبال كلها مخازن للماء الذى سلكه فى باطنها مما أمطره السحاب فأصابه البرد فصار ثلجا يكسر الحجر الصلد ، والصفاء الملد ، وتتفجر الينابيع .

يقول الله : أن ضرب موسى الحجر بعصاه فعصاى التى أضرب بها ذلك الناموس العجيب ، والابداع الغريب ، والنظام البديع ، إذ جعلت للماء اذا جمد خاصية لا يشركه فيها سواه ، وطريقة لا يسلكها ماعداه ، ذلك أنه اذا جمد فصار ثلجا أكبرت حجمه فكسر الصم الصلاب ، وبجر الأنهار ، تلك عصا ربك التى يكسرها الأبحار ، وهو عام الجود ، دائم المعجزات ، ماتوا الى الحدثن ، وتناجى الفرقدان ، فالمعجزات الالهية لانهاية لعددتها ولا آخر لمددها ، دائمة لا تبلى ، وقائمة لا تنفى ، خفيت على الجهلاء ، وظهرت للعالماء والحكماء « لا يعقلها إلا العالمون » (بكسر اللام) ولا يدرك كنهها المغفلون ، ذلك داع حثيث الى النظر فى العاوم الطبيعية ، وعار على أمة الاسلام أن تجهل عصا الله الناموسية المفجرة للأنهار ، الكاسرة للأعجار ، كل ليل ونهار ، وكل صباح ومساء فى مشارق الأرض ومغاربها ، والاف كيف اختص الحجر بالضرب : أليس ذلك تنبيها للغافلين وتذكيرا للجاهلين من المسلمين والأمم أجمعين ، وعدم نسيانهم مجد آبائهم وعلومهم كما نسي بنو إسرائيل التوراة المنزلة على موسى ، وهو رجل منهم ان الانسان ظالم جهول [يقول الله] ان الماء مخزون فى الاعجار ومنها تنفجر الأنهار ، فهلا ضرب شجرة ، أو بقرة ، أو خيمة ، وإنما هداه الله بالوحى إلى ما يبعث فى النفوس حكمة . وفى العقول فهما ليجد الناس فى العاوم . هذا هو السر فى قوله تعالى - وما نرسل بالآيات - [خوارق

العادات [- إلا تخوفنا - ثم يقول « أو لم يكنهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكري لقوم يؤمنون » .

بمثل هذا تكون الذكرى وبمثل هذا يستيقظ المساهمون ويأخذون حظهم المنشود ويومئهم الموعود .
تفجر الأنهار من الجبال والأحجار إنما كان بما اختصت به المياه من حكمة الانتفاخ إذا جددت كما علمت ، وتعجب كيف ضربت الشمس الرياح وأرسلت عايها أشعتها فأجرتها فأخذت تعدو وتموج في مخارق الجوّ وفسيح باحاته ، وهي تحمل قطرات الماء الخافية المسماة بالأبحرة الغاديات الرائحات حتى إذا اصطكت بالجبال الراسيات صدمتها وأرجعتها ، فخبست ورجعت وكوّنت سحاباً فسقت الحقول والرياض ، فأحقل النبات وأثنى وأثلث وتشعب الشجر وفرش وأورق وأزهر وأثمر وأينع ، وما أشبه الجبال بالحبوس : أي السدود لتحفظ الماء حتى يسقى الحقل .

الجبل حبس الماء فاذا رده وهو بخار نزل ودقاً فسلك في باطن الأرض أليماً حتى إذا أصابه برد تفجر ينابيع .
عجب للماء وأيّ عجب تجريه في الجوّ الحرارة الشمسية ، وتزجيه الرياح ، ويحبسه الجبل ، ثم يخزنه في كهوفه والمغاور المستكنة تحته ، والبرد يخرج به .

أليس من عجب أن الحرارة تجريه بخاراً ، والبرد يجريه ماء .
هذه هي المعجزات ، وهذه هي الآيات ، فياحسرة على المساكين : نسوا حظهم من الحكمة ، ونسوا حقهم في الوجود : يا حسرة على بلاد الإسلام جهلوا العلم وناهوا في اليهود وسكنوا اللحد ، قوموا من مراقدم وانظروا ما أبدع القرآن وكيف يقول (وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون) .

فان كنت جاهلاً فلا تتعدّ حجر موسى وعصاه ، وان كنت عالماً فاحرك أن تتغلغل في الحكمة وتنظر في العالم وما حواه وتردد الطرف ، وتعلم أن الجبال كلها حجارة الله ، والنوايس الطبيعية عصية واقراً الطبيعة فلقد نهك القرآن من ذكر الحجارة وتفجر الأنهار منها أن تنظر نظرات ولاتكن من أولى الجهالات .

عجائب القرآن وغرائبها

ان هذه القصة المحكية عن بني اسرائيل معجزة لنبيّ الله موسى عليه السلام ذكرت هنا في القرآن كسائر قصص الانبياء ، وهنا يتساءل الانسان قائلاً : أيّ فائدة نجنيها من هذه القصة : اللهم إلا أن تتلى في المحافل والمجالس الدينية ، ولكن القرآن إنما جاء ذكرى وعلماً وحكمة ، فأين العلم وأين الحكمة هنا ، فربما يجاب كما أجبتنا أن فيها فائدتين : الأولى أن البقرة عبدها المصريون ، فقد أراد سيدنا موسى أن يظهر لهم ان ما يذبح ليس بمستحق العبادة . الثانية ان الأرواح أحياء بعد الموت ، فيكون ذلك دليلاً على بقاء النفوس حية كما قلناه هنا ، ولكن هاتان الفائدتان ليستا بمقنعتين ، لأن عبادة البقر ليست شائعة الآن في الاسلام ، واحياء الميت بضربه ببعض البقرة أمر سماعي يأخذه المؤمنون بالتساميح ، فلا بدّ اذن أن يكون وراء هذا القصص أمر نافع .

أقول : اعلم أن معجزات الانبياء لا بدّ أن يكون لها عند الناس مبادئ بها نعقلها . ألا ترى أن الامام الغزالي يقول : لولا أن الناس يرون رؤياصالحة بأنفسهم أو يسمعونها من غيرهم ، وانها وقعت كما رأوها ماصدقوا الانبياء في أخبارهم بالغيب . فاعلم أن هذا القرآن جاء للناس ، وهو يتلى صباحاً ومساءً وتمرّ عليه السنون والأعوام ، والناس يؤمنون به تقليداً وتصديقاً وانباعاً ، ولا يحسر أحد من المؤمنين أن يقول لم كان

كذا فيما لم يدركه فهمه حتى اذا جاء من يدرك المقصود منه عرفه فابرزه للناس . ان في هذه السورة أربع عجائب : عجبة الربا ، وعجبة الحجر ، وعجبة احضار الأرواح ، وعجبة التنويم المغناطيسى . أما عجبة الربا فستأتى فى آخر السورة ، وقد ظهر هناك أن الحرب الكبرى بين الألمان ، ودول أوروبا والشرق كانت من أجل رءوس الأموال التى كانت [البنوك] المصارف والربا أهمّ مقوم لها ، وهكذا استعباد الدول القوية للأمم الضعيفة ، وظهر [البلشفيك] فى بلاد الروس وقلبوا حكومتهم من أجل رءوس الأموال وأبطاوا الربا ، فسيأتى هناك فى الآية المذكورة فى الربا ، وقد كنا فسرناها قبل الحرب بثلاث سنين ، وقلنا قوله « فان لم تفعلوا فائذنوا بحرب من الله ورسوله » يفيد أن الحرب ستكون بين الدول لأجل رءوس الأموال . وبالأجمال أقول ان الربا ظهر ضرره باوضح معنى فى هذا العصر ، وقامت الروس بتحريمه ومنعه بتاتا ، والمسلمون فى جميع العصور لم يقدروا أن يستأصلوه ، بل انى رأيت من أفاضل المصريين المعاصرين لى من كانوا يرون أن القرآن فى تحريمه للربا كان من أسباب تأخر المسلمين ، فلما سمعوا بانقلاب دولة الروس وتحريم الربا أبلت أفواههم بالأحجار .

وأما الحجر فسيأتى تحريمه فى هذه السورة ، وأنت ترى أن المسلمين كانوا يختلفون فى بعض أنواعه ، وهو النبيذ : وترى الأطباء قد يبيحون تعاطيه لمرض ، والمسلمون فى أقطار الأرض يخالفون ، ومنهم من كانوا يتعجبون من القرآن ولم حرّمه ، وأوروبا وهى أعلم منا تشربه ، حتى قامت أمريكا فى هذا العصر فنهت شربه بجميع أنواعه ، وأسكتت جميع الأمم واتبعتها حكومة الترك ببلاد الأناضول التى برأسها الغازى مصطفى كمال باشا ، وقد استولوا على الاستانة وحرّموا فيها الحجر تحريما بانا فى هذا الشهر عند كتابة هذه الأسطر ، فانظر كيف كان الحجر محرّما ألف سنة وثلاثمائة فأكثر ، والناس منهمكون فى شربها والشعراء المسلمون يترنمون بها ، ولا تمنعهم الحكومات الاسلامية ولم تظهر الثمرة المطلوبة الاعلى يد أم أخرى عرفته بعقولها لا بأديانها .

أما مسألة التنويم المغناطيسى الذى عم الكرة الأرضية وصار عاما يدرس رسميا ويستعان به فى علم الطب ، فسيأتى عند الكلام على هاروت وماروت .

وأما علم تحضير الأرواح فانه من هذه الآية استخراجا ، ان هذه الآية تتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم تحضير الأرواح بأمريكا أولا ، ثم بسائر أوروبا ثانيا . فلا ذكر نبذة منه لنعرف كيف كان مبدأ هذا العلم وكيف كان انتشاره بين الأمم ، وفائدة هذا العلم أن من صحت عنده أحوال الأرواح وظهورها أيقن بالآخرة وبالحياة بعد الموت إيقانا تاما . وأما من لم تصح عنده فانه مقلد كسائر الناس ، ولتعلم أن هذا العلم متشعب اختلط فيه الحق بالباطل ، والصدق بالكذب ، وصار الناس فيه طائفتين ، طائفة مكذبة ، وطائفة مصدّقة ، ولكل حجج ليس هذا محلها ، ولكن بالأجمال أقول ان فى العلم التباسا كثيرا وشكوكا بسبب الأحوال الطارئة على المشتغلين به ، وكان الأولى بأمة الاسلام أن تكون السابقة فى مضماره المجتد فى تعلمه المتقدمة على سائر الأمم فى تحصيله تهتدى الناس إلى سواء الصراط . أفلا يرى المسلم ما جاء فى هذه السورة فى قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك ، ثم اجعل على كلّ جبل منهنّ جزءا ، ثم ادعنّ يأتينك سعيّا واعلم أن الله عزيز حكيم » وفعل إبراهيم ذلك ، وقطع الطير ودعاها فأجابت فاطمأن ، وهل نحن أكثر إيمانا من إبراهيم كلا ؟ فاذا كان إبراهيم يطلب اليقين بالمعينة فنحن أولى ، والأنبياء أعلم منا ، فسكان يجب على المسلمين أن يكونوا هم البادئين بعلم احضار الأرواح لأمريكا ، لأن الله ذكر لنا فى سورة البقرة هنا أنهم ضربوا القليل خفي وأخبر عن قتله ، وهو الذى كان وارثا له فخر الميراث ، واذا صح هذا فى نفس واحدة لجميع الأنفس يجب أن تكون كذلك ،

واسها حية بعد الموت وليس يمكن أن يكون هذا يقينا إلا اذا رأيناه بأنفسنا في زماننا بلا شك ، وأنى لنا ذلك الا بالكذب ، والنصب ، والتعب ، والسهر ليلا ونهارا في العلم والعمل .

واقعد ألفت كتابا سميته [كتاب الأرواح] ضمنته : ماورد إلينا من أوروبا وأمريكا من كيفية احضارها ، وهكذا مايقابل ذلك ، مما ورد في القرآن والحديث وكلام الصالحين ، فرأيت اتفاقا بين الأمتين ، فلا تقل لك الآن ما جاء في التوراة من احضار الأرواح مثل ما في عصرنا تماما ، ثم أتبعه بنبذة مما في كتاب الأرواح الذي ألفتة في تاريخ هذا العلم ولست أريد بذلك أن تقلد ما أقول ، ولكن أقول يجب أن يكون في المسلمين جماعة صادقون مخلصون قاصدون وجه الله ، والدار الآخرة ، لا عرض الدنيا ينقطعون لهذا العلم ويحضرون الأرواح لأجل العلم والمعرفة ولا يتكلمون على أوروبا وأمريكا ويميزون الخبيث من الطيب . وطرق التحضير واضحة في كتاب الأرواح المذكور ، فلا بتديء لك الآن بما جاء في التوراة في سفر صموئيل الأول واليهود والنصارى معترفون بنبوته مصدقون به ويذكر في هذا السفر أنه نصب لليهود ملكا ، يقال له طالوت وأمره الله بقتل العماليق ففعل الا أنه خالف من قبل مواشيهم وسقط عن مرتبة الملك ، ومات صموئيل وأقبل طالوت على قتل السحرة والعرافين فقتل من قتل ، وهرب من هرب ، وأقبل أهل فلسطين لمحاربتة فجمع العرافين لهم ، ودخل الرعب من كثرة الجيوش المنصبة عليه ، ولم يجد من يسكن الى قوله كهادته من نبي ، ولا ساحر ، ولا عراف ، ولا حاكم فقلق لذلك . قال في التوراة : ولما رأى جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جدا ، فسأل من الرب فلم يجبه الرب لا بالأحلام ولا بالأنبياء ، فقال لعبيده فتشوا الى على امرأة صاحبة جان ، فأذهب إليها وأسألهما ؟ فقال له عبيده هاهوذا امرأة صاحبة جان في عين دور فتسكر طالوت ولبس ثيابا أخرى ، وذهب هو ورجلان معه وجاءوا الى المرأة ليلا ، وقال اعرفي لي بالجآن ، واصعدى لي من أقول لك ؟ فقالت له المرأة أنت تعلم ما فعل طالوت كيف قطع أصحاب الجآن ، والتوابع من الأرض فلماذا تضع شر كالنفسى لفتيتها خلف لها طالوت بالرب قائلا حي هو الرب لا يلحقك اثم في هذا الأمر ، فقالت المرأة من أصعد لك ، فقال اصعدى لي صموئيل ، فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم ، وكلت المرأة طالوت قائلة لم خدعتني ، وأنت طالوت ؟ فقال لها الملك لا تخافى فماذا رأيت ، فقالت المرأة لطالوت رأيت شيخا مهيبا مثل ملائكة الرب مشتملا يبرس قد صعد من الأرض ، فعلم طالوت أنه صموئيل أرسله الله ، فدخل إليه وسجد بين يديه ، فقال صموئيل ياطالوت لم أرجعتني وأحييتني ، قال لما ضاقت بي الأرض من أهل فلسطين ومحاربتهم إياي ، وزوال عناية الله عني ومنعه الأحلام منى فدعوتك لأشورك في أمري ، فقال صموئيل : ان الله تعالى قد نقل الملك عنك إلى صاحبك داود وغضب عليك ، وعلى بني إسرائيل بما فعلتموه في مواشى العماليق ، وهو ناصر فلسطين عليكم ومديهم فتصير معى غدا في الأموات نحر مغشيا عليه وعرفته الساحرة فأقبلت إليه ، ومن كان معه ولم يزالوا به حتى أفاق وألحت عليه المرأة والعبدان أن يأكل ، وهو يمتنع منتظرا الموت خرينا كئيبا فلم يزالوا به حتى فذبحت عجلها المسمن في البيت وصنعت فطيرا فأكل . ولما طلع النهار التحمت الحرب فوقعت الهزيمة على العبرانيين فأكثر القتل فيهم ، وقتل طالوت وبنوه الثلاثة ، وكان قتله هو أنه اتكأ على حربة فأخرجها من ظهره فاجتمع بنو إسرائيل على تملك داود فدافع بهم من ناوهم . هذا ماقرأته في كتب أسلافنا عن التوراة . وقد وضعها بين يدي عند كتابة هذه الحكاية ، فرأيت الموافقة نامة إلا في بعض عبارات لا تضر بالمقصود جاءت من تحريف الناسخين ، هذا هو تحضير الأرواح في التوراة .

أما ما جاء في العصر الحاضر الذي يناسب مسألة القتل الذي ضربوه ببعض البقرة ، ومسألة إبراهيم الخليل وقوله لله عز وجل « ولكن ليطمئن قلبى » ومسألة صموئيل النبي مع طالوت المعبر عنه بلفظ شاول في التوراة

الذى ذكرنا قصته الآن فيها كه . قلت فى كتاب الأرواح :

قال شير محمد : هل يذكر لى الاستاذ كيف كان بدء هذه الحركة فى العالم الحديث ؟ قلت : ان هذه الحركة بدأت مع الانسان على ظهر الأرض وعاشت مع الأمم دهورا وأحقابا ، فاما كانت هذه القرون الحاضرة وأظلمت الدنيا : واسود وجه الحقيقة ، وأخذ الناس يجرون بالاحاد أرسل ربك لهم عجائب ، وبث لهم من الأرض غرائب ، انبعثت لهم من عوامل الغيب ، وسطعت الحقائق ، وأشرقت الأرض بنور ربها فى سنة ١٨٤٦ م ذلك أنه سمع فى تلك السنة طرقات متوالية فى بيت رجل يسمى [فيكمان] من قرية [هيدسفيل] فى نواحي ولاية نيويورك وتوالى ذلك لىالى ذوات عدد ، فذعرت تلك الأسرة ، وقذف فى أفئدتهم الرعب ، فهجروا المكان بعد أشهر ، فسكنت الدار أسرة [جون فوكس] المؤلفة من الرجل وامرأته وابنتيه ، فعادت الطرقات وتوالى الضربات ، وهرع الجيران لينقبوا عن تلك الأصوات المزعجة ، ثم اهتدوا الى سبيل الرشاد إذ علموا أن تلك أفعال ناجية عن عقل ، فاصطلمحوا مع مصدرها على لفظ نيم ولفظ لا بطرقتين وثلاث ، ففهموا أنها روح أصابها شرّ قد قتلها رجل فى هذا البيت والذى كشف ذلك [مدام فوكس] والقتيل الطارق يدعى [شارل ريان] قتل منذ أعوام عديدة فى ذلك البيت ، وكان فى حياته دوارا قتله من كان يبيت عنده لسلب ماله ، وكان عمره إحدى وثلاثين سنة ، ثم شاع الخبر وذاع ، واستهزأ الناس بذلك وسخروا منها ، وقالوا : ان هذا لكذب مبين ، وانتقلت عائلة فوكس الى قرية [روستر] من الولايات المتحدة ، وشاع الخبر وذاع ، وثار علماء الدين والملحدون وسائر الشعب على المرأة وابنتيها ، وتعرضن للموت مرارا ، فعين القوم لجنة من العلماء لكشف الحقيقة ، فأعلنت أنه لا أثر للشعوذة ولا للاحتيال . فهاج الشعب وعين لجنة أخرى ، فقررت كالأولى ، وعينوا ثلاثة ، فأذعنت كسابقتها ، فهجم الطعام باهلاك الابنتين ، وسبوا وشتموا علماء اللجان المذكورة ، ولكن الابنتين لم يصبهما ضرر ، وقامت الجرائد والمجلات تنشر مقالات الهزؤ والسخرية بهذا العمل ، ومن العجب أنه لم يمض أربع سنين حتى فشا المذهب فى سائر الولايات المتحدة حتى لم يكن يخلو بيت من وسيط أو وسيطة تخبر القوم على يده الأرواح ، وقد يجلسون حول منضدة ، ويتلون أحرف الهجاء ، وعند وصولهم الى الحرف المقصود تطرق المائدة برجلها ، ولم تمض سنة ١٨٥٤ أى بعد الحادث ثمان سنين حتى أصبح أمر هذا الحادث من أعمال دار الندوة ومجلس الأعيان الملتئم فى مدينة وشنطون ، فقد رفعت عريضة طويلة مذيلة بخمسة عشر ألف اسم ، هاك صورتها صفحة ١٦ من كتاب « المذهب الروحاني » :

« نحن الواضعين أسماءنا بذيله أبناء جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية نعرض لمجلسكم الموقر أن حوادث طبيعية وعقلية لا يعرف لها مبدأ ظهرت منذ قليل فى هذه البلاد وفى أكثر أنحاء البلاد الأوروبية وتسببنا هذه الحوادث السرية فى شألى الولايات المتحدة وغربها ومتوسطها حتى أقلقت الرأى العام ، ولما كان الموضوع الذى نلتبس من جمهوركم الموقر الالتفات إليه لا يمكن شرحه فى هذه العريضة على اختلاف أنواعه نلخصه لكم بوجيز من الكلام فنقول :

أولا : ان ألوفنا من العقلاء المدركين شهدوا قوة خفية تحرك أجراما ثقيلة وترفعها وتخفضها وتنقلها وتقلبها على أنواع مختلفة مناقضة فى الظاهر للنواميس الطبيعية ، ومتجاوزة حدود الإدراك البشرى ، ولم يتوصل أحد حتى الآن الى إيجاد علة خصوصية أو مقاربة لهذه الحوادث .

ثانيا : ان أنوارا مختلفة الشكل والألوان تظهر فى الحجر المظلمة من دون أن يجد القاعدون فيها مادة قابلة لتوليد عمل كهماوى ، أوتنوير فسفورى ، أوسيال كهربائى .

ثالثا : ان نوعا غريبا من هذه الحوادث نلتبس من مجلسكم الموقر الانتباه له وهو اختلاف الأصوات فى

نكرارها وأنواعها ، وأهمية عناصرها ، فبعضها طرقات سرية تدل على وجود عاقل غير منظور ، وبعضها تحاكي الأصوات التي تدرى في بعض المعامل الميكانيكية ، أو تتحول إلى دوى أشبه بصيرير الريح العاصفة تتخللها فرقة صواري المراكب وملاطمة الأمواج لجدرانها حين هبوب العواصف ، وأحيانا تصير الأصوات شبيهة بقصيف الرعد واطلاق المدافع ، وترتج عندها الأشياء المجاورة ، بل البيت ذاته الذي تقوم فيه تلك الحوادث ، وفي بعض الأوقات تكون الأصوات شجية ، تماثل تارة الصوت البشري ، وتارة آلات الطرب كالزمار والطلل والبوق والقيثارة والعود والارغن تصدر إما جملة وإما على حدة ، وتارة مع عدم وجود الآلات المذكورة ، وطورا مع وجودها ، ولكن تضرب من نفسها دون مس يد بشرية لها ، وتصدر هذه الأصوات وفقا للمبادئ العلمية المنوطة بقوة السمع أي حدوث تموجات هوائية تلتطم بأعصاب السمع ، وإنما لم يتوصل الباحثون رغمًا مما بذلوه من الجهد في استجلاء مصدر هذه التموجات الهوائية ، ونرى من المناسب أن نشير إلى المبدئين اللذين افترضنا في حل هذا المشكل ، فالأول اعزاء الحوادث إلى أرواح الأموات ، وفعلهم في العناصر الدقيقة الأولية المائلة والسارية في كل الأشكال الهيولية ، وهذا ماشرحه العامل السري ذاته حين طلب إليه إيضاح ذلك وقد وافق على هذا الزعم عدد عديد من أبناء وطننا الممتازين بأدابهم ، وقوة ذكائهم ، ومركزهم الرفيع في السياسة والهيئة الاجتماعية ، وأما أصحاب المبدأ الثاني ولأكثرهم أيضا رفيع المنزلة في القوم فهم ينكرون الزعم الأول ، ويذهبون إلى أن مباحث العلماء لا بد من أن تنير بقوة المبادئ المعروفة من العلوم النظرية العقول بإيجاد سبب حقيقي مستوفى الشروط لكافة الحوادث المنوّه عنها .

على أننا وان كنا لانوافق على رأى هؤلاء وقد توصلنا بقوة البحث إلى نتائج مخالفة لكل علة طبيعية للحوادث التي نحن بصدددها تؤكد لجمهوركم الموقر أن الحوادث جارية حقا وصدقا ، وأن مصدرها السري وغرابة وقوعها ، وأهمية تأثيرها في صوالم الجنس البشري تستوجب بحثا علميا مدققا لا يهتريه السكل ، ألا يستطيع كل عاقل أن يفكر بمقدار الحوادث التي نحن بصدددها من الاتيان للشعب الأمريكي بنتائج مهمة ثابتة تتعلق بأحواله المادية والعقلية والأدبية ، ثم ماذا يكون لها من التأثير في أصول الصحة والحياة ومبادئ الفكر والعمل حتى يمكنها أن تؤول إلى تغيير أصول معيشتنا واصلاح مبادئ إيماننا وفلسفة عصرنا ، وتبديل هيئة إدارة العالم ، وإذا كان من اللائق والمناسب لروح نظامنا أن نقصد دائما نواب الشعب في المسائل التي يصدر عنها اكتشاف مبادئ جديدة تأتي بنتائج مذهلة للهيئة الاجتماعية ، أتينا نحن أبناء الوطن نلتمس بالخاح من جمهوركم الموقر إنارة بصائرنا في هذه الظروف الغريبة ، وذلك بتعيين لجنة كاملة مهما يلزم لها من النفقات في سبيل استجلاء هذه الغوامض ، واننا لمعتقدون أن صوالم الهيئة الاجتماعية سينالها الخطأ الأكبر من نتائج أعمال اللجنة التي التمسنا إقامتها ، ولنا مزيد الثقة في استصواب طابنا ، واجابة ملتسنا ، من لدن مجلسكم الموقر » عذيل بخمسة عشر ألف اسم اه

ثم اعلم أن هذا العلم عم الولايات المتحدة حتى صار المذهب يتبعه سنة ١٨٩٥ نحو ٣٠ مليوناً في الولايات المتحدة ، وعدد الشركات الروحانية سنة ١٨٧٠ عشرون شركة روحانية عمومية ومائة وخمس جمعيات خصوصية و٢٥٧ خطباء و٣٣ وسيطا عموميا ، ومن علمائهم الحاكم أدون كان رئيس القضاة ، وانتخب مرارا في مجلس الأعيان ، والعلامة روبرت هيرالأمريكي الطائر الصيت وألف كتاب [أبجاء عرفية في ظهور الأرواح] والعلامة روبرت دال أوين وألف كتابا سماه « عشار في حدود عالم الغيب » وكان في تلك البلاد في آخر القرن الماضي نحو ٣٣ جريدة ومجلة تنقل إلى القراء أخبار أعمالها ، ولم يكن ليمبحث أحد من العلماء هذا البحث إلا لينقذ الناس من الضلال بما آناه الله من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، ولما ملا هذا

الحادث أرجاء الولايات المتحدة بلغ صدى صوتهم آذان الانجليز ، فقام العلماء والفلاسفة فيها للبحث والتنقيب عسى أن يخرجوا العالم الانساني من الظلمات الى النور بتفنيد هذا السحر ، وابعاد هذا الظلام ، وقشع السحاب الذي غشى على الانسان ، فحجب عنه نور العلم ، وأذاع فيه الخرافات والأكاذيب ، فقام العلامة الطائر الصيت ولیم کروكس من أعظم الكيماويين والطبيين المكذبين بهذه الأساطير ، والعلامة الفرد [روسل والاس] قرين داروين الشهير والمساعد له في أعماله . فقال شير محمد : قرين داروين ! فقلت نعم . فقال أف للقلدين كيف يصبح والاس قرين داروين مؤمنا بالبعث ، وهؤلاء الذين يدعون أنهم قرءوا مذهب داروين ينسبون كفرهم إليه ، ألا تعس الجاهلون الذين لا يعقلون . ثم قلت : ومنهم العلامة [أوجست دى مرجان] رئيس جمعية الرياضيات في لوندريه ، وكانم أسرار المجمع العلمي الفلكي ، ثم السير [فارلى] مخترع آلة المستودع الكهربائي ، والمجمع العلمي المنطقي الذي تأسس في لوندريه سنة ١٨٦٧ قرر في جلسته المنعقدة في ٦ كانون سنة ١٨٦٩ وجوب إقامة لجنة للنظر في الحادث الروحاني ، والوقوف على صحة الأمر ودرسته ١٨ شهرا متوالية ، ولقد دهشت الأمة الانكليزية لما بلغها قرار اللجنة بصحة الحادث ، ولقد ألف والاس الآنف الذكر كتابه الذي سماه « عجائب الروحانية الحديثة » . ومن العلماء الذين كانوا من أشد المعاندين الدكتور جورج ساكستون الخطيب المصقع الذي بعد أن عابها أخذ يدرسها ١٥ سنة وقال : لقد أيقنت بالروحانية ، وحادثت أقاربي وأصدقائي المتوفين ، وكذا الدكتور [شامبرس] والدكتور [هوغسون] والعلامة [ميرس] وهناك [جمعية المباحث النفسية] ولها مجلة تسمى [أشباح الأحياء] .

ولقد حصل في فرنسا مثل ما كان في أمريكا وانجلترا : فقد قام بالأمر منهم البارون [جيلد نستويه] وألف كتابا سماه [حقيقة وجود الأرواح] ظهر في سنة ١٨٥٧ أي بعد الحادث الأمريكي بنحو ١١ سنة وأجيسيت فاكيري : ألف كتابا سماه [شتات التاريخ] على ذكر الامتحانات الروحانية ، وكذلك [فكتور هوجو] شاعر الفرنسيين اذ قال : ان من أعرض عن الحادث الروحي فقد أعرض عن الحقيقة وكذا المؤرخ [أوجين بوشير] والعلامة فلاديمير الفلنكي الطائر الصيت ، والعالم [موريس لاشائر] مؤلف القاموس الذي باسمه ، والدكتور [جيبييه] الطبيب الشهير .

ثم فشت الروحانية في ألمانيا وروسيا وإيطاليا والبلجيكا وإسبانيا والبرتغال وهولانده وأسود ونروج هذا ملخص ماجاء في كتاب « المذهب الروحاني » الذي هو خبر كتاب ألف بالعربية لعلم الأرواح في هذا الزمان قد أبنت لك كيف كان انتشار هذا الحادث في النصف الثاني من القرن الماضي .

هذا مافي هذه العصور من العلوم الخاصة بالأرواح ، وتعجب من القرآن كيف ذكر مسائل الحياة بعد الموت في قصة الخليل كما ذكرناه ، وانه أمر بتقطيع الطيور وخلط لحما بعظمها وریشها ، ثم يدعوها فتحييا في أواخر هذه السورة : وأنت تعلم أننا عن هذا عاجزون ، وهذه معجزات لنبي ، وذلك النبي أراد أن يطمئن قلبه بالمعينة بعد الايمان ، ولاجرم أن ايماننا أقل من ايمان الأنبياء : فنحن أولى بطلب المعينة ، وطريق الخليل فيها مقفل بابها علينا * فن فضله تعالى ذكر هنا أن القتل قد حي بضربه ببعض البقرة ، وهذا فتح باب لاحضار الأرواح فكأنه يقول في مسألة ابراهيم : اطلبوا الحقائق لتطمئنوا ، وهنا يقول : اسلكوا السبل التي بها تستحضرونها ، ولا تنالون شيئا من هذا إلا بجدكم وكدكم ، فالعلم لا ينال إلا بالمشقة والنصب ، فاذا وجدتم أن طريق موسى في إحياء الموتى يصعب عليكم فالتمسوا غيره « وأن ليس للانسان الا ماسعى » هذا ما بدا لي في هاتين الآيتين للخليل وموسى الذي سار على قدم جدته في النبوة ، فحي الميت على يديه وفي السورة آيتان آخريان في إحياء الموتى وهما (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت

فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم» والآية الأخرى نزلت في العزيز اذ قال في بيت المقدس « أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام» ثم انظر الطعام الذى كان معه والشراب فرآهما على حالهما لم يتغيرا ، وصار ينظر الى حماره وهو يحيا وتتصل العظام ببعضها وتكسى لحما فعلم « أن الله على كل شىء قدير » .

فالمسلم اذا قرأ هذه الآيات التى حكيت عن بنى اسرائيل يقول فى نفسه : أنا آمنتم ، فان كان من العامة لم يطلب المزيد ، وان كان من الخاصة قال : أنا أطلب المعاينة والمشاهدة ، والمشاهدة باحدى طريقتين : الطريقة الأولى : ماسلكه المجاهدون الزاهدون ، ولكنها مخوفة بالخطر ، ومن شاهد منهم شيئا لا يمكن لغيره التصديق به . الطريقة الثانية : طريقة استحضار الأرواح ، وهى عامة كما تقدم فى هذا المقام ، ولكن استحضار الأرواح أيضا على ما يقولون صعب المنال ، ويقولون ان الأرواح النقية لا تخاطب إلا قلوبا نقية خالصة ، فرجع الأمر عند الصوفية وعند علماء العصر الحاضر من أوروبا الى أن المدار على الاخلاص والصدق ، وطلب الحقيقة والتوجه لله : فهذا هو الأصل عند الجميع . ولذلك ترى الذين يظنون أنهم استحضروا الأرواح متى غلب عليهم حب الدنيا تحضر اليهم أرواح كاذبة خاطئة على مقدار همهم وتسلكهم بالأكاذيب والمواعيد العرقوبية كما أن المجاهد من الصوفية لا ينال الزلفى الا باحتقار العالم الفانى ، ولما كانت السورة التى نحن بصددتها قد جاء فيها حياة العزيز بعد موته ، وكذلك حماره ، ومسئلة الطير وابراهيم الخليل ، ومسئلة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون فماتوا ثم أحياهم ، وعلم الله أننا نجهز عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة فى السورة ما يرمز الى استحضار الأرواح فى مسئلة البقرة كأنه يقول : اذا قرأتم ما جاء عن بنى اسرائيل فى إحياء الموتى فى هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك فانى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة و «اسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون» ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالعزيز وابراهيم وموسى : فهؤلاء خلوص قلوبهم وعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة ليطمئنوا ، وأنا أمرت نبيكم أن يقتدى بهم فقلت «فبهدهم اقتده» فافتدوا بهم فى تعلم ما تطمئنون به وتوقنون ، ولكن قبل ذلك اقتدوا بالأنبياء فى طهارة القلوب وزوال الرجس من النفوس فان هذه الأمور انما تعرف بالتجربة والعمل ، لا بالقياس العقلى ولا بالنظر والحدس الفكرى .

مراتب التصديق أربعة

الايمان : البحث العقلى بطرق الحكماء . طريق الصوفية . طريق استحضار الأرواح ، وأعمها الايمان ، وأهمها طرق الصوفية .

ولعل قائل يقول : لقد اتبعت طرق الصوفية فلم أزد علما ، ويقول آخر : لقد أخذت فى طرق استحضار الأرواح فلم أحصل على طائل . أقول : أنتم تلميذان سقطا فى الامتحان ، وقد سمعت عن آلاف مؤلفة نالوا جوائز ، وأخذوا شهاداتهم بأيديهم : فنحن الى الأخذ بأقوالهم أميل ، وليس لكما الا أن تسلكا سبيل النظر والتعقل بطرق الحكماء ، فان قلتما أيضا . ليس لنا بها طاقة . أقول : لم يبق الا الايمان والأذكياء وأنتم منهم ، عليهم أن يبحثوا فليس لكما الا الاخاد والكفر اللذان انما أنبتهما الكسل واللذات فأثمرا أمانى وضلالات ويأسا من الحياة . ولعل قائل آخر يقول : مالنا ولهذا المباحث التى لا طائل تحتها ، ولا تجدى نفعا ، ولا تنفع جارا ، ولا تورى نارا . أقول له : ليس لنا ما نهتم به الا دوام حياتنا ، والناس ان لم يبحثوا فى هذا لم يفعلوا شيئا ، وكانت عاوتهم وممالكهم ودولهم ودياناتهم وفلسفتهم هباء منثورا فى الهواء : ألم تر الى قوله

تعالى « عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون » . والنبأ العظيم هو البعث ، وبعبارة أخرى : حياتنا بعد موتنا أعظم الأنباء ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

الفصل الثاني

الى هنا قد آتممنا القول في الفصل الأول ويواقيته ، وقد آن أن نشرع في الفصل الثاني وجواهره ، وهو شرح حال اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خمس جواهر .

(الجوهرة الأولى ، والثانية ، والثالثة . قوله تعالى :)

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا آلَهُمُ الْبَاطِلَ فَمَنْ يَمُنْ بِهِمَا فَاتِّخَذُوا اللَّهَ عَدُوًّا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * قَوْلِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتِيبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ * وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

التفسير اللفظي

قال تعالى (أفطمعون) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين (أن يؤمنوا لكم) لأجل دعوتكم ويستجيبيوا لكم (وقد كان فريق منهم) طائفة فيمن سلف منهم (يسمعون كلام الله) أى التوراة (ثم يحرفونه) كما حرفوا صفة الرسول صلى الله عليه وسلم (من بعد ما عاقلوه) عاوه وفهموه (وهم يعلمون) أنهم يعرفونه ، ثم ذكر منافق أهل الكتاب فقال (واذا لقوا الذين آمنوا) أى المخلصين من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام (قالوا آمننا) بأنكم على الحق وأن محمدا هو الرسول (واذا خلا بعضهم إلى بعض) أى الذين لم ينافقوا إلى الذين نافقوا منهم (قالوا) عاتبين عليهم (اتخذونهم) أتخبرون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (بما فتح الله عليكم) بما بين الله لكم فى التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم (ليحاجوكم به عند ربكم) ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم فى كتابه (أفلا تعقلون) أن هذه حجة عليكم (أولا يعلمون) أى هؤلاء المنافقون (أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) ومن ذلك اسرارهم الكفر واعلانهم الايمان (وهم أميون

لا يعلمون الكتاب) جهالة لا يعرفون الكتابة فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها (إلا أمانى) استثناء منقطع والأمانى جمع أمنية أى أكاذيب أخذوها تقليدا من المحرّفين (وان هم إلا يظنون) لا علم عندهم (فويل) شدة عذاب (للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) من تلقاء أنفسهم من غير أن يكون منزلا (ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) أى المال كل الرشا (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ، وقالوا) أى اليهود (إن تمسنا) لن تصيبنا (النار إلا أياما معدودة) سبعة آلاف سنة على مقدار أيام الدنيا في زعمهم ، وأربعين يوما عدد التى عبدوا فيها العجل (قل) يا محمد لليهود (أتخذتم عند الله عهدا) موثقا بذلك (أم تقولون على الله ما لا تعلمون ، بلى) اثبات لما بعد حرف النفي أى تمسكم النار (من كسب سيئة) أى أشرك (وأحاطت به خطيئته) أوبقه شركه (فأولئك) أهل هذه الصفة (أصحاب النار) أهل النار (هم فيها خالدون) دائمون لا يموتون (والذين آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (وعملوا الصالحات) الطاعات فيما بينهم وبين ربهم (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) دائمون لا يموتون . انتهى التفسير اللفظي

الايضاح

يقول : « أفطمعون » أى لا نطمعوا أيها المؤمنون أن يؤمن اليهود لكم ، وقد كانت طائفة منهم : وهم الأحرار يسمعون التوراة ، ثم يحرفون كلامه من بعد ما فهموه : وهم يعلمون أنهم مفترون ، وإذا لقي منافقو اليهود الذين آمنوا قالوا آمنا أن محمدا نبي ، كما ورد في التوراة وإذا رجع بعضهم إلى بعض . قال الرؤساء للذين نافقوا أتحدثون المؤمنين بما عرفتم في التوراة من نعت محمد ليقيموا عايكم الحجّة به عند ربكم يوم القيامة في ترك اتباعه مع علمكم بصدقه أفلا تعتلون أنهم يحاجونكم ، ثم قال : أيا قومونهم ولا يعلمون الخ ، ثم قال : ومن اليهود عوام لا يعلمون التوراة إلا أكاذيب ، وما هم في جحد نبوة النبي وغيرها من المسائل إلا يظنون ولا علم عندهم ، ثم قال : فويل ، أى شدة عذاب لليهود الذين غيروا صفة النبي ﷺ من كونه ربعة جمع الشعر لكل العينين الى كونه طويلا سبط الشعر أزرق العينين ، وقد كتبوه في التوراة بأيديهم وينسبونه لله ليشتروا به ثمنا قليلا من المال ، فويل لهم من ذلك الاختلاق ، وويل لهم من المكسب وقالوا لن تصيبنا النار إلا أياما قليلة أربعين يوما مدة عبادة آبائنا العجل ، قل لهم يا محمد على سبيل الاستفهام « أتخذتم عند الله عهدا » والهمزة هنا للاستفهام ، وهمزة الوصل محذوفة ، والعهد الميثاق أم تقولون : أى بل أتقولون على الله ما لا تعلمون وقوله « بلى » أى تمسكم النار وتكونون خالدين فيها من كسب شركا وأحاطت به خطيئته فاستولت عليه من كل جانب فمات مشركا الخ .

لاجرم أن لكل أمة ثلاث طوائف (١) كهراء سادة (٢) أميون (٣) ذووليسن ماكرون ، وبعبارة أصرح علماء ، وذوومكر ، وأميون ، هكذا اليهود فان طوائفهم الثلاث من الأحرار ، والأميين وذوى الدهاء قاموا قومة رجل واحد لا يذاء النبي ومعارضة دعوته كأنهم في حربهم السالمية بنيان مرصوص ، فأضل العلماء بالتحريف في معانى التوراة التى أيدت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكاد الماكرون ، وناق الخادعون ، وقلد الأميون الذين تلقوا الأكاذيب فوعوها وسمعوا من الأفواه أراجيف فرعوها ، أتباع كل ناعق ، وأشباع كل غالب ، ووقود كل حاطب .

ولما كان العلماء قدوة الحزبين شدد النكير عليهم ، وأنزل الصواعق من سحب الغضب بهم ورمهم بشر من عذابه ، فقال « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » الآية وكرّر الويل تكريرا وأعدّ لهم عذابا وسعيرا .

فكر أيها الأخ في هذه الآيات وتدبرها وكررها ، وتأمل كيف يفضل علماء الدين أمتهم لتسهيل الذنوب وتهوين القبايح والعيوب فيتخذون الشهوات ، ويرتطمون في اللذات إذ يقولون لن ندخل النار إلا أربعين يوماً إذ عبدنا الجبل فيها أوسبعة آلاف سنة مدة عمر الدنيا ، فيغتر بها الجهلاء ، ولعمري أين المناسبة بين عبادة كفر بها قداموهم ، وبين ذنوب اجتروحوها وسيئات مكروها ، ولقد كذبوا في الدعوتين كما كذبوا في تحديد مدة الدنيا ، وهي أضعاف أضعاف ما قالوا ، وقد آن أوان أن نفسر آيات الأخلاق التي عليها نظام الأمة الاسرائيلية .

(الجوهرة الرابعة)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ - وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا
تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ
أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ
يَأْتُوكمُ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ
وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل) الميثاق العهد المؤكد (لا تعبدون إلا الله) اخبار في معنى النهي (و) أحسنوا (بالوالدين احسانا) برآ بهما ورحمة لهما (وذى القربى) القرابة (واليتامى) جمع يتيم وهو الذى فقد أباه قبل البلوغ (والمساكين) الذين أسكنتهم الحاجة (وقولوا للناس حسنا) قولاً هو حسن في نفسه لا فراط حسنه (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم) عن الميثاق ورفضتموه (إلا قليلاً منكم) وهم الذين أسلموا منهم (وأنتم معرضون) عادتكم الاعراض والتولية عن المواثيق (وإذ أخذنا ميثاقكم) في الكتاب (لا تسفكون دماءكم) لا يقتل بعضكم بعضاً (ولا تخرجون أنفسكم) أى بعضكم بعضاً (من دياركم) من منازلكم (ثم أقررتم) بهذا العهد أنه حق (وأنتم) يامعشر اليهود (تشهدون) على ذلك (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم) يقتل بعضكم بعضاً (وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم) أى يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم (تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان) أى تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم (وان يأتوكم أسارى تفادوهم) بالمال وهو استنقاذهم بالشراء (وهو محرم عليهم اخراجهم) الضمير مبهم يفسره ما بعده (أفتؤمنون ببعض الكتاب) بفداء الأسرى (وتكفرون ببعض) بالقتال والاجلاء (فما جزاء من يفعل ذلك) أى الإيمان ببعض والكفر

بعض (منكم إلا خرى) فضيحة (في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب) أى عذاب النار (وما الله بغافل عما تعملون) تأكيد للوعيد (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) آثروا الحياة الدنيا على الآخرة (فلا يخفف عنهم العذاب) فلا يهون عليهم (ولا هم ينصرون) يدفعه عنهم . انتهى التفسير اللفظي

الايضاح

لكل أمة ثلاث أحوال : أيام سعادة وهناء . وأيام اضطراب وعناء ، وأيام زوال وفناء .
هذا قانون عام وناموس لا يتبدل وهو سنة الله « ولن تجد لسنة الله تحويلا » وقد أوضحنا هذه الآية وأبانتها وكشفت عنها القناع .

الحالة الأولى : أيام السعادة والهناء وذلك ثمانية أصول : عبادة الله ، وإكرام الوالدين ، وصلة الرحم وإكرام اليتيم ، وبر المسكين ، وحسن العشرة بالقول الجليل مع سائر الناس وإقامة الصلاة وهي داعية للائتلاف وكذلك الزكاة ، وهما عماد الائتلاف والمحبة فضلا عن القرب من الله .

الحالة الثانية : أيام الاضطراب ثم أنتم هؤلاء تقتلون ويأسر فريق منكم فريقا ثم تفدون الأسرى فاضطربت أحوالكم وتناقضت آراؤكم ، أفأسرون وهو حرام وتفدون وهو مرغوب وهما لامناس من خراب الديار وحلول الدمار : وهي الحالة الثالثة .

الحالة الثالثة : (فما جزاء من يفعل ذلك منكم) إلا تشنيت جمعهم وتخريب دورهم ونهب أموالهم وضياع بلادهم ذلك لاضلال العلماء وظلم الكبراء .

لطيفة

لما كنت تلميذا بمدرسة دار العلوم في السنة الرابعة أمرني أستاذي المرحوم الشيخ حسن الطويل أن أكتب في تفسير هذه الآيات مقالا فامتثلت أمره وكتبت نحو ما يأتي فلما عرضته عليه أقره ونشرته بعد ذلك في جريدة اللواء ثم في المؤيد وصارت في ضمن المقالات التي في كتاب النظام والاسلام فأحببت نشرها هنا لأنها بهذا المقام أليق فأقول :

كيف تجتمع الأمة وكيف تتبدد

من تأمل في آيات القرآن وما في القصص وغضونها من الأسباب والنتائج وكيف تجتمع الأمة وكيف يتبدد شملها رآها صرحت أولوحت بكل ما يشاهد في الغلبة والمغالبة الآن ، ولندكر منها آية ذكر فيها أخذ العهد على بني اسرائيل وأمرهم بأثنى عشر أمرا فلم يعملوا بها الا قليلا ولنقدم قبل ذكرها مقدمة فنقول :
لكل أمة ثلاث درجات ، الأولى أن تقوى بينها الوحدة وتلتزم بعواطف المودة والمحبة بصلة الأرحام والوالدين والأقربين والعطف على ضعفاء الأمة من الفقراء والمساكين وحسن المعاشرة مع جميع الناس حتى يكون ذلك ملكة راسخة في النفوس فيحب حكامها العدل محبة طبيعية وملكة راسخة ، الدرجة الثانية أن تقطع الأرحام من الوالدين والأقربين وتذهب العواطف القوية كما في آية « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ويدب في الأمة داء الفساد في القلوب ولكن تبقى فيها بقية من العقل العملي فتحافظ على كيائها العمومي ونظامها الدستوري فلا يقتلون ولا يتخذون الأعداء أولياء ولا يفعلون ما يخل بالنظام العمومي . الدرجة الثالثة أن تذهب منهم عاطفة القلوب ورابطة الأجسام معا فيسفك بعضهم دماء بعض ويوالون الأعداء ويخربون

بيوت اخوانهم بأيديهم ، وهذه الحالة تورث الخزي في الدنيا بتفريق الجامعة ووقوعها في سلطان من يسومهم الخسف « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » ولنتل عليك الآية الآن وهي (واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فهذه الصفات الثمانية اشارة الى الدرجة الأولى في الأمة ورفعة مكانتها بالتوحيد والاعتقاد والمحبة بين الأفراد وتوجه القلوب إلى ربهم بالعبادات والعطف على أبناء قومهم والشفقة والرحمة بهم ، ثم أعقبه بقوله (ثم توليتهم لإقليلا منكم وأنتم معرضون واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أى لا يسفك بعضكم دماء بعض ولا يخرج فريق الآخر (ثم أقررتم وأنتم تشهدون) وهذه إشارة إلى الدرجة الثانية ثم أعقبها بذكر الحالة الثالثة وهي تفريق الجامعة بعد ذهاب العواطف القومية ودثور النظمات الدستورية والأحكام العادلة فقال (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرّم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) ألا وإن اختلال الأعمال الناشئ من تفرق القلوب موجب لوقوع الأمة في سيطرة غيرها وهو بلا ريب موجب للخزي في الدنيا والنكال في الآخرة مع أنه من تمام نظام الحياة الدنيا إذ لا يجوز أن تبقى الحكومة أمدا طويلا على الظلم والتخبط في الأحكام ، إذ للناس رب أراد بقاءهم إلى أجل مسمى ، فن لم يقوموا بما عهد إليهم من الملك وتركوا الناس يبغي بعضهم على بعض قبيض الله لهم من يزيل الظالمين ويعدل بين الناس مهما كان دينهم « ان ربي على صراط مستقيم » فثقل الأمة الجاهلة بتدبير شؤونها كمثّل السواب التي لا علم لها بنظام نفوسها ، فسخر الله لها الانسان العاقل فقام بأمرها ، ولما كانت تلك سنة الله في خلقه ومقتضى نظامه وطبيعته عمرانها أردف ما تقدم بقوله (فاجزاء من يفعل ذلك منكم الاخرى في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) ومحصل ذلك أنهم عملوا ببعض الكتاب وهو فك الأسرى من اخوانهم وتركوا البعض الآخر : وهو النهى عن القتل والمظاهرة والاخراج من الديار ، وهذه كانت حال طائفتين من اليهود ، وهم بنو قريظة والنضير وكانوا حلفاء الأنصار في المدينة وهم الأوس والخزرج فكانت قريظة حليفة الأوس ، والنضير حلفاء الخزرج ، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه فيقتلون معهم اخوانهم ويخرجونهم من ديارهم ويعينونهم عليهم ظمأ وعدوانا ثم يفدون الأسرى بعد ذلك فتناقضت أفعالهم فقد آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض فكان جزاؤهم ما قصه الله تعالى ، وليس ذلك خاصا بأمة اليهود ، بل هو مقتضى نظام الكون وليس أمرا من الخوارق .

صفة حكام الأمم الظالمة وعلمائها

وصف الله حكامها وعلماءها بأخذ الرشوة والاتكال على الله في غفران الذنوب اتكال جهالنا اليوم على الله بأن يحسن حالهم ويأتي لهم برزقهم رغدا من كل مكان ، وتقوم جامعتهم ، وهم نائمون حيث قال « خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه » الآية وصفهم بالاتكال على المغفرة بالتوبة ومخالفة عهد الكتاب .

وصف حربهم

قال الله تعالى « لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا

وقلوبهم شتى « وصفهم بتفرق القلوب فلا يبرزون لعدو يقاقلونه حتى يدغمهم في أمانتهم ، وهم لبعضهم مبغضون وذكروا سببه ، فقال « ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » والمراد به العقل العملي لا النظري المراد عند ذكر خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار .

الصفة العامة بعد الانحلال

قال الله تعالى « وإذ تأذن ربك ليعيثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » ومن العجيب أن أمة اليهود المرادة بهذه الآية لم يبق لها شوكة ، ولا ملك في الأرض بعد ذكر هذه الآية في القرآن ، وهذا الأمر ظاهر لمن عرف الأحوال الحاضرة والغابرة ، فهذه نبذة يسيرة ذكرناها تبصرة للقرءاء وذكرى لقوم ينظرون في شريعتهم ، ولتعلموا أيها المسلمون أن هذه القصص لم تذكر في القرآن لنا إلا تذكرة واعتبارا لا مجرد حكاية كما يظنه الأغبياء ، وهذا اجمال تفصله العقول وتوضحه النقول « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

وازن ماسمعت في الآيات بما ترى من أحوال المسلمين اليوم إذ غابت على العقول ترهات وخرافات تلقفها الناس ، وكيف يسندون ظاههم للقضاء ويتكلمون على الغفران ، وهل ذلك الا كمثل اليهود أذاع ساداتهم فيما بينهم أن مدة العذاب أربعون فظلموا للشرور يسارعون ، هكذا عبد المساحون اليوم الأوهام ففسدوا أنفسهم خفاق بهم العذاب الهون ، وقرءوا القرآن وهم لا يعقلون ، ووقفوا من العلم على قشوره وعدوا الحكمة ونبدوا علم الكائنات في الأرض والسموات فسبقهم الغريبيون ، وهم متقاطعون فخل عذاب الخزي بهم في الحياة وما أشد عذاب الممات ، ولما أبان هلاك بني إسرائيل ، وقد حاق بهم الخزي في الحياة الدنيا أخذ يبين أسباب حلول العذاب بهم تفصيلا ويحذر المسلمين من اتباع خطواتهم ، فقال :

(الجوهرة الخامسة ، وفيها عشر زبرجدات)

« الزبرجدة الأولى »

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِّقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْخِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَآمَنَّا بِهِمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * ثُمَّ اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (وقفينا) أتبعنا (من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات) المعجزات الواضحة (وأيدناه بروح القدس) أى الروح المقدسة ، قيل جبريل أو الانجيل (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى) بما لا تحب (أنفسكم استكبرتم) تعظمتم عن قبوله (ففرقنا كذبكم) كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام (وفرقنا تقتلون) كزكريا ويحيى (وقالوا قلوبنا غاف) جمع أغلف ، مغطاة بأغطية (بل لعنهم الله بكفرهم) خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم لقبول الحق (فقليل ما يؤمنون) أى إيماننا قليلا يؤمنون ، وما زائدة للمبالغة ، ويجوز أن تكون الفلة بمعنى العدم (رما جاءهم) أى اليهود (كتاب من عند الله) القرآن (مصدق لما معهم) من كتابهم (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) يستنصرون على المشركين إذا قاتلوهم ، وكانوا يقولون : « اللهم انصرنا بالنبي الذي يبعث في آخر الزمان ، ونجد نعته في التوراة » (فما جاءهم ما عرفوا) من الحق (كفروا به) حسدا وخوفا على الرئاسة (فلعنة الله على الكافرين) أى عليهم (بئسما اشتروا به أنفسهم) أى بئس شيئا باعوا به أنفسهم ، فافظما يميز لفاعل بئس المستتر ، وجهلة اشتروا صفة له ، وقوله (أن يكفروا بما أنزل الله) هو المخصوص بالذم (بغيا) طلبا لما ليس لهم وحسدا (أن ينزل الله) أى لأن ينزل أى حسدا على ذلك (من فضله) وهو الوحي (على من يشاء من عباده) على من اختاره للرسالة (فبأوا بغضب) لكفرهم بمحمد (على غضب) لكفرهم بعيسى (وللكافرين عذاب مؤين) يهانون به (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله) أى بالقرآن (قالوا نؤمن بما أنزل علينا) وهو التوراة (ويكفرون بما وراءه) أى بما سواه من الكتب (وهو الحق) أى القرآن (مصدقاً) موافقاً بالنوحيد (لما معهم) من الكتاب (قل) لهم يا محمد (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل أن كنتم مؤمنين) أى إذا كنتم آمنتم بالتوراة فكيف قتلتم الأنبياء من قبل ؟ وهل هذا مقتضى الإيمان بها . انتهى التفسير اللفظي .

إيضاح

أخذ الله عز وجل في تعذيبهم وتخويفهم ، والتنديد عليهم ، والتشنيع بأفعالهم ، إذ قاتلوا المصلحين من النبيين ، فإن كانت نصيحة نبذوها ، أفضيلة تركوها ، فكلم من نبي كذبوه كعيسى ، وكلم من نبي قتلوه كزكريا ويحيى عليهما السلام ، وهاهم أولاء أخذوا يكذبونه صلى الله عليه وسلم ، ولعمرك لن تسعد أمة إلا أن تأخذ بيد مصلحيها ، وتعظم مرشديها ، فياحسرة عليهم إذا أهملتهم وشؤونهم ، والويل كل الويل لها إن ناصبتهم العداوة ، وراشت سهام الحرب لنزالهم ، وضيق سبل العمل عليهم ، فما بالك إذا جرعتهم كأس المنون كما فعل اليهود إلا أن الميزان الصالح ومعيار الأمة أن تنظر في تقديرها للمرشدين ، فإن رأيتهم لهم مكرهين ، وعلى اتباع ارشادهم مكبين ، فاعلم أنها سائرة للعلاء ، متقدمة إلى الأمام ، ساعية إلى الفلاح ، وإن كان الآخر والعياذ بالله فهناك الدمار ، ولكنى أرى في أمة الاسلام اليوم نزعة شريفة ، ونفوسا عالية ، وعقولا راقية ، وفي ظنى أنهم سيستردون مجدهم ، ويرفعون ذكركم ، وما شهدت إلا بما عامت ، لما أرى من اقبالهم على الحكمة واجلالهم للمصلحين ، وأخذهم بالتي هي أحسن ، ألا واني أخفر بأمتي ، وأفرح بشعبى ، وأعلن على رهوس الأشهاد أن السعادة قادمة عليهم ، والفلاح ناشر رايته اليهم ، فلقد بدأ الإصلاح ، وسينتهي إلى غايته ، ويصل إلى كماله ونهايته ، رغما عما بدا من سحابة الغرور والشرور ، وستنقشع السحابة ، وترجع الأمة إلى العناية والسعادة اهـ

« الزرجدة الثانية »

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنْشَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (ولقد جاءكم موسى بالبينات) الآيات الواضحات : منها قلب العصا حية (ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون) أي عبدتموه بعد ذهاب موسى إلى الطور ، فأبأؤكم كانوا يكفرون بموسى وأنتم تكفرون بمحمد صلى الله عليه وسلم (وإذ أخذنا ميثاقكم) إقراركم (ورفعنا فوقكم الطور) هددهم بأن يقع عليهم الطور إذ رفعه فوق رؤوسهم إن لم يقبلوا التوراة ، وقلنا (خذوا ما آتيناكم بقوة) أي خذوا ما أمرتم به في التوراة بجد وعزيمة (واسمعوا) سماع طاعة (قلوا سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك (وأشربوا في قلوبهم العجل) أي تداخلهم حبه والحرص على عبادته كإتدخال الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن (بكفرهم) بسبب كفرهم (قل بئسما يأمركم به إيمانكم) بالنوراة ، وهل في التوراة عبادة العجل ؟ (ان كنتم مؤمنين) تشكيك في إيمانهم وقبح في صحة دعواهم : انتهى التفسير اللفظي .

هذه الرذيلة سبق ذكرها وأعيد تقييها وتوبيخها ، ليرشد أمة الاسلام ألا تفكر بعقول غيرها ، ولا تنظر بعيون أعدائها ككفر اليهود في العجل بعقول قدماء المصريين إلا أنهم ضلوا إذ أمرهم علماءهم بتقديس العجل لبقاء نسلها تنمية للزرع ، وانتفاعا بالحراث ، فنبأوا في دينهم ، وطغوا في غلوهم ، وعبدوا ما كانوا يحترمون ، فقلدهم بنو إسرائيل فيما جهلوا وان كانوا لهم أعداء ، هكذا حال المصريين اليوم على الضد من القدماء ، إذ جهلوا أمر الحيوان النافع للزراعة ، فساءت الحال ، وجاء الوبال ، وعمّ الدمار ، ففقدوا الطير المسمى بأبقردان آكل الدود والحشرات ، مبيد الأذى ، مغيث الزرع من الفاتكات ، فجهل المصريون اليوم بالتفريط والاهمال كما أهمل أسلافهم بالتغالي والاسترسال ، فعذب الفريقان ، وأهين الأولون والآخرون ، فأولئك بالوهم الذي أضناهم في واقعة قبيز ، وهؤلاء بعموم الدودة في هذه الأيام . اللهم إني أضرع اليك أن ترجع العلم لبلادي ، وتردهم إلى الهدى ، وتبعد عنهم عاديات الدمار أنك أنت الحليم الرحيم ، ولا تجعلهم كاليهود ، وعلمهم يارب أن الحيوان مكرم مصون ، وأن الطير في الجوى يعوزه الشجر فليغرسوه ، وليحفظوا الطير ولا يقتلوه .

واعلم أني كنت كتبت هذا التفسير كما قدمت في أول الكتاب وأنا مدرس بدار العلوم في نحو سنة ١٩١١ م ومن عجيب صنع الله عز وجل أني في تلك السنوات كتبت في مجلة [الملاحى العباسية] التي كانت تنشر هذا التفسير مقالا مطولا في اجمال تفسير سورة يوسف ، قلت فيها ان الفراعنة كانوا أغزر علما من حكام مصر ، ومن علماء أوروبا الذين يحكم رجالهم بلادنا ، فشرحت من رؤيا الملك سبع بقرات سبع سنبلات اهتمامه بالزراعة ، وعطفت على مسألة الطيور ، ونهت الحكومة والأمة ، فصدر الأمر عقبها سنة ١٩١٢ م بمنع صيد الطيور النافعة ، ومن أهمها [أبقردان] المذكور ، وهأنذا أكتب تمام التفسير الآن سنة ١٩٢٢ م للطبع ، وقد رأيت بعيني رأسي أن الحكومة قد ربت [أبقردان] وانتشر في البلاد المصرية انتشارا كما كان سابقا ، فأحمد الله عز وجل على هذه النعمة وعلى حفظ الطيور ببركة الآيات القرآنية وآثارها في النفوس ، وحرام على من

عنده نصيحة أن يسكها جنبنا عن الجهور فانها لا بد نافعة عاجلا أو آجلا ، وإن شاء الله إذا طال الأجل ووصلت إلى سورة يوسف أثبت تلك المقالات هناك اهـ

أقول : هاهوذا التفسير الآن يطبع ويعاد طبعه سنة ١٩٣٣ وأذكر الآن نعمة الله عز وجل فأقول اللهم إني أحمدك جدا كثيرا فانك أنعمت عليّ بأن حييت حتى فسرت سورة يوسف وما بعدها ، وشرحت مسألة الطيور المذكورة ، ورسمت صورها هناك بوضوح وشرح وتفصيل ، وهذه علامة أن لهذا التفسير عناية إلهية ، والمجد لله رب العالمين .

« الزبرجدة الثالثة »

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَإِنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ *

التفسير اللفظي

يقول الله تعالى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة) خاصة بكم كما قلتم « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » (من دون الناس) سائرهم أو المسلمين (فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاقها وأحب التخلص إليها (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم) من موجبات النار كالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وتحريف التوراة (والله عليم بالظالمين) تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون في دعوى ما ليس لهم (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) أي والله لتجدن يا محمد اليهود أحرص الناس على بقائهم في الدنيا (و) أحرص (من الذين أشركوا) وهؤلاء لا يؤمنون باليوم الآخر فكيف كان اليهود أحرص منهم على حياة غير باقية ، ثم استأنف ليصف حال المشركين الذين زاد عليهم اليهود في حرصهم على الحياة الدنيا فقال (يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة) أي يودّ أحد المشركين تعمير ألف سنة لافرق في ذلك بين مشركي العرب وبين المجوس ، وقد اعتاد هؤلاء أن يقولوا في تحياتهم : عش ألف نيروز ، أو ألف مهرجان (وما هو بمزحزح من العذاب أن يعمر) أي وما أحدهم بالذي يزحزحه من النار تعميره (والله بصير بما يعملون) لا يخفى عليه خافية من أحوالهم . انتهى التفسير اللفظي

يقول تعالى : من أيقن بالسعادة في ميغاده فما أحراه أن يلوى له العنان ، ويجد في السعي لحصول المراد ، وينبذ الدنيا ، ويحرص على الأخرى ، وأنتم أيها اليهود أحرص الناس على الحياة ، بل أنتم أحرص من المشركين وهم العرب والمجوس ، وكيف يطلب الآخرة من يتمنى عمرا طويلا ، ألا وإن الحياة الآخرة أسها الحب وعمادها الشوق ، وسقفاها الرحمة ، وأي محبوب بعد مفارقة المادة إلا الله والملائكة والصديقون ، وأنتم تكرهون النفوس المجردة وهي :

« الزبرجدة الرابعة »

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى الْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى : (قل من كان عدوا لجبريل فانه) أى جبريل (نزله) أى القرآن (على قلبك) (على قلبك) يا محمد (بإذن الله) بأمره (مصدقا لما بين يديه وهدى) من الضلالة (وبشرا للمؤمنين) بالجنة ، وإذا كانت هذه حال جبريل ، إذن ليس هو الذى ينزل بالحرب والشدة كما تقول اليهود ، فمن يعاديه يكون عدوا لله ، ولذلك أعقبه بقوله تعالى (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) أى وجبريل وميكال (فإن الله عدو للكافرين) أى لهم . انتهى التفسير اللفظي

الايضاح وبيان السبب

دخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه مدارس اليهود يوما فسألهم عن جبريل ؟ فقالوا ذاك عدونا ، يطلع محمدا على أسرارنا ، وانه صاحب كل خسف وعذاب ، وميكائيل صاحب الخصب والسلام ، فقال : ومما منزلتهما من الله ؟ قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، وبينهما عداوة ، فقال : لأن كانا كما تقولون فليسا بعدوين ، ولأنتم أكفر من الجبر ، ومن كان عدوا أحدهما فهو عدو الآخر والله ، ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي ، فقال عليه الصلاة والسلام : لقد وافقت ربك يا عمر ، هذا ولا جرم أن بين الملائكة والأنبياء صلة وودادا ، فلم يكن الكفر قاصرا على الملائكة الأعلى ، وإذا كفروا وتعدوا الطور في أولئك الذين اصطفاهم رسلا بينه وبين أنبيائه فما أحراهم بالكفر بمن هم بشر مثلهم ، وذلك في الزبرجدة ٥ و ٦ و ٧ :

« الزبرجدة : الخامسة ، والسادسة ، والسابعة »

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ أَلَّا يَتَكْفُرُوا بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ * أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ

بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (ولقد أنزلنا إليك) يا محمد (آيات بينات) واضحات (وما يكفر بها) يجحدها (إلا الفاسقون) المتمردون من الكفرة (أ) كفروا بالآيات (وكلما عاهدوا عهدا نبذه) نقضه ورفضه (فريق منهم) لأن منهم من لم ينقض ، ولليهود عهود كثيرة مأخوذة عليهم في كتابهم ، ومنها الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد كانوا يقولون : قد أظل زمان نبي مبعوث وأنه في كتابنا (بل أكثرهم لا يؤمنون) أى كفر فريق منهم بنقض العهد ، وفريق منهم بالجحد للحق (ولما جاءهم رسول من عند الله) وهو محمد صلى الله عليه وسلم (مصدق لما معهم) مصدق بصحة التوراة (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب) اليهود (كتاب الله) التوراة وهى مبشرة بمحمد صلى الله عليه وسلم (وراء ظهورهم) خلف ظهورهم لم يؤمنوا بما فيه من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ولم يبينوا (كانهم) جهلاء (لا يعلمون) أنه كتاب الله ، واكتفوا من الإيمان بالتوراة بأنهم يقرءونها ولا يعلمون بما فيها ، ويحاونها بالذهب ، كما يكتفى كثير من جهلة المسلمين فى زماننا بالتعظيم الظاهر للقرآن ، والتسلاوة بغير تدبر ، وقوله تعالى : « واتبعوا ماتلوا الشياطين » أى نبذ اليهود كتاب الله واتبعوا كتب السحر والشعوذة التى كانت تقرؤها (على ملك سليمان) على عهد ملكه وفى زمانه ، وذلك أن السكينة كانوا يدونون ما يقذف فى قلوبهم من الأمانى التى تلقىها إليهم الشياطين ، وفشا ذلك فى زمن سليمان عليه السلام ، وقالوا : ان الجن تعلم الغيب ، بل قالوا فوق ذلك : ان سليمان ماتم ملكه إلا بعلم السحر ، وبه سخر الجن والانس والريح ، وهذه المقالة اليوم لاتزال شائعة فى بلاد الاسلام ، وقد نقلت كتب الأمم من الصابئين واليهود وغيرهم ، ومنجبت بالآيات القرآنية ، وملاّت أصقاع بلاد الاسلام كما فعله البونى وغيره من الأوفاق وغيرها فتقهقرت الأمة وهذا أوان نهوضها (وما كفر سليمان) تكذيب لمن زعم ذلك (ولكن الشياطين كفروا) باستعماله حال كونهم (يعلمون الناس السحر) قاصدين اغواءهم واضلاهم (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) عطف على ما كفر سليمان أى لم يكفر سليمان باعتقاد السحر والعمل به ولم ينزل على الملكين المذكورين اللذين حكاهما اليهود ، والملكان رجلا صالحان كانا يعلمان الناس السحر كما تدرس الأمم اليوم فى المدارس أنواع السم فى مدارس الطب ، والتتويم المغناطيسى ، وأنواع الغازات المهلكات اتقاء لشرها ، وحفظا لسيان الأفراد والأمم (وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه) يقولان نحن ابتلاء من الله ومحنة (فلا تكفر) أى لاتعلم السحر لأجل أن تعمل به ، كما تفعل الآن عامة الدول والعلماء إذ يمنعون من يتعلمون عقاقير السم وغيرها من إيذاء النوع الانسانى كما سيأتى قريبا إيضاحه . يقول الله : إن السحر لم ينزل على هذين الرجلين الصالحين ، فهما كانا يعلمان الناس السحر ويحذرانهم من استعماله اتقاء لشره ، ولكن هؤلاء المتعلمون كانوا لا يعملون بالنصائح (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) فان من السحر ما يكون سبب تفرقهما ، وهو ما سيأتى شرحه قريبا (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) وفى زماننا يحصل ذلك بالتتويم المغناطيسى كما ستراه فى الشرح (ويتعلمون

ما يضرهم) بالعمل به (ولا ينفعهم) من حيث الاقتصار به على دفع الأذى عن الناس كما يفعل الطبيب الصالح من إبعاد العقاقير السمية عن الناس بسبب علمه بها (ولقد عاموا) أى اليهود (لمن اشتراه) استبدل ماتتوا الشياطين بكتاب الله كما يفعل من يقرأ علم الأوفاق والطلاسم فى كتاب [شمس المعارف الكبرى] للبونى وغيره (ماله فى الآخرة من خلاق) نصيب (ولو أنهم آمنوا) بالرسول والكتاب (واتقوا) بترك المعاصى (لمثوبة من عند الله خير) جواب لو أى لأثبوا مشوبة من عند الله خيرا مما شروا به أنفسهم ، فحذف الفعل وركب الباقي جملة (لو كانوا يعمون) يصدقون بثواب الله ولكن لا يعمون ولا يصدقون . انتهى التفسير اللفظي

إيضاح

من اقتصر على التفسير اللفظي فيها ، ومن أراد المزيد فليقرأ هذا الإيضاح فإنه أوسع مجالا ، وهو : يقول تعالى كما كفروا بالملائكة كفروا بالأنبياء ، فلم يؤمنوا بمحمد ولا بهيسى ، وان عامدوا تقضوا ، وان وعدوا غدروا وحولوا العقول عن فطرتها ، وأخذوا فى الخرافات ورجعوا للترهات ، ونبذوا علم الحقائق وفهم الدقائق وصدقوا ما أذاعته الشياطين عن ملك سليمان ، وأنه ما عظم إلا بالسحر ولا علم إلا بالعزائم والأباطيل ، وانما كفرت الشياطين كهاروت وماروت بجعلهما بدلا من الشياطين على رأى ، فهما اللذان علما الناس السحر ، وما أنزلناه على الملكين ان الملائكة منزهون عن الذنوب مبرءون من العيوب على أن هذين نصحا الأمة ، فقالا للتعالمين إيمانحن فتنة فلا تكفروا ، وحاشا أن يكون سليمان مضلا للناس وهونى كريم ، فاتبع اليهود ماتت الشياطين من الانس والجن على عهد ملك سليمان من الافك والسحر ، وأضالوا ونسبوا له وهو مبرأ من العيوب والاضلال والذنوب ، وانما الشياطين هاروت وماروت وغيرهما هم الكافرون ، لأنهم يعمون الناس السحر ، وليس من الملائكة مضاون ، فسليمان والملائكة مبرءون ، وهاروت وماروت مضلان إذ يضلان الناس ابتلاء وامتحانا من الله ، فأخذ اليهود يشيعون الأحاديث الملفقة ونبذوا الوحى والدين كما يفعل المسلمون اليوم ، فانهم لا يزالون يقرءون المعام السحرية ويخضعون للدجالين الغاوين الكذابين الذين يدعون أنهم يفتحون الكنوز ويستخرجون الذهب من العناصر ، وقد خلط السحرة القرآن بالعزائم فضل المتعلمون سواء السبيل فى هذه الأمة كما ضل اليهود من قبلهم كذلك تراهم يقولون خاتم سليمان عليه السلام وينسبون له ولد انيال وأرمياء وعلى بن أبى طالب ما ليس لهم به علم فاستخذت الأمة للأباطيل واستوثق النصر للعدو المبين عليها جزاء بما كانوا يجهلون ، فأما ما حكى اليهود من أن الملائكة حقروا بنى آدم وأمرهم الله أن يختاروا اثنين ليكونا كبنى آدم فى الصورة . فكان هاروت وماروت ونزلا من السماء وقضيا بين الناس وأضلتهم امرأة وعرفت منهما الاسم الأعظم ، وصارت نجمة الزهرة وعذبا فى مدينة بابل إلى يوم القيامة ، وهما يعلمان الناس السحر ، فهذا خرافة وكيف تحمل الآية عايتها ؟ ومقصود القرآن الكريم أن الأمم حين تتدهور فى الهاوية ترجع عقولها القهقرى وتأخذ فى الدين إلى الوراء وتتبع ما تملى عليهم الشياطين من الانس والجن ، فيكون الأستاذ هو الوسواس ، والدجال هو الفقيه ويذرون العلم والعلماء والدين والأنبياء ، ألم تر الى حكم سليمان فلننقل لك منها لتعلم قول الله تعالى (ولقد عاموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) الخ .

قال فى التوراة فى سفر الأمثال فى الاصحاح الثالث : طوبى للإنسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم لأن تجارتها خير من تجارة الفضة وربحها خير من الذهب الخالص هى أثمن من اللائى وكل جواهر ك لا تساويها ، ثم قال هى شجرة حياة لمسكها والتمسك بها مغبوط .

الرب بالحكمة أسس الأرض وأثبت السموات بالفهم بعلمه أنشئت اللجج وتقطر السحاب ندى .

ومنها لا تمنع الخير عن أهله حين يكون في طاقة يدك أن تفعله ، ومنها اذهب إلى الخلة أيها الكسلان تأمل طرقها وكن حكيما ، ومنها إلى متى تنام أيها الكسلان .

الرجل اللئيم الرجل الأثيم : يسعى باعوجاج النعم يغمز بعينه يقول برجليه يشير بأصابعه في قلبه أ كاذب يخترع الشر في كل حين يزرع خصومات لأجل ذلك بغتة تفاجئه بآيته يكسر ولا شفاء .

وقال لمدحك الغريب لا فكك الأجنبي لا شفتاك ، وقال لا تفتخر بالغد لأنك لا تعلم ماذا يلبده يوم ، وقال أيضا في الجامعة باطل الأباطيل السكل باطل ما الفائدة للإنسان من كل تعب الذي يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضي ودور يحى ، والأرض قائمة إلى الأبد ، والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق الخ ، وهذه كلها حكم دائرة على الزهد في الدنيا واحتقارها واليأس منها . ومن هذه أخذ عمر الخيام رباعياته المشهورة في أمريكا وأوروبا ، وترجت حديثا إلى اللغة العربية ، وهكذا أيضا أشعار أبي العلاء كلها تزهيد في الدنيا كما في الجامعة المذكورة لسيدنا سليمان عليه السلام ، فإن شئت فاقراها في نفس التوراة نحو ١٢ صفحة اه .

فوازن رعاك الله هذه الحكم البديعة والأمثال العجيبة التي أبرزها النبي سليمان عليه السلام ، وهي تتلى في التوراة إلى يومنا هذا بما نسبته له اليهود من السحر ، وهو صفة العاجزين ، فهذه بعض أمثاله ، وهي طرق حكمه ، ومنها نعرف قوله تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون . ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) فاقرا وتجب وقايس حال المسلمين اليوم بحال اليهود زمن النبوة ، وكيف أصبح المسلمون كثيرون قليلي الحكمة يأمر القرآن بحوز وفهم الحكمة والنظر في العوالم ونظام المدن واعلاء شأن الزراعة والتجارة والصناعة كما تشير إليه سورة سبأ ، وترى كثيرا من الذين يقرءون الدين يجهلون نظام العالم وحكمة الله ، كأنهم لا يعلمون وسطا الدجالون من المغاربة والساحرين على عقول المترفين ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، وهل أذاك حديث المغربي الذي ذهب إلى بلدة العصاوجي قرب بلدة الزقازيق ، وقال لرجل هناك إني أجعل القطعة من الذهب أضعافها ، فجمع الرجل حلى النساء وأسامه له ، فأعطاه عمودا مطليا بالذهب ، فلما حكه وجدته نحاسا فسقط في يده وضاعت ثروته ، وهي تساوي ألف جنيه أو تزيد ، وآخرون يدعون احضار الجان ويضحكون على الأذقان ويغترون النسوان بحيل دبروها ، ومكايد نصبوها ، وأشراك وضعوها ، ذلك والله عرفناه في كتبهم قرأناه : اللهم أزل الجهل عن هذه الأمة ، واكشف الغطاء عن أبصارها ، وأنر بالعلم بصائرنا إنك أنت الرحيم الغفور .

اعلم أني بعد ما كتبت ما تقدم في تفسير الآية ظهر لي وجه وهو مختار عند أفاضل المفسرين فيقال : واتبع اليهود ما نلت الشياطين من الانس افتراء على ملك سليمان وعلى ما أنزل من السحر على الملكين بابل هاروت وماروت .

أما سليمان فأنهم نسبوا إليه أمورا سحرية هو منها براء ، وقالوا ما كان ملكه إلا بسببها ترويجا لدعواهم فبرأه الله مما قالوا ، فقال (وما كفر سليمان) بعمل السحر ، وإنما هم المفترون عليه بعمل السحر ، وهم الكافرون ، وذلك قوله « ولكن الشايطين كفروا يعلمون الناس السحر » ، وأما افتراءهم على ما أنزل على الملكين بابل ، وهما هاروت وماروت ، فذلك أنهما نزلا في صورة رجلين ليعلم الناس السحر تفريقا بينه وبين المهجزة كما يتعلم رجال الجيش اليوم المواد الخائفة والمعمية وغيرها ويؤمرون بكتمتها دفاعا عن حريتهم وعظمة دولهم ولا يطلع عليها عامة الشعب ، وهكذا المواد السمية يتعاملها الأطباء ، ولكن يحرم عليهم استعمالها أو إعطاؤها لأحد من الناس إلا في أحوال خاصة . قال الشاعر :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر * من الناس يقع فيه

فاذا أخذنا يعلمان السحر الذي أنزل عليهما حتى إذا جاء ساحر وادّعى النبوة عارضوه وصدقوه ،
ولذلك كان هذان الملاك يقولان للتعلمين إنما نحن فتنة واختبار لكم لننظر أفي الخير أم في الشر تستعملون
السحر ، وذلك مثل جميع النعم الواردة على البشر ، فانها صالحة للخير وللشر ، كالقوة والجمال والمال والولد
والعلم والمالك والحكم بين الناس ، كل هؤلاء مبتلون ومختبرون آخيراً يصنعون أم الشر ؟ ولكن السحر
المذكور أشد فتنة ، فأما اليهود فانهم أخذوا بشر الأصرين (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه)
وذلك بنوع من التضليل والتليس ، وهو تعليق القلب ، فيدّعي الكاذب أنه عرف اسم الله الأعظم ، وأن
الجنّ يطيعونه وينقادون إليه في أكثر الأمور ، فاذا كان السامع ضعيف العقل قليل التمييز والقوى الحساسة ،
تمكن ذلك الكذاب منه ، فأبام بصيرته وأيقظ خبله وغفلته والتعلق بحبال الخيال والحبال ، فقدر أعصابه
وأحدث في نفسه نوعاً من الاستهواء ، وهو أشبه بالتنويم المغناطيسى .

ولقد ظهر هذا النوع بأجلى مظاهره في ذلك التنويم في عصرنا حتى أن الأمم الغربية حرّمت العمل به
إلا في الأعمال الجراحية ، فانهم رأوا أن الاستهواء وأخذ الألباب قد كثّر في ديارهم ، فاذا قال المنوم للنوم
بالفتح بعد استيقاظك بثلاث ساعات مثلاً أقتل فلانا ، فانه لا بدّ فاعل ذلك ، وهكذا إذا قال لامرأة كوني معي
بعد كذا وكذا ، فانها لا تعصى للقائل أصراً ، وهي لا تدرى من أين جاء لها هذا الغرام ولا تعلم من الذي أوحى
إليها بذلك ، ولما كان المؤثر والمتأثر خاضعين لله قال الله (وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله ويتعاملون
ما يضرّهم ولا ينفعهم) .

إيضاح الكلام على السحر

لقد ذكرت لك أن السحر المذكور كان من نوع تعليق القلب ، وانه من أنواع التنويم المغناطيسى ،
وأقول الآن اني رأيت هذه الأعمال في المراسح العامة إذ كان المنوم يوحى إلى المنوم بالفتح بما يشاء فلا
يجد الاطاعة عمية ، فاذا أعطاه السكر وقال هو علقم لفظه من فيه لشدة تأثر حاسة الذوق من البشاعة ، وإذا
أعطاه الخنظل ، وقال هذا سكر استمرأه واستحلاه ، وهكذا تراه قد ملك عليه سمعه وبصره ، ونحن نشاهد
ذلك عياناً ، وكان يقول للرجل أنت امرأة راقصة فيرقص رقصها ويقول له أنت ملك ، فيفعل فعل الملوكة ،
وذلك اليوم شائع ذائع في أوروبا ، ووصل إلينا في الشرق بعضه ، وهذا الذي ذكرته بعض ماوصل ، وكان
في تلك المجالس أطباء يمتحنون المنومين بالفتح لينظروا أهم نائمون ؟ فكانوا يشهدون بنومهم على مقتضى
حركات النبض ، وهكذا كان معنا العلماء وكبار الأمة وعظماؤها وأمرأؤها ومهندسوها وأنا أشاهد ذلك بنفسى
ثم ان في هذا العلم غرائب فوق هذا حتى أن الطبيب قد ينيم المريض ويعمل فيه أكبر عملية جراحية ويستيقظ
ذلك المريض وكأنه شخص آخر ويساعد الطبيب وهو لا يعلم أنه هو نفسه : يساعد في تقطيع لجه وبتعرضه
بالسكين ، وهناك غرائب تجاوزنا عن ذكرها ، وبحار من العلم واسعة لا سبيل إلى ذكرها هنا ، وانما الذي
يهمنا في تفسير الآية أن نقول : يجب على الحكومات الاسلامية وجوباً شرعياً أن تأمر طائفة من الأطباء بتعلم
هذا الفن من التنويم كما فعل هاروت وماروت اللذان قصدا التفرقة بين السحر والمعجزة ، والا لادّعى الكذابون
النبوة وأتوا بشرائع فاجرة خاطئة ، ولقد بلغنا أن علم السكندانيين قد عثر عليه الأمريكيون في تلك البنايات
الخربة في بابل ونيوى وفي آثار الآشوريين والبابليين فانتشر هذا العلم كرة أخرى في الشرق والغرب ، ولولا

أن الأمم اليوم مستيقظة لادّعت طائفة من يمارسون هذه العلوم النبوة ، ولكنهم اقتصروا على ما يدعونه من الاخبار بالحوادث ، وعلى أمور أخرى لانطيل بذكرها وفيها الضرر والنفع ، فوجب أن تقوم طائفة لدرء المناسد التي يلقيها هذا العلم على الناس ، وهذا هو السر في ذكر هذه الآية في القرآن بقيت ألفا وثلثمائة سنة لتسكون تذكرة للناس وليحترسوا من الوقوع في شرك المضار الناجمة من تلك العلوم ، وتعليمها فرض كفاية كما في سائر الصناعات والعلوم ، ومنها الصناعات الحربية والعلوم جميعها ، ويحرم على من تعلم هذا العلم أن يستعمله الا فيما فيه الخير للأمة .

والقد حصل في هذه الأيام أثناء تأليف هذا التفسير أن طبيباً في مصر استهوى فتاة يهودية فقيرة ونومها تنويماً مغناطيسياً ، وصار يسأل هذه الجاهلة الأمية الصغيرة الخادمة في حال ذلك النوم عن أمراض المرضى والعلاج الناجع ، فكانت تجيبه بأجوبة تامة ، فكان هو يعمل بها ويداوى المرضى ، وأراحته من النصب والتعب في البحث والتنقيب في الكتب الطبية ، ثم ان نفسه الخبيثة سوّلت له أن يهتك سترها فطاوعها ، ثم افترض أمره ، وانكشف سره ، وفشا خبره ، والبنات غافلة لا تعلم شيئاً لأنه كان في حال النوم يوحى إليها أن الفاعل الظالم إنما هم الجن ، وليس هذا من فعل الآدميين ، ورفع الأمر أهلها إلى الحكومة المصرية ، فأمرت الحكومة الطبيب المصري ، فنوم الفتاة وجاء القضاة والأمرء ، وكذلك المفتشون من الانجليز ، وأخذوا يمتحنون الفتاة وهي نائمة ، فيقول أحدهم ما الذي في يدي ؟ فتقول كذا وكذا ، ويقول الثاني من أنا ؟ فتقول أنت المفتش وفي كيسك كذا وفي يدك كذا ، وهكذا : فلما علموا صدق أخبارها وثقوا بما تقول ، فأخذت تقص قصص الطبيب معها ، وفسقه وجوره وحيله ، وهي نائمة ، فحكموا عليه بالفسق ، وعاقبوه عقاب المجرمين .

وقد ألف الطبيب المذكور في هذه الحادثة كتاباً منتشراً بين الناس اليوم في بلادنا . ومن عجب أن الفتاة اذا استيقظت لا تعرف شيئاً عما جرى وما قالته ، وترجع كما هي ساذجة غافلة .

فتعليم هذا العلم واجب كما قلنا على كل حكومة سرت إليها علوم أمريكا وأوروبا ، ليحترس بعلماء الفن من الفاسقين الذين يفرقون بين المرء وزوجه . وهذا سر ذكر هذه الآية كما قلنا ، وإلا فبنو اسرائيل كما قال عمر رضي الله عنه مضى أمرهم وانقضى خبرهم ولم يبق إلا الأحياء الآن ، فاليهم : اق الحديث : ولننقل لك شذرة في التنويم المغناطيسي من كتاب الأرواح الذي ألفته . قلت :

قال شير محمد : قد عرفنا إحضار الأرواح ونريد أن نعرف التنويم المغناطيسي . فقلت : اعلم يا شير محمد ان ذلك علم آخر يسمى السبات المغناطيسي أو التنويم ، وهو أن ينام الانسان بدرجات مختلفات لأسباب طبيعية أو كيميائية ، أو حيوية . فالأسباب الطبيعية : كالنور والصوت بأن يسمع صوتاً متساوياً للحن . والسائل الكهربائي الخفيف ، والقطع الزجاجية اللامعة التي تنوم من حديق نظره إليها ، والمؤثرات الكيميائية . هي الأثير ، والكلوروفورم ، والأزوت ، وهي تلقى أخذها في النوم وتفقد الاحساس . والمؤثرات الحيوية أخصها الإرادة بأن يأمر باللسان ، أو السيل العصبي ، أو يحرق ببصره إلى الشخص المنفعل ، أو يبادئه بالاشارات والحركات المغناطيسية . هذه هي أسباب التنويم اجمالاً ، أما درجات النوم فهي ثلاث .

أولاً : أن يفقد الاحساس ويلبث شاخص العين يتلقى أوامر النوم ، وتلوح عليه الأمارات الدالة على قبوله لكل ما يريد المنوم بالكسر ، وفي هذه الحالة لو أدخل رجل المنوم بالفتح في ماء مغلي ، أو قرص جسمه لم يحس كما جربه العلامة دي بوكاته في باريس لتلاميذه [وكما شاهدته هذه الليلة ليلة السبت السابع من شهر فبراير سنة ١٩٢٠ وأنا أكتب هذه القطعة عند إعادة طبع الكتاب ، فان المنوم قد أنام في دار التمثيل العربي

شباناً ، وصار يلعب بحواسهم ، فيطعمهم الموز ، ويقول لهم هو حنظل فيلفظونه ، ويطعمهم الطماطم باسم التفاح فيستلذذون طعمها ، ويسمى أحدهم باسم غير اسمه فيصدق ويتسمى به ، وقد قال لشاب أنت اسمك لييبة فأرنا رقصك ففعل وأمره أيضاً بقلب النوم الصناعي طبيعياً ، ففعل وأبرز صورة الجرائم من المنومين ، وكيفية اقرارهم وما أشبه ذلك ، وكان يبيكهم تارة ويفرحهم أخرى ، ويلفق لهم تهمة ، ثم يفهمهم أنهم آثمون ظالمون فيندمون ويكون بصوت عال الخ ولا جرم أن هذا مبدأ التنويم ، وقد صدق ظني أن بلادنا ستنال حظها من علم الأرواح ، وهذا كتابنا فيه تجارب الأمم من حيث الثمرات ، وأنا لأشك أن العقلاء سينظرون لثمرات التنويم واحضار الأرواح لارتقاء الانسان كما نقلناه في هذا الكتاب .

ثانياً : أن يفقد الاحساس تماماً ويفلق عينيه كالخال الأولى ، ولكن تمتاز هذه أنه يسمع ويبصر ويتكلم ويجيب بمعزل عن الحواس ، ويقرأ ويكتب كما يأمره المنوم .

ثالثاً : أن يحصل انخفاف روي بأقصى درجاته ، وإذن يعرف النائم نفسه معرفة تامة ، ويصف علل جسمه والعلاجات الملائمة ، ويشاهد أفعال الناس ويسمع كلامهم عن بعد سحيق ، وينبئ عن حوادث مستقبله ، ويتكلم بلغات شتى ، ويرى أرواح الأموات ، ويصف هيئتها ، وينقل الى الجالسين أقوالها وهذه الدرجات الثلاثة تسمى هكذا بالترتيب :

الكاناليسيا . اللبنارجيا . السونابيلزم .

وهناك بعض الحوادث لا ثبات ما تقدم .

(١) قال العلامة شاردل في تأليفه المدعو بالمغناطيسية الحيوانية : انه نائم ابنة صبيحة البنية ، وبينما هي تلقنه وصف العلاج الذي يداوى به سأله ألا تسمع كيف يأمرني بذلك ؟ فقال لها لا أسمع أحداً ، فقالت نعم لأنك نائم وأنا يقظانة حرة ، فقال لها وأعجباً لك ! أين حرّيتك وأنت مسخرة لارادتي . قالت له أنت تعرف ظاهر الشيء الخشن الغليظ ، أما أنا فأرقيق باطنه الهني . فان نفسي منحلة من القيود مؤقتاً . فأرى ما لا تراه أنت وأسمع ما لا تسمع أذنك ، وأدرك ما لا تقوى على إدراكه ، وأرى النور يشع من أطراف أصابعك وأنت تغطسني ، وأسمع أصواتاً من بعيد جداً ، وحديث من يتكلم في بلد آخر ، فأنا أذهب الى الأشياء ، وليست هي التي يؤتى بها إلى . وحالي الآن يقظة تحاكي يقظة الانسان بعد الموت .

المثال الثاني : وصفت فتاة كان ينومها العلامة شاردل المذكور له الحال التي كانت عليها حين نومها ، فقالت : أحس أن جسمي يتمدد شيئاً فشيئاً حتى أفارقه وأراه بعيداً عني بارداً كجسم ميت ، وأرى نفسي كبخار وأدرك ما لا أقوى على ادراكه في اليقظة ، والنوم المغناطيسي الذي هو أقل من هذا ، وهذه الحال لا تدوم أكثر من ربع ساعة ، ثم يرجع الجسم البخاري شيئاً فشيئاً إلى جسمي الغليظ ، ثم أفقد الشعور .

المثال الثالث : أعمال الأكاديميا الطبية الفرنسية إذ خصصت لجنة طبية للنظر في الحوادث المغناطيسية ولند كرحادثة واحدة من حوادثها لتطلع ياشير محمد على عجائب العلم والحكمة ، ولتكون نموذجاً من أعمال تلك اللجنة في أشهر الممالك الأوروبية .

اجتمعت اللجنة في ٦ تشرين الأول وقت الظهر ، والمريض هو الميسيو [كازو] المصاب بداء الصرع والمنوم هو الميسيو [فرواساك] وجلس فرواساك في حجرة أخرى ولم يعلم كازو أنه حضر ، وأرساوا لفرواساك أن ينوم كازو ، وعينوا له النقطة المخاذية له في الحجرة ، فنام كازو بعد أربع دقائق ، فسألوه عن النوبات التي ستنبهه فبين منها اثنتين بدقائقهما وساعاتهما وأيامهما ، والنوبة الأولى بعد أربع أسابيع . والثانية بعد خمسة أسابيع ، فكتبوا التقرير وأعطوه لمن ينومه ، وهو الميسيو فرواساك مبدلين المواعيد قصداً ، فلما نومه بعد أيام ليشفيه

من ألم الرأس أخبره بمواعيد للنوبة غير التي أخبرت اللجنة بها . فرجع الى اللجنة وأخبرهم أن التقرير الذي قدّموه له محرّف . فأصروا على قوْلهم ، ثم تمت النوبات في الأوقات المعينة بالضبط على مقتضى ما أخبرهم كازو في نومه . ثم أخبر بنو بتين آخرين في موعدين معينين حصلت احدهما في وقتها . أما الأخرى ، فقد سقط قبل وقوعها ، وهو يهدى حصانا وتهشمت رأسه على الحجة فمات انتهى .

وقد فصل القول العلامة [هيسون] من أعضاء اللجنة المذكورة فقال ان المريض أنبأ بحوادث النوبات قبل حدوثها فلم يخطئ ، والمغناطيسية الحيوانية أصلحت حاله وأزالت عنه أوجاع الرأس ، وكان يصف العلاجات وصفا دقيقا ، وكان يقول : إن هذه النوبات تصيبه ما لم ينومه قبل وقت حلولها ومع ذلك لم يخطر بباله أن حادثة ستصيبه فتقطع عليه حياته ، وهذه أشبه بأمر الساعة فان الانسان يعرف مقادير قطع العقارب لليناء فيحددها بالتحقيق ولكنه لا يدري متى يفاجئها كسر أوتيهشيم فتقف حالها .

ذكر ما قاله القدماء في علم السحر

نذكر هذا لطاع القارئ على ما مضى وانقضى من أنواع السحر على سبيل الرواية التاريخية ، السحر يطلق شرعا على كل ما خفي سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويجرى مجرى التمويه والخداع ، وعند الاطلاق يفيد ذم صاحبه . قال تعالى : « سحرُوا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم » وهو أنواع :

أولا : سحر الكلدانيين في قديم الزمان ، كانوا يعبدون الكواكب ويزعمون أنها مصادر النحاس والسعد وكانوا يتوسلون إليها ، ويتقربون بالبخور والاستحمام ، وألوان الملابس المناسبة في زعمهم لتلك الكواكب والساعات المعينة كذلك .

ثانيا : سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية كالتي تحدث الإصابة بالعين فتؤثر في الأشخاص ، وتحدث الضرر في الأجسام كما ذكره كبار الفلاسفة ، ويقرّرون ذلك بأن تصوّر الانسان مؤثر في نفسه ، ألا ترى أنه يؤثر في جسمه حزنه وفرحه ورجاؤه وخوفه وعشقه وغرامه ، فهذه آثارها الحاضرة عندها ، فيجوز أن النفس اذا قويت أثرت فيما بعد عنها اذا تركت المألوفات ، ونبتت الشهوات ، كما هي عادة أولئك الذين يزعمون أنهم سحرة ، فتخلو نفوسهم من شواغل الجسد ، وتلمّ شعثها ، وترجع إلى عالمها الروحاني ، وتفعل الشر ، وتكون ممقوتة عند الله والناس ، وللوهم آثار كمن يرى يمشى على جذع فوق الأرض فانه يسهل عليه ، واذا وضع هذا الجذع بين حائطين أو عمودين مثلا لم يقدر على المشى عليه ، ويخرّص ريعا للدين وللفم ، وماصرعه إلا وهمه .

وقل ابن سينا عن أرسطو أن الدجاجة اذا تشبهت بالديكة في الصوت وفي القتال معها نبت على ساقها مثل الشيء النابت على ساق الديك ، وأيضا ان الدعاء مظنة الاجابة عند سائر الأمم .

ثالثا : الاستعانة بالأرواح الأرضية ، وهذا أقوى أنواع الخرافات .

رابعا : سحر التخيلات كما يفعله المشعوذ المسمى بالخواوى في بلادنا المصرية .

خامسا : قد جعلوا مما يسمى بالسحر الآلات المتحركة بضروب هندسية وعجائب علم الكيمياء كظهور نار الفصفور الموضوع في الماء ، وكالحرير الصخري المعلوم الذي وضعته أنا وأنا مدرّس في دارالعلوم على النار فلم يحترق ، وهو كما وضع عليها ازداد نظافة ، وكان ذلك في الدرس أمام الطلاب وهم يتعجبون ، وكالآلات البخارية الجارية الآن ، وأنت تعلم أن هذه كلها اليوم أصبحت في عداد العلوم وخرجت من مسمى السحر لشيوعها ، وقد كان بعضها عند المتقدمين سرا مكتوما .

سادسا : الاستعانة بخواص الأدوية كما حدث في حرب الألمان المبتدأ سنة ١٩١٤ م انهم كانوا يلقون البخار على الأعداء ، فتارة يعمى أعينهم ، وتارة يحدّث فيهم جنونا ، وقد كان القدماء يقولون

« ان مخ الجار اذا أكله انسان أورثه البلادة » وهذا منقول عن السكندانيين ، وأنا أرى أن هذا القول خرافة والا فالناس تأكل مخ سائر الحيوان فما بالهم لم يصيروا كالغنم وكالاجاج !

سابعاً : تعليق القلب الذى تقدم ذكره ، وقد أطلنا فيه ، وهومن فن التنويم المغناطيسى .
ثامناً : النسيمة ، والوشاية ، وضروب الأكاذيب ، المحولة للقلوب ، المضلة للنفوس ، التى يستعملها الضالون من الناس ليفرقوا بين زيد وعمرو ، وبعض هذه الأنواع أصبحت لا تسمى سحراً اليوم وهى ٨ و ٦ و ٥ وبعضها أصبح خرافة ، وبعضها يجوز فى نفسه ، فأما وقوعه فى الخارج فيحتاج الى عيان ونحن لم نشاهده والله أعلم بهذا وان اليهود كما آذوا سليمان بنسبته الى السحر تعدوا الحد على النبي صلى الله عليه وسلم فنسبوه للرعونة استهزاء وسخرية اهـ

« الزبرجدة الثامنة »

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ *
مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

التفسير اللفظى

يقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم) هذه واضحة : انهم كانوا ينطقون بالكلمة محرّفين المعنى الشريف الى معنى زائف ، إذ يقول المؤمنون راعنا أى راقبنا وتأن بناحتى نفهم ما تلقىه علينا ، ويقولها اليهود لتكون من الرعونة ، يريدون سبه بالكلمة العبرانية التى كانوا يتسابون بها وهى راعينا ، فهى المؤمنون عنها ، وأمروا بما يفيد تلك الفائدة من غير لباس وهو انظرونا أى انظر إلينا ، وقوله « اسمعوا » أى أحسنوا الاستماع فلا تحتاجوا الى أن تعودوا الى ما نهيتهم عنه (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب) يعنى اليهود (ولا المشركين) أى عبدة الأوثان (أن ينزل عليكم) أى ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من الوحي والنبوة كما لا يجب ساسة الأمم المستعمرة فى زماننا أن تترقى الأمم المحكومة بالعلوم والصناعات حسدا وبغيا من الفريقين (من خير من ربكم والله يختص برحمته) يختار لدينه والنبوة والاسلام والكتاب (من يشاء) من كان أهلاً لذلك يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (والله ذو الفضل العظيم) ذو المنّ الكبير بالنبوة والاسلام . انتهى التفسير اللفظى

« الزبرجدة التاسعة »

مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدِلْ

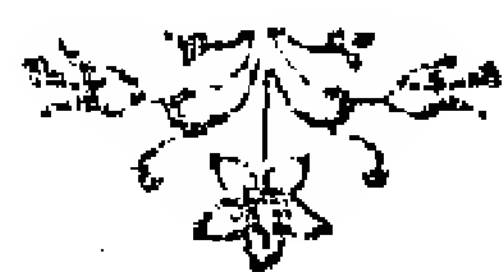
الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *

سبب نزول هذه الآية

نزلت هذه الآية لما طعن الكفار في النسخ ، وقالوا : ان محمدا يأمر أصحابه اليوم بأمر ثم ينهاهم عنه ، ويأمر بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ، نسخ الآية إما بانتهاء التعبد بتلاوتها ، وإما بانتهاء الحكم المستفاد منها ، وإما بانتهاءهما ، وقرأ ابن عامر « ما ننسخ » من أنسخ أى نأمرك أو جبريل بنسخها ، وقوله (أونسخها) أى ننس أحداً إياها ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « ننسأها » أى نؤخرها من النساء (نأت بخير منها) وهو الأنفع للعباد في سهولته ، أو كثرة الثواب عليه (أو مثلها) من التكليف والأجر ، فإذا بدل الله حكماً في آية بحكم في أخرى كآية الميراث بعد آية الوصية فإن ذلك لحكمة تقتضيه ، وهكذا فعل الله في السموات والأرض ، ألم تر إلى أغذية الشتاء والصيف ، وأشجار الربيع والخريف ، والليل والنهار ، والصباح والمساء ، وإذا نسخ آية الحب ففلقها ، والنوى فأبنتها ، والعامرات فخربت ، والحربات فعمرت ، هكذا ينسخ آية بأية وحكماً بحكم ، فهذا فعله ، وهذا قوله ، وكيف يراعى المصالح في أفعاله ، ويدعها في أقواله ؟ ولذلك قال (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ، ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير)

الناسخ والمنسوخ

النسخ يطلق بمعنى الإزالة ، ومنه قوله تعالى : « فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته » وبمعنى التبديل ، ومنه : « وإذا بدلنا آية مكان آية » وبمعنى التحويل كآية الموارث فيحول الميراث من واحد إلى واحد ، وقد أكثر العلماء من الكلام في الناسخ والمنسوخ ، والحق أن ذلك لا يصح إلا في قليل من الآيات ، ألا ترى إلى آيات الصفح والعفو والتجاوز فقد أكثر العلماء من قولهم إنها منسوخة بآية القتال مع أن الصفح كان مؤقتاً بزمان الضعف وقلة المسلمين فإذا كثروا وقوا جاز لهم ما لا يجوز في حال الضعف من القتال ، ألا ترى إلى قوله تعالى في هذه السورة هنا (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) ولقد جاء الأمر بالقتال فلم تنسخ الأولى ، بل جاءت لزمها ، وجاءت آية القتال منسأة أى مؤخرة ، وليس ذلك من النسخ كما في قوله هنا : « ما ننسخ من آية أونسأها » نؤخرها ، وقد صاحب الاتقان هذه المسائل فجاءت عشرين موضعاً في بعضها خلاف :



المنسوخ

[آيات البقرة] (١) : كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت .

(٢) : وعلى الذين يطيقونه فدية

(٣) : كتب عليكم الصيام كما كتب

على الذين من قبلكم (مقتضى

ذلك أنه يحرم الوطء والأكل

بعد النوم)

(٤) : يسألونك عن الشهر الحرام

قتال فيه

(٥) والذين يتوفون منكم ويذرون

أزواجا وصية لأزواجهم . الآية

(٦) : وان تبدوا ما في أنفسكم

أو تخفوه يحاسبكم به الله

آية [آل عمران] (٧) : اتقوا الله حق تقاته

[النساء] (٨) : والذين عقدت أيمانكم

فآتوهم نصابهم

(٩) واذا حضر القسمة أولوا القربى

(١٠) : واللاتي يأتين الفاحشة

من نسائكم

[المائدة] (١١) ولا الشهر الحرام

(١٢) فان جاءوك فاحكم بينهم

أو اعرض عنهم

(١٣) وآخران من غيركم

[الأنفال] (١٤) ان يكن منكم عشرون صابرون

[براءة] (١٥) انفروا خفافا وثقالا

[النور] (١٦) الزاني لا ينكح إلا زانية الآية

(١٧) ليستأذنكم الذين ملكت

أيمانكم

[الأحزاب] (١٨) لا يحل لك النساء من بعد

[المجادلة] (١٩) اذا ناجيتم الرسول

[الممتحنة] (٢٠) فآتوا الذين ذهبوا أزواجهم

[المزمل] (٢١) قم الليل إلا قليلا

الناسخ

آية الموارث

فمن شهد منكم الشهر فليصمه

أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم

وقاتلوا المشركين كافة

يتر بصن بأنفسهم أربعة أشهر وعشرا

لا يكلف الله نفسا إلا وسعها

اتقوا الله ما استطعتم

وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض

آية الميراث

آية النور

أبيح القتال فيه بقوله : وقاتلوا المشركين كافة .

وأن احكم بينهم بما أنزل الله . الآية

وأشهدوا ذوي عدل منكم

الآن خفف الله عنكم . الآية

ليس على الأعمى حج . الآية وآيات أخرى

وأنكحوا الأيامى منكم

نسخت ، وقيل تهاون الناس في العمل بها

انا أحللت لك أزواجك

الآية بعدها

آية السيف

بآخر السورة ثم بالصلوات الخمس

فهذه إحدى وعشرون منها :

آية : « وعلى الذين يطيقونه » قيل انها محكمة ، أى وعلى الذين لا يطيقونه بحذف لا فهي مقدرة .

وآية : « اتقوا الله حق تقاته » قيل انها محكمة .

وآية : « واذا حضر القسمة أولوا القربى » قيل محكمة وتهاون الناس فى العمل بها .

وآية : « ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم » قيل محكمة وتهاون الناس فى العمل بها .

وآية : « فاتوا الذين ذهبوا زواجهم مثل ما أنفقوا » قيل انها من المحكم .

فآيات التى فيها النسخ بغير خلاف تبلغ ١٦ وقد ضم الى المنسوخ عند ابن عباس قوله تعالى : « فأينما

تولوا فتم وجه الله » وقال هو انها منسوخة بقوله : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » . وقد نظم هذه

الشيخ السيوطى فى الاتقان فقال مختاراً عشرين منها :

قد أكثر الناس فى المنسوخ من عدد * وأدخلوا فيه آيا ليس تنحصر

وهاك تحرير آى لاضيد لها * عشرين حررها الخذاق والكبير

آى التوجه حيث المرء كان وان * يوصى لأهليه عند الموت محتضر

وحزمة الأكل عند النوم مع رفث * وفدية لمطيق الصوم مشتهر

وحق تقواه فيما صح فى أثر * وفى الحرام قتال للأذى كفروا

والاعتساف بحول مع وصيتها * وان يدان حديث النفس والفكر

والخلف والحبس للزانى وترك أولى * كفر واشهادهم والصبر والنفر

ومنع عقد لزان أولزانية * وماعلى المصطفى فى العقد محتظر

ودفع مهر لمن جاءت وآية نج * واه كذاك قيام الليل مستطر

وزيد آية الاستئذان ما ملكت * وآية القسمة الفضلى لمن حضروا

هذا ملخصه لتعلم أيها الفطن الناسخ والمنسوخ فلا يشذ عنك شئ مما اتفق عليه القوم اه

لم كان الناسخ والمنسوخ ؟

وهنا يرد سؤال فيقال : ما فوائد الناسخ والمنسوخ للأئمة الإسلامية ؟ ولو أن الآيات وردت بلا نسخ ومنسوخ ماضر ذلك ، وكفينا مؤونة الرد على اليهود ، وعلى المعتضين من الأمم على الاسلام وشريعته ، ولم يكن سبيل لجوب الرد عليهم بقوله تعالى : « ما ننسخ من آية » الآية ، وما لا يحتاج الى جواب خير مما يحتاج إلى جواب ، وهذا كلام الله ، وهو سبحانه وتعالى أعلم من عباده ، واذا كان عباده يريدون ملاحية فيه فهو قادر على اقناعهم وتعليمهم بلا سؤال وجواب ، هذا الاعتراض يدرو فى عقول الأذكياء وان كانوا لا ينطقون به

الجواب

اعلم أن الناسخ والمنسوخ من أعظم الأسرار ، وأبهج الأنوار الإلهية المشرقة على بنى آدم ، بل هما سر الترقى ، ومناط السعادة العصرية ، وبيان أنه سبحانه وتعالى علم أن النوع البشرى ضعيف ، مغرم بالتقليد ، لا يتخرج عنه إلا بعوامل عظيمة ، فأراهم أولاً أن الليل والنهار ينسخ كل منهما الآخر ، ثم بين لهم اختلاف الزرع باختلاف الفصول ، فان أكثر العشب والكلأ والحشيش ينبت فى أيام الربيع لاعتدال الزمان ، وطيب الهواء ، وكثرة الأمطار المتقدمة فى الشتاء ، فأما الفصول الثلاثة فيزرع الناس فيها زرعاً موافقاً للزمان ، فالخطة والشعير والبقلا والعنبد وغيرها تزرع فى الخريف وتحصد فى الربيع ، والقثاء والخيار والباذنجان تزرع فى الشتاء

وتدرك في الربيع ، والجزر والشايجم والكرب والقميط تزرع في الخريف وتستحکم في الشتاء ، والسمسم والذرة والأرز تزرع في الصيف وتحصد في الخريف ، والقطن والقنب وأمشاطها تزرع في الربيع وتستحکم في الخريف . هذا كتاب الله المسطور ، في رقه المنشور ، على سطح الأرض بحروف بارزة ، يراها جميع الناس والحيوان ولا يفهمها إلا الحكماء . بأن يحكموا عقولهم وآراءهم في أمور الدنيا ، فيعطون كل زمن حكمه ، وكل مكان مايلأئم ، فإذا وجدوا أن الناس قد تقلدوا السلاح الأقوى بالطيارات والمدافع فليكونوا على استعداد لزمانهم ، وليقوموا بذلك ، وإذا رأى المسامون أن بلاد [الارجنتين] في أمريكا الجنوبية مثلاً قد اتخذوا آلات مدهشة للزراعة جارية بالسائل المسمى [بترول] تحصد القش وتصعده بنفسها إلى أعلاها ، وتدرسه ، وتنزل القمح في ناحية والتبن في أخرى في مخازن في نفس الآلة ، وبينما هي تدرس ، وتميز التبن من القمح ، وتخزنها في مخازنها تحرث الأرض وهي عاملة هذا كله ، ثم تذهب إلى الضيعة فتضع أجالها ، وتنزل أثقالها ، وترجع عاملة ناصبة حتى تتم الحقل كله في يوم أو بعض يوم ، فتجد آخر النهار المزرعة التي كانت مزرعة أوله محروثة في آخره ، ومعدة إلى زراعة أخرى .

وإذا رأى المسامون أيضاً أن هؤلاء القوم لهم عناية بالماشية لم تعهد عند المساميين حتى أن البقر له سلالات كريمة لا يهملون أمرها ، حتى أن الثور منها قد يباع بأربعين ألف جنيه ، ويحرصون عليها حرص العرب على كرائم الخيل وسلالاتها ، وانهم اعتنوا بترقية جميع المواشي ، وبرعوا في إراحتها ، حتى أنهم قد استعملوا في حلبها الكهرباء ، فتقف الاناث من البقر صفوا واحداً ، ويوضع حبل طويل من الكاوتشوك المجرى ، وله شعب وضعت في كل ثدى من هذا البقر ، وقد اتصل الطرف الآخر بخزان كبير ، وفي هذا الطرف [طابعة] أمامية كابسة اتصل بها تيار كهربائي ، وهناك يبتدىء عمل الجهاز ، يقوم بعملية الحليب ، ويوصل بالبن إلى ذلك الخزان ، فيسمع له خرير كخرير الماء في الغدران .

إذا رأى المسامون ذلك ورأوا غيره فليفكروا وليعلموا [كما سيأتي إيضاحه عند قوله تعالى في هذه السورة « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »] أنهم خير أمة أخرجت للناس ، وأنهم هم الذين يقومون بسعادة النوع الانساني عاجلاً أو آجلاً ، فقد مهد الله لهم الطريق ، وكأنه يقول : أي عبادي أنا جعلتكم خير أمة أخرجت للناس ، وأنتم شهداء عليهم كما أن رسولكم شهيد عليكم ، وقد كتبت بحروف كبيرة في آفاق السماء وأقطار الأرض في الليل والنهار . والمزارع والحقول ، أن كلا منها ينسخ الآخر ويحل محله ، ثم اني ألهمت أقواما في العالم ، فأخذوا ينسخون الأعمال الانسانية العتيقة ، ويحلون محلها أعمالاً أرقى ، فقد نسخوا القديم البالي بالحديث القويم القوي ، فهذه ثلاث درجات قرأتموها في السماء والأرض وأعمال البشر ، ان النسخ في أعمالكم من سنتي القويمة ، لأني لا أنام ، وأزيد في الخلق ما أشاء ، ولما علمت أن الاسلام سيهيض إلى أمم عقولها لانهض هذه المشاهدات ، ولا تقوى على فهمها ، ويقولون : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، ويحمدون على البالي العتيق أسمعتهم في كتابي بحروف لفظية تعيها آذانهم ، وأنزلت على رسولي آية في زمن ما كالأيات التي تمنع القتال زمن الضعف ، فلما كانت القوه نسخت الأولى ، وأنزلت آية السيف ، وأمرتكم بقراءة الآيتين لتكون تلك الآيات حجة أمامكم ، وبراسا لتعرفوا الحكمة ، وتقوموا بأعمالكم الدنيوية بما هو الأصلح ، ولا تتقيدوا بما فعله الآباء مع حفظ مجدهم وشرفهم ، والتمسك بفضائلهم ، كما أبقيت الآية المنسوخة تقرأ صباحاً ومساءً . وإذا كنتم خير أمة أخرجت للناس ، وأنتم شهداء الله على الناس : فذلك سيدعوكم إلى ما هو أعظم من ذلك ، فإذا قامت أوروبا وأمريكا بهذه الأعمال العظيمة في الزراعة والتجارة والصناعة فلا جرم أنكم أنتم ستعلمون علمهم ثم تفوقونهم على مدى الأيام ، ويتحقق إذ ذاك معنى كونكم شهداء على الناس وأنكم خير الأمم

فتبين من هذا أن حكمة النسخ والمنسوخ فوق ما يتصوره كثير من الناس لأن الحقول والكواكب وأعمال الأمم الحاضرة في الرق كانت بقدره الله والقرآن من الله ، فالله كما نسخ في أعمال القدرة في كل حين نسخ في التعليم ونشره بين المسلمين ليرتقوا في الأسباب ولا يقفوا .

ولما جهل المسلمون ذلك ، وجدت قرائحهم ، وناموا نوم أهل الكيف ساط عليهم الفرنجة فلكوا أكثر بلادهم والتجارة في أيديهم وهكذا السياسة فإذا لم يعرفوا ما تلوناه عليهم في هذا المقام فلتبيد منهم الأمم المحيطة بهم كما أفنت أوروبا أهل أمريكا الأصليين لأنهم لا يصلحون لهذا الزمان لقصور عقولهم واقتصارهم على تقاليد آبائهم الجاهلين ونبد عقولهم كأنها لم تكن شيئا مذكورا ، فأبادهم الفرنجة إلا قايلا منهم أهل المسلمين يتعظون هكذا الأمم الإسلامية ان لم تساو الفرنجة في جميع أنواع الحياة فلا بد من انقراضهم جزاء جهلهم فان الله لم يترك لهم بابا إلا فتحة لهم في الحقول والكواكب والأضواء وأعمال الأمم وانقراض أهل أمريكا ، وقد أسمعهم في كتابه آيات النسخ ، ونسخ هو بنفسه لقتدى به فأحجمنا عن ذلك ، ولم يكف بذلك بل ألهم نبينا صلى الله عليه وسلم أن يسمع ماقاله سامان الفارسي في مسألة الخندق ، وفعل ما فعله الفرس من الأخذ بالأحسن ونسخ خطة حربية بخطة حربية ، والمسلمون مع هذا كله نائمون غافلون كأن هذا الدين ليس دينهم ، وكأن النبي ليس نبينهم والعقول نائمة ، وهذا أدان استيقاظهم ، وقيام مجدهم ، ورق بلادهم وسعادتهم ، « ولتعلمن نبأه بعد حين » وسيقرأ هذا خلفنا ، ويرون أن ما أقوله عن المستقبل محقق لاشك فيه بطريق الإلهام في نفسي « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

هذا ولما كان اليهود لا يفتنون يعادون النبي صلى الله عليه وسلم قالوا له : أنزل علينا كتابا من السماء تعنتا [كما قال العرب] من قبلهم ، وقد كانوا تعنتوا على سيدنا موسى كذلك فقالوا أرنا الله جوهرة نزل قوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم) أي بل أتريدون ، وسواء السبيل الطريق الحق ، وقوله . (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا) الخ . سبب نزول هذه الآية أن حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضي الله عنهما بعد وقعة أحد قابلهما اليهود وقالوا : لو كنتم على الحق ما هربتم فارجعا إلى ديننا فنحن أهدي سبيلا منكم ، فقال عمار بن ياسر : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا شديد ، قال اني عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت ، قالت اليهود : أما هذا فقد صبا ، وقال حذيفة : أما أنا فقد رضيت بالله ربا ، وبمحمد رسولا ، وبالإسلام ديننا ، وبالقرآن إماما ، وبالكعبة قبلة . وبالمؤمنين اخوانا ، ثم انهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصبتما الخير وأفلحتما ، فأنزل الله : « ود كثير من أهل الكتاب » الآية وبقية الآيات واضحة .

« الزبرجدة العاشرة »

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

مِثْلَ قَوْلِهِمْ قَالَهُ يَحْكُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
 مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا
 خَائِفِينَ * لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا
 تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَه قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا
 يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنَزِّلُنَا آيَةً كَذَلِكَ
 قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ يَبَيِّنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * إِنَّا
 أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ * وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ
 الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَنْ أُتْبِعَتْ
 أَهْوَاءُهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
 الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ذَاوَالْأُلْهَامِ هُمُ الْخَاسِرُونَ *
 يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ *
 وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ
 وَلَا هُمْ لَا يُنصَرُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (وقالوا) أي اليهود والنصارى ، عطف على ودّ (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا) جمع
 هائد (أونصارى) ذلك أن كلا من الفريقين ادعى أن دينه هو الحقّ وسواه باطل (تلك أمانتهم) شهواتهم
 الباطلة التي تمنوها (قل هاتوا برهانكم) على اختصاصكم بدخول الجنة (إن كنتم صادقين) في دعواكم
 (بلى) إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة (من أسلم وجهه لله) أخلص نفسه له لا يشرك به غيره (وهو
 محسن) في عمله (فله أجره عند ربه) في الجنة (ولاخوف عليهم) بخلود النار (ولاهم يحزنون) بذهاب
 الجنة ، ثم ذكر مقالة اليهود والنصارى في خصومتهم في الدين فقال (وقالت اليهود) يهود المدينة في خصومتهم
 مع نصارى نجران (ليست النصارى على شيء) من دين الله (وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) من
 دين الله ولادين إلا النصرانية (وهم يتلون الكتاب) أي والحال أنهم من أهل العلم بأحد الكتابين ، ومن
 حق من آمن بأحدهما أن لا يكفر بالباقي لأن كل واحد من الكتابين مصدق للآخر (كذلك) أي مثل ذلك
 القول (قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) أي الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب يقولون لكل أهل دين أنهم

امسوا على شيء (فالله يحكم) يقضى (بينهم) بين اليهود والنصارى (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فيعاقب كل فريق بما يليق به ، ان النوع الانساني درج على التقليد ، فالمتدين بدين يعتقد غيره دينا كاذبا والذي لا دين له يحقر كل من هو على دين ، بهذا طغى أكثر هذا النوع الانساني لجهلهم ، ففزع مشركو مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام في عام الحديبية كما فعل الروم من قبلهم لما غزوا بيت المقدس ، وضربوه وقتلوا أهله ، وهذا قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) وأن يذكر منفعول ثانٍ لمنع (وسعى في خرابها) بالهدم والتعطيل (أولئك) أي المانعون (ما كان لهم أن يدخلوها) أي ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله (إلا خائفين) أي على حال النهي والخشوع ، أو ما كان لهم في حكم الله وقضائه ، فيكون وعدا بالنصر واستخلاص المساجد منهم ، وقد أنجز الله وعده ، وقيل معناه النهي عن تمكينهم من الدخول في المسجد ، واختلف الأئمة في ذلك : فجوز أبو حنيفة ، ومنع مالك ، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره (لهم في الدنيا خزي) قتل وسبي للحربي (ولهم في الآخرة عذاب عظيم) أي النار :

ملخص ما تقدم

يقول الله : إن أرباب الديانات شغفون بالاضطراب ، مغرورون بالأخذ بالأذنب ، متعصبون لأهوائهم ، نابذون لنصائح أنبيائهم ، فتزعم اليهود كفر النصارى ، ويعكس النصارى عليهم القضية ، والتوراة والانجيل يدحضان الحججة ، ويزيلان الشبهة ، ومشركو العرب كفروا بالطائفتين ، وكرهوا الحزبين كما فعل ذلك من قبل مختصري إذ هدم بيت المقدس ، ومنع أن يذكر فيه اسم الله ، وهكذا أهل مكة صدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يحجوا عام الحديبية ، وهل من الأدب طغيانهم أم من الحكمة فعلهم ، وكان الأجدر أن يدخلوها خاشعين ، فلتخيفوهم بالجهاد ، ولتقمعوهم من ذلك الظلم ، ولقد أرسل رسول الله ﷺ عليا بعد الفتح فنادى في الناس : أن لا يطوف بالبيت عريان ، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولما فتح عمر الشام ومدينة بيت المقدس منع المشركين من دخول بيت المقدس ، فوؤلاء لهم في الدنيا خزي بالقتل والسبي والجزية ، ولهم في الآخرة عذاب النار . انتهى ملخص ما تقدم .

ولما طعن اليهود في نسخ القبلية وقالوا : ان محمدا يأمر أصحابه اليوم بأمر وينهى عنه غدا ، فقد صالوا البيت المقدس ثم إلى الكعبة نزل (ولله المشرق والمغرب) أي وما بينهما (فأينما تولوا فثم وجه الله) أي جهة رضاه وليس الله مختصا بمكان ، بل هو (واسع) الفضل (عليم) بتدبير خلقه ، قد جعل لنا الأرض كلها مسجدا وترتها طهورا ، فكيف يجعل كالعباد يتخذ ولدا كما زعمت النصارى واليهود ومشركو العرب بزعمهم أن ولده المسيح أوعزير ، أو الملائكة بناته ، سبحانه تنزيها له ، وكيف يصح ذلك وله ملك السموات والأرض كل له مطيعون ! والولد لمن هو في حاجة إليه ، على أنه مبدع السموات والأرض فضلا عن ملكه لهما يتصرف فيهما كما يشاء وهذا قوله تعالى (وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه) تنزيها له عن ذلك (بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون) منقادون لا يمتنعون على مشيئته وتكوينه (بديع السموات والأرض) مخترعهما (واذا قضى أمرا) أي حكم أو قدر (فإنما يقول له كن فيكون) أي يحدث فيحدث ، وليس المراد به حقيقة أمر وامتنال ، بل تمثيل حصول ما تعلقت به ارادته بلامهلة (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله) أي هلا يكلمنا الله ، وهوؤلاء هم كفار مكة يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : متى نعلم أنك رسوله ؟ والأصح أن ذلك منسوب لليهود لأن السورة مدنية (أوتينا آية) نقرحها عليك برهانا على صدقك فأجاب الله عز وجل تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم ليثبت قلبه (كذلك قال الذين من قبلهم) من الأمم لأنبيائهم (مثل قولهم) في التعنت (تشابهت قلوبهم) في الكفر والعناد ثم قال (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) بك ولا يتعنتون فلا تحزن ، ثم قال (إنا أرسلناك) يا محمد

(بالحق) أى الهدى (بشيرا) من أجب بالجنة (ونذيرا) من لم يجب بالنار (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) ان عليك إلا البلاغ (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله) وهو الاسلام (هو الهدى) وما عداه ضلال (ولئن اتبعت أهواءهم) فرضا (بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى) يحفظك (ولا نصير) يمنعك ، وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يتأونه حتى تلاوته) أى باقامة لفظه وتدبر معناه والعمل بمقتضاه ، مدحهم بأنهم المؤمنون إذ قال (أولئك يؤمنون به) يصدقون به ، وهذا عام لكل مؤمن هذه صفته ، ولا يختص بالسبب الذى ورد ، وهو أنها نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكانوا أربعين رجلا ، اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة ، وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا الراهب (ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) وختم هذه الزبرجدة بأن ذكر بنى اسرائيل بالنعمة إذ قال (يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين) أى وتفضيلى إياكم على عالمي زمانكم ، ثم قال (واتقوا يوما) واخشوا عذاب يوم ، وهو يوم القيامة (لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون) لا تغنى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها فداء ، ولا تنفعها شفاعة ، ولا هم ينصرون ، أى يمنعون من عذاب الله ، وقد تقدّم الكلام على الشفاعة في أوائل السورة اهـ

تأمل المقصد السابع

وكيف كان بدوّه أن يذكروا أنهم ما اتصل لهم ملك أيام مجدهم ما ينوف ألف سنة إلا بما أودع في قلوبهم من الحية والشهامة ، وحب الأمة ، واعتقادهم العظمة في نفوسهم ، والشرف في قبيلهم ، وكيف أنفذ ذلك في قلوبهم على لسان موسى والأنبياء بعده ، وسلكتها في أفئدتهم ، لتكون تلك العقيدة لهم نبراسا يهتدون بها عند الظلمات إذا نادى الأمة الاسلامية أنهم لن يقوموا من نومتهم ، ولن يستيقظوا من غفلتهم ، إلا أن يؤمروا في الشرف أملا ، ويقدموا له عملا .

انظرفيما في الفصلين من تفرع اليهود بتلك اليواقيت والزبرجدات والجواهر وهى تنوف عن ٣٥ سجلها عليهم القرآن ، وغيرهم بأنهم ماصرفوا للعمل عنائتهم ، وقد سجلت التوراة عليهم ظاههم فيكتبهم الله في القرآن ، وسفه أحلام أسلافهم ، وأخذ أنفاس خلفهم ، وختم بتذكير النعمة ، وأرى أن هذه معجزة وأى معجزة ؟ فكيف عرف ما في التوراة ؟ وكيف أخذ ينتقدهم ويقرعهم ، علما منزلته وشرفه ، موقنا بصدق دعوته . ألا ترى كيف جاء يحاسب أمة على ما اقترفت ، ويناوئها على ما اجتاحت ، هذه حقيقة صفة الرسالة والرسول مرسل ليحاسب الأمم على جهلها ، والأفراد على ظاهها . ولن يكون هذا من تلقاء النفس ، كيف لا ونحن نرى المرء تمر عليه السنون والأيام وهو يتعلم ثم لا يخرج لعلم خلاصة ولا ينشئ أمة .

الكلام على قوله تعالى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم » خصصت هذه الآية بافاضة الكلام فيها بعد ما ختمت تفسير هذه الآيات لما فيها من الجلال والبهاء والعجائب ، وان كان الناس يمرّون عليها صرّ الكرام ، فأقول ورد ذكر المشرق والمغرب هنا ، وفي آية « رب المشرقين ورب المغربين » مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما ، وفي أخرى « رب المشارق والمغارب » باعتبار ان كل يوم له مشرق ومغرب خاص ، كما يعرفه من زاول علم الفلك بأدنى تأمل [والناس ثلاث درجات] جهال لا يعرفون من الشروق والغروب الاسمهما فلا يفكرون في تنوعهما وتصرفهما وانتقالهما . ومتوسطون فكروا بعض التفكير فعرفوا بعض التغيرات واعتبروا بها . وفضلاء أدركوا أن لكل يوم مشرقا ومغربا خاصا بالتحقيق لا بالظن . وكلامنا الآن في هذا المقام ، لماذا خصّ المشرق والمغرب ، ولم لهج القرآن بذكر الأنوار والظلمات ؟ فتراه يقول « الشمس والقمر بحسبان » ويقول « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره

« منازل » ويقول « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها » ويقول « والضحي والليل إذا سجى » ويقول « ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم » ويقول « وجعل الظلمات والنور » وهكذا من تلك الجواهر المتألثة الباهرة البهية المشرقة [فأقول] : جوابا على هذا .

العرائس النفائس

تأمل عروسا مشرقة جميلة بهية المنظر حسنة الشكل معتدلة القوام ، قد لبست سبع جلايب ذات ألوان أحمر ، وبرتقاليا ، وأصفر ، وأخضر ، وزمرديا ، وبنفسجيا ، وأزرق ، وهذه الجلايب من أرق ديباج وألطفه حتى ان العقل ليدهش حينما يسمع أنها كلها أصبحت حلة واحدة ألطف من الهواء وأرق من النسيم ، ثم ان هذه العروس قد ازينت بأحسن زينة ، واتسمت بأبهج الحلى ، وبهرت ناظرها بجميل صنعها فانها فوق هذا الجلال والحسن والزينة والحلى ، قد أعطت من زينتها زينة لكل عادة حسنة ، وجميلة هيفاء ، حتى تتزين للناظرين ، وتقربها أعين الرائيين ، فهي الواهبة لهن الحسن والجمال والحلل النفائس والعطايا والمواهب ، بل ان كل جمال أشرق أمامها ، فانما هي له مسدية ، فهي مصدر الجلال والكمال والحسن والاحسان . ثم انها لانهرم ، ولا تشيب ، ولا يستغنى عن جلالها الشبان والشيب ، لا يذبل في الظاهر بهاؤها وشبابها ، ولا يقل احسانها واعطاؤها . فانظر لو ان عروسا هذا وصفها لكنت من أجل النعم ، وأبهر العطايا ، ولكان ذكرها يولد في النفس حبا وغراما بمن جلالها لنا وأبرزها وأفرغ عليها الجلال والكمال ، ولكانت أجل مظهر من مظاهر الاحسان ممن زفها إلينا وساقها لنحظى بجمالها ، وكلما ذكرت تهلت القلوب فرحا واشتاقا أن تشكر من أبدعها ورزقنا بها .

فاعلم أن تلك العروس : هي الشمس وجلايبها السبعة ، هي الألوان الأحمر والبرتقالى والأصفر الخ . وقد ثبت في علم الطبيعة بالملاحظة أن لون الشمس المشرق علينا الذى غشى وجه الأرض ، إنما هو مجموع تلك الألوان متعاشقة متداخلة . ألا ترى قطرات الماء ، ورشاشه في ضوء الشمس يلمع بهذه الألوان هكذا البللور فان النور يحلل داخل فيه الى هذه الألوان ، وتراها جلية في قوس قزح الذى لا يكون إلا في مقابلة الشمس ، فان كانت مشرقة كان مغربا ، وان كانت مغربة كان مشرقا دلالة على أن ضوءها حله ماء المطر إلى ألوانه السبعة كما كشفه علماء العصر الحاضر ، وكاد يعرفه القدماء لولا قلة الآلات العلمية ، فهذه الألوان السبعة صارت لونا واحدا ، فقد اتحدت فيه فأشرق على الأرض ، والماء ، والهواء ، والسهل ، والجبل . وقولنا ان العروس وهبت كل عروس الحسن والجمال وأعطتها زينة وحليا ، فذلك أن الكواكب السيارة التى تقدم ذكرها كسبت نورها من الشمس وأشرقت ، وبهرت الناس بنورها في طلوعها وغروبها ، وهكذا يقول علماء العصر الحاضر : ان النبات ، والحيوان ، والانسان ، وكل ما على وجه الأرض لالون لها ، وانما ألوان الخضر ، والحجر ، والبيض والصفير من اشراق الشمس عليها ، وهي في أنفسها لالون لها وبرهنوا على ذلك بتجارب لا محل لذكرها مثل أن يأتوا بضوء أصفر يضيء على لباس أحمر فوجدوا أن ذلك الأحمر مسود الصفحة عديم اللون ، لأن النور المشرق عليه خال من النور الأحمر ، وعلى ذلك تكون ألوان الناس والمرجان والدر والعقيق وسائر الجواهر الجميلة وخضرة النبات ، وكل ما يهيجنا نقشه ورقشه وتزيينه ، فانما هو أثر من آثار ضوء الشمس ، وهكذا كل عروس وما عليها من الحلى والحلل لا يظهر لها بريق ، ولا جمال منظور الا بشراق نور الشمس ، والانوار الأخرى تابعة لها ، وما الكهرباء الا أثر من آثار الشمس ، لان الأرض منها ، وكذا بخار الفحم الحجري الجارى في الأنابيب ، فانما ذلك كله من نور الشمس أشرق على الفحم الحجري قديما فخن فيه وظهر الآن . فهذا ايضا ان الشمس مصدر ما تراه من البهجة ، والجمال ، والهاء ، والسعادة ، فاذا أشرقت فهذا دأبها ، واذا غربت

ظهرت عرائس الليل ، فأبهجت الناظرين تلك النجوم الباهرات المشرقات في دجى الليل المطالات على عالمنا الارضى ، وهنّ قبلة الناظر ، وهدى السارين ، وكعبة الصادرين والواردين ، فهذه المشارق والمغارب للشمس والكواكب مظاهر الأنوار الساريات في الكائنات بهائمها والنبات ، ويعيش الحيوان ، ويجرى السحاب والبحار والرياح ، فهى اذن المظهر الالهى فى العالم العلوى والسفلى ، فالحرارة بها الحياة ، والأنوار بها الهدى والجمال فلا عجب إذا قال تعالى « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » وإذا قال « ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » وإذا قال « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » وإذا قال « وأشرق الأرض بنور ربها » وإذا قال « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » .

هاهنا اجتمع ارتقاء الفكر مع أفضل العبادة ، وههنا يتجلى النور العلمى الاسلامى وتشرق العقول ببدائع الحكم ، وروائع الفكر ، وغرائب العرفان ، هاهنا يكون منشأ الحكماء والكبراء فى أمة الاسلام . تأمل النجوم والكواكب والشمس واشراقها يرفع العقول إلى أعلى مستواها ، فينبأها فى معراجها صاعدة ، إذا هى فى محرابها الفكرى عابدة ، إذا هى فى مناهج المدنية وسلم الحضارة شاخصة ، وبهذا ترقى الأمم الفرنجية حولنا ونحن نأتمون .

ولألق عليك ما ذكره [اللورد افبرى] فى كتابه جلال الطبيعة لتتظرك كيف كانت عناية الفرنجة بهذه البدائع العلمية ، ونحن ساهون لاهون .

قال لا يعرف الناس جلال الطبيعة لأنهم فيها مغمورون ، ولو أن الشمس تظارل عهدها بالشروق فطال الأمد ، والناس مشتاقون إليها ، ثم بعد التياوالتي طلعت عليهم أفلا تراهم يفتنون فى محاسنها ويسجرون بحماها ويغرمون بعجائبها . ألا وان تلك الأشعة الذهبية البراقة الواضحة الجبين كنز ثمين من الذهب وثروة طائلة أغدقت على الناس فأصبحوا لا ينظنون لها « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » ثم قال ضاربا مثلا أشبه بما قاله أفلاطون فى كتابه المسمى [جمهورية أفلاطون] تصور قوما كانوا فى كهف تحت الأرض واسع الأرجاء فيه القصور الفخمة والتمائيل ، وقد نقش حيطانه وازينت بزينة ورياش وزخارف ، وقد انعكس عاينها أضواء من خارجها أرسلتها أنوار مشرقة من نار ، وقد سمعوا باله خفى عن الأبصار وغاب عن العيان . ثم أتيح لهم أن خرجوا من ذلك المكان فجأة كأن زلزلت الأرض فاذا هم فى متسع الفضاء وهناك شمس مشرقة ، وسحاب ، ورعد ، وبرق فيذهلون لجلال الشمس ونورها ، فاذا غابت عن الأبصار وتوارت بالحجاب ظهرت الكواكب اللامعة طالعة فيعتريهم الدهول لجلالها وتتولاها الدهشة لتلائها ويرون النجوم ظاهرا مشرقا حسن الطلعة ، فكيف يكون تعجبهم لهذه المحاسن البديعة ويقرّون باله عظيم نظم هذه الدرارى فى آفاق المشرقين ، ورصعها فى عقود المغربين ، وسيرها فى الأبراج ، وفى المنازل انتهى .

هذه مقالة اللورد افبرى ، وهى وان كانت جميلة أجل منها ما كتبه أفلاطون فى الجمهورية فانه فصلها تفصيلا أدق ، ولكن جوهر المعنى محفوظ .

ليس هذا المقال يدلك على ما للفرنجة من قدم راسخة فى هذه العلوم ، ونظر ثاقب فى مواقع النجوم ، ولعلك تقول ماذا يهمننا من مقال رجل افرنجى . أقول إنما ذكرته لغرضين : الاول ان رقى العقل الانسانى موقوف على استيعاب هذه المباحث النديسة وهؤلاء القوم قد برعوا فيها . الثانى أن كثيرا من الشبان الذين درسوا اللغات الافرنجية استكبروا استكبارا وأعرضوا وقالوا لا يؤمن بالله لأن الفرنجة لا يؤمنون ، وقد تركوا

الديانات وعكفوا على درس السياسات ، وناموا عن العبادة ، وأنكروا الله ، ونحن لانعرف الاماتراه الأبصار وتنكر ما وراء المادة لأن الفرنجة لذلك منكرون .

وأنا أقول لقد اطلعت على كتب أعظم الفرنجة وحكمائهم ، فوجدت هؤلاء الشبان المارقين في دعواهم كاذبين ، فان هذا البعض منهم قد درس قشور العاوم ولم يتجاوز كراسة معلمه ، وخرج من درسه مغرورا يقول قد عرفت علوم المشرقين ، وطالعت حكمة المغربين فلم أجد أهدى سبيلا ، ولا أقوم قيسلا من جحود الاله والكفر بما لا أراد فذرهم يعيشون عيشة البهائم ، ويكتفون من العلم بدعواهم انهم ممتازون « صم بكم عمي فهم لا يعقلون » ، ومن عجب أن هذا المثل الذي اتخذه اللورد افبرى من كتاب أفلاطون هو الذى يقوله علماء الصوفية في تمثيلهم ، وهو المذكور في سورة الأنعام « وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك في ضلال مبين » ، وملخصه أنه لما جنّ عليه الليل رأى كوكبا فظنه ربه ، ثم رأى القمر بازغا فبهره جماله ، فقال هذا ربى ، ثم رأى الشمس بازغة فراها أجمل ، فقال هذا ربى هذا أكبر ، ثم لما أدلت رجعا الى الله ، وقال « وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين » .

أيها المسامون هذا التمثيل الذى ذكره أفلاطون وقفى على آثاره اللورد افبرى وجد في نفس القرآن ، وهو الانتقال من جبال المشرقات الى مبدع السموات ، فكيف اذن يسود الفرنجة في هذه العاوم ، ونحن عنها غافلون ؟ العلم عامنا والدين ديننا ، بل الشمس شمسنا أليس اشراقها في بلاد الشرق أبهج ضوءا وأوضح نورا ، ومن ذا يقيس سناء الشمس في انكلترا بسنائها على ضفتى النيل والاهرام وبلاد الشرق ، وكيف يغرم هؤلاء الذين يدعى صغار العقول من الشبان أنهم منكرون لاله بهذه العجائب ، والتوراة والانجيل ، وهما الكتابان الدينيان لهم ليس فيهما من محاسن الطبيعة الاماظهر من الفلك على جرم السمك أثر ضئيل ونور حائل .

أفليس يتقظ أهل الشرق ، فقد آن أن تبزغ شمس المعارف في آفاقه وأن يتهيأ الشبان لزمان العرفان وأيام الهناء والسعادة وكأني بالنابغين منهم ، وقد برعوا في الفنون وذاقوا من أفلايقها ما به يسعدون . ولعمرك لم أطل في هذا المقام اعتباطا ولم أذكر ذلك الا لتعلم كيف كان ارتباط قوله تعالى « فأينما تولوا فثم وجه الله » بقوله « ولله المشرق والمغرب » .

أولست ترى أن حكاية الخليل ، وقد رأى النجم والقمر والشمس ثم اهتدى الى مبدع العالمين ، وكيف كان علماء الأمم يذكرون مبدع الكائنات بعد النظر في الكواكب والكواكب والشمس والقمر باشراقها على الأرض تغشيتها بملاءة بيضاء فأينما تولى وجوهنا يشرق النور علينا ، واذا كان المخلوق هكذا حاضرا في كل مكان فأحرى بنا أن نوقن أن الله الذى هو نور السموات والأرض ، وهو الذى أبدع النور معنا أينما كنا . فبهذا فلنفهم كيف يقول تعالى « وسبح بحمدر بك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » وإياك أن تظن أن التسبيح ما يكرره الجاهلون وهم لا يعقلون ، وإنما ذلك المقرون بالفكر والعلم والنظر والحكمة كما قال تعالى « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » فانظر كيف كان القرآن يدعو حثيثا الى هذه العجائب . وصغار العقول نائمون ، وبعض العلماء غافلون ، والمغرورون من متعلمى اللغات الافرنجية مفتونون ، وقد أقت الحجة على الجميع من الكتاب ، وكلام الفرنجة عسى أن يكونوا من المفكرين والى هنا آن الشروع فى قصص الخليل عليه السلام ، وهو .

(المقصد الثامن)

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *

التفسير اللفظي

قال تعالى (ابتلى) اختبر (كلمات) أوامرو نواه (فأتمهن) أداهن تامات (قال) أى الله (إماما) قدوة فى الدين (قال) ابراهيم (ومن ذريتي) أى أولادى اجعل أمة (لا ينال عهدي) أى بالامامة (الظالمين) الكافرين منهم (البيت) أى الكعبة (مثابة) مرجعا يرجعون اليه من كل جانب (وأمنا) مأمنهم من الظلم والاغارات ، كان الرجل يلقي قاتل أبيه فيه فلا يهيجه (مقام ابراهيم) هو الحجر الذى قام عليه عند بناء البيت (مصلى) مكان صلاة بان تصلوا خلفه ركعتى الطواف (وعهدنا الى ابراهيم) الخ أى أمرناهما (بأن طهرا بيتي) أى من الاوثان (والعاكفين) المقيمون فيه (والركع السجود) جمع راكم وساجد ، وقوله (اجعل هذا) أى المكان (بلدا آمنا) ذا أمن ، وقد استجيب الدعاء فجعل حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده (أضطره) ألجئه و (المصير) المرجع (والقواعد) الأسس والجدر ، يقولان (ربنا تقبل منا) و (مسلمين) منقادين (أمة) جماعة (وأرنا) علمنا (مناسكنا) شرائع عبادتنا أو حجتنا (وابعث فيهم) فى

أبناء إبراهيم من اسمعيل (رسولا) وقد حقق الله الدعاء بذينا (منهم آياتك) القرآن (والكتاب) معاني القرآن (والحكمة) ما تكمل به عقولهم من المعارف والأحكام (ويزكيهم) يظهرهم من الشرك (العزير) الغالب (الحكيم) في صنعه (ومن يرغب عن ملة إبراهيم) ولا يرغب عن ملة إبراهيم الا من استخف بنفسه وامتنها (ولقد اخترناه في الدنيا) بالرسالة والخلة (وانه في الآخرة) من الذين لهم الدرجات العلى ، واذكر (اذ قال له ربه أسلم) انقذ الله وأخلص له دينك الخ (ووصى) بالملة (إبراهيم بنيه ويعقوب يابني) إن الله اصطفى لكم (الاسلام) وقوله (شهداء) أي حضورا : و (إله واحد) بدل من إلهك (مسلمون) مخلصون له بالتوحيد والعبادة انتهى تفسير الألفاظ .

شرح وإيضاح

لقد مضى ذكر آدم وحواء وبليس ، وما كان من وضع أساس علم الأخلاق والنفس وتعقيب ذلك بمافعل اليهود السابقون واللاحقون وتقريرهم وتوبيخهم ، ان ذلك لأشبه بالتخلية ، ولم يبق الا التحلية بذكر العلم والحكمة والأخلاق والفضيلة التي تحلى بها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ذلك الأب الأكبر الذي ولد القبيلتين العرب واليهود ، وفرع الشعبين الاسرائيليين والاسماعيليين . إبراهيم أبواسحق واسماعيل واسحق قدولد يعقوب ، وهو اسرائيل : أي عبدالله وأبنائه الاسباط واسماعيل قدولد العرب ، ومنهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد كان العرب يدينون بدين إبراهيم خفاء النبي ﷺ بدينه فطفق الله يذكر الأمة بدين أبيها إبراهيم بعد أن هدم بناء أسس على الجهل والتحريف ، فقال وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن . ان أقصى ما ذكره المفسرون : وقصارى مادونوه في الكلمات يرجع الى العبادات والأخلاق الظاهرة والباطنة التي ترفع الرجل إلى رتبة الامامة وتزين الانسان ، وتسمه بالحكمة ولن يكون الانحصال شريفة ولاقدوة الاباء داب عالية يعالو بحسبها ويشرف بقدرها .

وإبراهيم أمر بأداب ظاهرة كالخسة التي في الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك وفرق الرأس ، وخس في الجسد من تقليم الأظافر ، وتنف الأبط ، وحلق العانة ، والختان ، والاستنجاء ، وهكذا ثلاثون خصلة خلقية ، وهي المفهومة من آية « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » وآية « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » وآية « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون » وهكذا مناسك الحج وابتلاه بالنظر في السكوك والشمس والقمر ، فأحسن النظر فيها ، وبذبح ولده فصبر ، وبالهجرة وبفراق الوطن فاحتسب ، وبالنظر في العوالم السفلية كسألة الطير ، وكيف يحيي الله الموتى فاحسنها وبلغ النهاية فيها ، فرجع أمره الى صدق النظر في العوالم العلية والسفلية من كوكب وقر وشمس ، كما في آية الأنعام وابادة الأصنام وتكسيبها وابانة الحج على صحة الحياة الأخرى بالنظر في العلوم الطبيعية ، ثم الأخلاق الظاهرة من المضمضة وما عطف عليها ، والباطنة من الايمان والصدق وما عطف عليهما ، وكذا الصبر على فراق الولد والوطن واللقاء

في النار [صفات عالية ، ونفوس شريفة ، وأب كريم ، وشهنة فاضلة] ذلك تضمنه معنى الكلمات التي ابتلاه الله بها فليست الكلمات حروفاً يتحرك بها اللسان وتضطرب بها الشفتان . وهذه إحدى نكبات المسلمين اليوم فلقد يغرّهم الجاهلون ويضحك على أذقائهم المغرورون ، فيقولون لهم من قرأ سورة كذا غفر الله له ، وأعطاه كذا فظنّ الناس أن المسئلة كلمات تكرر وحروف تصور . كلا : والله فقد أجمع المفسرون على أن ذلك عمل ، وأيّ عمل . إن أكثر المسلمين أبناء إبراهيم . ومن المحزن أنهم جهلوا سبيله وضلوا طرقه وما قدره قدره . وكيف يموتون ؟ وهم لاحظ لهم من نظره ، ويهلكون ، ولا نصيب لهم من عمله . أين مدارس الحكمة أين علم الفلك ، أين الصدق والوفاء ، أين الفضيلة ؟ هذا دين أيكم إبراهيم دعاكم له عربي مثلكم ، وهو النبي ﷺ ، ولورجع الخليل للدنيا لأنكر ذريته ، و « قال لا ينال عهدي الظالمين » فليس الظلم قاصراً على التعدي على العباد ، كلا بل أقبح منه الجهل بنظام السموات والأرض والفضائل النفسية . وما أجهل المسلمين اليوم فإذا لم يكن لولد إبراهيم اليوم عهد الأمامة والرياسة فلا يلومون إلا أنفسهم فقد أصبحوا عن عمله معرضين ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، قبل أن ينزل الوحي عليه يتعبد في غار حراء بالنظر ، والفكر والتأمل في بدائع السموات ومحاسن العالم ، وهو دين الخليل عليه الصلاة والسلام فمن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه وجهل قدرها .

ويرجع مافي هذه الآيات إلى عشر زمرات : الزمردة الأولى طلب الأمامة لبنيه ، والخلافة لذريته بقوله « قال ومن ذريتي » فأجيب بأنه لا يدركها من جهلوا وظلموا .

(الزمردة الثانية)

وَإِذْ جَعَلْنَا الْيَتِيمَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأُمْنًى وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى

أنت تعلم : أن الخليل عليه الصلاة والسلام تحلى بالحكمة والعلم ، وازدان بالآداب والأخلاق ، فأمرنا باتخاذ الأما كن التي أمها مصلى لنا وقبلة كالحرم والكعبة وأما كن المناسك كلها لنسير في سبيله ، ونأخذ العهد بعده والمراد بالصلاة ما يشمل الدعاء في تلك الأما كن فليس الحج حركات عضلية كما أن الصلاة ليست كلمات وأفعالا بلا فكر ولا روية ، فهذا من عجائب القرآن ، وبدائع الفرقان ، وصلاة ركعتي الطواف من تلك الصلوات فلا تحجبك الأقوال .

(الزمردة الثالثة)

وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا يَدَيَّ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ

وهي ظاهرة (والعاكفين) المقيمون فيه (والركع السجود) مفهومان .

(الزمردة الرابعة والخامسة)

دعاؤه لا بنائه ، وهو قوله تعالى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ

هذا الدعاء ظاهر واضح ، دعا إبراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا لا يراق فيها دم ، ولا يصاد صيدها وأن يرزق

أهلها المؤمنون الثمرات احتراسا من أن يقع فيما وقع فيه نوح من الدعاء للابن الكافر ، فأراه الله أن الكافر لا يحرم من النعمة والصحة والحياة وله عذاب مهين يوم القيامة . أليس من العجب أن يحرم الصيد بمكة ويحرم على رب الدم أن يقتل واتره ، ذلك أساس وضعه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في مكة بأمر الله عسى أن تهتدى الأمم يوما ما إلى السلامة ، وحفظ الأنفس من الهلاك ، والأجسام من سفك الدماء ، ان في الاسلام لبذورا ستنمو وتفرخ وتنشعب وتفرش إذا جاء أجلها وحان حينها .

ثم بنى إبراهيم وابنه اسماعيل البيت ودعوا ربهما أن يتقبل البناء ويسمع الدعاء وأن يجعلهما مخلصين ، وأن يكون منهما ذرية تتبع آثارهما وتهتدى بهداهما ، وهذه القصة واردة في الحديث البخارى ، وفيه وجاء بها : أى سارة وبانها اسماعيل ، وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم اسماعيل ، وكان ما كان من تفويض أمرهما لله ، ووقوفه مستقبلا القبلة عند الثنية ، وقوله « ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وهكذا ظمئت وظمى ولدها ، وسعت بين الصفا والمروة طلبا للماء ، فشرع السعى ، وسمعت صوتا اذا هوجبريل يبحث بجناحه فظهر الماء وشربت فرت رفقة من جرهم من طريق كداء ، وحطوا راحلهم حول زمزم وترعرع اسماعيل ومصر أبوه بيته ، وهو ذواهل مرتين ، وفى المرة الثالثة قابله واعتنقا ، ثم بنيا البيت فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى ، ووضع الحجر الأسود ، وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) أخلص إبراهيم لله ، فدعا أن يتقبل دعاءه ، ويجعله مخلصا لله ، ويتخذ من ذريته أئمة ، ويرسل لهم رسولا منهم يعلمهم ويظهرهم ، فهذا الدعاء شامل لخيرى الدنيا والآخرة .

ان أبناء اسمعيل هم العرب يقطنون اليوم أرض الحجاز ، واليمن وتهامة ، وأكثر جزيرة العرب ، والشام والعراق ، ومصر وشمال أفريقيا : طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش ، وهل اتخذوا حظهم من عامه ، وقسطهم من حكمته ؟ ها هم أولاء أبناءك يا أبانا إبراهيم اليوم فى شمال أفريقيا ، وفى مصر ، وفى الشام ، وجزيرة العرب أجهل الأمم بعلمك وأبعدهم عن فكرك نظرت السموات وكواكبها ، والأرض ومناكبها ، والمناسك وفوائدها ، وحالت المركبات لتقف على أسرارها فى مسألة الطير وصبرت على النار وسعيرها ، والولد وفراقه ، والوطن وحبه ، وهاجرت لأرض الحرية بعد يأسك من إيمان الأمة التى أرسلت لها ، جاءهم الرسول الذى طلبت والكتاب الذى به دعوت فوحى شيتك ووقارك ما عرفوهما المعرفة الجاهلية ، وإماما قدسوهما غافلين ولا حظ لهم من القرآن لاحظ الجائع من النسيم ، والجار من البرسيم قد استهم الأمم ، وأصبحوا طحين الطامعين ، ولم ينالوا الخلافة ، ولم يحظوا بالإمامة . فهم مأمون لأئمة ، وتابعون لامتبعون . انهم ظالمون لا ظلم المعاصى الظاهرية ، ولا الأمور الأخلاقية ، وإنما ظلموا بجهل العلم ، والصناعات ، وما أبدعه الله فى الأرض والسموات فلا تجزع يا أبانا إبراهيم ، فان أبناءك جهلوا قدرك وسفهوا أنفسهم ، ألا ترى أنهم أعرضوا عن علومك وغفلوا عن نظرك . نظرت السموات وأنغمضوا وفكرت فى الطبيعة وأعرضوا ، وصبرت على ما يشرف قدرك وما صبروا ، وأحببت ذويك وكرهوا ، لا تأسف على أبنائك يا أبانا الخليل ، ولقد صدق قول الله فىنا « ومن يرغب عن ملة إبراهيم الا من سفه نفسه » فأبناءك اليوم جهلوا أنفسهم ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون ، وعسى الله أن يبدلهم بعد جهلهم علما ، وبعد خوفهم أمنا ألوان هذا زمان الانقلاب ، وأيام الاضطراب ، ودوران الفلك بالعجائب والغرائب ، فقد انتعشت الافئدة وأشرقت الأرض بالنور وسينبأ أبناءك فى القريب العاجل مقامهم الرفيع ، وينالون عزهم الشاخي ، وسيدركون معنى أبوتك وملتك . المسامون جميعا أبناءك من ترك وكرد

وصيدين وجاويين وهنود وغيرهم من الأمم والأجناس أبنائك في العلم والدين ، وبنوة العلم أشرف وأبقى من بنوة النسب ، هؤلاء الأبناء جاء فيهم على لسان أفضل أبنائك نبينا ﷺ في القرآن « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسامين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » فلقد سميتنا مسامين في الكتب السابقة وفي القرآن ، وأنا نكون شهداء على الناس ويكون الرسول علينا شهيدا فتكون نسبتنا الى الناس كنسبة الرسول لنا ، نحن شهداء الله على خلقه نحن هداة الأمم ، هكذا يجب أن نكون كما رسمت لنا أيها الأب الوقور .

لقد وقف الرسول الذي أرسله سعد بن أبي وقاص في مجمع من الفرس في حضرة الشاه تارة ، وفي حضرة رستم القائد العام تارة أخرى وهو يقول « لقد بعثنا لنخرج الناس من جور الأديان إلى عدل الاسلام ولايتخذ بعض الناس بعضا أربابا من دون الله » لعمري لقد فهم أولئك السلف حقيقة الاسلام وان المسلم شهيد على الناس كما أن رسوله أرسل رحمة للعالمين « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ولن نكون رحمة للعالمين الا اذا اتبعنا ملة أبينا ابراهيم فقرأنا سائر العلوم ، وأحطنا بالفنون كما شرحناه في عالمك السابقة . نظرت في النجوم وصبرت وبحثت في علم الحقائق واستبصرت في كل شيء هكذا فايكن أبنائك الذين هم أتباع دينك ، وكيف يكونون شهداء على الناس الا اذا درسوا العلوم وأطوار الأمم وأحوال الشعوب فالشاهد على قوم يكون عالما بما بين أيديهم وما خلفهم ، ولم يقتصر القرآن على اتصافهم بالشهادة على الأمم بل جعلهم ذوى اشراف على الجميع في الارض اذ قال « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم » وقال في آية أخرى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » الأمة الاسلامية جعلت ديارها بين ديار الأمم تتاخم الروم من جهة الغرب باوروبا وتصل بالصين والهند واليابان ، وما وراءها من أمريكا من جهة الشرق فكانها وسط بين الامكنة ورباها وسط يعدلون في قوهم وحكمهم ، فأهل الحل والعقد من هذه الأمة متى جاء وقت منعتها وعزها ومجدها سيكونون مراجع المظلومين ومأوى الخائفين ، وأمان المنعورين وهم يكونون الآمرين الناهين وكما أرسل رسوهم رحمة للعالمين يكونون هم رحمة الأمم تبعا لنبهم ، وهذا معنى « ايظهره على الدين كله » فالمسامون بمنطوق هذه الآيات خير أمة أخرجت للناس ، ولا جرم أن هذا خبر لا بد من تحقيقه ويظهر لى أنه قد آن أوانه وبدا كوكبه وانفلق عمود صباحه وانشق فجره .

إن أول اصلاح اسلامي في الأرض أن زلزلت الأمم القديمة كفارس والروم وماج الناس بعضهم في بعض وداخل الغريبيون الشرقيين والشرقيون الغربيين وامتد الفتوح الاسلامي الديني فتعارفت الأمم واستفحل الاسلام فقام الملوك ببعض العدل في حكمهم الأمم على قدر طاقتهم وما سمحت به أيامهم ، ثم دالت الدول الاسلامية وذهبت عنهم عزة المدنية . فدخل اليهم من الشرق المغول والتتروورثوا الأرض والتحقوا بالدين ، وهذا من ثمرات الاسلام ، وجاء الغريبيون ليحاربوا للدين فحملوا على قومهم قناديل تضئ على ديارهم وقبسا من العلم يهديهم الى هدى ويردهم عن ردى فظهر لوثر المصلح الديني الشهير وصرخ في قومه قائلا أيها الناس ان رجال الدين قد عشوا في الأرض فسادا وأدخلوا في الدين مالم ينزل الله به سلطانا فلا تجعلوا لكم ربا الا الله وذلك انما كان صدى قول الله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا إلهًا واحدًا » فلا اقرار لقسيس ، ولا طغيان في معاملة ، ولا غفران لرئيس بل العبد يحاسب ضميره ويعلم أن الله مطلع عليه ، فأخذت العقول الغربية في الهدى ، والعقول الشرقية في الضلال والاضمحلال ، وبهذه الحرية الاسلامية ، تحررت عقول الغربيين من الجهل الذي كان مخيا عليها أجيالا ، وقرونا فأخذوا

ينظمون البريد والقطر للمسافرين ، ويمدون الاسلاك فاتصل الغربي بالشرقي ، وعرف كل منهما بعض ما عند أخيه وانقلبت ممالك في الشرق والغرب وتقاربوا بعد التباعد وتعارفوا بعد الجهالة فاقتتلوا وأخذ القوى منهما يدوس الضعيف بسنابك خيله ويذله ويشاركه ويعده ، وما يعد الشيطان الاغرورا ، وقد أحكمت حلقات التجارة فكانت أقوى رابطة فدعا ذلك التصادم في المصالح أن يحتدم بينهم القتال ، و يتراشقوا بالنبال ويتباروا في النضال ، ثم يكون الصلح العام والمساوون في هذا كله وسط بين الجميع فعليهم اليوم أن يأخذوا دورهم في ترقية أنفسهم والشعوب الأخرى ونستأنف دورنا ونكون كما أخبر ربنا « وللاخرة خير لك من الأولى » ولتكون نهضة الاسلام الآتية مبناها العلم وأسها البحث والتحقيق .

فليأخذ المسلمون مكاتبتهم في أنفسهم أولا ثم لياهم شعهم فليأتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى بالعلم والعرفان ، واذن يأمرهم الأمم بالمعروف وينهونهم عن المنكر لأنهم خير أمة أخرجت للناس ، فأمة الاسلام شهداء الله على خلقه لأنهم عدول وفوق ذلك يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر .

أبونا ابراهيم حمد الله على أن وهب له على الكبر اسمعيل واسحق ولا جرم أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا فكيف ذلك وكيف يكون أبو الانبياء وقدوة سيدنا محمد ﷺ ، فرما بزينة الحياة الدنيا فحمد الله اذن على الولد أدنى مرتبة بل مراتب من حمد المسلم الذي يحمده الله على تربته للعالمين كما قدمنا في سورة الفاتحة ، أقول انما حمد ابراهيم الله على ولدين هما نبيان : فاسمعيل مرشد مرب للعالمين ، واسحق أبو الانبياء المرشدين المرين للأئمة ، وقد جاء من ذرية اسمعيل نبينا ، فالحمد لله من ابراهيم على تربية الأمم وسعادتها بابنائها ، ومنهم أمة الاسلام ، ألا تراه يقول هنا « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » وأكدها بقوله « انك أنت العزيز الحكيم » حمد الله ابراهيم على أن رزق اسمعيل واسحق ، وقدم اسمعيل لأن الحمد عليه أوفر . فان من ذريته من اتبعته هذه الأمة المسلمة ، وهي خير أمة أخرجت للناس وهي وسط ورجاها يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر هذه حقيقة الأمة الاسلامية المستقبلية .

أيها المسلمون ارفعوا الايدي الصاغطة عليكم لتكونوا جميعا أمة واحدة ، ثم لتنظروا في أحوال الأمم . ان الغربيين انقاد قاداتهم الى العامة الذين ينوبون عنهم في مجالس أهل الحل والعقد فيهم فهدوهم الى استعباد الأمم الاسلامية واستحلوا دماءنا وأموالنا ، فاذ جاء يومكم المعهود فلتكونوا خيرا منهم ، لتكونوا امرين بالمعروف ناهين عن المنكر ، و ارفعوا حيف الأمم القوية عن الضعيفة على أي دين كانوا ، وأي ملة ، وأي لون ، اما أتم رحمة العالمين ، تؤدّبون الظالمين بجيوشكم وسلاحكم ، ويجب أن يكونا أقوى من أساحة الأمم وجيوشها حتى يخشوا بأسكم ، ولا تظلموا أحدا ، وكونوا قادة وسادة ، وانظروا كيف كان نبينا شاهدا على الأمم فدم اليهود والنصارى بمخالفة كتابهم كما ترونه في هذه السورة من اتخاذ اليهود العجل معبودا مثلا ، ومن اتخاذ النصارى المسيح إله ، فغيرهم بذلك وبغسيره وأدبهم ، فكان من ذلك ما نرى من هذه المدينة الناجية من الانقلاب الديني في الأرض ، هكذا فلتكونوا شهداء على الأمم تفاعلون ما فعل نبينا من الشهادة على الناس والأمم بالمعروف لهم والنهي عن المنكر بعد أن توطدوا أركان النهضة داخل بلادكم .

ذلك هو الذي انشرح له صدرى في هذه الآيات ، وهذا الذي يطلبه القرآن ، والافلام انسمع قصة ابراهيم المجرّد التاريخ ؟ أم لحكاية تقال وتلاوة تسمع ؟ كلا والله ان ذلك لحكمة قد أوضحنها ، ونعمة سطرناها فن قرأ هذا فليشره بين المسلمين : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » . وهذا سر تكرار الصلاة والسلام على ابراهيم وآل ابراهيم ، لنذكر الحكمة والآداب الظاهرة والباطنة التي ذكرت عنه في القرآن اه

أيها المسلمون : انى أقول لكم لقد اقترب يوم نصركم ، وأوان عزكم ، وهل يكون أمركم للأهم بالمعروف ونهيكم عن المنكر وأنتم أذلة ! إن الله خلق الحيوانات فى الأرض على قسمين : قسم عزيز ، وقسم ذليل ، فالعزيز كالغزلان والآساد والذئاب والفيلة ، وهى الحيوانات التى تعيش فى القفر والفضاء الواسع ، قد جددت لأنفسها ، وسعت لمعاشها ، واتسكت على ربها ، ولم يكفلها غيرها ، إلا أنها تتمتع بالحرية والاستقلال التام . والقسم الذليل تلك الحيوانات التى أغدقنا عليها نعمنا ، وكفيناها العمل ، وأحطناها بقوتنا ، وأرحناها من السعى لأنفسها ، والبحث عن كل ما يريحها وينفعها من الغنم والبقر والابل والخيول وأمثالها ، فتلك تتمتع بالنعيم وتتقلب فى العذاب تحت رحمتنا وعذابنا ، إن الله أعطى القسم الأول كالأساد قوة المحافظة على أنفسها والحيلة لجلب ما تحتاج اليه ، وسلب القسم الثانى تلك المواهب ، فزادنا ما نقصها ، وأعطانا ما منعها ، فان كل موهبة استعملها حتى تمت ، وكل موهبة تركها ذهبت ولم تبقى . هذه قاعدة عامة الأبقى إلا النافع ؟

فنقول : أيها المسلمون أنكون كالفرىق الأول أم نكون كالفرىق الثانى ؟ إن الفرىق الثانى لا يملك لنفسه نفعا ، انه ذليل ضعيف فاقد الحيلة ، أما الفرىق الأول وهو الحر المستقل ، فهو أهل أن يحفظ نفسه وينفع غيره ، المسلمون ماداءوا تحت رحمة الأمم فليسوا خير أمة أخرجت للناس ، ولا عدولا ، لأن الأمة التى تكون خير الأمم وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر تكون حرة ، وهل للذليل أمر أو نهى ، أم هل له من علم وهو فى طاعة ساداته المالكين لأمره ، الذين يسخرونه لما ربههم ؟ فإداموا تحت وصاية غيرهم فان الرجاء فيهم مفقود وانما هم أشبه بأذى الحيوان الذى يقوده الانسان ويذبح أولاده ، ويشوى لحمه ، ويجزئ صوفه ، ويكون زينة له ومتاعا الى حين ، فهل مثل هؤلاء يكونون خير أمة أخرجت للناس ، أم مثلهم يسميهم الخليل مسلمين ؟ أم يكونون شهداء على الناس وهم لا يعرفون الناس ولا أنفسهم ، فليخرج المسلمون من مأزقهم الذى وقعوا فيه وليرجعوا الى سنان السلف الصالح من الحرية والنجدة والنخوة والشمم والاباء ، وحينئذ يكونون خير أمة أخرجت للناس .

(الزمردة السادسة)

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، إِلَى قَوْلِهِ : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَآلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

ابراهيم أبو العرب واليهود ، وأبو نبى النصرارى ، لأنه ابن مريم ، وهى من بنى اسرائيل ، ابراهيم ولد اسحق وولد اسماعيل ، اسحق أبو اليهود ، واسماعيل أبو العرب ، ودعا ابراهيم لأبنائه العرب بالبركة والثناء والعز والعلم والكتاب والحكمة ، وهاهوذا يذكر وصيته هو ويعقوب بعده ، كلاهما يقول لبنيه : ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . ههنا وضع الحق ، واستبان السبيل ، وتجلي الأمر ، وسطع نور العلم ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب ، وهاهوذا ابراهيم يدعو للعرب ، ويوصى اسحق ، ويوصى اسحق يعقوب أن يتبعوا دلة ابراهيم ، وهى ما عرفت من النظر فى العالمين والآداب الظاهرة والباطنة ، فهل يجمل بعد هذا البيان أن يتقهقر الناس الى الوراء ويدينون بالنصرانية واليهودية (تلك أمة قد خلت) أى ابراهيم والمذكورون معه أمة قد سلفت (لها ما كسبت) من العمل (ولكم) أيها اليهود (ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) كما لا يسألون عن عملكم فلا تفتخروا بهم .

الزمردة السابعة

وهما فرعان لأصل وغصنان لشجرة ، ولأصل إله دين إبراهيم ، وهى قوله تعالى
 وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *
 وقال اليهود (كونوا هودا) وهم يهود المدينة ، وقال نصارى نجران : كونوا (نصارى تهتدوا قل بل) تتبع
 (ملة إبراهيم) مائلا عن الأديان كلها الى الدين القيم ، وقوله (وما كان من المشركين) تعريض لليهود والنصارى
 بأنهم مشركون ، ألا ان الطريق المثلى ، والمثل الأعلى ، والحكمة المشرقة أن يرجع نوع الانسان الى الدين
 العام بلا قيد ولا شرط ، وهو :

الزمردة الثامنة

السلام العام بمشرق شمس الهداية ، ونور الحكمة من أفق الشرق ، وتبلغ نور إبراهيم
 الخليل ، وحكمة ذلك الوقور الجليل ، وهى قوله تعالى :

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ
 وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي
 شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *

التفسير اللفظي

هذا خطاب للمؤمنين يقول (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) وهو القرآن (وما أنزل الى إبراهيم) من الصحف
 العشرة (وما أوتي موسى) من التوراة (وعيسى) من الانجيل (لا نفرق بين أحد منهم) كما فعل اليهود ،
 وقوله (فان آمنوا) أى اليهود (بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق) خلاف معكم
 (فسيكفيكم الله) يا محمد شقاقهم (وهو السميع) لأقوالهم (العليم) بأفعالهم ، وقد كفاه إياهم فقتل قريظة
 ونفى النصير ، وضرب الجزية ، هذه حجة الاسلام الباهرة ، وسيفه القاطع ، ونوره الساطع ، فنحن نؤمن
 بالمرسلين والنبيين ، ولا نكذب ماورث عنهم من حكمة ، وما أوتوا من علم ، لا نفرق بين رسول ورسول ،
 ولا بين نبي ونبي ، نحن نأخذ الحكمة أين وجدناها ، ونعظم سائر النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ،
 عقولنا ميزان تزن ما ورد بالقسط ، ونبين بالحق ، كما في آية : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون
 أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » اذا آن أن ينبليج صبح ذلك اليوم المنشود ويعلم
 المسلم ما في هذه الآية ويكونون أرقى الأمم ، والآن هم في غطاء عن الذكر ، وقلوبهم في أكنة إلا من رحم
 ربك ، فمثل هذه الآيات لا تلج القلوب ولا تدخل الآذان ، هذا وقد أكد هذه الحكمة بما يقويها ، وزكاهما
 بما يدعمها ويسميها ، وهو قوله عز وجل :

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ * قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ
 رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ *

الايضاح

أى صبغنا الله صبغته ، وهى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهدانا الله هدايته ، ولا صبغة أحسن من صبغته الظاهرة الأثر فىنا ظهور الصبغ على المصبوغ (ونحن له عابدون) تعريض لهم بأنهم مشركون ، وروى أن أهل الكتاب قالوا : الأنبياء كلهم منا فلو كنت نبيا لكنت منا ، فنزل مامعناه : قل أجدلوننا فى شأن الله فالنبوة إما اختصاص من الله فهو ربنا وربكم ، فكما يختص منكم من يشاء يختص منا من يشاء ، وإن كان ذلك بالأعمال فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن مخلصون له فى الإيمان والطاعة ، صبغ النصرانى بماء المعمودية الذى اتصل بما غمس فيه المسيح عليه السلام ، فذلك حجر للنفس عن السلام العام ، والدين الحق أن يرجع الناس للسلام العام بالدخول فى الاسلام ، ويصبغوا بصبغة الاسلام ، لا يتقيدون بالقيود الموهومة « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » ليس أمام المسلم إلا ربه وعمله « وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم » والناجون المفلحون هم المخلصون « ونحن له مخلصون »

(الزمردة التاسعة)

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

ايضاح

أى بل أتقولون ، وقوله (أأنتم أعلم أم الله) أى الله أعلم ، وقد برأ ابراهيم من اليهودية والنصرانية بقوله « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا » ولأحد أظلم ممن أخفى شهادة عنده كائنة من الله وأولئك هم اليهود ، كتموا شهادة الله لابراهيم بالحنيفية ، وقوله (وما الله بغافل عما تعملون) تهديد لهم وتحذير ، وتكرار هذا ليعلم اليهود وجيع العالم الاسلامى أن الاحتجاج بالآباء أو الافتخار بهم ضرب من الجهالة وباب العمية ، فليس من حق اليهود الاحتجاج بالتاريخ الذى زوروه ولو كان حقا لم يفدهم فلكل امرئ ما كسب وعليه ما اكتسب وكل امرئ عن عمله مسئول ، وملخص ذلك أن يقال : ليس ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا وانما دينه مطلق من القيود خال من السيئات أبيض ناصع على أنه لا عبرة بالمجد القديم ، والفضل الموروث إلا إنما المجد كل المجد أن يعمل الانسان بنفسه (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون)

الزمردة العاشرة

القبلة ومناسك الحج كالصفا والمروة التى كانت مناسك ابراهيم لتقتفى الناس أثره فى أعماله الظاهرة وآدابه الباطنة ونظرة العام فى السموات والأرض وهو قوله تعالى

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ

وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا
إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ * قَدْ
رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَنْ أُتِيَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ
مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَنْ تُتَّبَعَ
أَهْوَاءُهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ
أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ
فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *
وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ
وَلَا تَمْنَحْنِي عَلَىكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو
عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ * فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْوَاتٌ بَلْ أَحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ
وَتَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ
قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُهْتَدُونَ * إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ *

التفسير اللفظي

لما كان الشعور بالمكروه قبل حصوله كالمرض يتقدم الموت يطمئن به القلب ، ويسهل المكروه قال الله تعالى (سيقول) الجاهل من اليهود والمشركين : أى شئ صرف النبي ﷺ والمؤمنين (عن) استقبال (قبلتهم) التي كانوا عليها) وهو بيت المقدس (قل) يا محمد (لله) الجهات كلها مشرقها ومغربها وما بينهما : فأى اعتراض عليه أن يأمر بالتوجه الى أى جهة شاء (يهدى من يشاء) هدايته (الى طريق مستقيم) أى دين الاسلام ، ومنه أتم ، وانا كما هديناكم الى هذا الدين (جعلناكم) يا أمة محمد (أمة وسطا) خيارا عدولا (لتكونوا شهداء على الناس) فى الدنيا والآخرة وسيأتى توضيحه كما سبق بعض ذلك (ويكون الرسول عليكم شهيدا) أنه بلغكم ، وما صيرنا القبلة لك الآن الجهة (التي كنت عليها) من قبل وهى الكعبة اذ كنت تصلى اليها فلما كانت الهجرة أمرناك باستقبال بيت المقدس تألفا لليهود (الانعلم) علم ظهور (من يتبع الرسول) فيصدقه (ممن ينقلب على عقبيه) راجعا الى الكفر شكافى الدين فيظن من فى قلبه مرض أن الرسول متحير فى أمره متردد فى فعله ، ولقد ارتد جماعة لذلك (وان كانت) أى التولية (الكبيرة) لشاقة على الناس (إلا على الذين هدى الله) منهم . ولما قال حى بن أخطب من عظماء اليهود للمؤمنين ان استقبالكم لبيت المقدس لا يخلو إما أن يكون هدى ، فقد انتقلتم الآن الى الضلال ، وإما أن يكون ضلالا فلم أقرم عليه ؟ ثم ان من مات قبل التحويل مات على الضلال وضاعت أعماله . شق ذلك على أقارب من ماتوا قبل التحويل فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) وهو صلاتكم الى بيت المقدس (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) أما بالمؤمنين فى أنه لم يضيع صلاتهم الى بيت المقدس ، وأما بالرسول فانه أجاب دعاءه وأعطاه طلبته ، اذ كان وهو يصلى الى جهة بيت المقدس يشتم من اليهود الكره وكانوا يقولون ان محمدا يفارق ديننا ويصلى لقبلتنا ، وكان ﷺ يحب أن يصلى للكعبة حتى نزل عليه جبريل يوما فقال يا جبريل أود أن الله يحولنى لقبلة أبى ابراهيم فسل ربك ذلك ، فقال أنت أكرم على الله منى ثم صعد الى السماء فصار رسول الله ﷺ ينظر لجهتها منتظرا للأذن فى ذلك فنزل عليه جبريل بعد ركعتين من صلاة الظهر فى رجب بالأمر بالتحويل للكعبة فتحوّل وتحول الناس معه ، وكان يوما مشهودا فافتتن اليهود وأهل النفاق ، ونزل قوله تعالى (قد نرى قلب وجهك) الآية : أى قد نرى تصرف وجهك (فى) جهة (السماء) متطلعا الى الوحى ومتشوقا للأذن باستقبال الكعبة لأنها قبلة أبىك ابراهيم ولأن العرب يألّفونها فيسلمون (فلنولينك قبلة) تحبها فاستقبل فى الصلاة نحو (المسجد الحرام) أتم أيها المؤمنون (حيثما كنتم فولوا وجوهكم) فى الصلاة (شطره وان الذين أوتوا الكتاب) وهم اليهود (ليعلمون) أن التولى للكعبة (الحق) الثابت (من ربهم) فان ذلك جام فى نعت النبي أنه يتحوّل اليها (وما الله بغافل عما يعملون) أى اليهود من انكار أمر القبلة (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية) على صدقك فى أمر القبلة ما يتبعون قبلك عنادا منهم لك (وما أنت بتابع قبلتهم) اطمعهم فى اسلامهم ولطمعهم أن يكون هو صاحبهم الذى كانوا ينتظرونه مؤيدا لهم وما اليهود بتابعين قبلة النصارى ، وهى مطلع الشمس التى ابتدعها لهم بولس القسيس . أنه بعد رفع عيسى قال لقيت عيسى عليه السلام فقال لى ان الشمس كوكب أحبه يبلغ سلامى فى كل يوم فرقمى ليتوجهوا اليها فى صلاتهم ففعلوا ذلك

وما النصرى بتابعين قبلة اليهود وهو بيت المقدس (ولئن اتبعت) يا محمد (أهواءهم) التي يدعونك إليها (من بعد ما جاءك) من الوحي الآتية (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه) محمدا (كما يعرفون أبناءهم) كعبد الله بن سلام إذ قال لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ، ومعرفتي بمحمد أشد : فان الابن مظلون النسب : أما محمد فعرفته عن الله في الكتاب (وان فريقا منهم ليكتمون الحق) نعت محمد (وهم يعامون) ومعنى الممتريين الشاكين (ولكل) فريق من الناس قبلة (هو موليا) وجهه في صلاته . فبادروا الى الطاعات (أنما تكونوا) يجمعكم الله يوم القيامة (ومن حيث خرجت) لسفر الآتية ، وقوله (لئلا يكون للناس) أى اليهود أو المشركين مجادلة في التولى الى غير الكعبة : أى لينتفى قول اليهود بمحمد ديننا ويتبع قبلتنا ، وقول العرب : أى المشركين منهم يدعى ملة ابراهيم ويخالف قبلته (الا الذين ظلموا منهم) لأنهم يقولون ماتحوّل اليها الا ميلامنه الى دين آبائه فلا تخافوا جداهم (واخشوني) بامثال أمرى ، وعطف على قوله لئلا يكون قوله (ولأنتم نعمتي عليكم) بالهداية الى معالم دينكم (ولعلمكم تهتدون) الى الحق إتماما كاتمامها بارسالنا (فيكم رسولا منكم) وهو محمد ، وقوله (يزكيكم) يطهركم (ويعلمكم الكتاب) القرآن (والحكمة) مافيه من الأحكام (فأذكروني) بالطاعة كالصلاة والتسبيح (أذكركم) بالثواب ، وفي الحديث عن الله « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه » ، وفي الحديث أيضا « ان الله إذا أحب عبدا نادى جبريل فقال له يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل : ثم ينادى في السماء : ان الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء : ثم يوضع له القبول في الأرض » ثم قال تعالى (واشكروا لي) نعمتي بالطاعة (ولا تكفرون) بالمعصية (بأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر) عن المعاصي وحفظ النفس (والصلاة) إما أن تكون الدعاء ، وإما أن تكون الصلاة المعروفة (ان الله مع الصابرين) بالنصر وإجابة الدعاء .

ثبت بالتجربة التي قرأتها في بعض الكتب واختبرتها أنا ان المتوجه لله بالدعاء مع الثقة بالاجابة واقناع القلب الدائم أن مطلوبه سيتم مع المواظبة في ذلك لا بد من الاجابة لدعائه (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله) هم (أموات بل) هم (أحياء ولكن لا تشعرون) وحياتهم ليست جسمية من جنس حياة الحيوان ، والآية نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر ، وهذا دليل على أن ما قاله الفلاسفة من أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها باقية بعد الموت حق وصدق ، وهنا اتفق الشرع والعقل ، وسيأتى في هذا المقام تفصيل أوسع من هذا (ولنبأونكم) ولنصيبنكم إصابة المختبر لأحوالكم هل تصبرون على البلاء وتستسامون للقضاء (بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات) والخوف امان من الأعداء بالاغارة والايذاء أو من الله ، والجوع بالقحط أو الصيام في رمضان ، والنقص من الأموال اما بالجوائح والمهلكات واما بالزكاة والصدقات ، ونقص النفس بالأمراض والقتل والموت ، والثمرات بالآفات العارضة ، وانما فعلنا ذلك لننظر أتعصرون (وبشر الصابرين) على البلاء بالجنة (الذين اذا أصابتهم مصيبة) وبلاء (قالوا ان الله) ملكا وخالقا وعبيدا يفعل بنا ما يشاء (وانا اليه راجعون) في الآخرة فيجازينا ، والاسترجاع باللسان وبالقلب بحيث يتصور ما خلق لأجله وانه راجع الى ربه ويتذكر نعم الله عليه فيهن على نفسه ويستسلم له وفي الحديث « من استرجع عند المصيبة آجره الله فيها وأخلف عليه خيرا » وفي الحديث أيضا « ان مصباح النبي ﷺ طفيء فاسترجع فقالت عائشة انما هو مصباح فقال كل ماساء المؤمن فهو مصيبة » (أولئك عليهم صلوات من ربهم) أى تزكية ومغفرة (ورجة) أى لطف واحسان (وأولئك هم المهتدون) للحق انتهى التفسير اللفظي

ايضاح وكشف

ههنا استقام الأمر ، واستوثقت الحجة ، وقام البرهان ، ووضح الدليل ان الدين الحق هو الحنيف الخالص من الكهانة والمعمودية وغيرها ، ولا سبيل لذلك إلا برجوع الناس لدين الخليل ، ومن آدابه الظاهرة أن يؤموا في الصلاة الكعبة التي بناها ، والقبة التي اصطفاها ، والأمة التي تتبع قبلته ، وتؤم طريقته ، وتسلك سبيل ملته ، من النظر في السموات ، والتغلغل في الطبيعيات والكيماويات ، والتأني عن الأوهام كالأصنام ، والصبر على ما به تعالوا لهم ، وتسموا الأمم ، لاجرم تكون وسطا وعدولا ، ورجاها خيارا ، وهداتها مزيكين بالعلم العالى والعمل الشريف ، والفضل المنيف ، إذ يعامون أن الله ما خلق الخلق سدى : « وان من أمة إلا خلا فيها نذير . بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » فيشهدون على الأمم جميعا من خلا قبلهم ، ومن سيلحق بهم بعدهم ، ومن هم لهم معاصرون . ذلك شأنهم في الآخرة . ان أمة محمد يشهدون على الأمم أن أنبياءهم بلغوهم فيؤتى بالنبي صلى الله عليه وسلم فيشهد أن أمته عدل . ذلك حالهم في الآخرة . لاجرم أن الآخرة ثمرة الدنيا . فعلى المسلمين اليوم أن يسموا إلى مرتبتهم . ويقوموا بما وجب عليهم فلقد صدقوا كل رسول ونبي . المسلمون اليوم وسط بين المشارق . والمغرب وسط بين الغرب والشرق الأقصى وأمريكا . المسلمون أمة بين المسيح وبوذا ، جعلهم الله بين الأمتين الغربية والشرقية ، انهم يؤمنون بما أنزل الله على الأنبياء ، ومنهم من قصص على نبيه ومنهم من لم يقص . وكأنهم أولى الأمم وأجدر الناس بالتغلغل في العلوم . والترقى في المعارف . يدعوهم دينهم وملة أبيهم ابراهيم لعلم كل شيء . والنظر في دين كل أمة « لانفرق بين أحد من رسله » فركزهم إنما هو الاشراف على العالمين . والنظر نظرة عامة للناس في الدارين . فالعدل خير بأحوال من شهد عليه وعلى الشاهد أن يؤدى الشهادة عن عيان . ولئن قام بالأمر آباؤنا السابقون . وأسلافنا المؤمنون . فهل ورثنا مجدهم . وصرنا عدولا مثلهم ؟ أنا أشك في قضيتنا ، واسأل العلم والحكمة لأمتنا ، حتى تنال صفة العدالة وترث أن تكون شاهدة عن عيان ووجدان . فليكن من المسلمين اليوم سياح وعلماء . وليقرءوا علوم المغرب والمشرق . ويجتدوا في الصناعات . وبناء السفن الماخزات . حتى يجوسوا خلال البلاد . هذا مقتضى وصفهم بالعدالة . ولئن أعرض المسلمون اليوم عما رسمناه . واتكوا على ماسمعناه . أصبحوا كأمة اليهود بشروا بأنى فضلتكم على العالمين . فلما أن أعرضوا قيل لهم : « كونوا قردة خاسئين » فلا يظن المسلمون أن الأمر فوضى وأن المسلمين ينالون تلك العدالة والشرف بلا ثمن ولا عمل . كلا . فان لم يقوموا بالعلم مجدين . وللعمل شاكرين . قلب الدهر لهم ظهر المجن . وأبدل بجنتهم العرفانية ذلة الأبد . وفقد الولد . وضياع البلد . وقلة العدد . ولقد ذكرنا قبل هذا في الآيات السابقة عند ذكر الخليل عليه السلام ما كان من اخبار الله تعالى قائلا : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وأن المسلمين غفلوا وذكر أنهم شهداء على الناس يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر .

بشرى للمسلمين

ما كنت وأنا أكتب ما تقدم . وأنا مهتم بالأمم الاسلامية . لائى لأهل العصر الحاضر على التواني والكسل أظن أن فيهم من نبذوا الانزواء . وظهروا في الميدان . وعرفوا قيمة أنفسهم . أفلا أعجب من حكمة الله عز وجل أكتب هذا القول وأنا آسف على الأمة اذ الخبر السار الوارد في الجرائد عن أهالى طرابلس وبرقة ينادون بالأمر محمد ادريس المهدي السنوسى أميرا على القطرين . وهذا نص ما كتبوه إلى سمو مولانا الأمير الخليل السيد محمد ادريس حفظه الله ورعاه :

« تحية تليق بالمقام الرفيع ، والجناب الأسنى المنيع ، وبعد فانه غير خاف على سموكم أن الخلاف لم يزل قائما بيننا وبين الحكومة الإيطالية ، ذلك لأنها وجهت عزمها الى العبث بجميع حقوقنا شرعيها وسلمها واداريها ، وجعلت من قوتها مبررا للتصرف في مصيرنا وحقوقنا الطبيعية [ونحن خيرأمة أخرجت للناس] لاتتحمل ضميا ، ولا نرضى أن تضمحل شريعتنا ، ولا أن يتطرق الخلل إلى ديننا القويم الخ » انتهى المقصود منه قرأت هذا اليوم وأنا أعجب سرورا وابتهاجا ، إذ أكتب هذا القول ومداده لم يجف ، وأرى أن هذه الأمة اليقظة الشريفة النبيلة المضيفة العريضة المجد الكريمة المحتد قد أخذت تضيء ويهرسناها وتشرق على العالمين .

يا أيها العقلاء : ان هناك نورا أشرق من السماء وتقبله كثير من العقول السليمة في ديار الاسلام ، واذا أراد الله أمرا هيا أسبابه ، تلك كهرباء سرت في قلوب استعدت للحكمة في مشارق الاسلام ومغاربها ، ان توافق الخواطر يبشر بالنجاح ، سيرجع المسامون لمجدهم ويكونون رجة للعالمين « ولتعلن نبأه بعد حين »

اني لما ألفت « التاج المرصع » منذ نحو ١٨ سنة كنت أقول في نفسي : « ستنبغ في الاسلام دول قبل ثلاثين سنة » أما في هذا الكتاب فاني أرى نور الله قد أشرق على القلوب ، وتواردت الخواطر « ولينصرت الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » وما كنت لأظن أن يقول أحد هذه الآية « كنتم خيرأمة أخرجت للناس » مستشهدا بها على الاستقلال السياسي . هذه نزعة شريفة تبشر بالنجاح والفلاح . وهذا وحده منشأ عجي وسروري . انتهى

إيضاح الكلام في أمر القبلة

ههنا بسط الله المقال في أمر القبلة ، ولما تشوّف النبي صلى الله عليه وسلم لقبلة ترضيه ، وكانت الأمم تمتاز بقبلتها ، واحتج العرب واليهود على استقبال بيت المقدس وعابوا المسلمين والنبي ﷺ في استقباله كرر الأمر بالتولي ثلاث مرات لكل من الأسباب واحدة مقرونة بقوله « قد نرى قلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها » والثانية مقرونة بقوله « ولكل وجهة هو موليها » والثالثة بقوله « لئلا يكون للناس عليكم حجة » ثم أبان أن ذلك الرسول الموعود ، والنبي المنشود ، الذي دعا به ابراهيم انما هو محمد صلى الله عليه وسلم بقوله « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا » وههنا أخذ يعطى ملخص دين الاسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأصوله الشريفة التي هي النقية البيضاء ، وهذه الاصول توافق دين ابراهيم الخليل وهو الدين العام فقال « فاذكروني أذكركم » . يقول : ها أنا ذا ذكركم بارسال محمد الذي وعدت على لسان ابراهيم ، فكما ذكركم بذلك فاذكروني أذكركم ، وههنا أخذ يعدد تلك الاصول المرضية ، والحكم الشرعية ، فكان حاصلها يرجع الى علم وعمل وأخلاق نفسية ، فالعلم « والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار » الآية وهي تقابل ما جاء في سورة الأنعام من نظرات ابراهيم الخليل للعلايات والزهرة والقمر والشمس واستخراج الحكمة البالغة منها وهو التوحيد ، والعمل أشار له بالأمر بالصلاة وبالسعي بين الصفا والمروة لأنهما من شعائر الله اتباعا لدين الخليل إذ كان يحجّ ويصلى ، وهذه الأما كن مصلاة ومناسكة ، وللاخلاق أشار بالصبر على البلاء والحنّة بالولد ، إذ أمر بذبحه ، وذاق الأمرين ، إذ ألقى في النار وابتليت هاجر بنقص الثمرات والجوع فلم يكن للمسلم بدّ من التغلغل في العلوم الشريفة من علويات وسفليات ومن امتطاء غارب الجدّ في فهم الكيمياء التي أشار لها تقطيعه للطير وتحليله لأجزائها فيما يمرّ عليك في هذه السورة ، وإيكن المسلم مخلصا لله فلا يرهب الموت في سبيل الله ولا يتحاشى نكبة فراق الوطن العزيز اذا سيم خسفا وأرغم على الذلة ، فالصابرون لهم البشري في الدارين ، حياة المؤمن الحنيفي بين أعمّة يشكرها وتقمّة

يصبر لها ، والشكر يشمل ترقية العقول بالعلوم والنظر ، والعلم والعمل ، والصبر في الأخلاق ، كالملاح في الطعام فيه الشجاعة في الجهاد ، والعفة للفقراء ، والقناعة للأغنياء ، وسكون النفس ، وثبات الجأش . الصبر إيمان صرغوب ، أو على مكروه ، أو في عمل ونصب ، ولأن أول نقص الثمرات والأموال والجوع ، ولثاني هلاك النفس ، ولثالث الصلاة والنظر في السموات والأرض والعلوم والحكمة .

الكلام على قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون »

وما مناسبتها لما قبلها وما بعدها ، وإيضاح هذا الموضوع الذي ذكرت فيه هذه الآية

اعلم أن الإنسان في هذه الحياة خلق محبا لأن يعلو إلى أقصى مقام من السعادة والشرف والراحة ، وأعظم السعادة أن يكون الحي من شابا لا يهرم ، وغنيا لا يفتقر ، وصحيحا لا يمرض ، وحيا لا يموت ، وجيلا لا يقبح ، وهذه مركوزة في جبلة كل حي من بني آدم وإن لم ينطقوا بها ، وقد خلقنا في الأرض وليس فيها ذلك ، فنحن عرضة للأرض والفقر والموت ، ونقص المال والأنفس والثمرات ، وموت الأولاد ، وفقد الأحباب ، وكل ذلك محن وبلايا ، ونحن إذا احتملنا فكالحياة يموت ولده فيهلك خزنا عليه حتى إذا طال الأمد نسي الوالد الولد فذكرنا الله بهذه الآيات وقال : « وبشر الصابرين » الذين يذكرون في أمر الدنيا ويعامون أن الله هو المعطي وهو الآخذ . هذا هو ظاهر القول ولكن سره الذي عرفه حكماء الإسلام وإن كان ما خفي عليهم أعظم أن الإنسان يتحمل هذه المصائب ويتواليا عليها تقوى نفسه وترتفع وإن لم تشعر بذلك ، ومن لم تصبه المصائب يكون أشبه بالذهب الذي لم تهذب به النار ، ولم تصغه حليا ولا دينارا ، بل هو تبر في التراب مدفون ، وعن الأنظار مكنون ، أما الرجل الذي أدبه الدهرفانه تقوى عزيمته ، ويتخذ من الحوادث درعا تقيه العاديات ومجنا يقيه الكارثات ، ويرتقى إلى ما استعد له من الدرجات ، وكلما كان الاحتمال أكثر كانت الروح أعلى وأشرف .

واعلم أن هذا التقرير الذي ذكرته لك ملخص كتب قرأتها عن اليونانيين والاوروبيين وأسلافنا ، والله أنى لأعجب للقرآن كيف يأتي بتلك الثمرات الناضجة بحيث يتسنى للعامة أن يفهموها ، وللعلماء أن يبحثوها ، يقول الله « وبشر الصابرين » وهذا هو الذي يحث عليه علماء الخافقين قبل نزول الانجيل فضلا عن القرآن وقال أكابر الحكماء : « السعادة منوطة بالمصائب وتحملها » . وقال أرسطاطاليس في كتابه الذي أرسله إلى الاسكندر مامعناه : « أن الناس يتحملون المصائب ولكنهم لا يحتملون النعم ، أن النعم ثقيلة على الناس تتعبهم » ثم أوضح ذلك فقال : « إذا رأيت أمة أغدقت عليها النعم ، وجانبها النصب والتعب ، وأبطرها الرخاء ، فلتعلم أن ساعتها قد اقتربت وأجلها قد أوشك أن ينتهي ، فأما تلك الأمة التي أصابها الجهد بسبب الحرب ومقارعة الأبطال في الميدان ومحاربة عدوها الغادر الفاتك فانها تنشط من عقابها ، وتستعد لسعادتها ، وتبني مجدها ، ومادامت عاملة ناصبة فإن اتسع لها العيش واستراح بالها جرعته الراحة كأس العذاب ، وذوقت من الذلة أنواعا ، ومن الهموم أوفى نصيب . وأنت ترى أن الذين ناصبهم دهرهم العداء في أول حياتهم هم الذين قارعوا الأمم ببأسهم ورفعوا أممهم ، والأمثال على ذلك كثيرة يعرفها كل ذي عقل وفكر منبهر » ثم تعجب كيف ذكر آية الذين قتلوا في سبيل الله وأنهم ليسوا أمواتا بل أحياء في غضون الكلام على الصبر على المكروه ، والابتلاء بالجوع والنقص في الأموال والأنفس والثمرات ، فما الحكمة في ذلك ؟ وإذا قلنا أن أمر القبلة إنما هو لتصحيح عبادة وهي الصلاة ، وأن الصلاة وماعها من أركان الإسلام يقصد بها تهذيب النفس ، وأن الصبر والابتلاء بالجوع وماعه مقويات للنفس فوق العبادات ، فأى مناسبة لذكر أن الأموات أحياء ؟ .

أقول : اعلم أن هذه الآية ذكرت هنا لأمرين : الأول أن يتعزى المؤمن ، وهو في حال الشقاء ، والنصب

والبلاء ، والمصيبة ، ويقول أنا الآن وان كنت في بؤس ، ونقص في الأموال والنفس ، وفي المصائب ، فان يوم الموت يكون سعادتي ، ويكون حظي موفورا فلا أحتاج للمال ، ولا يفارقني الولد ، ولا يفاجئني العدو وأكون بعيدا عن المصائب والبلايا ، وهو يوم سعادتي ، والثاني : ان هذه المصائب أشبه بالأجنحة تطير بها الروح في عالم السعادة في الدنيا والآخرة كما سأذكره في لغز قابس ، فلماذا ذكر الروح حاطوها بما يقويها من جانبها كالطائر يطير بجناحيه ، فتأمل في هذا الكلام كله تجده مخالفا للألوف عند العامة ، فبينما العامة يقولون ان الرخاء سعادة ، يقول الحكماء والكتاب السماوي كاد فالبشرى للصابرين على المصائب ، وبينما الناس يقولون ان الموت مصيبة يقول الحكماء كاد فالموت خلاص من أسرار الطبيعة وذل المادة ، ويقول القرآن : بل أحياء عند ربهم ، ويقول في آية أخرى « فرحين بما آتاهم الله من فضله » الآية ، ولعلك تقول وهل في هذه السورة من دليل أو شبه دليل يرجع إليه العقل عند ارادة التحقيق بالحكمة والبرهان العقلي ؟ أقول : اعلم أنه قد كنز الله لذلك في هذه السورة كنزين عظيمين خبأهما عن الجاهل ، وأراهما للعلماء هذان الكنزان متى كشف غطاؤهما أبصرت البرهان فيهما ، هذان الكنزان يكتنفان هذه الآية من بعد كما خبا الله الكهرباء ، وأسرار العناصر الأرضية ، والتنويم المغناطيسي ، حتى جاء أجلها فبرزها للناس هكذا هنا في هذه السورة أودع كنزين أسر الروح ، وقد أراد في هذا الزمان إبرازهما ، والكشف عن حقيقةهما ليرتقي المسامون في أنواع العلوم الشريفة .

ماههما الكنزان

أما أحد هذين الكنزين فهو في أوائل السورة في قصة البقرة ، وقوله هناك « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى » ، وقد قدمت هناك في تفسير الآية ملخص علم استحضر الأرواح فلا أعيد ذكره ولذلك قال عقبها « ويرىكم آياته » أي ان هذا العلم سيظهره الله للناس متى جاء وقته والافلماذا يقول : ويرىكم آياته عقب احياء الموتى ، ثم يقول لعلكم تعقلون : أي تدركون ان الأرواح حية بالمعينة التي تعرف عقولكم بها حقيقة أن الأرواح حية ، وأما الكنز الثاني فهو ماسياتي قبل آخر السورة ، وهي مسألة العزيز وحجاره ، وأنه قال الله له وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس الخ ، ومسألة الخليل إذ « قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » ثم أمره أن يبحث ويبحث في تشریح الطيور وتقطيعها وخلط لحها بدمها ، وذلك أشبه بالتحليل والتركيب الكيماويين الدالين على نظام هذه المركبات وأنها مبدعة متقنة ، وفي ذلك من العجائب والبدائع ما يحير الناظر حتى يقتنع بأن الذي أبدع هذه الصور ، وهي منظمة لا يخلق هذه الأرواح سدى فيخلقها ثم يفنيها إلى الأبد ، فذلك وان لم يكن وسيلة في عمل الخليل إلى رجوع الأرواح إلى أجسادها ، ثم حيت الطيور فان تلك الوسيلة التحليلية من الدلائل الاقناعية وان لم تكن يقينية .

ولعلك تقول هذان ليسا كنزين ، لأن الناس جميعا يقرءونهما ومعناهما ظاهر ، أقول على رسلك وهل يدور في خلد أكثر الناس أن الآية الأولى ، وهي التي في قصة القتل والبقرة ذكرت كالدليل العقلي على أن الأرواح أحياء ، كلا وإني ما هي من الأمور السمعية المروية عن بني إسرائيل ، وهذه لا يعرفها العقل ألبتة ، فلما انتشر خبر استحضر الأرواح في العالم المحيط بنا قلنا هذه تشير إلى الدلائل العقلية ، لأن الاستحضار في العالم الانساني منتشر بطرق غير ما جاء في القرآن فلننظر في ذلك ، وهكذا من ذا الذي يدور بخلده من المتوسطين ، أن مسألة الخليل وتقطيعه للطير كالدلائل الاقناعية على علم بقاء الأرواح باعتبار أن هذه الصور المتقنة لا يتصور العقل أن تخلق عبثا فلا بد من بقائها والآيتان متباعدتان عن آيتنا إحداهما قبلها والأخرى بعدها مع البعد

الشاسع حتى لا يفتن لهما الامن هداهم الله ، فثبت أنهما كنزان لمن يعقلون ، واعلم أن هذه الآيات المسكوبات من أسطر تعد على الأصابع لا يعرف قدرها الاقليل .

وأقول : ان القرآن لن يعرف قدره الا أحد رجلين رجل اطلع على كتب أ كابر الحكماء ، ورجل صفت سريره ، فأدرك الحقيقة ناصعة نقية ، والدليل على ذلك أن هذه الآية احتوت على ما أطال به قابس اليوناني في لغزه مع أن الآية أسهل لفظا ، وأقرب متناولا ، يدركها الخاص والعام .

لغز قابس وهى فيلسوف يوناني عاش قبل الميلاد بمئتين سنة

[محصل اللغز] : أن هذا الفيلسوف صور صوراً ترمز الى ما يعانىه الآدميون من الآلام والآمال ، فيها امرأة بكاء خرساء صماء رعاء جاهلة جالسة على حجر مربع ، وحولها قوم تأخذ من هذا ، وتعطى ذلك بلا عقل ولا روية فيفرح الآخذ ويحزن المعطى ، ومنها نساء جيلات حاليات بهيات ، قد حظى بهن أناس من أولئك الذين أخذوا من تلك الرعاء على سبيل المصادفة ، ومنها نساء باقيات خزينات لابسات ثيابا باليات ينتفن شعورهن ، ويلطمن خدودهن ، وقد نحلت الأبدان ، وتغيرت الألوان ، وحالت الأحوال ، ومنها نساء غير جيلات ، ولا عابسات يشرن إلى طريق فى الجبل ليهدين الناس إلى ارتقائه ، ومنها أناس قليلون طالعون هذا الجبل ، وقوم آخرون لم يقدرُوا على العروج إليه فرجعوا خائبين ، فأما المرأة البكاء ، فقال إنها الحظ فانه يكون للناس بلا قانون ، ولا قاعدة ، والحظوظ هى الأموال ، والولد ، والجاه ، والصحة ، والأصحاب ، والقدرة فكل ذلك يأتى ويذهب ، فمن حاز فرح ، ومن حرم من ذلك حزن ، وأما النساء الجيلات فانها تماثيل للذات والشهوات التى يتلبس بها من أعطته تلك الحقاء حظاً مما سلبته من غيره ، وأما النساء البائسات فانهن تمثيل لأولئك الذين أضاعوا المال والصحة فى نيل أوطارهم ، ثم أصابهم الفقر ، أو المرض ، أو النذل فانهم يندمون ويحزنون ، ثم يصيرون دجالين كذابين ، فهذه صورة ندمهم على أيام قدرتهم ، وأما النساء اللاتى يشرن إلى طريق فى الجبل فانه سماهن الأدب المزور : أى ان النساء تمثيل له ، والأدب المزور هو جميع العلوم التى يقرؤها الناس فى المدارس من فلك وطبيعة وأدب وشعر . قال : لأن أهل العلم لم يزيدوا عن أرباب المال شيئاً ، وإنما العلم نوع من الثروة قال بدليل أنا نرى الشعراء ، وعلماء الفلك ، وعلماء الأدب واللغة وأمثالهم يكذبون ويغشون ويعشون فى الأرض فساداً فلنسمه الأدب المزور ، فإذا عمل العلماء بما علموا وصبروا فى هذه الدنيا على ما أصيبوا أصبحوا أحراراً ، وهذا هو المقصود من السعادة ، وأما الإشارة إلى طريق الجبل فان قليلاً من أهل العلم من يعمل بما علم ، والمراد مما ذكرنا أن الصبر والتحمل والاستهانة بالمصائب هى التى تسعد المرء فى الدنيا فمن كملت نفسه ارتقى الجبل ، ولبس تاج السعادة ، ومن سئم العمل والمشقة رجع من نصف الطريق التى سلكها بإشارة أولئك اللاتى هدينه إليها فصار التحمل والصبر سبيل السعادة ، وقد يدركها الجاهل ويحرم منها العالم ، أما الصحة والمال والجمال وأمثالها ، فانها كالليل والنهار ، والشتاء والصيف تأتى على البر والفاجر ، والسعادة ما قرّناه ، فانظر كيف أغنى الله المسلمين عن ذلك بهذه الآيات ، وجعل تلك السعادة قوله « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » فتعجب من العلم فى القرآن انتهى .

هذا تحقيق فى شأن الصفا والمروة

الصفا والمروة جبلان بمكة عليهما صنمان ، فعلى الصفا اساف ، وعلى المروة نائلة ، وكانا يعبدان فى الجاهلية فتحرّج المسلمون أن يسعوا بينهما وتجاوزهما الأنصار من قبل ذلك ، فلقد كانوا يهلون لمناة التى تجاه قديد

وهو موضع في منازل طريق مكة ، ومناة كانت للأَنْصار ، والصفاء والمروة كانا لأهل مكة ، وكان الأنصار لا يتطوفون بالصفاء والمروة كراهة ما عبده غيرهم ، فنزلت الآية للفریقین (ان الصفاء والمروة من شعائر الله) الآية ، واجماع الأمة أن السعي مشروع في الحج والعمرة . وقال أحمد انه سنة ، وبه قال أنس وابن عباس رضي الله عنهما لقوله (فلا جناح عليه) فانه يفهم منه التخيير ، وعن أبي حنيفة أنه واجب يجبر بالسعي ، وعن مالك والشافعي أنه ركن لقوله ﷺ « اسعوا فان الله كتب عليكم السعي » .

(المقصد التاسع)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا يَبَيِّنُهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ
أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَيَدْعُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ
عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ
اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنْظَرُونَ * وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ
وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *

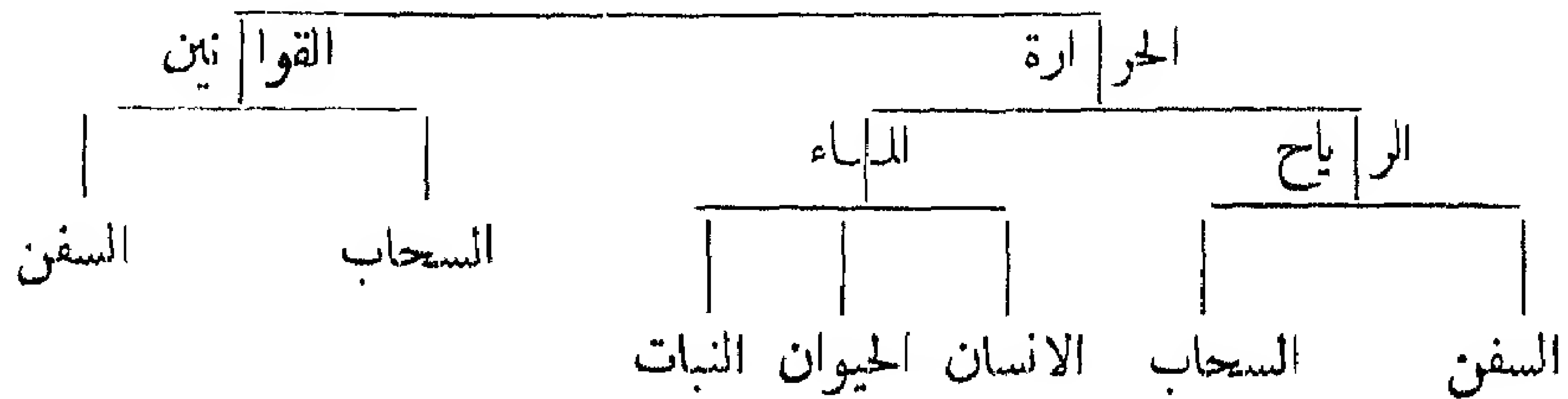
التفسير اللفظي

يقول تعالى : (إن الذين يكتُمون ما أنزلنا) كاحبار اليهود (من البينات) كآيات الدالات على أمر محمد (والهدى) ما يهدي إلى وجوب اتباعه (من بعد ما بيناه للناس) لخصناه (في الكتاب) التوراة (أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) أي من يتأتى منهم اللعن من الملائكة والنفوس (إلا الذين تابوا) عن السكتان وسائر الذنوب (وأصلحوا) ما أفسدوه بالتدارك (ويدعون) ما بينه الله في كتابهم (فأولئك أتوب عليهم) بالقبول والمغفرة (وأنا التواب الرحيم) المبالغ في قبول التوبة (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار) أي ومن لم يتب من السكتين حتى مات (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) استقر عليهم اللعن من الله ومن يعتد بلعنه من خلقه (خالدين فيها) أي في اللعنة أو النار (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) يمهلون (وإلهكم إله واحد) خطاب عام : أي المستحق منكم العبادة واحد لا شريك له يصح أن يعبد ، ويسمى إلهنا (لا إله إلا هو) تقرير للوحدانية (الرحمن الرحيم) أي المولى لجميع النعم كلها أصولها وفروعها ، ولما نزلت هذه الآية تعجب المشركون . وقالوا ان كنت صادقا فأت بآية نعرف بها صدقك فنزل (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) تعاقبهما كقوله تعالى « جعل الليل والنهار خلفه » واختلافهما بالطول والقصر والزيادة والنقصان بحيث يزيد النهار ما نقص من الليل ، وبالعكس كما ستراه ، ومن عجب أن النهار في السنة كلها والليل يتساويان : أي أن ساعات أحدهما في السنة تساوي ساعات

الآخر (والذالك) السفن ، ويطلق على الواحد والجمع (التي تجرى في البحر بما ينفع الناس) أى بالذى ينفعهم مما يحمل فيها * وقوله (وما أنزل الله من السماء من ماء) السماء هنا السحاب ، لأن كل ماء لك فأظلك فهو سماء ، ومن الأولى للابتداء ، ومن الثانية للبيان * وقوله (فأحيانا به الأرض بعد موتها) أى بالنبات * وقوله (وبث فيها من كل دابة) عطف على أنزل : كأنه استدلل بنزول المطر وتكون النبات ، وبث الحيوان فى الأرض * وقوله (وتصريف الرياح) أى فى مهامها وأحوالها (والسحاب المسخر) المذل * وقوله (بين السماء والأرض) أى فى الهواء * وقوله (لآيات لقوم يعقلون) يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون قلوبهم ، وعنه صلوات الله وسلاماته « ويل لمن قرأ هذه الآية فنج بها » أى لم يتفكر فيها .

فى هذه الآيات وجوب نشر الفضيلة والعلم . وذكر الوعيد على من كتم العلم ، فن كتمه فهو ماعون محروم مطرود من رحمة الله عز وجل ، ثم أعقبه بأجل العلوم وأشرف الحكمة ، وهو ان فى خلق السموات والأرض ، ولقد شرحنا هذه الآية فى كتاب التاج المصع ، وأبنا كيف أبانت نظام العالم العاوى والسفلى وارتباطهما وتعاشقهما ، وكيف بدأ بالفلك وثنى بعلم الطبيعة وجعلها منظمة كأنها انسان واحد وحيوان واحد ونبات واحد فترى كل كائن مستمدا من سواه ، فاختلف الليل والنهار بقرب الشمس وبعدها فى البروج الشمالية والجنوبية يدعوا الى اختلاف الحرارة والبرودة فى الأقطار المتباينة وهبوب الرياح ، فترى الأمطار تتساقط من السماء تبعاً لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين لناموس الأفلاك وسير الشمس فى البروج فتنشأ ممالك النبات والحيوان والانسان من ذلك الماء وتهب الرياح فتسير السفن كما تسير السحب ، ولكل قوانين فى سيره ، فترى السفن ان تتجاوز مارس الملاحون فى رسومهم من الخطوط البحرية ، ولن تعدو السحب طريقها المرسوم لها بالنواميس الطبيعية رحمة للناس ، وهذا جميعه مرتبط بالعالويات ، وكيف تسير السفن إلا بالقوانين البحرية المستخرجة من علم الأفلاك ومراقبة الأطوال والعروض والنجوم ، وسير الشمس ، وملاحظة الأجرام العاوية وتمغطس الابرة المتجهة الى القطبين ، أم كيف يتحرك السحاب إلا بالرياح وهى المسخرة بالحرارة المنبعثة من الأجرام العاوية فرجع الأمر كله الى أصل نجم عنه فرعان كلاهما له فروع ، الأصل اختلاف الليل والنهار بالحركات الفلكية ، والفرعان القوانين المودعة فى الأجرام العاوية والحرارة المنبعثة على الكرة الأرضية ، ومن الأول نشأ فرعان : سير السحب وسير السفن بالقوانين البحرية لأجل التجارة وتبادل المنافع بين الأمم فبأخذ الشرقى مانبت فى الغرب ويأكل الغربى مانبت فى الشرق ، ومن الثانى فرعان : إثارة الهواء والماء فحرك الهواء السحاب والسفن وتبخر الماء بالحرارة فعلا فى الجو فهبط ماء على اليابسة وكان الحيوان والنبات منه ، وهذه صورته :

الفلك



فترى هذا العالم على هذا النسق ككرة واحدة وشكلا واحدا يحتاج أدناه الى أعلاه والأعلى مفيد للأسفل والأسفل مستمد من الأعلى مستفيد منه كما ظهر فى هذا الشكل ، وإذا كان هذا شكل النظام الذى فى عالمنا فن الأقرب للعقول أن نهج النظم الأخرى على هذا النمط ، وعليه أصبح هذا العالم لدى العلماء والمفكرين كجسم واحد له روح وقلب وأعضاء متحركة وحرارة ، وهل دورة المياه والرياح المسخرات ودورات الشمس والأقمار إلا كما يدور الدم فى أجسامنا ، فإذا أبصرنا بعقولنا أدركنا العالم كإنسان واحد وحيوان واحد له رأس

وأعضاء رئيسة ومردوسة « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » ولا يعقل هذا إلا من درس من كل فن طرفاً ثم مزج العلوم وربطها ثم وازنها فهناك يدرك هذا القول ، ولا جرم أن الجسم الواحد مدبره واحد فارتباط العوالم واستمدادها يدل أن مدبرها واحد .

وتأمل كيف يقول : « وإلهكم إله واحد » الخ ثم يعقبه بهذا الشكل المنتظم من الكائنات الصائرة مزاجاً واحداً ، فهذه هوذا يقول : إلهكم واحد ، ولن تستشعروا هذه الوحدة إلا إذا قرأتم العلوم وعشتم بها وصورت في عقولكم شكلاً منظماً كما وضعناه فتدركون مزاجه وجسده ومنه تعرفون أن المدبر واحد ، ولقد رأيت علماء اليونانيين يطنطنون بأن العالم واحد ، ويرهنون ببراہین قاطعة يابسه خات من العلوم والحكمة على عاداتهم في مثل ذلك وقسموه أعراضاً وأفلا كما وجواهر ، ثم يقولون : لن يمكن في العقل وجود سوى ما رأينا ، فإذا كثرت العوالم فهي من هذه الأجزاء ، ولم أرهم يحومون حول ارتباطه الطبيعي ، ههنا دعا الله الناس للدين بالعلوم الكونية كما دعاهم أولاً بها في قوله : « يأيها الناس اعبدوا ربكم » وما بينهما كان مناضلة اليهود بالحجة وتأسيس دين الاسلام على قواعد إبراهيم ، ومن هذا نحكم كيف أصبح المسلمون أبعد الأمم عن مطالب القرآن ومقصوده .

ايضاح الكلام على قوله تعالى : وإلهكم إله واحد الخ

أما الواحدانية فقد عرفناها فيما رأيت من النظام في أحوال العالم فيما ذكرته في هذا المقام ، وأما الرحمن الرحيم ، فقد مرّ الكلام عليهما في أول الفاتحة ، وأما الكلام على السموات ، فقد تقدّم في الكلام على قوله تعالى « ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات » ، أما الكلام على الأرض .

فاعلم أن كرة الأرض طبقات ساف فوق ساف متلبدة مختلفة التراكيب والحلقة .

فمنها صخور ، وجبال صلبة ، وأحجار وجلاميد صلبة ، وحصى ملس ، ورمال جريشة ، وطين رخو وتراب لين وسبخ وشورج كل منها مختلط بالآخر أو مجاوره ، قال تعالى « وفي الأرض قطع متجاورات » ، وهذه القطع مختلفات الألوان ، والطعوم ، والروائح ، والمنافع ، ومن طينها وترابها ، وأحجارها ، وجبالها حمر وبيض وصفر ، وخضر ، وزرق اختلفت اختلاف الألوان المكوّنة للون الشمس المشرق عليها ، فقبل بعضها الحرة وبعضها الصفرة ، وهكذا كما قبل قوس قزح تلك الألوان خللها ، قال تعالى « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » ، ومن طينها وترابها ماهو عذب المذاق ومرّ الطعم ، أو مالح ، أو عفص ، أو حلو ، أو حامض ، ومنها ماهو طيب شمها ومنقن رائحتها ، ثم إن الأرض بجملتها كثيرة التخلخل ، والتجارييف والعروق ، والجداول ، والأنهار داخلها وخارجها كثيرة الأهوية والمغارات والكهوف ، وهذه مملوءة من المياه والبخارات ، وتسكون طعوم تلك المياه ، وروائحها ، وغلظها ، ولطافتها ، وثقلها ، وخفتها بحسب تربة بقاعها وطين مكانها ، ووجود قرار مستنقعاتها ، وفيها من المعادن ما يتكوّن في الطين والتراب ويتمّ نضجها في سنة أو أقلّ ، كالكبريت ، والملح ، والشب ، والزاجات وماشا كلها ، ومنها ما يتكوّن في قعر البحار ، ولا يتمّ نضجها إلا في سنة أو أكثر منها كاللتر والمرجان ، ومنها ما يتكوّن في كهوف الجبال ، وجوف الأحجار ، وخلل الرمال ولا يتمّ نضجها إلا في السنين الطوال كالذهب ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، ومنها ما لا يتكوّن إلا في آماد طويلة كالياقوت والزبرجد والعقيق وماشا كلها .

واعلم أن الناس على قسمين خاصة وعامة ، فالعامة لا يعرفون من المطالب إلا ما يحتاجون إليه من طعام وشراب ، ولباس ، ومسكن ، ودواء ، فالجوع ، والعطش ، والعري ، والمرض التي تحدث لهم تلجئهم إلى طلب تلك المطالب ، وذلك اللجوء بما جبلت عليه النفوس الحيوانية عامة من الاحساس بالآلام لفقد ما يحفظ الحياة

من غذاء ودواء وحرارة وما أشبه ذلك ، وهذه الآلام يظنها الجاهل نعمة ، وهي في الحقيقة نعمة وموهبة لسائر الحيوان لتحفظ أجسامها ويبقى كيانها ، وهذه المطالب اشترك فيها الحيوان والانسان ، وكذلك النبات ، وهناك مطالب شريفة ومنازل عالية نام عنها الحيوان والجهال وأغرم بها وعشقها الحكماء وأكابر الرجال ، ألا وهي مطالب العقول من العجائب والبدائع والنظام الجميل والجمال الابداعي ، فهذه المطالب غابت عن أبصار الجهال ، واشتاقها العلماء ، ولأضرب لك مثلاً بالأرض التي ذكرنا بعض عجائبها ، ان الجاهل لا يعبأ بها ويراهها أمراً لا قيمة له مزدرة لأنه لا يفرح إلا بالمنوع عنه ، أما المبدول له الحاضر بين يديه فانه مبتذل مكروه منبوذ ، وكلما كثرت النعم وحضرت كان الشكر عليها أقل والفرح بهامعدوما ، وكلما تباعدت المطالب ، ووعرت طرقها كان الفرح بها والشكر عليها موفورين ، فالأرض والهواء وضوء الشمس وجمال النجوم والأنوار حاضرة عند الناس ، وهي النعم العظيمة والمواهب الكبيرة ، بل السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، والعقل والبصر كلها نعم مبدولة ، ولكن أكثر الناس لا يعدونها نعمة ، ولا يفرحون بها ، ولا يشكرون إلا بما عسر ، ثم نالوه من طعام وشراب ودينار وامتياز الانسان عمن حوله بثوب ، أو ملابس ، أو صاحب ، أو حبيب ، أو سلطة عليهم الى غير ذلك ، وعلى ذلك ترى الأرض لا يلتفت اليها الجهال ولا يعدونها نعمة ، وغاب عنهم هذا الجمال البديع الذي يخرج منها ويصدر عنها ، فلك المروج ، والنباتات ، وألوانها ، وبدائعها ، وتلك المعادن واختلافها والمياه وأنواعها كلها من نعمة الله في خلق الأرض ، ولا يزال العالم يبحث في عجائب أحجارها ومعادنها ويستخرج منها مواد البناء ، ومواد الصباغة ، والمعادن ، والأحجار النفيسة حتى تشرف نفسه بالعلم ، وتتحلى بالعرفان ، فالأرض منها الغذاء ، ومن النظر إليها العلم والعرفان ، والشكر للنعم الحكيم العليم ، ولا يزال يرتقى في العلم ، حتى يعرف أنها كوكب من الكواكب جارية كما تجرى تلك الكواكب السيارة ، وإذ ذاك يعرف أن ضوء الشمس اذا أشرق عليها انعكست أشعتها على عوالم أخرى : بل ان ضوء الأرض المنعكس منها على القمر يزيد عن ضوء القمر المنعكس منه على الأرض ، نحو أربع عشرة مرة ، وتصنع الأرض مع القمر من استقبال وتربيع وتثليث ومحاق ما يفعل القمر مع الأرض ، فانظر كيف ارتقى العالم من النظر في أحجارها ورمالها وألوانها ، وأنهارها ، وبحارها ، ومعادنها ، واختلاف مزارعها الى أن أدرك أنها من السيارات ، وعرف أنها مضيئة مشرقة اشراق الكواكب ، ورأى أن غيرنا ينظر اليها ويحس ويشتاق أن يرى ذلك الضوء البديع المنعكس منها الذي عكسه الماء المحيط بها ، والحصى ، والرمال ، والجبال ، فان الأرض عبارة عن كرة أحاط بها الماء ، وما اليابسة الا ثلاثة أعشارها ، وهذه اليابسة فيها رمال وأحجار وثلج متراكم فوق الجبال ، وفي مناطق القطبين ، وكل ذلك يعكس ضوءاً لامعاً الى الكواكب الأخرى .

اتحاد المطالب الدينية والدنيوية في هذا التفسير

اعلم أن هذا الذي أذكره في تفسير القرآن قد اتحدت فيه مطالب الدين والدنيا والعقل والنقل كما اتحدت أضواء الشمس السبعة فصارت لونا واحدا فأشرقت الأرض بها ، ولقد أكثر الناس من قولهم هذا ينافي الدين ، وهذا ينافي العقل ، وذلك ناجم من قلة العلم ، ووفرة الجهل ، فمن جهل شيئاً عاداه ، فالتبحر في العلوم ينفر من الدين لجهله به ظناً انه ينافي علمه ، والعالم بالدين الجاهل بما حوله الغافل عن خلق السموات والأرض وعجائبها يظن المسكين أن من عرف هذه العجائب كان عدو الله وان الله يغضب عليه ، ومادري المسكين أن هذه السموات وهذه الأرض من خلق الله ، والله لا يحب المعرض عن التفرج على صنعه ويحب المفكرين ويقول : ان في خلق السموات والأرض إلخ . فانظر أيها الفطن كيف غفلت الأمم وعميت البصائر ، ووقع في القلوب خلاف الحقائق ونام كثير من العقلاء أحقاباً في غفلاتهم تائهين في سكراتهم كأنهم لا يشعرون ، وذلك

النظر قد جمع المطالب الدينية ، والمطالب الدنيوية فأصبح ارتقاء الأمة في دينها ودنياها وسعادتها بين الأمم ومغالبتها للفرنجية في أوروبا ولأهل اليابان والأمم الشرقية والأمريكا موقوفا على التبخر في تلك المطالب ، وهي بعينها المخرجة للحكام ، وللعلماء العارفين ، والأولياء ، وهي دين الاسلام ، فياحسرة على المسلمين ، ووا أسفا على ماضع من شباب وشيب في هذه الأمة ، وعلى أمم داستها الفرنجية وأذها الطامعون لجهالة وعاطهم وظلم ماوكمهم وغفلة عقولهم ونومهم أجمعين أكتعين أبصعين .

الكلام على اختلاف الليل والنهار

أما اختلاف الليل والنهار فانه ظاهر خفي : ظاهر للعقلاء خفي عن أنظار الغافلين ، يختلف الليل والنهار باختلاف الطول والعرض ، وذلك أن الشمس في شروقها وغروبها تأتي على الأماكن الشرقية قبل الغربية ، وهناك يكون الاختلاف العجيب ، فإذا أشرقت أو غربت على الأقطار المصرية أولا مثلا ، فانها تفعل ذلك بعدها بلاد مرا كش ، فبحر الظلمات فأمريكا ، فالأقطار الشرقية كالهند والصين وهكذا ، ولكل دائرة ٣٦٠ درجة تقسم باعتبارها وللأرض درجات طول ودرجات عرض ، فدرجات الطول هي المشرقة المغربية ، ودرجات العرض تعتبر من خط الاستواء الى القطبين ، ثم ان خط الاستواء الذي يقسم الكرة بقسمين متساويين جنوبي وشمالى تقطعه دائرة وسط فلك البروج وهي دائرة عظمى مائلة على خط الاستواء بثلاث وعشرين درجة ونصف ، وهذه الدائرة تمتد الى دائرتين متوازيتين موضوع كل منهما على البعد بثلاث وعشرين درجة ونصف عن دائرة الاستواء وتسميان المدارين ، وهناك دائرتان قطبيتان تبعدان عن القطبين بثلاث وعشرين درجة ونصف ، وبهذه الدوائر تنقسم الأرض الى جنس مناطق : منطقة شديدة الحرارة ، ومنطقتان معتدلتان ومنطقتان شديدتا البرودة ، فالحرارة هي التي بين المدارين : مدار السرطان ومدار الجدى ، وهؤلاء يسمون أرباب الظلين ، لأن الشمس تارة تكون شاملم كأولئك الذين في السودان المصرى ، فيكون ظلهم إذ ذاك جنوبيا وتارة تكون جنوبهم وراء خط الاستواء فيكون ظلهم شماليا ، والمنطقتان المعتدلتان هما ما بين الدائرة القطبية الجنوبية ومدار الجدى جنوبا وما بين دائرة القطب الشمالى وما بين دائرة السرطان شمالا ، وهؤلاء لا تكون الشمس فوق رؤوسهم ألبته ، فيسمى هؤلاء أرباب اختلاف الظل لأن أرباب المنطقة المعتدلة الشمالية يرون الشمس في الجنوب ككأهل مصر وتونس ومراكش وأهل أوروبا وأرباب المنطقة المعتدلة الجنوبية كبلاد الرأس التابعة للإنجليز وما والاها من البلدان يرون الشمس في الشمال أبدا . فأما أرباب المنطقتين القطبيتين فيسميان أرباب الظل السوار ، وحركة الشمس عندهم كدوران الرجا ، والظل في زمن صيفهم يدور حولهم .

والمهم في هذا المقام أن نبحث في اختلاف الليل والنهار . انك اذا نظرت الى حركة الشمس الظاهرية من المشرق الى المغرب ألفت ما كان صباحا عند قوم هو نفسه ظهرا وعصرا ومغربا وعشاء ونصف ليل عند أقوام آخرين . فالشمس في كل لحظة في غروب وشروق وزوال وضحي ونصف ليل ، فالיום بأأكمله موجود أبدا . وهذا يعرف بأدنى تأمل عند من درس قليلا من مبادئ علم الجغرافيا أو علم الهيئة . واذا نظرنا الى حركة الشمس السنوية بحسب الظاهر وهي تنقلها في البروج وأنها تبعد تارة وتقرب أخرى منا فانها تعطى أياما على طول السنة مختلفة باختلاف الأقطار ، فأقصر الأيام قد يكون ساعة أو أقل ، وأطول الأيام يكون نصف سنة ، وأعدل الأيام ١٢ ساعة ، فالاعتدال في الأيام عند خط الاستواء وأطول الأيام في المنطقتين القطبيتين فالليل عند هؤلاء ستة أشهر والنهار ستة أشهر (وبعبارة أخرى) السنة يوم وليلة فهي ستة أشهر مظلمة

وسنة أشهر مضيئة ، فأما الأيام فيما بين خط الاستواء وما بين الدائرتين القطبيتين فانها تختلف من ١٢ ساعة إلى ٢٤ ساعة فتكون ١٢ ساعة عند خط الاستواء و ٢٤ عند الدائرة القطبية ، ثم تأخذ الزيادة في الدائرة القطبية من ٢٤ ساعة إلى شهر فشهرين إلى ستة أشهر عند القطبين أنفسهما .

أوليس من العجب العجيب أن الشمس اذا جرت الأرض حولها تنظم حركاتها بنظام يتبعه هذه الحكم العجيبة ، فترى الصيف عند أهل الشمال كأهل مصر وأوروبا يكون شتاء عند أهل الجنوب كبلاد [الناثال] ، فترى السنة كلها في وقت واحد حاضرة الصيف والشتاء والربيع والخريف كما كان في ملاحظة الأيام فجر ومغرب وعشاء ، ثم يترتب على هذا الاختلاف في الحر والبرد من النبات والحيوان والسحب والأمطار والرياح ومن المنافع والعجائب ما تخرجه العقلاء سجداً ، وانظر : لو أن الشمس بقيت في مكان واحد لا تحرق ولم يعيش فيه حي ، وتأمل ذلك وكيف يقول الله : « قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ولأذ كركك جدولاً تعرف منه كل نهار وكل ليل من خط الاستواء الى القطبين مع ملاحظة أن أقصر وأقل مدة للنهار هي بعينها تكون ليل في ذلك المكان وكذلك في الأطول .

أقاليم يقع فيها التفاضل بنصف ساعة

عرض أرفع المتوازيات

أقاليم	ساعات	دقائق	درج	دقائق
١٧	٢٠	٣٠	٦٤	١٠
١٨	٢١	٠	٦٤	٥٠
١٩	٢١	٣٠	٦٥	٢٢
٢٠	٢٢	٠	٦٥	٤٨
٢١	٢٢	٣٠	٦٦	٧
٢٢	٢٣	٠	٦٦	٢١
٢٣	٢٣	٣٠	٦٦	٢٩
٢٤	٢٤	٠	٦٦	٣٢

أقاليم يقع فيها التفاضل بشهر

أقاليم	أشهر	درج	دقائق
١	١	٦٧	٢٣
٢	٢	٦٩	٥٠
٣	٣	٧٣	٣٩
٤	٤	٧٨	٣١
٥	٥	٨٤	٥
٦	٦	٩٠	٠

عرض أرفع المتوازيات

أقاليم	ساعات	دقائق	درج	دقائق
١	١٢	٣٠	٨	٣٤
٢	١٣	٠	١٦	٤٤
٣	١٣	٣٠	٢٤	١٢
٤	١٤	٠	٣٠	٤٨
٥	١٤	٣٠	٣٦	٣١
٦	١٥	٠	٤١	٢٣
٧	١٥	٣٠	٤٥	٣٢
٨	١٦	٠	٤٩	٢
٩	١٦	٣٠	٥٢	٠
١٠	١٧	٠	٥٤	٣٠
١١	١٧	٣٠	٥٦	٣٨
١٢	١٨	٠	٥٨	٢٧
١٣	١٨	٣٠	٦٠	٠
١٤	١٩	٠	٦١	١٩
١٥	١٩	٣٠	٦٢	٢٦
١٦	٢٠	٠	٦٣	٢٣

هذا الجدول تعرف منه اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان في الربع الشمالي من المسكونة ، فإذا كان الليل يساوي النهار وكل منهما ١٢ ساعة عند خط الاستواء في نحو الكونغو وسومطره وغينا الجديدة فان كلا منهما يزيد وينقص ساعة واحدة تقريبا في أطراف الهند والصين وساعتين في القاهرة وبعض البلاد الفارسية وبلاد السند وثلاث ساعات في البحر الاسود وقرب القسطنطينية والبلاد المحاذية لها ، و ٤ ساعات تقريبا فيما يقرب من باريس وبرلين ونحو ذلك ، و ٥ ساعات في بحر الشمال وماوالاه ، و ٦ ساعات فيما وراء ذلك و ٧ و ٨ و ٩ ساعات شمالى بحر البلطيق . وفيما بينه وبين رأس الشمال تصل زيادة كل منهما الى ١٠ و ١١ و ١٢ ساعة ثم يكون كل منهما شهرا فشهرين في جنوب جزائر جرونلند و ٣ و ٤ أشهر في شمالها ثم في القطب يكون كل منهما ٦ أشهر فيكون ليل القطب الجنوبي نهار القطب الشمالى ، ونهار القطب الجنوبي ليل القطب الشمالى وكل منهما ستة أشهر ، ثم اذا كان النهار في مصر مثلا ١٤ ساعة في زيادته كان في نقصه ١٠ ساعات وهكذا الليل فهناك عدل تام في الاضاءة والاظلام وعلى هذا فقس . ألا تعجب من هذا النظام الجليل وكيف ازدانت الأرض بهذه الأنوار المتلاثلة المتألفة لهجة المناظر أفلا ينظر الناس لهذا الجال البارع والعدل والقسط والحكمة الباهرة ، اختلاف عظيم وعدل تام ، يكون الليل ١٣ ساعة عند زيادته في البلاد التي حول البحر الاسود مثلا ، وشهرا في أطراف جزيرة جرونلند ثم يجيء النهار في نوبته فيصل الى تلك الزيادة عينها أى ١٣ ساعة في الأول وشهرا في الثاني فيكون في السنة ليلة هي شهر تام ، ونهار هو شهر تام ، وهذا هو العدل الحقيقي العملى « الشمس والقمر بحسبان » ، « والسماء رفعها ووضع الميزان » ، « إنا كل شيء خلقناه بقدر » ، « وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » ، « والله يقدر الليل والنهار » .

هذا الاختلاف باعتبار العرض ، فانظر الى الاختلاف باعتبار الطول فسأوضحه لك فأقول بعد الاجمال السابق :

اذا طلعت الشمس على آفاق مصر مثلا كان لها بعد طلوعها بالخليج الفارسى وماحوله ساعة وفي بلاد فارس ساعتان ، وفي السند ثلاث ساعات ، وفي غرب بلاد الصين أربع ساعات ، وفي أواسط بلاد الصين ٥ ساعات . وفي شرق بلاد الصين والبحر الأصفر ٦ ساعات . وفي بلاد اليابان ٧ ساعات . وفي شرق استراليا ٨ ساعات . وفي كاليدونيا الجديدة بالمحيط الهادى ٩ ساعات . وفي جزائر الملايين بالمحيط الهادى ١٠ ساعات . وفي جزائر سندوئيش بالمحيط الأكبر ١١ ساعة . وفيما بين جزائر سندوئيش وكاليفورنيا من المحيط الأكبر ١٢ ساعة .

وعلى هذا اذا طلعت الشمس بمصر أول فصل الربيع الآتى ذكره قريبا أو الخريف كانت غاربة بين هاتين الجزيرتين بالمحيط الأكبر . ويكون قد مضى بعد غروبها ساعتان في كاليفورنيا وغرب الولايات المتحدة و ٤ ساعات بالبلاد الواقعة حول خليج المكسيك وشرقي الولايات المتحدة و ٥ ساعات عند نيويورك بالولايات المتحدة . وست ساعات بناحية الأرض الجديدة شرقي أمريكا الشمالية و ٨ ساعات بالمحيط الاطلسي غربي أوروبا . وعشر ساعات بباريس وجبال أطلس بالغرب و ١١ ساعة في طرابلس والصحراء الكبرى هذه هي الصورة التي يراها المفكر في اختلاف الليل والنهار ، فبينما المصيرى ينظر الشمس مشرقة في أفقه يكون السندى والصينى في وقت الضحى . ومن في كاليدونيا الجديدة وقت العصر . ومن في كاليفورنيا ساهرا مع صحبه . ومن في نيويورك قد نام نوما عميقا . ومن في طرابلس قام لصلاة الصبح .

واعلم أن ما ذكرته لك من هذه الساعات لا يكون تاما من كل وجه إلا في ٢١ مارس وفي ٢٣ سبتمبر من كل سنة لأن الأول أول فصل الربيع والثاني أول فصل الخريف . وهما اليومان اللذان يعتدل فيهما الليل

والنهار . ثم ان أول الصيف ٢٢ يونيه وأول الشتاء ٢٢ ديسمبر . والأول يكون أطول أيام السنة كما أن الثاني يكون أقصرها والليل على عكس النهار « يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

عجائب العلم والسياسة في القرآن

كما اختلف الليل والنهار اختلفت الدول والممالك ، فالأولان بالزيادة والنقصان ، والآخرون برفعة قوم وضعة آخرين . لقد سبق القول أن الشمس تشرق على أهل الشرق ، سائرة الى أهل الغرب ، جارية الى المحيط الاطلاطى ، ساعية الى أمريكا فالبحر الأعظم هناك فبلاد الشرق ثانيا ، وانه اذا نام قوم باظلامها استيقظ آخرون بضائتها ، هكذا نرى العلم والحكمة والمدنية جرت مجرى الشمس ، ساعية باذلة جهدها مجددة مشرقة على أهل الشرق فكانت الحكمة في الهند ومصر وما بين النهرين في أمم السكندان والآشوريين والبابليين ، ومن أهل الشرق كالمصريين انتقل الى اليونان ومنهم الى الرومان ، ثم لما خدحت حركة النوع الانسانى قرعته قارعة الدين الاسلامى ، فأحدثت رجة عظيمة أطارت النوم من جفن الانسان ، وقضت على سير الحوادث القديم ، وأبدعت طريقا آخر بعد أن ضربت باحدى يدي الدين دولة فارس وباليدي الأخرى الروم ، ثم أحدثت هذه الحركة نارا حامية ولها ، فأما جبرها فبقى في الشرق عند الأمم الاسلامية مدفونا في عاداتهم وأخلاقهم الترابية ، وأما طلبها فاندفع الى أمم الغرب فأحرق الأفئدة ، وتأججت نيرانها ، وسعت الى نيل العلم والمدنية ، وشدت إليها الرحال ، وأخذت تلك النار تمتد حتى طارت منها شرارة فعلمت بأذيال أمريكا والجزائر فى البحار ثم تخطت المحيط وعلقت بأذيال أمة شرقية كره أخرى وهى اليابان ، وهاهى ذه تعيد سيرتها الأولى ، فهى تتخطى الى أفغانستان والهند والصين وبلاد سيبيريا وبلاد الفرس والترك ومصر وسوريا ، ومعلوم أن المدنية والعلم لا يكونان فى الشرق والغرب على حد سواء ، فاذا زادا فى أحدهما نقصا من الآخر ، والذي يظهر أن الشرق اذا ارتقى هذه المرة يأتى بالعجب العجائب ! لأن الغرب ليس منبع العلوم والحكم والمدنية .

ولقد وصل لنا من العلم عن قدمائنا أن العلم قد اعتنى به من الأمم الهند والفرس والسكندانيون والسرانيون والعبرانيون والروم وأهل مصر والعرب ، وأما بقية الأمم من يأجوج ومأجوج وبرطاس والخزر وجيلان وكشك والصقالبة والباغروس والبربر ، وأصناف السودان والحبشة والزنج فلم تكن لهم عناية بالعلوم . وكانوا يسمون ملك الهند : ملك الحكمة ، وملك الصين : ملك الناس ، وملك الترك : ملك السباع ، وملك الفرس : ملك الملوك ، وملك الروم : ملك الرجال .

ولقد عرفنا أن مدينة « رومة » بنيت قبل قيام أغسطس أول ملوك القياصرة بنحو ٧٢٥ سنة على ما قيل فتكون تلك المدينة حديثة العهد جدا كما أن اليونان قد تعلموا من المصريين ، فأما فى بلاد الشرق فقد ظهر الكشف الحديث ، وأبان أن مدينة الهند لا يعرف لها أول ، فقد جاء فيه أن [سور يوشيدانتو] الفلكى الهندى الذى نسب فلكيو عصرنا أرصاده فى وضع النجوم وسيرها الى زمان لا يقل عن ثمان وخمسين ألف سنة قد تكلم عن أسفار [الفيدا] وانها كتاب قديم العهد جدا .

وقد جاء فى كتاب خطى كشف حديثا تاريخه قبل المسيح بأربعة آلاف سنة [فى عهد الدولة الرابعة] أن أبا الهول كان مطمورا تحت التراب ، ومنسيا منذ أجيال عديدة ، وقد كشف فى ذلك العصر على سبيل المصادفة ، ويقولون : ان التقاليد المصرية فى الكشف الحديث لم يوقف على مبدئها بل هى متوغلة فى القدم أكثر من ثلاثين ألف سنة كما أثبتته العلامة [مانيتون] وقد ورثها المصريون من شعب منقرض هو الجنس الأجر الذى منه هنود أمريكا ، وكان انقراضه بعد حروب هائلة ، وحصل إذ ذاك فى الأرض انقلاب عظيم

طبيعي ، ومن آثار هؤلاء المنقرضين [أبوالهول] الذي كانوا بنوه على شاطئ البحر الأبيض المتوسط إذ ذاك بالبر ، وهذه هي آراء العلامة [ليباونجون وسافيل] في أمريكا الوسطى و [روازل وجوبا نفيل] في بلاد [الأتلانت] وهؤلاء عرفوه بطريق البحث والتنقيب فكشفوا ذلك وهو عجيب ، والذي يهمننا في هذا المقام أن أهل الشرق هم أعرق الأمم في المدنية ، ألا ترى أنه ظهر منهم الديانات والحكمة والحكمة مثل [كونفوشيوس] و [بوذا] وأمثالهما والأنبياء كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وأوروبا لا نبى منها ولا سابقة علم معروفة قبل الرومانيين واليونانيين الذين هم تلاميذ المصريين ، فثبت من هذا أن العلم قد استدار كما استدار الزمان ، وقد بدا دور الشرق بعد الغرب ، ولعلك بهذا تدرك السر في قوله تعالى في سورة آل عمران « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير ، تولى الليل في النهار وتولى النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب » .

وتعجب كيف ذكر ادخال الليل في النهار وادخال النهار في الليل عقب ذكر عزّ الدول وذوها واعطاء الملك ونزعه ، وهذه الآية سيأتي ذكرها عند آية الكرسي من بذور القرآن التي ألهم الصالحون أن يقرءوها في الأوراد ليفطن لها الخلف ، فيرون أمثال هذه المعاني النبيلة الشريفة ، واعلم الذي حفظ السماء أن تتداعى أقطارها حفظ علومها أن يدركها الغافلون إذ قال : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » اه الكلام على قوله تعالى : والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس

هذه نعم جليلة ، وآيات عظيمة تلك السفن الماخرات في اليمّ الجاريات في البحر ، والأنهار العجيبة الصنع الجارية من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب الموصلة منافع الناس ، وأقواتهم من بلد الى بلد ، ومن قطر الى قطر ، وبها التجارة ونقل الذخيرة ، والأخبار من أمة الى أمة ، حتى ان أهل الكرة الأرضية بهذه السفن أصبحوا كأنهم في بلد واحد ، وأشبهوا هذا العالم كله في أن كلا لكلّ مساعد ، والحق أن الوحدة شاملة لأهل الأرض كما هي شاملة للعالم كله ، والناس صائرون للاتحاد شاعوا أمأوا ، وما الحروب والعداوات بينهم الا كما يقع الهضم في الطعام في جسم الانسان ، ولقد أخذ الانسان يقترب بالأسلاك البرقية والعلوم والمعارف ، ومن عجائب السفن أنها تحمل المدافع والحديد وأنواع المعادن وصنوف البضائع ، وهي تجري فوق الماء ولا تغرق الا لعارض ، واعلم أن هناك ناموسا ثابتا عاما به حفظ الله السفن من الغرق ، وأعطى السمك قوة بها يطفو ويرسب ، وتلك القاعدة أن الجسم اذا كان أخف من الماء المساوي له في الحجم فانه يطفو ، وان كان أثقل منه كالحديد فانه يرسب ، وان كان مساويا فانه يكون بسطح الماء عند العوم فكانه ماء ، وهذه هي التي أعطيت للسمك من المواهب العجيبة فالسمكة منفوخة تجده داخلها اذا شرحتها ، وهذا المنفاخ مملوء هواء ، فاذا أرادت أن تطفو على سطح الماء نفخته فكبر حجمها فطفت ، وان أرادت أن تنزل الى أسفل ضغطت على ذلك المنفاخ فصغر حجمها ، فنزلت الى أسفل لانها صارت أثقل من الماء المساوي لحجمها ، وهكذا تعلو وترسب على حسب حاجتها كما يضيق الانسان عينه ، ويوسعها على حسب النور قلة وكثرة ، وعلى هذه القاعدة جرت السفن في البحار ، فاعلم أن السفينة الشراعية الجارية في الأنهار اذا وزناها هي وما عليها كانت مساوية للماء الذي حلت مكانه في البحر فان أثقلناها حتى زاد وزنها عن وزن الماء المساوي لحجمها غرقت ، والسفن الحاملات للمدافع والذخائر والبضائع على هذا النمط في البحار العظيمة الاطلاق ، واطنسى ، وبحر الصين ، والبحر الهادي ، والاساطيل الجاريات كلها على هذه القواعد جاريات ، وكل سفينتين جارتين فان نسبة سعة مقعر إحداهما الى سعة مقعر الأخرى كنسبة ثقل إحداهما الى ثقل الأخرى ، ومعلوم أن حاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين ، وهنا تكون النسبة الهندسية .

وأما قوله تعالى : وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة فاعلم أن الله عز وجل جعل اتحاد الماء بالعناصر الأرضية سببا لخروج النبات المختلف الأشكال والألوان والأزهار والأثمار ، فكان منه الرياض والجنان والرياحين والبهجة والرونق والحسن والجمال ، ومن عجب أن يكون الماء والأرض والحرارة باتحادها تحدث هذه العجائب التي لا يعرف آخرها ولا يدري منتهاها . والنبات منه الشجر والنجم والزرع والكلأ والحشيش ، وكل واحد متنوع أنواعا كثيرة ، الشجر كل نبت يقوم على ساقه منتصبا أصله مرتفعا في الهواء ويدور عليه الحول لا يحف .

وأما النجم فهو كل نبت لا يقوم أصله على ساقه مرتفعا في الهواء ، بل يمتد على وجه الأرض أو يتعلق بالشجر ويرتقى معه في الهواء كي يحمل عنه ثقل أثماره كشجر الكرم والقرع والقثاء والبطيخ ، واعلم : أن جميع النبات والشجر لا يختلف الا لاختلاف المواد الداخلة في تركيبه ، فترى القطن والقمح والبرسيم من البوتاسا والصودا والجير والمغنيسيا ، وحض الفوسفوريك ، وحض الكبريتيك والسلكا والكلور ، وإنما صار هذا قطننا نلبسه ، وهذا قمحا نأكله لاختلاف المقادير الداخلة في تركيبها ، فقوله تعالى « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » ليس يستوعب علمها الاعلام اختصوا بهذه المباحث ، وسيرد عليك في هذا الكتاب شذرات من هذه العجائب عند قوله تعالى « أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى جارك » الآية فسترى هناك عجائب الكيمياء العضوية ، وكيف اختلفت المظاهر لاختلاف التركيب ، والمقادير إن الله سريع الحساب .

ولكن لا بد أن أوقفك على بعض العجائب العلمية هنا ليكون كالمقدمة ، لما سأذكره هناك من مسائل الكيمياء العضوية ، وكيف كان اختلاف النبات لاختلاف التركيب فنقول : اعلم أن الله عز وجل خلق المادة ونوعها أنواعا وأجناسا وفصائل ، فجعل منها النبات والحيوان ، وهما مالك باهرة ، فن نبات لا يكاد يرى وحيوان دقيق لا تدركه الأبصار الا بالمنظار الى شجر النخل ، وشجر الغابات العظيم ، والى الفيل عظيم الجثة كبير الحجم هائل القوة ، وبين ذلك من الغرائب ما يحير العقول حتى أنك لتجد أعلم الناس وأقدرهم على علوم الحكمة يقف مبهورا حائرا أمام البقرة والفيل ، ترى الناس يتعجبون من خلقة الفيل اذا رأوه ، وهم قد جلاوا أبناءهم على العربات الى الحدائق التي فيها الحيوان خديقة الجيزة ببلاد مصر ، ويقولون تفرج يا بني على هذا الفيل ، والأب والأم والخدم يضحكون ويفرحون ويمرحون ، وهم غافلون ، ولا يعرفون الا أن الفيل كبير الجثة له أربعة أرجل وخرطوم ونابان خارجان ، وقد فاتهم أن البقرة الحقيرة القدرة الدنيئة المنزلة التي ينفر الانسان من منظرها وتؤذيه في فراشه ، وهي من الدلائل على أن منزله قدر مع صغر حجمها أعجب خلقة وأظرف صورة ، فلها ستة أرجل ، وخرطوم ، وأربعة أجنحة ، وذنب ، وفم ، وحلقوم ، وجوف ، ومصارين وأعضاء ، وأعضاء أخر لا يدركها البصر ، وهي متسلطة على الفيل بالأذية ، ولا يقدر عليها ، ولا يمتنع بالتحرز منها ، وأيضا فان الصانع البشري يقدر أن يصنع فيلا من الخشب والحديد والذهب وغيرها ، وهو عاجز كل العجز عن صنع بقرة ، فثبت أن صنع البقرة أدق وأظرف من صنع الفيل ، وفي الحيوان ، وفي النبات من العجائب ما لا يدركه سائر الناس مهما عاشوا دهورا وأجيالا ، وتلك العجائب من نوعين على الأرض ، وكما عليها من معادن ، وأنهار ، وبحار ، وفوقها من هواء ، وسحب ، وبدور معها كواكب ، وشموس كل ذلك من المادة الأصلية في الكون ، فنقول : لا يقدر الناس أن يتصوروا كيف خلق الخلق من مادة واحدة الابل من أنفسهم وشاهد من عقولهم .

مثل المادة في تنوعها كمثل الصوت وتنوعه في الهواء

علم الله ضعف الانسان فألهمه أن يحرك الأسنان والشفقين والفم بهواء الداخل والخارج لاصلاح الدم الفاسد في الرئتين ليعطى له الأكسوجين ويأخذ بدله المادة الفحمية المسماة بالكربون حين دخول النفس بالشهيق وخروجه بالزفير يحدث الانسان فيه حركات تسمى حروفاً ، وهي تختلف باختلاف الأمم ، وهي في العربية ٢٩ حرفاً تتركب من تلك الحروف كلمات فتحدث الخطب والشعر والنثر والحكم والمواعظ والتفاهم والتجارات والسياسات والمنافرات ، وكتب الديانات والعلوم والمعارف ، وهذه هي النتائج التي نظمت نوع الانسان وعلمته انبياء ، وهي ليست شيئاً سوى تنوع في الهواء الجوى الذي له أعمال كثيرة غير هذه فانه كما قلنا دخل في الرئتين للاصلاح : أى ادخال المادة المصلحة للدم مع أنه ترسم فيه صور المرئيات ، فيرى الانسان الاشباح والصور التي تأتي للأعين من المرئيات ، وفي الهواء الحرارة والبرودة والرائحة الطيبة والخبيثة ، وفيه بخار الماء الذي يكون السحب ، وهكذا الرياح ، وهو يحمل السحاب ، ويسير السفن في البحار فليست صفة الكلام في الانسان أول أعمال الهواء ولا آخرها ، بل من تنوع الهواء تكون الموسيقى المطربة لقوم الشافية لآخرين المعلة لقوم يعقلون ، إذا فهمت هذا فاعلم أن هذا مثل ضربه الله للناس لعلمهم يعقلون كيف خلق العالم من مادة واحدة ليستدلوا على وحدته وقدرته ، ولعلم الناس أنه حاضر رحيم فن رحمته هذا المثال .

اعلم أن المادة كما هو رأى علماء العصر الحاضر واحدة ، يقول علماءنا الأقدمون ان جميع هذا العالم من الهوىلى ، والهوىلى كلمة عربية ، معناها القطن ، وإنما سموها بهذا الاسم ، لان القطن يصلح للملابس شتى كثيرة التنوع ، وقالوا هذه المادة الأصلية لا يمكن رؤيتها ، بل هي شئ أشبه بالأمور الروحية هذا كلامهم ، وقالوا أيضاً ان هذا العالم أصله مادة واحدة متمثلة أشبه بما نرى ان الطعام بعد تناوله يصير في المعدة كيموساً منسابة الأجزاء أشبه بمادة اللبن ، فهذه المادة المتشابهة فيها جميع ما يصدر عنها من الأعضاء والحواس ، ففيها مادة العين ، والأنف ، والمخ ، والمصارين ، والبطن ، والجوف ، وهي تجمع مع لطافتها وتشابهها ما بين العظم الصلب ، وما بين الرطوبة الزاجية في العين ، ومادة المخ هذا كلام قدمائنا ، فهكذا يقولون ان المادة التي خلق الله منها العالم كانت هكذا واحدة ، ولكن قدمكن فيها الشمس والقمر والأرض والمعدن والنبات والحيوان .

أما علماء العصر الحاضر فقالوا نحو هذا ودققوا أشد تدقيق فقالوا ان أصل العالم مادة سديمية دارت وتكوّرت على مدى السنين فكان منها تلك الشمس والارضون الخ ومنها العناصر ، بمعنى أن الموجود المسمى بالأثير مما لا تراه العيون ولا تدركه الأوهام هو الأصل لهذه الموجودات وهذا الأثير الذي هو أرق من النور وألطف من الجال وأقرب الى أن يكون شيئاً روحياً كما قال أسلافنا منه تكوّنت المادة والكهرباء والمغناطيس وفيه الحرارة والضوء ، فهذه كلها صفات وتنوعات في المادة الاثيرية والمادة التي منها تكوّنت ، وبعبارة أخرى هي حركات من حركاتها لا يدري كيفيتها ، قد شككت الى عناصر كالحديد والنحاس والذهب والفضة والراديوم والاكسوجين والأدروجين والأوزوت والكربون . وبالجملة تلك العناصر تباع فوق السبعين نوعاً كما تنوعت الاصوات الخارجة من الفم في المثال المتقدم الى الحروف الهجائية بحسب اختلاف الأمم فبلغت بتركيبها الى نحو أربعة آلاف لغة ذات فروع شتى وكلها ترجع الى تنوعات الهواء في الفم ، وبعبارة أخرى لاشئ سوى الهواء المتحرك فهذه العناصر المادية تركبت منها هذه المخاوقات التي نشاهدها على الارض بنسب محفوظة وحساب متقن ونظام بديع حارت فيه العقول ، وقد وصلنا الآن الى ما نقصده من عالم النبات ، والحيوان فانها عبارة عن تفنن في المادة كما كان من الاصوات عجائب وبدائع ولم تزد عن كونها حركات في الهواء ، فهكذا

هنا نرى أن جميع أنواع الحيوان والانسان تتركب من العناصر المتقدمة كما تتركبت الكلمات من الحروف ، ومن طوائف النبات تكون المروج الواسعات والرياض الغناء تسر الناظرين وتحير المفكرين كما رأيت في الكلام من الخطب والشعر والمقالات فالرياض الناضرات والمروج الواسعات شعر المادة كما كانت أقوال المتنبي وعمر بن كاثوم وأشعار هو مبرور وشكسبير شعر الهواة . ولعلك تقول كيف يكون النبات والحيوان من عناصر واحدة ؟

أقول : قد قدمت لك هذا القول وسأزيدك بيانا فأقول :

قد أثبت علماء الكيمياء أن النبات والحيوان يتركبان من المواد التي ليست حية وأخصها الاوكسوجين والأودروجين والأوزوت والسكر بون وبعض أملاح أخرى ، وهذه العناصر الاربع بمقدار تنوع المقادير فيها تنوع النباتات والحيوانات وأعضاؤها وأجزاؤها فيكون منها الدم والشحم والصفراء والاعصاب ومادة الدماغ والعود الاخضر والورق والثمر والحنظل والتمر والبرتقال والزيت والصمغ فلا حلاوة ولا جوضة ولا دسومة ولا مرارة الا كانت مشتقة من تلك المواد الجامدة ، وبعبارة أخرى هي كلمات من تلك الحروف لم تزد في المادة شيئا فلا تزال المادة واحدة واختلاف المظاهر وقتي كاختلاف الكلمات والقصائد في الهواء الجوى ان عصير العنب لا يحوى خرا ولا مادة الخمر وهو (الكحول) انما يحوى ماء وسكرا فاذا تخمر انحل جزء من السكر وانفصل عنه ما فيه من الاكسوجين والأودروجين والسكر بون وتتركب هذه بمقادير جديدة بنسب معلومة محدودة كالنسب التي سترها عند قوله تعالى « وانظر الى حمارك » في مسألة العزير وعند مسألة الطير وسيدنا ابراهيم الخليل ، واذن ينشأ عنه المادة الخرية المسماة (الكحول) فيصبح عصير العنب خرا بدون أن يزداد شيء أو ينقص كما صار الهواء خطبا وقصائد بكونه صوتا وحروفا ولم يزد في الهواء شيء ولم ينقص ، والخبز والفواكه التي نأكلها لاشيء من السم فيها ولا اللحم ولا العظم ولا العروق ثم هي عند الهضم تتحول الى ذلك ، وهكذا الحب والنوى ليس فيهما من الورق والزهر شيء ولكن الامتصاص من العصارات الارضية والتنفس بهما يحدث تفاعل فتكون النتائج الباهرة ، لعلك أيها الفطن بهذا تعرف السر في قوله تعالى « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » فن هنا فلتفهم الكلمات بالعلم والحكمة « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الألباب » اهـ

ولعلك الآن فهمت السر المصون والجوهر المكنون في العناصر والحروف ، فالعناصر في المادة والحروف في الهواء ، فكما كانت لنا كلمات وخطب وقصائد في حركات الهواء هكذا كان لله عز وجل عناصر تتركب معادن ونباتا وحيوانا وكما كانت اللغات كثيرة العدد وكلامها وقصائدها ليس لها عدد ولا حد هكذا مركبات الطبائع لا تنحصر وكما أن الهواء فيه أحوال وأعمال كثيرة كالروائح والحرارة الخ غير الاصوات هكذا الاثير الذي تكوّن فيه المادة فيه عجائب ومخلوقات لانعرفها فوق ما نشاهد من السموات والارض وما بينهما « وما يعلم جنود ربك الا هو ، ويخلق ما لا تعلمون »

ولعلك أيضا تعرف أن هذا التشبيه الذي أطلت لك فيه وجعلت كل ما في المادة أشبه بمركبات الحروف من القصائد والكلمات مأخوذ من قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين » فقله : اختلاف ألسنتكم اشارة الى علوم اللغات وما فيها من المقالات ، وقوله : وألوانكم اشارة الى العناصر وما تتركب منها ، أفلا تتعجب أيها القارىء أن يكون مقالى كله من كلمتين من القرآن وقرئتما معا في جملة واحدة ليكون ذلك داعيا الى أن أشبه أحد الطرفين بالآخر أليس ذلك من العجب ؟ على أنك ستري ما هو أعجب انه يقول « ان في ذلك لآيات » أى دلالات « للعالمين » بكسر اللام جمع عالم ، ولم

أرآية في القرآن على ما أذكر جاء فيها ذكر العالمين على هذا النحو الا قليلا ، فكأنه يقول : ان هذا المقام دقيق لا يفقهه الا المحققون في العلوم الدارسون للعلوم الطبيعية العاشقون للعلم المعهودون بالحكمة ، فتأمل في عجائب القرآن وكن على يقين أن نبوة الانبياء لا تعرف عند أولى الالباب الا بمثل هذه الدقائق العلية وكيف خص العلماء بالفهم في هذه المسألة التي لا تعرف الا في هذا الزمان أشد معرفة ، لمثل هذا فليعمل العاملون ، وبمثل هذا فليعمل المفكرون .

عجائب التنوع والتشكل في المادة الواحدة ايضا كما تقدم

وأنها دلائل التوحيد لاختلافها مع وحدة المادة

من العلوم الشائع في عصرنا الحاضر أن العناصر التي كشفها العلماء تباع فوق السبعين ، وهي مركبة من اجتماع الذرات الاصلية وهي الجواهر الفردة التي رجعت في آخر أمرها الى حركات وتيارات يقف التعبير عندها لدقتها على العقول ، وهذه الذرات تجري بنواميس كالتي نراها في الكواكب والشموس أي انها عبارة عن دقائق جاريات بنسب مخصوصة على بعضها بنظام تام ، وبهذه النسب اختلفت أحوالها ، فالاختلاف في العناصر راجع الى أنواع حركاتها لا غير ، فاذا رأيت الهواء والماء والحجر الصلد والذهب والحديد فذراتها جميعا عند البحث العلمي لا فرق بينها من حيث انها متحركات في أنفسها وان كانت ترى ساكنة في الظاهر ، وليس المراد بتلك الحركات الهوائية والمائية بل هي حركات الذرات التي لا يعرفها الا العلماء الأخصائيون بالبحث والتنقيب ، فتتوقع الحركات المذكورة جعل هذا سما وهذا غير سم وهذا حجر وهذا أصفر وهذا ثقيل وهذا خفيفا الى ما لا يتناهى ، ألا ترى أن الفسفور أبيض سام سريع الانتهاب فاذا أحيته في اناء محكم السد أو عرضته للنور في أنبوب لاهواء فيه تغير لونه الى الجرة وينفد خاصية السم ولا يلهب إلا بالاحتكاك وإذا حللناه تحليلا كيميائيا لا يختلف في تركيبه عن الفسفور الاعتيادي ، وهكذا نرى الكربون على أشكال مختلفة في الالماس والجرافيت والانتراست والكوك ولكل منها خصائص متميزة عن الأخرى ، فيالله هل يستوى الالماس الجليل المنظر الحسن الشكل الغالي الثمن البديع البهيج الذي يوضع فوق التيجان وتتحلى به الغانيات ، وبه وبأمثاله يمتاز أهل الثروة والغنى والملوك عن غيرهم ، والكوك الذي يوقدونه في أفرائهم وقطراتهم ويمسكه الغنى والفقر ، كلا لا يستويان ولكن العلم قد أوجب استواءهما وان كلا منهما مركب من الكربون وحده ، فالالماس كربون والكوك كربون لا اختلاف بينهما ألبتة في الحقيقة وهي أنها لا تذوب واذا أحرقت أنشأت حامض الكربونيك ، فأما هذه الاشكال والخواص من اللعان والمهجة والحسن في الالماس وضد ذلك في الكوك فلم تكن الامن تغير طارئ على تحرك الذرات فحسب ، وتأمل في التباين العظيم فيما بين المركبات وخواصها العجيبة . تأمل كيف اختلفت خواصها مع التركيب وهي واحدة ، فانظر خلاصة الترتين ، والليمون ، والبرتقال ، والعبثران ، والفلفل ، والريحان ، والبقدونس ، ان هذه الخلاصات مركبة تركيبا كيميائيا واحدا ، وهوسنة عشر جزءا من الاودروجين مع عشرين جزءا من الكربون ، فيالله أين خلاصة الفلفل من خلاصة البرتقال والليمون ، وكيف كان كل منهما مركبا من كربون وأودرجين ، فالكربون معروف في الكوك والالماس كما تقدم والاودرجين هو الجزء المتمم لتكوين الماء ، فالأول نراه يحترق ، والثاني نراه يميت الحيوان إذا تنفس فيه كما يعرفه من درسوا علم الكيمياء ، وفوق ذلك نرى أن سائر الانسجة الحيوانية والنباتية التي كثر أنواعها وأشكالها وأوصافها مركبة من أربعة عناصر ، وهي الاكسوجين ، والاودروجين ، والكربون ، والأوزوت مع إضافة بعض الاملاح والجوامد .

فتعجب من المادة الواحدة التي رجع أصلها إلى حركات كيف كانت بسائطها متنوع تنوعاً مدهشاً لغير سبب معروف المتنوع حركاتها ، وهكذا مركباتها تنحو هذا المنحى خلاصة البقدونس والفلل وتركيبتها من عنصرين وكالحيوان والنبات وأنواعهما المركبات من أربعة عناصر مع ما يضاف إليها ، أليس هذا يريك بأجلى برهان في عصرنا الحاضر أن الوحدة ظاهرة في العالم المشاهد ، أو ليس أنواع هذه المادة مع وحدتها تعرفنا بحكمة الله ، وأن العناصر حروف والمركبات كلمات . والعالم المنظور قصائد وخطب قروها مسطورة على لوح الطبيعة الجيلة البهجة ، أو ليست هذه كلمات الله ككلماتنا في الهواء فتشابهها في أن تنوعهما بتنوع الحركات ، فهذه في أثر ، وهذه في هواء ، وأن هذا التنوع عند الله كتنوع الكلمات عندنا في اليسر وعدم العسر ، ولذلك جاء في القرآن « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » . وفيه « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » ، وإذا كانت هذه العوالم ناجية عن مادة واحدة كان فاعلها واحداً فان ناظم القصيدة وقائل الخطبة يكون واحداً فاعلاً بأعضاء في الهواء أفعالا مقصودة ينتج منها ذلك القول المسموع المنتظم ، فهذا العالم المنظم المكوّن من حركات صانعه واحد ، وهذا هو برهان التوحيد ، لأن الآية مسوقة للواحدانية « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » الخ فتعجب من العلم والدين كيف اتحدا وأتيا بالعجب العجيب ، وهذا هو بدء الخلق الذي أمرنا به في قوله تعالى « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » هذا بدء الخلق وتكوين العناصر والمركبات ، وبهذه الآية يجب على المسامحين أن يعرفوا أصول جميع الأشياء من بسائط ومركبات ، كعلم الأجنة ، وعلم الحياة ، وعلم الكيمياء العضوية والكيمياء التحليلية ، والادام العذاب عليهم في الدنيا أجيالا لعلمهم يعقلون انتهى . انظر تفصيل تفسير « قل سيروا في الأرض » الخ في سورة العنكبوت .

لطائف في علمي الحيوان والنبات

اللطيفة الأولى

شجر النارجيل ، وهو الجوز الهندي هيئة شجرته كهيئة النخل المعروف ويبلغ ارتفاعها تسعين قدماً تنبت في الأقاليم الحارة ولا سيما شواطئ بحورها ، وهي من أعجب ما خلق الله من النبات ففيها لأهل تلك الأقاليم غذاء وكساء ودواء ولبن وخمر وسكر وزيت وشمع وآنية ومساكن ودثر وفرش وحبال وأدوات وأسلحة وغير ذلك .

روى أحد الثقات أن مسافراً كان يحجب رمضاء تلك الأرض تحت أشعة شمسها المحرقة حيث يندر الظل فرأى بيتاً تحيط به أشجار باسقة معتدلة الأجذاع على رؤوسها أوراق جيلة تسر الناظرين ، فدنا من البيت فرأى فيه هندياً رطب به وأتاه بشراب شهى فيه طعم حموضة أروى ظمأه وأنعشه ، وبعد أن استراح دعاه إلى الطعام في صحن مختلفة في جفنة [قصعة] سوداء مصقولة لامعة وسقاه خراً لذيذاً ولم يشرب مثل ذلك قط ، ثم أتاه بجلاء فاخرة ثم بغيرها ، فقال وقد دهش : من أين لك هذه كلها في هذا القفر ؟ قال من شجرة النارجيل ، فالشراب الذي سقيتك إياه من جوزها قبل نضجه ، واللبن الذي استطبت به من ذلك الجوز بعد النضج ، والطبيخ الذي لذ لك من أوراق تلك الشجرة ، وتلك الخمرة من عصارة زهرها ، ومن هذه العصارة كل ما عندى من السكر ، وكل هذه الصحن والجفان والآنية التي رأيته على المائدة من قشر جوزها ، وهذا البيت الذي أسكنه منها ، جذرانها من خشبها ، وسقفه من نسيج أوراقها ، ومظلتى من نسيج هذه الأوراق ، والثياب التي على من خيوط أليافها ، ومن هذه الألياف مناخلتنا ، وحصرنا ، وقاوينا ، وحبالنا . والزيت الذي نوقده في مصابيحنا عصير لب جوزها ، ولنا فيها ما رُب أخرى ، فدهش المسافر ، ولما هم بالانصراف سأله

الهندي أن يباغ كتابه الى صاحب له في المدينة التي يقصدها ، فقال : من أين لك الخبر والقرطاس ؟ قال من تلك الشجرة ، فالخبر من نشارة أغصانها ، والقرطاس من أوراقها ، فأخذ الكتاب وهو في حيرة وعجب !

اللطيفة الثانية

نظر في عمر بعض الأشجار في اسكتلندا فكان أكثر من ثمانئة سنة ، وأغرب من ذلك شجرة العندم [دم الاخوين] ويسمى [دم التنين] و [دم الثعبان] في بلدة تسمى [أوروتاوا] في جزيرة [تينارييف] إحدى جزائر كناريا في الاوقيانوس الاثنتيك الذي كان يسمى عند أسلافنا بحرا الظلمات من بعض جهاته لا يحيط بساقها عشرة رجال يمدون أيديهم حولها لمس كل منهم أنامل مجاوره بأنامله ، وقد انقضى منذ كشف تلك الجزيرة الى الآن ٤٨٢ سنة والشجرة بحالها ، وقد حسب العلماء الزمان الذي خلقت فيه على حسب نمو جنسها فقال انها خلقت قبل خلق الله الانسان على الأرض .

اللطيفة الثالثة

من غرائب النباتات النباتات الهوائية وهي أعشاب لأصول لها في التربة تتعلق على غيرها من النبات وتتناول غذاءها من الهواء ، وتنمو في الأقاليم الحارة ، ومن عجيب أمرها أن زهرها يشبه الفراش والنحل وغيره من أنواع الذباب ، وهو حسن زاه يسحر الألباب ، ويسحر العقل أن يرى الانسان أزهارها على أعالي سوق كالأسلاك يحركها النسيم فيظنها فراشا يحوم على الأشجار ، أو نحلا يبغي جنى العسل من الأزهار ، ومن أزهارها ما يشاكل الرتيلاء ، ومنها ما يشاكل الانسان الى غير ذلك « وفي الأرض آيات للموقنين » .

اللطيفة الرابعة : النباتات المفترسة

وسماها بعض النباتيين بالحامية ، فهذه تشبث بغيرها من النبات ، وتغتذى بعصارته ، فتعيش على غيرها كما يعيش بعض الحيوانات على بعضها . انظر هذه النباتات وصورها البديعة في [سورة الرعد] عند آية : يسقي بماء واحد الخ

اللطيفة الخامسة : الفجل والبصل والخس وما أشبهها

والنخل والعبل والسنط وما أشبهها

تأمل أيها الفطن النكي شجرة الفجل وشجرة البصل من جهة ، وشجرة الخس أيضا ، وشجرة النخل والعبل والتين وما أشبهها من جهة أخرى ، وشجرة تسمى [ثوب السيدة] من جهة ثالثة . تأمل هذه الأنواع الثلاثة من الشجر ، وتعجب من أوراقها ، وأوراقها مختلفة ، فترى ورق الفجل والبصل يتلقى المطر ويجمعه ويرسله الى جذر البصلة والفجلة ، وكذا ورق الخس وما أشبهه ، ينزل المطر فيجد الورق يصلح معه أن يجد سبيلا الى الاجتماع عند الجذر ، وكأن الورق مساق تصبّ ماءها عند الجذور ، ثم ترى ورق النخل وهو المسمى بالخوص ، وكذا ورق التين والمان وما أشبهها لا تصلح لجمع المطر لينزل على جذع النخلة وأصل التين والمان ، لم ذلك ؟ ولم هذا التباين ؟ ورق يجمع المطر ، وورق يفرقه ، أما الجاهل فانه لا يعنيه ، وأما العالم فان له في كل نظرة حكمة ، وفي كل فسكرة علما ، وفي كل نباتة جلالا ، وبهاء وسعادة ونورا . اجتمع المطر في الفجل والبصل والخس عند رأس البصلة والفجلة والخسة ، لأن الجذور غير متشعبة ولا متفرقة وانما هي متجهة الى أسفل باستقامة ، فلذلك ينزل المطر عليها ليسقيها مجتمعها لاجتماع الجذر . أما في النخل والعبل فان العروق الضاربة في الأرض متفرقة منشئة في الجهات كلها ، فلذلك وضع الورق على حال لا تصلح لانحباس المطر فيسقط على الجذع ، بل يتفرق حوله لتفرق العروق . أما الشجرة المسماة [ثوب السيدة] النابتة في جبال الألب التي ذكرها اللورد ايفري في كتابه [جمال الطبيعة] صفحة ١١٣ فان المطر اذا نزل على أوراقها كان له عمل آخر ألا وهو أنه يكون خفيرا لها يحفظها من العطب كالعساكر والجيوش التي تحمي

الملوك على العروش ، وذلك أن قطرات المطر أو الندى ترى متجمدة لشدة البرد تلمع كحبات الأولاد على تلك الأوراق ، فإذا رأتها الحيوانات السائمة كالغنم والغزلان ولت عن الشجرة ولم تقربها لتلك العساكر الجليدية الثلجية المتلائية المانعة كل ما يقرب الشجرة ، فتأمل وتعجب كيف كان الورق جامعا للمطر تارة ومفرقا له تارة أخرى وحارسا أميننا حيننا ، كل ذلك والمسلمون يأكلون الفجل والبصر والتمر والبرتقال والليمون ، وهم نائمون عن حكمة ربهم ، وعجائب صنعه ، والفرنجية فيهم مفكرون ، يعجبوا كل العجب لعالم أضاع حياته في أقوال جدلية وكلمات لغوية ، وقد أغمض أجفانه ، وهو غافل عن هذه العوالم المشاهدة ، فلتفهم إذن قوله تعالى « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وقوله « وأنبئنا فيها من كل شيء موزون » ، وقوله « وكل شيء عنده بمقدار » .

على نفسه فليبك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولا سهم
ثم انظر ووازن بين عيون الحيوان في محاولة الابصار ، وبين ورق الفجل والبصل وأمثالهما في استقبال ماء المطر لسقي الرؤوس النازلة في الأرض ، وكيف جعل النور المشرق من الكواكب والشمس والقمر كالقطرات النازلات من المطر كلاهما يخلق له في الحيوان ، وفي النبات ما يناسبه للانتفاع به ، فبينما نرى أعين الحيوان مدورة الشكل محدبة الأعلى حاوية مادة زجاجية ، وأخرى تشبه العدسة المحدبة الوجهين ، وهذه الأشكال في علم الضوء معدة لقبول الضوء وجمعه مهياة لحفظه فترسله إلى ما وراء الحدقة ، وهي الشبكية الموضوعة بنسبة مخصوصة لتقبل الصور التي جعلها الضوء ، وتوصلها إلى المخ الذي هو الناظر الحقيقي ، ولو أنها وضعت أبعد من ذلك أو أقرب لم تظهر فيها الصور فاحتاجت إلى المناظير الزجاجية المعينة على إيضاح الصور وإقرارها فوق تلك الاعصاب كما هو معروف عند أطباء العيون في زماننا ، هكذا نرى ورق الفجل والخس والبصل ، قد وضع على هيئة حافظة للمطر بحيث يسقي الرأس ، ولم يجعل على هيئة مبعثرة له حتى لا تنتفع به أصولها « إنا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة فكلح بالبصر » وما أخرج الشبان في المدارس ، وفي المعاهد الدينية إلى ورود منا هل هذه الحكمة والارتواء منها « وفوق كل ذي علم عليم » .

اللطيفة السادسة : النبات المفترس للحيوان

قد ثبت للخاصة والعامة أن النبات طعام الحيوان مسخر له ، ولكن لم يدر في خلد انسان أن الحيوان طعام النبات ، وأن النبات يفترسه بحيل مدبرة وكيد خاص ، فاعلم أن نباتا يسمى [الديونيا] من نباتات أمريكا الشمالية له ورق يشبه مصيدة الفأر ، وفي وسط الورقة مفصل ، وتلك الورقة نابت عليها وبر ويحيط بها شوك ومتى لامست الورقة حشرة أحس بها الوبر فانطبقت الورقة حالا عليها ، وخرج منها مادة لزجة قاتمة مقام لعاب الانسان ليمتص تلك الفريسة ، فانظر كيف كان المفصل لتحرك الورقة ، وكيف قام الوبر بالاحساس كبصر الحيوان ، وكيف كان فيها ما هو كالبرق وكالعصارة المعدنية في الحيوان انتهى . (والتفصيل الوافي في سورة الرعد كما قد بينا)

اللطيفة السابعة : أعمار الحيوان

يقال في المبدأ المشهور أن عمر كل حيوان حتى ثمانية أضعاف مدة نموه ، فسرير النمو سريع الزوال ، وما يباغ الكمال سريرا ينقص سريرا ، وعلى هذا المبدأ يكون في استطاعة الانسان أن يعيش فوق المائة ، بل إلى المائتين إذا لم تصادفه تلك العقبات في غذائه وأحواله ، فقد مات أحد الانجائز وعمره مائة وتسع وستون سنة ، وكذلك من آبائنا العرب ، عاش أحد بني تميم نحو هذا القدر ، وهذا وإن كان لا يعقل عادة يصلح في قدرة الله تعالى أن يتم ، والامكان واسع ، ولكن العادة لا تبيح ذلك ، والحيوانات الجباء تعمراً أكثر من القرناء ، والجريئة تحيا أكثر من الجبانة ، والمائية والبرية تعيش أكثر من الهوائية ، غير أن الرخة ، والنسر ، والبغاء ، والغراب تعيش قدر ما يمكن أن يعيش الانسان .

اللطيفة الثامنة : القرد وتقليدها

ان جماعة من أهل العلم كانوا مشغولين في أمريكا الجنوبية بما يتوصل به إلى معرفة شكل الأرض فكانوا حين يبعدون عن الأدوات تأتي القرد وتنظر في المنظار وتنصب الأخشاب وتأخذ الأقلام وتغمسها في المداد وتخط على الورق ما تيسر .

ومن محاكاة القرد للإنسان أنه تفشى الجدرى في بعض السنين في قردود بعض الآجام في أمريكا الجنوبية فاتى [بنكرد] الطبيب بولدين ربط أيديهما وأرجلهما بالحبال ولقحهما بمادة الجدرى أمام قرد كبير حذاءه قرد صغير ، ثم ذهب بالولدين ، وترك مادة التلقيح والأدوات ، فطرح القرد الكبير القرد الصغير وربط يديه ورجليه ولقحه بالمادة كتلقيح الطبيب للولدين ، وحذا حذوه غيره من القردود .

اللطيفة التاسعة : عجائب الخرباء

هذا الحيوان بدنه كالاسطوانة ، وله رأس كبير ، وعنق فاحش القصير ، وذنب طويل كالخية ، وله برائن كخالب البغاء ، وهويتلون ألوانا كثيرة ، وتقول فيه العرب [أصور من عين الخرباء] أى أبرد لاعتقادهم أنه يدور مع الشمس ويستقبلها بعينه ليستدفئ ، وقدرآه الباحثون وراقبوه فوجدوه تارة يجعل جسده أخضر إذا كان على شجرة ، وقد يكون في حال أخرى أصفر ، وإذا تهيج حصل في لونه خطوط متقاطعة على ظهره ، ثم تمتد إلى سائر جسمه تقريبا ، فإذا دام التهيج صار الجسم كله أسود هذا في لونه ، أما حجمه فأعجب فتارة يجعل جسمه كأنه فأرة في زاوية أخذ الرعب منها كل مأخذ ، وتارة ينشر ذنبه ويحنى ظهره ، فيكون كالأسد المزبر ، وتارة يصير كورقة النبات ، ويرى خط أبيض ماربطنه إلى طرف ذنبه كأنه ضلع الورقة ، ثم يرق كالسكين فينكر بذلك أعظم تنكر .

اللطيفة العاشرة : ذكاء الفيلة

مرضت فيلة مرضا شديدا فعالجها أحد العلماء فشفيت وبعد مضي خمس سنين رآته في الطريق فذكرته فأسرعت إليه ، ووضعت خرطومها في يده كأنها تحببه وتشكره على صنيعه ، ثم نظرت ثانيا فدنت منه ومنطقته بالخرطوم كوالدة تضم ولدها بعد فراق طويل ، فانظر إلى عجائب الحيوان والنبات ، واعلم أن هذا وأمثاله مما أمر الله المسلمين أن يعلموه ، وأن يعملوا به في الدنيا ويرقوا مدنهم فيكونوا شاكرين لله ، ومادام المسلمون لم ينظروا ، ولم يعلموا ، ولم يعملوا في الحيوان والنبات باستخراج الثمرات والمنافع ، فانما هم ككافرون لنعمته غير شاكرين لها ، فهذه من آثار قوله تعالى « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة » ، واعلم أن الدين الاسلامي كما قال أحد العلماء الهولنديين كان عند أمة تعرفه في صدر الاسلام فارتقت به ، فلما دخل في هذا الدين أمم جاهلة عقولها غير ناضجة فهمته فهمها معوجا فانحطت ونزلت أسفل سافلين . وهانحن أولاء أبناء محمد ﷺ وتابعيه نفسير القرآن على الوجه الذي نزل لأجله على قدر الامكان ، ونبشر الأمة بأيام سعادتها ، وأن هذا القول وأمثاله من أقوال العلماء سيسرى في الأمة سر يان الضياء والكهرباء ، فالدين ديننا ، وهاهو ذا العلم أماننا ، واللغة لغتنا فادهي المسلمين وأذهلهم الاجهل القائمين بأمرهم الجاهلين باللغة والقرآن الغافلين عن كلام أسلافنا الفضلاء مصاييح الدجى أولى الألباب .

اللطيفة الحادية عشرة

يروى أن واحدا قال لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه انى أتعجب من أمر الشترنج فان رقعة ذراع في ذراع ، ولولعب الانسان ألف مرة لم يتفق مرتان على وجه واحد ، فقال عمر بن الخطاب ههنا ماهو أعجب من ذلك ، وهو أن مقدار الوجه شبر في شبر ، ثم ان مواضع الأعضاء التي فيه كالخاجبين والعينين

والأنف والفم لا يتغير ألبته ، ثم انك لا ترى شخصين في الشرق والغرب يشتهبان في الصورة .

اللطيفة الثانية عشرة : تعاون النبات والحيوان

السنت والنمل

هل سمعت أيها الذكي بملك في قصره يحرسه آلاف الآلاف من الجنود ، وهم يجندلون كل يوم في ساحات الوغى مئات الألوف من الأعداء يقتلونهم حفظا لشخصه وإبقاء لذاته مدى الزمان ، وقد أحاط بقصره منازل خضر يأوي إليها الحراس ، وقد أعد لهم من الطعام كل ماله ، وطاب من ألد الطعام ، كذا انك لم تسمع به لافي الحقائق ولا في الخرافات ، ولكن أسمعك الآن حقيقة واقعة مما نشاهده كل يوم ، والناس ساهون لاهون « وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » ذلك نوع من السنت المدجج بالسلاح من السهام البيضاء تكون له قرون مجوّفة فارغة ، وعلى ورقه نقط من العسل وحوله آلاف الآلاف من النمل تؤمه للقوت تراها صاعدة نازلة لتأكل الحشرات والديدان والسوس والهوام المحيطات بالشجرة الضارات لها المؤذيات لنموها وحياتها ، فهذا النمل يجندل تلك الجحافل ، ويميت تلك العساكر ، ويسكن تلك المساكن ، وهي القرون الخضر ، ويشرب ذلك العسل النقي ، وقد ذكر العلامة [فورل] أنه كان يرى نحو ٣٨ حشرة في الدقيقة الواحدة يجلبها النمل لتكون غذاءه ، فانظر وتعجب كيف أصبح النمل في هذا المقام حارسا للسنت الذي هو أغنى النبات بالسلاح ، وكيف احتاج هذا المدجج القوى البأس إلى تلك الجيوش الجرارة من النمل لتحفظ حياته بقتل أعدائه من الهوام والدود والسوس ، وبهذه الحصلة كان خشب السنت متينا جدا « إن ربّي لطيف لما يشاء » وهذه من جنود الله . قال تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ثم أردفها بما يفيد أنهم مذكرات لنا ، فقال « وما هي إلا ذكري للبشر » وانظر كيف يقول الله تعالى « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » ثم أفاد أن هذا كله في علمه المسكنون ولوحه المحفوظ ، فقال « ما فرطنا في الكتاب من شيء » وقال أيضا « ما من دابة إلا هو آخذ بماصيتها إن ربّي على صراط مستقيم » فلا يفتخر الانسان فالله تعالى مع كل نسمة ومع كل نبات « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » .

اللطيفة الثالثة عشرة : تعاون النبات والحيوان أيضا

الزهر والحشرات

يطوف المرء في الحقول ، والغابات ، والأشجار ، والبساتين الغناء ، وجبالها وعجائب خلقها ، وأزهارها الجميلة الفاتنة من أحرقان ، وأصفر فاقع ، وأزرق زاهر ، وأبيض ناصع ذوات رائحة ذكية عطرية ، وفيها مادة حاوة عسلية ، والحشرات طائفات من زهرة إلى زهرة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهنّ مغنيات فرحات راتعات في بجوحة العيش ونعيم الحياة ، فما كان قصارى خيال الشعراء إلا أن يتذكروا أحبابهم ، والوجوه الجميلة والقدود ، وأوقات الصفاء والهناء ، هذا ما يدور بخواطر الشعراء ، وقد غفلوا عن الحكمة في تلك الحشرات وطوافها والأزهار وألوانها والعسل في أسافلها ، وكيف كان بعض الزهر يتفتح ليلا ، وهو بالنهار مغمض الأجفان فإذا جنّ الليل وأرخى سدوله ظهر بلونه الزاهي الأصفر ، وفاحت رائحته ، وعم شذاه العطر ، فإذا ما طلع الفجر رأيت ذابلا لأجبال فيه ، ولا رائحة ، ولا رونق ، فهو كالخفاش ينام نهارا ويقوم ليلا ، وهو نبات اسمه [القطرب] ثم كيف كان بعض الزهر يغمض أجفانه ليلا ويستيقظ نهارا مخالفا للأول موافقا للناس وأكثر الحيوان ، فهو بالنهار أنس وجال ، وبالليل مسدل الستار غافل نائم ، وذلك هو [الأقيحوان] ثم كيف كان بعض الأزهار يتفتح عند طالع الفجر ، فإذا توسطت الشمس خط نصف النهار وقت الظهيرة أقفلت أجفانها ونامت إلى طالع الفجر من اليوم الثاني ، ويسمونها في بلاد الانجليز [ياولد اذهب ونم عند الظهر] ومن

الأزهار ما فتحت صباحا في الساعة السابعة ، وتنام عند الخامسة مساء ، وهو نوع من الهدباء ، يطوف الانسان في الحقول ، ويرى هذه العجائب ، وهو عنها غافل ، ثم يرى بعض الشجر كالصنوبر والزان والبوداق والسنديان أزهارها صغيرة ولا لون لها ولا رائحة ولا جال ، فيأليت شعري جال فتان في بعض الأزهار ، وعدمه في بعضها الآخر ، ونوم بالنهار ، ويقظة بالليل ، وعكس ذلك ، ما فائدة ذلك كله ، وهل لهذا كله حكمة أم هو مما تموج به الطبيعة موجا بلا عقل يضبطها « ولا هدى ولا كتاب منير » .

أقول : اعلم أن هذا كله قد كشفه العلماء وبخشوا فيه في عصرنا الحاضر فوجدوا أن النبات فيه الذكور والإناث وذلك كالقرع وقد أتى باللقح الذي في الزهرة التي فيها الطلع المذكور ووضعه في الزهرة الأنثى وطينا عثمان باشا مرتضى وأرانيها في حديقة قرب المنصورة فوجدت أن الزهرة في اليوم الثاني قد حلت جلا خفيفا وقال لي إن الناس إذا ألحقوها على هذا المنوال أتت من القرع أضعافا مضاعفة ، وتارة يكون الذكر والأنثى في زهرة واحدة ، ثم إن الذي ينقل طلع الذكور إلى الإناث إما أن تكون الرياح وإما أن تكون الحشرات كالنحل وقد جعل الجال والألوان الزهرة فيها لجلب تلك الحشرات وهكذا الرائحة العطرة تشوقها إلى ورود تلك المناهل ، وأما العسل في داخل الزهرة فأنما جعل ليكون غذاء الحشرة حاملا لها على دخولها فإذا دخلتها حلت على جسمها من ذلك الطلع الذي يرى على تلك الأعمدة التي كأنها مدقات فتطير إلى زهرة أخرى فيقع من جسمها عليها فإذا صادف أن كانت أنثى حلت بالثمرة المطوبة وذلك الطلع كغبار الدقيق كما يرى في طلع النخل ، وبهذا ثبت أن الذكورة والأنوثة عامة في سائر النبات البالغة فصائله خمسمائة ألف .

ولقد بحث العلماء حبات اللقاح في زهرة النبات المسمى عود الصايب فوجدوها من . . . و . . . و . . . إلى . . . و . . . و . . . أليس هذا مصداقا لقوله تعالى « وأنبأنا فيها من كل زوج بهيج » ولقوله « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ولما كانت هذه العجائب مدهشة لب مطيرة للفؤاد حتى يتعلق بمن نظم هذه العجائب أردفه بقوله « ففرّوا إلى الله » قد قلنا إن الحشرات هي الحاملة للقاح من الذكور إلى الإناث ولذلك نراها طائفة في الحقول والبساتين مغنية تجرى في جو من الجال والآمال تطالب العسل من الزهر وتشرب رحيقه المحتوم تخدم أنفسها بالجمال والروائح العطرية وشرب العسل وهي تؤدي عملا نافعا للشجر فانها سبب في بقاء نوعه ودوام جنسه وكأنها تغني طربا كاتغني النساء وهن يزفن العروس إلى بعلها وكأن هؤلاء وهؤلاء فرحات بنعمة البقاء والدوام التي تزف على أيديهن لأنواع المخلوقات ، فاما نوم الزهرات في أوقات مختلفة فذلك مطابق لعادات الحشرات فالزهرات الساهرات تسهر حشراتنا بها لها ، والنائمة ظهرا أو عند الغروب تكون هذه العادة نفس عادات الحشرات فثبت إذن أن هنا علما عجيبا ونظاما بديعا وبدائع وأعمالا متقنة ، وليس الاقحاح خاصا بالحشرات فإن الرياح تلقح كثيرا من الأشجار ، ولذلك نرى أن أزهارها لا جال فيها ولا بهجة ولا رائحة ذكية ولا عسلا فإن الريح لا تحتاج لشيء من ذلك ، وإنما تؤدي عملها بلا شهوة ولا عقل فترى شجر السنديان والصنوبر والزان خاليا من جال الزهر والحليسة والزينة فإن ذلك كله لا يحتاج إليه الريح ولا تعقله ولو أن الحشرات كانت موصلة للطلع في تلك الأشجار لجل الزهر وحسن شكله وظهر عسله وذكت رائحته فإن الله تعالى لا يخلق الأشياء إلا لحكمة ولا حكمة في جال لا ناظر له ، ولا في طعام لا آكل له ، ولا في رائحة لا شام لها وهو هنا الريح ، أوليس هذا مصداقا لقوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » أولست ترى معي أن المسلمين قد قصرُوا وزادوا في التقاعد والتقاعد والنوم والغفلة ، أوليس هذا من مقتضى دينهم ، وكيف يفوز الفرنجة بمعرفة الحقائق التي نطق بها كتابنا وهم لا يعلمون أنها فيه ونحن أجهل منهم بحقائقه ، أفلمست ترى أن المسلمين أولى بهذه العلوم وأحق بها ، اللهم اني نصحت أمتي وعملي جهدي وما كتبت العلم ، اللهم نور

بصائر أولى الأبواب فيها ، وأرهم رشدهم ، واجعلهم نورا وهدى للعالمين .
 وسترى في « سورة الحجر » عند قوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » عجائب الازهار والقاحها مما يدهش
 الأبواب . وفي « سورة الشعراء » عند قوله تعالى « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم »
 فهناك ترى جنة عالية قطوفها دانية من المعارف الجميلة والمحاسن البهجة الشارحة للصدور ، الموقية للعقول .
 ولنختم الكلام في هذا المقام ونبتدىء الكلام على :

تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض

اعلم أن كل هواء هبّ فانه يسمى ريحا ، ومن عجب أن السرعة في الرياح على مقدار ثقلها فاذا كان
 ثقلها على القدم المربعة ٧٢ و ٠ من الدرهم كانت سرعتها ميلا في الساعة وان كان ضغطها ٨٨ و ٢ من
 الدراهم كذلك كانت سرعتها ميلين واذا كانت ٤٨ و ٦ كانت سرعتها ثلاثة أميال ومعظم سرعة الريح
 المسماة زوبعة واعصارا والمسماة زعزعا وزعزعا ٨٤ ميلا في الساعة الواحدة للأولى وواحد وتسعون
 ميلا للثانية وفي النادر أن تجرى في الساعة مائة وعشرين ميلا أو أكثر .

الزوبعة أو الاعصار

ريح تصعد في السماء بالمواد كأنها عمود تثير الغبار والسحاب وقد تحرب الديار وتقلع الاشجار وتحملها
 وتذروا آثارها في الآفاق فيظن الناس أن السماء أمطرت أثمارا وقد تحدث على وجه المياه وترتفع بعض
 حيواناتها فتمطر ضفادع وأسماك وهي نتيجة ريحين عظيمتين متقابلتين متضادتين وقد يحدث بسببها أن يثور
 من السحاب مخروط معكوس تدور به فينحدر من الجو وتثير من البحر مخروطا مستقيما ، فاذا تلاقي المخروطان
 حدث ما تسميه العامة بالثنين ، وقد يكون قطر المخروط مائتي قدم .

عجائب السحاب وحكمه

تعجب كيف كان السحاب ليس يرتفع عن وجه الأرض في الجو أكثر من ستة عشر ألف ذراع وان
 أقرب ما كان مماسا لوجه الأرض وذلك نادر في بعض البلدان إذ لو كان السحاب في كل وقت وفي كل بلد
 مماسا لوجه الأرض لأضرّ ذلك بالحيوان والنبات وأمتعة الناس كما يرى ذلك يوم الضباب وفي البلدان القريبة
 من السواحل مثل البصرة وانطاكية وطبرستان لقربها من البحار فينبأ الناس في غفلاتهم إذ فاجأهم الطلّ
 والمطر والضباب حتى يضيق الصدر ويأخذ النفس وتبتلّ الثياب والامتعة ولو كان السحاب دائما قريبا من
 وجه الأرض لأضرّ الرعد والبرق أبصار الحيوان وأسماعها ولو كان بعيدا شديد الارتفاع في الهواء حتى لا يرى
 لسكان الأمطار والثلوج تأتي مفاجأة والناس والحيوان عنها غافلون لا يتحرزون فيكون الضرر عاما كما قال
 تعالى « وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء
 فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » فتعجب كيف كان السحاب يأتي غالبا عند الحاجة إليه وليس يكون بعيدا
 جدا فلا نحترس منه ولا قريبا جدا حتى نستضرّ به فبعده وقربه بحساب وكثيرته وقلته بحساب ولودام متواصلا
 لقتل الخلائق « وكل شيء عنده بمقدار » وانظر كيف جعل الله بعض الاماكن يقل فيها المطر ولا أنهار فيها لتكون
 فاصلا بين الممالك والقارات أو لتكون ملتجأ ومأوى للفارين من الظلم وتكون ملطفة للهواء منقية لجفافها
 والالتعفن بتواصل العمران ولم يكن هناك خلاء نقي . ولما كانت هذه العجائب لا يفهمها إلا العقلاء قال تعالى :
 « ان في خلق السموات إلى قوله آيات لقوم يعقلون » .

السحاب والسفن يجريان بالبخر والكهرباء

ذكر الله الفلك في هذه الآية وذكر السحاب والرياح ولقد تشاركت السفن والسحب في أنها جميعا تجرى بالرياح والكهرباء ، لقد أضأت لنا يا الله السبل وأريتنا العجب وأسبغت علينا النعم فأريتنا السحاب تجرى بالرياح مسخرات في جو السماء والهواء يسوقها لسقى الأرض فيخرج النبات ويحيي الحيوان . ولقد جعلت بحكمته الأرض والجبال وطبقة الزمهرير الباردة أشبه بالجمام فالشمس المشرقة المحرقة الساطعة على البحار أشبه بالنار في الجمام وماء البحر أشبه بالماء الذي يسخن فيه ، والبخر الصاعد من البحار في الجو أشبه بالبخر الصاعد في الجمام ، والجبال الشاخات المانعة للسحب أن تهيم على وجهها بل تحبسها فتسقى المروج والبطائح وزاء الجبل كحيطان الجمام الحافظة للبخر ، والزمهرير الذي يعلو إليه البخر فيبرد فيتجمع ماء فينزل مطرا أشبه بسقف الجمام يتراكم عنده البخر الصاعد فيتساقط ، سبحانه ربنا أريتنا أن الجبال أشبه بالسدود والبحسوس وهي التي يسميها العامة في مصر بالخزانات تصد الرياح الجاريات بالسحب حتى لا تجاوزها فتحبس المطر أمامها فيسقى الزرع ويدبر الضرع والجبل كما يحفظ الماء في السحاب أن يجاوز البطائح التي أمامه ، هكذا نراه قد خزن الماء في جوفه الذي ينزل من المطر أو من الثلج الذي سطعت عليه الشمس فذاب قليلا قليلا وخزن في باطنه ثم برد فكسر الصخر كما ذكرناه قبلا فكان منه العيون الجاريات وبها تكون الأنهار ، فالجبل حفظ الماء في الهواء وفي باطنه .

اطلع بعض المغرمين بالمجائب على السحب من فوق الجبال الشواخ ، فرأوا أن السحابة قد تبلغ قاعدتها عشرين ميلا مربعا وسمكها ميل ، ورأوا السحب صاعدة من الخضيض جارية الى تحت أقدامهم ، ومن السحب ما لا يزيد سمكها عن عشرين قيراطا ، وأدنى السحب ما كثرت فيها الكهرباء ، ومسير السحب الرياح غالبا ، وكثيرا ما شوهد زمن سكون الرياح سحائب صغيرة متقابلة تجاذبت وكانت إحدى المتقابلتين كهربائيتها موجبة والأخرى سالبة فتقابلتا بذلك التجاذب . فانظر كيف أمر الله الكهرباء أن تقوم بتسيير السحاب اذا ركبت الرياح فجرت تلك السحب ، ثم كيف كانت السفن في البحار تجرى بالرياح كالسحاب واستعملت الكهرباء أيضا في تسييرها وجريها في البحار ، أفليس حب الله الذي سأشرحه لك في المقال الآتي يوجب على المسلمين أن يأخذوا بأسبابه ، وأسبابه كما سترى هو العلم بما صنعه المبدع الحكيم ، والارتفاع به ، وقبول نعمه بالعمل ، ويكون ذلك هو الشكر ، أرسل الله سبحانه الكهرباء فسخرها ، فجرى السحاب ، فجاء الانسان ونظر صنعة ربه فقلده ونقلها الى السفينة . ان ذلك يا الله قبول منا لهديتك ، وشكر لنعمتك ، ألا واني أشهد أننا معاشر المسلمين مقصرون في حبك ، والاطلاع على عجائبك ، والولوع والغرام بمصنوعاتك .

جرت السفن في البحار تارة بالرياح وتارة بالبخر وآونة بالمجاديف التي يقاوم الانسان بها الماء فتسير الى الأمام ووقتا سلط الانسان الطاقة الكهربائية المتولدة من الطاقة [الميكانيكية] [الحيلية نسبة لعلم الحيل] لما يسمونه بخار التريية على محركات السفينة وهي المجاديف أو الرافعات ، وقد أسفر ذلك عن نجاح باهر كما ذكرته المجلات الانجليزية ، فجرت السفن كما جرت السحب بالكهرباء وبالرياح والبخر المتولد من الماء والحرارة بالفحم أو غيره كالهواء في ضغطه فهو ملحق به معنى ، فسبحان الذي علم الانسان ما لم يعلم ، ولقد جعلت يا الله حركات الماء كلها بركات فاذا جرى في الأنهار كانت قوة اندفاعه من أعلى كما في خزان [سداو عرم] اسوان بمصر فيها قوة لاستعملت لولدت كهرباء أجرت جميع التطارات في البلدان ، ولأثارت جميع القرى والمدن ، ولأغنتهم ولكن ما كل ما يمتنى المرء يدركه ، فالحركة تولد الكهرباء بجميل علمية كما تكون منها الحرارة ، ومن الحرارة

الضوء وهكذا ، والماء بلطفته يندفع بخارا فيجري السفن والقطرات ، فهو ماء مبارك ونعم عظيمة « فبارك الله أحسن الخالقين » .

ولقد جعلت يا الله هذه السفن الماخرات في اليم في حاجة الى النجوم السيارة يعرفها العاملون فيها بجداول حتى يلاحظوها في أسفارهم ومعهم البوصلة وهي بيت الابرّة المعروف تكون فيه تلك الابرّة المغطسة الناضرة في اتجاهها الى الشمال والى الجنوب كأنها تقول : اذا غاب النجم الذى به تهتدون كما قال الله : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » فأنا أقوم مقامه ، وأهديكم في ظلمات البحر ، لأن هداية الله تتم سائر الأقطار بالليل والنهار والظلمة والنور ، فعلم الكواكب وتقويمها من النعم ، والبخار من النعم ، والكهرباء من النعم ، وحركات الماء من النعم ، وعموم الكهرباء في أجسام كثيرة من النعم . كل ذلك والمسلمون نأمنون كأن هذا القرآن جاء لغيرنا ، وكأنا من سكان المريح ، وكأن الذين يعقلون هذه الآيات غير المخاطبين ، فإليك يا الله أضرع أن تقر عيني باستيقاظ المساميين « ولننصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » ، ان ذلك هو الحب ، فالحب والعشق والشوق كلها ترجع للعلوم . ولذلك ذكر آية الحب بعد هذا فقال :

(المقصد العاشر)

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلَى نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ

بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا
فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ *

التفسير اللفظي

قال الله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا) أى من الأصنام والرؤساء (يحبونهم) أى
يطيعونهم ويعظمونهم تعظيم المحبوب (كحب الله) كتعظيم الله والخضوع له ، أى يحبون الأصنام كما يحبون
الله ، يعنى يسوّون بينه وبينهم فى محبتهم ، لأنهم كانوا يقرّون بالله ويتقرّبون إليه ، وقيل : يحبونهم كحب
المؤمنين لله (والذين آمنوا أشدّ حبا لله) من المشركين لأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره بحال ، والمشركون
يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد فيفزعون إليه ، وقوله (ولو يرى الذين ظالموا إذ يرون العذاب)
أى لو يعلم هؤلاء الذين ظالموا باتخاذ الأنداد إذا عاينوا العذاب يوم القيامة (أن القوّة لله جميعا وأن الله شديد
العذاب) لو يعلمون شدّة عقابه للظالمين لندموا أشدّ الندم ، وقوله (إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا)
بدل من إذ يرون (ورأوا العذاب) أى راين العذاب والواللحال ، وقد مضى ، وقيل عطف على تبرا (وتقطعت
بهم الأسباب) وهى الوصل التى كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد ومن الأنساب والمحاب (وقال الذين
اتبعوا لو أن لنا كرة) لولتمنى وجوابه (فتبرا منهم كما تبرا منا كذلك) أى مثل ذلك الإبراء الفظيع
(يرىهم الله أعمّاهم) أى عبادتهم الأوثان (حسرات عليهم) ندامات وهو مفعول ثان ليرىهم ، ومعناه أن
أعمّاهم تنقلب عليهم حسرات فلا يرون إلا حسرات (وما هم بخارجين من النار) بل هم فيها دائمون ، وقوله
(يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) نزلت فى قوم حرّموا على أنفسهم أحسن الأطعمة والملابس ،
والحلال المباح الذى أباحه الشرع وانحلت عقدة الحظر عنه ، والطيب قيل المستلذ ، وهذا ليس بجيد ، لأن
المدار فى الطعام على نفعه فى الجسم صحة واعتدالا (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) لا تقتدوا به فى اتباع الهوى
تحريرا وتحليلا ، والشيطان هو الشهوة والغضب عند قوم ، أو هو مخلوق حى يؤسوس للناس وهو ظاهر الأحاديث
(إنه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء) بيان لعداوته ووجوب التحرّز من
متابعته ، والفحشاء ما أنكره العقل ، وقوله (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) فى موضع الجر بالعطف على
بالسوء أى وبأن تقولوا كأن تقولوا هذا حلال وهذا حرام بغير علم ، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى
مما لا يجوز (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله) الضمير للناس وهم المشركون أو اليهود لما دعاهم النبي صلى الله
عليه وسلم إلى الإيمان واتباع القرآن (قالوا بل نتبع ما ألفينا) وجدنا (عليه آباءنا) فانهم كانوا خيرا منا وأعلم
فردّ الله عليهم بقوله (أ) يتبعونهم (ولو كان آبؤهم لا يعقلون شيئا) من الدين (ولا يهتدون) للصواب ، ثم
ضرب لهم مثلا فقال (ومثل الذين كفروا كمثل) بهائم (الذى ينطق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) النعيق
التصويت ، يقال نعق المؤذن ونعق الراعى بالضأن ، والنداء ما يسمع ، والدعاء قد يسمع وقد لا يسمع ، والمعنى
أن الكفرة لانهمما كهم فى التقليد لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم ، ولا يتأملون فيما يقرّر معهم ، فهم فى ذلك
كالبهائم التى ينطق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه ، وتحسّ بالنداء ولا تفهم معناه (صمّ بكم عمى) رفع على
الندم (فهم لا يعقلون) الموعظة ، ثم بين أن ما حرّمه المشركون حلال بقوله (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات
ما رزقناكم) أى من جيده فى منفعتكم وفيما هو أصحّ لأبدانكم أو حلالا لكم (واشكروا لله) على ما رزقكم
وأحلّ لكم (إن كنتم إياه تعبدون) ان صحّ أنكم تخصّونه بالعبادة ، ثم بين المحرّم فقال (إنما حرّم عليكم

(الميتة) وهو كل ما فارقه الروح من غير ذكائه مما يذبح ، أى ما حرم عليكم إلا الميتة (والدم) أى السائل لقوله فى آية أخرى : « أودما مسفوحا » (ولحم الخنزير) أى الخنزير بجميع أجزائه (وما أهل به لغير الله) أى ذبح للأصنام فذكر عليه غير اسم الله ، وأصل الاهلال رفع الصوت ، أى رفع به الصوت للصنم ، وكانوا فى الجاهلية يقولون : باسم اللات والعزى (فن اضطر) أى ألجئ فأكل حال كونه (غير باغ) للذة أو شهوة أو للاستئثار على مضطر آخر (ولاعاد) متعمداً مقدار الحاجة وسد الرمق ، أو الجوعة ، أو غير باغ على الوالى ، ولاعاد بقطع الطريق ، فعلى هذا لا يباح للعاصى بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعى وقول أحد رجهما الله (فلا إثم عليه) فى تناوله (إن الله غفور) لما فعل (رحيم) بالرخصة فيه فياً كل الميتة عند الضرورة شبعاً ولا يتزود منها ، ومعلوم أن الهدايا والمأكول والرشا التى يقدمها المرءوسون للرؤساء الذين يضلون عن سبيل الله ليست حلالاً كالتى يأخذها رؤساء اليهود ، فلذلك أعقبه بقوله (إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً) عوضاً حقيراً (أولئك ما يأكلون فى بطونهم) أى ملء بطونهم (إلا النار) لأنه إذا أكل ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكأنه أكل النار (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) كلما يسرهم ولكن استحقوا قوله : « اخسئوا فيها ولا تكلمون » (ولا يزكهم) ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم (ولهم عذاب أليم) ولم (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة) بكتان نعت محمد ﷺ للطامع والأغراض الدنيوية (فأصبرهم على النار) تعجب من حالهم فى الالتباس بموجب النار من غير مبالاة (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) أى ذلك العذاب بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق فرفضوه بالتكذيب أو الكتمان (وان الذين اختلفوا فى الكتاب) أى فى جنس الكتاب فيقولون فى بعض كتب الله أنها حق وفى بعضها باطل (لن شقاق) خلاف (بعيد) عن الحق . انتهى التفسير اللفظى .

إيضاح

إذا قيل للمشركين اتبعوا القرآن جنحوا الى التقليد ، وهكذا اليهود ، وقوله « أولو كان آبائهم » الهمزة للتعجب ، وهذه الآيات تدعو الى التنفير من الانقياد الأعمى للزعماء ذوى الأغراض الساقطة كملوك الاسلام السابقين فى الدول الاسلامية فان كل من أغرى قوماً بما لا ينبغي ثم وقعوا فى العذاب إما فى الدنيا بالأسرو وغيره وأما فى الآخرة بجحهم تبرأ المتبوعون من التابعين وندم التابعون على انقيادهم الأعمى ، وهذا هو الداعى لتأليف مجالس الشورى فى الاسلام ، لأن القادة لا يندفعون الناس فى الحساب الدنيوى ولا الآخروى ويقع الذلل على الأمة ، فتارة يفتكون بالقادة كما حصل فى اليونان أيام تأليف هذا الكتاب قتالوا وزراءهم لما أوقعوهم فى حرب كانت عليهم وبالاً . وتارة ينجو الرؤساء كما هو غالب فى العالم مثل [ولسن] فى أمريكا أضرب بأمته فى الصلح وخانهم ولم يقتلوه ، وقوله « ومثل الذين كفروا الخ » أى مثل داعى الذين كفروا الى الايمان كمثل الراعى الذى ينق بغممه وهى لا تسمع إلا دعاء ونداء فهى لا تعقل ، وقوله « انما حرم عليكم الميتة » أى أكلها « والدم » وقد كانت العرب تجعل الدم فى المصارين ثم تشويهه وتأكله فحرم ذلك .

هنا أبان أن دين الاسلام دين أساسه العلم ، وعماده النظر ، وسقفه الحكمة ، فن قلدوا فى أعمالهم وآرائهم فأولئك هم الضالون ، إذ تبرأ المتبوعون من التابعين ، وقد أحاط بهم العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب وقال التابعون : لقد ظلمتمونا بأقوالكم ، وأذيتونا بأفكاركم ، وبأليت لنا كرة الى الدنيا ورجعة الى الحياة فتبرأ منكم كما تبرأتم منا ، وهذا المقام سنوفيه حقه قريباً لشدة حاجة الأمة الاسلامية اليه فى هذا الزمان ، وأكثر الناس فى الحياة صمم عن أن يسمعوا النداء ، عمى فلا يستطيعون الاهتداء ، فهم لا يسمعون ولا يبصرون

واذا قيل لهم انظروا بعقولكم واتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما كان عليه الآباء ، أ يكون ذلك ولو كان الآباء لا يعقلون ؟ ومن ذا الذي يقتدى بالعميان ! قتل الانسان ما أشد جهله ، وأقل علمه ، ولعمرك ما حرمت الأنعام وإنما حرمت الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذكر اسم غير الله عليه ، ويحل ما حرم من ذلك للمضطر اذا لم يبلغ على الرفقة الآكلين فيما يأكلون ولم يجاوز الحد فيملاً المعدة ولا يجتري بما يستد الرق فهذان محرم عليهما الرخصة ، شأن الأم اذا دنا أجلها وذهب مجدها أن تستبدل الترهات بالحكمة وأقوال السجالين بالعلم كأهل سبأ إذ ربطوا هررهم بجانب عرهم لما أعرضوا عن حكمهم ، وجهلوا نظام العمران ، وهندسة البنيان ، وهكذا العرب الجاهلون لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم نسوا دين ابراهيم ، وماتت عقولهم ، وذلت نفوسهم ، وتخطفتهم الأمم المحيطة بهم من كل جانب لولا حمية جاهلية وشنينة عربية ، فكانوا يحلون ويحرّمون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، والمسلمون اليوم حذوا حذوهم ، واتبعوا خطوات غيرهم ، واعتزلوا عقولهم ، إلا من رحم ربك ولذلك أنزل الكتاب لهم . ولأخلص الكلام في مقامات ثلاث في هذه الآيات . المقام الأول : الحب ، الثاني : الرؤساء والمرءوسون . الثالث : الحلال والحرام . وهاك بيانها :

المقام الأول : الحب ، والعشيق ، والشوق ، وما معنى حب الله

اعلم أن كل ما حولنا ونشعر به ونعلمه بالنسبة لنا ينقسم قسمين : موافق ومنافر ، فكل موافق أحبيناه ، وكل منافر كرهناه ، فالحب والبغض تابعان للموافقة والمنافرة ، لافرق في ذلك بين الطيور في وكنائنها ، والآساد في أجامها ، والحيات في أوكرها ، والنحل في بيوتها ، والناس في منازلها ، والملوك على عروشها ، والأنبياء والحكماء ، قاعدة عامة لا يشذ منها شيء في العالمين . الحرير والورد والعسل ، والصور الجيلة ، والنغمات الموزونة مع الأصوات الحسنة نجبها لموافقتها لحاسة اللمس والشم والذوق والبصر والسمع . والشوك والروائح الخبيثة والحظل ، والصور القبيحة ، والأصوات المنكرة ، نكرها لمنافرتها للحواس المتقدمة على الترتيب المذكور . فهذه عشر صور خمس للمكروهات ، وخمس للجويزات ، وهكذا سائر ما حولنا من الناس والدواب والمعادن والنبات ملحق بهذه العشرة مقسم الى هذين القسمين .

الخيال والتصور

ثم اننا اذا غابت عنا تلك الصور الجيلة ، والنغمات اللذيذة ، والمطعمات الحلوة ، والمشمومات المرغوبة ، فانا نتصورها بقوة الخيال ، ونستحضرها في العقول ونتذكرها ، ولنا فيها ما رب شتى هناك فنستلذ بحضور صورها كأنها مشاهدة ، أو بالاستنتاج من أحوالها ، أو بتذكر ما كان منها ، وهذه لذة تحاكي لذة الاحساس ولكنها أضعف منها ، وهكذا الصور المكروهة تتصورها فتؤلمنا كأنها حاضرة ، ولكن الألم يكون أقل لأن هذا خيال وذلك حقيقة .

العلم

ثم اننا لا تقتصر في الحب على المشاهد فاننا نجب المحسنين في أي ملة ودين ونحلة ، ونحب الشجعان الذين حكيت لنا قصصهم وتوارى نخبهم ، ونحب الحكماء والعلماء وأرباب الجلال وإن لم نشاهدهم ، فاننا نرى أن العامة الذين يسمعون قصة عنتره يهيمون غراما بعبلة وبزوجها ، ولا يهيناً لهم طعام ولا شراب إلا بذكر تلك الأسماء ومدحها واعظامها واجلالها . نرى المتعلمين العصريين يعجبون بنا بليون لشجاعته وهمته . نرى فريقاً من الناس يحب عيسى ، وفريقاً يحب بوذا ، وفريقاً يحب موسى ، وفريقاً برهمة ، وفريقاً كونيشتيوس . كل ذلك تابع للعلم بتاريخهم ، والاطلاع على عملهم ، فالشجعان والعلماء محبوبون ، والمحسنون والصابرون والصادقون ،

ان ذلك راجع للجمال العقلي . وكل ذلك لموافقته لظننا ونفوسنا ، ونحن نكره الخير بين للأثم وننفر منهم مثل نبرون وقراقوش الظالمين ، ونكره الجهال والجناء والكسالى ، لأن ذلك لا يوافقنا .
وبالاجال المحبوب والمكروه يكونان في المحسوس والمعقول بهذا البرهان ، وبهذا تبين أن المحبة والبغض تابعان للعلم ، والعلم إما بمحسوس أو معقول .

العشق

فاذا ما تمادى الانسان في حب شيء ودام على ذلك ، وغفل عما عداه ، وصار هو همه الشاغل له ، كان ذلك عشقا ، فالعاشق يكون مولعا بمعشوقه لا يحب أن يفارقه ، والعشق الانساني الذي هو المظهر المحسوس معروف متداول بين الناس ، والجمهور لا يفهم من العشق إلا هذا المعنى مع أنهم يجدون التاجر الذي نسي كل شيء إلا تجارته ، والصانع ، والمزارع ، والقائد ، والعالم ، والمهندس الذي خلبت الهندسة عقله ، وسلبت له ، حتى لا يرى أجل الصور أمامه لشدة شغفه بالهندسة ، فنحن نسمى المهندس والطبيب والتاجر والقائد الذين سلبوا حب كل شيء إلا ما هم فيه من هندسة وطب وتجارة وحرب نسميهم عشاقا ، إذ القاعدة في الحب والعشق أن ننظر الى ما فضل على ما سواه عند المحب العاشق ، ونقيس نفسه بمن جلس على مائدة وأمامه التفاح والموز فننظر الى أيهما تمتد يده فلا شك أنه يقدم عند الأكل أشهما لهما لنفسه فنقول : هذا يحب الموز أكثر من التفاح مثلا ، هكذا اذا رأينا رجلا يحدث الجليسين ويقبل على أحدهما بوجهه أكثر علما أن حبه له أكثر من حبه للآخر ، ونرى الشاب القوى البنية له خطيبة جميلة مرغوبة قد يفضل السفر والغربة الى أوروبا ليحيي قلبه بالعلم ويتحمل مريض الفراق ، فنحكم بأن هذا الشاب فضل العشق العقلي وهو الرقي في الحياة على العشق الحسي ، عايناهم هذا أن الحب يكون للعلم والقدرة التي هي الشجاعة والاحسان والجمال ، فالعالم محبوب ، والشجاع محبوب ، والمحسن محبوب ، والجميل محبوب .

حب الله

وعند النظر في هذه العوالم المشاهدة ، والتأمل في جاهلها وبهاثنا نجد هذا الجمال والبهجة والحسن في الورد والزهر والشمس والقمر والكواكب والنجوم وجميع الصور الجميلة الخالصة للعقول الجاذبة للنفوس انما هي نقوش في هذه المادة ، والمصور لها أجل منها ، وهي مظاهر ذاته كما يقول الصوفية ، وكما رأيت في كلام [سبنسر] وهكذا علم العلماء ، وحكمة الحكماء ، ونبوة الأنبياء ، انما هي من عنده ، فهذه العوالم المشاهدة تدلنا أن صانعها أقدر من نابليون وعنترة ، وأعلم من عيسى ومحمد والجمال لعزة وليلى من جلاله ، فالجمال له ، والعلم له ، والحكمة له ، والقدرة له ، ونحن قد قررنا أن الحب يكون على مقدار الموافقة ، ولو أن المحبوب كان جميل الصورة ، حسن النعم ، حسن الخلق ، عطر الرائحة ، فصيحيا ذكيا عالما ، لكان ذلك فوق كل جلال ، ومن عرف هذه الصفات فيه غاب عقله وفنى فيه وأصبح هائما ، بل ربما سلب له وعقله . هذا عند المدرك له ، لأن من ذاق عرف ، ومن عرف أحب ، ومن زاد حبه عشق ، ثم يكون الوله والفناء ، فأما من قل ادراكه فانه لا يعرف إلا على مقدار ما وصله ، ألا ترى أن الأعمى لا يدرك الصور الجميلة ، والأصم لا يعرف جلال النغمات فهذان لا يمكن أن يعقلا أو يتصورا صور الجلال والبهجة النغمات ، فالمدار على المعرفة في المحبة ، ومن جهل شيئا عاداه ، ولذلك نجد الأمم تنشر لغاتها وعاداتها بين الناس لتحب ، فأما المجهول فهو نبوذ ، فمن تحقق في الله أنه هو المتصف بالجمال والقوة والعلم والاحسان ذابت أمامه صورة عزة وليلى ، ورأى عنده من العلم والقدرة والاحسان ما لا يدانيه علم عالم ولا نبى ولا حكيم ، ولا احسان محسن ، ولا قوة شجاع ، وحينئذ يصبح هائما في جلاله وعامه وقوته واحسانه أكثر من كل جميل عالم مقتدر « وأن الى ربك المنتهى » .

الشوق

قد قدّمنا أن المحبوب اذا غاب عن عياننا حضر بصورته في خيالنا ، ونقول الآن ان هذه الصورة تحثنا أن نستكمل مشاهدتها لأن حضور الصورة في الخيال ناقص والنفس تحب أن تتمتع بالرؤية التامة ، وهذا هو الشوق ، فالشوق حاضر بعرضه غائب بآقيقه ، والنفس لا تنفك تجدد حتى تستكمل التمتع بالجمال ، وعلى ذلك نشاق الى المحبوب لنراه ونستكمل المشاهدة وهكذا اذا نظرنا وجه المحبوب تطلعت النفس إلى بقية جماله وماخفى وراء ذلك ، فالمطلوب للشقاق إما غائب كان حاضرا واما حاضر ستر بعرضه ، فهو يود استكمال باقيه بالمشاهدة ليكمل له ما أراد .

الشوق لله

ولا جرم أن هذا العالم المشاهد بهجة وجمال وحسن وكمال ، فالسكواكب بحساب ، والنبات منظم عناصره الداخلة فيه ، وكل شيء بمقدار في هذا العالم ، ومن ينظر ليلا للنجوم يجد من البهجة والحسن والنضارة ما يذهل عقله ، وانما غاب هذا الجمال عن الجهال لأنهم أشبه بالعميان أمام الغادات الحسان ، وبالصم عند سماع الأوتار في أيدي القيان ، ولم تفتق لهم الحاسة التي بها يدركون ، ومن الموانع لمعرفة هذا الجمال أنه مبذول لكل انسان ، ولقد قدّمنا في هذا التفسير أن أكثر النوع الانساني عبيد العضا فاذا قرعهم الله بعصاه وأدبهم وأنزل عليهم البلاء ، ثم نفحهم رحة من عنده حمده لأنهم لا يعرفون النعمة الا بعد البلاء كالحيوانات العجم ، هكذا لا يعرفون الجليل الا إذا اختبأ عنهم وترفع حينئذ يعزّ عليهم ويعظم في أعينهم ، فلما المبذول لهم فهو مبتذل والسماء وجاها أجل من الجواهر واليواقيت والصور البديعة المتعلقة في القصور ، ولكن الناس لجهلهم وقصورهم لا يعقلون من الجمال الا ذلك الحقير الذي في قصورهم أودورهم كالليرة والمرجانة ، ولعمرك ليس في الأشجار الثمينة من الجمال إلا أثره بالنسبة للسكواكب [وقال الامام الغزالي] مامعناه .

ان الناس لا يفرحون بالسكواكب لأنها مبذولة لهم ، وهي لانسبة بين جاهاها ، وجمال الحدائق الغناء في الأرض ، وتراهم إذا راوا واحدة قدم منعوا من دخولها ازدحوا عليها لأنهم مغرمون بالمنوع معرضون عن المبذول . أقول : ولذلك قلّ الأنبياء والحكماء في نوع الانسان الذين أدركوا الجمال وافرغوا لهداية الناس فهم المغرمون بالعجائب لأنهم عرفوا واشتاقوا فشوقهم لله يحثهم على البحث في جمال العالم ولا يزالون يجدون ، وكلما وصلوا إلى جمال طمعوا فيما وراءه ، ولهذا تجد الحكماء يقرءون سائر العلوم ، وهي حقيقة الجمال ، ثم يطمعون فيما وراء ذلك من المباحث بأفكارهم ويجدون لذة لا يعرفها سواهم كما لا يعرف الأعمى جمال الصور ولا الأصم حسن النغمات ، فهؤلاء مدفوعون بحب الجمال هائمون ، وكذلك يريدون أن يستكملوا الجمال فانهم في هذه الدنيا مغمورون في المادة يقرءون العلوم ، وينظرون جمال النجوم ، ويعلمون أن ذلك قشور ، وأنهم بالموت أو بالتجرد من المادة يطلعون على حقيقة الجمال ولا يزالون يجدون في تصفية نفوسهم وتقوية ملكاتهم ، حتى إذا ماتوا وصلوا إلى الجمال الحقيقي كما أن العاشق إذا قابل من أحبه تتمتع بالجمال الأكمل ، فههنا طلب العاشق الأمرين : زيادة الاطلاع على الجمال ، وحضور ما غاب من المحبوب كما في العشق المادي الذي شرحناه [ان الناس] مغمورون في الجمال من شمس ، وقمر ، وكواكب ، وعلوم ، ورياض ناضرات ، وحقول بهجات ، وأكثرهم نائمون ، فتبين أن حب الله راجع إلى الغرام بالعلم ، والغرام بالعلم يرقى الأثم [ونتيجة القول] أن حب الله قليل بين المسلمين لأنهم عن العلم معرضون ، وبالجهل قانعون ، ولقد اكتفى الصوفية الصادقون منهم بحجة الله الجزئية لا الكلية ، وبالفتوح في السواثر التي خلقوا فيها من تهذيب الأخلاق أو نحوها ، وهذا والله قصور وعيب

فالعلم بالتعلم ، وحرام على رجال الصوفية أن يقصروا في حث تلاميذهم المستعدين على قراءة العلوم الغربية والشرقية ، والتفكير ، والتعقل ، وليكن ذلك على مقدار الاستعداد ، فحب الله يرقى المسلمين ، وبالأعراض عن حبه وجهلهم به أصبحوا عرضة للطامعين ، فأين حب الله أيها المسلمون ، وما الحب إلا نتيجة العلوم ، فأين العلوم ، وأين الحب « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

عجيبة

اعلمك أيها الفطن تقول : وهل قوله تعالى « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله » يفيد هذا الذي أطلت به .

أقول : على رسلك لماذا جاءت عقب قوله : إن في خلق السموات والأرض إلح أعني لماذا ذكرها الله بعد أن ذكر السماء ، والأرض ، والليل ، والنهار ، والسفن ، والنبات ، والحيوان ، والرياح ، والسحب ، هل هذا الترتيب لغير فائدة كلاً ، وإنما يقول إن حبي تبع للعلم ، فعلى مقدار العلم يكون الحب فتعجب من الترتيب العجيب ، وبهذا فلتعرف معجزة الأنبياء ، فلعمرك إنها لمعجزات دائمة ، وقال ابن الفارض فيمن غرهم العلوم اللفظية وأعرضوا عن الحقائق :

ولا تلك ممن طيشته دروسه * بحيث استخفت عقله واستقلت

وقال شكسبير الانجليزي شعرا ، وقد ترجمته من قبل إلى العربية :

إذا كان هذا الكون يكاؤه الذي * براه فأولاه الجلال وتما

فما ذا يراه عاقل غير أنه * قصور جنان الخلد رصعن أنجما

وقال سنيكا الروماني : « ما أعجب أمرك أيها الانسان وما أشد غفلتك ، لو أن امرأ وهب لك أيها الانسان قطعة من أرض محدودة لشكرت نعمته ولأوليته حمدا كثيرا ، أولم تعلم أن الله وهب لك الأرض بأقطارها وفجاجها المتسعة الأرجاء البعيدة المدى فهلا شكرته عليها وهلا عرفت نعمته ، ولو أن امرأ وهب لك تقودا من ذهب أو فضة لأكبرت فضله ولأجلته أعظم الاجلال ، أولم تعلم أن الله قد خزن لك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة في الجبال ، أفلا شكرت نعمته وأعظمت آلاءه ، ولو أن امرأ أهدي لك بيتا فخما لحسبت أنه خير المحسنين ، ولكنك مولاه ورهين إحسانه مدى الحياة ، أفلا تعرف نعمة الله عليك في هذا البيت العظيم الذي أعطاكه سقفه القبة الزرقاء المرصعة بأجل الدراري ، وأسفله هذه الأرض التي تسكنها ، ألم تر الشفق والبدر المنير ، قل لي بحقك من أين جاء النور لعينيك ، ومن ذا وهبك الدم فكنت به حيا ، أولم تحس بالجوع فأكلت فعرفت فضل الله عليك ، ألم يهب لك أنواعا من الأنعام ، وأصنافا من الحيوان غذاها بالسكلا وقواها بمرعائها ، أيها الانسان اجد الله الذي خلقك ، ولم تكن شيئا مذكورا ، وأخرجك من الظلمات وجعل لك نورا » هذا كلام [سنيكا الروماني] وذلك كلام [شكسبير الانجليزي] .

أيها المسلمون أفلسنا نقول لهم نحن أحق بالله منكم نحن أرباب الديانات موسى ، وعيسى ، ومحمد عليه الصلاة والسلام ، فكيف يكون منهم من يهيم بفعل الله تعالى ويقبل فينا مثلهم اليوم ، نقلت لك كلام [سبنسر] وهو فيلسوف الانجائز واللورد [افبرى ، وسنيكا ، وشكسبير] في مواضع مختلفة ، أفليس المسلمون أولى بالعلم منهم ، هؤلاء عرفوا العلم بعقولهم ، ونحن لنا عقول ، ولنا نبي منا ، وقد جاء في القرآن « يحبهم ويحبونه » وجاء هنا « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله » ، وإنما كان الذين آمنوا أشد حبا لله لأنهم هم الذين يعرفون العلوم فيدركون جلاله ، وأين المدركون الجلال إلا القليل وسيكثر فينا هؤلاء إن شاء الله ، نعم فينا محبون عاشقون لله من طائفة الصوفية ، ولكن يجب أن يكون طوائف

من المسلمين منهم ، أو من غيرهم تدرس هذا الوجود كما درسه غيرنا ، فإن التقصير في ذلك نقص في حب الله وعيب فاضح في الأمة « والله هو الولي الحميد » .

ومن الغرام بالجمال والعلم والحكمة والنظام الذي امتاز به الناس عن الحيوان وازداد به الحكماء عن العامة ماجرى أثناء تأليف هذا التفسير من ذلك الحادث الجليل العجيب المدهش الذي ارتجته الأرض وتجاوبت بذكراه أصداء البرق وخرت لعظمته الفحول من الحكماء سجدا وصار موضوع أعجاب العامة والخاصة ذلك هو كشف مقبرة بالوجه القبلي من بلادنا المصرية لملك تولى عرش مصر العليا والسفلى سنة ١٣٧٥ قبل الميلاد يسمى [توت عنخ أمون] فيكون قدمضى لها نحو (٣٢٠٠) سنة ووجدوا بها من التماثيل والأحجار الثمينة والصناعة الدقيقة مالا نظيره في عصرنا وفي هذا الكنز لحم وفاكهة تملأ خسا وعشرين حقية لاتزال حافظة شكلها ، وفيه مركبات [عربات] مرصعة بأحجار ثمينة وعلمها كتابة هيروغليفية ومتكآت وثياب رقيقة وتيجان مرصعة بأحجار ثمينة مختلفة وعلى كل تاج ثعبان عجيب وهناك من الأدوات والزينة ودقة الصنعة ما لم يحصر عند كتابة هذه الأسطر . وقال العارفون : ان جمال الصنعة والاتقان في هذا الكنز أظهرت أن اليونان والرومان كانوا أطفالا بالنسبة لما شوهده في هذه العجائب ، ان جميع العالم في الشرق والغرب دهشون والكاشف له رجل انجليزى مغرم بالعلم والبحث فيكون هذا من أنواع الغرام بالجمال والحكمة والصناعة والرجل صرف مالا كثيرا للغرام بالعلم وقضى سنين وليس له من الكنز الا نشر العلم ، ولعلك تقول مالتفسير القرآن ولهذا الحادث ، أقول نحن الآن في مقام حب الله تعالى وقد قررنا أن حب الله يدعو للبحث في جمال صنعته واتقانها وكما زدنا بحثا زدنا سعادة

وعلى تفنن واصفيه بحسنه * يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

فاذا رأينا الناس يقدسون هذا الملك المصرى لظهور آثار دولته واتقان صنعته فما ذلك الا لثمنها عن الناس واحتياجها قرونا طويلة فافتتن الناس بما منع عنهم كما قدّمنا في شأن الناس أنهم يهرعون إلى ما بعد عنهم أما جمال الله وصنعته فهما مكنونان في جمال النجوم والقمر والشمس والنبات والحيوان ، وما الذهب الذي زين به عرش توت عنخ أمون الا قطع مما كنزه الله في الجبال للناس ، فلما كان هذا شأن الناس في كل جيل لا يفرحون الا باليمنوع المحبوس عنهم غفل أكثرهم عن جمال الصنعة الالهية ولم تفتح عين أحد منهم إلى مشاهدتها إلا الحكماء من كل أمة فأولئك لا يزالون يفكرون ويبحثون ويعقلون وهم يزدادون عشقا ، وكلما فتحوا كنزا ازدادوا شوقا حتى يهرهم الجمال ويفنوا بأرواحهم في البهاء والنور والعرفان ، فلئن بهر الأمم اليوم مقبرة [توت عنخ أمون] فللحكماء كل يوم من ذلك كنز جديد وغرام وعشق وشوق يزداد جدة وما يعقلها إلا العالمون ، وقد صور الله الوجوه الجميلة وأبدعها في منظرها البهيح وزوّق عقول الحكماء بأنواع الجمال العلمى وألهم الصناع النقش والتصوير وذوى الاصوات الجميلة التفنن في الألحان وضرب العيوان الشجية الاصوات وحكم على كل عالم وصانع أن يودع علمه وصناعته بطون الكتب والطوامير والدفاتر وأمر الملوك السابقين بالقضاء الحتم أن يتركوا آثارهم لمن يأتي بعدهم ان كل ذلك إلتئز من تلك الألوان من الجمال عقول الناظرين في الجمال السامعين للنعمة القارئ للعلم والحكمة المطلعين على الآثار القديمة تمرينا على قبول الحكمة وتشويقا إلى الازدياد منها ، فلاتظن أن الله ألهم القدماء أن يفعلوا هذا إلا الحكمة دبرها وعدة أبرزها فالجمال المنظور والمقروء والمسموع يحدث جمالا عند الناظر والقارئ والسامع وذلك كله تمهيد وتشويق للاطلاع على الجمال الأعلى الذى لا يعقله إلا قليل فالجمال الأدنى داع إلى الجمال الأعلى فاذا كان الناس يسمعون النعمات ويرون الصور الجميلة ويهرعون إلى رؤية مقبرة الملك [توت عنخ أمون] فما ذلك إلا مقدمة لفهم « ان في

خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والثلج التي تجري في البحر» الخ ، ففهم المقبرة والصور الجميلة والنفقات والصناعات يشترك فيها أكثر الناس ولكن هذا العالم لا يعقله إلا العالمون [بكسر اللام]

الموضوع الثاني : الرؤساء والمرءوسون

اعلم أن الأمم والأفراد على قسمين قسم تفانى في شهوات نفسه وتعالى عن المصالح العامة ولا يعامل سواه من الأمم والأفراد إلا لظن نفسه فتري الأمة تذكر الحرية والمساواة والعدل ثم تسوق تلك الأقوال إلى إحياء أنفسها بذبح الأمم الضعيفة وهذا هو الذي عاشت به بعض الأمم الغربية بل أكثرها وتري الأفراد الذين هم أصحاب رؤوس الأموال أبدا لا يوفون العامل أجره ولا ينصفونه في المعاملة ، فيقف الوزير وفي يده اليمنى سيف مصلت وفي يده اليسرى ذهب مضروب ويقول لرؤساء الأمم الضعيفة ان أطعتموني أعطيتكم هذا الذهب وأدخلتكم في مصاف الأمم العظيمة مثلي ، وان عصيتموني سلطت عليكم سبقي هذا فن أطاع من الأمم الضعيفة الشرقية ودخل في حوزتهم عاملوه معاملة الحيوان أو أنزلوه منزلة الجناد ، ومن عصاهم أرغموه بالسيف فان قاومهم أصبح محترما معظما وعاملوه بالاكرام معاملة الانسان لاداساد ، ويقول أصحاب رؤوس الأموال وفي أيديهم اليمنى سيوف مصلتة لطرد العمال من أعمالهم وفي أيديهم اليسرى دريهمات يعطونها أجرة ، ويقولون أيها العمال ان أطعتمونا أعطيناكم هذه الدراهمات لتعيشوا بها وان عصيتمونا طردناكم فان اتحد العمال وقاوموا نالوا حظا وان أطاعوهم طحنهم رحي الأغنياء وبأموال النكال

أما الأمم الضعيفة فأولئك إذا ساءوا لرؤسائهم وقد ملك الجبن أفئدتهم وسلط عليهم الظالمون من الأمم القوية أنواع النعيم والحظ وغمسوهم في الترف وزجروهم في الهوى والفسوق فلاشك أنهم يكونون على الأمم المسكينة أشد بطشا وأعظم خطرا من كل مصيبة وحينئذ يصبحون صعيدا جزا تذروه الرياح وتعاملهم الأمم القوية معاملة الانسان للدجاج وللحمائم تذبح أبناءؤها ويحقر شأنها فهؤلاء الرؤساء لا يزالون للظالمين ناصرين وللمظلومين آكلين حتى يأتي أجل هذه الأمة وتندمج في الأمة الغالبة فيقول رجالها للذين استكبروا « إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا » فيقولون : ان الله قد حكم علينا ويتبرأ الرؤساء من المرءوسين ويقول كل منهم نفسى نفسى حين يرون العذاب المحيط بهم فيقول التابعون ليتنا تداركنا أمرنا وعصينا سادتنا وكبراءنا وقال تعالى « وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا إنا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد » وقال سبحانه وتعالى في سورة أخرى « وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا بالآية » وفي سورة أخرى « قالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » وآيات كثيرة في هذا المعنى ، إياك أن تظن انى أجعل معنى هذه الآيات التي هنا في أحوال الدنيا ان هذه الآيات واردة في أحوال الآخرة حقا وان الرؤساء والمرءوسين يتجادلون ويقع العذاب على الجميع ، وكل مسئول لافرق بين رئيس ومرءوس ، هذا لا شك فيه ولكن الآخرة صدى صوت الدنيا والناس قد نراهم في الدنيا على هذه الطريقة سالكين فالرؤساء والمرءوسون قد مثلوا هذا كله لاسما في أمم الشرق ، وبعبارة أخرى هذه سياستهم وهذا هو الذي رأيناه ، وقد قال تعالى « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى » فهذا وحقتك هو العمى في الدنيا وسيكون العمى في الآخرة ويبقى الاحتجاج متصلا والظالمون والمظلومون في الدارين يتجادلون وكل يجعل الذنب على صاحبه ، أفليس هذا مما يوجب أن يكون الأمر شورى بين المسلمين ، أوليس ماجرته المسامون من استيلاء الرؤساء على أمورهم كافيا في الرجوع إلى القرآن وينظر في سياستهم من هم أهل للحل

والعقد منهم ويجعلون بين أصحاب الأموال وبين الأعمال مودة ورحمة ، وقانونا يتفق مع المصلحة العامة حتى لا تقع فيما وقع فيه أهل الغرب فكانت البلشفية فليكن العدل قائما كأيام عمر ، وأليس مات فعله الفرنجة معهم من أنهم يعرضون عليهم عذابا وجهنم في أيماهم وفيما وجنة في شمائلهم وان من أطاعهم عذب ومن عصاهم ينعم بالحرية أشبه بماورد في صفة المسيح الدجال ان من أطاعه ودخل جنته وجدها نارا ومن عصاه ودخل ناره وجدها جنة ، أليس هؤلاء قد لبسوا لباس المسيح الدجال ، ولست أقول انهم هم نفس المسيح الدجال ولكن أقول هم جنوده هم أتباعه هم تلاميذه ، الدول الظالمة القوية المنتشرة في الشرق هي هي الممثلة لذلك المسيح الدجال ، هي هي التي تقول في صلواتنا صباحا ومساء « اللهم اني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال » أو يظن المساهون في الشرق والغرب أن الصلوات التي تكرر صباحا ومساء وأدعيتها جاءت لغير معنى فتكون أقل من الحرف في أقسام الكلمة [لأنه جاء لمعنى] فكيف يكون لنا نبيّ ولنا عقول وأسماع وأبصار ونكرر الألفاظ ولا نعقل لها معنى ، قدمت لكم أننا نذكر إبراهيم الخليل ونصلي عليه في كل صلاة كما نصلي على نبينا لتذكر تكسيره للأصنام ورجوعه للعقل ونبذه التقليد ثم النظر في العالم العلوي والسفلي وهكذا مما ذكرته هناك عند قوله تعالى « ومن يرغب عن ملة إبراهيم » فارجع إليها ، فهكذا أقول هنا هل ذكر المسيح الدجال لغير معنى ، يا قوم ان الدجالين قد أحاطوا بالعالم الانساني فالرؤساء الذين استعملوا الشعب لشهواتهم دجالون ، والأمم التي تغوى أولئك الرؤساء دجالون وأصحاب رؤوس الأموال الظالمون للأعمال دجالون والمنافقون والمخلفو الوعد دجالون ولأكرر القول كرة أخرى انهم ليسوا هم المسيح الدجال بل أتباع وجيوش وأشباه أو قل ما نشاء ، وانما هذا قصد الدين من الدعاء طلب الله منا في الصلوات أن ندعوه أن نخلع ربة الكاذبين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل وهذا هو المقصود من ارسال سيدنا محمد رحمة للعالمين ، يريد الله أن نكون خير أمة أخرجت للناس كما تقدم عند تفسير هذه الآية وأن نكون أمة عدلا وأن تكون الرحمة التي أرسل لأجلها نبينا ممثلة فينا ثم نبشأ بين الأمم فنبتدىء بالرحمة في عشاثرنا ويسود الحب بقدر الامكان ويمتنع الفحش والخمر من بلاد الاسلام ونكلا العاجزين الفقراء من مال الأوقاف والصدقات ، فلا سائل من المسؤولين في مصر والاستانة وعواصم الاسلام ونجعل كل قادر على العمل مشغولا به فلا بطالة ولا كسل هذا هو الذي سيكون في مستقبل الزمان « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وهذه الأمة التي تفعل ذلك هي القسم الثاني المقابل لقسم الظالمين في أول هذا المقال .

القسم الثالث في هذه الآيات الحلال والحرام

أجمعت الأمة على تحريم أكل الميتة وعلى نجاستها ، واستثنى الشرع السمك والجراد والسمك الميت الطافي على وجه الماء حاله الشافعي ، وكرهه أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن جني ، وحرمه سيدنا علي وابن عباس وجابر بن عبد الله ، وأباحه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وقال أبو حنيفة في الجراد يحل مأخذه وما وجدته ميتا ، وحرّم مالك ما وجد ميتا ولم يحل عنده مأخذ حيا إلا إذا ذكي ذكاة مثله بأن يقطع رأسه ويشوى فان غفل حتى يموت فلا يحل ، واتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينفع به وحرّم الشافعي جميع الدماء المسفوح منها وغير المسفوح ، وقال أبو حنيفة دم السمك ليس بحرام ، قال لأنه اذا يبس يصير أبيض واستثنى الشارع من الدم الكبد والطحال ، ففي الحديث أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد والكبد والطحال

وأما الخنزير فقد أجمعت الأمة على تحريم جميع أجزائه ، وجهور العلماء أنه نجس ، وقال مالك بطهارته

فان كل سحىّ عنده طاهر ، ومذهب الشافعى الجديد أنه كالسكب إذا ولغ في الاناء ، وفي القديم يكفى في ولوغه غسلة واحدة ، وقوله تعالى « وما أهلّ لغير الله به » من العلماء من قال المراد بذلك ذبائح عبدة الأوثان التى كانوا يذبحونها لأصنامهم ، وهؤلاء جوزوا ذبيحة النصارى إذا ذكروا اسم المسيح عليها لأنه من طعام أهل الكتاب ، وطعامهم حلّ لنا ، وهو مذهب عطاء ومكحول والحسن والشعبي وسعيد بن المسيب ، وقال الشافعى وأبو حنيفة لا يحل ذلك لذكرهم اسم غير الله ، فأما سيدنا علىّ فقد قال اذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون لغير الله فلاتأكلوا ، واذا لم تسمعوهم فكلوا اه

الكلام على جلد الميتة وفيها سبعة اقوال

- (١) يجوز استعمالها كلها قبل الدباغ وبعده ، وهو قول الزهرى .
- (٢) تستعمل كلها بعد الدباغ ، وهو قول داود .
- (٣) يطهر ظاهرها كلها بعد الدباغ لا باطنها ، وهو قول مالك .
- (٤) تطهر كلها إلا جلد الخنزير ، وهو قول أبى حنيفة .
- (٥) يطهر الكل إلا جلد السكب والخنزير ، وهو قول الشافعى .
- (٦) يطهر جلد مايؤكل لجه فقط ، وهو قول الأوزاعى وأبى ثور .
- (٧) لا يطهر منها شيء بالدباغ ، وهو قول أحمد بن حنبل .

الكلام على صوف الميتة وشعرها

يحرم الانتفاع بصوف الميتة وشعرها وعظمها عند الشافعى ، ويحلّ ذلك عند مالك ماعدا الانتفاع بعظمها خاصة ، وأما شعر الخنزير فأكثر الفقهاء وجهورهم متفقون على تحريمه ، ولقد أتممنا المقال فى الباب الأوّل من « سورة البقرة » فلنشرع الآن فى الباب الثانى وهو مقاصد .

الباب الثانى من سورة البقرة

وهو عشرون مقصدا

- المقصد الأوّل : كمال الانسانية وهو من قوله « ليس البرّ » الى قوله « وأولئك هم المتقون »
- المقصد الثانى : القصاص .
- المقصد الثالث : الوصية
- المقصد الرابع : الصوم والجهاد .
- المقصد الخامس : الحج الخ .
- المقصد السادس : الخمر والميسر .
- المقصد السابع : اليتامى
- المقصد الثامن : أحكام النكاح .
- المقصد التاسع : الحيض .
- المقصد العاشر : الحلف بالله .
- الحادى عشر : الايلاء والطلاق .

- الثاني عشر: الرضاة وما بعدها .
 الثالث عشر: عدة المتعة وعدة المتوفى عنها زوجها .
 الرابع عشر: أسرار الجهاد وما فيه من قصص بني اسرائيل وأعدائهم .
 الخامس عشر: صفات الرسل وصفات ذات الله وفيها آية الكرسي .
 السادس عشر: درجات ثلاث للعلم : الايمان بالفطرة ، ونور النبوة كالعصر الأول للإسلام ، والايمان بالجدل كسألة النمرود وابراهيم الخليل والايمان بالمعينة كسألة الطير ومستقبل الأمة الإسلامية .
 السابع عشر: ضرب الأمثال العجيبة الغريبة في طلب الانفاق .
 الثامن عشر: بيان المنفق عليهم وأحوال الانفاق .
 التاسع عشر: بيان المعاملات في الأموال من الربا والرهن ونحوهما .
 العشرون : خاتمة السورة بالايمان بالله ورسوله ، والتكليف ، والدعاء ونهايته بالنصر .

(المقصد الأول)

لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
 وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ
 بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (ليس البر) كل فعل مرضى ، وهو اسم جامع لجميع الطاعات وأعمال الخير المقربة الى الله الموجبة للشواب ، والمراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة ، وقوله (وآتى المال على حبه) أى على حب المال ، جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أى الصدقة أعظم أجرا ؟ قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، وقوله (ذوى القربى واليتامى) فأما ذوى القربى فإيتاؤهم أفضل ، أعنى المحاييج منهم . قال صلى الله عليه وسلم : « صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوى رحلك اثنان صدقة وصلة » وأما لیتامى فجمع يقيم وهو الذى لا أب له مع الصغر ، أى وآتى الفقراء من اليتامى (والمساكين) جمع مسكين وهو الذى أسكنته الحاجة لأنه دائم السكون الى الناس (وابن السبيل) هو المسافرسمى بذلك لئلازمته الطريق (والسائلين) هم الطالبون المستطعمون (وفى الرقاب) يعنى المكاتبين ، وكذلك أن يفك الانسان الرقاب بالعتق وفداء الأسرى ، وقوله (وآتى المال) أى الزكاة المفروضة ، وما تقدم كان فى النوافل من الصدقات (والموفون بعهدهم) عطف على من آمن (والصابرين فى البأساء) منصوب على المدح ، ولم يعطف لفضل الصبر على سائر الأعمال كما قدمنا فى قوله تعالى « وبشر الصابرين » فراجعهم هناك ، والبأساء الفقر (والضراء) المرض ونحوه ، و(البأس) مجاهدة العدو (أولئك الذين صدقوا) فى الدين واتباع الحق وطلب البر (وأولئك هم المتقون) انتهى التفسير اللفظي .

إيضاح

لما ذكر الله عز وجل أحوال الكافرين والمنافقين ، وخبائث اليهود ، ورجس العرب المشركين ، وما أحلوا من المحرمات ، وحرّموا مما أحلّ الله ، طفق يذكّر هيئة البرّ ، وتعمم الإيمان ، وجماع خصال الخير ، فقال : « ليس البرّ » إلخ . وورد في أسباب التنزيل أن اليهود كانوا يلهجون ببيت المقدس والنصارى بالمشرق ، وأن المسلمين أولعوا بالكلام في التوجه للقبلة ، وأذهلوا عما عداه ، فقال الله لهم : ليس البرّ أن تلهجوا بأمر وتتركوا ما عداه ، إن الإنسانية كثيرة الوجوه ، متنوّعة المشارب ، فلا تقفوا في موقف الذين قصرت أنظارهم ، ولانسان قوّة فكرية ، وصورة جسمية ، وأخلاق نفسية ، وأموال مملوكة ، فمن قصر نظره على الصلاة وهى بالجسم والروح ، أو على الإيمان ، أو الأخلاق الفاضلة ، أو المعاشرة بالمعروف ، أو اتفاق الأموال ، فذلك قاصر ، فالبرّ أن تجمل النفس البشرية بالمعارف ، وأهمها الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية ، وأن يسخر الجسم في الأعمال الظاهرة كالصلاة والحج ، وأن يكون حسن العشرة ، فيعطى المال لنوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وهو الضيف أو المسافر ، وأن يكون كريم الخلق فلا يخلف إذا وعد ، وكأن يصبر عند الملمات كالقفر وشدّته ، والمرض وحدّته ، والقتال وصدّته ، لافرق بين الوفاء والصبر والكرم والصلاة ، الدين أمر بالوفاء والكرم والصبر ، وهذا هو الجلال والبهاء ، وهذه الآية جمعت محاسن الدين وأموره ولذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان » هذا هو الإيمان الكامل كأنه يقول : هذه الأمم من يهود وعرب يختصمون ويختلفون بلا جدوى ، فهلا نبذوا الشقاق ، ونهجوا نهج الوفاق ، وسارعوا إلى البرّ بالعلم والعمل والصبر والاحسان ، يجب أن يذيع تعليم الصبر بجميع أنواعه : أى على العمل كالجهاد والعلم ، وعن الحرام ، وعلى البأساء والضراء ، وليكن ذلك في أبواب كأبواب الفقه المشهورة ، ويذكر فضائل ذلك ، ويذكر أن الصبر تقوية للعزيمة ، ومن لم يمرّ على الأعمال وعلى المشاق والمصائب كان في جميع حياته طفلاً وجيع الأنبياء صبروا على أنواع كثيرة ، راجع ما كتبناه في قوله [وبشر الصابرين] الآية ، إذ بينا هناك أن السعادة محصورة في الصابرين في هذه الحياة الدنيا ، فما بالك إذا كان يوم القيامة ، فاعجب للقرآن كيف جعل الصابرين منصوباً على المدح للإشارة إلى ما ذكرناه ، ولما كان الكمال يقابل النقص وكان للانسان قوّة غضبية وقوّة شهوية ، وهما أبداً يتسارعان في هدم هذا البنيان كما جاء في قصة آدم وقرّر في قصص بني اسرائيل والعرب أعقبه بحديث القصاص وهو :

(المقصد الثانى)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْءُ بِالْحَرْءِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ
وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاةٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ
تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَى بِكُمْ فَمَعَدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي
الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتل الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن

عفى له من أخيه شيء) أى شيء من العفو ، واذن يكون بعض العفو كالعفو التام فى إسقاط القصاص ، وقوله (فاتباع بالمعروف) أى فليكن اتباع بالمعروف أى فلا يهتف ولّى الدم فى المطالبة ، وقوله (وأداء إليه باحسان) أى وعلى القاتل أداء الدية الى ولّى الدم باحسان من غير مماطلة (ذلك) الحكم المذكور (تخفيف من ربكم ورجة) لما فيه من التسهيل كما سيأتى فى الإيضاح (فمن اعتدى بعد ذلك) أى قتل بعد العفو وأخذ الدية (فله عذاب أليم) فى الآخرة ، وقوله (ولكم فى القصاص حياة) أى بقاء لأن القاتل اذا علم أنه اذا قتل قتل ترك القتل فيكون بذلك بقاءه وبقاء عشيرته وعشيرته الذى يريد قتله ، لأنهم كانوا يقتتلون طول الحياة لو أقدم على القتل ، وقوله (يا أولى الألباب) أى ذوى العقول الكاملة ، وقوله (لعلكم تتقون) أى تنتهون عن القتل خوف القصاص . انتهى التفسير اللفظى .

الايضاح

كان فى الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء ، وكان لأحدهما طول على الآخر ، فأقسموا لقتلن الحرّ منكم بالعبد والذكر بالأُنثى ، فلما جاء الاسلام تحاكموا الى رسول الله ﷺ فأمرهم أن يتباؤوا القصاص ، من قص الأثر اذا تتبعه ، فعلى ذلك يقتل القاتل بمثل ما قتل به من سيف أو عصا أو شدة رأس ، وهذا قول الشافعى ومالك وأحد قولين عن أحمد ، ومذهب الحنفية السيف ، وليس فى الآية من دليل على ما ذهب اليه مالك والشافعى رضى الله عنهما من امتناع قتل الحر بالعبد والمسلم بالكافر ، وإنما الدليل ما ورد فى السنة أن لا يقتل مسلم بذى عهد ، ولا حرّ بعبد ، وهكذا فعل الصحابة من غير تكبر .

وهذه الآية أفادت التخفيف على هذه الأمة ، فلقد كان العفو عند النصارى والقصاص عند اليهود ، وكان العرب تارة يوجبون القصاص وأخرى يوجبون الدية ، ومنهم من يبطش فيقتلون فى الرجل رجلاً وفى المرأة رجلاً وفى العبد حراً ، فجاءت هذه الآية بوضع القسطاس فى الأرض ، فسوى الله بين الناس وجعل الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأُنثى بالأُنثى ، فلا يتجاوز عنه الى ما تفعله العرب الجاهلية وما كان فوق ذلك من المسلم والكافر والعبد والحرّ فأنما هو محل الاجتهاد بين الأئمة رضوان الله عليهم ، وهكذا أفادت أن العفو عن بعض الدم موجب لسقوط القصاص ، وللولى المطالبة بالدية ، وعلى القاتل دفعها ، وعلى ولّى الدم اتباع بالمعروف ومطالبة بلا عنف ، وعلى القاتل وعاقبته أداء إليه باحسان ، ولا جرم أن هذا تخفيف على الأمة ورجة بها وفتح باب للمساهة والمساهلة ، فلو قتل ولّى الدم القاتل بعد أن أخذ الدية فله عذاب أليم فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار ، إن القصاص حياة وإبقاء للأجسام والأرواح ، ألا ترى أن الاضطراب ما وجب فى أمة إلا أنزلها من شاهق ، وأحلّ بها العذاب الهون ، ولما كان الانسان بالقتل أو الموت مفارق الديار ، وعليه أن لا يذر ورثته يتخبطون خبط عشواء ذكر الله حكماً علماً لكل من دنت وفاته ، وحضرت منيته ، وجاءت ساعته ، فقال :

(المقصد الثالث)

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ *

التفسير اللفظي

شرعت الوصية في صدر الاسلام للوالدين والأقربين ، لما كانت عليه العرب من الإيصال للأجانب طلبا للمباهاة والمفاخرة واطهار الكرم ، ثم نزلت آية الميراث «يوصيكم الله في أولادكم» وروى عن عمرو بن خارجة . قال كنت آخذا بزمام ناقة النبي ﷺ ، وهو يخطب فسمعتة يقول [ان الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث] فنسخت الآية في حق الوارثين ، وبقي وجوبها في حق من لا يرث من الأقارب عند ابن عباس والحسن ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم بن يسار ، والمذاهب المشهورة بين المسامحين على خلافه ، وعندى أن هذا وجيه لثلاث بقى الثروة في يد وارث ويحرم من هم من أسرته ، وهذا هو الذي تسعى له الأمم الأوروبية ولقد سنّ الانكاي من نحو سنة أن يؤخذ من مال الفنى جزء للأمة لئلا يبقى المال في يد وارث وتحرم الأمة من التمتع به ، وهذه الوصية مستحبة عند الفقهاء وعلماء الشرع الذين بيدهم زمام الأمة الآن ، ولا يسن إلا إذا كان المال وفيرا والخير كثيرا .

ثم قوله في الآية (إذا حضر أحدكم الموت) أى أسبابه وظهرت أمارته ، وقوله (إن ترك خيرا) أى مالا ، وقيل مالا كثيرا ، و (الوصية) هى التقدم إلى الغير بما يعمل به ، أو القول المبين لما يستأنف من العمل (للوالدين والأقربين) وكانت الوصية للوارث في بدء الاسلام فنسخت بآية الموارث (بالمعروف) بالعدل فلا يفضل الغنى ولا يتجاوز الثلث (حقا على المتقين) مصدر مؤكد : أى حق ذلك حقا ، وقوله (فمن بدله) أى غيره من الأوصياء والشهود (بعد مسمع) أى وصل اليه وتحقق عنده (فانما إثم) أى إثم الإيصال المغير (على الذين يبدلونه) أى على مبدله (إن الله سميع) أى لما أوصى به الموصى (عليم) بتبديل المبدل (فمن خاف من موص) أى توقع وعلم ، وقوله (جنفا) أى ميلا وجورا في الوصية وعدولا عن الحق ، وقوله (أو إثما) أى ظلما (فلا إثم عليه) أى لا حرج عليه ، والمعنى إذا حضر رجل مريضا ، وهو يوصى فراه يميل في وصيته فلا حرج عليه أن يأمره بالعدل وينهاه عن الجنف ، وقوله (إن الله غفور رحيم) ان أصلح وصيته بعد الجنف والميل .

روى أن رجلا قال لعائشة رضى الله عنها انى أريد أن أوصى ، فقالت كم مالك ؟ فقال ثلاثة آلاف درهم . قالت كم عيالك ؟ قال أربعة ، قالت انما قال الله «ان ترك خيرا» ، وهذا شيء يسير فاتركه لعيالك ، والوصية مؤكدة في الدين ، روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه أن يبيت ليلتين الا ووصيته مكتوبة عنده» . وقال ابن عمر مامرت على ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك الا ووصيتى مكتوبة عندى ، ولا يجوز تبديل الوصية ولا تحريفها ، ولا تزيد على الثلث ، فانه هو المعروف ، ويجوز التبديل لمن رأى بين المورث والورثة جفاء ، فإذا أصلح بينهم فتبديله جائز ، ان الوصية احسان وتجاوز عن المطامع وإيثار ، فكانت مما يطلبه علم الأخلاق من التعالى عن الاستخذاء للشبهوات فناسب أن يعقبها الصوم وأحكامه ، والفدية من العاجز كالشيخ الهرم والمريض مرضا لا يرجى برؤه ، فالصوم تهذيب وتأديب للقوة الشهوية ، وكذلك الوصية ، والفدية كلاهما ترك للحرص على المال الذى هو من أكبر الآفات ، ورذائل الأخلاق ، فنظم الله عز وجل نبذ الحرص بعد الموت ، والحرص في الدنيا في سمط ولزهما في قرن ، وقبل أن نبدأ بالكلام على الصوم نذكر نبذة فيه حتى تستبين لك حقيقته اجمالا تبصرة وتذكيرا لما يأتى من الآيات .

واجبات الصوم ستة

(١) مراقبة أول شهر رمضان ، وذلك برؤية الهلال فان غمّ فاستكمال ثلاثين يوما من شعبان ، ومتى علم المسلم ذلك بقول عدل واحد كفى ، وهلال شوال لا يثبت الا بعدلين ، والمراد بالعلم غلبة الظن وان لم يقض القاضي . (١)

(٢) النية ولا بد لكل ليلة من نية معينة جازمة معينة ، فاذا نوى الفرض مطلقا ، أو الصوم مطلقا ، أو شهر رمضان دفعة واحدة ، أو بالنهار في الفرض ، أو في ليلة الشك لم يصح الصوم .

(٣) الامساك عن ايصال شيء الى الجوف عمدا مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة ، وليس يفسد بالفصد ، والحجامة ، والاكتحال ، وادخال الميل في الأذن ، والاحليل الا أن يقطر فيه ما يدخل المثانة ، ولا ما يصل بغير قصد من غبار طريق ، أو ذبابة تصل إلى جوفه ، أو ما يسبق إلى جوفه في المضمضة الا إذا بالغ فيها فيفطر ولا يفطر الناسي .

(٤) الامساك عن الجماع ، فان جامع ناسيا لم يفطر ، ومن احتمل أو جامع فأصبح جنباً لا يفطر ، وان طلع الفجر ، وهو مخالط أهله فنزع في الحال صح صومه ، فان صبر فسد ولزمته الكفارة .

(٥) الامساك عن الاستمناء ، وهو إخراج المنى قصدا بجماع ، أو بغير جماع ، ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها ما لم ينزل لكن يكره ذلك الا أن يكون شيخا أو مالا كالأرنب فلا بأس بالتقبيل ، وتركه أولى ، وإذا كان يخاف من التقبيل أن ينزل فقبل وسبق المنى أفطر لتقصيره .

(٦) الامساك عن إخراج القيء ، فالاستقاء يفسد الصوم ، وان ذرعه القيء لم يفسد صومه ، وإذا ابتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى .

لوازم الافطار أربعة

القضاء والكفارة والفدية وامساك بقية النهار تشبيها بالصائمين ، فأما القضاء فوجوبه عام ، فالحائض تقضى وكذا المرتد ، أما الكافر والصبي والمجنون فلا ، ولا يجب التتابع في القضاء ، وأما الكفارة فلا تجب الا في الجماع ، وأما الأكل والشرب وما عدا الجماع فلا تجب به كفارة ، والكفارة عتق رقبة ، وهذا لا وجود له الآن لمنع بيع الرقيق ، فان لم يقدر فصيام شهرين متتابعين ، فان عجز فاطعام ستين مسكينا مدا ، وأما الفدية فتجب على الحامل ، والمرضع إذا أفطرتا خوفا على ولدهما لكل يوم مده حنطة لمسكين واحد مع القضاء ، والشيخ الهرم اذا لم يصم تصدق عن كل يوم مدا ، وأما امساك بقية النهار فيجب على من عصي بالفطر أو قصر فيه ولا يجب على الحائض اذا طهرت امساك بقية نهارها ، ولا على المسافر اذا قدم مفطرا من سفر بلغ مرحلتين ويجب الامساك اذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك ، والصوم في السفر أفضل من الفطر الا اذا لم يطق ولا يفطر يوم يخرج اذا كان مقيما في أوله ، ولا يوم يقدم اذا قدم صائما .

السنن في الصوم ست

تأخير السحور ، وتجميل الفطر بالتمر ، أو الماء قبل الصلاة ، وتركه السواك بعد الزوال ، والجود في شهر رمضان ، ومدارسة القرآن ، والاعتكاف في المسجد لاسيما في العشر الأخير ، وهذه الأحكام على مذهب الامام الشافعي ، وفي بعضها خلاف عند الأئمة تركناها خيفة السامع .

(١) ولقد ألفت رسالة سميتها الهلال جوابا على سؤال جاء من بلاد القازان قبل الحرب العامة وسنجلها في ضمن الملحق لهذا التفسير ان شاء الله تعالى

(المؤلف)

أسرار الصوم

الصوم ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص ، أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن الشهوة كما تقدم تفصيله ، وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل ، وسائر الجوارح عن الآثام ، وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله بالسكينة ، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر وبالفكر في الدنيا الآخرة وتراد للدين ، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا ، فهذا الصوم اقبال بالهمة على الله وانصراف عن غير الله ، وتلبس بمعنى قول الله « ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » انتهى الكلام في الصوم وأسراره .

ولعلك تقول : كيف جعت بين المتناقضات في هذا التفسير ؟ ذلك أنك قلت في مواضع كثيرة ان طلب العلم وحوزه والصناعات واستعمالها واجبة ، وأن المسلمين مفرطون في ترك تلك العلوم للفرجة حتى أخذوا ديارهم واستحلوا أمواهم ، ثم أنك هنا تقول ترك ما سوى الله وعدم التفكير الا في الله فلن يتفق الأمران للمسلم ، وهذا منك عجيب تكلف نفسك والمسلمين الجمع بين الضدين ، ولعلك أصبحت مقلدا في الدين ومقلدا لعلماء العصر الحاضر فألفت بين متناقضين ، وهذا مستحيل .

أقول : لتذكر أن ما كان من أمور الدنيا ضروري للدين حافظ له موجب لبقائه يصبح ديننا لدنيا ، فجميع الصناعات واجبة وجوبا كفاييا على المسلمين ، وهكذا العلوم فالصناعات من الابرة إلى المدفع والقطار والعلوم من النحو إلى علم الفلك والطبيعة كلها واجبة ، ولعلك تقول أيضا كيف تنظم هذه الدنيا نظاما تاما كأوروبا أو نسبقها كما تقول ، والدين يقول لا تفكروا الا في الله ، وصوموا ، وصلوا ، وقوموا الليل ، والموت يكتنفنا من كل جانب ، وكيف تنظم هذه الحياة ، ونحن لاشك تاركوها ، ان الفكر في الآخرة ، والاستعداد لها مشبط للعزائم موجب للاعتكاف في المساجد أو النوم والكسل حتى يأتي اليوم الموعود .

أقول : على رسلك ان الأمثال حاضرة مشاهدة « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ألم تر الى الفتاة في منزل أبيها كيف تعلم أن سعادتها انما تكون في الحياة مع خطيبها ، وهي كل يوم تنظف وتحافظ على بيت والدها كأنها لن تفارقه أمد الحياة ، ونرى رجال الحكومات المرشحين لوظائف أرقى مما هم فيه لا يزالون يغارون على المصلحة التي هم فيها غير صادقة كأنهم لا يفارقونها وهم يعلمون أنهم لها تاركون ، وهذه الأسئلة انما ترد من الأمم الاسلامية المتأخرة لعدم فهم الدين الاسلامي والاقتصار على ظواهر العبارات والافكيف كانوا يفتحون البلاد شرقا وغربا ، وهم يصومون النهار ، ويقومون الليل ويتجهدون ، وكيف كان الفرس والروم في أبهة الملك وعظمتهم غارقين في المادة والنعيم ، وكان آباؤنا صائمين مصليين متجهدين ، ثم يكسرونهم في الحرب ويأخذون بلادهم ويسبون نساءهم ، ولقد كان في مصر من جيوش الروم مائة ألف مقاتل فضلا عن الأمة المصرية التي كانت أكثر عددا من المصريين اليوم وما فتحها إلا اثنا عشر ألفا من آباءنا العرب ، وروى المؤرخون أن المقوقس سأل رساله الذين قابلوا عمرو بن العاص ومن معه قال : كيف رأيتموهم ؟ قالوا رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم رغبة في الدنيا ولا تنهم ، وانما جلوسهم على الأرض ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا الحر فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويتخشعون في صلاتهم فقال عند ذلك المقوقس : لو أنهم استقبلوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد اه

فانظر كيف جعل الزهد في الدنيا ، والترفع عنها ، والخشوع في الصلاة من أسباب الحصول عليها والسيادة فيها ، وكأن الناس كلما كانت نفوسهم أقرب إلى التجرد وأرفع عن الانغماس في المادة كانت أملك لها ، والله هو الولي الجيد .

(المقصد الرابع)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ * أَحِلَّ لَّكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *

فَإِنْ أَنتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ
 فَإِنْ أَنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ
 فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
 الْمُتَّقِينَ * وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ
 يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) هو مصدر صام ، والمراد صيام شهر رمضان كتابة
 (كما كتب) أى مثل ما كتب (على الذين من قبلكم) على الأنبياء والأئمة من لدن آدم عليه السلام الى
 عهدكم (لعلكم تتقون) المعاصى بالصيام (أياما معدودات) موقفات بعدد معلوم ، أو قلائل فان القليل من
 المال يعدّ عدداً والكثير يهال هيلاً ، أى صوموا أياما الى آخره (فمن كان منكم مريضاً) مرضاً يضربه الصوم
 أو يعسر معه (أو على سفر) أو راكب سفر (فعدة) أى فأفطر فضليه صيام عدد أيام فطره ، والعدة بمعنى
 المعدود أى أمر أن يصوم أياما معدودة مكانها (من أيام آخر) سوى أيام مرضه وسفره (وعلى الذين يطيقونه)
 وعلى المطيقين للصيام ان أفطروا (فدية طعام مسكين) وسيأتى ايضاحه قريباً (فمن تطوع خيراً) فزاد في
 الفدية (فهو) أى التطوع (خير له وأن تصوموا) أيها المطيقون (خير لكم) من الفدية وتطوع الخير
 (ان كنتم تعلمون) مافى الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة اخترتموه (شهر رمضان) مبتدأ وخبره (الذى
 أنزل فيه القرآن) أى ابتدئ فيه انزاله ، وكان ذلك فى ليلة القدر (هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان)
 أى أنزل هادياً الى الحق وهو آيات مكشوفات مما يهدى الى الحق ويفرق بين الحق والباطل .

ايضاح هذه الآيات

نقول : ان الله عزوجل مترك الأمم السالفة ، والأجيال البائدة بلاثهذيب وتأديب ، فأوجب عليهم أن
 يجتنبوا التغالى فى الشهوات والاكثار من الطعام ، فان النفوس الانسانية طاعروج الى الملاء الأعلى اذا ما عفت
 عن الطعام ، واقتصدت فى الشهوات ، فلم يدع الله أمة إلا أدبها ، ولا ترك جيلاً إلا أنذره وحذره ، ولقد كتب
 على النصارى صياماً ، وعلى اليهود صياماً ، وقال لنا : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على
 الذين من قبلكم لعلكم تتقون » المعاصى . ولما كانت الأمة الاسلامية أمة وسطاً عدولاً لا تتغالى فى الشهوات
 فتنزّل الى حضيض الحيوانية ، وتحرم من المراتب الروحية ، ولا تتغالى فى التبرى من الأغذية فتضعف أجسامها
 وتذل نفوسها كما حصل للصين والهند إذ صاموا صوما دائماً ، فنبذ البراهمة والبوذيين الشهوات نبذا مفرطاً
 فغلبتهم الأمم ، وداستهم أمم الغرب ، وأذلهم الطامعون ، لذلك جعل الله عزوجل صوم هذه الأمة أياما معدودات
 وهى شهر رمضان لتنال الحظيّن : قوّة الأجسام ، ورياضة النفوس ، وانشراح الصدور ، وأمة هذا شأنها
 جديرة أن تملك بأعنة الشرق والغرب ، وتشهد على الأمم ، وتقود غيرها الى طريق الفلاح ، ومراقى النجاح ،
 وعلى المريض مرضاً يعسر معه الصوم ، والمسافر سفر قصر اذا أفطرا أن يصوما أياما آخر ، وعلى الذين يطوقونه
 أو يطيقونه فيطوقونه أى يصومونه بجهد ومشقة كما يطوق المرء طوقاً أى قلادة فى عنقه ، أو يكفونه بمشقة ،

على هؤلاء فدية أى جزاء لما وقع من تقصير في العبادة وهي نصف صاع من برّ أوصاع من غيره عند فقهاء العراق ، ومدّ عند فقهاء الحجاز ، أوفطور فقير وسحوره عند ابن عباس ، فمن تطوّع خيرا وبرّ الفقراء وزاد في العطاء فله ثوابه ، على أن الصوم أفضل ، لأن الصبر عليه أشد ، والتكاف فيه أشق ، فانه خير للشيخ الهرم والمريض والمسافر ، والمريض مرضا لا يرجى برؤه ، وليست هذه الخيرية إلا إذا قدروا ، والا فقد يحرم وقد يكره وذلك بلاريب تابع أحوال الناس ، مختلف باختلافهم ، ثم قال « شهر رمضان » على البديل من قوله : « كتب عليكم الصيام » أى صيام شهر رمضان الذي فيه ابتدئ نزول القرآن حال كونه هاديا للناس بأعجازه وآيات وانجات بما يهدى به من الحق ويفرق بينه وبين الباطل لما فيه من الأحكام .

ولما كان الصيام لا يجب الا اذا روى الهلال أعقبه عزّوجل بقوله (فن شهد منكم الشهر فليصمه) أى هلال الشهر فليصمه ، وخصصه بما بعده وهو قوله (ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) ألا ترى أن المريض والمسافر قد شهدا الشهر ورأيا الهلال ، فكلاهما شاهد وكلاهما مريض له في السفر (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وما أراد الله عزّوجل الا اليسر ولم يرد العسر (ولتكملاوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) أوجب الصيام على الشاهد لتكملاوا العدة والقضاء على المريض والمسافر لتكبروا الله وتعظموه لما هداكم لطاعته ونوعها ، وهذا الترخيص يوجب الشكر على العباد ، ولما كان الصوم سببا لعروج الأرواح الى عالم الجلال ، ولا جرم أن أوقات الصوم أقرب الأوقات لاجابة الدعاء ناسب أن يقول (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) . روى عن كعب أنه قال : قال موسى عليه السلام : « يارب أقرب أنت فأناجيك ، أم بعيد فأناديك ؟ فقال : يا موسى أنا جليس من ذكرنى ، قال : يارب فانا نكون على حالة نجاك أن نذكرك عليها من جنابة وغائط ، قال : يا موسى اذكرنى على كل حال » . فلما كان الأمر على ما ذكره الله تعالى في ذكره وفي الرجوع اليه في جميع الأحوال فأنزل هذه الآية .

[روى] أن اعرابيا جاء الى النبي ﷺ فقال : أقرب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله هذه الآية ، والدعاء بمعنى العبادة ، أو بمعنى الطلب ، وقوله « فليستجيبوا لى » الاستجابة والاجابة بمعنى . قال كعب الغنوى :

وداع دعا لمن يجيب الى النداء * فلم يستجبه عند ذاك محجب

واجابة العبد لله طاعته ، واجابة الله للعبد اعطاؤه ما يطلبه ، وقوله « لعلهم يرشدون » في قراءة بفتح الشين والأخرى بكسرهما ، ففيها ثلاث قراءات ، يقول : ان أجابونى بطاعتي والايمان بى أجبتهم وأعطيتهم رشدهم في مصالح دنياهم وآخرتهم ، انظر الى هيكلك وجسمك ألت ترى أن يدريك تلمسان بحاسة اللمس المواد الصلبة ، وفك يذوق بحاسة الذوق ألطف مافى المادة ، وأنفك يشم مايتناثر في الهواء من ذرات المادة وهي ألطف مما قبلها ، وأذنك تسمع أمواج الهواء الآتية من اصطكاك أعضاء الفم ، وعينيك تنظران النور الذى يتعالى عن المادة وهو ألطف منها بل هو أصلها ، فانظر أليس عقلك وهو أعلى مكانا من هذه الحواس يتصل بما فوق المادة وهو العالم الالهى الروحانى ، أرواحنا متصلة بالعالم الروحانى اتصالا عقليا لاحسيا ، معنويا لاجسميا وكما أن كل حاسة اتصلت بما أحست اتصالا يناسبها كاللمس والذوق والشم والبصر ، فكذا اتصلت النفوس بالعالم الأعلى الروحانى « وأن الى ربك المنتهى » فهذا معنى قوله تعالى « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب » فهنا قرب معنوى لاحسى ، فليس الله مادة ولا جسما ولا عرضا وانما هو مقدّس عن المادة يتعالى عن النور ، وهذا هو السرّ في قوله تعالى : « قل الروح من أمر ربى » وقوله عليه الصلاة والسلام : « من عرف نفسه

عرف ربه « فحقولنا من العالم الالهى الروحى ، منزلة ، منزلة العين من النور ، والأذن من المسموعات ، وحاسة الشم من المشمومات ، ولكن أكثرها مغمور فى الطبيعة محاط بالمادة ، وكثيرا ماتتنزل اليها المعلومات الحقيقية عن الله تعالى ، وقد تختلط معلوماتها بالأوهام فجعل العقل والمنطق ميزانا لها ، فالله عز وجل قريب من العبد ، فإذا سأله وهو موقن بالاجابة طائع فان الله يرشده ويحيب دعاءه ، ولن تصح الاجابة الا اذا توجه القلب لله عز وجل توجه اجازما على شريطة أن يكون بين السائل ومطلوبه مناسبة ، ولا جرم أن فى العالم ما يناسب هذا . ألا ترى أن المطر ينزل على الأرض ، والحديد يجذبه المغناطيس ، والبخار تجرى به الفلك فى البحر ، فنى كان بين الطالب والمطلوب مناسبة وتوجه بقلبه توجهها تماما ثم فكر بالعقل فيما يعمل به ويزاوله بعد ذلك فلا جرم يأتي له مطلوبه كما فى قوله تعالى « آمن يحيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء » وهذا هو المعبر عنه عند كثير من علماء العصر الحاضر بقولهم [الاعتماد على النفس] وذلك أنها بتوجهها الى الله تقوى همها فتجدد فى العمل ولا تخاف الزلل ولا تخشى الملل ، فهذا مقصود قوله تعالى : « أجب دعوة الداع اذا دعان » ، تدعونى فأجيب وأنا أدعوكم فأجيبونى بالطاعة والايمان ، ادعوا الله أيها الناس فى خلواتكم ، ووجهوا اليه هممكم ، ولا تقعدوا عن العمل ، وإياكم أن تدعوا وأنتم كسالى ، الدعاء توجه الهممة الى الله ، والله قريب من العقول ، والأرواح لها قرب من العالم الروحى كقرب العين من الضياء ، فوجهوا هممكم اليه تزدادوا همة ، وقد قرر العلماء أن الهمم تنقلب الى حركات فيفيض القول على اللسان والعمل على الاركان ، فنتيجة الدعاء تقوية الهمم بالاستمداد من الله ليكون العمل المترتب على الطلب أحكم وأثبت ، ولتعلموا أن الدعاء اذا لم يصحب بعمل وخالف فعل الرسول صلى الله عليه وسلم فلا ريب ينزل الانسان من درجته الى مرتبة تحت الجفادية فضلا عن الحيوانية ، ألا ترى أننا نرى الطيور فى جوف السماء تغدو وتروح للعمل ، ولم نرها نامت فى أوكارها ، وطلبت أرزاقها ، وهذا الاتكاس فى المسلمين اليوم هو السر فى أن دعاء الخطباء على المنابر يأتي بعكس ما يدعون ، وهذا أولئك الذين يتلون الدعوات صباحا ومساء ولا عمل لهم فليس فيه تهذيب النفس ، ولا استنشاقها نسائم الرجات فان كان القصد ذلك فنعمما هو ، فان فى ذلك الابتهال سعادة لا يعرفها إلا ذائقوها ، وهناك تحس النفس بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب الجاهلين من البشر ، ومتى وجه المرء همته الى العمل ودعا الله وعمل لمطلوبه نال مرغوبه لا محالة ، الدعاء فتح لباب الحرية ، والاعتماد على الله ، ومنع النفس عن الذلة للمخلوق ، ويشير لتلك الحرية قوله تعالى « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون » فكأنه يقول انهم يضاهئون أى يشابهون فى ذلك من قبلهم من قدماء المصريين والرومان والعرب الذين يدعون غير الله . فأما أتم أيها المؤمنون فلا تدعوا إلا الله لتكونوا أحرارا ناظرين بعقولكم لامقلدين ومن يعتمد على غير الله هان عليه أن يخضع للجباية والملوك الظالمين ، فادعونى أستجب لكم ، ولست غائبا حتى تنادونى فى البوادي والقفار وفوق رؤوس الجبال ، أنا حاضر عند أنفسكم وقلوبكم عرشى ، وفى هذا رد على بعض جهالة السياسيين كالذى يقول : ان المسلمين يعتقدون أن الله بعيد عنهم ، ولذلك يجأرون بالليل والنهار ، ويصرخون فى الطرقات كأنهم يبحثون عنه فلا يجدونه ، ولم يعلم أن الاستحضار بالقلب يلزمه النطق باللسان لتمام الاستحضار حتى يستجاب الدعاء ويصح العمل ، ثم أخذ يبين مبدأ الصوم ونهايته ، ولقد كان المسلمون اذا أمسوا أحل لهم الأكل والشرب والجماع الى أن يصالوا العشاء ، ثم ان عمر رضى الله عنه بأمر بعد صلاة العشاء فندم فنزلت (أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) والرفث الافصاح بما يجب أن يكنى عنه ، ويراد به هنا الجماع اطلاقا مجازيا ، والمباشرة إلزاق البشرة بالبشرة ، وهو هنا الجماع ، وقوله (هت لباس لكم وأتم لباس هت) أى ان كلامكم

يشتمل على صاحبه ، وأيضا هو ستر له يمنع من الفجور (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) أى تظلمونها بالجماع (فتاب عليكم) حين تبتم مما ارتكبتم من المحظور (وعفا عنكم) ما فعلتم قبل الرخصة (فالآن باشروهن) لما نسخ عنكم التحريم ، وعلى المباشر أن يطلب بقاء النوع ، فلا قصد من الشهوات إلا منافع وفضائل وماعداه ففقدت زائلات وهو قوله (وابتغوا ما كتب الله لكم وكلاوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) ومعناه حتى يتبين لكم ذلك البياض الممتد في الأفق ومعناه من غبش الليل المشبهان خيطين أبيض وأسود ، فالفجر بيان للخيط الأبيض والليل الذى حذف بدلالة الفجر عليه بيان للخيط الأسود . عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال لما نزلت « وكلاوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » ولم ينزل « من الفجر » فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله عز وجل بعده « من الفجر » فعلموا أنه إنما يعنى الليل والنهار . وروى مثله عن عدى بن حاتم إذ عمدا إلى عقالين أسود وأبيض وجعلهما تحت وسادته الخ ثم بعد ذلك عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بين آخر وقته فقال (ثم أتموا الصيام إلى الليل) ولما كان من السنة أن يعتكف الإنسان في الصوم فإنه أكد من غيره وأكثر ثوابا وأعظم أجرا وأقرب زلفى من الله عز وجل أعقبه جلّ وعلا بقوله (ولا تبashروهن وأتم عاكفون في المساجد) ولقد كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك ، فالجماع مبطل للاعتكاف ، فالنهى في العبادات يوجب فسادها ، ولا يكون الاعتكاف إلا في المساجد ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ، ثم اعتكف أزواجه من بعده ، والجماع حرام في الاعتكاف ومادونه مكروه . واعلم أن الاعتكاف سنة ، ولا بد أن يكون في المسجد الحرام عند سيدنا على كما نقل عنه ، وفي المسجد الحرام ، ومسجد المدينة عند عطاء ، وفيهما وفي بيت المقدس عند حذيفة ، وفي كل مسجد جامع عند الزهري وفي كل مسجد له امام ومؤذن عند أبي حنيفة ، وفي سائر المساجد عند الشافعي ومالك وأحمد ، وهو في المسجد الجامع أفضل ، وهو في الصوم أفضل ، وقال أبو حنيفة الصوم شرط ، وأقله لحظة عند الشافعي ، ولا حد لأكثره ، وأقله يوم عند أبي حنيفة ومالك بشرط أن يدخل فيه قبل طلوع الفجر ، ويخرج منه بعد غروب الشمس ، والجماع كما تقدم حرام ومبطل له ، ومادون الجماع كقبلة مكروه ، وبعضهم يجعله مفسدا للصوم ، وأما الملازمة بغير شهوة فجازة ، ثم قال تعالى (تلك) الأحكام التي ذكرت (حدود الله) أحكامه المحدودة (فلا تقربوها) بالمخالفة والتغيير (كذلك يبين الله آياته) شرائعه (للناس لعلهم يتقون) المحارم . ولما كان الصيام والفدية والوصية تصرفا في مال وقعا للقوة الشهوية ، وهكذا الاعتكاف فإنه كف للنفس عما هو مباح بحيث يلزم المرء مسجده فلا يبرحه إلا لحاجة من لحظة إلى أيام ، فهو كف للنفس عن الشهوات ناسب أن يلحق به الإدلاء أى الإلقاء بحكومات الأموال إلى الأحكام فلذلك قال (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الأحكام لتأكلوا فريقتا من أموال الناس بالاثم وأتم تعلمون) أنكم مبطون فإن حكم الحاكم لا يحلل حراما ولا يحرم حلالا ، ولذلك روى أن عبد الله الحضرمي ادعى على امرئ القيس الكندي قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس ، فبهم به ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الذين يشتركون بهعد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم » ، فارتدع عن اليمين وسلم الأرض إلى عبد الله فنزلت هذه الآية ، ولما كان الصوم لا يثبت إلا بالهلال ورؤيته وقد سأل معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم رضى الله عنهما النبي صلى الله عليه وسلم فقالا ما بال الهلال يبدو دقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوى ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ، وهكذا كانت الأنصار إذا

أحرموا لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه وإنما يدخلون أو يخرجون من فرجة ويعبدون ذلك برّا بين الله لهم
 الأمرين بقوله (يسألونك عن الأهلّة) جمع هلال سمي به لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته (قل هي مواقيت
 للناس والحج) معاهم يوقت بها الناس من أراهم ومناجرهم وصومهم وفطارهم وحجهم (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت
 من ظهورها) وليست الطاعة والتقوى بأن تأتوا البيوت من ظهورها أي بأن تدخلوها من ظهورها أي من خلفها
 في الاحرام ، فبين لهم أن هذا ليس ببرّ وإنما البرّ من اتقى المحارم والشهوات فقال (ولكن البرّ) برّ (من اتقى)
 ما حرّم الله كالصيد ونحوه (وأتوا البيوت) ادخلوها (من أبوابها) التي كنتم تدخلونها وتخرجون منها قبل ذلك
 (واتقوا الله) واخشوا الله في الاحرام (لعلكم تفلاحون) لكي تنجوا من السخط والعذاب . ويقال ان كنانة
 وخزاعة هم الذين كانوا يفعلون ما تقدّم من الدخول من غير الباب فكانوا يدخلونها من الخلف ومن السطح
 (وقاتلوا في سبيل الله) في طاعة الله في الحلّ والحرم (الذين يقاتلونكم) يبدءونكم بالقتال (ولا تعتدوا)
 ولا تبتدئوا (إن الله لا يحب المعتدين) المبتدئين بالقتال (واقتلوهم حيث ثقفتهموهم وأخرجوهم من حيث
 أخرجوكم) من مكة ، وهذا وعد من الله بفتح مكة لهم (والفتنة) الشرك بالله وعبادة الأوثان (أشدّ)
 أشرّ (من القتل) في الحرم ، أو ما يفتن به الانسان من الحن كالإخراج من الوطن أصعب من القتل (ولا
 تقاتلوهم) ابتداء (عند المسجد الحرام) في الحرم (حتى يقاتلوكم فيه) في الحرم بالابتداء (فان قاتلوكم)
 بالابتداء (فاقتلوهم كذلك) هكذا (جزاء الكافرين) بالقتل (فان انتهوا) عن الكفر والشرك وتابوا
 (فان الله غفور) لمن تاب (رحيم) لمن مات على التوبة (وقاتلوهم) أي المشركين (حتى لانكون فتنة)
 شرك (ويكون الدين لله) أي خالصا لله لا يعبد دونه شيء (فان انتهوا) عن قتالكم وعن الشرك والكفر
 (فلاعدوان) فلا سبيل لكم بالقتل (الإعلى الظالمين) المبتدئين بالقتل (الشهر الحرام) الذي دخلت فيه لقضاء
 العمرة (بالشهر الحرام) الذي صدوك عنه لأنه ^{صلى الله عليه وسلم} خرج معتمرا في ذي القعدة سنة خمس أوست من
 الهجرة فصده المشركون عن البيت عام الحديبية ، فصالحهم على أن ينصرف عامه ويرجع من قابله فيقضى
 عمرته ، وقد تمّ ذلك ، أو يقال هذا في القتال ، أي فان بدءوكم بالقتال في الشهر الحرام فاقتلوهم فيه فانه قصاص
 (والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم) بالقتل في الحرم ، أو بمطلق القتال (فاعتدوا عليه) فاقتلوه (بمثل
 ما اعتدى عليكم واتقوا الله) واخشوا الله بالابتداء (واعلموا أن الله مع المتقين) معين المتقين بالنصر . ولما
 كان القتال يعوزه المال قال تعالى (وأنفقوا في سبيل الله) تصدّقوا في رضا الله ، وهو عام في الجهاد وغيره
 (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أي ولا تلقوا أنفسكم إلى التهلكة ، وهذه التهلكة إما بأن تمنعوا النفقة في
 سبيل الله فيقوى العدو عليكم فتهلكوا ، وإما بأن تسرفوا في الانفاق حتى تففقروا ، وإما أن تنهكوا فتيأسوا
 من روح الله فتهلكوا (وأحسنوا) الظنّ بالله كما تحسنون أعمالكم وأخلاقكم ، وكما تحسنون بالانفاق على
 من تلزمكم نفقته ، وكما تحسنون بأداء الفرائض (إن الله يحبّ المحسنين) في جميع ما تقدم ، وقد نزل قوله
 تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله » إلى ههنا في المحرمين مع النبي ^{صلى الله عليه وسلم} لقضاء العمرة بعهد عام الحديبية ،
 ومن الاحسان بأداء الفرائض تأدية الحج فلذلك أعقبه بقوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » وهو المقصد
 الخامس الآتي . انتهى التفسير اللفظي .

إيضاح

يقول الله تعالى « يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس والحج » في أعمالهم الدنيوية والعبادات
 لاسمها الحج « وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها » كذا « ولكن البرّ من اتقى » بفعل الطاعات
 وترك المعاصي ، وفيه إيحاء إلى أن السؤال عن سبب تغير الهلال وتطوره كالدخول للبيت من غير بابه ، فالبرّ

ألا يعكس المرء في سؤاله ، وأن يأتي الأمور من أبوابها في الدين والدنيا ، ولما كان الصوم والاعتكاف كفاللنفس عن الشهوات ، والقتال وملاقاة الأعداء من أهم أنواع الصبر ناسب أن يلزا في قرن وتنظم جوهره الصيام ، وفلذة الجهاد في سمط واحد ، فكلاهما صبر ، وكلاهما رفع للنفس عن حال البهيمية ، فالصوم تعالى النفس عن شهوة الطعام ، والذلة للحطام ، والجهاد رفع لها عن أن تستخذي للظالمين أو تذلل للقاهرين ، فالصوم جهاد الآمنين ، والقتال جهاد الخائفين على الأعراض والأموال ، وعلى الناس أن يربؤا بأنفسهم عن الدنيا فلا يذلوا للشهوات كالجمادات ولا يساموا بقيادهم لمن يغلبونهم ، بل ليفكوا قيود الذلة عنهم ويرفعوا نير العبودية عن أعناقهم ويكسروا أصفاد الذلة وأغلال الظالمين وليقاتلوا في سبيل الله ، الإنسان في جهاد مستمر وعمل دائم ، الإنسان في الحياة محوط بالأعداء من كل جانب ، فمنهم من هم في داخل جسمه كالشبهوات ، ومنهم من هم خارجه كالحيوان الكاسر ، والعدو المهاجم ، فليبدأ بقتال عدوه الداخلي ، فإذا فرغ منه فأتحرّاه أن يقهر الأعداء المهاجرين .

وترى الأمة الإسلامية ، لما كانت تعظم الأعمال الدينية وترعاها حق رعايتها غلبت أعداءها ، فلما تفرقت أهواؤها وخضدت شوكتها تخطفها الأعداء من كل جانب ، فإن الناس إذا استعبدوا لشهواتهم وذلوا أهوائهم تفرقت كلمتهم ، وذهبت ريحهم ، وذاق بعضهم بأس بعض ، فلا يرى العدو أمامه إلا أشباحا فارغة كأنها خشب مسندة ، ونفوسا مائتة ، وعقولا خامدة ، فيحصدهم حصدا ، ويتخذ سيدهم عبدا ، وهذا سرّ قوله ﷺ « عند رجعتي من إحدى الغزوات » رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس « وسرّه ما علمت من أن النفوس أيام أمنها واستيثاق الناس بأخلاقهم يدعوا ذلك لائتلافهم ، وما غلبة العدو الأثرة الائتلاف ، ولا ائتلاف إذا تعددت المآرب وتفرقت القلوب وذهبت شذرمذر ، فلذلك قال « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » الآيات ، قد كان ﷺ ممنوعا من القتال ، فلما أمكنته الميدان وصده المشركون عام الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة وصالحهم على أن ينصرف عامه ذلك ، ثم يعود من قابل فيقضي عمرته ، ثم رجع في ذي القعدة سنة سبع فقضى عمرته ، ولما أن أزمع على عمرة القضاء وتجهز هو وأصحابه خافوا أن لا تفي قریش بما قالت واتصدّهم عن المسجد الحرام ، وقد عاهدتهم أن تخلي مكة ثلاثة أيام فكره الصحابة أن يحاربوهم في الشهر الحرام في البلد الحرام في حال الاحرام ، فنزل قوله تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » وإياكم أن تقتلوا الشيوخ ، والنساء ، والصبيان ، والرهبان « ولا تعتدوا » بالقتال مفاجأة ، ولا بقتال المعاهد ، ولا تمثلوا بالمقتول ، ولا تبدعوا بالقتال من غير دعوة « إن الله لا يحب المعتدين » ، ثم ازداد الأمر واحتدم ونزل « واقتلواهم حيث ثقتهموهم » والثقف الحذق ، كأن من أدرك عدوه فهو حاذق ، وهذه الآية معممة للحكم بحيث يقاتلون في حلّ وفي حرم ، فهي أشبه الآيات بأية الخمر ، فلقد حرّم شيئا فشيئا ، فهكذا هنا منع القتال ، ثم شرع للقاتلين ، ثم عجم ، وقوله « وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » أي من مكة ، وقد فعل ذلك بمن لم يسلم يوم الفتح ، ولا ريب أن التعذيب بالخراج من الوطن أشد من القتل فهو عذاب واصل لازم ، والموت راحة ، فالفتنة والابتلاء بأخراجهم من مكة أشد من قتلهم ، ثم نهاهم عن ابتدائهم بالمقاتلة عند المسجد الحرام حتى يبدءوهم بالقتال ، وقوله « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » أي خالصا من الشيطان « فان انتهوا » عن الشرك فلا تعتدوا على المنتهين إذ لا يعتدى إلا على من اعتدى ، هذه الآية ترجع لقوله تعالى « واقتلواهم حيث ثقتهموهم » للدرجة الثالثة ، وهي تعميم القتال ، وقوله « الشهر الحرام بالشهر الحرام » الخ تأييد للدرجة الثانية ، وهي قتال المعتدى بمثل ما اعتدى « فان قاتلوكم » في الشهر الحرام ، أو البلد الحرام أو في حال الاحرام « فاقتلواهم » فان الحرمات ، وهي ما يجب أن يحافظ عليها وتحترم يجري فيها القصاص ، ثم

لخص هذا كله بفذلكة ، فقال « فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، وهو في المرتبة الثانية ، ولما كان القتال لا يكون بلا مال أعقبه بقوله « وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » بالكف عن القتال ، أو عن الاتفاق فيه ، والباء زائدة : أى ولا تلقوا أيديكم : أى أنفسكم إلى التهلكة : أى الهلاك كما تقدم في التفسير اللفظي .

ألا ترون أن الأمة الإسلامية لما نكصت على أعقابها ، ونامت على وساد الراحة الوثير ، وتقهقرت إلى الوراء ، ونامت عن جمع المال ، وانفاقه في الجهاد ، وسبقها الأمم أخذت تبعد وتهلك ، فهذا هو اللقاء للتهلكة وذلك هو السر في حشد الجنود ، ورفع البنود ، ومخر السفن في البحار ، واعداد الآلات ، والتسابق في الميدان والتنافس في صنع المدمرات ، وسير الطائرات الطائرات « وأحسنوا » أعملكم وأخلاقكم كما تحسنون محاربة العدو فليس يغني دفع العدو عن الفضائل الأخرى كالأمان تلك الفضائل عن الجهاد ، وكما أنه ليس البر قاصرا على أمر القبلة والتولي إليها ، وليس البر أن تسألوا عن الأهلة ، هكذا ليس يغني جهاد العدو عن جهاد النفس ، فليكن المسلم جامعا لصفات الكمال بعيدا عن خصال الشر وإياكم أن يغركم أنكم مجاهدون أو صائمون ، فلذلك أعقبه بمسائل الحج ، وبعض مسائل من القتال ، وقبل ذكر آيات الحج وتفسيرها نسرده أحوال الحج ليسهل عليكم أيها الذكي معرفة الآيات الآتية ، ولتكون لديك صورة تعقله بها .

شروط وجوب الحج خمسة

البالغ والاسلام والعقل والحرية والاستطاعة ، ومن وجب عليه الحج ، وجبت عليه العمرة ، والاستطاعة أن يكون صحيحا ، وأن يأمن الطريق بأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخطر ولا عدو قاهر ، وأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه ، وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته في هذه المدة ، وأن يملك ما يقضى به ديونه ، وأن يقدر على ما يحمله في السفر ، ثم ان كان معضوبا ، وكان له مال فليستأجر من يحج عنه بماله بعد فراغ الأجير من حجة الاسلام لنفسه .

شروط صحة الحج

اثنان : الوقت والاسلام ، فيصبح من الصبي ، فيحرم بنفسه ان كان مميزا ، ويحرم عنه وليه ان كان صغيرا ويفعل به ما يفعل في الحج من الطواف والسعي وغيرهما ، وأما الوقت ، فهو شوال ، وذو القعدة ، وتسع من ذى الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر ، فمن أحرم بالحج في غير هذا الوقت ، فهي عمرة ، وجميع السنة وقت العمرة .

شروط وقوعه عن حجة الاسلام

الاسلام ، والحرية ، والبالغ ، والعقل ، والوقت .

الأركان التي لا يصح الحج بدونها خمسة

الاحرام ، والطواف ، والسعي بعده ، والوقوف بعرفة ، والحلق بعده على قول ، وأركان العمرة كذلك الا الوقوف .

كيفية الحج

إذا وصل إلى الميقات المشهور الذي يحرم الناس منه يغتسل وينوى به غسل الاحرام ويكمل الطهارة ويخلع ثيابه المخيطة ويلبس ثوبي الاحرام فيرتدى ويتزر بثوبين أبيضين وعند ذلك ينوى الاحرام بالحج أو بالعمرة قرانا أو أفرادا ويكفي مجرد النية لانعقاد الاحرام ويسن أن يقرنه بالتلبية ، ثم يدخل مكة والأفضل

أن يكون من ثنية كداء بفتح الكاف كما فعل رسول الله ﷺ ثم إذا دخل المسجد الحرام فالأفضل أن يكون من باب بنى شيبة ثم يقصد الحجر الأسود ويمسك بيده اليمنى ويقبله ثم يطوف طواف القدوم ولا يعوقه عن الاسراع لذلك إلا الصلاة المكتوبة فليصلها ثم ليطف ، وليكن في هذا الطواف وفي كل طواف مراعى شروط الصلاة من الطهارة من الحدث والخبث في الثوب والبدن والمسكان وسبر العورة فالطواف بالبيت صلاة أباح الله فيها الكلام ، فإذا أتم الطواف سبعا فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب وليتعلق بالاستار وليدع الله بما شاء ثم ليصل خلف المقام ركعتين ثم يخرج من باب الصفا ، وهو جبل فيرقى مقدار قامة الرجل فيه ثم يسعى سبع مرات بينه وبين المروة وهو يكبر ويدعو ويمشي حتى ينتهي إلى الميل الأخضر فإذا بقي بينه وبين الميل ستة أذرع أخذ في السير السريع وهو الرمل حتى ينتهي إلى الميلين الأخضرين ثم يعود إلى الهينة فإذا انتهى إلى المروة صعدا كالصفا ، وهذه مرة واحدة فإذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان وهكذا حتى يتم السعي ، وقد فرغ من طواف القدوم والسعي وهما سنتان والطهارة مستحبة للسعي وليست بواجبة وإذا سعى فينبغي أن لا يعيد السعي بعد الوقوف ويكتفى بهذا ركنا فإنه ليس من شرط السعي أن يتأخر عن الوقوف وإنما ذلك شرط في طواف الركن نعم شرط كل سعي أن يقع بعد طواف أي طواف كان ، إذا انتهى الحاج يوم عرفة إلى عرفات ينبغي أن لا يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف وإذا وصل قبل ذلك بأيام فطواف طواف القدوم فليتمكث محرما وليكن الخروج إلى منى يوم التروية والبيت بها وبالغدو منها إلى عرفة لأقامة فرض الوقوف بعد الزوال ، اذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر وليغتسل للوقوف فإذا زالت الشمس خطب الامام خطبة لطيفة وقعد وأخذ المؤذن في الأذان والامام في الخطبة الثانية ، ووصل الإقامة بالأذان وفرغ الامام مع تمام إقامة المؤذن ثم جمع بين الظهر والعصر ، فإذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فليكن بسكينة ، ووقار حتى يبلغ المزدلفة فليغتسل ثم يجمع بين المغرب والعشاء فيها ، ثم إذا انتصف الليل تزود الحصى منها فليأخذ سبعين حصاة فانها قدر الحاجة ، وليس إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة بعد أن يكون صلى الصبح في الغسل بها ، ثم يدفع من المشعر الحرام قبل طلوع الشمس ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالكبير فينهي إلى منى ومواقع الجرات وهي ثلاثة فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر حتى ينتهي إلى جرة العقبة ويرمي جرة العقبة بعد طلوع الشمس بقيد رمح فيرمي سبع حصيات مكبرا مستقبلا القبلة أو الجرة ، ويقول مع كل جرة الله أكبر ، فإذا رمى قطع التلبية والتكبير إلا التكبير عقب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر إلى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق ثم ليذبح الهدي إن كان معه ثم ليحلق بعد ذلك ، والمرأة تقصر الشعر ، والأصلع يستحب له استمرار موسى على رأسه ومهما حلق بعد رمى الجرة فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحظورات إلا النساء والصيد .

والمحظورات في الحج والعمرة ستة : الأول لبس القميص والسر او يلبس الخف والعمامة ، وإنما يلبس ازارا ورداء ونعلين ولا ينبغي أن يغطي رأسه ، والمرأة أن تلبس كل مخيط بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه فاحرام الرجل في رأسه واحرامها في وجهها ، الثاني الطيب فليجتنب كل ما يعده العقلاء ، طيبا فان تطيب أولبس فعليه دم شاة ، الثالث الحلق والقلم وفيهما الفدية أعنى دم شاة ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر ، الرابع الجعاع وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه وإن كان بعد التحلل الأول لزمه البدنة ولم يفسد حجه ، الخامس مقدمات الجعاع كالقبلة والملازمة التي تنقض الطهر مع النساء فهو محرّم وفيه شاة ، وكذا في الاستمناء ويحرم النكاح والانكاح فيه ولا ينعقد ، السادس قتل صيد البر أعنى ما يؤكل أو هو متولد من الحرام والحلال ، فان قتل صيدا فعليه مثله من النعم يراعى فيه

التقارب ، هذه هي المحظورات ، وقد قلنا انه يرمى جرة العقبة قد تحلل التحلل الأول ولم يبق عليه من المحظورات الا النساء والصيد ثم يفيض إلى مكة ويطوف كما وصفناه أولا ، وهذا الطواف طواف ركن في الحج ويسمى طواف الزيارة ، وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر ، وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له أن يؤخر إلى أي وقت شاء ولكن يبقى مقيدا بعلاقة الاحرام ، ولا يحل له النساء إلى أن يطوف ، فإذا طاف تم التحلل وحلّ الجماع وارتفع الاحرام بالسكينة ولم يبق إلا رمي أيام التشريق والمبيت بمنى وهي واجبات بعد زوال الاحرام على سبيل الاتباع للحج ، ثم بعد هذا الطواف السعي ان لم يكن سعى بعد طواف القدوم والا اكتفى به ، وأسباب التحلل ثلاثة : الرمي والحلق والطواف الذي هو ركن ، ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين ، والأحسن أن يرمى ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف ثم يخطب الامام خطبة وداع رسول الله ﷺ ، ومتى فرغ الحاج من طواف الركن المذكور عاد إلى منى للمبيت والرمي وتسمى ليلة القدر لأن الناس يقرون فيها غدا ولا ينفرون ، فإذا أصبح اليوم الثاني من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي وقصد الجرة الأولى التي تلي عرفة فيرمي اليها بسبع حصيات ثم يتقدم إلى الجرة الوسطى ويرمي كما رمى الأولى ويقف في هذه وفي الأولى بعد الرمي ويكبر ويهمل ويدعو بحضور قلب ثم يتقدم إلى جرة العقبة ويرمي سبعا ثم يرجع إلى منزله ويبيت تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول ، ويصبح فإذا صلى الظهر في اليوم الثاني من أيام التشريق ورمى في هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كالليوم الذي قبله فهو مخير بين المقام بمنى وبين العود إلى مكة ، فان خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شيء عليه وان صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمى في يوم النفر الثاني أحد عشر حجرا كما سبق ، وفي ترك المبيت والرمي اراقة دم وليتصدق باللحم ، وله أن يزور البيت في ليالي منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى ، هذا هو الحج من أوله إلى آخره مختصرا واضحا يسر أولى النهي .

العمرة

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده فليغتسل ويلبس ثياب الاحرام كما سبق في الحج ، ويحرم بالعمرة من ميقاتها ، وأفضل مواقيتها الجمرانة ثم التنعيم ثم الحديبية ، وينوي العمرة ويأبى ويصلي في مسجد عائشة بعد ذلك ركعتين ويدعو الله بما شاء ثم يعود إلى مكة وهو يأبى ، ومتى دخل المسجد ترك النية ، وطاف سبعا وسعى سبعا كما تقدم ثم يحلق رأسه ، وقد تمت بهذا عمرته ، وهذه الطريقة : أي الحج أولا ثم العمرة تسمى الافراد .

وهناك طريقة ثانية : وهي القران وهي أن يجمع بين الحج والعمرة ، فيقول عند الاحرام ليك بحجة وعمرة معا فتندرج العمرة في الحج كما يندرج الوضوء في الغسل ويكون السعي الذي بعد طواف القدوم محسوبا منهما ولكن الطواف الأول ليس بمحسوب كما تقدم فيكون طواف الركن بعد الوقوف وليس على الحاج شيء في هذا الاشاة الا أن يكون مكيا فليس عليه شيء .

وهناك طريقة ثالثة : تسمى التمتع وهي أن يجاوز الميقات محرما بعمرة ويتحلل بمكة ، ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج وتلزمه شاة مالم تكن عمرته في غير أشهر الحج ومالم يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لاحرام الحج ، فإذا لم يجد الشاة فليصم ثلاثة أيام في الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة أيام اذا رجع إلى الوطن ، والأفضل الافراد ثم التمتع ثم القران ، هذا ما أردت ذكره في العمرة والحج وبهذا تتصور الأحكام والأما كن وتفسير آيات الحج ، وتفهم ماسياتي من قوله تعالى «فن تمتع بالعمرة إلى

الحج» وقوله «فاذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام» وقوله «فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه» وهذه الأحكام على مذهب الشافعي ، وفي بعضها خلاف سيأتي في تفسير الآيات

أسرار الحج وبقية أركان الاسلام

اعلم أن الانسان في الدنيا كولد الموسر التاجر أو الملك الذي ورث الثروة عن والده ثم انه رباه فزاد هو في تجارته وزاد نماء أمواله فالانسان خلق في الدنيا تحيط به المحن والوصب ونكبات الدهر ، فاذا تحملها وصبر عليها وقويت همته واستجمع عزيمته ، كان ذلك قوة عظيمة لسعادته في الدنيا لا يحس بها الصبيان ولا الحيوان فكلاهما لا صبر له لأن الصبر بالعقل وهو خاص بأهله ، ان النعيم والترف واللذات والتمتع بالطعام والشراب وتقارب الجنسين قد اشترك فيه الصبيان والحيوان مع العقلاء ، وهي مضطربة غير ثابتة ، ولا سعادة الاماناه الانسان لنفسه بنفسه ، وذلك بأن يتخذله من الحوادث درعا فينتقي إذذاك وقع الحوادث فتكون عليه هينة ، وتمر عليه أنواع الفرح والترح فلا تؤثر في سعادته ، وهذا هو المذكور في آية «وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة» وقد تقدم الكلام عليها فراجعها هناك ، وهذه أشبه بالميراث في مثال الصبي الغني لأنها عامة لسائر الناس ، ثم ان الله أراد أن يزيد الانسان اسرعا في الرقي ويعطيه أجنحة ويقوى سيره الى العلا ، فأنزل عليه الكتب وألهمه دراسة العلوم ، ومنها ما نزل بالوحى على بعض الخاصة من خلقه فأراد أن يهذبهم ، وذلك بالتخلية والتحلية فالتخلية بالجوع تارة مع ترك النساء في الصوم وتارة بنزع ما تميل اليه النفس وما تعلق به القلب من المال بالزكاة والصدقات ، ان العاقل كلما زاد عقلا زاد معرفة بالعشيرة وبالأمة التي هو منها فيجزع لما حلّ بقرابه وولده وأبويه وصحبه وأمنه ، فاذا صبر كان ذلك جالا لنفسه وأجنحة يطير بها الى المعالي وههنا في الزكاة يبذل المال للفقراء منهم فيكون مواسيا لهم فهو عند الحزن عليهم صابر وعند الغنى والثروة شاكر ويكون هو في نفسه قد قلل العلائق التي تربطه بهذه الدنيا وباللذات فيكون زاهدا فيها فلا ينقطع فؤاده لذكر الموت ، ولا يهلع ويجزع لموت دابة أوضاع مال ، ويكون إذذاك كالحر الذي لم تستعبده هذه الدنيا ثم انه كما تخلّى عن شهوة الطعام والشراب والنساء في أيام رمضان وتخلّى عمار بطنه بأوثق رباط من المال هكذا يتخلّى عن اللباس في الحج ، فلا يلبس الخيط ، وإنما يقتصر على ازار ورداء أبيضين كالكفن ، وقد كشف رأسه وهو مع القوم عراة تحت حرارة الشمس ، وقد خرجوا من الأهل والوطن وأنفقوا المال وتجردوا من الثياب وحرّم عليهم النساء ، هذا هو التخلية في الزكاة والصيام والحج ، أما التحلية فان الصلاة فيها مناجاة الله عز وجل ، وقد توضع الانسان ونظف ثوبه ومكانه وتوجه قلبه الى من فطره فأخذ يذكر بلسانه ، وقد أحضر في الفؤاد أنه رحن رحيم عمت رجائه سائر الخلائق بتصويرهم ورزقهم وأغداق النعم عليهم ، فيقول إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم الخ ، وهو حاضر في قلبه كأنه يراه ويشعر في قلبه بهذه الرؤية ، وهذه هي التحلية ، فبالزكاة وبالصيام وبانفاق الأموال في السفر للحج ، وفي الهدى وترك الخيط من الثياب والنساء تخلية عن علائق هذه الحياة القصيرة ، وأما التحلية ففي المناجاة والتوجه لله في «إياك نعبد» وفي الاستعانة به تعالى وفي الحج ، قائلا عند الاحرام [لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك وسعديك والخير كله بيدك والرغبة اليك لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد] فهذه هي التحلية ، ففي الحج تخلية عن المال وعن النساء وعن الطيب وعن حظوظ النفس بالامتثال في السعي بين الصفا والمروة وبالطواف وبرمي الجرات التي يجهل العبد حكماتها ، فهذا كله تخلّى المرء عن حظوظه وشهواته وامتلأ أمر الله وهو

تحليه ، وفي التلبية والتوجه لله تحلية بالرجوع الى من خلقنا وفطرنا وصوّرنا ، ولا تظن ان أعمال الحج خالية من الحكمة المعقولة كلا فان كل ما توجه به العبد من قول أو عمل أدى المقصود منه فكما أن في أقوال الصلاة توجهها بالقلب ، هكذا الطواف والسعي ورمي الجرات توجهه بالقلب ، وكما أن هناك فرقا بين فعل اللاعبين والمصارعين في وقوفهم وانحنائهم وأعمالهم وبين الصلاة في الركوع والقيام ، وأن الأول يقصد به تقوية العضلات والمسابقات وآثارها في النفس لا تخرج عما قصدت له ، والثانية يكون فيها الخشوع والخضوع والرجوع الى الله والآثار حقيقة تكون بحسب ما رجعت به وتظهر على الجوارح والأعضاء بالتجارب والمشاهدة في سائر نوع الانسان ، هكذا يكون الفرق بين الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجرات الثلاث وبين الأفعال التي تماثلها من عوائد الانسان ، وتكون هذه الأفعال مستحضرا بها عظمة الله تعالى والطواف ببيته الذي جعله حرما آمنا محترما حرم صيده والقتال فيه اعظاما واجلالا لصاحبه ، وهكذا يسعى بين الصفا والمروة ، وهذا السعي يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جاثيا ذاهبا اظهارا للخلوص في الخدمة ورمي الجرات كالتبرؤ من الذنوب والخطايا ، ولا جرم أن هذه الأفعال يصحبها عند القصد ما جعلت له ، ولذلك نجد عند الحجاج من المسرات والابتهاال وذكر الله ما لا يوجد فيما ينظره من الأعمال الأخرى لنوع الانسان فكما أن الألفاظ لها أثر على حسب المدلولات ، هكذا الأفعال لها آثار على مقتضى ما جعلت له في الشرع دينا وفي اصطلاح الناس عرفا ، ألا ترى أن التحية عند بعض الامم بأن يتفل على وجه صاحبه ، وعند بعضهم بأن يضربه ، وعند بعضهم بأن ينام على الأرض منبطحا ، وعند بعضهم بأن يولى ظهره اليه وكل عمل من هذا يؤدى المعنى الذي جعل له عرفا ، واذا لم يقيم به الانسان وأحلّ به عوقب على مقتضى ذلك بالعداوة والبغضاء ، فاذا كان هذا في عادات الناس وهم عليه يحاسبون بعضهم ، فهكذا جعل الله هذه الأعمال من الركوع والسجود والطواف والسعي والرمي قوالب وظواهر لذكر الله عز وجلّ وامتنالا لأمره واستحضارا لصفاته وجماله وتبريا من الذنوب ومن المادة ومن الدنيا . هذا ، ولتعلم أن الحج المبرور هو الذى فيه هذه هذه المعانى الشريفة ، وعلامته أن يرجع صاحبه وقد عشق ربه وتبرأ من الدنيا وفرح بالموت قبل حوله وأحب لقاء الله وأعطى كل ذى حق حقه ، وهذا سر الحديث « الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة » . أما الصلاة والحج اللذان خالوا من هذه المعانى فان صاحبهما لا ينال منهما تلك السعادة العالية اهـ

(المقصد الخامس)

في الحج وبعض أحكام القتال وغير ذلك)

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * الْحَجُّ أَشْهُرٌ

مَعْلُومَاتٌ فَهَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَيْنَاكَ لَهُمْ نَصِيبًا مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ اللَّهُ الْخَصَامُ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ * وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * سَلَٰءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَهُمْ لَا يُبَدِّلُ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا يَنْهَاهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا

اِخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ
تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا
حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ * يَسْأَلُونَكَ
مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْأَقْرَبِينَ وََالْيَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ
السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ
وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ
الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ
عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ
رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

التفسير اللفظي

ولما كان الحج ، قد يمنعه العدو كما اتفق لرسول الله ﷺ عام الحديبية سنة ست وحصره وأصحابه
وحبسوا عن المضى فيه ناسب أن يؤتى بالحج عقب الجهاد ، فقال (وأتموا الحج والعمرة لله) أى ائتوا بهما
تأمين مستجمعي المناسك لوجه الله تعالى فهما واجبان (فان أحصرتم) أى منعكم العدو ، يقال : أحصره
وحصره كما يقال صدده وأصدده ، وليس عاما لكل مرض أو غيره كما عند الحنفية ، لقول ابن عباس رضى
الله عنهما لما أحصر الاحصر العدو ، وعليه الشافعي ومالك ، ولا يلحق به غيره من كسر أو عرج أو نحوهما
الا اذا شرط ، لقوله عليه الصلاة والسلام لضباعة بنت الزبير حجتي واشترطى وقولي : اللهم محلى حيث حبستني
(فما استيسر من الهدى) أى فعليكم ما استيسر من الهدى جمع هدية من بدنة ، أو بقرة ، أو شاة ، فن
أحرم بالحج أو العمرة ومنع من اتمامه لعدو أو غيره على قول فليتحلل منه ، وليذبح هديا ، وليخلق
رأسه ، ولا يخلق رأسه حتى يبلغ الهدى محله : أى مكانه الذى يذبح فيه ، وهو حيث أحصر من حل أو حرم
(ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله) والحنفية على أن محله الحرم فلا يخلق رأسه ، حتى يعلم أن من أرسله
بلغ الحرم بالهدى ان كان معتمرا ، ويوم النحر ان كان حاجا ، والأول أوجه ، لما روى عن ابن عمر رضى الله
عنهما قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين فحال كفار قریش دون البيت فنهحر رسول الله ﷺ
وحلق رأسه ، ثم أخذ يشرح حالا أخرى خلق الرأس غير خلق التحلل ، فقال (فمن كان منكم مريضا)

مرضا يحوجه الى الحلق (أو به أذى من رأسه) كجراحة أو قل (ف) عليه (فدية) ان حلق (من صيام) ثلاثة أيام (أو صدقة) ثلاثة أصع على ستة مساكين (أو نسك) جمع نسكة ، وهي النسيحة ، لما روى أنه عليه الصلاة والسلام . قال لسكعب بن عجرة « لعلك آذاك هوأك ؟ قال نعم : يا رسول الله ، قال احلق وصم ثلاثة أيام ، أو تصدق بفرق على ستة مساكين ، أو انسك شاة » والفرق ثلاثة أصع ، ثم أخذ يشرح حكماً ثالثاً ، وهو حكم ما إذا أحرم أولاً بالعمرة من الميقات ، ثم تحال منها وتمتع بالمحظورات في الاحرام الى أن يحرم بالحج فعليه مثل ما على المحصر بدنة ، أو بقرة ، أو شاة ، وهو معنى قوله تعالى (فإذا أمتتم فمَن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى) أى فعليه ذلك ، وهو دم جبران يذبحه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه ، وقال الحنفية دم نسك ، فهو كالأنحية (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج) أى فعليه صيام ثلاثة أيام في أيام الاشتغال به بعد الاحرام ، والأحب أن يصوم السابع والثامن والتاسع من ذى الحجة (وسبعة إذا رجعت) أى فرغتم من أعمال الحج سواء كان في طريقكم أو عند أهلكم ، وهو مذهب الحنفية ، وللشافعية قول إذا رجعتكم إلى أهلكم (تلك عشرة كاملة) فليست السبعة للتكثير (ذلك) الحكم المذكور (لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) بأن كانوا على مسافة قصر فأكثر من الحرم عند الشافعية ، وعند الحنفية أهل المواقيت من قرن ويألم ، والحجفة ، وذى الحليفة ، وذات عرق ، فكل هؤلاء ومن دونهم الى مكة حاضرو المسجد الحرام ، ومن تمتع من هؤلاء وجب عليه دم ، وأما حاضرو المسجد الحرام فليس عليهم دم لأنهم ليسوا بمن يجب عليهم أن يحرموا من الميقات ، وعند الحنفية ليس لهم التمتع وان فعلوه فعليه دم جنابة (واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب) وهو ظاهر ، ثم قال (الحج أشهر معلومات) معروفات ، وهي شوال ، وذو القعدة ، وتسع من ذى الحجة بليلة النحر عند الشافعية ، والعشر عند الحنفية ، وذو الحجة كله على مذهب مالك (فمن فرض فيهن الحج) أى أوجب على نفسه بالاحرام فيهن عند الشافعية ، أو بالتلبية ، أو سوق الهدى عند أبى حنيفة (فلا رفق) أى لا جاع أولاً فخش في الكلام (ولا فسوق) لا خروج عن حدود الشرع بالسبب وارتكاب المحظورات (ولا جدال) لا مرء مع الخدم والرفقة (في الحج) أيامه : أى لا يجوز ذلك (وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) أى وتزودوا لمعادكم بالتقوى فانها خير زاد ، وقيل نزلت في أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون ، فيكونون كلا على الناس ، فأمرهم أن يتزودوا ويتقوا الأبرام والتثقل في السؤال (واتقون يا أولى الألباب) وفي هذه الآية السابقة دليل على وجوب العفة ، وترك أذى الناس وعدم التثقل عليهم فناسب أن يؤتى بعدها بما يناسبها من التكسب ، وقد كان للعرب أيام جاهليتهم تجارات ومكاسب في سوق عكاظ ، وذى المجاز ومجنة فتأثموا أن يتجروا فيها ، فنزل قوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) أى عطاء ورزقا وربحاً في التجارة (فإذا أفضتم) أى دفعتم أنفسكم كما يفيض الماء إذا صببته بكثرة (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) وهو جبل يقف عليه الامام ، ويسمى قزح (واذكروه كما هداكم) أى اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة للناسك وغيرها (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) أى قبل هدايته لكم (ثم أفوضوا) يقرش (من حيث أفاض الناس) أى كسائر الناس ، لا من المزدلفة وأنتم مترفعون عنهم (واستغفروا الله) من جاهليتكم في تغيير المناسك (إن الله غفور رحيم . فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كذا ذكركم آباءكم أو أشد ذكراً) كان العرب في الجاهلية إذا قضوا مناسكهم ذكروا مناقب آبائهم ومفاخر أجدادهم نظماً ونثراً كما هو حالهم في سوق عكاظ وغيره ، فلما جاء الاسلام أمرهم فيه أن يذكروا الله كذا ذكرهم آباءهم أو كذا ذكر ذاكر أشد ذكرهم لآبائهم ، وذلك ليعرفوا حقه عز وجل وليكونوا أمة وسطاً متحدة ، فذكر الله يجمعهم ، وذكر الآباء يفرقهم ويشتمهم ، وذلك هو التضامن

والتحاب العام ، وتوجه النفوس إلى الوحدة الدينية العامة ، والنشأى بها عن الوحدة الخاصة ، وأومعنى بل ، وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن هذه الآية ، قيل له قد يأتى على الرجل اليوم ولا يذكرك فيه أباه ، فقال ليس كذلك ، ولكن أن تغضب لله عز وجل إذا عصى أشد من غضبك لو لديك إذا شئنا انتهى .

ولا جرم أن هذا هو النظام العام ، والناموس الشامل ، والقانون العام الكامل (فن الناس من يقول ربنا آتينا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقننا عذاب النار) كانوا في الجاهلية يقولون : اللهم أعطنا ابلا ، وبقرا ، وغنا ، أو يقولون : اللهم ان أبى كان عظيم الفئة كبير الجنة كثير المال ، فأعطني مثل ما أعطيته ، وفي البخارى عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال « تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخيصة [ثوب من خز أو صوف معلم] ان أعطى رضى وان لم يعط سخط تعس وانتكس ، وان شيك فلا انتقش » والانتقش اخراج الشوكة ، وشيك دخلت الشوكة في جسمه ، وحسنة الدنيا كالصحة والعفاف ، وتوفير الخير ، والحسنة في الآخرة الثواب والرجة ، فدخل في الأول المرأة الحسنة ، وفي الثانى الخوراء ، وكذلك العلم والعمل في الأول أيضا « وقننا عذاب النار » أى احفظنا من الشبهات والذنوب المؤدية إلى عذاب النار (أولئك) الذين ذكروا من الفريقين (لهم نصيب مما كسبوا والله سرّيع الحساب) فيحاسب الناس في لحظة ، والساعة قريب ، فليعملوا قبل أن تقوم فيحاسبهم (واذكروا الله في أيام معدودات) أى أيام التشريق ، وهى أيام منى ، ورمى الجمار ، وسميت معدودات لقلمهن ، وهى ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، أولها اليوم الحادى عشر من ذى الحجة ، ويكون التكبير اذ بار الصلوات وعند ذبح اقرابين ، ورمى الجمار وغيرها (فن تجل) أى استجمل النفر (فى يومين) أى يوم القر ، والذى بعده : أى فن نفر فى ثنى أيام التشريق بعد رمى الجمار عند الشافعية ، وقبل طلوع الفجر عند الحنفية (فلا إثم عليه) باستجماله (ومن تأخر فلا إثم عليه) حتى رمى فى اليوم الثالث بعد الزوال عند الشافعى ، أو قبل الزوال جوازا عند الحنفية فلا إثم عليه فى التأخير ، ولقد كان الجاهلية يختلفون ، فمنهم من أثم المتجمل ، ومنهم من أثم المتأخر ، والذى ذكر من الأحكام (لمن اتقى) اذلا منتفع به سواء (واتقوا الله) أيها الناس فى جميع أحوالكم وأموركم (واعلموا أنكم إليه تحشرون) .

كان الجاهلية يذكرون آباءهم فأمروا بذكر الله جلّ جلاله ، وأمر الحاج بذكر الله أيام التشريق فناسب أن يذكروا من هو كالأخنس بن شريق الثقفى اذ كان حسن المنظر حاد المنطق يوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعى الاسلام ، ويقول انى أحبك ، ويحلف بالله على ذلك ، وقد خنس : أى اختفى يوم بدر بثلاثمائة رجل من بنى زهرة عن قتال رسول الله ﷺ يوم بدر ، وقال : ان محمدا ابن أختكم ، فان يك كاذبا كفناكموه الناس ، وان يك صادقا كنتم أسعد الناس به ؟ قالوا : نعم ما رأيت قال انى أخنس بكم فاتبعونى ، فذلك قوله تعالى (ومن الناس من يجيبك قوله فى الحياة الدنيا) أى فى شأنها من أسباب المعاش والتجارة وغيرها (ويشهد الله) على أن (مافى قلبه) موافق لكلامه (وهو ألد الخصام) شديد العداوة والمخاصمة (واذا تولى) أعرض أو صار واليا (سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) كما فعل الأخنس بثقيف إذ بيّتهم ، وأحرق زرعهم ، وأهلك مواشيهم ، أو كما يفعل ولادة السوء بالقتل والاتلاف والظلم (والله لا يحب الفساد) لا يرضاه (واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) الأنفة : أى جلته حمية الجاهلية الأولى على الإثم الذى يؤمر باتقائه لجأجا ، من قولك أخذته بكذا : أى جلته عليه (فحسبه جهنم) أى كفته جزاء وعقابا (ولبئس المهاد) والمهاد : الفراش ، ثم جاء بضده ، فقال (ومن الناس من يشترى نفسه) يبيعها (ابتغاء مرضات الله) أى يبذلها فى الجهاد طلبا لرضاه ، أو فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ذلك

أن صهيب بن سنان الرومي أخذه المشركون وعذبوه ليرتد ، فقال : اننى شيخ كبير لا ينفعكم كفرى ولا يضركم
 إيمانى ، فخذوا مالى ودعوني ، فقبلوه منه وأتى المدينة (والله رءوف بالعباد) لأنه أرشدهم إلى مثل هذا
 الشراء ، ولما كانت مناسك الحج وآداب الصيام والجهاد تترادى لهذيب النفوس ، وائتلاف القلوب ، واتحاد
 الشعوب ، وكان فريق من الناس لا يثوبون إلى رشدهم ولا يرجعون عن غيهم ، وفريق اهتدى ، فالأول
 كالأخنس المنافق ابن شريق ، والثانى كصهيب دعا الله المسامحين كافة إلى السلم والطاعة ونبذ المشاحة والصاح
 والإيمان بسائر الأنبياء ليتحد المتشاكسون ويتفق المختلفون ، فقال (يأيتها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم)
 أى استسلموا لله وأطيعوه تجلة ظاهرا وباطنا حال كونكم (كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان) بالفرق
 والتفريق (انه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة (فان زلتم) عن الدخول فى السلم (من بعد ما جاءكم
 البينات) الآيات والحجج الشاهدة على أنه الحق (فاعلموا أن الله عزيز) لا يعجزه الانتقام (حكيم) لا ينتقم
 إلا بحق : ألا وان هذا النوع البشرى سعادته بالصفاء والسلم ، وشقاؤه بالخلاف والشقاق ، فاذا تفرقت الأهواء
 وزلت القدم واتبع كل امرئ هواه جاءهم العذاب من حيث يرجون النعيم ، وحل بهم الشر حيث يرجون
 الخير هذا هو الناموس العام والسبيل الالهى ، ألا ترى أن الناس يعذبون بنفس شهواتهم ويدلون بأطماعهم
 فمن لم يطع فقد انقلبت لذاته آلاما وصارت أفراحه أحزانا كما يرى فى الفاجرين الفاسقين حين يقلب الدهر لهم
 ظهر المجن ، وكذلك الأمم الكاسلة المنتكسة النائمة على وساد الراحة العاكفة على الشهوات يستخدمها
 أعداؤها بنفس هذه الصفات ، فمثل الأمم إذ ذاك كما قال الله (هل ينظرون إلا أن يأتهم الله) أى أمره
 أو بأسه (فى ظل من الغمام) السحاب الأبيض حيث يرجون الخير (والملائكة) لأنهم المسخرون للعالم
 القائمون بتسييره (وقضى الأمر) تم بهلاكهم (وإلى الله ترجع الأمور) فجاءهم الشر حيث ينتظرون
 الخير ، والضرب حيث ينتظرون النفع كما هى حال ذوى الشهوات والمغرورين والغافلين وأكثر أمم الشرق لاسيما
 المسلمين ، فاذا لم يستيقظ المسلمون وفرحوا بأموالهم وأبنائهم كان مفرحوا به عليهم شقاء و بلاء ، ثم ضرب
 مثلا بنى إسرائيل إذ يقول (سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة) معجزة ظاهرة وتبيان فى التوراة
 على أيدي أنبيائهم شهادات بالحق فأولوا وبدلوا وزاغوا وأتوا بأكاذيب كما يكذب جهلة الوعاظ اليوم على الأمة
 الاسلامية ، فوعدهم على قليل العمل كبير الأجر ، فكان الهدى سبب الضلال والخير سبب الشر (ومن
 يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب) فيعاقبه أشد العقوبة لارتكابه أشد الذنوب فيجعل
 هلاكه بما ظن أنه حياته كما جعل آيات الكتاب الهاديات سببا للضلال . وقد فعل ذلك باليهود كما فعله أيضا
 بالأمة الاسلامية اليوم ، فلستم افترى الأحرار والرهبان حفظا للرياسة ؟ فسلط الله عليهم المسلمين ، هكذا كذب
 كثير من أهل العلم فى الأقطار الاسلامية وفسروا الأحاديث والآيات على حسب أهوائهم وأراغوهم عن حكم
 القرآن ، فسلط عليهم من سخرهم ، فكان المفروح به هو الحزن ، والمطلوب هو المهرب كالظلم من الغمام
 ولما كان ذلك ناتجا من الغرور بالحياة أردفه بقوله (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين
 آمنوا) كبلال وعمار وصهيب (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب) فى الدارين
 ولما كانت الآية السالفة دعوى للمسامحين أن يدخلوا فى السلم والحب العام والطاعة ولا يفرقوا : أتبعها بما
 يذكر ما كانت عليه الأمم قديما ، فلقد كانوا فى جنة السعادة ونعيم الحياة إذ (كان الناس أمة واحدة)
 وعاشوا قرونا كثيرة كما تشهد بذلك المكتشفات الحديثة ، وكما يرى إليه الدين البرهمنى فى الهند والبوذيون ،
 فهذه الأمم تروى عن أسلافها السلام العام ، وهكذا تشير أشعار هوميروس الشاعر اليونانى وغيره ، فحصل
 الطمع والجشع فاختلوا (فبعث الله النبيين) وبدأ بنوح ، وكانت الأمم قبله فى هناء وسعادة (وأنزل معهم

(الكتاب) أى جنسه ملتبسا (بالحق) ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه (أى فى الحق) الذى اختلفوا فيه بجاء الأمر معكوسا والوضع مقلوبا ، فجعلوا ما كان سبب الهداية للضلال وما هو الخير شرًا (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم) حسدا وظلما طرصهم على الدنيا (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا) أى للحق الذى اختلف (فيه) المختلفون (من الحق باذنه والله يهتدى من يشاء إلى صراط مستقيم) فأنه يدعو الناس إلى الوئام والاتحاد ويرشدهم للحجة والوداد ويذكرهم بما سلف للأئمة قبل نوح ، فقد كانوا فى سعادة وراحة ، فلما ضلوا أرسل الرسل فغير العلماء واتخذوا الديانات شبكة صياد وحيلة محتل ، وينادى الله الأئمة أن ترجع سعداء وترد مجدها القديم والنعيم ، ولما كان السلم العام لم يزل بعيدا وأشرب نوع الانسان العداوة والبغضاء ، واستنبت الظلم وراش سهم الغدر : أمر الله النبي والمؤمنين أن تكون حياتهم صبرا وجهادا ليقوموا الحق حسب الطاقة .

إذا لم يكن إلا الأئمة مركبا * فما حيلة المضطر إلى ركوبها

فقال (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) حالهم التى هى مثل فى الشدة (مستهم البأساء والضراء) بيان لتلك الحال مستأنف (وزلزلوا) أزعجوا أزعجا شديدا (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) لتناهى الشدة ، ويقول بمعنى قال ، فقل لهم تبشيرا (ألا إن نصر الله قريب) فالانسان فى الحياة مجاهد لعدوه الخارجى الظالم ، ويعوزه الثبات ولعدوه الداخلى ويعوزه الصبر وعند اشتداد الخطب يكون الفرج بغلبة الحق على الباطل فى الأئمة وبارتياض النفس وراحتها فى الأخلاق ودخول دار السلام بعد الموت ، ولما كان انفاق المال أشق على النفس وأشق منه هلاكها أخذ يحرض على الانفاق والجهاد .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عمرو بن الجوح الأنصارى رضى الله عنه كان شيخا هما ذا مال ، فقال يارسول الله ماذا تنفق من أموالنا وأين نضعها ؟ فأجيب ببيان المنفق عليه ، وذلك قوله تعالى (ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تنفعلوا من خير فإن الله به عليم) الخير المال ، وقدم الوالدين لأنهما واجب حقهما أولا ، ويليهما الأقرب فالأقرب ثم اليتامى الخ ، وإنما كانت الإجابة ببيان المنفق عليهم ، لأن النفقة لا يعتد بها إلا إذا وقعت موقعها . قال الشاعر :

ان الصنعة لا تعد صنعة * حتى يصاب بها طريق المصنع

ثم أتبعه بذكر الجهاد بالنفس ، فقال (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) والنفوس البشرية إذا تعودت الخير ألفتها ، فصار المذودا فلا سعادة إلا فى لذة النفس ورضائها (والله يعلم) ما هو خير لكم (وأتمم لاتعلمون) ولو أن الناس تركوا أنفسهم وهواها فزينت لهم الحياة الدنيا لصار المحبوب لهم نقمة عليهم كما هو مقصود الآيات السابقة .

وهكذا النفوس تحب القعود عن الغزو ، وهوشر لما فيه من طمع العدو ، لأنه إذا علم ميلكم إلى الراحة والدعة والسكون قصد بلادكم ، ونزل بساحتكم ، وإذا علم أن فيكم شهامة كف عنكم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يوم الفتح « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » وقال الزهري : كتب الله القتال على الناس جاهدوا أو لم يجاهدوا ، فمن غزا فيها ونعمت ، ومن قعد فهو عدو ان استعين به أعان ، وان استنفر نفر ، وان استغنى عنه قعد . قال الله تعالى « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » ولو كان القاعد تاركا فرضا لم يعده بالحسنى اه

واعلم أن هذا القول أجمع ما قيل في هذا المقام فلتكن الأمة كلها في جهاد ، ان دخل العدو البلاد وجب الحرب والدفاع على كل رجل وكل امرأة ، وان لم يدخل وجب أن يجاهد كل فيما يختص به ، فالعالم والصانع والزارع كل يتقن ما في طاقته ، فلا قتال إلا بالعدة والسلاح ، ونظام الطرق ، وترقية جميع مرافق الحياة . ثم أخذ يتم مسائل الجهاد بما روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية في جادى الآخرة قبل بدر بشهرين ليرصد عيرا لقريش فيهم عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها تجارة الطائف ، وكان ذلك غرة رجب ، وهم يظنون من جادى الآخرة ، فاحتج قريش على النبي ﷺ وقالوا استحل محمد الشهر الحرام شهرا يأمن فيه الخائف ، ويبدع فيه الناس الى معاشهم ، فأجيبوا بأن القتال في الشهر الحرام إثم كبير ، ولكن صدكم الناس عن الاسلام وكفركم به تعالى وصدكم الناس عن المسجد الحرام ، واخراجكم النبي ﷺ وأصحابه منه . هذه الأربعة أكبر عند الله مما فعلت السرية خطأ ، وتكون النتيجة أن ما فعلتموه من الفتنة بهذه الامور الأربعة أشد من ذلك القتل ، وهذا معنى قوله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) بدل اشتال (قل قتال فيه كبير) ذنب كبير (وصد عن سبيل الله) وصرف عن الاسلام ومنع عنه ، أو عما يوصل العبد الى الله من الطاعات (وكفر به) أى بالله (و) صد (المسجد الحرام واخراج أهله منه) أى اخراج أهل المسجد الحرام منه وهو النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون (أكبر عند الله) مما فعلته السرية خطأ (والفتنة أكبر من القتل) أى ما ترتكبونه من الاخراج والشرك أظنع مما ارتكبوه مما تقدم من قتل الحضرمي .

[روى] أن عطاء كان يحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا في الشهر الحرام ولأن يقاتلوا فيه وما نسخت وجهور العلماء على أنها منسوخة بقوله « اقاتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وبقوله « وقاتلوا المشركين كافة » يعنى في الأشهر الحرم وفي غيرها اهـ

ثم أخذ يحذرهم من الكفار لما تقرّر أن الناس مختلفون وقد فسد الزمان ، فتال (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) هذا اخبار من الله بهداية الكفار لهم ، وأنهم لا ينفكون عنها حتى يردّوهم عن دينهم ، وحتى للتعليل ، وفي المرتد رأيان : فالشافعي يرى أنه لا يبطل عمله إلا اذا مات على ردة ، وأبو حنيفة يرى أنه يحبط عمله وان أسلم ، واعلم أن المرتد يجب قتله وتبين زوجته ، كما لا يستحق الثواب على عمله كما فصلناه ، وقوله (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) ظاهر مما تقدم ، نزلت في عبد الله بن جحش وأصحابه رضى الله عنهم ، وذلك أن أصحاب السرية قالوا يا رسول الله هل نؤجر على وجهنا هذا ونطمع أن يكون لنا غزو فأنزل الله هذه الآية اهـ ولما فرغ من الجهاد مع الأعداء أخذ يشرح النظام الداخلى وما يحفظ كيان الأمة بعد الذب عنها من العدو المهاجم وبدأ بالجر والميسر وأحكامهما وهو :

المقصد السادس ، والسابع ، والثامن ، والتاسع

في الكلام على الجر والميسر ، وكيفية الانفاق ، واليتامى ، وأحكام النكاح ، والحايض

في هذا المقام ستة أسئلة

الأول : سؤال عمرو بن الجوح المتقدم إذ أجيب ببيان المنفق عليهم .

الثاني : سؤال أهل مكة عن الشهر الحرام .

الثالث : سؤال عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وجاعة من الأنصار في الخمر والميسر .
الرابع : سؤال عمرو بن الجوح المتقدم أيضا ، سأل في هذا عن كيفية الاتفاق كما سأل أولا عن المنفق عليهم .

الخامس : سؤال المسلمين عن اليتامى .

السادس : سؤال أبي الدرداء في نفر من الصحابة عن الحيض ، والأسئلة الثلاثة الأولى بلا عطف ، والثلاثة بعدها بالعطف لأفتراق أزمنة الأولى واقتراب أزمان الثانية ، ولتفسير المقاصد الأربعة في قوله تعالى :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَاعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتِ شِدَّتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ *

التفسير اللفظي

روى أنه نزل بمكة قوله تعالى « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » فأخذ المسلمون يشربونها ثم إن عمر ومعاذ في نفر من الصحابة رضى الله عنهم ، قالوا : أفتنأى رسول الله في الخمر فأنها مذهب للعقل ؟ فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الخمر والميسر) عن شرب الخمر وعن القمار (قل) يا محمد (فيهما إثم كبير) بعد التحريم (ومنافع للناس) قبل التحريم بالتجارة بها وبأخذ مال بغير كد (واثمهما) بعد التحريم (أكبر من نفعهما) قبل التحريم ، أو واثمهما من التخاصم والتشاتم ، وقول الفحش والزور الخ . فلما نزلت شربها قوم وتركها آخرون ، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ناسا منهم ، فشربوا ، فسكروا ، فأمّ أحدهم ، فقرأ [أعبد ما تعبدون] فنزلت « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » فقلّ من يشربها ، ثم دعا عتب بن مالك بن سعد بن أبي وقاص في نفر ، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا ، فأنشد سعد شعرا فيه هجاء الأنصار ، فضربه أنصارى بلحى بغير فشجه ، فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال عمر رضى الله عنه : اللهم

بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت « انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » فقال عمر رضى الله عنه : انتهينا يارب . والخمر مصدر من شجره اذا ستره ، سمي به ما اتخذ من العنب والرطب ونقيع التمر والزبيب اذا اشتد وغلا وقذف بالزبد ، وسمى خرا لأنه كأنه يستر العقل كما سمي سكره لأنه يسكره أى يحجزه ، فاذا طبخ حتى ذهب ثلثاه حل شربه عند الحنفية ، وان أسكر حرم ، لما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه كتب الى بعض عماله : ان أرزاق المسامين من الطلاء ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه . وفى رواية : أما بعد فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فان له اثنين ولكم واحد ، والطلاء الشراب المطبوخ من عصير العنب . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : حرمت الخمر بعينها قليلها وكثيرها ، والمسكر من كل شراب ، ومذهب الشافعى رضى الله عنه : ان الخمر عبارة عن عصير العنب النىء الشديد الذى قذف بالزبد ، وكذلك نقيع الزبيب والتمر ، والمتخذ من العسل والحنطة والشعير والارز والذرة ، وكل ما أسكر فهو خمر ، وأكثر علماء الأمة الاسلامية على سد باب الفتنة يحرمون القليل والكثير مطلقا ، ومال اليه متأخرو الحنفية والخمر وان أفادت اللذاز ، وتشجيع الجبان ، وتقوية الطبيعة أولا ، فكم فيها من رذائل ومضار مما شرحه علماء العرب ، ولكم من رسالة فى ذمها قرأتها ، ورواية عن طيب درستها ؟ حتى ألحقوا بها شرب الشاى والدخان والقهوة . ولقد رأيت فى كلام [هنرى الفرنسى] فى كتابه [خواطروسوانخ فى الاسلام] أن أحد سلاح يستأصل به الشرقيون ، وأمضى سيف يقتل به المسلمون هو الخمر وادخالها ، ولقد جردنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبّت شريعتهم الاسلامية أن يتجرعوه ، فتضاعف نسلهم ، ولو أنهم استقبلونا كما استقبلنا قوم من منافقيهم بالتهليل والترحيب وشربوها لأصبحوا أذلاء لنا كنتك القبيلة التى تشرب خمرنا وتحملت إذلالنا ، وقال [بنتام] المشرع الانجليزى : « من محاسن الشريعة الاسلامية تحريم الخمر فان من شربها من أبناء أفريقيا آل أمرنسله للجنون ، ومن استدامها من أهل أوروبا زاغ عقله ، فليحرم شربها على الافريقيين ، وليعاقب عقابا صارما الأوروبيون ، ليكون العقاب مقدرا بمقدار الضرر »

ولقد رأيت فى كتاب لطبيب أمريكى يسمى [كيلوج] منع التداوى بالخمر ، إذ بان له أن ضررها فى الجسم عند التداوى أكثر من نفعها بالشفاء المؤقت ، لما تفعل فى الامعاء وباقي الأحشاء من الضرر . ولما فشت الخمر فى بلادنا أغرم بها قوم حتى أخربت البيوت ، وأذهبت العقول ، ونحن نرقب من الله الخروج من مأزقنا ، وبعد ما كتبت هذا أخذت أقرأ ذلك الكتاب المسمى [كتاب اليد فى الطب] فرأيت كتيب فى ضرر الخمر نحو (٣٠) صفحة ، وكتب فى الدخان والشاى والقهوة والكافور ، وشدد النكير على الناس جميعا ، فجمعت من ملخص ترجمته خطبة مع اضافة شذرات من كتب أخرى ، وهالك نص ماجاء فى الجرائد والمجلات ببلادنا التى نشرتها فى العام الماضى قبل الطبع (أى طبع الطبعة الأولى سنة ١٣٤٣ هجرية) .

ننشر اليوم خطبا ألقاه [فلان] فى المدرسة الخديوية ، وكذلك فى الكلية الأميركية على ملاء من العلماء والأطباء وطلبة المدارس العالية المصرية لاسيما طلبة الطب فى موضوع [مطابقة الكشف الحديث لما ورد فى الحديث النبوى من أن التداوى بالخمر ضار] كما قاله أكابر الأطباء فى النمسا وفرنسا وأمريكا ، ولم تقصد بذلك إلا ايقاظ أطبائنا وعلمائنا كيما يقوموا بما هو مفروض عليهم نحو أبناء وطنهم ، كما قام غيرهم من الأمم الأخرى ، وهاهو ذا الخطاب بتمامه . قال حفظه الله :

« الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد فاليكم أيها السادة الأفاضل ، يا نخبة مصر وأساطين العلم والطب ، ويا زهرة الشريعة المصرية ، أتم قدوة الأمة وعيونها المبصرة ، وآذانها السامعة ، ورءوسها المفكرة ، أتم قادتها وسادتها ، أتم رأى العام ، أوجه خطابى هذا راجيا أن تصغوا الى قليل ، لأتلو عليكم

ما جاش بقلبي ، وما أملاه عليّ وجداني ، ودلّ عليه اختباري مدة الحياة في هذا الموضوع العظيم وهو [الخمر] كما أني أشكركم على ما تفضلتم به من تلبية الدعوة لسماع خطبتي :

أيها السادة : ان الأمم اليوم قد تنهت من غفلتها ، وقامت من سباتها ، والعلم يعدو حثيثا بالأمم الى العلا ، والانسان اليوم غيره بالأمس ، هذه حركة فكرية عامّة للتطور الاجتماعي الانساني العام ، ومصر التي شهد لها التاريخ بالتقدم على سائر الأمم أجدر أن تدلى دلوها في الدلاء ، وأن تبحث مع ذوى الآراء في الامور الهامة والمسائل العامة ، وتحذو حذو الأمم الرافعة للعلم حتى لا يسبقنا خلفنا بألسنة حداد ، ويقول أبنائنا : لقد قصر آباؤنا الأولون ، ونام عامائنا السابقون ، فوجب علينا أن نتقى مجتمعا من بعض المضارّ والمصائب التي أهمها مسألة [الخمر] .

تحريم الدين للخمر

أيها السادة : حرّم القرآن الخمر تحريما قاطعا ، ولم يستثن حالا من الأحوال ، ولا أباحه ، ولا أجاز لهضم الطعام ، ولا رضيه لتقوية الشهوة عليه ، ولا لاكثر الدم في الجسم ، بل عمم التحريم فقال : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون »

التداوى به في الدين

اختلف الفقهاء في التداوى به ، فأباحته طائفة اذا لم يقم غيره مقامه ، وقال آخرون : الخمر لا يتداوى به ، واستدلوا بالحديث : « لم يجعل الله دواء أمتي فيما حرّم عليها » ويقول القرآن « فهل أنتم منتهون » .

المدينة الحديثة والدين

هجمت المدينة الحديثة في الشرق ، وأخذت تسرع في أسباب الرقي ، ففشت الخمر ، وعمت الأمصار والقرى ، وشاعت بين الخاصة والعامة ، وتبعها في ذلك أنواع الخشيش والكوكايين وغيرها ، ويقول القرآن : « رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

مطاردة المدينة الحديثة للأديان

كان أسلافنا يقيمون الحدود ، ويجلدون الشارب نحو أربعين جلدة ، فكان ذلك مخففا من سطوة الخمر وما نعا لطغيانها ، وكان الرجال لدين سطوة وبأس ، وكان الملوك والحكام أقوى معضدين للفضيلة ومنع الخمر امتثالا لقوله تعالى : « فهل أنتم منتهون » .

جاءت المدينة الحديثة بنجيلها ورجلها ، وشاركتنا في الأولاد والأموال ، وهجمت علينا ، ولم يبق للدين سطوته ، فأنحسر عن المدن الى القرى ، ثم انحاز الى أطراف البلاد ، وهي تطارد الدين ، ولكن المدينة بلا علم ضلال ، والعلم الناقص وبال ، والبلاهة كما قال الغزالي خير من الفطانة البتراء ، والجهلاء أفضل من الأذكياء المغرورين ، فلما الدين كله ، واما العلم كله ، ونحن أخذنا من الديابات أسماءها ، ومن العلوم قشورها ، نخسرنا الصفتين ، وربحنا الرزيتين ، وسبقنا المتدينون ، وفاقنا من الفرنجة العلماء العامهون ، فويل ثم ويل لمن لا دين له ولا علم ، أولئك الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فحقّ علينا أن نبحث في موضوع الخمر بحثا علميا حتى نكون أتينا البيت من بابه ، وأرجعنا الأمر الى نصابه ، فالعلم اليوم هو السلاح

الذى به تصول الفضيلة ، وبه تحارب النقيصة ، فهذا السلاح أقاتل معكم وبهمتكم جيوش الجهل بين أبناء أمتي المصرية المحبوبة ، فلا أقص عليكم أنباء ما عثرت عليه في هذا الموضوع مرتباً على مقتضى الترتيب الزماني وينحصر ذلك في أربعة مباحث وهي :

- (١) ما قاله علماء الاجتماع من أنه يفنى النسل ويستأصله .
- (٢) ما قاله علماء التشريع من أنه يورث الجنون في الأقطار الجنوبية .
- (٣) أعمال الجمعيات المنتشرة لمنع الخمر ، وما جاء في خطبة رئيسها في مصر .
- (٤) ما جاء في كتب الطب الافرنجية ، وخصوصاً الأمريكية ، وكيف منعوا التداوى به .

المبحث الأول

لقد قرأت في كتاب [خواطر وسوانح في الاسلام] تأليف [الكونت هنرى كاسترى الفرنسى] المطبوع في سنة ١٨٩٨ في ص ١٣٥ ما يأتي : « وعندى أن هجرة القبائل الى الصحراء الكبرى جنوباً من الجزائر وهم باطل كالقول بإمكان مضايقتهم فينزحون عن البلاد شيئاً فشيئاً ، أما انقراض الأهالى بالتدريج بعد دخول التمدن الاوروبى بلادهم ، فنحن لانصدقه إلا قليلاً ، فان احتكاكهم بالتمدين ربما قلل وسائل العيش عندهم ، ولكن لا يؤثر في وجودهم ، بل لا يزالون يتناسلون أكثر من الاوروبيين ، ونضيف الى ذلك أن المسكرات التى استعملها بعض الفاتحين لا تؤثر عند أهالى الجزائر لكونهم يمتقونها مقناً شديداً » اهـ ولقد دهشت عند قراءة هذه الجلة ، وقلت ما قاله نصر بن سيار :

أرى خلل الرماد وميض نار * ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكو * وان الحرب أولها كلام
فان كانت أمية في سبات * فقل قوموا فقد حان القيام

وهنا غاية العجب ! كيف يقرأ قومي وهم غافلون : « اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون » وكيف يقول ذلك الفرنسى العظيم : ان الخمر آخر سلاح يقتل به الأمم المستعمرة ، وبه فناء نسلهم ، وأهل بلادى في غفلة ساهون ، ولطالما عرضت هذه الآراء على أهل العلم والأذكياء وأقول : ألم تقرأ أمتنا هذا الكلام ؟ أوقروا وهم لا ينتهون ، فالمسألة موت أو حياة اهـ

المبحث الثانى

قال العلامة الانجليزى [نبتام] في كتاب [أصول الشرائع] ترجمة المرحوم [أحمد فتحى زغلول باشا] تحت عنوان [الجرائم الشخصية] مانصه : « النبذ في الأقاليم الشمالية يجعل الانسان كالأبله ، وفي الأقاليم الجنوبية يصيره كالمجنون ، ففي الأول يكتفى بمعاقبة الأول على السكر كعمل وحشى ، وفي الثانية يجب منع ذلك بطرق أشد لأنه شبيه [بالتشرر] وقد حرمت ديانة محمد صلى الله عليه وسلم جميع المشروبات ، وهذه من محاسنها » انتهى كلامه .

المبحث الثالث

منذ ثمان سنين جاء إلى مصر رجل من أعضاء دار الندوة [البرلمان] للسويد والنرويج ذكر أنه رئيس جمعيات منع الخمر في العالم ، وأنه زار جميع دول أوروبا والشرق كفرنسا ، وانجلترا ، والروسيا ، والصين واليابان [وكل الحكومات ساعدته] وأن أعضاء الجمعية العاملين يبلغ عددهم ستمائة ألف رجل ، وذكر أنه في أمريكا حرم خسة وأربعون مليوناً من أهلها الخمر على أنفسهم [وكان ذلك قبل الآن ، وقد حرمت في هذه السنة تحريماً عاماً في هذه البلاد] . وقال : ان ولى العهد لبلاد السويد ربي على أن لا يشرب الخمر

ونحن نفتخر بأنه أول ملك لا يشرب الخمر في أوروبا .

المبحث الرابع

كنت منذ بضع سنين عند طبيب نطاسى مصرى ، فأراني كتابا انجليزيا مؤلفه أمريكى ، وقال ان مؤلفه يقول فيه انى لست أبحث فى منع الخمر للسكر ، فهذا فرغ منه العلماء ، وان بحثى اليوم فى مضاره الطبية ، وأن التداوى به يجلب للانسان أمراضا لا قبل له بها ، فاذن التداوى به ممنوع طبييا ، وليس فيه أدنى فائدة ، فقلت له لماذا لا ترفع صوتك بهذا فى البلاد ، فقال انى إخوانى الأطباء يسلقوننى بالسنة حداد ، فقلت أليس فى أمريكا علماء محققون ، فقال بلى ، ولكن لا يطاع لقصير أمر ، فلما دعيت للخطابة فى هذا الموضوع طلبت منه الكتاب ، وهو يسمى كتاب [اليد الطبي] تأليف الأستاذ [كباوج] كتب تحت عنوان [الاستعمال الطبي للخمر] من صفحة ١٧٥ إلى صفحة ٥٠٤ فلا ذكر لكم جلا منه ، وعليكم أيها الأطباء ترجمة الموضوع كله والرد عليه ان رأيتم خطأ علماء أمريكا وأوروبا والافسادوا على منعه كما منعه أعظم الأمم علما ومقاما ، وهى أمريكا .

قال المؤلف : من كان عنده أقل ريب أو ظن للشك أن الخمر سمّ فليعتبر بما يكون عند وصوله للمعدة ، فان الغشاء المخاطى يصير محتقنا ويخرج مقداراً من المخاط ليحمى نفسه ، وترى غدد المعدة وقواها الدافعة تسرع فى اخراج ما وصل اليها بأسرع ما يكون ، أليس ذلك مزيلا لشك الشاكين ، وريب المرتابين ، فى أن الخمر من أنواع السموم . وقال الأستاذ [لبيج] انه إذا اعتدل الانسان فى شربه قوى جسمه وأكسبه نشاطا ، وقد نقض هذه القضية ثلاثة من علماء الكيمياء الفرنسيين ، وهم الأستاذ للمان ، والأستاذ بيرن ، والأستاذ دروى ، ثم الأستاذ أدوارد سميث الانجليزى ، وقد برهن الثلاثة الأقولون على بطلان ما تقدم بقولهم : ان الخمر تخرج من الجسم ولا أثر لها ، وزاد الأخير بقوله انه حلل الدم ، فلم يجد فيه أدنى شئ من العناصر التى يتركب منها الخمر . وقال الدكتور [ملر] الاسكوتلاندى : الخمر لا يشفى شيئا . وقال الدكتور [هيجنبوتوم] أمام الجمعية الطبية البريطانية : أنا لأعلم مرضا قط شفى بالخمر . وقال الدكتور [جونسون] الانجليزى : ان الخمر ليس ضروريا ألبتة ليستعمل دواء . وقال فى ابطال قولهم ان الخمر غذاء ، وأنه يحفظ الجسم ، أو يقوى العضلات : ماهذه القوة ان هى الا اسم آخر من أسماء السموم ؟ فقولنا فلان نشوان طرب ثمل معناه مسموم ، وبرهن على ذلك بقوله : إذا أدخلنا الخمر ، أو أى سم آخر من العقاقير السامة التى تعد بالمئات فى الجسم ، فان جميع الاعضاء تستعد للمقاومة والمدافعة لاجراجه من الجسم ، ومن هنا كان النشاط . وقال فى نقض قولهم ان الخمر تمنع المرض : ان الناس يتعاطون الخمر لأمراض مختلفة ، فاذا كان ما تقولون حقا فاضرار الخمر أشد من تلك الامراض فتكا بالجسم ، فكيف بها إذا كانت لا تشفى منها شيئا ، فان تجارب الأطباء السابقة تثبت أنها لا تترك أثرا فى النسيج والأثر الحقيقى إنما يكون فى النسيج .

وقال الدكتور [سميث الانجليزى] ردّا على الأستاذ [لبيج] ان الخمر يخسر بسببها الجسم جزءا من الحرارة ، بل يزيد ذلك الفقد ، ومن العجيب أن سيدنا محمدا ﷺ أثبت ضرر الخمر فى الحديث الصحيح ، فقد جاء فى صحيح مسلم مع شرح الامام النووى صفحة ٣٦٤ ، أن طارق بن سويد سأل النبى ﷺ عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها ، فقال انى أصنعها للدواء ، فقال الرسول ﷺ [انه ليس بدواء ولكنه داء] أليس هذا الحديث الشريف مقتضى العلم الحديث . يقول الدكتور [سميث] ان الخمر تسبب للجسم خسارة جزء من الحرارة . وقد منعت الدولة الأميركية الخمر بتاتا بناء على أمر الأطباء ، وعلى الاكتشاف الحديث المنافى لآراء الدكتور [لبيج] ، وهذا الكشف الحديث معجزة اسلامية . وقد أثبت الدكتور [باركس]

ثم [السيرجون هيل] مفتش عموم الجيش البريطاني ، والدكتور [هنري مارتس] وآخرون غيرهم أن الخمر لا يشفي المرض ولا ينفع الجسم . وقال في ابطال قولهم ان الحب والفا كهة فيها سم ، ان بعض الناس يقول اذا كان في الخمر ضرر فذلك ليس خاصا به انه من الحب ، والحب فيه قليل من السم ، فلم أكثر الاطباء من ذم الخمر مع أن السم عام فيه ، وفيما أخذ منه ؟ فأجاب عن ذلك بقوله نعم : ان الخمر من الحب ، ومن ذا يقول ان الحب فيه سم ؟ ان الحب لم يكن سما الا بعد اتلافه ، والخشب لا يكون دخانا الا بعد اتلافه ، فليس الخشب دخانا وليس الحب خرا .

ولا جرم أن السم حدث في الفا كهة والحب بعد اتلافهما ، فالحب لاسم فيه ، وكذلك الفا كهة ، ولقد شاعت هذه النظرية بين الجمهور ، وهي كاذبة وهل تدس الطبيعة التي أعدت لنا الحياة السم في الدسم . كلا . وقال في ابطال قولهم ان الشرب المعتدل لا يضر ان كلمته مشتقة من كلمة لاتينية ، معناها السم ، فالشرب المعتدل يصير عادة لا يتخلى الشارب عنها ، فهو يتجرع السم قل أو أكثر فويل للشاربين ، وأبطل قولهم : لا ضرر في الخمر الصافي بقوله : ان الخمر الصافي هو سم صاف ، فاذا احتج الشارب بأمثال هذا « فقد ضلّ ضلالا مبيّنا » لأنه أثبت أن الخمر سم سواء كان نقيًا ، أو مخلوطا فهو ضار للصحة مهلك للأبدان ، ثم ذم الأطباء الذين يتعاطون الخمر والمسكرات ، فقال انه من موجبات الأسف المحزن ذلك المنظر الذي تنقطع له القلوب أسمى أن يخضع الانسان العالم أمام جنود الشهوات والذائل الخزية ، وما هو جدير بالذكر أن أولئك الأطباء الذين ينصحون بعدم شرب الخمر ويحضون عليه يصبحون هم أنفسهم مغرمين به عا كفين عليه فيكونون صرعى نصائحهم ومرامي سهامهم وقتلي عامهم وهم لا يشعرون ، أوليس من النتائج الواضحة بالدلائل الساطعة أن أحكامهم في ذلك أوحث بها شهواتهم وقضت بها أوهامهم ، وهم عن العلم معرضون ألا ساء ما يصنعون ، وأخذ يبطل قول الشاربين ان الخمر يحوّلهم والكسل ويجعل الفقير الذي لا منزل له ولا صاحب يشعر بأنه غني ، أو ملك ، وقد أطل في ذلك . وقال في الرد عليه ان الانسان اذا سكر حتى أصبح لا يشعر بما هو عليه ، وفقد الاحساس ، ونسى ما هو فيه من شقاء الحياة ومتاعها لعاجز عن الاعتبار بتلك التجارب العالية ، الرفيعة القدر الشريفة المنزلة ، والشعور الشريف الذي تكون فيه البهجة العالية بالحياة الحقيقية ، ان الفرار من الحق جبن ، وأبطل ما يدعيه الشاربون من قولهم : ان الخمر لا يضرني ، ودحض حجة أولئك الذين يتعاطون المخدرات ، والمسكرات من الأفيون ، والخمر ونحوها . وقال انهم فريسة له ويأتيهم الموت من حيث لا يعلمون ، وأخذ يدحض حجة أخرى للشاربين الذين يقولون ان الخمر عادة انسانية ، وطبيعة بشرية ، وكيف لا ونحن لانرى أمة الاشر بت الخمر ، ولاجيلا الاعاقرها ، ولا قبيلة الا كرع منها ، وهامهم أولاء الصينيون ، واليابانيون ، والشرقيون ، والغربيون ، والمسلمون ، والنصارى ، واليهود ، والمجوس ، والبوذيين كل منهم يشربها ، ومن ذا يقاوم الطبيعة ، أو من ذا يقف في طريقها ؟ فردّ عليهم قائلا ، أليس في هذه الأمم ضالون ، وفاسقون ، وكذابون ، ومنافقون ، ومخادعون ، ولصوص خائنون فكيف يحتج الشارب بفريق السكارى مدعيا أنه طبع في البشر ، أفلا نأسف لشيوعه ، ونأنف من وقوعه وتكاثره في بني الانسان انه من موجبات الحزن والأسف ، لا بما يحتج به للاعتذار ، ويصار اليه بالتقليد والاتباع ، هذه هي نبذة من آراء المؤلف كيلوج الأمريكي ، ولاريب أن الحكومات لا تقطع أمرا حتى يثبتها العلماء ويطلبه الشعب ، ولولا أمثال مؤلف هذا الكتاب ما منعت أمريكا الخمر ، ومصر أولى بذلك لأنها في أول نهضتها بين الدول الاسلامية ، ولأن الخمر أضرتها كثيرا ، ولما أمل في رجال الطب ، وعلماء الأمة أن ينصحوا الشعب بالاقلاع عن هذه العادة ، والله موفقنا الى الاصلاح ، هذه هي الخطبة ذكرتها هنا تذكرة للمؤمنين .

متناقضات الأمم وعجائب الاسلام

تأمل أيها الذكي وتجب كيف كانت أمريكا النصرانية أول من نادى بمنع الخمر وتحريمه ، ودينها لا يمنعه ولقد بلغنا لهذا العهد أن هذه الأمة كسبت من تحريم الخمر سعة في الرزق وبسطة وأمن في البلاد وزادت مجالس العلم وكثر الداخلون في المعاهد العلمية ، وقلّ القتل والسرقة وازدادت الأموال بنسبة مطردة ، هذا هو سر الاسلام وتحريمه للخمر ، ثم انظر كيف كان المسلمون الذين يحرم دينهم الخمر يعاقرونها صباحا ومساء في مصر بلادى ، وفي الأقطار الإسلامية الأخرى ، ولم يحرم شربها في تركيا الا بعد أن استقلت البلاد في هذا العام فنعوها وحرّموها وهي بلاد اسلامية ، ثم أقول : ان المسلمين تركوا العلوم الكونية ونسوها ولم تكن عنايتهم موجهة الا الى الأمور الفقهية ، ومنها تحريم الخمر ، فاذا كانت عنايتنا موجهة للحلال والحرام ، ونسينا العلوم التي في جلال النجوم وبهجة الزرع والشجر فتأخرنا في كل شيء وسبقنا الفرنجة ، واختصاصنا انما هو بعلم الفقه ثم ننظر فنرى أن الخمر أول من منعها الفرنجة والمسلمون يكثرون منها صباحا ومساء ، فيالله ماذا جنينا وماذا عملنا ، فلا في العلوم الكونية نجحنا ، ولا في الحلال والحرام اتقينا ، والفرنجة سبقونا في الأمرين ، فما فعل المسلمون اذن ، وعسى أن يكون الوقت أزف كما هو أملنا ، وأن يرجع الى هذه الأمة مجدها ، ويبرز قرها ، ويظهر فضلها ، وتأخذ دورها في العالمين .

تحريم بيع الخمر والاتفافع بها وذكّر أنها نجسة

ثم اعلم أن الأمة أجمعت على تحريم بيع الخمر والاتفافع بها وتحريم ثمنها ، وقد كانوا في الجاهلية يصيبون الربح من ثمنها ، وفيها أيضا الفرح والطرب ، وهذه من المنافع المذكورة في الآية فحرمت ، والخمر نجسة العين قد حكم العلماء بنجاستها للزجر عنها .

حكم الميسر

أما الميسر : فهو القمار واشتقاقه من اليسر لأنه أخذ مال بسهولة من غير تعب ، وقد كان في الجاهلية نوعان : أحدهما أن يخاطر الرجل على أهله وماله ، فأيهما قر صاحبه ذهب بأهله وماله ، والثاني أنهم كانوا يذبحون جزورا ، ويجزئونها ثمانية وعشرين جزءا ثم يسهمون عليها بعشرة أقداح يقال لها الأزلام والأقلام سبعة منها ذات أنصباء : أولها القذ بواحد وأعلاها المعلى بسبعة ومجموعها ٣٨ ، وثلاثة لا أنصباء لها وهي الوغد والمنيع والسفيح ، وأما السبعة فهي القذ والتوأم والرقيب والجلس والنافس والمسبل والمعلى ، وكانوا يجمعون القداح في خريطة يسمونها الرابطة ويضعونها على يد رجل عدل عندهم يسمونه المحيل فيحيلها في الخريطة ويخرج منها قدحا باسم رجل منهم ، فأيهم خرج اسمه أخذ نصيبه على قدر ما يخرج من القداح وان خرج له قدح من الثلاثة التي لا أنصباء لها لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزور كله ، وقيل لا يأخذ ولا يغرم ولعلهما كيفيتان وكل مافيه خطر فهو قمار حتى لعب الصبيان بالجزور والقمار وان كان فيه أخذ المال بسهولة في وقت ما فان فيه خطرا وليس مكسبا طبيعيا للنوع البشري ، وانما المكسب الطبيعي ما كان من أعمال جرت العادة بنفعها واستثمارها ، ومن عجب أن هذا النوع من الخطر عاش مع الانسان من مبدأ الخليقة حتى رأوا آثاره في الخرابات القديمة من العصور الناهية كأن هذا الانسان عشق المغالبة والمخاطرة فبرزها في صورة القمار غلطا والافانه خلق ليركب كل صعب وذلول ويرقى الى العلا ، ويغالب الطبيعة ، ويذل المسالك ويقتحم الأخطار ويقامر على روحه وقواه ، ويقول اما هلك واما ملك ، فالقمار رمز فقهه العالمون ، وانغتر

به الجاهلون ، حرم الله القمار وأوجب السعي للعلا ، والقمار على الأرواح والمخاطرة بالاشباح واقتحام الأخطار
هذا هو القمار المرغوب والسبيل المطلوب

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل * عفاف واقدام وحزم ونائل

وقد ابتليت الأمة المصرية اليوم بالخر والقمار جلهمما الأوروبيون واستروا في المحال الممقوتة ، واستهوا العقول ، وضحكوا على الذقون ، واتهبوا الأموال وأخلوا الديار ، وبات المشاربون على شر الأحوال ، وهم غافلون وأولئك ساهرون مستيقظون ، وما يذكره العلماء عادة في هذا المقام النرد والشطرنج ، فأما النرد فيحرم الماعب به ، قال رسول الله ﷺ من لعب بنرد أو زردشير فقد عصى الله ورسوله . أخرجه أبو داود ، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : النرد والشطرنج من الميسر ، ومذهب أبي حنيفة في الشطرنج أنه حرام برهن وبغير رهن ، ومذهب الشافعي أنه مباح إذا خلا الشطرنج عن الرهان واللسان عن الطغيان والهذيان والصلاة عن النسيان اه .

أقول : ولقد أصبح اليوم عمل كثير من الطبقة المتعلمة في بلادنا ، ولو كان العلم محبوبا لهم لكانوا به فرحين وعليه عاكفين ، فليحجب العلماء العلم للشبان باظهار الجلال والمحاسن في هذه المجائب الكونية لتصدّهم عن ضياع أوقاتهم ، وذهاب مجدهم وهم نائمون لاعبون اه .

ولما كان في القمار نوع من اطعام الفقراء لأن تلك الأسهم كانوا يعطونها للفقراء ويفتخرون بها ويعدون من لم يتقدم لذلك برما أى بخيلا شحيحا أعقبها الله بآية (ويسألونك ماذا ينفقون) الخ فأجيب بان الذى ينفق هو العفو ، وهو ما فضل عن قدر الحاجة والتصدق عن ظهر غنى فالعفو نقيض الجهد .

روى أن رجلا أتى النبي ﷺ ببضة من ذهب أصابها في بعض المغنم ، فقال خذها منى صدقة فأعرض عليه الصلاة والسلام عنه حتى كرر عليه مرارا ، فقال هاتها مغضبا فحذفها حذفاً لو أصابه لشجه ثم قال يأتى أحدكم بماله كانه يتصدق به ويجلس يتكفف الناس ، انما الصدقة عن ظهر غنى ، فكأن الله عز وجل لما منع التصدق بطريق مجهول وغير منظم ، وهو القمار الذى فيه منفعة الفقراء ، ونفخ الأغنياء كما يفعل اليوم عند فعل المبرات أمر أن يتصدق الناس بما فضل عن حاجاتهم بطريق منظم واضح معلوم السبيل ولذلك أعقبه بقوله (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ، في الدنيا والآخرة) .

وأما مسألة اليتامى فذلك أنه لما نزل قوله تعالى « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً » الآية اعتزلوا اليتامى ومخالطتهم فأنزل الله هذه الآية (ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم ان الله عزيز حكيم) العنت المشقة ، وحاصل الأمر يرجع الى أن المخالطة مرغوب فيها مطلوبة على شريطة ارادة اصلاحهم ، واجتناب الطمع فيما عندهم ، والله أعلم بما فى القلوب ، ولو شاء الله لكفكم ما يشق عليكم وعليهم ، فلم يحز المخالطة ان الله عزيز غالب يقدر على الاعانت حكيم يحكم بما تقتضيه الحكمة ، ثم أخذ يشرح نكاح المشركين فحرم نكاح كل كافر كتابي وغيره ، وكذلك حرم نكاح كل كتابية وشركة وخصصت الثانية بآية ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، والمراد بالعبد والأمة الرجل والمرأة لأنهما عبدا الله ، فهذا ملخص قوله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن ولأمة مؤمنة) اشتركت معكم فى رأى والدين وتشابه الأخلاق والعادات الدينية (خير من مشركة ولو أعجبتكم) لأن الجلال الظاهرى لا يثبت لمحبه الا اذا قوى بالباطنى ، فالظاهر كالزهرات والباطن كالثمرات والزهرات ذابلات (أولئك يدعون الى النار) وأنتم تدعون الى الجنة ، واختلاف المشارب داع لاختلاف النفوس ، وهو سبب الأذى ونكد العيش (والله يدعوا إلى الجنة ، والمغفرة باذنه) ولما كان

هذا القانون نظاميا خلقيا أفاد شرفه ، فقال (وبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) .
ولما كانت مسألة الحيض مختصة بالنساء أعقب مذكر بها ، فقال جلّ جلاله (ويسألونك عن الحيض
قل هو أذى فاعتزلوا النساء بالحيض ولا تقربوهن حتى يطمهرن فإذا طهرن فأتوهن من حيث أصركم الله
إن الله يحب المتطهرين . نسأؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقد والله أنفسكم واتقوا
الله واعلموا أنكم ملاقوه و بشر المؤمنين) كان الناس في الحيض قسمين ، فاليهود كانوا يعتزلونهن في كل
شئ حتى في الأكل ، وكان النصارى يجامعونهن ولا يبالون بالحيض ، وكانت العرب كاليهود ، فسأل
أبو الدرداء وجع من الصحابة النبي ﷺ فنزلت ، والحيض الحيض ، يقول عز وجل : ان الحيض أذى
تنفر منه النفس ويستقذره الطبع ويؤذى من يقربه فلا تجامعوا النساء في الحيض حتى يطمهرن : إما بالاغتسال
بمذهب الشافعية ، وإما باقتطاع الدم فمذهب الحنفية ، وعند ذلك يحل الجماع في مكان الحرث لا غيره ، وأجمع
العلماء على جواز الاستمتاع بالحائض بما فوق السرة ودون الركبة ، ويحرم على الحائض الصلاة ، والصوم ،
ودخول المسجد ، ومس المصحف وحمله ، وعابها قضاء الصوم دون الصلاة .

ولما كان الشرع موقفاً للنفوس منها للعقول لم يدع فرصة تمرّ الا ذكر ، ولا اجابة عن سؤال تقال الا وعظ
وحذر ، فانظر كيف تسامى عن المسائل الفقهية الى المعاني الحكمية وتعالى عن الأذى والحيض بعد الاجابة
إلى الحكمة التي أودعها ، والخلة التي أبدعها ، فقال أيها الناس ما الشهوات الا آلات للتناسل وما نسأؤكم
الامزاع وما أتم الاراعون فإياكم أن تكون مقاصدكم الشهوة فحسب ، وإنما يراد تناسلكم ، فالشهوة
مقصودة لغيرها ، وما أريد لسواه لا يليق أن يزداد فيه عن الحاجة ، وليكن أشرف مقاصدكم وأهم أغراضكم
الولد ، فما الشهوات الامتدات ، والمنافع نتائج ، وكما أن ثمرة الغذاء البقاء ، هكذا ثمرة الجماع بقاء النسل ، وكأنه
نبه أن القصد من الطهارة والنجاسة ، وأحكام الشرع ما هو شريف من بقاء الأجسام وطهارة الأرواح .
ولما فرغ من أحوال الزواج ، وأحكام الحيض أخذ يبين أحوال الطلاق على الترتيب الطبيعي العجيب
وابتداً بذكر الحلف بالله وأنه لا ينبغي أن يجعل عرضة وهو :

(المقصد العاشر)

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَاحِبُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ * لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

ايضاح

(العرضة) من قول الرجل قد جعلتني عرضة للومك ، وقال الشاعر * ولا تجعلني عرضة للوائم *
وقوله (أن تبرّوا) تفعلوا البر فتكونوا بررة ، اعلم أن المؤمن الذي يعرف الله جلّ جلاله يعظم جلاله في قلبه
ويعتلى هيبته لعظمته وتعظيما لقدرته فينزهه عن أن يرأسه بلسانه في محقرات الأمور وصغائر الأشياء ، بل
يتعوّد الصدق في القول حتى يثق به الناس ويعتقدوا أنه من الصادقين ، وإذا كان من يحبّ أحدا من
المخلوقين يغار عليه من أن يكون اسمه عرضة للقائلين ، فما بالك بالاله خالق السموات والأرض كيف يقرن
اسمه بالأمور المحقرات فيحلف باسمه على متاع أو فعل أو ترك ، واعلم أن من اعتاد الحلف في صغائر الأمور

وكبائرهما لا يلبث أن تصير له عادة محكمة وجبلة راسخة ، فيسبق لسانه للحلف صدقا وكذبا حقا وباطلا ، فيستحق مقت الله وغضبه ويحتقره الناس فلا يثقون بقوله ولا أيمانه إذا حلف فيخسر رضاه وثقة الناس به ، وإذا كان أولئك الذين يكثرون القول يزدريهم الناس ، فما بالك بمن يتجشم أو عر مسالكه ويقتحم هضابه من الحلف والأيمان الصادقة والكاذبة فأولئك شر مكانا ، وأوهى مكانة ، وأنزل مرتبة ، يقول الله « ولا تطع كل حلاف مهين » ويقول عليه الصلاة والسلام [اليمين الغموس] التي تغمس صاحبها في نار جهنم لكونها فاجرة [تترك البيوت بلا قمع] أما أولئك الصادقون في أقوالهم الذين لا يحلفون فهم بررة بتعظيم مقام الله عز وجل متقون ما يحل بتعظيم مقامه وجلاله مصلحون بين الناس لثقة الناس بهم فتقبل حججهم لصدق أقوالهم ، وقال تعالى « واحفظوا أيمانكم » وكان العرب يمدحون الانسان على الاقلال من الحلف ، قال الشاعر :

قليل الألفا يحافظ ليمينه * وان سبقت منه الآية برت

أى لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم لأجل أن تكونوا بررة مصلحين بين الناس لو ثوقهم بكم ، وللاية معنى آخر ، وهو أن العرضة الشيء المانع للناس من السلوك والمروءة ، واعترض فلان كلام فلان جعل كلامه معارضا لكلامه : أى مانعا من تثبته وعليه ، فالمعنى ولا تجعلوا الله عرضة ومانعا بسبب أيمانكم من (أن تبرؤوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) وذلك أن الرجل كان يحلف على ترك الخيرات من صلة الرحم ، واصلاح ذات البين ، فاذا طلب منه ذلك يقول أخاف الله ان حنثت يميني فيترك البر ليكون باراً يمينه ، فنزلت هذه الآية وأمر الانسان أن لا يجعل الله بسبب الحلف مانعا من تلك الخيرات والصلح بين الناس وحينئذ يحنث ويكفر عن يمينه ، وقوله (والله سميع عليم) أى يسمع أيمانكم ويعلم نياتكم من تعظيم الله والاعراض عنه ، وقوله (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) قال أبو حنيفة : اللغو أن يحلف الرجل بناء على ظنه الكاذب ، والمعنى لا يعاقبكم بما أخطأتم فيه من الأيمان ، ولكن يعاقبكم بما تعمدتم الكذب فيه (والله غفور) حيث لم يؤاخذكم باللغو (حلیم) حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجد تر بصا للتوبة .

تفصيل الكلام على ثلاثة مواضع من الآيات السابقة

الميسر ، والطهارة ، وصون اللسان عن الحلف

الأول الميسر قد عرفت طريقة الميسر عند أسلافنا العرب ، وكيف كانوا يذبحون جزورا ويقسمونه ٢٨ جزءا ، ويجعلون لكل قدح منها جزءا أو أجزاء ، والقдах عشرة سبعة منها لها أنصاء ، فالأول ١ والثاني ٢ وهكذا إلى السابع ، وهو القдах المعلى فله ٧ ومجموعها ٢٨ وهذه القдах والسهام متى أخذت أنصباؤها من الجزور تصدقوا به على الفقراء ، ولم يكن ذلك باب ربح بل كان من باب المفاخر ومع مافى هذا النوع من العطف على الفقراء حرمه الله تعالى ، فان المدار في تربية الأمم على تقوية الارادة والعزيمة ، فانظر إلى ما طرأ على الأمة الاسلامية بعد ألف وثلثمائة وأربعين سنة ، انظر كيف تنزلت أخلاق بعض الأمم الاسلامية التي نزل القرآن بساحتها ، لقد ابتدعوا من الفنون للربح ما يذيب المهج ، ويغضب الرب ، ويزرى بالشرف الرفيع والمجد المنيع ، والهمة القعساء ، وأهل الشريعة السمحاء .

ذكر بعض الميسر في بلادنا المصرية اليوم

سباق الخيل ، رمى الحمام ، التيرو ، يانصيب [اللوتريه]

اعلم أنى لما وصلت الى هذا المقام عند طبع التفسير أحببت أن أشاهد بنفسى بعض تلك الأماكن التي

ابتدعها الفرنجة في مصر ليكون قولى عن مشاهدة فصاحبى اليها فاضلان مفتشان يرقبان اللعب من وزارة الداخلية ، وهما من المغرمين بالعلم الباحثين عن الحقائق فتوجهنا الى محل صيد الحمام بشبرا ويسمونه [التبرو] كلمة تليانية يوم ١٨ مارس سنة ١٩٣٣ م فوجدنا مكانا متسعا في النضاء عليه سور في صدره كراسى للجلوس وهناك أدوات الرمي ، وترى الرماة هناك مصطفىين في مدخل المسكان ، وقد كانوا في ذلك اليوم ١٥ راميا كل منهم يحمل بندقيته يرمى بها ، وهناك أوراق معلقة بالحائط ، وباسم كل واحد من هؤلاء الرماة جملة فيأتى المقامر ويختار ورقة يدفع ثمنها وتكون من الورق الخاص بمن يراه غالبا من الرماة ، ومتى أخذت الأوراق يبتدىء الرمي .

صفة الرمي : قد كانوا من قبل يرمون الحمام المحبوس في أقفاصه فيطيره صاحب المحل ، وهو الافرنجى ويرمى الرماة واحد بعد واحد ، فانه يطير حمامة ، فيضرب زيد ويطير أخرى ، فيضرب جرجس ، فمن كان أكثر إصابة من هؤلاء الرماة كان هو الفائز وحينئذ يكون ما اجتمع من النقود كلها مصروفا لمن أخذوا باسم هذا الفائز يقسمونه بينهم ويحرم الباقيون ، ثم يعاد اللعب ويعاد سحب الورق ، وهكذا .

ولما رأى رجال الحكومة أن ضرب الحمام فيه اباداة للنوع استبدلوا به أطباقا مصنوعة من الزيت والجير والأسمت وهناك آلة شاهدهتها ترفع تلك الأطباق للجو فتطير كما يطير الحمام ويضربها أولئك الرماة كما يضربون الحمام ، وهناك محل آخر للصيد ، وهذان المكانان يكسبان في السنة ما بين ٢٠ و ٣٤ ألف جنيه ، وبيان ذلك أن المقامرين كلما وضعوا نقودا كان لصاحب المكان منها اثنا عشر ونصف في المائة من هذا المبلغ والحكومة تأخذ من هذا ثلاثة ونصف في المائة توزعها على الجمعيات الخيرية منها للمصرية نحو الثلاثين وللفرنجية نحو الثلاث ، ثم ان اللاعبين كلما لعب دورا فقد بعض مامعه حتى يرجع خاوى الوفاض صفر اليدين لا يملك شروى نقيير ، وهؤلاء الرماة كل من فاز منهم يعطى جنيها واحدا من يد صاحب المحل وبعضهم شريون وبعض منهم غريون .

(١) سباق الخيل عندنا بالبلاد المصرية

ويقرب من هذا سباق الخيل ببلادنا ذلك أن المقامرين يأخذون الورق كما تقدم في الرمي ، والمال المجموع يأخذ منه صاحب المحل نحو العشر ، وليس للحكومة الا مائة جنيه في كل سباق ، وصاحب المحل الافرنجى هو الذى يعطى للفرس السابق جائزة ، فأما النقود فانها تفنى بتتابع الرهن كما مرّ في السابق ، والذى يركب هذه الخيل في السباق سائسوها أوغيرهم ، وليس لأصحاب الخيل من نصيب في فضيلة الركوب بل ذلك للرجح .

(٢) السبق والرمي في الاسلام ومقارنته بما عندنا اليوم

ان في الكتب الفقهية بابا واسعا يسمى [كتاب السبق والرمي] كما يقولون كتاب الصلاة . وقد جاء فيه ان المسابقة سنة نبوية باجماع المسلمين لقوله تعالى « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة » والقوّة هى الرمي ، ولقوله ﷺ [لاسبق الا في خوف ، أو حافر ، أو نصل] فيسابق الناس على الخيل والابل والفيلة وبالرمي بالسهم والرماح والأحجار والمنجنيق ، وذلك هو الذى كان معروفا عند أسلافنا المسلمين . وقال ﷺ [ارموا بنى إسماعيل فان أباكم كان راميا] وقد كانوا يتعاقدون فيما بينهم على المسابقة برهان على شرط أن يكون ذلك مما يعين على الجهاد ، ومن فاز أخذ رهن صاحبه ، وقد كان ذلك للتشويق للعالمى والتعويد على اقتحام الأخطار ونيل المجد وحفظ البلاد ، فانظر كيف غفل المصري عن ماضيه وحاضره ، وهو جاهل بما كان في تاريخ أجداده من العزّ والأنفة والشمم . فأصبح الرامى الآن أجيرا عند صاحب المكان المعد للصيد ، وهو الذى يأخذ مال

الحاضرين . ثم ان المقامرين يكسب بعضهم من بعض . وايس لهم في الرمي أدنى نصيب .
فانظر كيف جهل الرامي فصار أجيرا . وجهل المقامر الأميرين (١) ليس له حظ في الرمي ولا في
السبق (٢) وان صاحب المحل هو الذي يستنزف ثروتهم جميعا وهم غافلون . والذي أراه أن يجعل السباق
والرمي في كل قرية و بلدة بنظام تام برهن و بغير رهن على الطريقة الاسلامية الشريفة ويمرّن كل شاب مسلم
على ذلك تقوية لجسمه وتشجيعا لحماية البلاد وحفظا للديار من اغارة الأعداء . أما هذا الذي رأيته فانه يورث
البطالة والكسل مخرب للبلاد ، مغن للفرنجية الذين هم بذلك فائزون .

(٣) النوع الثالث يا نصيب اوللوترية

وكيفيته أن يبيعوا أوراقا كل ورقة بقرش مثلا ، وهذه الأوراق ربما بلغت مئات الآلاف ، ويسمونها
[نمرا] وبعد جمعها يسحبونها كما كانت تفعل العرب قبل الاسلام ، ويجعلونها في صندوق فتخرج منها مئات
تكسب كل واحدة منها جنيتها واحدا مثلا ، وعشرات تكسب الواحدة منها من (١) إلى عشرة ، وآحاد
تكسب كل واحدة منها عشرات الجنيهات ، وواحدة فقط تكسب مئات الجنيهات ، وأما بقية النقود ففي جيوب
الفرنجية ، وقد نشروها في بلادنا ، وأعدّها بعضهم للإحسان على فقرائهم كما عند أسلافنا حذو النعل بالنعل :
إن سباق الخيل والرمي قد مسخا مسخا فأصبحا عارا على الأمة الاسلامية ، أصبح الرمي وسباق الخيل
مرتزقا للفرنجية ، فيأخذون عشرات الألوف من جيوب المصريين ، ويألت الأمر وقف عند ما ذكرته بل
هناك محال فيها أنواع من القمار سرية يلعب فيها الأغنياء وأهل الوجاهة والعظماء ، وهم كالسابقين يضع
ما لهم بمئات الألوف في يد الاوروبيين ، وهم جميعا غافلون ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، ولعمرك ما شبهتهم
حين رأيتهم إلا بنعاج يحزّ صوفها ، ويؤكل لبنها وسمنها ، ويشترى البرسيم من ذلك الثمن ، يكسب زيد من
المقامرين جنيتها وهولم يأخذه إلا من جيوب أصحابه المصريين وصاحب المحل الافرنجي هو الفائز بثمن ما يدفعون
في كل مرة من مرات اللعب ، فيبنى القصور والدور في البلاد ، ويخرب المصري ، ويبيع ماورث من آباءه
المثرين ، واذا كان أجدادنا العرب قد كانوا يقامرون للفضل على الفقير كما في [يانصيب] وقد حرم عليهم بل
أمروا بالانفاق اختيارا ، فكيف تقامر قارا لاحظ للفقير فيه من مالنا ؟ وإنما الحظ لأجنبي يأخذ المال ونحن
غافلون ، ولم يجوز في الاسلام الرهان إلا في السباق ، وفي الرمي على الطريقة الشريفة ، أما هذه فهي مضیعة
للمال ، منحلة للأمة ، والمال في يد الأجانب ، والأجانب هم الفائزون ، ليسكن السبق والرمي في سائر البلاد ،
في القرى ، وفي المدارس ، وفي الجامعات الدينية ، انها من الدين ، إن لها في الفقه كتابا ككتاب الصلاة ،
وليست لجماعة من الفرنجية يضحكون على أدقان المسلمين ، المسامون فيها مقصرون ، ولقد أدت ماعلى ، والله
هو الولي الحميد « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »

المسئلة الثانية : الطهارة

يقول الله عز وجل « ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب
التوابين ويحب المتطهرين » أي يحب التوابين من الذنوب ويحب المتزهين عن الفواحش والأقذار كمخالطة
الحائض مخالطة خاصة .

فانظر كيف قرن التوابين بالمتطهرين ، وجعل حب الله لهما معا ، ولم جعل التباعد عن قدر الحيض وملازمة
الخوائض من موجبات حب الله تعالى ، وكيف كان للتوبة ذكر معها ؟ فاعلم أن هذا هو السر الذي عرفه علماء

الشرق قديما والغرب حديثا ، أما أهل الشرق فقد شرحه الامام الغزالي منهم أوفى شرح ، وجعل العلاقة تامة ما بين الطهارة الظاهرية والطهارة الباطنية ، وأن الظواهر تدعو حثيثا لبواطن ، وكلما كان الانسان شديد العناية بطهارة جسمه ونظافة ظاهره جرت ذلك الى العناية بالباطن ، وليس المقصود من هذا أن كل من كان أنظف جسما كان أنور عقلا . كلا . والا فالعروس إذن تكون أطهر العالمين قلبا ، وانما جرت العادة أن من عجز عن الصغائر فهو عن الكبائر أعجز ، فمن أعجزه ظاهر جسمه عن النظافة والعناية فانه عن العناية بقلبه وعمارة نفسه أعجز ، ولذلك ورد « أصلحوا ظواهركم فحسب أن تصلح بواطنكم » فظواهر الجسم أقرب لنا من بواطن النفس ، وإذا كان الانسان يجهل ظواهر القرآن فهو عن بواطنه أعجز ، فهكذا من لم ينظف ظاهره عجز عن نظافة باطنه ، ونظافة الباطن ونزاهته شاقة صعبة المسالك ، وعرة الطرق ، وهي المقصودة بالذات من كل عبادة وطهارة وزكاة وصلاة وحج وصيام ، كل تلك الظواهر ليس لها نهاية ولا غاية إلا جبال البواطن . وكيف تطير النفس الى العلا ، أو تظهر لها محاسن هذا العالم الجليل والقلب مشحون بالكبر والعجاب بالنفس وبالقدر ، والحرص ، والطمع ، والتملق ، والرياء والغيظ ، والكد ، وضياع الوقت ، والكسل ، والاسراف في الكلام ، وفي الخصام والجدال ، كل ذلك اسوار مانعة ، وحصون لا يقدر العلم أن يهدمها فيوصل للنفس ، وجسور ليس فيها منافذ لسقي أرواحنا ، وأمراض مانعات من الشهوة لتعاطي الغذاء الروحي اللذيذ ، والفاكهة التي ليست مقطوعة ولا ممنوعة .

تلك الأمراض النفسية التي تغشى على القلوب منعت كثيرا من النفوس الانسانية أن تتمتع بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للتقين ، جنة العارفين هي جنة العلم ، جنة الحكماء ، ومن لم يدرك تلك البهجة في الدنيا مات وليس له حظ ان كان صالحا إلا في الجنة المحسوسة وهو غافل ساه على قدر مانال في الحياة . هذا هو الذي يدور عليه كلام حكماء الاسلام وكبرائهم ، وكبار الصوفية فيهم ، وهم أهل الشرف ، وذلك أنسب بقوله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

وأما ما قاله علماء الغرب فإليك منها ماقاله العلامة [بنام] الانجليزى في أصول الشرائع ، وقد ترجم هذا الكتاب الى كثير من اللغات الاوروبية وهو مترجم الى اللغة العربية عن الفرنسية ، ترجمه المرحوم [أحمد فتحي باشا زغلول] . قال في صفحة ١١ من الجزء الثاني عند الكلام على المسجونين :

النظافة والصحة

ذهبوا الى أنه يجب تطهير المسجون قبل ادخاله السجن ، وأن يحاط ذلك بصلاة أو موسيقى خشنية ليكون مؤثرا على فكره ، ثم يلبس لباسا خشنا أبيض ليضطر الى حفظه نظيفا ، ويحلق رأسه ، أو يقص قصا جيدا ، ثم ينبغي استحمامه في أوقات معينة ، ويلزم منع التدخين وكل عادة لاتليق بمنزل نظيف ، ثم تغير الملابس في أوقات مخصوصة . الى أن قال : على أنه يوجد بين التنعم الجسمي واعتدال الملكات النفسية ارتباط كثير لاحظته كثير من المؤلفين ، فان النظافة تبعد الكسل ، وتحمل المرء على التحرز في أفعاله ، والتمسك بالوقار في أطواره . والرابطة بين نظافة الجسم وطهارة النفس شديدة جدا ، حتى ان شرائع المسلمين حثت عليها كثيرا وجعلتها من الواجبات الأولية ، فمن لم يصدق بتلك الأديان لا ينكر تأثيرها الجسماني .

هذا ما كتبه العلامة [بنام] المشرع الانجليزى في كتابه [أصول القوانين] أى تلك القواعد الكلية التي من ضوئها تقبى القوانين ، ثم يحفظها تلاميذ مدارس الحقوق ، ثم يطبقونها على الحوادث في سائر الأمصار فهو إذن فوق واضع القانون وواضع القانون فوق القاضي . انظر أليس قوله : « ان بين نظافة الجسم واعتدال الملكات

النفسية ارتباطا ، وأن هذا لاحظته كثير من المؤلفين » هو بعينه ما ذكره علماءنا من أن نظافة الظواهر تدعو حثيثا إلى نظافة البواطن التي هي المقصود الأعظم . أوليس ذلك بعينه هو قوله تعالى هنا : « إِنْ اللَّهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » فذكر لفظ يحب مع التوبة وهي راجعة إلى طهارة الباطن وسلامة النفس وأعاد ذكر الحب ثانيا مع الطهارة وهي تشمل الحسية والمعنوية . وقدم الطهارة الباطنة لأنها هي المقصودة . ثم أتبعها بطهارة الجسم بحسب اللفظ لأنها وسيلة . أليس اقتران الظاهر بالباطن في الآية هو بعينه ما قاله حكماء الإسلام في الشرق وحكماء الشرائع والقوانين في الغرب . هذا هو سرّ قوله تعالى : « إِنْ اللَّهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » .

المسألة الثالثة : تنزيه الله عن الحلف باللسان

لقد ذكرنا للآية وجهين : أحدهما وهو المقصود هنا أن العرضة من قول الرجل للرجل : جعلتني عرضة للومك . فإذا نطق لسانه بالكلام وأكثر من الحلف وجعل الله عرضة لأيمانه كذبه الناس وضاعت تقديراتهم به ولم يصلح لأن يصلح بينهم ، فأما إذا ما احتس من الكلام ، وحفظ لسانه ، وصان مقامه ، وكان موقرا في نفسه ، صار قوله حجة . وصارت قيا ، لأنه اتقى شرّ لسانه ، والغوائل التي تنشأ منه ، وأصبح وقورا يمكنه الإصلاح بين الناس . هذا هو المعنى الذي ذكرته فيما تقدم .

أقوال علماء الشرق والغرب فيما يناسب هذه الآية

قد شرح علماء الإسلام قديما آداب النفس ، ومن أهمها آداب اللسان ، وليس كلامي الآن في الحلّ والحرمة ، ولكن كلامي في النتائج والفوائد الدنيوية المشاهدة على الوجوه ، وفي الأخلاق والعوائد . يقول علماءنا كالامام الغزالي : « إِنْ الصَّمْتُ وَالْوَقَارُ ، وَغُضُّ الْبَصَرِ عَنِ الْحَرَمَاتِ ، يُعْطَى الْوَجْهَ سِمَةَ الْكَمَالِ ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ وَبِهَاءٌ » فإن هذه الظواهر الجيلة من حسن السمات والوقار وصون اللسان تؤثر في القلب سكوتا عن كل مالا فائدة منه ، فللكلام أثر في القلب ووقع كوقع السهام خيرا أو شرا ، ومعلوم أن جميع الأمم تربي الجند بالحركات الدالة على اطاعة الرؤساء ، وهذا مؤثر في العقول ، موجب للطاعة ، فإن الباطن لوح الظاهر ، يكتب فيه ما على عليه ، ألا ترى أن تعود الإنسان على تحسين خطه زمن التعلم يولد في النفس ملكة تدعوه إلى كتابة ما خزنته النفس من تلك الرقوم على حسب ما قبلته من الجوارح ، وهكذا الآلة الحاكية [الفونوغراف] تقبل الصوت أولا فيرسم على لوحها رسما خفيا بحفر الابرة ، ثم تعيد الصوت حاكية كما يحكي الجبل صوت من رفع صوته في جواره . هذا بعض ما قصده علماء الإسلام أوضحته مختصرا مع التصرف في بعض الأمثلة . وبعد أن شرح الآداب الواجب ساوكتها مع الله في الحلف شرع عز وجل يبين حكم الإيلاء وهو نوع من الحلف :

(المقصد الحادي عشر)

أحكام الإيلاء والطلاق ، فلا إيلاء قوله تعالى :

لِّلَّذِينَ يُؤْثِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصًا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *
وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *

يقال آلى عليه إذا حلف ، وعدى هنا بمن تضمنه معنى البعد ، والإيلاء أن يحلف الرجل أن لا يظأ زوجته

مدة تزيد على أربعة أشهر فهو مولى فيتر بص به أربعة أشهر فان فاء : أى رجع ووطى فان الله غفوره ثم حشه ان كفر عن يمينه ، واثم ما حصل بايلائه من ضرار ، فان لم ينفى الى الوطاء وذلك بعد مطالبة الزوجة وعزم الطلاق أى قصده أو تحققه بالايقاع (فان الله سميع) للطلاق (عليم) بالنيات والأغراض .

فان لم ينفى ولم يطلق طلق عليه الحاكم واحدة عند الشافعى وعمر وعثمان ومالك وأحمد ، وعند ابن عباس وابن مسعود وأبى حنيفة تقع طلقة بائنة متى مضت المدة ، وقال سعيد بن المسيب والزهرى تقع طلقة رجعية ، قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية اذا طلب الرجل من امرأته شيئاً فأبت أن تعطيه حلف لا يقربها السنة والسنتين والثلاث فيدعها وشأنها لا أيمان ولا ذات بعسل ضرارا وتنسكيلا ، وجرى عليه المسلمون فى ابتداء الاسلام فنزلت هذه الآية لترفع الظلم وليكون عدلا . ولما كان الايلاء جامعاً لليمين وللطلاق جاء بينهما فكان اليمين ، ثم الايلاء ، ثم الطلاق ، فقال :

(المقصد الثانى عشر)

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَاءٍ أَوْ يَتَمَوَّهِنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُفِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُفِيَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِيَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ *

التفسير اللفظي

قال الله تعالى (والمطلقات) واحدة أو اثنتين (يتر بصن بأنفسهن) ينتظرن بأنفسهن في العدة فلا يتزوجن (ثلاثة قروء) جمع قروء ، وسيأتي تفصيله في الايضاح (ولا يحلّ لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهنّ) من الولد والحيض استجبالا في العدة وإبطالا لحق الرجعة (ان كنّ يؤمن بالله واليوم الآخر) هذا وعيد شديد لتأكيد تحريم الكتمان وإيجاب أداء الأمانة في الاخبار عما في الرحم من الحيض أو الولد (وبعولتهنّ) أي أزواج المطلقات (أحقّ بردهنّ) الى النكاح والرجعة إليهنّ ، ولكن اذا كان الطلاق رجعيا ، وقوله (في ذلك) أي في زمان التربص (ان أرادوا) بالرجعة (اصلاحا) لما بينهم وبينهنّ واحسانا اليهنّ فلم يريدوا مضارتهنّ (ولهنّ مثل الذي عليهنّ) ويجب لهنّ من الحق على الرجال من النفقة ، وحسن العشرة ، وترك المضارّة مثل الذي يجب لهم عليهنّ من الأمر والنهي (بالمعروف) في احسان الصحبة والمعاشرة (والرجال عليهنّ درجة) فضيلة في العقل والميراث والدية والشهادة بما عليهنّ من النفقة والخدمة (والله عزيز) بالنقمة لمن ترك ما بين المرأة والزوج من الحق والحرمة (حكيم) فيما حكم بينهما (الطلاق مرتنان) أي طلاق الرجعة مرتان (فامسك) قبل التولية الثالثة (بمعروف) بحسن الصحبة والمعاشرة (أو تسريح باحسان) أو يطلقها الثالثة باحسان يؤدي حقها (ولا يحلّ لكم) أيها الأزواج أو الحكماء ، لأنكم الآمرون بالأخذ والايثاء عند الترافع إليكم (أن تأخذوا مما آتيتموهنّ) أعطيتموهنّ من المهر (شيئا إلا أن يخافا) يعلم الزوج والمرأة عند الخلع (ألا يقيما حدود الله) أحكام الله فيما بين المرأة والزوج (فان خفتم) علمتم (ألا يقيما حدود الله) فيما بين المرأة والزوج (فلا جناح عليهما) أي فلا جناح على الرجل فيما أخذ ولا عليها فيما أعطت (فيما افتدت به) أن يأخذ ما اشترت المرأة نفسها به من الزوج بطيبة نفسها (تلك حدود الله) أي ما حدّ من النكاح واليمين والايلاء والطلاق والخلع وغير ذلك (فلا تعتدوها) فلا تتجاوزوها بالمخالفة (ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون) الضارّون أنفسهم (فان طلقها فلا تحلّ له من بعد) من بعد التولية الثالثة (حتى تنكح) تنكح (زوجا غيره) ويدخل بها الزوج الثاني (فان طلقها) الزوج الثاني (فلا جناح عليهما) على الزوج الأوّل والمرأة (أن يتراجعا) بمهر ونكاح جديد (إن ظنا) علما (أن يقيما حدود الله) أحكام الله فيما بين المرأة والزوج (وتلك حدود الله) هذه أحكام الله وفرائضه (يبينها لقوم يعاهدون) يفهمون ما بين لهم وقوله (واذا طلقتم النساء) الى آخر الآيات تفسيرها ظاهر في الايضاح الآتي :

ايضاح

إن في هذه الآيات لعظات جمة ، وفوائد عجيبة ، منج فيها الوعظ بالأحكام ، والأخلاق بالفقه ، وههنا من الابداع في القول ، والترغيب في المودة ، والترهيب من الاضرار ما لا نظير له ، اثنى النساء على أرحامهنّ فأتى بالأمر بصورة الخبر كأنهنّ يتر بصن ، أي ينتظرن ويرتقبن بلا وازع من خارج ، ولا أمر ، وذلك هو التربية العالية ، بحيث يكون المرء على نفسه رقبيا تسمو فيه ملكة قوّة الارادة وثبات العزيمة حتى ان المرأة لا يعوزها مرشد للتربص في الاقراء ، والقروء جمع قروء ، وهو الحيض أو الطهر ، والبعولة مصدر كالعمومة والخوولة أي أهل بعولتهنّ ، والعضل المنع والتضييق . قال أوس بن حجر :

وليس أخوك الدائم العهد بالذي * يذمك ان ولي ويرضيك مقبلا

ولكنه النائي اذا كنت آمنا * وصاحبك الأدنى اذا الأمر أعضلا

أي ضاق ، يقول الله : على المطلقات أن ينتظرن ثلاثة قروء ، أي أطهار أو حيضات ، وعلى الأوّل جمع من

الصحابه كزيد بن ثابت وابن عمر وعائشة والزهرى ومالك والشافعى ، وعلى الثانى عمر وعلى وابن مسعود وابن عباس وأبو موسى وأبو الدرداء والضحاك والسدى وأبو حنيفة رضى الله عنهم أجمعين ، وأصل القرء الوقت يقال : جاء فلان لقرئته : أى وقته ، ولا جرم أن أيام الحيض وقت وأيام الطهر وقت ، وليس الخلاف عظيم بين الأئمة رضى الله عنهم فكيف والأطهار تتبعها الحيضات ، ولكن ظهور الثمرة فى أحوال قليلة ، والمذهبان السكيان متشابهان فى حفظ الأنساب ، ألا ترى أن الاطهار والحيضات دالات على براءة الرحم من الولد ، وهذا فى المدخول بها من ذوات الأقراء ، فأما الكبيرة التى أيسر والصغيرة ، واللائى لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر والمتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر ، وعدة الحامل أن تضع ، فهذه الآية فى حال خاصة .

ثم أبان أن الطلاق الذى تصح الرجعة بعده مرتان ، فأما امساك بمعروف وحسن معاشرة ، أو تسريح باحسان ، وذلك بأحد أمرين : إما أن يترك رجعتها الى تمام عدتها ، وإما أن يطلقها الثالثة ، وهنا أتى بحكم الخلع ، فقال « ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله » الآية ، ذلك أن جميلة بنت عبد الله بن أبى ابن ساول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس ، فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : لا أنا ولا ثابت ، لا يجمع رأسى ورأسه شيء ، والله ما أعتبه فى دين ولا خلق ، واسكنى أكره الكفر فى الاسلام وما أطيقه بغضا ، انى رفعت جانب الخباء ، فرأيتته أقبل فى عدة من الرجال ، فاذا هو أشدّهم سوادا ، وأقصرهم قامة ، وأقبحهم وجها . فنزلت آية الخلع : فقال ﷺ : لجميلة أتردين عليه حديقته ؟ قالت أردّها وأزيد عليها . فقال صلى الله عليه وسلم : أما الزائد فلا ، أقبل الحديقة وطلقها تطليقة . وهذه الآية خطاب للحكام وللأزواج .

يقول الله : ولا يحلّ لكم أيها الحكم والأزواج أن تأخذوا مما آتيتموهن من المهر شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله . إن هذه الآية جاءت تالية الطلقتين إذ جاءت بعد المرتين ويليهما طليقة ثالثة وهى قوله : « فان طلقها فلا تحلّ له من بعد » فهى فسخ عند ابن عباس وطاوس وعكرمة وأحمد واسحق وأبى ثور . وعند الشافعى فى القديم ، وطلاق عند عثمان وعلى وابن مسعود والحسن والشعبى والنخعى وعطاء وابن المسيب ومجاهد ومكحول والزهرى ، والشافعى فى الجديد ، وأبى حنيفة ومالك وسفيان الثورى .

اعلم أن للزوج مع المرأة بعد الطليقة الثانية أحوالا ثلاثة : (١) إما أن يراجعها (٢) وإما أن لا يراجعها بل يتركها حتى تنقضى عدتها فتصير بائنا (٣) وإما أن يطلقها طليقة ثالثة .

وللأولى « فامساك بمعروف » وللثانية « أو تسريح باحسان » وللثالثة « فان طلقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » فيكون نظام الآية هكذا « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان فان طلقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » وعلى هذا يكون الخلع الذى فصل الثالثة عن الثانية أجنبيا عنهما . وانما دعا الى ذلك أن الرجعة والخلع يستويان فى أنهما لا يصحان إلا قبل الطليقة الثالثة ، أما بعدها فلا يبقى شيء من ذلك ، فلهذا جاء حكم الرجعة ، وتبعه حكم الخلع ، وبعد الجميع حكم الطليقة الثالثة لأنها كالخاتمة للجميع ، ثم ان المطلقة بالثالثة لا تحلّ لذلك الزوج إلا بخمس شرائط : أن تعتد منه وتعتد للثانى ويطأها ثم يطلقها ثم تعتد منه ، وتعلق بظاهر الآية فاقصر على العقد ابن جبر كإبن المسيب ، واتفق الجمهور على أنه لا بدّ من الوطء ، فمنهم من جعل هذا من نفس الآية ، فان العرب تقول : نكح فلان فلانة عقد عليها ونكح زوجته أو امرأته جامعها ، والآية هنا من الثانى ، ومنهم من قال : الآية دلت على العقد وثبت الوطء بالسنة ، لما روى أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله ﷺ : ان رفاعة طلقنى فبت طلاقى ، وان عبد الرحمن بن الزبير تزوجنى . وان ما معه مثل هدية الثوب ، فقال رسول الله ﷺ أتريدى أن ترجعى

الى رفاعه ؟ قالت نعم ، قال لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك ، فالآية مطلقة قيدها السنة « فان طلقها »
الزوج الثاني « فلاجتاح عليهما أن يتراجعا » الآية .

ثم أبان حكم المطلقات بعد انقضاء عدتهن ، وأمر أن لا يعضلن ويمنعن من أزواجهن ، إذ روى أن
معقل بن يسار عضل أخته أن ترجع الى زوجها فنزل النهي عن ذلك بقوله تعالى « فلا تعضلوهن أن ينكحن
أزواجهن » الآية هذا ملخص الأحكام في هذه الآيات .

اني عجت لهذه الآيات ! انها آيات أحكام وقوانين شرعية وأحكام فقهية ، ولكن الناظر فيها يدهشه
نظمها ، ويهره وضعها ، الآيات مفعمة بالموعظة ، ما ذكر حكما إلا أتبعه بهظات ، ولا قال كلمة فقهية
إلا أتبعها بالزاجرات ، ألم تركب أعقب القروء الثلاثة بقوله « ولا يحلّ لمن أن يـ تمن ما خلق الله في
أرحامهن » من الحيض أو الولد ، وأعقبه بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر ، وتأمل كيف أباح الرجعة والرد
في العدة على شريطة إرادة الاصلاح ، ولم يكتف به بل سوى بين الرجال والنساء في الحقوق فقال « ولهنّ
مثل الذي عليهنّ بالمعروف » ولم يكن للرجال إلا الفضل الاشراف عليهنّ والانفاق ، ثم ختم المقام بذكر انه
عزيز غالب يقهر من عصي من الأزواج والزوجات بكنتم ما في الأرحام ، أو بالرجعة بغير ارادة الاصلاح ، وانه
حكيم في عقابه وأمره مكين ، ثم انظر كيف أعقب ذكر الطالقتين بكلمتين جميلتين : المعروف أوّلا والاحسان
ثانيا فلا يمسك الرجال النساء إلا بالمعروف . ولا يسرحوهنّ إلا باحسان ولم يدع محالا للزوج أو الحكم أن
يأخذوا من مال المرأة بالخلع إلا اذا حصل مثل ما اتفق لجيله . وحذرهم أن يأخذوا أكثر مما أنفق الأزواج
بل جعله أقلّ بمن التبعية ، فاستيفاء المهر والزيادة عليه عند الخلع مخالف لظواهر الآيات ، وان أفنى الفقهاء
بخلافه مع كراهتهم له فلقد نفذوه وكرهوه ، ولم يسبح في الآية الخلع إلا بعد شقاق وخلاف ، وكذلك ورد في
الحديث : « أيما امرأة سألت زوجها طلاقا في غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة » ، ولم يشأ أن يدع آيات
الطلاق والأحكام بعد أن ذكرها بل أتد كبر ووعظ في خواتمها كما وعظ في أوائلها فقال « واذا طلقتم النساء
فباغن أجلهنّ » أي قاربن الأجل على أحد اطلاقيه فهو للمدة كلها ولنهياتها والمراد الثاني . يقول محذرا : فاذا
قاربن الأجل فامسكوهنّ بمعروف أو سرحوهنّ بمعروف ، وإياكم أن ترجعهنّ مضارّين لتظلموهنّ ، ومن
يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا جرم أن أولئك الذين يرجعون زوجاتهم بظواهر الشرع ويضارّوهنّ لأشبه بمن
يتخذون آيات الله هزوا ، ذلك أنهم يطلبون الباطل بالحق ، والجهل بالعلم ، فكأنهم جعلوا الآيات هزوا . ثم
ذكر الناس بالنعم فقال . واذكروا نعمة الله عليكم « بالحياة والصحة والدين المنزل ، فاذا أضعتم الأيام في
التنغيص والأكدار كانت الحياة وبالا ، والعيش خبالا ، والعلم ضلالا .

ثم ختم المقال بقوله « ذلك يوعظه من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أركى » أي أنفع
« لكم وأظهر » من دنس الآثام « والله يعلم » أن الحياة لا تسرّ ولا تنفع إلا اذا اتفق الزوجان وتبادلا الحب
وعاشا قريرى العين ، فلا طلاق إلا باحسان ، ولا امساك إلا بمعروف ، ولا منع للزوجة عن زوجها اذا أحببت
الرجعة اليه ، فتكون الحياة سعادة ، والموت بعدها شهادة ، والبنون قرّة ، والأصهار مودة . فاذا خالفتم ما رسمنا
وجهلتم ما علمنا ، وقصرتم الأمر على القوانين الفقهية ، والأحكام الشرعية ، وظننتم أن هذا هو الاسلام فأنتم
أيها الناس إلا أضلّ من الأنعام « وأنتم لا تعلمون » العواقب ، ولا تدركون ما يكون من المصائب ، فأنا ان
حذرتكم المغاضبة ، ومنعتكم المشاقة فما أردت إلا سعادة الحياة الدنيا وعقبها الآخرة ، فاذا أشقيتم الأزواج
واستحللتم أموالهنّ بغير حقّ وأرهقتموهنّ في أمر فلتعيشنّ في شقاق ، ولتموتنّ على حال أشبه بالنفاق ، لأنكم
اتخذتم الآيات هزوا ، فكأنكم كفرتم بالقاب ، وآمنتم بالألسنة ، فليست أريد منكم وثائق وشرائط ودعاوى

والقلوب منبوذة . والعقول مطروحة . وإنما أريد حياتكم السعيدة في أحوال سديدة . هذا هو دين الاسلام هذا هو العلم والحكمة .

فليعلم المسامون في أقطار الأرض أن هذا هو الدين وهو المقصد وماعداه فقشور . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

هذه الآيات تدخل في علم الأخلاق . وحسن المعاشرة . وطلب الفضيلة . والأخلاق العالية . أوليس من العجيب أن يحدو الجنس البشرى اليوم حدو هذه الأحكام . فقد علمنا في الأمة الأمريكية اليوم مملكة تحكم بفراق الزوجين متى يستبين أنهما لا يقيمان حدود المعاشرة . وقد أخذ الناس ينسلون إليها من كل حذب حتى ضاقت أرضهم بمارحبت . وضائق عليهم أنفسهم من ازدحام طلاب الطلاق . وشرطوا أخيراً أن لا تقام دعوة إلا لمن أقام عندهم ستة أشهر . وقد بلغنا أنهم حكموا على زوج بطلاق زوجته لأنه قذر الثياب وسخ الملابس فقد أثبتت زوجته أنه لم يكن ليغتسل . أفليس العالم أخذ يقترب من الاسلام شيئاً فشيئاً . ألا ترى أن هذه كمسألة جميلة . هذه بقمح الصورة وتلك بقذارة الجسم . وهل أجمع لهذه المعاني وغيرها من قوله تعالى : « إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله » .

يارب ان الانسان الى الآن ما عرف حقه وجعل سياسة الأزواج . وسياسة المدن . وقد عصوك في نظام المدن فظالموا . وعصوك في نظام البيوت ففسقوا . فأسألك اللهم رحة بالأمم وبأهل المنازل انك أنت الرحمن الرحيم . اللهم اهد الانسان الى أحسن حال . ولما كانت نتيجة الزواج الولادة ولا حياة للولد بلارضاع . وقد يختلف الزوجان في أمره أعقبه :

(المقصد الثالث عشر)

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِقَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَأَلْتُم مَاءً اتَّيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (والوالدات) المطلقات (يرضعن أولادهن حولين كاملين) سنتين كاملتين (لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له) يعني الأب (رزقون) نفقتهن على الرضاع (وكسوتهن بالمعروف) بغير اسراف (لا تكلف نفس إلا وسعها) إلا بقدر ما أعطاه الله من المال (لا تضارّ والدة بولدها) أي لا ينزع الولد من أمه بعد أن رضيت بارضاعه كما لا تكره على أرضاعه إذا قبل الصبي لبن غيرها (ولا مولود له) وهو الأب (بولده) أي بأن يطرح الولد عليه بعد ما عرف أمه مضارّة له كما لا يلزم أن يعطى أم الولد أكثر مما يجب عليه لها إذا لم يرضع الولد من غير أمه (وعلى الوارث) وارث الأب إذا مات (مثل ذلك) أي مثل ما كان يجب عليه من النفقة والكسوة . والوارث نفس الصبي ان كان له مال ، فان لم يكن له مال فعلى الأم ، ولا يجبر على نفقة الصبي غير الأبوين ، وبه قال مالك والشافعي . وقيل : وعلى وارث الصبي أي الذي يرثه إذا مات مثل ما كان على الأب في حال حياته وهم إما عصبه كالجد والأخ والعلم وابنه ، وأما كل وارث له من الرجال والنساء ، وبه قال أحمد فيجبون على نفقة الصبي كل على قدر سهمه . وأما كل من كان ذارحم محرم منه ، وبه قال أبو حنيفة (فان أراد) أي الزوج والمرأة (فصلاً) أي فصال الصبي عن اللبن قبل الحولين يعني فطاماً (عن تراض منهما) بتراض الأب والأم (وتشاور) بينهما (فلا جناح عليهما) إذا على الحولين أو نقصاً ، وهذه توسعة بعد التحديد ، والتشاور استخراج الرأي ، من شرت العسل إذا استخرجته (وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم) غير الأم لسبب ما كأن تريد أمه الزواج مثلاً (فلا جناح عليكم) فلا حرج على الأب والأم (إذا سألتم ما آتيتكم) إذا أنفقتم ما أعطيتكم (بالمعروف) بالوجه المتعارف وبالموافقة من غير مخالفة (واتقوا الله) اخشوا الله في الضرار والمخالفة (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) لا تخفى عليه أعمالكم فهو يجازيكم عليها (والذين يتوفون منكم) يموتون من رجالكم (ويذرون) يتركون (أزواجاً) بعد الموت (يترصن) ينتظرن (بأنفسهن) في العدة (أربعة أشهر وعشراً) يعني عشرة أيام (فاذا بلغن أجلهن) فاذا انقضت عدتهن (فلا جناح عليكم) على أولياء الميت في تركهن (فيما فعلن في أنفسهن) من التعرض والزينة للخطاب (بالمعروف) الذي لا ينكره الشرع (والله بما تعملون خبير) عالم بالبوطن (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) كأن يقال لها أنت جميلة ، أو صالحة ، أو أريد أن أتزوج ، أو نحو ذلك ، لأن يقال اني أريد أن أتزوجك تصريحاً (أو كننتم في أنفسكم) أو أضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه تصريحاً ولا تعريضاً (علم الله أنكم ستذكرونهن) ستذكرون نكاحهن (ولكن لا تواعدوهن سرّاً) نكاحاً أو جماعاً ، عبر بالسر عن الوطء لأنه مما يسر ، ثم عن العقد لأنه سبب فيه (إلا أن تقولوا قولاً معروفاً) المستثنى منه محذوف ، أي لا تواعدوهن مواعدة إلا مواعدة بقول معروف كالتعريض المتقدم (ولا تعزموا) لا تحققوا (عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) حتى تبأخ العدة وقتها ، وسميت العدة كتاباً لأنها فرضت به (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم) ما في قلوبكم من الوفاء والخلاف على ما قلتم (فاحذروه) فاحذروا مخالفته (واعلموا أن الله غفور) لمن تاب من مخالفته (حليم) إذ لم يعجله بالعقوبة . انتهى التفسير اللفظي .



ايضاح

في هذا المقصد ثلاثة درر

الأولى تربية الولد وارضاعه ، الثانية مدّة المتوفى عنها زوجها ، الثالثة الخطبة في العدة

الدرة الأولى

يقول الله تعالى للرجال والنساء : ليكن رضاع الولد حولين كاملين عند التنازع ، فان ذلك أكثر احتياطا للولد ، وعلى الأم ارضاعه لأن لبنها له أشهى وثديها له أوفق من غيرها كما نصّ عليه الاطباء قديما وحديثا ، فالولد بضعة منها . وقد أعد الله عزّ وجلّ لبنها له ولم يخزنه في الثدي الا والولد يتحرك في جوفها ويضطرب في رحها فعليه ارضاعه لصحته فقله يرضعن خبر معناه الأمر : أي يرضعن ، وذلك على سبيل الاستحباب اذا قام غيرها مقامها ولم يضره لبن الأجنبية وقبله الصبي ، فأما اذا لم توجد الأجنبية أو كانت ولم يقبل لبنها أو قبله وأضر جسمه ، فعلى الأم ارضاعه وجوبا ، وعلى الأب لها كسوة ونفقة على الموسع قدره وعلى المقتر قدره هذه قسمة عادلة على الأب طعام وكسوة ونفقة للبائن ولا يصح استئجار الزوجة والمعتدة عند الحنفية ، وهو وجيه ، وخالف الشافعية ، وعلى الأم الارضاع .

تجب كيف أخذ عزّ وجلّ ينهى الوالدين عن إضرار ولدهما ، فقال « لا تضار والدته بولدها ولا بولده له بولده » قرئت بالرفع والنصب والماضي ضار ، ويحتمل البناء للفاعل وللفعول في الحالين ، والمعنى على البناء للفاعل عند النهي ، والخبر هكذا لا تضر والدته ولدها ، والباء زائدة ولا يضر مولوده ولده ، بين الله لكل عمله هذه ارضاع ، وهذا انفاق ، ورحمهما ، فقال « لا تكاف نفس إلا وسعها » فلا المطلقة تؤمر بما لا تستطيع من الارضاع ولا نفقة لها ، ولا الوالد يكلف مالا يستطيع من النفقة ، فلما أن عرفهما ما عليهما وأنه رفع المشقة عنهما أخذ يوصيهما بولدهما وفلذة كبدهما ، وقال لكل واحد على حدته أوصيك بولدك لا تضار والدته بولدها كأن تسيء غذاءه ولا تنظف ثيابه أو تجهل الأحوال الصحية أو تكثر المشاقة والمشاحنة مع الوالد فيكدر العيش ويتنقص فيسرى الحزن والمرض في اللبن فيضر الولد ، وقال ولا يضر المولوده ولده بأساءة الزوجة أو ترك الانفاق أو نزعه منها وهو بهامتعلق وایس يصح للزوجين أن يقطعا الصبي دون الحولين إلا باستشارة وتراض بينهما .

ياعجباً لهذه الآيات أوجب الله علم الصحة ، وأوجب مبادئ التربية على النساء بقوله لا تضر والدته ولدها ، ولا جرم أن الجهل بتربية الصغار إضرار ، وإياكم أيها المساءون في أقطار المسكونة أن تظنوا إضرار الصبي قاصرا على ما يرتكب من جناية ، كلا ، فالجهل بالصحة هو الذي يهدم بنيان جسمه ويقوض أركان صحته ويذيقه عذاب الآلام ويجرعه كأس الحمام .

مبادئ علم الصحة وتربية الولد واجبة وجوبا شرعيا على كل امرأة قبل زفافها ، وعلى ولاية الأمور والعلماء والأغنياء التضامن والتعاون على نشر التعليم امتثالا لما أمر الله به من احسانه للولد وترك إضراره ، علم الله حال الانسان قبل خلقه أنه جهول ضعيف ولا سبيل لصلاحه الا بالتعلم ، وقد علم الله الطيور في أوكارها بالالهام ما اضطرت إليه واحتاجته في حياتها ، ألا ترى كيف يتنزه أفراخ الطير في أعشاشها أن تذرق فيها محافظة على الصحة ، وكيف ألهم الله السخلات اذا ولدتهن النجمات أن لا تبغى حتى لا يسمع الذئب بغامها فيأكلها ، ثم كيف أخرجت أفراخ الأوزة عالمات بالعلوم يوم يولدن وصغار العناكب عالمات بالنسج بلا تعليم ولا تدريب وسلب الانسان هذه الموهبة ومنع هذه المكرمة ، ولكنه منح العلم والحكمة وجاءت الديانات ، فقال في القرآن

« لا تضار والدة بولسها » ولقد أيقنا أن الولد قليل المواهب سريع العطب ، والأم الجهول لا تقوى على تقويم صحته الا بالعلم لما في النوع البشرى من الجهل العام ، فالسبيل القويم تعليم الفتيات والفتيان بعض تقويم الصحة وفي ظني أن عشرين درسا كافيات لكل من الصنفين والاف كيف يتشاور الرجل والمرأة وهما يجهلان الصحة ومبادئ التربية ، وذلك للمرأة ألزم ، فعلى رجال الأمة أن يفكروا في هذا فلقد سبقنا به أسلافنا أهل الأندلس ، وكان النساء هن القائمات بالتمريض ، وهن المطعمات للجدرى ، وعنهم أخذ الافرنج هذه الدروس العلية فعملوا بناتهم وربوهن تربية صحيحة « والله يهدي من يشاء » ، ولقد رأيت لهؤلاء الافرنجة في التربية كتباً ، فكان أهمها كتاباً يسمى [تربية البنات] للرحوم [صالح بك جدى جاد] ترجمه عن فلان الفيلسوف الفرنسى ، وقد طبع في بلادنا بمصر ، وعجبت كيف كان الفرنجة مخالفين لتعاليم حكمائهم مثل هذا الحكيم ، فلقد منع التبرج كتبرج الجاهلية الأولى ، وكذلك التباهى بالعلم ، وأوجب أن تعلم المرأة العبادة مع التفكير ، وحضور القلب ، والاخلاص لله ، وحرم عليها قراءة الروايات التى فيها أبطال خياليون لم يخلقوا فى الأرض ، فتكون طلبتها رجالاً فوق من تراهم ، وكثير من هذه التعاليم خالفها الفرنجة لكن على كل حال قد ارتقى رجالهم ونسأؤهم فى التربية ، أما المسلمون فانهم قلدهم فلم يحسنوا التقليد ولم يرجعوا إلى كتبهم المقدس ، ولقد قرأت أيام طبع هذا الكتاب من هذا الأسبوع فى الميثاق الوطنى الاقتصادى التركى ما شرح صدرى وحدث الله إذ رأيت فى حياتى أمة اسلامية قد ظهرت ، وقد جاء فى هذا الميثاق أن التركية تعلم ابنها وتربيته تربية عامية صحيحة موافقة للعلم ، وهذه أول أمة أخذت تنهض بعد خلود الأمم الاسلامية أجيالاً طويلة وسيجعلون التربية على أساس شرقى اسلامى بالاستقلال الفكرى العقلى ، لا كالتربية الافرنجية المزورة التى انتشرت فى مصر وبعض بلاد الاسلام ، وأنا واثق أن الأمم الاسلامية سيتبعون الأمة التركية فى نهوضها واستقلالها فى كل شئ .

ولما كان الميثاق المذكور قد أوجب على المرأة أن تكون تربية الولد على مقتضاه ذكركه هنا لفائدته ، فقد جاء فى الجرائد أنه قد قرره ١١٣٥ عضواً منتدباً من طبقات مختلفة من صانع ، وزارع ، وتاجر ، وعامل فى تركيا نائبين عن الأمة فى المؤتمر الاقتصادى المنعقد فى أزمير من يوم ١٧ فبراير سنة ١٩٢٣ إلى يوم ٤ مارس برئاسة المشير كاظم قره بكر باشا ، وكان تقرير هذا الميثاق بالاجماع .

المادة الأولى : ان تركيا عنصر من عناصر السلام ، والارتقاء فى العالم مستقلة داخل حدودها القومية استقلالاً لاشائبة فيه .

المادة الثانية : ان الشعب التركى قد حصل على سلطانه القومى بما ضحاه من دمائه وأرواحه ، فهو لا يتنازل عن هذا السلطان القومى بأى ثمن ، وهو ظهير الى الأبد لمجلسه وحكومته القائمتين على أساس السلطة القومية .

المادة الثالثة : ان الشعب التركى شعب معمر لا يقع شئ من التخريب بيده ، وكل مساعيه مبذولة فى سبيل اعلاء شأن المملكة من الجهة الاقتصادية .

المادة الرابعة : ان الشعب التركى يعمل جهد الطاقة لانتاج المواد التى يستهلكها ، وهو كثير السعى وينفر من الاسراف فى الوقت والثروة والواردات الأجنبية وشعاره العمل فى النهار ، وفى الليل [إذا اقتضت الحال] لانتاج المحصولات القومية .

المادة الخامسة : ان الشعب التركى عالم بأنه جالس على خزائن الذهب ويجب غابات بلاده كحبه لأولاده ويقم للأشجار أعياداً ويغرس غابات جديدة ويستثمر مناجه لاستعمالها فى حاجاته القومية ويسمى لأن يعرف ثروته أكثر من معرفة غيره لها .

المادة السادسة : أن عدونا الاعظم هو الحق ، والكذب ، والرياء ، والكسل ، وقاعدتنا في كل شيء أن نكون ذوى صلابة دينية في كل شيء بشرط الابتعاد عن التعصب ونقتبس دائما كل جديد مفيد بسرور وابتهاج ، والشعب التركي ينفر من السياسات التي يذهبها الأعداء ضد مقدساتنا ، وأوطاننا ، وأشخاصنا وأموالنا ، ومن الواجب مقاومة ذلك مقاومة مستمرة .

المادة السابعة : التركي عشاق العلم ، والعرفان وهم يصرفون أيام حياتهم في سبيل الاكتساب حينما وجدوا غير أنهم أبناء وطنهم قبل كل شيء وهم يحتفون بيوم المولد باعتباره عيد كتاب أيضا .

المادة الثامنة : أن أعظم مالمنا زيادة نفوسنا التي نقصت أيام الحروب الكثيرة التي توالى علينا ، والفاقة التي منينابها ، وأن يزداد شعبنا قوة وصحة ، والتركي يتقن الميكروبات والهواء الفاسد والأقذار ويجب الهواء الطلق النقي ، والشمس ، والنظافة ، ويسعى للاقتناء بأسلافه في الفروسية ، والرماية ، والقنص ، والسباحة وغير ذلك من الرياضات البدنية وبمقدار اهتمامه بدوابه يهتم باصلاح جنسها ونسلها .

المادة التاسعة : التركي صديق للأثم التي ليست عدوة لدينه وقوميته وأوضاعه ، وليس هو مبغضا لرؤوس الأموال الأجنبية غير أنه لا يعامل المتاجر التي لا تخضع لفته وقانونه مع أنها موجودة في وطنه ، وحينما وجد التركي تجدد في العلم والصناعة يبادر الى اقتباسه مباشرة ، ولا يرغب في كثرة الوسطاء بأي عمل من الأعمال التي يقوم بها .

المادة العاشرة : التركي يحب السعي والعمل ، وهو ناصع الجبين ، لا يحب الاحتكارات الاقتصادية .
المادة الحادية عشرة : التركي يحب بعضهم بعضا مهما اختلفوا في الصناعات والطبقات والأعمال ، وإذا اتحدت أعمالهم ومسالكهم ، فانهم يكونون يدا واحدة فيها ، ويقومون بالسياحات بقصد التعارف ، والوقوف على أحوال الوطن .

المادة الثانية عشرة : ان المرأة التركية ، والعالم التركي يعملان لتربية الأطفال ، وفقا لقواعد هذا الميثاق الاقتصادي أزميز ، مارس سنة ١٩٣٣ .

وإنما ذكرته هنا برمتيه لأنهم جعلوه مما تربى المرأة ولدها على مقتضاه ، وهو أقرب للآية هنا ، فان الرجل والمرأة أمرهما الله ألا يضرا ولدهما ، ومن الضرر بالولد أن يجهل أمته ، ومصلحتها ، واقتصادها ، وعدم الاسراف ، فصار أمثال هذا من الواجبات الشرعية ، أليس من النافع المفيد لصحته الهواء النقي والشمس والأعمال الرياضية ، أليس من المفيد له حب بلاده ، واستخراج كنوزها ، وحب دينه ، والتمسك به ، كما في هذا الميثاق ، فهذا قوله تعالى « لا تضار والدته بولدها ولا مولود له بولده » على معنى لا تضر والدته ولدها ولا مولود له ولده ، كما ذكره المفسرون وقوله تعالى « وعلى الوارث مثل ذلك » أي وارث الأب أو وارث الصبي وهم الأقارب على تفصيل يختلف باختلاف المجتهدين ، فيكون في مال الصبي عند الشافعي ، لأنه الوارث للأب أو كل وارث له محرم عند أحمد على حسب أسهمهم في ميراث الصبي لومات إلى غير ذلك ، ثم قال « وإن أردتم أن تسترضعوا » المراضع « أولادكم فلا جناح عليكم » الآية ، وهو ظاهر .

الدرة الثانية

في قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا » الآية

يأمر الله عز وجل المتوفى عنهم أزواجهن أن يتر بصن بعدهم أربعة أشهر وعشرا ، يقال ان الجنين لا يتحرك الاثلاثة ، وقد يتأخر لأربعة فاعتبر أقصى الأجلين وزيدت العشر استظهارا ، ومن عجب أمر العدة فترى المطلقة بثلاثة أشهر أو بالأقراء ، والمتوفى عنها زوجها بالأشهر ، والأيام ليرينا الله عز وجل اختلاف

الصور واتحاد المعنى ، فالمعنى براءة الرحم في الجميع وزيدت أيام معدودات في المتوفى عنها زوجها مراعاة لإدّاب ومجاملة ، فليس من حسن العشرة الاسراع بالتزوّج بعد الموت ، والاكتفاء بثلاثة أقراء فربما تزوّجت بعد شهر وأيام فحسد الله ذلك الأجل تحقيقا لبراءة الرحم ، وحثا على حسن المجاملة ، ومراعاة لحقوق الزوجية ، ويظهر لي أن المرأة لو زادت عن هذا المقدار لكان أشرف لها وأجل وأدلّ على حسن خلقها ان كانت عفيفة حسنة السيرة « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » خصّ عموم الآية بالحامل لآية « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » فلتترك المرأة الزينة والطيب ودهن الرأس بكل دهن والكحل المطيب ، ويباح لها كل ما اضطرت إليه ، وإذا اكتسحت بالليل فلتمسحه بالنهار ، فإذا بلغت أجلهن وانقضت عدتهن فلا جناح على أئمة المسلمين فيما فعلن في أنفسهن من التعرض للخطاب وسائر ما حرم عليهن للعدّة بالوجه المعروف الذي يرضاه الشرع ولا ينكره العرف ولا تأباه الأخلاق .

أفادت الآية أن المسلمين متضامنون ، فعليهم كف العاصي ، وردع الفاسق إذ خاطب الناس بقوله « فلا جناح عليكم » أي فان قصرن فعليكم الجناح ، وليس ذلك قاصرا على هذا المقام ، فالمسلمون جميعا متضامنون ، فعليهم نشر العلم والفضيلة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكلّ معاقب اذا قصر همه على نفسه وجهل مصلحة العموم .

الدرة الثالثة

في قوله تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء » الآية

ذكر الله عدّة المتوفى عنها زوجها ، وحرم عليها الزينة حدادا على الزوج ، ثم أباح أن يتعرض للخطاب ويتزين بالمعروف والأدب بعد انقضاء العدّة ، فناسب أن يأمر الرجال بترك الخطبة الصريحة لئلا يهدموهن الصبر في العدّة . أمر الله النساء بالحداد ، وأمر الرجال بالأدب والامتناع فلا يهيجونهن ولا يذكروهن بأمر الرجال ، وأباح رجعة بالناس التعريض ، وهو من قسم الكناية فليس من الحقيقي ولا المجازي .

ولقد روى أن سكينه بنت حنظلة تأيمت فدخل عليها [أبو جعفر محمد بن علي الباقر] في عدتها ، فقال قد علمت قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحقّ جدّي عليّ وقدحى في الاسلام ، فقالت سكينه : غفر الله لك أنخطبني في العدّة وأنت يؤخذ عنك ، فقال : إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمّ سلمة في عدّة زوجها أبي سلمة ، فذكر لها منزلته من الله عزّ وجلّ ، وهو متحامل على يده حتى أثر الحصر في يده صلى الله عليه وسلم من شدة تحامله عليها فما كانت تلك خطبة .

يقول « لا جناح عليكم » فيما كان تعريضاً مثل هذا أو مكتوماً في النفس بلا تصريح ولا تعريض ، ولما كان من عادة الجهلاء إذ ذاك أن يدخل الرجل على المرأة في عدّة الزوجية ويطلب منها السفاح أثناءها ، ثم يشهر النكاح بعد انقضاء العدّة نهوا عن ذلك الزنا ، فيكون السر الجاع ، وهو قول الشافعي ، وهكذا روى عن ابن عباس ، وقال امرؤ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى * كبرت وأن لا يحسن السر أمثالى

بسباسة اسم امرأة فلم يبح إلا بالقول المعروف ، وهو التعريض ، ثم قال « ولا تعزموا » أي لا تقطعوا عقدة النكاح حتى ينتهي ما كتب من العدّة .

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ * وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * وَالَّذِينَ يُؤَفَّقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

يقول تعالى (لا جناح عليكم) لاجزأ عليكم (ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن) تجامعهن (أو تفرضا
هنّ فريضة) أى إلا أن تفرضا أو حتى تفرضا ، أى لا تبعه على المطلق من مطالبة المهر اذا كانت المطلقة
غير ممسوسة ولم يسم لها مهرا ، فاذا كانت ممسوسة فعليه المسمى أو مهر المثل ، واذا كانت غير ممسوسة ولكن
سمى لها فلها نصف المسمى (ومتعهن) متعة الطلاق (على الموسع قدره) مقداره الذى يطيقه (وعلى
المقتدر قدره) قدر امكانه وطاقته فتعهن (متاعا) تمتيعا (بالعروف) أى من غير ظلم ولا حيف ، حق ذلك
(حقا على المحسنين) الى المطلقات بالتمتع (وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) تجامعهن (وقد فرضم
هنّ فريضة) وقد بينتم مهورهنّ (ف) عليكم (نصف ما فرضتم) أى نصف ما سميت من مهرهنّ (إلا أن
يعفون) أى إلا أن تترك المرأة حقها على الزوج (أو يعفوا الذى بيده عقدة النكاح) أى أو يترك الزوج حقه على
المرأة فيعطى مهرها كاملا (وأن تعفوا) أى وأن تتركوا حقكم أيها الأزواج والزوجات بأن يعطى الزوج المهر كاملا
وأن تسقط المرأة كل ما لها على الزوج (أقرب للتقوى ولا تدسوا الفضل) التفضل (بينكم) يقول للمرأة والزوج :
لا تتركوا الفضل والاحسان بعضكم الى بعض (إن الله بما تعملون) من الفضل والاحسان (بصير) لا يضيع
تفضلكم واحسانكم (حافظوا على الصلوات) الخس بوضوئها وركوعها وسجودها وما يجب فيها (والصلاة
الوسطى) أى الفضلى من بين الصلوات ، وهى صلاة العصر ، وقيل الظاهر ، وقيل الفجر ، وقيل المغرب ، وقيل

العشاء ، وقيل هي غير معينة كإيلة القدر ، وسيأتي زيادة بيان في الايضاح (وقوهوا لله) في الصلاة (قاتين) مطيعين خاشعين ، ذاكرين الله في قيامكم ، قائمين بالركوع والسجود (فان ختم) فان كان بكم خوف من عدو أو غيره (ف) صالوا حال كونكم (رجالا) أي راجلين وهو جمع راجل كقيام وقائم (أركبانا) على الدواب جمع راكب : أي فصلوا مشاة على أرجلكم ، أوركبانا على دوابكم ، مستقبلى القبلة وغير مستقبلها ، وذلك في حال المسابقة والمقاتلة في وقت الحرب (فاذا أمنتكم) أي فاذا زال خوفكم (فاذكروا الله) أي فصلوا صلاة الأمن (كما علمكم) أي ذكرنا مثل ما علمكم (مالم تكونوا تعلمون) من صلاة الأمن (والذين يتوفون منكم) يا معاشر الأزواج (ويذكرون أزواجهم) زوجات فليوصوا (وصية لأزواجهم) في أموالهم متعهون (متاعا) تمتعنا بالنفقة والسكنى وما يحتاج إليه ، ووصف المتاع بقوله كائنا (إلى الحول غير اخراج) غير مخرجات من بيوتهم ، والمعنى أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولا كاملا : أي ينفق عليهم من تركته ، ولا يخرجون من مساكنهم : وكان ذلك مشروعا في أول الاسلام ثم نسخ بآية «والذين يتوفون منكم اخرجوا» (فان خرجن) بعد الحول (فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن) من التزين والتعرض للخطاب (من معروف) بما ليس بمنكر شرعا (والله عزيز) بالنقمة ان ترك ما أمر به (حكيم) فيما حكم (وللطلقات متاع) أي نفقة العدة (بالمعروف) حق (حقا على المتقين) وليس بواجب لأنه فضل على المهر على وجه الاحسان (كذلك) أي مثل ما سبق من أحكام الطلاق والعدة (يبين الله لكم آياته) وهذا وعد من الله بأنه سيبين لعباده ما يحتاجون إليه من الأحكام والدلائل الدالة على جماله وابداعه مثل ما ظهر في زماننا وجاء في هذا التفسير وقرأه المساهون في أقطار الأرض فهو مصداق للوعد هنا (لعلكم تعقلون) لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها . انتهى التفسير اللفظي للمقصد الرابع عشر

في هذا المقصد جوهرتان

الجوهرة الأولى المتعة ، والثانية اعتداد المرأة التي مات عنها زوجها إلى الحول

الجوهرة الأولى

«لأجناح عليكم» لا تبعة من مهر (ان طافتم النساء مالم تمسوهن أو تفضوا لهن فر يضة) الآية : اذا تزوج الرجل امرأته ولم يفرض لها مهرا ثم طلقها قبل المسيس يجب لها عليه المتعة بمنطوق الآية عند الشافعي وأبي حنيفة وأحمد ، ويستحب عند مالك ، فان سمي لها مهرا وقد طلقها قبل الدخول بها فلا متعة لها ، والمطلقة المدخول بها مفوضة ، أو مسمى لها لا متعة لها لأنها تستحق المهر كاملا وهو مذهب أبي حنيفة ، وفي القديم عند الشافعي ، وفي إحدى الروايتين عن أحمد ، ولها المتعة في الجديد عند الشافعي ، وفي رواية أخرى عن أحمد مستدلين بقوله تعالى : «وللطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين» . قال ابن عمر : لكل مطلقة متعة إلا التي فرض لها المهر ولم يدخل بها زوجها فحسبها نصف المهر . ومن لطيف هذا المقام أن الشافعي رضي الله عنه قدّم القياس أي قياس المدخول بها مفوضة ومسمى لها على المفهوم ، ألا ترى أن مفهوم قوله : «مالم تمسوهن أو تفضوا لهن فر يضة» يقتضي أنه لا يجب للمسوسة متعة فان قوله : «ومتعهن» وارد على المرأة المقيدة بما ذكر ، المتعة مقدرة بحال الزوج يسارا واعسارا لا قيد لها ولا حصر في أمر معلوم فالعرف والمرءة هما القاضيان في ذلك ، ألا ترى إلى قوله : «ومتعهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا» أي تمتعنا «بالمعروف» أي بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمرءة ، وقد حق ذلك «حقا على المحسنين»

فانظر كيف جعله حقا ، وكيف مدحهم بالاحسان ، ففيه ايجاب ومدح ، فلا يجاب عند المشاحنة ، والمدح تهيبج
 للاحسان والمرءة ، ولذلك تمتع عبد الرحمن بن عوف زوجته جارية سوداء ، و تمتع الحسن بن علي رضي الله
 عنهما زوجته بعشرة آلاف درهم ، فقالت : متاع قليل من حبيب منارق . فأما تقدير ابن عباس لأعلاها
 بخادم ، ولأوسطها بثلاثة أثواب : درع وخمار وازار ، ولأقلها بشيء من الفضة أو مقلعة ، أو نحو ذلك كذهب
 الشافعي ، وتقدير أبي حنيفة لها بنصف مهر مثلها ، وتقدير أحمد لها بما تجزى فيه الصلاة ، فذلك كله لاختلاف
 الأحوال والأمور خاصة والا لمرءة في المنعة لاحد لها ، وللقاضي أن ينظر ما يقتضيه الحال ولا يتقيد بقيد ،
 ألا ترى كيف يقول : « متاعا بالمعروف » من المرءة والشرع ، وكيف يصفه بالمحسن ؟ وليس المعروف والمرءة
 خاصين بمن لها متعة ، بل المطلقة قبل الدخول التي سمي لها مهر ونصف مهرها نالت حظا من السعة في
 المقدار الذي يعطيها الزوج ، ألا تراه يقول : « إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تغفوا أقرب
 للتقوى » . يقول : لمن نصف المهر إلا أن يتجاوزن فيتركه للرجل فلا يأخذن منه شيئا ، أو يعفوا الرجل عن
 النصف الآخر وقد ساق إليها المهر كاملا وقد عفا عن حقه وهو التشطير ، ثم رغب الرجال وخاطبهم قائلا : وأن
 تغفوا أيها الرجال أقرب للتقوى لأنكم قوامون عليهن والرجل أولى بالفضل وأحق بالاحسان . وعن جبير بن
 مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول بها فأكل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو ، ولما كان مثل هذا
 الفضل عظيما زاد في الخض عليه فقال : « ولا تنسوا الفضل بينكم » بالمماحلة والمغاضبة واقامة القضايا ورفع
 الدعوى وإيجار المحامين ونحو ذلك « إن الله بما تعملون بصير » لا يضيع فضلكم ولا احسانكم ، فإياكم أن
 تضيعوا أوقاتكم ومروءاتكم وشهاتكم في المشاجرات والمماحلات فتدسوا المعروف والمرءة والفضل ، فذلك
 لن ينبغي أن يكون ، ليحسن بعضكم الى بعض فلا تضيعوا المعروف بينكم بالعداوات ، ولا تتركوا الصلاة بل
 حافظوا عليها ، ولا يشغلنكم أمر الطلاق والمتعة والمقاضاة وأحوالكم المؤلة بالمشاحنات والمماطلات والعداوات
 عن أجل الأمور وأعلاها وأرفعها وأوفاهها ، وهما شيئين : المعروف بينكم ، ورجوع الأفتدة لله في الصلوات
 « حافظوا على الصلوات » كلها « والصلاة الوسطى » الفضلى ، والأفضل يسمى الأوسط ، وهي صلاة العصر
 لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : [شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ملائكة الله يوتهم نارا]
 وقال عليه الصلاة والسلام : إنها الصلاة التي شغل عنها سليمان حتى توارت بالحجاب ، وإنما فضلت لأن الناس
 مشغولون بأعمالهم من تجارة وزراعة وصناعة ، وقد خارت القوى ، وسئمت النفوس .

الصلاة راحة للنفوس الانسانية من الهم ، ومدعاة للسرور ، ولعروج الروح عن هذا العالم الذي ملئ نصبا
 وتعبا ، لا بد للناس من أوقات يروحون فيها أنفسهم من ما زق الحياة ، وأثقال الهموم التي تنقض ظهورهم ،
 وتكدّر صفاءهم ، وتحملهم الأثقال ، وفيها تحيط بهم الآلام ، فليصاوا وليقوموا لله قانتين أي خاشعين ، وإياكم
 أن يشغلكم الخوف من حرب أو غيره ، فإن خفتم فصاوا رجالا أو ركباناً ، جمع راجل وراكب كقيام جمع قائم
 سواء أ كنتم واقفين أم ماشين ، محاربين أو خائفين ، من سبع أو غيره ، فأوفوا بالركوع والسجود ، وليكن
 السجود أخفض من الركوع ، وصاوا مشاة على أرجلكم ، أو ركباناً على دوابكم ، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها
 ومنع أبو حنيفة صلاة المشاة ، وذهب الى التأخير كما أخر صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر والعصر ، وقضاها من بعد غروب
 الشمس يوم الخندق ، واحتج الشافعي بهذه الآيات ، وهذا حال الخوف « فإذا أمنتهم فاذكروا الله كما علمكم »
 أي ذكر أمثل ما علمكم « ما لم تكونوا تعلمون » من صلاة الأمن ، ثم رجع الى مسائل الأزواج ليختتمها
 بعدة المتوفى عنها زوجها فقال : « والذين يتوفون منكم » الآية وهي :

الجوهرة الثانية

قد كان رجل من أهل الطائف يقال له حكيم بن الحرث هاجر الى المدينة ومعه أبواه وامراته ، وله أولاد فأت فرفع ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية ، فخرم المرأة من الميراث ، وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركته زوجها حولاً كاملاً ، والآية تدل على مجموع الأمرين أن لها النفقة والسكنى ، وأن عدتها سنة كاملة ، وهي مخيرة بين السكنى في منزل زوجها وبين الخروج ، وتسقط النفقة ، ونسخ الوصية بالنفقة والسكنى بآية الميراث ، ونسخت عدّة الحول بأربعة أشهر وعشر ، ورأى الشافعي لها السكنى ولم يرها أبو حنيفة رضي الله عنهم أجمعين ، وقوله « وصية » أي فليوصوا وصية ، وقوله « متاعا » أي متعوهن متاعا ، و« الى الحول » صفة لمتاعا ، وقوله « غير اخراج » وصف مؤكد ، وقوله « فيما فعلن في أنفسهن » أي من التزين والتعرض للخطاب ، ولما أن ذكر أحكام المتوفى عنها زوجها أردفها بما يناسبها من أحكام المطلقات في عدتهن ، فقال « وللمطلقات متاع » نفقة العدة « بالمعروف حقا على المتقين كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » ومن فسر المتعة بغير نفقة العدة جعلها شاملة للندوبة والواجبة ، ومنهم من أوجب المتعة لكل مطلقة ، وهذا المقام مكارم أخلاق ، فعلى المرء أن يجتهد في الفضائل ومحاسن الأخلاق والآداب اهـ

تفصيل الكلام على قوله تعالى : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين أمر الله بالمحافظة على الصلاة في هذا المقام ، ويجب ذلك في جميع شرائطها كالطهارة من الحدث والنجس في البدن والثوب والمكان ، وبالمحافظة على ستر العورة ، واستقبال القبلة ، والعلم بدخول الوقت ، وبالمحافظة على جميع أركانها كالنية ، وتكبيرة الاحرام ، والقيام عند القدرة ، وقراءة الفاتحة ، والركوع والرفع منه ، والسجود الأول والثاني ، والتشهد الثاني ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه والسلام وهكذا مع اختلاف الأئمة في ذلك بالزيادة والنقص ، وهكذا الاحتراس من جميع المبطلات للصلاة سواء أكان ذلك من أعمال القلوب أم من أعمال اللسان ، وأهم الأمور في الصلاة رعاية النية فانها هي المقصودة أصالة من الصلاة قال تعالى : [وأقم الصلاة لذكري] .

وهنا يرد سؤال فيقال : المحافظة مفاعلة من الجانبين ، فإذا حفظ العبد صلاته فأين الطرف الآخر؟ قالوا المعنى احفظ الصلاة ليحفظك الله ، أولت حفظك الصلاة من المعاصي ، ومن استدلال المحن والبلايا لك ، واستدلوا بقوله تعالى : [اني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة] ومعناه كما يقول الرازي رحمه الله : اني معكم بالنصر والحفظ ان كنتم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وهذه الأدلة كثيرة في القرآن والحديث

وهذه الأمور لا يعقلها الناس الا بالتجربة ، فإذا قام امرؤ بأمر الصلاة ، وكان حاضر القلب في جميع الأركان ، وفي القراءة والركوع والسجود والتشهد ، وهو مع ذلك نظيف الظاهر حاضر القلب مخاطب ربه طالب منه الهداية كأنه أمامه ، وهو يناجيه ويكلمه ويحمده ، ويقول له ان كل حمد صدر من مخلوق ، فهو لك وأنت الرحمن الرحيم ، فالعبادة لك ، والاستعانة بك وحدك ، وعند الركوع يتذكر تلك العظمة ، وهكذا عند السجود ، ويقول في التشهد ان كل تحية وكل تعظيم فانما هو لك ، ومعلوم أن الغافل الذي يقول إياك نعبد وقلبه في حقله أوفى دكانه كاذب في دعواه كما قال الامام الغزالي غير مصل ولا عابد ، وقال أيضا ان فتوى الفقهاء تسمى هذا مصليا مادام يحضر قلبه عند النية ، والفقهاء لاعلاقة لهم بأمر الآخرة ولا بتهديب النفوس ، وإنما الفتوى معلقة بالظواهر ، والظاهر هنا أنه صلى فنقول : له مالنا وعليه ما علينا وليس له في الآخرة من نصيب ، والصلاة بلا حضور قلب جسم بلا روح ولفظ بلا معنى ، وهذا ملخص ما قاله الامام الغزالي والعلماء الصالحون والحكماء المحققون .

أقول إذا قام المصلي بالصلاة على هذا الوجه وهو الحضور بالقلب فهل تحفظه من المعاصي كما تقدم ، ومن بعض المحن والبلايا ، وهل صاحبها ينصره الله ؟ هذا السؤال له أحد جوابين : أما الأول فانا نقول لينظران عمل على هذا الوجه الأكمل في نتائج حاله واذن يجد المعونة من الله . وهذا لا يطلع عليه الا هو نفسه ، واذن يكون ذلك خاصا به فلا يتعداه لغيره فلا يكون حجة عند الناس .

وأما الثاني فانا ننظر في العلوم التي كشفها علماء أمريكا وأوروبا في هذا المقام التي أطلعنا عليها ، وان كان لها نظير في كتب غير مشهورة عند أسلافنا الذين ورثوا علوم الأمم فنقول :

اعلم أن النفوس الانسانية المتصرفة في هذا الجسد ذات قوى كثيرة وما رُب شتى وأعمال كثيرة ، والناس فريقان : فريق ترك تلك القوى في غفلاتها تجري تبع هواها ، فاللسان يقول ما يخطر بالبال والعين يطلق سراحها وجميع البدن حرّ في تصرفه لا يردعه رادع من عقل ولا دين ولا مروءة ، فهذا يصبح ضعيف الأثر خامد النفس ، أما الآخر فهو الذي حفظ هذه القوى وخزنها في نفسه ولم يفرط فيها ، فالكلام بمقدار والنظر والسمع والعقل كل ذلك موزون بميزان فهذا قد حفظ [البطارية] الكهربائية السالبة والموجبة في نفسه والمغناطيسية الحيوانية التي كسبها فلم يفرط فيها . واذن ببقائها تكون عوناً له مساعداً وهو لا يشعر . أما الأول فقد تبعثت قواه وطاقت وتفرقت ، فهذه القوى ببقائها في النفس تجعل لصاحبها احتراماً وجذباً للأفئدة وحبا .

ولقد اطلعت لهم على تجارب يعلمونها لتلاميذهم تعويدها لهم على حصر الفكر وقوة الإرادة كأن يأمرهم بالتفكير في أمر واحد زماناً أو يكرّروا كلمات بعض دقائق خاصة بالغرض الذي يطلبونه أو يحبسوا الهواء الداخل في الرئتين زماناً داخلاً أو خارجاً ويقولون لهم إياكم والتحدث عن أنفسكم ، والفخر في المجالس وذكر الوقائع لاظهار العواطف المختلفة وإياكم أن تعاقروا الحجر أو تجرحوا الآثام الشهوية ، فان كل كلمة ورغبة وخفة وطيش ولذة تحمل معها قوة من المغناطيسية المودعة في نفوسكم فاحفظوها وتعلموا كتمان الأسرار والسكوت والسكون ، ويقولون ان نتيجة هذا كله قوة الإرادة فقوة الإرادة عندهم هي كل شيء . هذا كلام علماء الجمعية النفسية في أمريكا ، وهذا هو الذي دونوه . ومن مقالهم أنهم يأمرسون التلميذ أن يجلس في حجرة وحده ويقوم ذهاباً وإياباً مخاطباً شخصاً خيالياً بكلمات ذات معنى أو غير معنى حاضراً عند كل كلمة بنبرات حسنة جازمة كأنه خطيب ، ويكون ذلك مقدار نصف ساعة ، وان كانت تلك الكلمات في غرض خاص كانت أدعى لتحقيقه والقصد من ذلك عندهم قوة العزيمة والإرادة والهمة ، وهي كفيلة بتحقيق الأغراض ولهم فوق ذلك مالا وقت لذكره .

وأنا أقول أنا لست الآن في مقام الاستهجان أو الاستقباح ، وإنما الذي أسمعته من كلامهم جار نظيره في ديننا ألم يقل الله تعالى « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » وتلك المسؤولية يظن الناس أنها في الآخرة وحدها ، والحق أنها في الدنيا والآخرة ، قال تعالى « سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم » والقرآن طافح بذكر عذاب الدنيا وعذاب الآخرة معا ، وهؤلاء الذين لم يحفظوا قواهم ضاعت وتبددت فضاعت مصالحهم في الدنيا فعذبوا فيها وفي الآخرة ، وقال تعالى « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » وقال تعالى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فانظر كيف جعل الأمر راجعاً إلى خسارة النفس وإلى تغيير ما بالنفس ، فالنفس وقواها رأس مال الانسان ، فاذا بذر فيها بالضحك وكثرته ، والكلام وثرثرته ، والحزن والفرح ، واللذات ضاعت قواها فلم يجدها معينا « أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » فهؤلاء الذين نسوا أنفسهم لا يقدرّون على كبح جماحها ولا يحصرون عزيمتهم

يصبحون عالة على المجموع ، ولقد جاء في الحديث ما يقرب من هذا « من أصبح وهمومه هم واحد وقاد الله الهموم كلها » أو ليس هذا كقوله تعالى « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ولقد تجد في القرآن ذكر الهممة وعلوها وذكر أولى العزم ، قال تعالى « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » فجعل المدار على العزيمة ، وترى الصلاة قد وجب فيها حفظ القوة الفكرية وحصرها في غرض واحد ، أو ليس هذا هو كل بل أكثر مما قالت جعية المباحث النفسية لتقوية الهممة والنصرة والسعادة . أفلا تتعجب كيف يقول الله « واستعينوا بالصبر والصلاة » وانظر كيف قرن الصبر بالصلاة التي يحضر القلب فيها ، لصلاة أكثر المسلمين النائمون اليوم . أولست ترى أن تمرين الأمريكيين بالخطابة في حجرة مع حضور القلب للكلمات التي تقال لأجل علو الهممة وقوة العزيمة هو تقليد لصلاتنا سواء أعلموا أم لم يعلموا ، أفلمت أيها الذكي النبيل وأنت تقرأ هذا تتعجب مع غاية التعجب من المباحث النفسية التي جاءت مؤيدة لديننا ، بل هي لم تصل إلى جلاله وجماله ، وأن هؤلاء القوم لما حرموا من جلال الديانات التي تأخذ بمجامع عقولهم بحثوا بأنفسهم عن قواعد استنبطوها بالتجربة وأنهم لو كان عندهم ما سمعته من الآيات والأحاديث لجعلوا التعاليم على محورها ، أو ليس هذا هو قوله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » أفليس هذا الذي ذكرته مما أراه الله لنا في الأنفس كما أرانا جلاله في الآفاق . أفلمت ترى بعد الآن المحافظة على الصلاة بحضور القلب في الأفعال والأقوال وخطاب الله ومناجاته مقوية للعزيمة نافعة في الدنيا والآخرة ، وان قوله « واستعينوا بالصبر والصلاة » له حقيقة عالية قد كشفها علماء النفس في مجلدات وهم لا يعلمون أنها في الاسلام ، وأن العامة ربما سعد بعضهم بهذه الصلوات وهم لا يعلمون ، وأن أسلافنا الذين ملكوا البلاد شرقا وغربا وهم يزكون ويصانون كانوا على حق ، وأن المتعلمين تعليما ناقصا في مصر ، وسائر أقطار الاسلام يجب عليهم أن يفكروا فيما قلت بعقولهم فيحفظوا المغناطيسية والقوى الحيوانية في نفوسهم ، وان هذا الذي قلته بلسان العصر الحاضر أقرب الى أفهامهم ، أنا موقن أن الاذكيا يجيبون لما دعوتهم إليه بعقولهم لا بالتقليد ، أفليس هذا يوضح ما قاله علماءنا ، يقول هؤلاء الأمريكيون ان الفرق بين تاجر بن وعالمين تشابها في التجارة والعلم واختلفا في العمل والشهرة ان أحدهما قوى الإرادة تام المغناطيسية اليه اتجهت الافئدة ، والآخر ضاعت مغناطيسيته الحيوانية فلا يحب له ولا جاذبية عنده ، أليس هذا كلام أ كابر العلماء عندنا الذين يوجبون حضور القلب في الصلاة أولا ، ثم في سائر الأقوال والأفعال .

إيضاح

فاذا قال الله تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » فذلك لأنها عامتنا حصر الفكر والاتجاه لله وخشيته فقويت العزيمة فكانت المغناطيسية عندنا تامة ، أو ليس ما يفعله علماء النفس باصريكا من حصر أفكار تلاميذهم في نقطة واحدة ما بين ٥ دقائق و ١٥ دقيقة بحيث لا تميل عينه يمنة ولا يسرة ويقولون انه يحصر الفكر قوى عزيمته وقوة العزيمة والتمرين مرارا يصير قادرا على حفظ قواه فلا يقع في الأسراف فيها بالشهوات ، واذن يصير عضوا عاملا في الأمة ، أفلمت المحافظة على الصلاة مع حضور القلب فيها من التكبير إلى السلام ستنبه عن الفحشاء والمنكر ، وتمتاز هذه عن آراء الأمريكيين من علماء النفس ، ان التفكير في الله قد انضم هنا إلى حصر الفكر فبدل أن يحصر فكره في نقطة يراها بعينه يتجه لله فينال الأمرين : حصر الفكر ، والاتجاه لله معا مع الاعتقاد الديني ، فيكون الله في عونته وقواه المغناطيسية كاملة تامة ، فهو مستعد للمساعدة ممن هم حوله بتسخير الله ، وتكون قوته النفسية موفورة ، هذا هو الذي حضرني عند

كتابة هذا الموضوع ، فاذا كنا نرى الشبان المتعلمين في ديارنا يقرءون هذا وبعضهم يعمل به ابتغاء الفنى من طريق حصر الفكر ، أفليس هذا بعينه في ديننا . ولأذكر لك شذرات من أخبار آبائنا المصلين الذين فتحوا فارس والروم وهم كانوا يصاون ويصومون ، ونحن لاصيام ولا صلاة مع أننا علماء بلغات الفرنجة وآدابهم ونجرهم ، ونحن غنيمة لهم باردة وبآدابهم محجبون ، وفي محال طهروهم وشرابهم جالسون ، ولما لنا فيها منفتقون .

(١) قال صلى الله عليه وسلم ، ان العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها ، وكان يقول : إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها .

(٢) روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال على المنبر ان الرجل ليشيب عارضا في الإسلام ، وما أكمل الله له صلاة ، قيل وكيف ذلك ؟ قال لا يتم خشوعها وتواضعها واقباله على الله عز وجل فيها .

(٣) وكان مسلم بن يسار من الخاشعين في صلاتهم ، وقد نقل عنه أنه سقطت اسطوانة في المسجد وهو يصلى فلم يشعر .

(٤) ومثله عامر بن عبد الله الليثي كان اذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف ، وتحدث النساء في البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله ، أليس هذا هو الذى يلتمسه علماء الجمعيات النفسية ، في أمريكا وأوروبا لما تضععت دياناتهم ، وذهبت بهجتها ، أوليس هؤلاء المساعون هم الذين فتحوا البلاد شرقا وغربا ، وهم مصلون ، ان المساعين اليوم في سكراتهم يعمهون ، إلى اعمر كأيها الفطن الذكى لم أذكر أعمال الجمعيات النفسية ليكون برهاننا على أن ديننا حق بل لا بين للعلم الذى عرف بعض علوم أوروبا وعاش غافلا عما كان عليه آباؤه الأولون .

حكاية مصرية

قد كانت أمتنا المصرية في أواسط القرن التاسع عشر ، وهو القرن الماضى ذات نهضة شريفة عالية بتأسيس [المرحوم محمد على باشا] وكان يرسل الشبان في الارشاليات إلى فرنسا ، ومعهم شيوخ ليعلموهم الصلاة والمحافظة على الدين ، وكانوا يرسلون كل أسبوع ملخصات لدروسهم ، وترسل لهم خطابات بختم الأمير يظهر رضاه عنهم ، في كل مظهر نبوغهم فيه ، فاتفق ذات يوم أن مراسلا لأحدى الجرائد الكبرى [وأظنها الطان] كان يجوب في المزارع وقت الفجر الغرض ما فاجح من بعيد شبيحا ، فذهب إليه إذا هو تلميذ مصرية بجانب ماء جدد فصار ثلجا ، وكان ذلك زمن الشتاء والتلميذ يلتمس قطرات منه ليتوضأ فتعجب وسأله لم هذا ؟ فقال أتوضأ لصلاة الصبح فرجع وكتب مقالة عنوانها [مصر ستغتنل أوروبا] وذكر الحادثة بتمامها ، وقال إذا كان هذا صادق العزيمة حتى يتوضأ بالثلج ، فهذه العزيمة لا مثل لها في أوروبا وهذه العزائم القوية تهت الجبال وتخرب المدن ، وسيكون المصريون والشرقيون ، بهذه التعاليم أقوى من أوروبا ، ويرجعون إلى مجد آبائهم الأولين ، ويهدمون مجدا ببناءه وسدا ألقناه ، وحصنا رفعناه اه .

هذا استنتاج كتابهم في جرائدهم ، فتطلعت أنظار أوروبا إلى تعاليم المصريين ، فاحتال قوم منهم على بعض الحكام فاشاعوا الخلاعة والفسوق ، وأغروهم باحتقار آبائهم ومجدهم ودينهم ، فخر عليهم السقف من فوقهم ، وأتانا العذاب في ديارنا ونحن صاغرون ، أليس هذا الكاتب الفرنسى قد تلخص معنى [حافظوا على الصلوات] أوليس هذا العالم ، قد أدرك بفطنته أن مصر بأمثال هذا الشاب سترقى ، وقد تم ذلك بعد سنين فاسها ملكة الحجاز والشام ، وكادت تنير إلى أوروبا لولا ما حصل بها من الجهل ، إذ قامت تحارب خليفة المسلمين ، أوليس كلام هذا الفرنسى عرفنا سر ذكر هذه الآية ومعها الحرب إذ يقول [فان خفتم فرجالا

أوركبانا [أى فصلوا راجلين أورا كبين ، وهى صلاة الخوف التى شرحها العلماء ، أفليس ذكر الصلاة هنا مع الحرب يشعر بما ذكره ذلك الفرنسى ، وقد صح ما تنبأ به ثم خمدت جذوة نار البلاد بالجهل والفسق بعد حين ، أفلا يصح بعد هذا البيان أن نقول ان الصلاة من قاموا بها نصرهم الله على أعدائهم ، وذلك بقوة العزائم واجتماع القلوب ، لعمري لقد وفيت لك المقام بغاية الاختصار .

وأما قوله تعالى [والصلوة الوسطى] فاعلم أن فيها قولين يرجعان إلى معنى واحد : أولهما أن الصلاة الوسطى صلاة مجهولة لفائدة جهلها ، وهى أن المصلى يتقن كل صلاة عسى أن تكون هى الوسطى ، وذلك نظير ما فى هذا العالم من الجهل الذى يثمر ثمرا لا ينتجه العلم ألا ترى أن من أعظم النعم أن نجعل وقت موتنا لنجد ونبنى ونغرس ليدوم العمران ، هكذا هنا ليجد المصلى فى كل صلاة . وثانيهما أن مجموع الصلوات الخمس هى الوسطى من الطاعات ، فهى واسطة الطاعات ، فلا هى أعلاها ولا هى أدناها ، فإن أعلى الطاعات ما يمس القلب من الايمان والعلم والحكمة الدينية ، وهذا أفضل من سائر العبادات ، وأدناها ما يكون من الأعمال الصغيرة كامطة الأذى عن الطريق ، فقد جاء أن المؤمن حقا من كملت فيه شعب الايمان ، وهى بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، رواه الشيخان هكذا على الشك من حديث أبى هريرة ، فاعلاها الايمان بالله وماعطف عليه ، وأدناها كثير من الأعمال الصالحة والصلاة من الأمور التى هى وسط بين الطرفين ، وهذه الشعب ذكرها صاحب النقاية ، وعدّها جميعها بطريق الاجتهاد ، وهذا ما أردت ذكره فى هذه الآية . ولنرجع إلى المقام الذى فيه بحثنا العام ، وهو :

(المقصد الخامس عشر)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا

تَرَكَ آلَ مُوسَىٰ وَآلَ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ *

التفسير اللفظي

قال الله تعالى (ألم تر) ألم تخبر يا محمد في القرآن (إلى الذين خرجوا من ديارهم) من منازلهم لقتال عدوهم (وهم أوف) قيل ثمانية آلاف فجنوا عن القتال (حذر الموت) مخافة القتل (فقال لهم الله موتوا) فأماهم الله مكانهم (ثم أحياهم) بعد ثمانية أيام (إن الله لذو فضل) لذو من (على الناس) على هؤلاء لأحيائهم ، وعلى غيرهم إذ يبصرون ما يعتبرون به (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ذلك ولا يعتبرون ولا يستبصرون ، ولما بين أن الفرار من الموت غير مخلص منه أمر المسلمين بالقتال ليفوزوا بالنصر والتوبة فقال (وقاتلوا في سبيل الله) في طاعة الله عدوكم (واعلموا أن الله سميع) لما يقول المتعال عن القتال (عليم) بنياتكم وعقوبتكم ان لم تفعلوا ما أمرتم به ، ولما كان القتال لا بد له من مال أعقبه بقوله (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) اقراضا حسنا مقرونا بالاخلاص وطيب النفس (فيضاعفه له) أي يضاعف جزاءه (أضعافا كثيرة) لا يعلم كنهها إلا الله (والله يقبض ويبسط) أي يقرر الرزق على عباده ويوسعهم عليهم (واليه ترجعون) فيجازيكم على ما قدمتم (ألم تر إلى الملائكة) ألم تخبر عن الأشراف الذين يماؤن القلوب جلالة ، والعيون مهابة (من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم) وهو يوشع أو شمعون أو شمويل (ابعث لنا ملكا) أنهض للقتال معنا أميرا نصدر في تدبير الحرب عن رأيه (نقاتل) بأمره (في سبيل الله) في طاعة الله (قال هل عسيتم) أي لعلمكم (ان كتب) فرض (عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله) أي وأي داع لنا إلى ترك القتال ، وأي غرض لنا فيه (وقد أخرجنا من ديارنا) من منازلنا (وأبنائنا) وذلك بسبب ذرارينا (فلما كتب) أوجب (عليهم القتال تولوا) أعرضوا (إلا قليلا منهم) ثلثائة وثلاثة عشر رجلا بعدد أهل بدر (والله عليم بالظالمين) وعيد لهم على ظلمهم بترك الجهاد (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت) حال كونه (ملكا) ملكه عليكم (قالوا أنى) كيف ، أو من أين (يكون له الملك علينا) وليس من سبط الملك وهم أولاد [يهوذا] (ونحن أحق بالملك منه) لأننا من سبط الملك (ولم يؤت سعة

من المال) ليس له سعة المال لينفق على الجيش (قال) اشمويل (إن الله اصطفاه) اختاره بالملك (عليكم وزاده بسطة) فضيلة (في العلم) أى فى علم الحرب والسياسة (والجسم) الطول والقوة (والله يؤتى) يعطى (ملكه من يشاء) فى الدنيا (والله واسع) بالعطية (عليهم) بمن يصطفيه للملك ، هنالك طلبوا من نبيهم آية على اصطفاء الله إياه ، فأجابهم بأن التابرت يأتهم ، وهذا قوله تعالى (وقال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتكم التابوت) أى صندوق التوراة الذى كان موسى عليه السلام اذا قاتل العدو قدّمه فكانت تسكن نفوس بنى اسرائيل ولا يفرّون (فيه سكينه) سكون وطمأنينة (من ربكم وبقيّة) هى رضاء الألواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة ، وعمامة هرون عليهما السلام (مما ترك آل موسى وآل هرون) أى مما تركه موسى وهرون ، والآل مقحم لتفخيم شأنهما (تحملة) أى التابوت : أى تسوقه (الملائكة) اليكم ، وكان فى أرض جالوت الى أن ملك الله طالوت ، فأصابهم بلاء ، فتنشأوا من التابوت ، فوضعه على ثورين ، فساقتهما الملائكة الى طالوت (إن فى ذلك) فى ردّ التابوت (لآية) علامة (لكم) أن ملكه من الله (إن كنتم مؤمنين) مصدّقين ، فامار ردّ إليهم التابوت قبلوا (فلما فصل طالوت) خرج (بالجنود) من بلده إلى جهاد العدو (قال ان الله مبتليكم) مخبركم : أى يعاملكم معاملة المختبر (بنهر) وهونهر فلسطين (فمن شرب منه) من النهر (فليس مني) فليس معى على عدوى ، أو فليس من أتباعى (ومن لم يطعمه) لم يشرب منه (فانه مني إلا من اغترف غرفة بيده) هو مستثنى من قوله « فمن شرب منه فليس مني » (فشربوا منه) أى فكرعوا (إلا قليلا منهم) وهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا (فلما جاوزه) أى النهر (هو) أى طالوت (والذين آمنوا معه) أى القليل (قالوا لا طاقة لنا اليوم) أى قال الكثير لا قوة لنا (بجالوت) هو جبار من العمالة (وجنوده) لكثرتهم وقوتهم (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله) يوقنون بالشهادة وهم القليل (كم) أى كثير (من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) بحكمه وتيسيره (والله مع الصابرين) بالنصر والاثابة (ولما برزوا لجالوت وجنوده) أى ظهوروا لهم ودنوا منهم (قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا) على القتال (وثبت أقدامنا) بتقوية قلوبنا ، وإلقاء الرعب فى صدور عدونا (وانصرنا على القوم الكافرين) أعنا عليهم (فهزموهم) أى هزم طالوت والمؤمنون جالوت وجنوده (باذن الله) بقضائه (وقتل داود) النبى (جالوت) الكافر (وآتاه الله الملك) فى مشارق الأرض المقدسة ومغاربها (والحكمة) والنبوة (وعامه مما يشاء) من صنعة الدروع ومنطق الطير (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) كما دفع بداود شرّ جالوت عن بنى اسرائيل (لفسد الأرض) بأهلها . يقول : دفع الله بالنبيين عن المؤمنين شرّ أعدائهم ، وبالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد شرّ أعدائهم ، ولولا ذلك لفسدت الأرض (ولكن الله ذو فضل على العالمين) بزالة الفساد عنهم (تلك آيات الله) أى القصص التى اقتصها من حديث الألوف وامانتهم واحيائهم الى آخر ما تقدم من ذلك وغيره من أخبار الأمم الماضية حال كونها (تناوها عليك بالحق) باليقين الذى لا يشك فيه أهل الكتاب (وانك لمن المرسلين) حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب ، أو سماع من أصله . انتهى التفسير اللفظي .

ايضاح

هاهنا فرغ الله عز وجل من اصلاح الأمة فى أحوالها الداخلة ، وللأمة حالان : نظام فى داخلها ، ودفاع عن بيضتها ، وقتال عن حوزتها ، ولقد مضى ما يمنع الهرج فى البلاد والخرج بين العباد من الأصول الفقهية ، والأحكام الشرعية والآداب الاجتماعية ، وحفظ الأنساب ومنع العقول من سكرتها بخمرتها والأموال من ذهابها بضياعها ، فنع القمار ، وحرّمه وحول مجرى الأموال إلى ما يحفظ المروءة والشرف ويصون العرض

ويرضى الرب من بذله للإتي كسرت قلوبهم ، وشيكت أكيادهن بالفراق والطلاق ، وليتامى والأقربين والمساكين ، ووجه العقول المحفوظة من الغائلة المصونة من الترف لحسن العشرة مع الزوجات والمحافظة على الأنساب إبقاء للألفة بين الناس ، وتخليصا لهم من الأرجاس ، وبعثا لهمهم وتوجيها لمجموعهم إلى ما هو نافع وجيل .

فلما أن فرغ من ذلك شرع يحث الأمة على أن تدرا عن نفسها العاديات وتستنهض الهمم لرد الهجمات ومهاجمة الأعداء ، وقتال الظالمين .

تعدو الذئاب على من لا كلاب له * وتتي صولة المستأسد الحامى

وكأنه عز وجل يقول أيها الناس لا يصدّنكم التراحم الداخلى ولا التصادم والمعاملات عن التفكير فى جلال الله بالصلاة ولا يلهينكم مسائل الفقه كالنفقة والعدة ، وأحوال المنازل عن ملاحظة الأعداء فأصلحوا أمركم بينكم ثم اتوا صفا « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » وإذا كنتم فى الخوف ، فصلوا راجلين وراكبين ، أيقظ الأمة فى ثنايا أحكام العدة والمتعة ، ونحو ذلك بذكر الله ، وأدجج فيها حال الخوف . يقول أيها المسلمون إياكم أن تشاقلوا إلى الأرض ، وترضوا بحياة المساكين الأذلاء ، ولتكن منكم طائفة أعدت لجهاد العدو ، وترصد أحواله ، وترقب أطواره ، ثم ذكر الوصية لمن مات عنها زوجها ، ثم المتعة ، وطفق يشرح حال الذين تخلفوا عن الجهاد من الألوف ، وكيف أمانهم الله ، فلم يمنعهم الفرار من الموت ، وكيف غلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة بأذن الله .

وهنا نشرح لك القضيتين اللتين ذكرهما الله فى هذا المقام حضا على الجهاد على طريقة المحاورة والمساءلة ليكون أرسخ فى الذهن ، وأعون على الفهم ، وأقوم طريقا ، وأقوى قيدا ، سأل بعض الطلبة بمدرسة دارالعلوم وانرض لهم بحروف [س و ص و ع] ، قال س : من أولئك الألوف ، وما ديارهم وما قصصهم ، وما مناسبة هاته القصة للاحقتها ، وكيف أخرتاهنا ، وكيف كان قصص موسى عليه السلام ، ومنه وسلواه التى قدسيقت فى أول السورة ، وفى أى تاريخ ذلك ؟ .

اعلم أنه قيل ان قوما من بنى اسرائيل أمرهم ملكهم بقتال عدوهم فعسكروا ، ولكن لم يكونوا بالشجعان الجحاجيح ، ولا الصناديد القماقيم ، بل استحبوا الذلة مع الراحة ، واحتجوا بالوباء الخيم ، فى أصقاع العدو ، فخل بهم ما كانوا منه خائفين ، وأخذ الموت يرهقهم والهلاك يغشاهم حين فروا على وجوههم من الموت هاربين ، فدعا عليهم ملكهم ، فأتوا فى لحظة واحدة حتى أروحت أجسادهم فخطروا عليهم حظيرة دون السباع بعد ثمانية أيام ، فلذلك قال الله تعالى « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم » أى ألم تعلم يا محمد باعلامى إياك ، وهو تعجيب ، كما تقول ألم تر إلى صنيع فلان : أى هل رأيت مثل هؤلاء « وهم ألوف » زيادة عن عشرة آلاف « حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » ذلك أن بنى اسرائيل مكثوا فى مصر عشرات من السنين وأربعمائة ، ثم خرجوا إلى الشام ، وقام الشيوخ بأمرهم نحو أربعمائة سنة ، وكان أول قائم بعد موسى يوشع ثم كالب ثم حزقيل ، ويقال له ابن العجوز ، ويقال له ذوالكفل ، كفل سبعين نبيا كما يقال ، فلم يقتلوا ، وحزقيل هذا هو الذى دعا الله أن يحيى هؤلاء الموتى فحيوا ، وكان مع كل كاهن سبعون شيخا من شيوخ بنى اسرائيل هو رئيسهم ، ويقال ان حزقيل النبى نفسه هو الذى ندب قومه إلى الجهاد فسكرهوا وجنبوا فارسل الله عليهم الموت ، فلما كثر فيهم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت فلما رأى حزقيل ذلك دعا عليهم ، فقال : اللهم إله يعقوب وإله موسى ترى معصية عبادك فأرهم آية فى أنفسهم تدلهم على نفاذ قدرتك وأنهم لا يخرجون عن قبضتك فارسل الله عليهم الموت ، ثم انه عليه السلام ، ضاق

صدره بسبب موتهم فدعا مرة أخرى فأحياهم الله .

ولقد تضمنت القصة فرارا من الطاعون وفرارا من القتال ، وكلاهما محرّم فلا يدخلن البلد الموبوء داخل ولا يخرجن منها أحد ، وذلك كما فعل عمر وهو ذائب إلى الشام محارباً وأيد بالحديث النبوي ، فلما سمع ذلك كبر وكبر المسلمون ، وقال : فررنا من قضاء الله إلى قضاء الله ، ومنع الجيش أن يدخل الشام وهي موبوءة ، ولا يجوز للناس أن يدعوا القتال لئلا يموتوا كما مات بنو إسرائيل الذين جعلهم الله عبرة لنا ، وهذا هو المهم من سرد القصة وليست تقصيد لذاتها ، ولئن مات أولئك موت الأجسام لميوتن الجبناء في الحروب موتاً قهرياً بيد أعدائهم ، أو أديا باستئذلالهم وسقيهم كأس المذلة والهوان ، وما أتعس الحياة مع الهوان وما أشقى الأذلاء .

ولعمري إذا مات قوم عقوبة لهم على فرارهم فسكنم مات من أحم خاضعة شرادم وجوع طغي الأعداء عليهم بالبغي والعدوان ، واستنزلوهم بعد عزّ من مصائبهم ، وأودعوا سجن المذلة والصغار ، ذلك شأن الأمم الإسلامية بعد أن خضعت شوكتهم ، وسيموا الخسف وأوردوا موارد الحثف ، ثم قال الله « ان الله لنوفض على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون » إذ يرفع أمة بعد خفضها ، ويهزها بعد ذلها ، وينصرها بعد ضعفها ، ويرفع من أخلاقها بعد سقوطها ، ان في ذكر احياء الأمة بعد موتها لعلامة ظاهرة ، وبشارة باهرة انه لا يأس من روح الله ، فاذا ماتت أمة وحيت فما أخرى الأمم الإسلامية المائتة بالجهل أن تحيا بالعلم وهذا هو الفضل العظيم ، فليشكروا الله وليعملوا ، ولذلك أعقبه بقوله (وقاتلوا في سبيل الله ، واعلموا أن الله سميع عليم) وليس القتال اجتماع الصفوف ، وجمع الجنود ، ورفع البنود ، وقيام الشاهد والمشهود فحسب ، كلا بل ان المال قوامه ، وعماده وأسه و بنيانه ، وكيف يصنع السلاح من مدفع وآلات جهنمية الابلمال لذلك قال « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » فلا تبخلوا بالمال لئلا تبدل الحال .

س : أرجوان توضح هذا القصص الثاني ، ولم جاء مؤخراً عن الأول ؟

ج : اعلم أن قصص بني إسرائيل ، إذ كانوا في التيه ، وما حاولوا مع النبي موسى عليه السلام ، وما زاول هو معهم قد مضى في أول السورة ، وقصة أولئك الذين ماتوا حين فروا في غضون مدة الشيوخ السبعين في أربعمائة السنة بعد خروجهم من التيه ، ولما مات حزقيال الآنف الذكر صرت سنون والأمة الاسرائيلية في اضطراب والبلاد في اختلال فعظمت الأحداث فبهت الله اليهم الياس المذكور في سورة الصافات ، ومن بعده اليسع ، ثم اضطربت الأحوال فظهر عدو يقال له البلتانا وهم قوم جالوت سكان سواحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وهم العمالقة ، وضربوا عليهم الجزية ، ولم يبق اذذاك من بيت يتوسم فيه النبوة الامراة عجوز فولدت ولدا سموه اشموئيل ، وهو النبي ، فلما طغى جالوت والعمالقة ، قالوا لأشموئيل « ابعت لنا ملكا نقاتل في سبيل الله إلى قوله والله واسع عليم » هنا ابتداء عصر جديد وحياة أخرى لبني اسرائيل فانه بعد أن كانت حكاهم مجالس شورية تحكم أسباطهم القاطنين بالشام وغيرها ، وقد عجزت تلك الحكومة عن رد الظالمين والعمالقة الطاغين عليهم لجؤا إلى أن تكون الحكومة ملكية ليلتفوا حول راية ملكهم فابتدأ اذذاك عظمة ملكهم وضخامة مملكته ، وكان ما كان من أمر داود وسليمان وبناء بيت المقدس قرونا وقرونا حتى ظهر بختنصر عليهم فأجلاهم وضرب بيت المقدس وأسكنهم نواحي أصبهان ، وما والاها من البلدان وهناك قصص أستير الفاضلة المشهورة وقصص العزيز الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها وكيف حيت قريتهم بعد موتها وردهم إلى أوطانهم ملك فارسي حتى أجلاهم الروم الجاوة الكبرى .

ألا تعجب كيف جاء قصصهم في سورة البقرة مرتباً ترتيباً حقيقياً ، وكيف كان قصص موسى وقومه في أولها أيام انقلاب حالهم من استعباد إلى حرية ، ثم جاء قصص الفارين من الموت في غضون حكومة الأشياخ السبعين ، ثم كان نبأ طالوت وداود أيام الانقلاب ليبتدئوا دوراً فيه يسعدون وبه ينصرون وهو دور الملك والعز ، أليس ذلك ذكرى للنبي والمسلمين وإيقاظاً لهم ، انكم أيها العرب ستقلون من حال إلى حال وطبقاً عن طبق ، ذلك عجيب ثم كيف تراخي بعد ذلك مجيء قصص العزيز بعد آيات ، أفليس من المدهش أن تحوى سورة البقرة تاريخ الأسرائيليين نحو ألف وثمانمائة سنة مرتباً مفرقاً منظماً متراحياً ، وأنت لو ضمنتها لكانت تاريخاً متلاًماً ذلك من أعجب ما قرأت وأبدع ما فهمت ، ولقد تبين لي في هذا التفسير ما لم أكن لأعلمه من قبل .

أرشدت القصة إلى اصطفاء الملوك ومما صفاتهم . قال بنو اسرائيل : ان طالوت ليس من بيت لاوى بيت النبوة ومنه موسى وهارون ، ولا من بيت يهوذا بيت الملك ، ومنه داود وسليمان وهو من سبط بنيامين بن يعقوب فضلا عن كونه فقيراً ، ولا ملك إلا بالمال . فأجابهم بأن المال والنسب ليسا سبباً في الملك ، وإنما الصفات الشخصية من العلم والقوة البدنية والشجاعة هي المحور الذي عليه يدور رضى الملك على أن الله يؤتى ملكه من يشاء ويرفع ويخفض ويعز ويذل ، وهو واسع الفضل ، يعطى الفقير ما كان وما لا ، عليم بمن يليق بالملك من النسب وغيره ، هذه هي الداهية الدهماء ، والطامة العمياء التي أحاطت بالمسلمين ، فأوردتهم النكال ، وألزمهم الخسار فانهم أضلوا تحت رحمة البيوت المالكة في أكثر المعمورة ، فأولئك ان أحسنوا حسنت أحوال الأمة ، وان أساءوا ساءت ، فقطعت هذه الآية معاذير الأمم الجاهلة ، وحتمت أن يكون الملك تابعاً للعلم والقوة والشجاعة كما كانت حال طالوت . لقد عكف المسلمون على عبادة الأنساب فذلت الأعقاب ونهق في ديارهم اليوم والعقاب ، لقد عرف هذه الحقيقة الأمريكيون حتى ولو امرتهم عليهم خيوطاً ، والفرنسيون صانعاً لما رأوا من أخلاقهم وما عرفوا من آدابهم ، عرف الفرنسيون جهل المسلمين واستسكانتهم وأنهم يستخذون لنوى البيوتات والشرف فعملوا بنصيحة كتابهم والسياحين منهم ، ان المسلمين تحت رحمة قوادهم من الأشراف ، وكبار الأولياء كالكتاني وماء العينين والتيجاني وشريف مرا كش فأغدقوا على بعضهم النعم وغشوا على بعض العقول بالمال فمال لهم الشريف المراكشي من بيت الملك والتيجاني كما يقال وساقوا هذه الأمم إلى ساحات العذاب وباحات النكال واستخذوا للفناء واستكانوا للوبال ، ذلك أنهم عن الحكمة معرضون وبالعلم جاهلون .

أقول : اللهم انى أجذك على نعم لا أحصيها ، إن هذا الجزء يعاد طبعه الآن ، ولقد رأيت أهل هذه البلاد [مراكش] من أذكى أمم الاسلام عقولا ، وأشرفها نفوساً ، ولقد صادف هذا التفسير منهم أفئدة تهوى إليه وهذه الأمة سيكون لها مجد لا حد لمداه ، ولا عجب اذا كان الضغط يزدها ارتقاء ونورا ، فان النصارى لولا اصطهاره بالنار لم يصرحوا . وهاهنا سأل [ع] لقد طال بنا المقال فأتتم لنا قصص طالوت .

ج : قال اشمويل النبي ان علامة ملكه « أن يأتيكم التابوت » الصندوق « فيه » التوراة تسكنون اليها فهو « سكنة من ربكم » وفيه آثار موسى وهارون وآلهما من الأنبياء ، وذلك طمأنينة لكم لما فيه من آيات الله وآثار الانبياء كراض الألواح وعصا موسى ونحو ذلك .

كان ذلك التابوت عند العمالة فتشاءموا به لما أصابهم من جهد البلاء فوضعوه على عجلة يجرها ثوران وضربوها بالسوط فسعيا وهدتها الملائكة بالاطام حتى حصلا في ديار بني اسرائيل واذ ذاك خرج طالوت بالجنود وهم ثمانون ألفاً كما يقال ، وأخذ يبتليهم وينظر أتهم ممن ينقاد للعبادات أم هم أعفاء صلحاء .

لا جرم أن الأمم المنغمسة في الشهوات المترفة المنعمة أبعد عن النصر وأقرب للهلاك والذل وأحرص على الدرهم والدينار ، وأقرب إلى عذاب النار ، وقتل السيف البتار ، والمدفع والبارود ، وحصد الجنود ، واهلاك الديناميت .

شأن الأمم المترفة الاستخذاء للذلة فيرأونها ، ولن يكون فيهم ليوث خواد ولا شجعان ججاجيح ولا صناديد قواقيم فيستذلون للأعداء ويموتون بالداء .

ضرب الله مثل ذلك بما كان من طالوت لقومه عند نهر فلسطين إذ قال لهم لا تسرعوا الماء من النهر ولا تشربوا الا غرفة باليد فمن استكثر وشرب أكثر من الغرفة اسودت شفته وغلب عليه عطشه فن لم يذق الماء ، ومن شرب غرفة بيده بلغوا مئآت مختلفا في عددها ، فلما جاوز النهر هو والذين آمنوا معه ، وهم الذين لم يخالفوا قال المخالفون لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال أولئك الذين يظنون أنهم ملاقوا الله الخالص الذين لم يخالفوا « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » كما هو مشاهد في سائر الأمم أن النصر تابع للعز والشجاعة والقناعة والاجتهاد بالقليل ، وسألوا الله أن يصبر قلوبهم ويثبت أقدامهم ، ثم ينصرهم على القوم الكافرين .

وأمر طالوت أن يسأل [ايشا] في عسكره أن يأتي بولده داود فإنه هو الذي يقتل جالوت في علم الله فأحضره ، ووعدته طالوت أن يزوجه ابنته ، فلما قتله زوجه إياها بعد اللتي والتى ، ثم حسده على حب الناس له وأضمر قتله فلم يفلح وعرف خطيئته في هذا ، وفي مخالفة أوامر الله في الدواب التي غنمها من الفلسطينيين وهام على وجهه في الحال ، ثم أفاته اشموئيل إذا حضرت روحه عجوز ، فقال له اشمويل تقدم أنت وولدك العشرة لجهاد العدو وموتوا في سبيل الله ، فكان ذلك وملك داود ، وابتدأت اذذاك عظمة بني اسرائيل ، قال تعالى « وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » الآية ، واعلم أنه مامن أمة تسير على أثر داود في الصبر والقناعة والآداب الانصر قليلها على الكثير ، ألم تر الى البوير وهم قليل نصرهم الله على أمة كبيرة ذلك أنهم صبروا وقنعوا وكانوا يقرءون مزامير داود على أسماع أبنائهم وبناتهم صباح مساء ، هكذا أهل طرابلس صبروا وقنعوا فنصرهم الله مع قلة عددهم وعددهم ذلك من أعجب الأمور وقانون لن يبور انتهى .

ألم تركيف ضرب الله مثل ذلك بالابتلاء بالشرب من النهر هكذا شأن الكتاب الكريم يضرب الأمثال للناس والله بكل شيء عليم .

س : لم يزل في المثل غموض ، وما الفائدة الواضحة ، والحكمة الصريحة في ابتلائهم بالشرب من النهر وما فائدتنا من هذا القول ؟

ج : امتاز القران بضرب الأمثال للمعاني الغامضة ، والأمور الشريفة ، ولما كانت أخلاق الناس خافية وأحوالهم مستورة لم يمتاز الصابر من الجزع والشجاع من الجبان الا بالابتلاء ، وهل الصور الظاهرة ، والملابس المتقاربة دالة على بواطن الأمور وماغاب عن الجمهور ، فلا سبيل لادراك الخفايا الانسانية الا بالابتلاء والاستجلاء ، ولما كان النصر حليف الصابرين الأشاوس ، والصناديد القماقيم مزايلا للمتربين بعيدا عن المنغمسين في الشهوات العاكفين على اللذات ابتلاهم بمسألة جزئية ليدرك طالوت طباعهم الباطنية كأنه يقول لا تعتمد الاعلى الخالص الكاملين « لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » ولا جرم أن عشرين صابرين يغلبون مائتين ، والمائة يغلبون ألفا ، قد تبين في الأعصر الحاضرة ان هذا واقع ومشاهد ، وهذا ايدان من الله ألا تصدق امراً الا بعد تجربته ولا تعتمد عليه الا بعد اختباره ، ألا ترى الى ذلك الأعرابي الذي سبر اخوانه ليلتليهم أيهم أصدق مودة وأمتنهم صداقة فذبح شاة ودفنها بعد طبخها ، وتظاهر بأنه قتل فلانا ، وقال فهل لك أن تساعدني يا فلان فكلت تولى عنه معرضا ولوى عنه كشحا . وقال مالي بهذا يدان حتى عثر على ضالته المنشودة وطلبتة المحبوبة ، اذ قال أوسطهم فضلا وأقربهم زلفى : لا تخف فلا معقب لك وأنا النصير المبين ، ثم جرد سيفه وقتل غلام صاحبه ، لئلا يعلم الأمر غيرهما . فقال صاحبه لقد كنت أختبرك ، وقد عرفتك صديقا

وفيا واستخرجنا النبيحة من مدفنها فأكلها هنيئاً مريئاً ، هكذا مسألة الشرب من النهر ليمتاز الخبيث من الطيب في الجهاد ، والله يهدي إلى سبيل الرشاد .

ص : هل لك أن تذكر لنا بعض حكم داود عليه السلام .

ج : قال في المزامير لماذا تفتخر بالبشر أيها الجبار ؟ رحمة الله هي كل يوم ، لسانك يفتخر مفسد كوسى مسنونة يعمل بالغش ، أحببت الشر أكثر من الخير ، الكذب أكثر من التكلم بالصدق [سلاه] أحببت كل كلام مهلك ، ولسان غش أيضاً يهدمك الله إلى الأبد يخطفك ويقطعك من مسكنك ويستأصلك من أرض الأحياء [سلاه] فيرى الصديقون ويخافون وعليه يضحكون ، هون الإنسان الذي لم يجعل الله حصنه ، بل اتكل على كثرة غناه واغتر بفساده ، أما أنا فثقل زيتونة خضراء في بيت الله توكلت على رحمة الله إلى الدهر والأبد ، أجدك إلى الدهر لأنك فعلت وانتظر اسمك فانه صالح قدام أتقيائك .

وقال في المزمور الثالث والحسين : « قال الجاهل في قلبه ليس إله ، فسدوا ورجسوا رجاسة ليس من يعمل صلاحاً ، الله من السماء أشرف على بني البشر لينظر هل من فاهم طالب الله ، كلهم قد ارتدوا معاً فسدوا ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد » انتهى .

وفي المزمور الخامس والحسين : « ألق على الرب همك فهو يعولك ، لا يدع الصديق يتزعزع إلى الأبد » . وقال في الرابع والحسين : « اللهم باسمك خلصني وبقوتك احكم لي ، اسمع يا الله صلاتي اصغ إلى كلامي فني انتهى .

ص : نريد أن نرجع إلى الآيات .

(ج) قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » [تقريره أن تقول] إن الله عز وجل جعل الإنسان محتاجاً لغيره فلا يقدر على القيام بجميع شؤونه فلا بد من الجمعية العامة ، وكل لكل خادم ، هذا زارع ، وهذا حائك ، وهذا بناء ، وهذه الأنواع الثلاثة هي أصول الصناعات ، وأكثر الصناعات مقدّمات لهذه ، أو متممات لها كالنجارة والحدادة ، وهذا خباز . وهذا خياط . وهذا زجاج . وهذا مسير القطار ومجرى الكهرباء كما سيأتي بيانه عند ذكر الصناعات والعلوم الواجبة على الأمة الإسلامية في آخر هذه السورة عند قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وأن كل امرئ استعد لصناعة أو علم يجب على أهل الحل والعقد أن يأمروا الحكومات أن يخصصوه بها وأن العناية والحكمة الإلهية قد أوجدت لكل عمل قوماً بحسب استعدادهم ومتهيئه له فطرتهم فكأن الناس جميعاً جسم واحد ولما كان الأفراد يختصمون ، والجاعات يقتتلون ، والأمم تتحارب نصب الله في الأرض قضاة بين الأفراد والجاعات ، وجعل دولاً وممالك ليحكموا المجموع ، ويمنعوا المهاجرين عليهم والمعتدين ، فهذا قوله : [ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين] بفصل الخصومات واتحاد الجاعات وصدد الغارات .

وأما قوله [تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق] فالحق هنا أن تعتبر يا محمد أنت وأمتك بتلك الآيات والقصص ، فكما ابتلى بنو إسرائيل بالاعداء فقاتلوهم وجاء جالوت بجنوده ثم قام طالوت بجنوده بأمر نبيهم شموئيل ثم داود فنصرهم الله ، وغلب الحق على الباطل ، ونصر المؤمنين بعد ما تحملوا الشدائد ، هكذا سيكون أمرك وأمر قومك لأن هؤلاء مرسلون [وانك] أيضاً [لمن المرسلين] فلا بد من نصرتك كما نصرناهم ، ولقد احتمل الأنبياء شدائد ، وقاسوا الصعاب الكثيرة كوسى وعيسى وإبراهيم وداود ، فمنهم من كلم الله ، ومنهم من أيدته بروح القدس ، ومع ذلك لم يسلم أحد منهم من الشدائد والعقبات والعدوان ، فلتصبر يا محمد كما صبروا ، فلذلك أعقبه بقوله في :

(المقصد السادس عشر)

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ
وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ
بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا انْفِقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ *
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ
مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ
الْعَظِيمُ * لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ
بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

(والمقصد السابع عشر)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي
يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ
فَأَتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أَوْ كَالَّذِي مَرَّ
عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ
عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَأَنْظَرُ
إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظَرُ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظَرُ إِلَى الْعِظَامِ
كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَاثْمًا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

إيضاح (١)

يقول الله تعالى (تلك الرسل) الذين ذكروا في هذه السورة كداود وسليمان ، والذين لم يذكروا ليسوا في درجة واحدة بل هم درجات بعضها فوق بعض (منهم من كلم الله) كموسى على جبل الطور ومحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج (ورفع بعضهم) كأولى العزم (درجات) كإبراهيم وعيسى ونوح ، ثم خص عيسى بمزية قعساء وعزة شماء ، وفضيلة بيضاء ، من إتياء الآيات البينات ، وتأيدته بروح القدس ، تبيانا لليهود وقد حقروه ، وللنصارى وقد عبدوه ، وانزالا له في منزلة هو بها حقيق ، ومقام به يليق ذكر الأنبياء ومراتبهم ، والمقر بين وفضائلهم ، ثم أخذ يشرح أحوال الأمم التابعين فقال : ولو شاء الله ما اختلف التابعون ، لقد اختلف الأنبياء واختلفت الأمم في الطاعات ، كان الأنبياء مختلفين درجات في الزلفى لديه ، واختلف الناس في آرائهم ، فمنهم من كفر ، ومنهم من آمن بعد أن سمعوا الآيات البينات ، وشاهدوا المعجزات الواضحات ، بمشيئة الله اختلفوا ، وبعامه آمنوا وكفروا ، ثم كررها مرتين ، وعلقها بمشيئته كرتين ، فليس في العالم إلا مراده ، ولا معقب لما أوداه ، فهو الذي رتب الرسل مراتب ، وهو الذي حكم على الأتباع أن يكونوا شراذم .

هذا معنى الآيات الى قوله (ولكن الله يفعل ما يريد) . وهذا تسلية للنبي ﷺ ولسائر الناس على ما يصيبهم من حوادث الدهر . هذا ولقد أجمعت الأمة على أنه ﷺ أفضل الأنبياء وخاتمهم ، ولا حاجة إلى نقل أقوالهم وحججهم مادام الاجماع حاصل ، ولكن لنذكر حديثا واحدا ، ففي الصحيحين عن همام بن منبه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابنتي بيوتا فأحسنها وأجلها وأكملها ألا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البنيان فيقولون : ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بناؤك ؟ فقال محمد : كنت أنا تلك اللبنة »

وهذه الآيات جاءت للتوحيد والإيمان بالأنبياء ، ولما كان التوحيد لا قيام له بلا عمل ، والأمور المعنوية لا قيام لها إلا بالمادة ، وإيمان بلا زكاة روح بلا جسم ومعنى باللفظ ، وقول بلا عمل أعقبه بقوله (يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم) لا تقدرين فيه على تدارك ما فرطتم فلا بيع توفون به دينكم أو تفقدون بثمنه نفوسكم ، ولا أخلاء تفرعون اليهم ، ولا أصدقاء تستصرخونهم فيصرخونكم ، ولا شفعاء يشفعون لكم إلا من أذن الله لهم ، فأنفقوا الأموال في هذه الحياة قبل الفوات لاسيما عند القتال ، فلقد يطنى الأعداء عليكم فيغتالون أموالكم ، وينهبون متاعكم ، ويستعبدون أبناءكم . فأننا حكمنا على الناس بالقتال ، وحكمنا السيوف والنبال والديناميت ، وقلنا : لو أننا شئنا ما اقتتلوا ، فالمشيئة سابقة ، والحروب لاحقة ، فإذا أبت الأمة أن تصرف أموالها في المنافع العامة ، وترفع شؤون العامة ، فليوقنوا بضيايع كياناتهم ، وذهب استقلالهم ، وتمزق جامعتهم ، ودوسهم بالأقدام ، وطحنهم تحت رجلي الأذلال ، ووطء رقابهم ، وانتزاع عقارهم ، كأكثر الممالك الإسلامية اليوم ، فلا شفعاء لهم يشفعون ، ولا أخلاء لهم يواسون ، ولا مال لهم يبيعون .

(١) هذا الايضاح داخل فيه جميع التفسير اللفظي

ولقد قابلت شاباً من بلاد الجزائر عند تفسير هذه الآية . فقال : ضاعت أملاكنا ، وأفل نجمنا ، وانتزعت منا أرضنا ، وأصبح خمسة الملايين عبيدا خاضعين ، وصعاليك شحاذين ، فلا صدق لهم حليم ، ولا شفيع لهم مقيم ، ولا مال لنا به نفتدى من ذلك المعتدى ، فلو خص هذه الآيات شيئاً : توحيد وانفاق ، وهذا اجل سيوضح فيما يتلى من الآيات على لف ونشر بترتيب . أما التوحيد فقد أبرز له ثلاث مراتب عجيبة : ذلك أنه ابتداءً بآية الكرسي وما بعدها الى قوله « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وثنى بمحاجة ابراهيم والنمرود ، وثالث بقصص العزيز وحجاره ، وابعادهم وطيره . فأما الأول فهو تقديس لله وتعظيم ، ووصف لعظمته وجماله وحكمته ، وعجائب صنعه في أرضه وسمائه ، وهو بعصر الصحابة أليق ، وبالصدر الأول أنسب . وقد ظهرت الدولة العربية ، وفتحت الأمم الغربية والشرقية ، إذ كان إيمانهم نقياً من الجدل ، بعيداً عن الخصام والشقاق . والثاني شبيه بما حدث في الدولة من الجدل في التوحيد وتفرق الكلمة في علم الكلام كالمعتزلة وأهل السنة والشيعة . والثالث أنسب بمستقبل الأمة المجيد ، إذ ينظرون في خلق العالم العجيب كما أمر العزيز أن ينظر لحجاره ، ويتدبر في تصوير لجه وعظامه وكبدته وكلاه وحلقومه وسائر قواه ، وكما أمر الخليل عليه السلام أن يتبين الطير وقد فرقها ، ودقائق أجزائها وقد جمعها ، فاطمأن قلبه لما رآه من عجائب صنع الله . هذه أحوال الاسلام في المستقبل القريب ، والله ليخرجن فيهم فلاسفة عظام وحكماء كبار . ذلك أنهم سيرثون العلم عن سائر الأمم ، إذ يعلمون أن التشريح أهم علوم التوحيد كما نظر العزيز في عظام حجاره ولجه الكاسي وسيحللون العناصر السماوية كما حلل أمامه الطير في البرية . فهذه العلوم أصل العلوم الدينية ، بل أشرف علوم التوحيد ، وأرقى وأدق علوم الدين .

لقد جهل أكثر المسلمين هذه الحقائق . وعما قريب سيعلمون . ولتعالق نبأ ارتقائهم بعد حين . هذا ملخص ما سذكركه من مقاصد التوحيد الثلاث ومراتبه المنظمة المرتبة ترتيب أزمان الأمة الاسلامية من أزمان النبوة الى آخر الزمان ، ولا يعلم إلا الله مداها ، ولكن هذا ما وصل اليه علمنا ، واستقر عليه فهمنا . إن تاريخ الماضي سيقف الآن وقفةً وينتدئ دور العلم من الآن . إني بهذا موقن أيما يقان كالمشاهد بالعيان فأما الانفاق وايضاحه فسريك ضرب أمثاله بالحبة والسنبلة والحجر والتراب والجنة والأعقاب فافهم وتعجب من الترتيب ، وكيف ابتداءً بمراتب الرسل ، وجعل ذكرهم عنوان التوحيد ، ثم ثنى بالأمم واختلافهم ، وجعلهم مناط القتال ، وأصحاب الميدان والنضال ، وطلب انفاق المال ، لاصلاح داخل البلاد وخارجها ، ثم رجع إلى التوحيد فأبانه أيما تبيان ، وإلى الانفاق فأوضحه أيما ايضاح ، وفصله تفصيلاً ، وأكثر من الأمثال ، وأخذ يفصل أنواع المعاملات في الأموال . عجيب هذا النظام ، وبديع هذا الاتقان . ولنفضل ما أجبنا فنقول :

المرتبة الأولى

قوله تعالى : الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم

ورد في فضل هذه الآية أحاديث كثيرة كقوله ﷺ لأبي المنذر : أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قلت : الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، فضرب في صدري وقال : ليهنك العلم يا أبا المنذر . وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لكل شيء سنام وإن سنام القرآن البقرة ، وفيها آية هي سيدة أي القرآن : آية الكرسي .

تأمل في هذا القول ، وكيف فضلها على غيرها ، وميزها على أترابها ؟ فاعلم أن القرآن فيه قصص وأحكام وأمثال ووعظ ، ووعد ووعيد ، وإنذار وتبشير . وهذه السورة خاصة فيها ذكر المنافقين والكافرين ، وهنات بني إسرائيل ، وفظائع ما ارتكبوه ، وذمهم ، وإنذارهم ، ووعيدهم ، وتبصيتهم ، وذكر أمر القبلة والحج والصلاة والصيام والخمر والحيف والطلاق والجهاد والايلاء والحنف وما أشبه ذلك ، وكل ذلك يرجع الى تهذيب النفوس تارة بالنم للمخالفين ، وطورا بأدب المعاشرة مع الأزواج ، والآداب في معاملتهم ، وآونة بالتكاليف من الحج والصيام والصلاة والصبر ، وذلك كله يرجع لأمر نفوسنا وتهذيبها وتخليها عن الرذائل بالمواظب والصبر والمشاق ، وتهذيب النفس مقدمة لتحقيق العلم ، والعلم هو الكمال ، والمقام الأوفى ، والذروة العليا ، والسنام والمجد والشرف الأعلى ، وأشرف العلوم ما كان لأشرف المعلومات ، وأشرف المعلومات (الله) جل جلاله وأنه واحد لا شريك له (لا إله إلا هو) وهو (الحى) لم يزل بالحياة موصوفا لم تحدث له الحياة بعد موت ولا يعتريه الموت بعد حياة (القيوم) القائم بتدبير خلقه في إيجادهم وأرزاقهم وجميع ما هم في حاجة إليه (لاتأخذه سنة ولا نوم) فالسنة أول النوم والنوم غشية ثقيلة تقع على القلب ، والمعنى لاتأخذه سنة فضلا عن النوم ، لما اتصف سبحانه وتعالى بالوحدانية والحياة ، وأنه قائم بتدبير كل شيء على الارتقاء في الوصف من توحده وانفراده وحياته وقيوميته على كل شيء بالتدبير كان لا محالة يرد على النفس وارد فيقول : كم من حى قائم بتدبير ما يملك يعتريه النوم فينام ، فقال : « لاتأخذه سنة ولا نوم » واعلم أن هذه الصفة خارجة عما اعتاده البشر من اضطرابهم للراحة بعد العمل ، والنوم بعد اليقظة ، لتستكمل الأعضاء قوتها ، ولتأخذ الأعصاب حظها من السكون حتى تقوم بعملها على وجه يليق بها ، ولقد كان ذلك محتاجا الى التفسير عند الجهلاء وافهامهم بما يعلمونه من نفوسهم :

[روى] الطبرى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله : « لاتأخذه سنة ولا نوم » أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل الملائكة : هل ينام الله ؟ فأوحى الله تعالى الى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ففعلوا ، ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرها ، فجعل ينعس وينتبه وهما في يديه في كل يد واحدة حتى نعس نعسة فضرب إحداهما بالأخرى فكسرها .

قال معمر : إنما هو مثل ضربه الله تعالى له ، يقول : فكذلك السموات والأرض ، ولا تظن أن سيدنا موسى كان يجهل ذلك ، وإنما ذلك من الله تعليم لقومه حتى يعرفوه بما يخالف ما اعتادوه من النوم ، وأنه لو نام أونعس الانسان لانكسر ما في يده من القوارير .

هذا المثل يعقله العامة والعلماء ، وهو حسن للجميع ، ولكن العلماء يتفردون بعلم ويختصون بحكمة ، ألا ترى أنهم ينظرون الكواكب طالعة غاربة ، والشموس مشرقة آفلة ، والأقمار ظاهرة خافية ، جارية بالليل والنهار فوق الأفق وتحت الأفق ، والرياح تجري بالليل والنهار ، وكذلك السحب والأنهار . وترى النبات والحيوان ينمون بالليل والنهار فلا ينفقان في نمؤهما بنوم ، فانك اذا رأيت شجرة الورد وقد صارت طول ذراع في أول شهر و بعد مضي أسبوع وجدتھا أطول بمقدار ثمن قيراط فاذ اتقول ؟ أتقول : ان نمؤھا كان بالنهار أما بالليل فلا . كلا . بل النمؤ في سائر الأوقات لكل وقت قسط منه ، وأوقات النوم عندنا أوقات يقظة عند قوم آخرين كأهل [استراليا] ولا يزال في العالم نوم ويقظة في سائر الأحوال وليل ونهار ، بل اذا كنت قارئا ما أسلفنا من علم الفلك ظهر لك أن كل ساعة تمر عليك فجر عند قوم وصباح عند قوم وضحي عند آخرين وظهر وعصر ومغرب وعشاء ونصف ليل وهكذا [ليس عند ربك صباح ومساء]

هذه تفصيل حال العالم المشاهد الذى نحن فيه ، فالقارورتان اللتان أوحى الله بهما الى موسى هما السموات

والأرض ، أو الأرض والشمس ، وهما اثنتان دائماً أبداً ، فلأن الله تأخذ سنة أونوم لاصطكت السموات والأرض ببعضهما ، أو لاصطكت الشمس مع الأرض ، أومع كوكب من الكواكب فاختل النظام ، وإنما اختار القارورتين لأنهما أقرب تمثيل إلى الكواكب [ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حايماً غفوراً]

إذا عرفت ما قررت لك فهت كيف أعقب الله ذلك بقوله : (له مافى السموات ومافى الأرض) فتعجب كيف أعقب نفي السنة والنوم بأنه له مافى السموات ومافى الأرض كما بيناه لك فتأمل ، واستغنى عن الاستدلال فى القرآن بقارورتى موسى بالمقصود من الذى شرحناه ، وكأن هذه الأمة يراد أن تكون أعلم الأمم والأفلام إذا يقول الله لموسى أمسك بالقارورتين ، ويقول لأمة محمد : له مافى السموات ومافى الأرض ، وهذا لا يعقله ولا يعرفه حق معرفته إلا أصحاب الفكر الثاقب ، ولما كان الناس الذين لهم سلطان فى الأرض كالمملوك أو من يجرى مجراهم قد يرضون بشفاعة من يشفعون عندهم ، وذلك كأنه تنزل عن الرئاسة والعظمة والسلطان ، وكان الكفار يقولون : ان الأصنام تشفع لهم عند الله أعقبه بقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) أى لا يشفع عنده أحد إلا بأمره كما ذكرنا فيما تقدم أول السورة من شفاعة الأنبياء والعلماء والشهداء فارجع اليه ، وقد اخترنا أن تكون الشفاعة على وجه لا يخل بالمقصود من الدين وهو الجِدَّ والعمل ، ونبذ التواكل والغفلة والكسل ، ومن تعدى ذلك فقد أضاع أمته ودينه ، وأذهب المقصود من نبوة سيد العالمين (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) ما بعدهم وما قبلهم (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) علمه أى معلوماته ، وإذا لم يحيطوا بمعلوماته فهو منفرد بالعلم كما انفرد بالألوهية (وسع كرسيه) ملكه وسلطانه وقدرته وأوعامه (السموات والأرض ولا يؤده) يثقله ويشق عليه (حفظهما) أى حفظ السموات والأرض (وهو العلى) الرفيع فوق خلقه الذى ليس فوقه شيء فيما يجب أن يوصف به من معانى الجلال والكمال (العظيم) ذو العظمة والكبرياء : أى لاشيء أعظم منه . واعلم أن الكرسي فى لغة العرب اسم لما يقعد عليه ، مأخوذ فى معناه من تركيب الشيء بعضه على بعض ومنه الكراسية لتركب بعض أوراقها على بعض ، وهذا الكرسي ركبت خشبته بعضها على بعض ، ويقول بعض العلماء : ان الكرسي هو نفس العرش ، وهو السرير الذى يجلس عليه ، وقال آخر : الكرسي غير العرش ، وهو أمانه ، وهو فوق السموات السبع ودون العرش .

واعلم كما قال القفال : أن المقصود من هذا الكلام تصوير عظمة الله تعالى وكبريائه ، فقد خاطب الله الخلق فى تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه فى ملوكهم وعظمائهم ، من ذلك أنه جعل الكعبة بيتاً له يطوف الناس به كما يطوفون بيوت ملوكهم ، وأمر الناس بزيارته كما يزور الناس بيوت ملوكهم ، وذكر فى الحجر الأسود أنه يمين الله فى أرضه ، ثم جعله موضعاً للتقيل كما يقبل الناس أيدي ملوكهم ، وكذلك ما ذكر فى محاسبة الناس يوم القيامة من حضور الملائكة والنبيين والشهداء ، ووضع الموازين ، فعلى هذا القياس أثبت لنفسه عرشاً . فقال « الرحمن على العرش استوى » ثم وصف عرشه . فقال « وكان عرشه على الماء » ثم قال « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمدهم » وقال « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وقال « الذين يحملون العرش » ، ثم أثبت لنفسه كرسيه ، فقال « وسع كرسيه السموات والأرض » إذا عرفت هذا فكل ما جاء من الألفاظ الموهمة للتشبيه فى العرش والكرسي قد ورد مثلها بل أقوى منها فى الكعبة والطواف وتقيل الحجر ، فإذا قلنا : ان المقصود معرفة عظمة الله وكبريائه مع القطع بأنه منزّه عن أن يكون فى الكعبة ، فكذا الكلام فى العرش والكرسي ، هذا ملخص كلام القفال ، ثم ان هذه الآية دلت على أن الله موجود واحد حى واجب الوجود لذاته قائم بنفسه مقيم لغيره لا يعتريه النقص والفقر مالك الملك فى

العلمين ذوالبطش الشديد والقهر والعظمة لا يشفع عنده الا من صدر له اذن منه يعلم الجليل والقليل ، واسع الملك والقدرة وقوله (ولا يؤده) أى لا يثقله متعال عما تدركه الأفهام وتتخيله الاوهام ، عظيم لا تحيط به العقول ، ولا تدركه الأبصار ، هذه آية الكرسي ، أفلاتذكر ما قاله ﷺ لأبى المنذر وقد ضرب به في صدره [ليهنك العلم] كأنه صلى الله عليه وسلم ، يقول : يا أبا المنذر اهنا بالعلم مشيرا بالضربة الى أن قلبه امتلاء نور بالعلم ، وكيف يكون ذلك والقرآن كله علم فلم خص آية الكرسي ؟ فاعلم أن جواب هذا السؤال واضح مما قررت لك هناك من أن المقصود من القرآن هو العلم ، وأهم العلم ذات الله وصفاته وأفعاله ، فهذه الآية ذكرت صفاته سبحانه وتعالى ، فأما ما عداها من أكثر الآيات ، فلم تعد الانذار ، والتبشير ، والحج ، والصلاة ، والزكاة ، وتهذيب النفوس والأخلاق ، ولعمرك ان هذه العلوم كالفقه ، وعلم القصص ، والاخبار كل ذلك مقدمات لتحلية النفس بالعلم ليكون زينة للنفس ورقيا للمدنية وسعادة للأمة وفهرا مينا .

بذور القرآن

ولعلك تقول : أين سعادة الأمم في معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله ، ونحن نرى أننا نعرف ذلك ، ونحن في أخريات الأمم ؟ أقول : على رسالك لأن عرفنا ذات الله بالتقديس والتنزيه ، وعرفنا صفاته بالكمال والجمال وأفعاله بالنظام والميزان لنكونن أرقى الأمم ، ولأوضح لك ذلك .

فأقول : لقد بذر الله في قلوب العباد من المسلمين في مساجدهم وصلواتهم أن يقرءوا آية الكرسي ، وآمن الرسول « والم الله لا إله إلا هو الحى القيوم » الآيات ، وقوله [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة] الآيات ، وقوله [قل اللهم مالك الملك] الآيات ، وقوله [سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم] الآيات ، وقوله [هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة] الآيات ، أليست هذه الآيات يقرؤها المسلمون صباحا ومساء عقب صلواتهم ، لما جاء فى فضلها ، فقل لى : رعاك الله لم يقرءوا آيات غيرها ، ولم يقرءوا مثل [تبى بدا أبى لى] ، أو نحو قوله تعالى [وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله] ولماذا تكرر هذه الآيات ، واختارها الصالحون والصوفية لتلاميذهم وأوصوهم بها ؟ ان ذلك لعمرك لى سر قد آن انكشافه ولعلم هذا وقت ظهوره ، ان أولئك الاساتذة كانت تشرح صدورهم لذلك التلقين ، ويعلمون التلاميذ ذلك الا كسير ليفتح الله عليهم بالقبول والوصول من طريق التقوى وتصفية الباطن ، ولكن الأمر عظيم ، ان ذلك أشبه بما كان عند قدماء المصريين من العلوم المظمورة ، والآثار المخبوءة ، والرموز المكتومة ، حتى جاء علماء الآثار فحلوا معمياتها ، ووقفوا على بعض جزئياتها ، وهكذا ترى علماء الاسلام اليوم يبحثون فى أسرار القرآن فلا تلقى عليك قلام من كثر ، وقطرة من بحر الأسرار فى الدين .

فأقول : لقد استبان لك أن صفات الله ظهر بعضها فى آية الكرسي ، وترى الآيات الأخرى كذلك ، فقوله « الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم » وصف لله ، ولكن أعقب هذه الصفات بذكر الأفعال . فقال « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » بعد قوله « إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » أو ليس ذلك يدعو الى علم التشريح ، وعلم الكيمياء ، وكيف لا يدعو لذلك ، وهو يقول [يصوركم فى الأرحام كيف يشاء] أليس هذا يدعو الى علم الحياة المخترع حديثا الذى يبحث فى حياة الانسان ، والحيوان ، والنبات أو ليس الجنين فى الرحم مكونا من الدم الناجم من خلاصة الغذاء ؟ وبالتفاعل الكيمائى كوّنت هذه الأعضاء أو ليس هذا العلم يشمل الحيوان والنبات ؟ ننظر نظرة أخرى فى قوله [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم] أو ليس قوله [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط] يدعو الى سائر العلوم ، فان القيام بالقسط هو نفس النظام : أى نظام الفلك ،

ونظام الطبيعة .

وقد قال علماءنا لا يعرف معنى القيام بالقسط الامن درس سائر العلوم ، كما قالوا في قوله تعالى [ووضع الميزان] في سورة الرحمن ، ان هذا الميزان لا يعقله الا الذي درس كل علم كالطبيعة والفلك والكيمياء ، فان الذرات في التفاعل الكيماوى لها حساب دقيق لا خطأ فيه ولا خلل ، كما ترى في تركيب الماء من الاكسوجين والودروجين ، وان نسبة وزن الاوكسوجين الى الودروجين معلومة لا تتغير ، وهكذا نسبة حجم الأول الى الثانى ثابتة ، وهذا أمر لا يستثنى منه شئ في العالم ، كما قال تعالى [ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين] والله لقد قرأنا بعض صفحات هذا الكتاب في الطبيعة فأيقنا بنظام جليل بديع وتحققنا وألفينا حساب الله لم يذر ذرة الاحسبها ولا أصغر منها إلا كتبها وأودعها في الطبيعة وألقاها الى الناس أجمعين . وقال للمسلمين هذه علومكم فادرسوها جعلتها في القرآن لتحفظوها ويتعبد بها الصالحون ويدرس بها ماصنعت وما نظمت العلماء المفكررون والحكماء المحققون ، فان رضيتم بقشور القراآت ، ووقفتم عند حد التلاوات فانكم يا عبادى في عداد الأموات ، وان فسركتم في مصنوعاتى ، ودرستم مخلوقاتى ، وعرفتم موازينى ، وأيقنتم بقسطاسى ، فانكم بذلك تحيون وترفعون رءوسكم بين الأمم ، وهل يقر لكم قرار ، أو يكون لكم اضطبار ، وأنا أنعشت الأمم حولكم فحاسوا خلال دياركم ، وأنتم عن الحكمة نائمون ، وعن التبصرة معرضون ، أولم تتفكروا في آية [قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير . توجّل الليل في النهار وتوجّل النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي] الآية .

أولست هذه الآية المقرّوة عقب الصلوات المختارة فيما اختاره الاسانذة الأخيار دالة على أن الملك ينقل من قوم إلى قوم ، وأنه لكل أمة يوم ، وأنا الذى أصطفى من عبادى للغلبة من أشاء كما زاد النهار نارة والليل أخرى بحساب ، وكما أخرج الحي من الميت ، وأخرج الميت من الحي ، أليس ذلك يدعو لدراسة الأفلاك والكوكب ، وعلم الحيوان ، أولست هذه أفعالى ، أولست صفاتى في آية الكرسي لا يظهر لكم آثارها الا بأفعالى ؟ فهأى ذه أفعالى ، وإذا نزل القرآن ، وقرأتموه وكررت تلك الآيات التى هى من أهم العلوم ، أفليس فيكم رجل رشيد ؟ ألم يقيم منكم قائمون يذكرونكم أن تلك التلاوات التى سيق للعبادات يتبعها العلم والتفكير ، أفلم يكن من رحمتى لكم أنى أهملت أسلافكم حفظ آيات صفاتى وأفعالى لتكون ذخيرة لكم لعلمكم تعقلون ، أولم تقرءوا ما كتبه العالم الهندى في كتاب كليله ودمنة من الحكايات الخرافية ، وأنه قيل في أول ذلك الكتاب : ان الحكايات تكون تسلية للجهال وغراما للأطفال ، ولكنها حكمة للحكماء وعلم للملوك وسياسات للقواد العظماء ، فهل ترون ذلك في كتاب أحد عبيدى ولا ترونه في كتابى الحق ، كتابى يتعبد به العباد ويدرسه الحكماء .

أقول هذا هو السر في اختيار هذه الآيات وهى بذور للحكماء والعلماء ومتى شاع هذا القول بين علماء الأمة ظهر سرّ قوله « ليظهره على الدين كله » وسرّ قوله « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

هذا هو أوان اليوم الموعود للأمة الاسلامية ، هذا هو السر المصنوع والجوهر المكنون ، والجمال والنور المحتجب في القرآن الذى أبرزه تألب الأمم الغربية على المسلمين ، فليقرءوا كل علم وليعرفوا كل فن ، بهذا أمر الله في الكتاب ، والله يهتدى من يشاء الى صراط مستقيم . هذا وليرجع الى الكلام الى ما بعد آية الكرسي

فتقول :

قال تعالى (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) أى تميز الايمان من الكفر بما ظهر من الآيات الواضحات أن الايمان سعادة ، وأن الكفر شقاء (فن يكفر بالطاغوت) بالشيطان أو الأصنام أو كل ما عبد من دون الله (ويؤمن بالله) بالتوحيد وتصديق الرسل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) طلب الامساك بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق . وهذا مستعار للتمسك بالحق من النظر الصحيح والرأى القويم (لا انفصام لها) لا انقطاع لها (والله سميع عليم . الله ولىّ الذين آمنوا) محبهم أو متولى أمرهم (يخرجهم) بما منحهم من التوفيق والهداية (من الظلمات الى النور) أى الهدى والايمان (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) المضلات من الشيطان والهوى والأصحاب وغيرهم (يخرجونهم من النور الى الظلمات) من نور الفطرة (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

المرتبة الثانية في التوحيد

وهى قوله تعالى : (ألم تر الى الذى حاج ابراهيم في ربه ، الى قوله : والله لا يهدى القوم الظالمين)

يقول : هل انتهى الى علمك يا محمد خبر الذى خاصم ابراهيم في ربه وجادله ؟ وهو نمرود ، فقال أنا أحى بالعفو وأميت بالقتل . فقال له ابراهيم : فهل تقدر على تغيير الأفلاك وقلب نظام الشمس في سيرها فصار الذى كفر مهزوتا وانتهى من المجادلة مقهورا . وهل يهتدى الظالمون الى الحجة البليغة والعقيدة السهلة السمحاء .

ثم أتبعه بالمرتبة الثالثة : ونظمها في سلكها ، ورتبها بعد تمامها ، فقال (أو كالذى مرّ على قرية) والكاف صلة كأنه يقول : ألم تر الى الذى حاج ، الى الذى مرّ على قرية ، وهو أرمياة أوعزير ، والقرية امايت المقدس أو إيلياء ، وقد كانت حاوية ساقطة حيطانها (على عروشها) سقوفها (قال) ذلك النبي استعظاما لأمر الله واعترافا بالقصور عن ادراك طريق الاحياء ، كيف يحيى هذه الله بعد موتها ، وقد كان من قبل ذلك سطا على بنى اسرائيل يختصر في جمع عظيم ، فأنزل بهم العذاب ، وأجلاهم الى بلاد العراق وفارس ، فلما أن هلك أمر بعض ملوك الفرس بارجاعهم الى بيت المقدس وتعميره وتعمير ايلياء ، فلما أن قال ذلك النبي ما قال ، وقد شاهدها خرابا بلقعا ووحوشا يبابا ، وقد كان معه عصير عنب في ركوة وسلّة تين . وهو على جاره فبات لساغته ضحوة وحي بعد مائة سنة . وقد عمّرت القرية على رأس السبعين . ونمت وزكت في ثلاثين ، هذا معنى قوله (فأما الله مائة عام ، ثم بعثه قال) له الملك (كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك) التين (وشرابك) العصير (لم يتسنه) يتغير (وانظر الى جارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها) نحياها أو نرفعها (ثم نكسوها لحما) .

تلك الحادثة كانت أيام سقوط الدولة اليهودية ، ذلك أنهم كانوا في مصر نحو أربع مائة عام ومكثوا في حكم الشيوخ السبعين والسكاكن نحو من ذلك حتى كان ما كان من أمر طالوت وشموئيل وداود وسليمان فظهرت دولتهم واستفحل ملكهم ، ونفذت شوكتهم حتى ملكوا الفرات وأطراف اليمن وبعض جهات الروم ، وجاوروا ملوك الفرس ، وذلك في نحو ستمائة سنة ، وكانوا في تاريخهم أشبه بالعرب في سيرهم فانهم لما وصلوا في الفتوحات لمجاورة التتر أزالوا دولتهم في القرن السادس ، فهكذا هؤلاء لما ملكوا الأرض المقدسة حاربهم الفلسطينيين ، وهم العماليق ، وقلبوا جمهوريتهم الى ملكية ، ثم أخذ ملكهم يزداد وعظمتهم تمتد وطودهم يشمخ ، وأوتادهم تثبت ، حتى جاوزوا الفرات ، والجزيرة ، فانقضّ عليهم جيرانهم ، فأذاقوهم سوء

العذاب ، ذلك تاريخهم فبدأ ساطانهم في أول السورة عند ذكر موسى .
 وقلب الجمهورية الى ملكية في قصص شموئيل وطالوت وداود ، وسقوط مجدهم ، وهبوط نجمهم ، وأفول
 سعدهم أيام العزيز ، اذقرأ لهم التوراة عن ظهر قلب .
 ثم كانت خاتمة أمرهم أن اجلاهم الروم ، ذلك أنهم أي الروم قد غلبوا اليونان الذين غلبوا الفرس ، فانه
 لما تولى اليونانيون على ملك فارس بقائدهم اسكندر ، ورثوا ملكهم ، ومنه بيت المقدس ، ثم لما غلبت الروم
 اليونان ضموا اليهود اليهم ، وأجلاهم الجاوة الكبرى ، ونقلوهم الى رومة ، وما والاها من البلدان وفي أيامهم
 أرسل المسيح عليه السلام .

فاجب لترتيب هذه القصص على مقتضى الزمان ، وترتيبها كترتيب التاريخ ، وأهم منه ما أشرنا لك من
 قبل عماد الأمر وقصاراه التأمل في حكمة الله ، وانظر كيف يقول تعالى : وانظر الى جارك وانظر الى العظام
 كيف ننشزها اسخ فأمره بالنظر في جسم الجار صرتين . وقال ارجع البصر كرتين ، أوجب علم البيطرة لبيطرة
 الدواب والتشريح لمعرفة الأجسام للانسان والحيوان ، ثم ذكر معها جملة من العلم في نظمها ونظامها في سلكها
 فجعلها درتين في تاج الحكمة والعلم ، ومصرعين لبيت الاسلام فقال (واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحي
 الموتى) الى قوله (عزيز حكيم) لما حاج نمرود ابراهيم ، وقال له أنا أحيى وأميت وعفا وقتل بعد قول
 ابراهيم الله يحيى برد الروح الى البدن انتقل ابراهيم الى ما تقدم ذكره ، ثم سأل الله المعايضة ، وذلك قوله
 تعالى (واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحي الموتى) الآية ، يقول ابراهيم رب أرني كيف تحي الموتى ليصير
 علمي عيانا (قال) الله له (أولم تؤمن) بأحيائي الموتى (قال) ابراهيم له (بلى) آمنت ولكن سألت ذلك
 لأزيد بصيرة وسكون قلب بضم العيان والمشاهدة للوحى والاستدلال (قال) الله له (نخذ أربعة من الطير)
 طاووسا وديكا وغرابا وحمامة (فصرهن اليك) أملهن اليك ، من صاره يصيره ويصوره ، وقرى صرهن
 بالضم والكسر : أى اجمعهن (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) أى جزئهن ، وفرق أجزاءهن على
 الجبال التي بحضرتك ، وهى أربعة (ثم ادعهن) قل لهن تعالين (يأتينك سعيا) ساعيات مسرعات
 طيرانا أو مشيا (واعلم أن الله عزيز حكيم) فهو بالعزة غالب وبالحكمة منظم ومنتقن .
 اياك أن يلج في صدرك أن مثل هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم بعد قصص العزيز وجاره
 لنسمع قصصا قضى وتاريخا خلا من غير أن نعتبر ونذكر ونفكر .

يقول الله : انظر الى جارك ، ثم يقول : انظر الى عظامه كيف ننشزها ، ثم نكسوها لحاء ، ولاجرم أن
 ذلك يدعو حثيثا لعلم التشريح ويتلوه الطب ، ولن يقوم للطب أساس ولا للتشريح قائمة إلا إذا درست العلوم الطبيعية
 من النبات والحيوان وفصائلها وأنواعها وأجناسها وأشكالها وبذورها وغير ذلك .

وتعجب كيف طلب الخليل من ربه أنه يريه احياء الموتى عيانا بعد التصديق بالاستدلال والوحى تعلما
 للأمة الاسلامية أن يبحثوا وتهييجا لهم أن يتذكروا ، بالله من ذابنسكر احياء الله للموتى من عجائز المسامين
 والنصارى واليهود ، ومن ذا الذى يخلج في قلبه أو يهيجس في نفسه منهم أن يقول ان الله لا يحيى الموتى فضلا
 عن القراء والعلماء والأنبياء ، فكيف يكون حال ابراهيم صلى الله عليه وسلم .

لاجرم أن الأمر فوق ما يظنه أغرار الناس وأن الايمان والسعادة وارتقاء العقول البشرية التي تتبع ارتقاء
 الأمم الانسانية يعوزها دراسة الأشياء المحيطة وعجائب تركيب الأجسام ونظام الحيوان وكيف يكون التحليل
 وكيف يكون التركيب .

وأنت اذاوقفت على بدائع تركيب المخاوقات الحية وغير الحية اعتراك الدهش وأخذتك الحيرة وغشيتك غواشى

العجب والبهر وأذهلتك أيما اذهال ولارك طرفا من علم الكيمياء لتدرك سرا من أسرارها وحكمة من علمها وقطرة من بحرها لتعجب من هذا الوجود وتدرك ما كان يرتضيه الخليل وبما إذا أراد الله بهذا القصص وما شأن الطيور وتمزيقها وتوزيعها على الجبال وسعيها طائرات ، وما شأن الجار وعظامه ولماذا أمر العزيز ، بالتأمل في انشاز عظامه أي أحيائها وبتحريك بعضها وضمه الى بعض وأنه يكسوه بالبحر فأقول :

ان في علم الكيمياء كلمين هما المزج والاتحاد فلو أنك مزجت عشرة جرامات من الفحم بعشرة من مسحوق الكبريت كان الحاصل منهما حافظا لخواصه الأصلية حتى اتناو نظرنا الى هذا الممزوج بمنظار اشاهدنا أجزاء سوداء لا قانون له ولا ضابط ولا قاعدة ، وانما ذلك حسب الهوى كما تضع الملح في اناء والتراب مع الملح فلا اتحاد ولا الثام ولا انتظام .

الاتحاد

أما الاتحاد فهو السرّ المصنوع والعلم المكنون والنظام البديع الغامض المتعاس عن الجاهلين المترفع عن ادراك الغافلين وهذا هو سرّ الله في أرضه ومصرى آراء الخليل والعزيز والنبي ﷺ ، ومن أدركه فقد أدرك السرّ المكنون والكبريت الأحمر وكأنا ملك الدنيا بخدا فيرها فان هذا هو سرّها وعجبتها وبدعها ، ومن يدركه إلا الفوقة القماقم وصناديد العلم الأكار ، ففي الاتحاد تنقد الأجسام خواصها الأصلية وطبائعها وأوصافها وأحوالها وألوانها وتتحوّل إلى شيء آخر مغاير لكل منها ، خذ ذلك مثلا :

القطن والقمح والبرسيم

هذه نباتات كوّنت في الأرض من هذه العناصر وهي : البوتاسا ، والصودا ، والجير ، والمغنيسيا ، وحض الفوسفوريك ، وحض الكبريتيك ، والسلكا ، والكاور .

عناصر	قطن	قمح	برسيم
بوتاسا	٣٥٠٥	٣١٠٥٤	٣٤٠٦
صودا	٣٢٦٤	٣٢٦٦	١١٠٤
جير	١٤٢٦٣	٣٢١٤	٢١٠٦
مغنيسيا	٨٢٧٨	١٢٢١٠	٤٠٥
حض فوسفوريك	٨٢٣٤	٤٨٥٠	٥٠٣
حض كبريتيك	٧٢٧٧	٠٠٠٠٨	٤٠٢
سلكا	٨٢٢٢	١٠٨٨	٣٠٨
كاور	٦٢٣٧	٠٠٠١٠	١٣٠٩

أنت تعرف الجير وقد دخل في القطن بنسبة ١٥ في المائة تقريبا وفي القمح بنسبة ٣ في المائة وفي البرسيم ٢١ في المائة ، وأنت تعرف الجير تراه بعينك لكنك لو حلت النبات لم تترجيرا وإنما هو نبات حوّل الجير اليه وذهبت خواصه وصار علما جديدا .

ها أنت ذا حلت النبات ونظرتة فألفيت البرسيم والقطن والقمح من مواد متحدة .

المواد والعناصر في الثلاثة متحدة فأنت مالبست ولا أكلت ولا أكلت البهائم إلا تلك

العناصر المتحدة التي فقدت خواصها ، ولعمرك ما حوّلت إلى تلك الخواص والأجسام الحادثة الجديدة إلا بتلك النسب المحفوظة ، فهذا الوزن وهذا الحساب هو الذي مكن من اعطائها أشكالها النافعة فكانت غذاء الحيوان ورداء الانسان وزينة الرجال والنساء فنحن نلبس ونترين بما يأكله الحيوان ، ولكن السرّ المصنوع هو النسب فاذا حوّلت النسب حوّلت الخواص وتغيرت الأسماء .

أليس ذلك من العجب ولو أن البوتاسا صارت في القطن ٣٦ في المائة بدل ٣٥ في المائة متركب

قطنا بل كان ممزوجا لامتحددا ولم تكن فيه خواص القطن وعلى ذلك كانت قاعدة الاتحاد .
 ان اتحاد الأجسام بعضها ببعض يكون بمقادير محدودة ثابتة في كل مركب وهو المسمى بقانون المقادير
 المحدودة فترى الماء مثلا مركبا من (١) أكسوجين و (٢) أودروجين ونسبة الثاني إلى الأول وزنا كنسبة
 واحد إلى ثمانية ويفقد كل منهما صفاته الخاصة وتحدث صفات لم تكن لهما وهي صفات الماء من طعم وهيئة
 وغير ذلك ونسبة الأول إلى الثاني حجما كنسبة (١) إلى (٢) والأكسوجين عبارة عن جسم هوائى
 إذا أدخلت فيه شيئا قابلا للاحتراق احترق ، أما الأودروجين فهو جسم هوائى أيضا طيار كالأول إنما إذا
 أدخلت فيه حيوانات حالا فهو جسم مميت ، أما الأول فهو جسم محرق وهذان الجسمان باتحادهما مع بعضهما
 تكون الماء الذى به حياة كل شيء ، وتعجب مما سأذكره لك : وهو أنه إذا تركب جزآن من الأكسوجين
 مع جزئين من الأودروجين فانه يحصل منهما جسم آخر ليس بماء ، وإنما هو جسم كالمحرق يسمى (ديتوكسيد)
 وهو سائل محرق كاللما يحل فيه ، فتعجب من هذه المركبات وكيف كان حساب الماء دقيقا ، ولما اختل
 الحساب جاء سائل آخر قاتل فتى كان جزآن من الأودروجين مع جزء واحد من الأكسوجين كان فيه حياة
 كل حي ، ولما صار الأكسوجين جزئين كالأودروجين صار قاتلا لكل حي ، وانظر الفرق بين الأحياء والاماتة
 تجده جزءا واحدا فقط وكيف اختار الله هذا التركيب وجعله محيطا بالأرض وهو الماء «ان الله سريع الحساب» .
 ما أعجب ماترى فى هذا المقام وما أبدع ما عرفت أيها الذكى لم اختار الله هذا التركيب أليس لأنه به الحياة
 ولأنه زاد الأكسوجين جزءا واحدا لم يصلح المركب للحياة أليس ذلك دلالة على أنه محيط بكل شيء « وهو
 الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم » وإلا فلماذا هذا النظام والحساب والعجب العجيب اه .
 وهناك قانون آخر يسمونه قانون النسب المضاعفة (إذا اتحد جسمان وتكون منهما جملة مركبات فإذا
 بقيت كمية أحدهما ثابتة فكمية الآخر تتغير على حسب نسب مضاعفة بسيطة جدا) .

فترى الأوزوت يتحد بالأكسوجين ويكون منهما خمس مركبات .

- (الأول) يحتوى ١٤ من الأوزوت و ١٦ من الأكسوجين
- (الثانى) على ١٤ من الأوزوت و ١٦ فى ٢ من الأكسوجين
- (الثالث) على ١٤ من الأوزوت و ١٦ فى ٣ من الأكسوجين
- (الرابع) على ١٤ من الأوزوت و ١٦ فى ٤ من الأكسوجين
- (الخامس) على ١٤ من الأوزوت و ١٦ فى ٥ من الأكسوجين

فترى من ذلك أن تركيب الأجسام جار على نظام ثابت بحساب معين ونمط بديع وهو السحر الحلال
 وعلى ذلك سائر المركبات من نبات وحيوان وانسان وهذا معنى كونه عز وجل « سريع الحساب » وقوله
 « وكل شيء عنده بمقدار » وقوله « وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وقوله « إنا
 كل شيء خلقناه بقدر » وقوله « وما كنا عن الخلق غافلين » وقوله « ووضع الميزان ألا تظفوا فى الميزان » .
 فإذا تصوّرت أن كل ١٨ جراما من الماء فيها ١٦ جراما من الأكسوجين وجرامان من الأودروجين
 وأنتك لو زدت ذرة واحدة من أحدهما أو نقصتها لم يكن اتحاد و بقيت بنحاستها وهكذا بقية المركبات المتحدات
 أدركت كيف أمر الله عز وجل التحليل بالنظر فى العوالم العلوية والسفلية وكيف أمره بتحليل الطير ثم ركه
 وهو ناظر إليه ليقف على سر التحليل والتركيب والنظام البديع وليكون إيمانه عن يقين لا برهان أو تقليد .
 وهذا أهم المسائل وأعجبها ولو أنك راقبت النبات فى مدرستنا لرأيت يجتذب الذرات من الأرض فتتمثل
 بجسمه وتنقلب ورقا وزهرا وثمرا على نهج قانون الاتحاد وناموس النسب ، فإذا تفرقت أجزاءه وتحللت عناصره

أعيد ذكره أخرى في نبات أو حيوان بنسب محفوظة على قوانين ثابتة ، فآية الطير واضحة أمامنا صباحا ومساء كل حين ونحن عنها غافلون ، انها لضرب مثل لما نشاهده كل وقت ، فعلى قادة المسامين أن لا يغفلوا عن هذه الحقائق وأن لا يناموا عن هذه الدقائق ، وهاك جدولا جامعاً لكثير من النبات المشهور النافع للإنسان والحيوان وهاهو ذا .

عناصر	القطن			القمح		الشعير	
	شعر	بذرة	خشب	حب	تب	حب	تب
بوتاسا	٥٥٥٠	٣٢٣٣	٣٢٣٩	٣١٥٤	١٥٦٤	٢١٣٠	١٨٨٠
صودا	٣٦٤	٦٩	٥٤	٢٦٦	٩٥٤	٤٠٠	٦٨٠
جير	١٤٦٣	٥٦	٢٨٠	٣١٤	١٠٠٠	٢٤٠	٤٧٠
مغنيسيا	٨٧٨	١٦٥	٦٣	١٢١٠	٣٥٠	٩١٠	٢٥٠
حض فوسفوريك	٨٣٤	٣١١	٨١	٤٨٥٠	٣١٠	٣٣٧١	١٦٠
حض كبريتيك	٧٧٧	٢١	٥٤	٠٠٠٨	٤٧٠	٢١٠	٣٥٠
سلكا	٨٢٢	٠٣١	٥٩	١٨٨	٤١٩	٢٧٥٢	٤٣٠٠
كلور	٦٣٧	١٥٠	٧٥	٠٠١٠	٥٢٠	٠٠٣٠	١٧٣٠
او كسيد الحديد	معدوم	معدوم	معدوم	آثار	٦٢٠	٠٠١٥	١٣٠

عناصر	النرة		الفول		بطاطس	القصب		برسيم
	حب	سقيان وقوالح	حب	تب	نوع من السك	ورقه وقاماته	مجرد من قاماته	
بوتاسا	٣٧٩	٣٢٠	٤٢٥	٢٧٨	٦١٦	٢١٥	٣٤٣٠	٣٤٦
صودا	٣٠	٣٠	٣٣	٨٦	١٩٠١	٢٤٠	١٩٠	١١٤
جير	٣٤	٩٧	٦٠	٢١٥	٢٤	٧٢٥	٤٨٠	٢١٦
مغنيسيا	٧٥	٥٥	٧٣	٥٦	٥٠٠	٣٨٠	٢٩٠	٤٥
حض فوسفوريك	٤٤٨	٢١	٣٤٦	٥١	١٧٦	٣٣٥	٤٨٠	٥٣
حض كبريتيك	١٥٠	١٤	٣٥	٥٩	٦٢	٦٣٠	٦٥٠	٤٢
سلكا	١٤٠	٣٢٨	٠٠٩	٨٧٠	١٠٠	٤٤٨٠	٢٦٩٠	٣٨
كلور	آثار	١٠١	١٤	١١٥	٢٢	٨٢٠	٨١٠	١٣٩
أو كسيد الحديد	٠٠٤	٣٠	٠٠٤	٤٩	٠٨	١٩٠	٩٨	

تأمل هذا الجدول تجد أن مطعموم البهائم ، والأدميين ، والملابس ، والفاكهة كلها عناصر واحدة اختلفت مقاديرها ، فيعجب كيف كانت مادة النرة هي مادة القمح بعينها بل مادة القطن وباختلاف المقادير صار هذا ملابساً ، وهذا مطعماً [إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون] حارت الافكار في هذه الحكمة الباهرة ، فان نظرنا الى ترتيب النبات مع المعادن والحيوان ، وترتيب كل طبقة فيها وجدنا أحكاماً ، وان نظرنا الى أجزاء كل شجرة من أعضائها الظاهرة من عروق وسوق وفروع وأوراق وأزهار وثمار رأينا حكمة باهرة وانها موزونة بميزان عدل ، وان نظرنا الى عناصرها التي تركبت منها رأينا مقادير مختلفة وعناصر متحدة ،

وباختلاف المقادير اختلفت الطعوم ، والأشكال ، والألوان ، والروائح ، والمقادير ، وما أشبه هذه النظم في ترتيبها بنظام السموات ، فكما رأيت هناك جداول لها نظام خاص ، فكذلك ترى هنا جداول محكمة ، ولقد صدق فيثاغورث في قوله : ان العالم مبني على الأعداد والموسيقى ، ومن هذا نهم سورة الرحمن ولندكر آيات منها لنفهم المقصود . قال الله تعالى « الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان » نعم خلق الله الانسان فيه كل نظام وترتيب ، ولما كانت الأشكال تحق الى أشكالها وضعت الروح ذات العلم والأدب وحب النظام والترتيب في هذا الجسم المشا كل والمناسب لخلقها وأعربت وبيت عما استكن في هذا العالم الذي هو طبعها يحكى الجسم ، فلذلك أعقبه بقوله [علمه البيان] فأبان ما يقرأ على صفحات هذا الكون من العلوم واللطائف والجمائب اذ خلق العالم أولا مقسمة لخلق الانسان ، وليكون دقرا له وكتابا يقرؤه فله نفع في عقله وفائدة في جسمه ، فخلق الانسان أولا فاستفاد الماديات وعلمه البيان لاستفادة العلوم منه ، ولما كان هذا الكلام مجلا ، والمجمل لا يغني عن المفصل في التعليم شرع الرحمن يفصله تفصيلا مظهرا آثار رحته على أجسامنا أولا وعقولنا ثانيا بالخلق أولا والعلم ثانيا . فقال [الشمس والقمر بحسبان] ولقد أعدنا هذا الكلام مرارا واتضح لك نظام السموات على أبهج أوضاعه وترتيبه وبيننا أيضا أن العالم السفلى نظامه تابع للعالوى لوصول الأثر من الثاني ، فلذلك كان له نظام بحساب متقن كمتبوعه الأول كما رأيت هنا ، فلذلك قال [والنجم] هو مالا ساق له [والشجر يسجدان] فذكر المزارع من نبات وشجر ، وقد رأيت حسابها فأفادتهما يسجدان ، ولقد رأيت آثار السجود فيها من اطرادها على قانون واحد لا يتغير ولا يتبدل ، ولما كانت النباتات على سطح الكرة الأرضية ، وهي مستديرة والسماء محيطتها بها من جميع الجوانب ومرسلة أشعتها عليها وأمطارها ورياح جوها كانت الأرض ومزارعها ككرة طرحت بصوالجة فتلقتها هذه الحوادث الفلكية والجوية وذكر السماء بعدها كما ذكر الشمس والقمر قبلها لتفيد الاحاطة المذكورة . فقال [والسماء رفعها] وهذه الرفعة حسية وعقلية ، أما الحسية فظاهرة ، وأما العقلية فقد علمتها من التأثيرات المختلفة بالحوادث المتناقضة فتارة تأتي برد ، وأخرى بحر ، ومرة بخصب ، وأخرى بجذب ، ولا ريب أن هذا يورث خللا في النظام ، وعدم ترتيب في الأحكام فلا بد اذن من قانون تسير عليه هذه العوالم كسفينة [في بحر لحي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها] فلذلك أعقبه بقوله [ووضع الميزان] ولقد فهمت في الجداول السابقة في العالم العلوى والسفلى شيئا من الميزان فقس عليه كل أحوال هذا الكون فكله موزون بهذا بعينه ، ومن هنا نفهم قوله تعالى [والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون] فلقد شاهدت الميزان في الجداول السابقة [وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أتنم له بخازنين] .

ولعلك فهمت أيضا من هذه الجداول قوله تعالى [وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يشئ الليل النهار ان في ذلك آيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ان في ذلك آيات لقوم يعقلون] فلقد رأيت أنه فضل القمح على الذرة في الجدول السابق بالعناصر المقوية للعظام كالسلك الذي هو مواد رملية ، وحض الفوسفوريك الذي يدخل في تركيب عظامنا ، ومنه تصنع أعواد الكبريت ، فهاتان المادتان في القمح أكثر منهما في الذرة ، بخلاف الكبريت فهو في الذرة أكثر منه في القمح ، وهكذا بقية العناصر ، فباختلاف المقادير فضل هذا الطعام على ذلك الطعام .

قلنا ان الفسفور في القميص أكثر ، وهو داخل في تركيب العظام ، وهذا مشاهد في عظام الموتى فانك ترى أبخرة تتصاعد ، وكثيرا ما ترى بالليل نارا ساطعة ، وما هي الا تلك المادة الفسفورية التي ذكرناها في الأغذية وكنت في العظام ، قد تصاعدت فتلاقت بالمادة الحارة في الهواء ، وهي الا كسوجين فاتقد نارا فظن العامة أنها كرامة لولى أونحو ذلك ، وقد فهمت الحقيقة ، وقس على هذين النباتين غيرهما .

ثم ان هذه المواد تدخل في تركيب الأجسام النامية ، وتبقى الى أمد معلوم ، ثم تنحل ويذروها الهواء وترجع ثانيا ، وتدخل تركيبها كما قال تعالى - انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا - استدلال بالطبيعة على بقاء الأرواح واليه رمز - كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى .

ولعلك تقول الآية ، واردة في خلقنا بعد الموت ، قلنا نعم ، وانما نحن ذكرناها على سبيل الإشارة والرمز أونحو ذلك مما ذكره علماء البيان ، بل بقاء العناصر الأرضية بعد الانحلال دليل على بقاء أرواحنا بعد الموت وكيف تبقى هذه العناصر المعتمدة المظلمة الميتة وتهلك تلك الأرواح الطاهرة المنيرة الحية العالية بل كان الأجدر بالقياس أن تهلك المادة وتبقى الأرواح ، فاذا بقي الأخس فالأشرف أولى بالبقاء لأن الروح اذا كانت بسيطة كما هو اجماع الحكماء ، فكيف تفنى ؟ والفناء انما هو تفريق كما تفرق الجسم عن البدن المركب من عنصرين : روح وجسم ، ففناء الأرواح ليس يقبله العقل بالكلية فافهم .

لطيفة

من أعظم أسرار القرآن التي ظهرت في هذا الزمان سرّ [ال م] في أول سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله [أما بعد] فاني بينما أنا جالس بالمنزل يوم الثلاثاء ٥ شهر مارس سنة ١٩٣٢ م الموافق أواخر شهر ذي القعدة سنة ١٣٥٠ هـ إذ حضر عندي عالم من ذوى الذكاء والفتنة ، فقال بعد أن قرأ هذا الموضوع في الطبعة الثانية : لقد أحسنت وأجدت في ايضاح عجائب الخلقة ، ولكن أريد أن أطلع على نفس التكوين عيانا من نفس علم الطبيعة لأن الله عز وجل اذا قال : « وانظر الى حارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشئها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير » علم أن في الامكان ظهور نفس الخلق والتكوين ووضوحه في العالم المشاهد كما قال « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » بحيث تراه العيون ، وتؤمن القلوب بعجائب التكوين ، وتنطق الألسنة ، فيقول المشاهد هذه الجلة « أعلم أن الله على كل شيء قدير » ومعنى هذا أن الانسان يكون مشاهدا بنفسه ومعينا لتكوين الأجنة وتدرجها في النمو شيئا فشيئا كما رأى العزيز تكوين حماره سواء بسواء ، وهناك يكون الايقان بعلم الله وقدرته على كل شيء ، ويكون المطلع على هذا ممن قال الله فيهم : « إلا من شهد بالحق » فهذه شهادة عن معانية ، والشهادة عن معانية شهادة بالحق . هذا ما أردت أن أسألك عنه الآن . (انتهى سؤال زائري) .

فلما سمعت ذلك قلت : أيها الصديق : ان هذا السؤال خطري منذ عشرة أيام وصممت ان طالت الحياة أن أولف لهذا رسالة خاصة تكون في ملحق هذا التفسير ، ولكن أوجز أقول هنا ايجازا فأقول : ان ما سألت عنه اليوم هو سرّ [ال م] في أول هذه السورة وهي البقرة ، فقال واعجبا : وأي سرّ في

[ا ل م] ؟ ان [ا ل م] في أول هذه السور من الحروف التي لاميها لها ، وسرها عند الله لا عندنا . وهل مالمس له معنى يكون فيه سرّ عظيم عندنا بنى آدم ؟ فقلت : إى وربى انه لحقّ ، فقال : فأريد أن تكشف لى هذا السرّ ، فقلت : ان [ا ل م] في أول سورة البقرة مفتاح العلوم في مستقبل الزمان ومفتاح السياسة لأهم الاسلام ، فقال : هذا نبأ عظيم فما هذا القول ؟ فقلت : اعلم أيها الأخ الصديق أن أذكيا القراء اذا ابتدءوا في قراءة القرآن صادفتهم الفاتحة ، والفاتحة مدخل ومقدمة لبقية القرآن ، فاذا ابتدأ يقرأ ما بعدها صادفه [ا ل م] فيقول في نفسه هذه حروف لامعنى لها ، ثم هو لا يزال يقرأ في سورة البقرة وهو متر بص أن يعرف سرّ [ا ل م] فما يشعر إلا وقد فوجئ بنفس هذه الحروف في قصة الذين خرجوا من ديارهم فارين من الموت ، وفي قصة طالوت الذى حذر جنده من كثرة شرب الماء من النهر ، وكان امتثال ذلك التحذير سببا للفوز ، ومعنى هذا أن الأمم لا تقهر أعداءها إلا اذا هذب أفرادها نفوسهم ، لأن الأمم أفراد مكررة ، وذلك سرّ نصف الفلسفة وهى الفلسفة العملية تهذيب الشخص والأسرة والمدينة ، وذلك في قوله تعالى : « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ان الله لنوفض على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » وفي قوله : [ألم تر الى الملائكة من بنى اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيّ لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين] .

ثم اذا أتمّ هذه الآية يستمرّ في قراءته فتصادفه آية ابراهيم ونمرود والمحاجة التي بينهما كمحاجة علماء المنطق ، ويتاود ذلك ما كان من أمر الله للعزير إذ يقول له : « وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما » ثم مسألة الطير و ابراهيم ، إذ فرّق أجزاءهنّ ثم جمعت ، وقال الله له : اعلم أن الله عزيز حكيم ، فان في هذا المقام [ا ل م] قد ذكرت مرتين : « ألم تر الى الذى حاجّ ابراهيم في ربه » و « أولم تؤمن » .

ولاريب أن علوم أهل المشرق والمغرب لا تعدو أحد أمرين : إما علوم علمية وهى العلوم الرياضية والطبيعية والالهية ، وإما علوم عملية ، وهى تهذيب الفرد والأسرة وسياسة الأمة ، ولما كانت العلوم العملية ظهر سرّها فيما تقدم ظهر سرّ العلوم العلمية هنا ، وذلك بمشاهدة عظام الحمار وكسوتها لحما وتفرّق أجزاء الطير واجتماعها . ولا جرم أن علم الحيوان من العلوم الطبيعية ، وهذه العلوم لانظام لها إلا بمقاييس ونظم وإحكام لا يدركه إلا الدارسون والاستنتاج من ذلك كله يكون بالعلم الالهى ، إذن هنا اشارات الى العلوم العلمية المتقدمة ، وعليه يكون سرّ [ا ل م] في هذه السورة أنها مفتاح لعلوم الأمم شرقا وغربا مسامة وغير مسامة ، فبينما القارئ يتر بص ليعرف ماهو السرّ في النطق بحروف [ا ل م] اذا به قد ظفر بكنز علوم السياسات الانسانية ومعارفها ، وبعبارة أخرى ان [ا ل م] في أول البقرة تشير لى كل علم فى الأرض ، وهذه بلاغة لا نظير لها فى بلاغات أهل الأرض ، وهذا من السرّ الذى نزل به القرآن وظهر فى هذا الزمان وحده ، إذن هذا القرآن بعد هذا البيان لم يكن لأمة دون أمة لأن هذه المعانى تصلح لأن يقرأها أهل جميع الأرض لأن نظام العلوم ونظام السياسة محتاج اليهما جميع الناس . فقال حسن حسن ، ولكنه يعوزه ايضاح أعظم من وجهين : الوجه الأول زيادة التفصيل لما تقدم ، الوجه الثانى ايضاح ما سألتك عنه أولا ولأجله سقت هذا الحديث وهو أنى أرى فى نفس الطبيعة بعينى مارآه العزيز فى حماره ، فقلت : أما أول الأمرين فلن يتسع له هذا المقام ، وسأكتبه فى ملحق هذا التفسير بهيئة أعجب ، وأما الأمر الثانى فأنى أعجبه لك الآن ، وذلك أن هذه الآيات ذكر الله فيها من

الحيوانات الفقرية الحمار من ذوات الأربع والطيور ، وبقى من ذوات الفقرات الانسان والزواحف والسمك .
ولما كانت الضفادع متوسطة بين السمك والزواحف ، وكان في مشاهدة نمو أجنتها عجب عجاب لا ينقص
عن مشاهدة العزير حماره وهو يكسى لحما أردت أن أذكرها هنا إجابة لطلبك ، وإغاثة لمطالب شوقك ، فسترى
بيض نوع من الضفادع وهو في قاع البركة ذات الماء الغليظ ، وستشاهد درجات نمو الجنين في البيض شيئا
فشيئا ، وتجب من تلك المادة الهلامية التي تحمل ذلك البيض ، وكلما نما الجنين في داخلها أخذت هي تكبر
قليلا قليلا لترفعه من ثقل الماء الى خفة الهواء ، وقد أعددت لذلك من الحكمة عجبتان : عجبة حيوانات ذرية
تتنفس بالا كسوجين وهي لا ترى ، ونباتات لا ترى أيضا ، وهاتان العجبتان تؤثران في تلك المادة انتفاخا
فترتفع ارتفاعا متناسبا مع نمو جنين الضفدعة كما ستراه موضحا ، ثم ترى بيض نوع آخر من الضفادع موضوعا
بهيئة صفوف متوازية ملتصمة بالمادة الهلامية أيضا ، فهذه المشاهد ترى مصداق مسألة العزير في نفس الطبيعة
وستعجب كل العجب من خياشيم صغار الضفادع المشبهات خياشيم السمك ، وكيف تتنفس بها أولا ، ثم تخلق لها
الرئة كحيوانات البر ، وتخلق الأعضاء بالتدريج عضوا عضوا ، فقال صاحبي هذا أمر عجب فأرجو أن أراه
الآن ، فقلت :

الكلام على الحيوانات الضفدعية

الحيوانات الضفدعية هي حيوانات فقرية من ذوات الدم البارد ، ويظهر في هذه الحيوانات طور الانتقال
من الحياة المائية الى الحياة الأرضية ، وذلك باختفاء العوامات في الحيوانات الضفدعية ، وهي التي كانت تتمتع
بها الأسماك ، وكذلك وجود الاصابع بأطرافها ، وقد علمنا أن أطراف الأسماك خلوة منها ، ولكننا نجد أن
الحيوانات الضفدعية تمضي أطوارها الأولى في الماء ، وتتنفس بالخياشيم ، وتعيش في طورها الكامل على
الارض بالقرب من المياه ، وتتنفس الهواء الجوى بواسطة الرئة ، وتتنفس الضفادع كذلك من جلدها ، وبهذه
الطريقة يمكنها البقاء ساكنة زمنا بدون تنفس رئوي .

القلب في هذه الحيوانات مركب من ثلاث حجرات : اذنين وبطين واحد ، ولهذا يتغذى جسمها بمزيج من
الدم النقي وغير النقي ، الأجناس في الضفادع مختلفة ، وتضع الاناث عددا عظيما من بيض صغير في الماء ،
ويحصل اخصاب البويضات في الماء إذ تفرغ عليها الذكور مادتها المنوية ، وعند ما يفقس البيض يحصل
بالأجنة تطوّر خاص الى أن يكمل نموها . ومن أمثلة الحيوانات الضفدعية :

- (١) الضفادع وهي التي تكون أصابعها خالية من المخالب ، وتضع بيضها بشكل كتلة هلامية .
- (٢) ضفدع البر تنتهي بعض أصابع أرجلها بمخالب ، وتضع بيضها بشكل أحبال تربطها بالنباتات المائية
الموجودة على جوانب الترع والمساقى .
- (٣) السمندر : هي حيوانات ضفدعية لها ذنب طويل ، وتشبه الإبراص والسحالي .

الضفدعة

تعيش الضفادع في الأراضي الرطبة القريبة من الترع والمستنقعات ، ويغطي جسمها بجلد رطب أملس
تبعا لوجود غدد به تفرز مادة لزجة تحفظ الجلد رطبا ، وهذه المادة سامة بدرجة قليلة ، تثب الضفادع على
الارض بقوة أرجلها الخلفية الطويلة ، وعند ما تنزل في المياه تعوم بواسطة الأرجل الخلفية أيضا تبعا لوجود
غشاء رقيق بين أصابعها ، إذ يجعل الرجل عريضة كالجذاف .

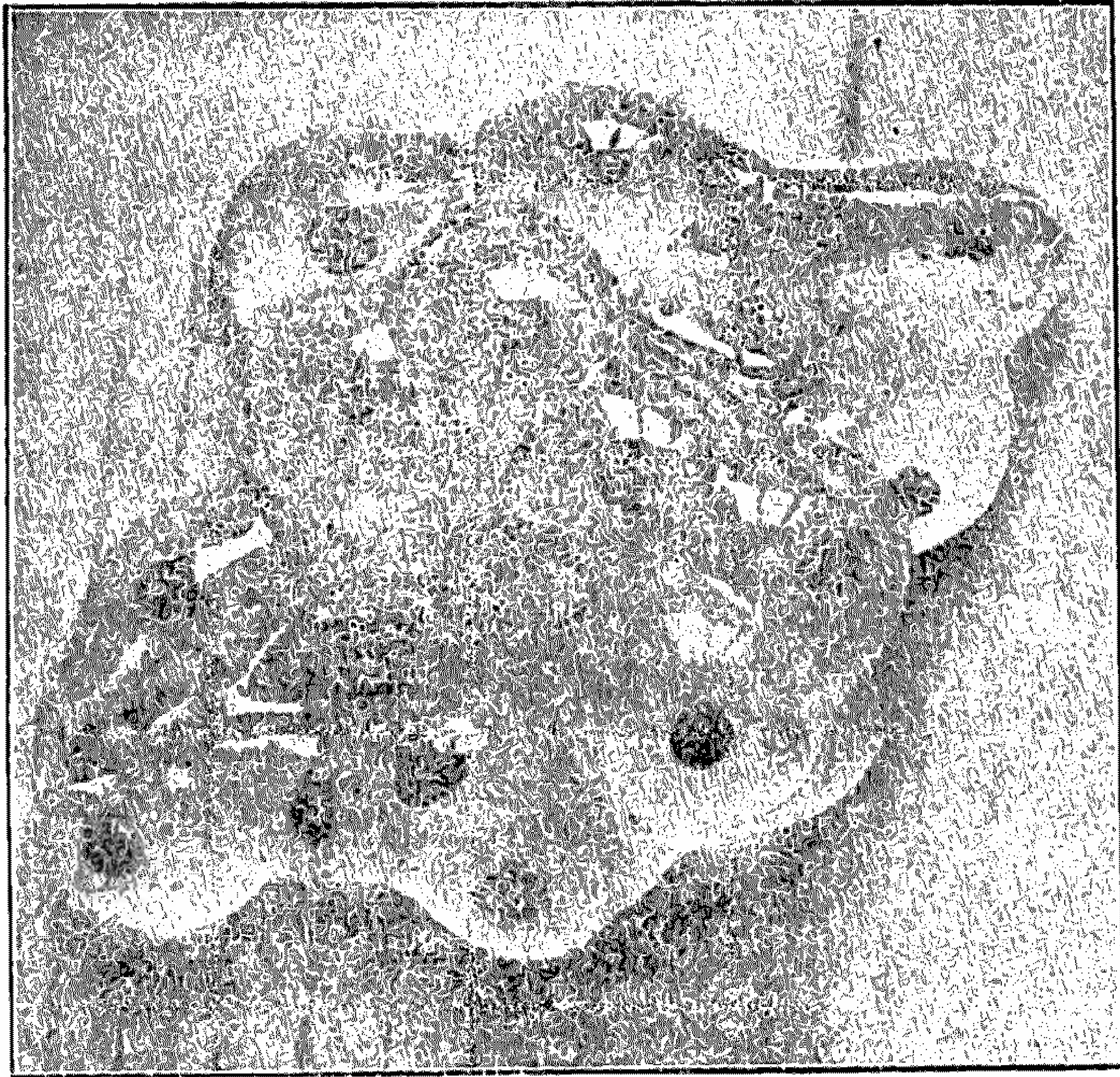
يكثر وجود الضفادع في الربيع والصيف ، أما في الشتاء فيندر وجودها تبعا لاختفائها حيث تدفن نفسها

في الطين بشواطئ الترع وتحت الاشجار وغيرها مدة هذا الفصل ، ويقال انها في بيات شتوى ، وفي هذا الوقت تكمن الضفدعة فلا تتحرك ولا تتغذى ولا تنفس تنفسا رؤويا ، وتنشط في أوائل الربيع ، وتجتمع معا في حفلاتها الليلية ، وتحدث نقيقا عاليا ، وفي هذا الفصل تضع الاناث بيضها بشكل كتل هلامية ، وتفرغ الذكور عليها المواد المنوية أثناء خروجها من الاثى ، وأذا عثرت بها فتخصب البويضات .

يفقس بيض الضفادع المخصب بعد أسبوعين تقريبا وتخرج منه كائنات صغيرة متطاولة كالأسماك تسمى [بأبى ذنبية] تعرف عند العامة بالطالب ، وهذه الكائنات تعوم في الماء بذنبها الطويل لانها تكون عديدة الاطراف ، وتنفس بالخياشيم ، وتتغذى بالنباتات وتنمو ، وتحصل بأبى ذنبية تطورات تدريجية ، وذلك بأن تتوله الاطراف الخلفية أولا ثم الاطراف الأمامية ، ثم يأخذ الذنب في التلاشي تدريجيا ، وتبتدى كذلك الرئتان في النمو ، ثم تتلاشى الخياشيم ويصير التنفس إذ ذاك رؤويا فتترك الضفدعة الماء وتهيش على الارض . ويستغرق هذا التطور ثلاثة شهور تقريبا ، وعند ذلك يكون قد تم تطورها وتتغذى في هذا الوقت بمواد حيوانية ، وتكبر في الحجم . أما غذاؤها فهو عبارة عن القواقع [التى يكثر وجودها على شواطئ الترع] والديدان والحشرات المختلفة والذباب ، وتقتنص الضفدعة الذباب بلسانها الطويل الأزج إذ تلتصق به الذبابة بمجرد ملامسته لها اه

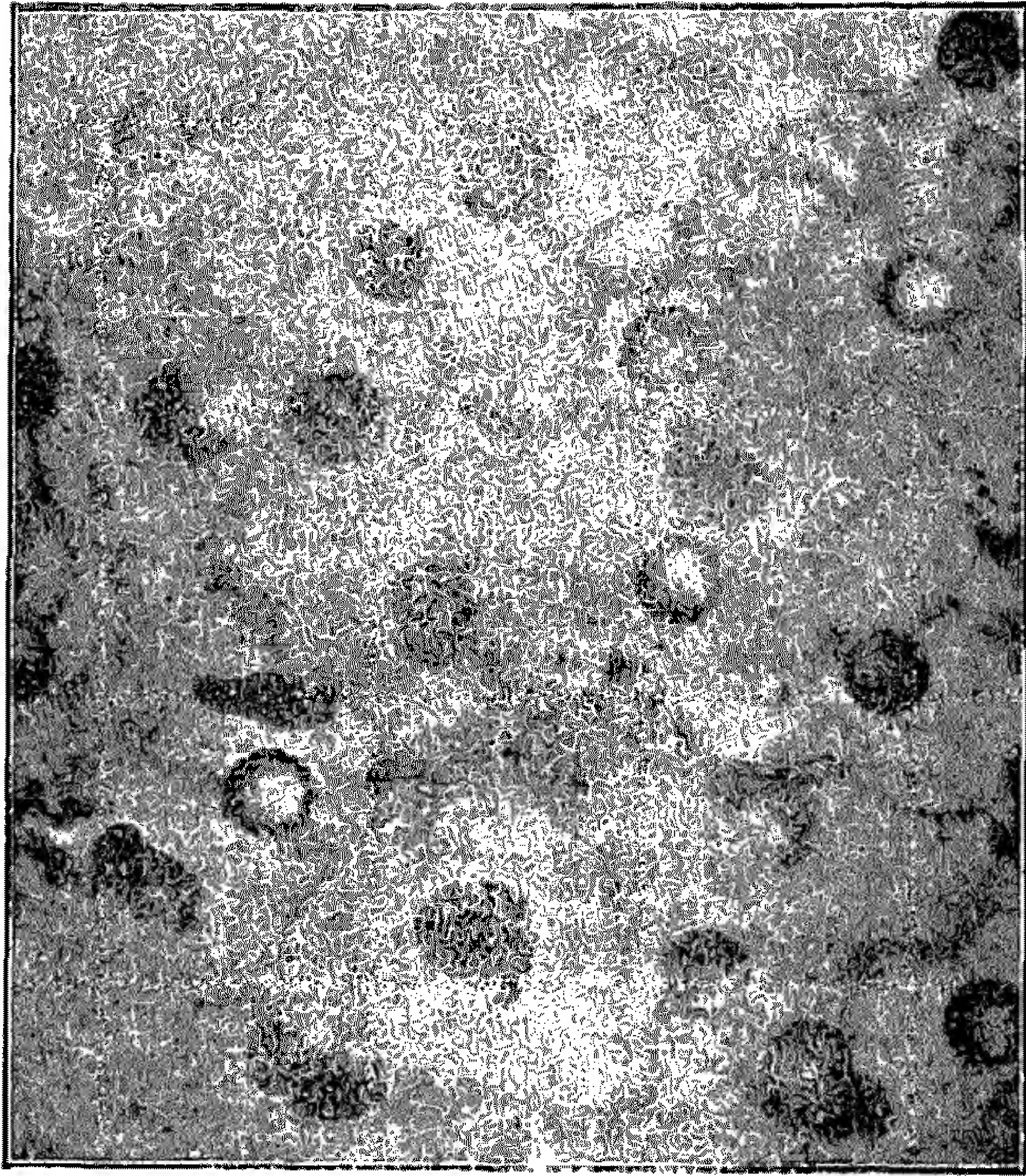
ايضاح ما تقدم بالتصوير الشمسي

وهذه صورها المختلفة الموضحات لما تقدم (انظر شكل ١)



(شكل ١ - بيض الضفادع المعتادة)

الضفادع تضع بيضا ما بين ألف وألفين ، وقطر البيضة الواحدة عشر البوصة ، ويحيط بها مادة هلامية ، وهذه المادة تنتفخ شيئا فشيئا ، وتحمل ذلك البيض من قاع البرك إلى سطح الماء (انظر شكل ٢)



(شكل ٢ - أبو ذئبيه وهو ذرية الضفادع)

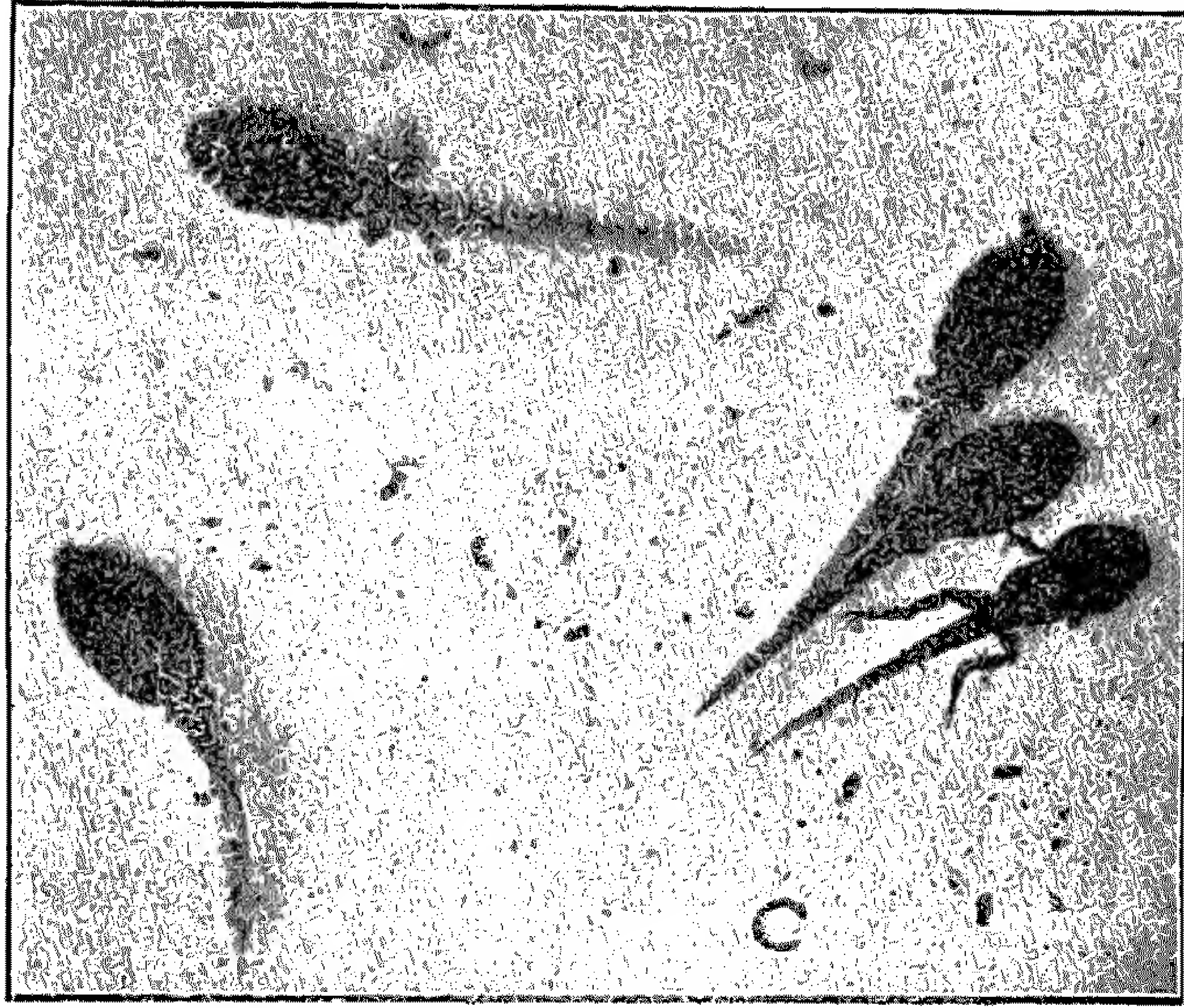


(شكل ٣)

ها هو ذا يحمل الكرة الهلامية التي تربي فيها كما كانت هي تحمله كأنها رافعة ترفعه إلى أعلى حينما يشتد ثقل الماء ، ولقد كانت لها فائدة أعظم ، وهي أن طعمها كريه فلا تكون الصغار عرضة لأكل الحيوان ، ومن أعجب العجائب أن هذه الكرات الهلامية يتخللها نباتات ميكروسكوبية لا تراها العيون المجردة أي [ذرية] يخرج منها اكسوجين ، وفيها حيوانات ميكروسكوبية لا تراها العيون ، وهذان يكفلان تحليل هذه الكرات الهلامية

(انظر شكل ٣ و ٤)

[إن أبا ذئبة الذى خرج من البيضة حديثا لا يزال ينمو ، ولذلك لا يزال فيه مقفلا ، والعينان اللتان لا تزالان تملآن فى الرأس لم تصلا الى الجلد ، وهناك فيه غدة من الأسمنت بها يلتصق أبو ذئبة فى حشائش البحر متى أراد]



(شكل ٤ - أبو ذئبة الكبير)

حينما يكون أبو ذئبة ابن شهرين تظهر أعضاؤه ، وهذه الصورة الشمسية تريك الدرجات المختلفة فى ظهور الاعضاء زوجا واحدا ، فترى هذا ظهر له زوج واحد من الاعضاء ، وذلك ظهر له زوجان ، والذيل ذوالعضلات وظيفته أنه أشبه بسكان السفينة [الدفة] .

وفى هذه السن لا يزال [أبو ذئبة] يتنفس بواسطة خياشيمه على طريقة السمك ، وهذه الخياشيم مخفية تحت الأغشية المغطيه له ، ولكن تلك الصغار مع ذلك تعلمت كيف تعمل رقتها وتجذب النفس من الهواء فوق سطح الماء ، فهى إذن أشبه بسمك الطين الذى يتنفس بطريقتين معا ، فهو فى الماء يتنفس بخيشومه وفى الطين يتنفس برئته . انتهى وبهذا تم الكلام على النوع الأول من الضفادع .

النوع الثانى

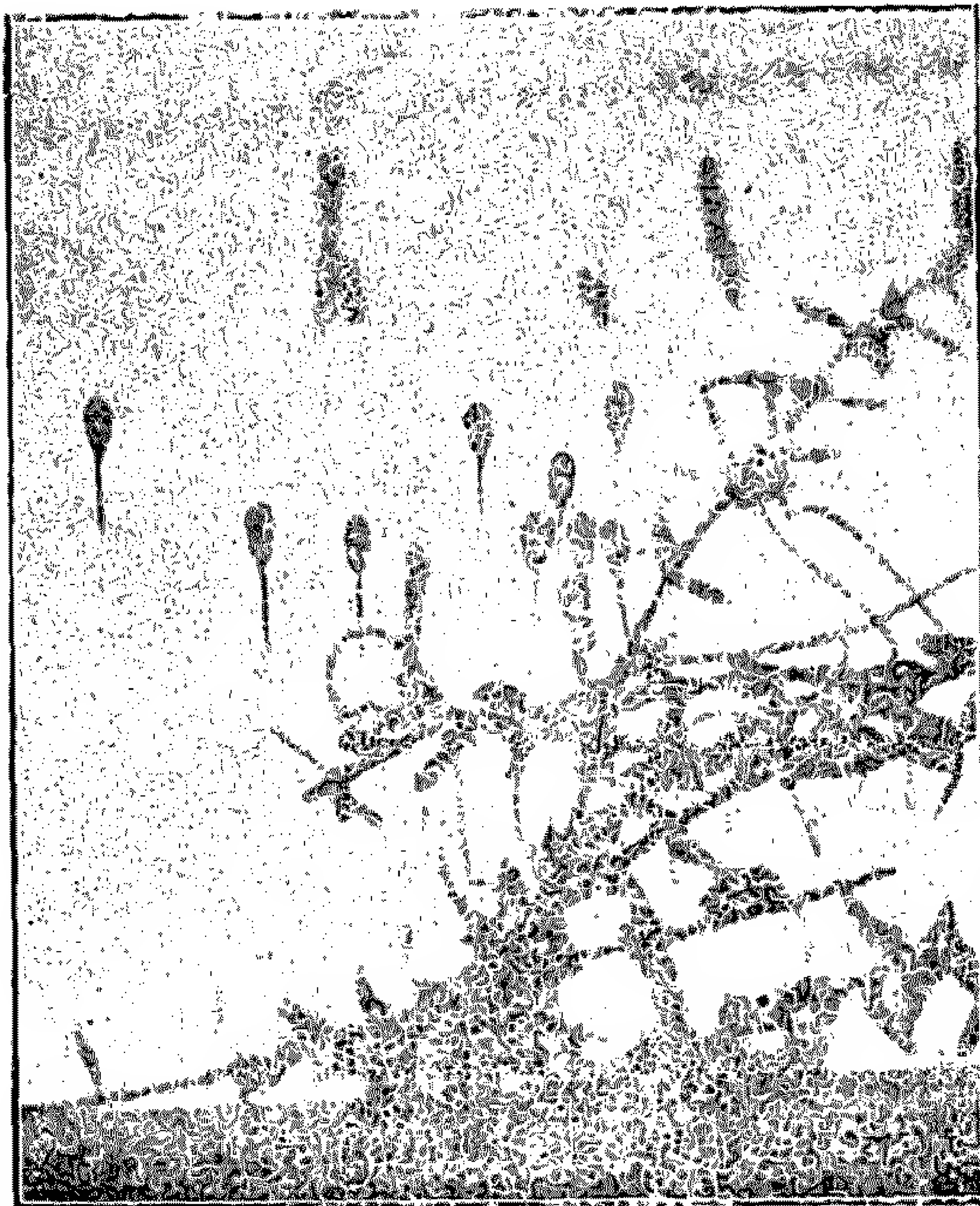
الضفادع المسماة بالفرنجية [تود] وبالعربية [ضفدع البر]

(انظر شكل ٦ و ٧ و ٨)

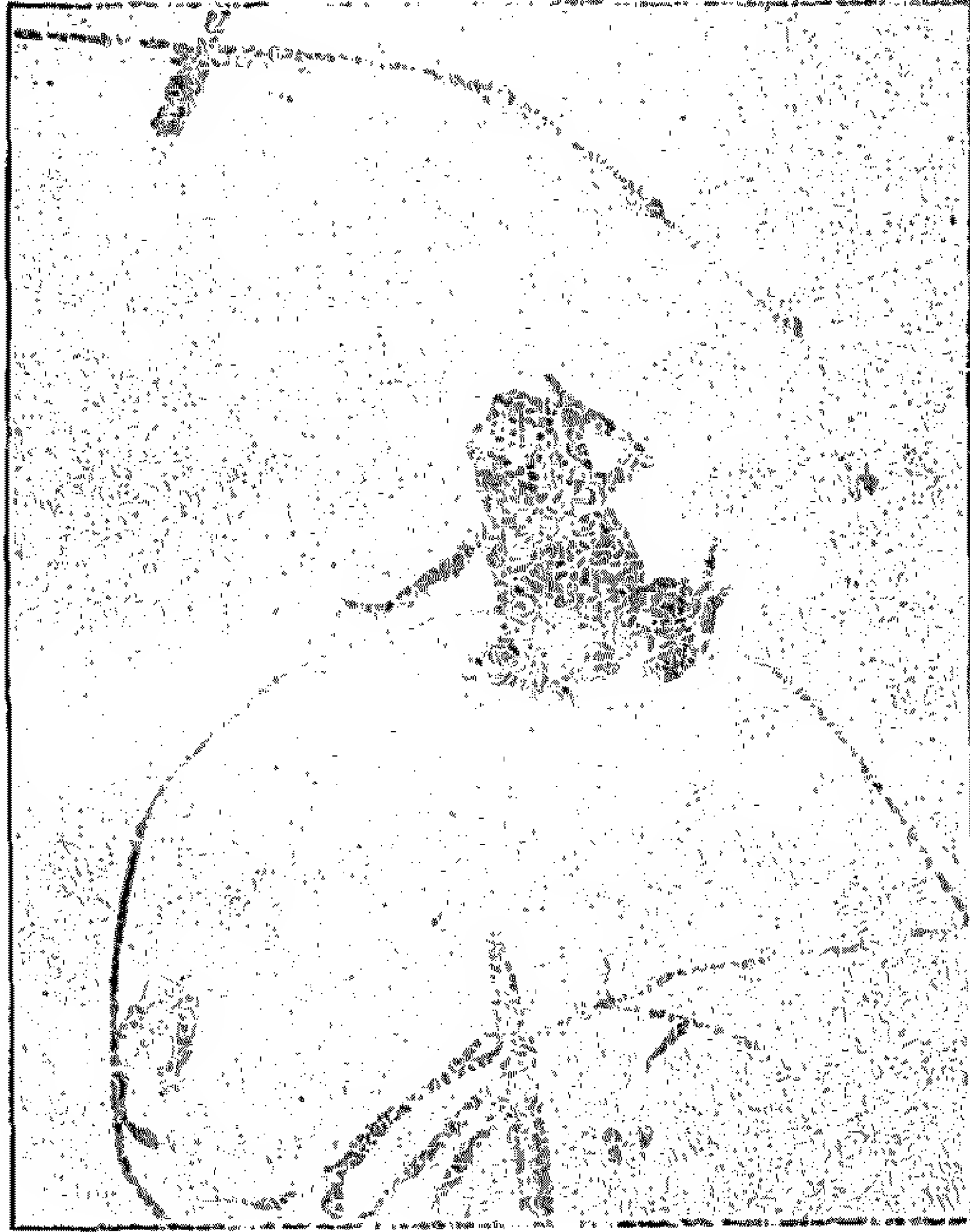


(شكل ٥)

[بيض ضفادع البرك ، وهو مكوّن من صفوف مزدوجات ، وقد لصق بكل صف خيوط هلامية تبلغ عشرة أقدام طولاً]



(شكل ٦ - أبو ذنبية ارتفع الى وجه البركة)
وهذه قد خرجت من بيضها منذ ١٤ يوما



(شكل - ٧)
رسم الضفدعة التي نمت وكبر حجمها في سن ثلاثة أشهر



(شكل ٨)
[ضفدعة تم نموها ، وقد ظهر جلدتها التخين ، وهكذا غدت ذات السم الناقع ،
موضوعة تماما خلف عينها]
وبهذا تم الكلام على النوع الثاني من الضفادع والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبي ذلك ، ونظر هذه الصور قال : هذا أمر جيل وبديع وعجيب ، ولكنني أسألك ثلاثة أسئلة : أولا لم لم تكتب هذه المعجزة في الطبعة الأولى ؟ ولم تأت بأسرار الحروف إلا في أول [آل عمران] ، ثانيا : كيف غاب هذا عن المسلمين ؟ ١٤ قرنا ولم يظهر إلا الآن ؟ ثالثا : بأي العلوم المعروفة يكون هذا الاعزاز ؟ فقلت : أما السؤال الأول فإني أقول انه لم يفتح على هذه المعجزة في الطبعة الأولى ، وأما جواب السؤال الثاني فإني أقول : ان هذا هو الزمان اللائق لهذه المعجزة لأمرين : الأمر الأول أن العلوم كثرت في هذا الزمان الأمر الثاني : أن المسلمين اليوم أحاطت بهم الأمم وقد ملئت الأرض بالعلوم وكشف كثير من عجائب الدنيا ، فهذه المعجزة ظهرت اليوم لانهاض الأمم الاسلامية ، لأن هذا أوانه . وأنا أقول : بعد ظهور هذا السر وقراءته في هذا التفسير لن ينام أذكىاء المسلمين ، ولن يهنا لهم طعام ولا شراب ولا حياة إلا بالعلم وكشف حقائق هذا الوجود ، وسيظهر في أمم الاسلام رجال لا نظير لهم في أسلافهم ، ولا في الأمم المحيطة بهم ، ومن يعيش يره .

ألم تر أن الله جعل في ملوك الاسلام في القرون الماضية من انتفعوا بحروف [ال م] خفقت دماء المسلمين بها ، وذلك في خبر السلطان محمود الغزنوي الشهير ، إذ بعث الى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه في الخطبة ببغداد ، وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة ، فامتنع الخليفة من ذلك ، فبعث إليه كتابا فيه تهديد ووعيد ، قال في جلته : « لو أردت نقل سحابة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » ، فبعث اليه الخليفة كتابا مختوما ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا ألفا ممدودة وفي وسطه ل وفي آخره م والصلاة والحمد لله فخار السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم أبو بكر القهستاني ، ففكر في ذلك وقال عندي شرحه فقال : اذكر ولك ما تريد . فقال : « بعث اليهم السلطان يهددهم بالفيلة فبعثوا له هذا الكتاب وفيه (ل) و (م) إشارة الى قوله تعالى : « ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل » الى آخر السورة ، فارتاع السلطان لذلك ، ووقع في قلبه الخوف والندم ، وعاد الى أحسن الأحوال من الرضا والأدب .

إذا علمت هذا أيها الأخ فلتعلم أن القرون الماضية كانت مهيمة لما كتبناه اليوم من هذا السر فلم تذهب تلك القرون سدى ، بل هم مبهدون لنا ، وعلينا نحن أن نعمل لمن بعدنا ، وبسبب أمثال هذه الاسرار استحق القرآن أن يقال فيه : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » . وأنا أقول : من ذا يقدر من البلغاء أن يأتي بكلام فيه سر كسر (ال م) في أول البقرة الذي مضت القرون والناس لا يعلمون ما كنز فيها من العلوم حتى وضحت في هذا التفسير الآن بمعاونة العلوم القديمة والحديثة وأما الجواب على السؤال الثالث فذلك أن هذا من باب المعاني والاشارات الرمزية ، وهي من الكناية والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه ، وهي أنواع كثيرة ، وقرينة هذه الكناية أننا في زمان انتشار العلوم ، والكناية من علم البيان كأنه يقال : تأملوا في الآيات التي في حيز [ال م] أعني أن القارئ حينما يقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم ال م » في البقرة يفكر حالا في كل جملة تقع بعد هذه الحروف فيجد عجبا عجيبا مذهشا ! يجد « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » وهذه في موضوع آية النسخ ، والنسخ أسرارته تقدمت وهي مذهشة ، ويجد : « ألم تر الى الملائكة » كما تقدم ، ويجد : « ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه » ويجد : « أولم تؤمن » فيجد إذن نفسه في جو من أجواء نظام الأسرة ونظام الأمة ونظام الطبيعة .

هذا جواب ما سألتني عنه ، فقال : لقد رأيت منه عجبا ! وشرحت صدرى ، وفتح الله لي كنزا من العلوم لم أكن لأحلم به ، فإني الآن يخيل لي أن قراء القرآن في المستقبل سيكونون أعلم الأمم بنظام الأمم ، وبسر الكون ، فان [ال م] في أول البقرة التي جاءت بعد مدخل القرآن وهي الفاتحة تشير الى هذه العلوم التي

تحيط بالمسامين وهم لا يشعرون ، ومن هذه يبحث القارئ في كل معنى يحس في حيز [الم] ولو كان في غير سورة البقرة مثل : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل » الخ وهكذا ، فهذا أعجب العجب ، فقلت له : الحمد لله رب العالمين .

تفصيل الكلام على بقاء الروح من هذه الآية

اعلم أن بقاء الروح في الدين سمعى لا برهان عليه ، وإنما للرسول معجزات تقنع تابعيهم أنهم مبلغون عن الله ، ثم بعد ذلك ما يقولونه عن الله يكون مقبولا ، فكل ما جاء عن الرسول يقبله أتباعهم بلا تسكير ، ولكن من الأتباع من لا يكتفى بالتقليد والسمع ويريد أن يقف على الحقائق بنفسه ، ويقول لى عقل فلم خلق ؟ هل خلق للأتباع بلا بصيرة ولا فكر ، فلذلك لم يترك الدين هنا الناس في حيرة فجعل على العامة التقليد ، وأما الأذكياء فسبيلهم النظر ، وإذا فرطوا في نظرهم أعموا كما يأثم العامة لو حاولوا الاستقلال بالرأى في الدين الذى لا يطبقونه ، فما نصبه الله للخاصة والأذكياء في القرآن أمثال هذه القصة فتجد أن إبراهيم الخليل مأمور بالتحليل فذبح الطيور وفرقها ، ثم دعاها فجاءت ، واعلم أن هذا فتح باب للبرهنة على بقاء الأرواح ، والقول وان كان في ظاهره للعامة فهو في باطنه للخاصة .

البرهان على بقاء الأرواح

إما بالنظر العقلى ، وإما بعلم الأرواح

أما النظر العقلى في ذلك ، ففيه طرق ثلاث

الطريقة الأولى : ما ذكره ابن مسكويه في كتابه تهذيب الأخلاق اذا استدل على بقاء الأرواح بانها بسيطة قائلا : إن الروح ليست جسما ولا عرضا في جسم ، ذلك أننا نرى أن الجسم لا يقبل الصورة واحدة ولا يكون قابلا لصور كثيرة في آن واحد فلن يقبل الترييع وهو مثلث ولا التخميس وهو مربع بل لا يقبل صورة ويلبسها حتى يخاف الأولى ولن يقبل التثليث الا اذا بطل منه الترييع هذه طبيعة الأجسام ، أما النفوس فاننا نراها على خلاف ذلك نرى أننا نتصور الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق والمثلث والمسدور والمربع والطويل والقصير والأعلى والأسفل والجيل والقبيح وكل ذلك يجتمع عند العقل مخزون فيه وفوق ذلك نعرف وتتصور علوما كثيرة والجسم لا طاقة له إلا بشيء واحد متى خالعه لبس غيره ، وأيضا نرى العقل كلما انغمس في الماديات ابتعد عن المعقولات وكلما زهد فيها وعف عنها اقترب من المعقولات ، وأيضا نرى الإنسان كلما زاد في طعامه وشربه كرهه الناس واحتقروه ، أما الذى يزيد عاما فهو محبوب ، وأيضا نرى أننا اذا نظرنا بأبصارنا وهى من الآلات الجسمية الى عين الشمس حصل لها الكلال وضعفت قوة ابصارها ، فأما إذا نظرنا بعقولنا في المسائل العويصة فانها تكون سبيلا لقوتنا على فهم ما هو أسهل منها وذلك كله دلائل أن النفس من طبيعة تخالف المادة فهذه تقبل المختلفات والأخوى لا تقبل ، وهذه تحب الزيادة منها وهذه تكره ، وهذه اذا شغلت بما هو أقوى زادت قوة والأخوى تضعف ، فهذه وأمثالها دلائل أنهما مختلفان فتكون النفس ليست من عالم الأجسام بل من عالم آخر بسيط غير مركب ، لأن الأجسام مركبة ، والذى يعقل ويحس فينا مخالف لها ، وأنه لو كانت الروح مركبة لأمكن أن يكون جزء منها عالما والآخر جاهلا باعتبار أن المسألة قد قامت ببعضها وتركزت البعض الآخر لأنها مركبة وفي هذا اجتماع النقيضين علم وجهل وهو محال ، هذا ما أتذكره من أدلته في أول الكتاب ، ولست أذكر هذا على أنى قائل أن هذه البراهين كلها قطعية ، وإنما ذكرتها لتعلم أيها الذكى

طريقته في الاستدلال لمناسبة مسألة الخليل والطير وتقطيعه وأن ابن مسكويه قارن ما بين الروح والجسم وحل تحليل علميا ، وسترى فيما بعد التحليل الجسمي لغيره . واعلم أن طريقة ابن مسكويه أشبه بطريقة (سقراط) الفيلسوف الشهير إذ قال : ان النفس جوهر غير مرئي ، فيلزم أنه على غير طبيعة الأجسام ، لأن من طبيعة الجسم أن يكون مدركا بأحدى الحواس ، وإذا كانت على غير طبيعة الجسم فهي إذن غير مركبة ، لأن التركيب من طبيعة الأجسام ، وإذا كانت بسيطة فانها غير قابلة للانحلال ، لأن الانحلال يرد المركب إلى المواد التي تركب منها ، فإذا كانت النفس بسيطة لم يتصور انحلالها ، وقال أيضا ان النفس هي الأمر والبدن هو المأمور ، فمن طبيعة الأمور الالهية أن تكون أمرة ومتصرفة ، ومن طبيعة الأمور السفلية أن تكون مأمورة ، فالنفس إذن من الأمور الالهية وهي غير قابلة للزوال ، فهي إذا بقيت على صفائها وفطرتها من غير أن تشارك البدن في أدناسه ، فانها تلتحق بعد الموت بموجود مثلها ، فتبقى معه سعيدة مبهجة محررة من أوهامها وأخوافها وكل ما كان يسخرها ، ويهوش عليها إذ كانت في قيد الحياة ، وإذا تركت ملوثة مدنسة غير معتقدة من الوجود إلا مايؤكل ويشرب ويلبس ويدرك بالحواس ، فلا يسعها إلا أن ترجع إلى حياة مشابهة لطبيعتها انتهى باختصار ما ذكره ابن مسكويه وما يشابهه من مقال سقراط .

الطريقة الثانية : ما ذكره العلامة ابن سينا في كتاب الاشارات مستدلا على أن النفس غير البدن بما ملخصه : ان الانسان يعلم بوجوده وان كان غافلا عن جميع أعضائه ، والمعلوم وهو ذاته مغاير لما ليس بمعلوم فتكون ذاته غير جسمه ، وهي التي يعبر عنها بلفظ أنا . ألا ترى أن الانسان لو قطعت يداه ورجلاه وسالخ جلده ، فانه لا يزال يقول أنا ، فلماذا يشير ؟ يشير إلى أعضائه الباطنة : كالقلب والكبد والطحال والرئين . كلا فان هذه لا تعرف الا بالتشريح ، وقد فرضناه غافلا عن كل هذا وعن التشريح وعن كل شيء إلا نفسه . ولقد أطال في ذلك وتبعه شراحه فلا نطيل بما ورد من اعتراض وجواب ، وإنما أتينا بما يفيد الغرض . وعلى ذلك ثبت عنده بهذا أن المعبر عنه بأنا غير الأعضاء الظاهرة والباطنة ، بل هو شيء غير الجسم ، وهو المطلوب .

الطريقة الثالثة : طريقة ابن الطفيل في كتابه الذي سماه [حى بن يقظان] فقد جعل موضوع الكتاب أن فتاة أُلجئت أن تودع ولدها الحديث الولادة في جزيرة خضراء ، فعطف على ذلك الغلام غزالة وأرضعته سنتين ، وصار هو يراها أمه ويقلدها في بغامها وغدوها ورواحها ، ولما ترعرع أخذ يقلد الحيوانات ، ويستتر بالورق ، ويتحلى بفروع الشجر ليظهر بالأبهة أمام الحيوانات السكاسرة ، ويستعين بالقرون في المناطحة والمقاتلة ولما كبرت أمه الظبية أخذ يحضر لها الفواكه من الأشجار ويعطف عليها ، وهو في ذلك كله يقلد طوائف الحيوانات فيما هو الأحسن والأنفع ، وهو في أثناء ذلك ينظر في أنواع الأشجار والزرع والثمر والحب ، وأنواع الحيوان ، ويقارن بين نفسه وبينها ولم يفكر في أمر الروح الا عند مارجع مرة فرأى أمه الظبية جثة باردة ، فأخذ يحركها فلم تتحرك ، وأخذ ينظر في عينيها وفي أذنيها عسى أن يجد فيها تلك التي كانت تعطف عليه ، ثم أخذ يشرح جثتها قائلا في نفسه إذالم أجد حبيبتي العاطفة عليّ في ظواهر جسمها فعسى أن أجد لها في باطن الاحشاء ، فأخذ يشرح القلب والكبد والطحال والحالبين والمعدة والأمعاء والعروق والشرابين والرباطات والاعصاب والمخ والنخاع والفقرات الظهرية وأعصاب الحس وأعصاب الحركة المتفرعات منها الواصلة إلى سائر الجسد الموصلات جميع ما تشعربه الحواس إلى المخ ، ثم تكون هناك الاوامر الصادرة إلى الاعضاء جارية في أعصاب الحركة لتسخر الاعضاء في الطلب تارة والهرب أخرى على مقتضى الاوامر الصادرة من المخ ، فلم يجد في جميع هذا الجسم المختلف الاعضاء والاحوال لتلك الحبيبة أثرا ، ثم لمح بعض اللحم في باطن القلب

فقال ان الحبيبة التي كانت هنا تعلقت بهذا الدم لما كان جاريا قويا ساريا في الجسم ، ولست أرى أن الدم هو الروح كلا ، فاني أرى أن الروح كانت حاكمة عليه ، وهو القائم بإيصال الغذاء إلى سائر الجسد ، ثم أراد أن يجرب هذه النظرية ، فعمد إلى حيوان وانقضّ عليه وهو يجري واصطاده إذ ضرب به بالقرون التي جعلها عدته ، فلما خرّ صريعا شق صدره واستخرج قلبه ، فرأى الدم حاراً وله بخار لطيف ، فقال في نفسه ان حبيبتى كانت سارية في هذا البخار اللطيف الدسوى ، وهو يسرى إلى الحواس والاعضاء مع الدم ، لأن هذا البخار لطيف ، وهو قريب من العالم الروحي اذ هو ذومزاج لطيف ، ثم رفع طرفه إلى النجوم والشمس وقال : ان هذه الأجرام بينها وبين حبيبتى علاقة ، وان حرارة القلب تصلح لتعلق الروح بها ، ولعل هذه السموات لها مدبر ، ولعل ذلك المدبر جعل للحرارة أثرا في الحياة ، وهكذا أخذ يفكر أفكارا فيها بعض الحقائق كما أن فيها كثيرا من الخيال الذي يبدو للناس في أول نظرهم ، وأخذ يبحث حتى قال : لعل حبيبتى لما رأت هذا الجسم لا يصلح مستقرا لها توجهت إلى هذا العالم العلوي المتلائم الجليل ، ولا بد أن تكون هذه الروح بسيطة : أعني لاجزاء لها ، والذي لاجزاء له لا ينفى ، لأن الفناء يكون بتحليل الأجزاء في المركب ، والروح لاجزاء له فلا فناء له ، هناك أخذت روحه تفكر في العالم العلوي الذي ظن أمه وصلت إليه ، وقال عسى أن يكون الذي أجرى هذه الكواكب قد استودعت تلك الروح عنده ، وأنه هو نفسه خير منها ، بل هو الذي ينبغي أن أسعى للقائه ، ثم نظر فقال إن هؤلاء الحيوانات اخواني ، وهذا النبات خلقه الله لنا ، فعلى أن أرى هذه المناوقات ، ويظهر أني خليفة ذلك الخالق عليها ، وإذن أنصر المظالم وأنفع كل محتاج ، وتكون لي شفقة ورحمة ، لأن ذلك الذي ذهبت إليه أمي رهوف رحيم ، إني أراه قد أكره الماء في الجزيرة والكلأ والفاكهة ، وجعل الحيوان آكل النبات ، والنبات متغذيا بالعناصر ، وهو كثير الرحمة فلا قلده أنه خلق أمي لأتعلّم منها الحب والعطف ، وهو الرحيم فلا أعطف على عباده ، ثم نظر الكواكب وعرف السموات على مقتضى ماعرفه القدماء ، ثم أخذ يخترع طريقا للعبادة ليقرب من ذلك الذي صنع السموات ، فدار على نفسه كما تدور الكواكب ظنا منه أن دورانها عبادة إلى آخر ما جاء في ذلك الكتاب . أقول :

وانما ذكرت لك ذلك أيها الذكي لتعلم أن العلماء السابقين لم يكونوا ناثمين ، بل ألفوا كتباً لا يقاظ الأمة ونظروا في العالم وضربوا الأمثال ، وكان هذا الكتاب أشبه بما جاء في هذه الآية ، فان تحليل الطير على يد الخليل في القرآن من النظر إلى هذا العالم ، وأنا لا أقول : ان ابن الطفيل ألف الكتاب اقتباسا من الآية كلا هو ألفه بعقله وصفاء ذهنه ، وجودة قريحته ، ولكن أقول : ان مسألة الطير في القرآن فتحت لباب النظر من هذه الوجهة .

واذا كان كتاب كيلة ودمنة جاءت فيه الأمثال على لسان الحيوانات ، وكثير من الحكايات التي يتداولها المتعلمون ، وقد جعلت للعقلاء تذكرة ، وللحكماء تبصرة ، وللسؤاس في الممالك عبرة ، وفيها من الدقة والحكمة والأخلاق والآداب مالا ينال غاية الأولوا الألباب ، فبالأولى الكتب السماوية التي تنشر بين العوام والخواص ويحفظها الصبيان ، فيقرءون مسألة الطير وهم فرحون ، فأما العالم فانه يرى فيها فتحا لباب النظر ومنفذا للحكمة ، ولقد جاء كتاب ابن الطفيل موافقا لما ذكرته لك ، ولقد جعل كتاب [روبنسون كروزو] وهي الرواية المشهورة الانجليزية على منوال هذا الكتاب ، ولقد انتشرت في أوروبا ، وماسطرها مؤلفها إلا بعد ما قرأ كتاب [حيّ بن يقظان] كما قرأت ذلك في بعض الكتب ، ولقد كان الفيلسوف [روسو] الشهير يذم الكتب وتعاليمها ويأمر الشبان أن يقرءوا هذه الرواية ومدحها مدحا كثيرا ، وقال انها تعلم الحرية الفكرية . ولا شك أن كتاب [حيّ بن يقظان] أجلّ منها وان كانت هي منسوجة على منواله ، لأن قصة

[رو بنسون كروزوا] تعلم الاستقلال في العمل والجد والاعتماد على النفس والمخاطرة فحسب ، وليس فيها عظيم عناية باتقان العلم ، هذا ما أردت شرحه في الطريقة الثالثة ، الى هنا انتهت الطرق الثلاث للنظر العقلي .
وأما تحضير الأرواح فاني أحيلك على ما تقدم في هذه السورة عند قوله تعالى « فذبحوها وما كادوا يفعلون » الى آخر الآيات ، فقد ذكرت هناك تاريخ هذا العلم في أوروبا وأمريكا وانتشاره ، وقد طبقته على القرآن في كتاب الأرواح ، والآن أذكر ماقالته في هذا المقام عند وفاة المرحومة والدتي سنة ١٩١٨ وكتب في جريدة الأخبار تذكرة لأولى العقول الشريفة .

جاء في عدد يوم الثلاثاء ٢٨ شوال سنة ١٣٣٩ هـ ، ٦ أغسطس سنة ١٩١٨ م ، ٣٠ أيب سنة ١٣٣٤ تحت عنوان :

العلم والبدع وواجب العلماء

كتب اليينا أحد الفضلاء يذكر مقال فلان في وفاة المرحومة والدته من تجافى البدع ولزوم أوامر الدين وسنة السلف الصالح ، فرأينا أن ننشر كتاب هذا الفاضل مؤملين أن يعتبر بما في الكتاب المذكور اخواننا المسلمون . قال حضرة الكاتب : منذ أيام توفيت والدة الشيخ طنطاوى جوهرى ببلدة كفر عوض الله حجازى بمركز الزقازيق فاجتمع أهل البلاد المجاورة لتشيع الجنازة ، وحضر الاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى وحضرة الاستاذ الشيخ عبد الحكيم القاضى بالمركز فوقف الشيخ طنطاوى مخاطبا من حضر من نساء قريته ، وقال لهن : معاشر السيدات أطلبن منى أن أحاطب والدتي في أذنها ايذانا باعلامها بحضوري فلتعلمن رعا كن الله أن أرواح الأموات لاتزال حية ، وأنها تسمع وتبصر وأن والدتي ترفرف روحها على حيثما كنت اليوم إذقت من القاهرة ولا تزال ترانى الآن .

ان علماء ديني أخبروا أن لليت عاما بذلك ، ونحن بذلك موقنون ، فلتطمئن كل منكن على والدتي ولتعلمن أن للأموات عاما ببعض أحوال الأحياء ، ومن ذلك أنهم يحزنون ويجزعون لبكاء أقاربهم عليهم فان كل امرئ إذا علم أن حبيبته يحزن لأجله ويرق له يودلو يخفف من لوعته ويكف كف من دمعته ويقلل من حسرتة ويكشف من غمرته ، وربما يشير إلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « ان الميت ايعذب ببكاء أهله عليه » ، ولقد علمنا من بعض أهل الاطلاع المغرمين بتلك العلوم أن هذه حقيقة ناصعة كشفها العلم الحديث ، واطمأنت لها النفوس تصديقا لكلام النبوة وتحقيقا للمعجزة النبوية .

واقعد كان صلى الله عليه وسلم يعاهد النساء أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينه في معروف ، ولا يكيين على ميت ، فقالت إحداهن يارسول الله لا أعطيك عهدا حتى أذهب إلى فلانة فأسعدھا بالبكاء كما بكيت هى على قريب لى فأباح لها ذلك فقالت : أعاهدك يارسول الله ولم أبك بعدها على ميت ، ثم أتى الشيخ إلى إحدى السيدات ، وقال لها : ألم ترى أن أهل مكة لا يكيين على ميت ، فقالت انهن لا يكيين بل يحزنن أيديهن ، ويلبسن الأبيض فقال الشيخ : ان هؤلاء مسلمون ، ونحن متبعون في ذلك عادات الجاهلية الأولى ، لماذا تبكى الواحدة منكن على أخ أو والد أو حبيب ؟ وهى فى الحقيقة تعذبه بالبكاء ، يا نساء قريتي اتبعننى أهدكن سبيل الرشاد ، اتبعننى واتركن البكاء إلا ما كان من دمة جرى بها القضاء فلا بأس ، فقالت إحداهن : يا ابن أختى نحن نعاهدك كما عاهد النساء النبي صلى الله عليه وسلم ، فسكتن جميعا واستبشرن وفرحن وانشرحت صدورهن ، فقال الشيخ لهن : شرح الله صدوركن ، فلقد ماتن إلى الدين ، وسيكون لوالدتي ثواب بعض هذا ، فقال النساء بلسان واحد

عاهدناك على ذلك ما لم يغلب البكاء ، وكان الشيخ إذ ذاك يتصبب عرقا ، فقالت احداهن : كفى كفى فان
سفرنا في الحر ومفاجأتك بالفاجعة ، ووقوفك بيننا كل ذلك أنعبك ، فقر عينا وانشرح صدوا ، واسترح انتهى
المقصود منها . هذا ، ولما فرغ من الكلام على نظام التوحيد ، وماتبعه أعقبه بالكلام في القسم الثاني ، وهو
الانفاق ، وهذا هو :

(المقصد الثامن عشر)

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ
سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا
لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ
أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * أَيُّوْدُ أَحَدُكُمْ أَنْ
تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفُهُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ
وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ
تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ
وَاللَّهُ يَعِدُكُمُ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ
الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ
أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ
وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمُ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَيْرٌ * لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَلَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ
لَا تُظَاهَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ
الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيَاهِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْلَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *

ايضاح قد دخل فيه التفسير اللفظي

أى (مثل) نفقة (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة) يخرج منها ساق يتشعب منها سبع شعب لكل شعب منها سنبلة فيها مائة حبة .
واعلم أن التمثيل بالحبة ليس يلزم منه وقوع المثل به ، وقد وجد نحو ذلك في الذرة في العصر الحاضر
وربما يكون في القمح وفي الدخن في الأرض المغلة (والله يضاعف) هذه المضاعفة (لمن يشاء) من المنفقين
على حسب الاخلاص وكماله (والله واسع) الفضل لاضيق فيما يتفضل به (عليهم) بنية المنفقين (الذين
ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا) بعد النفقة (منا) بأن يعتد على من أحسن إليه
باحسانه (ولا أذى) وهو أن يتناول عليه بسبب ما أعطاه (لهم أجرهم عند ربهم) أى ثواب انفاقهم
(ولا خوف عليهم) من بخس الأجر (ولاهم يحزنون) من فوته ، ثم أفاد أن الرد الجليل والتجاوز عن
سائل الحاجة (خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى) عن انفاق بمن وأذى (حليم) عن معاملة من
من يمن ويؤذى بالعقوبة ، ثم قال (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا) أجر (صدقاتكم باليمن والأذى ك) ابطال
المنافق (الذى) يرأى بانفاقه فثل المرائى في انفاقه كمثل سحر أملس (عليه تراب فأصابه) مطر عظيم القطر
(فتركه صلدا) أملس نقيا من التراب (لا يقدر على شيء مما كسبوا) لا ينتفعون بما فعلوا رياء ولا يجدون
لهم ثوابا فيه (والله لا يهدي القوم الكافرين) إلى الخير ، ثم قال (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء
مَرْضَاتِ اللَّهِ ، وتثبيتا من أنفسهم) أى تحقيقا للجزاء صادرا من أصل أنفسهم ، والجنة البستان ، والربوة
الموضع المرتفع وشجره يكون أحسن منظرا ، وأذكى ثمرا ، والواابل المطر العظيم القطر ، و (آتت أكلها ضعفين)
أى آتت مثلى ما كانت تثمر بسبب الواابل ، فالضعف هنا المثل ، والطل المطر الصغير القطر . والمعنى أن نفقات
هؤلاء زاكية عند الله ، وإن كانت تتفاوت قلة وكثرة كما أن الجنة تؤتى ثمرها ضعفين سواء أ كان المطر
وابلا أو طلا لجودة تربتها وحسن منبتها (والله بما تعملون بصير) هذا تحذير من الرياء ، وترغيب في صفة
الاخلاص ، وقوله (أبوء أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل
الثمار وأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء فأصابها أعصار فيسه نار فاحترقت) الأعصار ريح عاصفة تنعكس
من الأرض إلى السماء مستديرة كالعمود . شبه حال المرائين في الانفاق بحال رجل له جنة فيها النخيل والأعناب
وجميع الثمرات ، والأنهار تجري من تحتها ، وقد أصابه الكبر ، وذريته ضعفاء صغار لا قدرة لهم على الكسب

فأصاب هذه الجنة اعصار فيه نار فاحترقت ، فهكذا المرائي قد ينفق الأموال الكثيرة العظيمة بلانية صادقة ، فاذا جاء يوم القيامة ، وهو في أشد الحاجة إلى الثواب ، وليس له ولي ولا نصير ولا شفيع لم ينل الثواب وحرم منه في حال هو أحوج فيها إليه (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) ، ثم قال (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا) تيمموا تقصدوا (الخبيث) الرديء (ولستم بأخذيه) أي وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لرداءته (إلا أن تغمضوا فيه) أي تسامحوا

يقول الله للمؤمنين : أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومن الذي أخرجنا لكم من الأرض فانه خلقنا أنبتناه لكم وسخرنا الهواء والشمس والكواكب والماء والأرض وبعض الحشرات والدواب في تنمية المزارع فليس لكم فيها إلا أقل الاعمال ، فكيف تبخلون بها على عبادي ؟ فانا المخرج من الأرض ، وأنا المنهي للزرع وأنا الأمر بالانفاق ، هذا هو الذي يحويه قوله « وما أخرجنا لكم من الأرض » ثم قال ولا تقصدوا الرديء منه تنفقون كأن تعطوا الفقير الحشف وتصطفوا جيد التمر لكم ، وعن ابن عباس رضي الله عنه ، كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره ، فنهوا عن ذلك فهلا عاملتم اخوانكم بما تعاملون به أنفسكم ولستم بأخذيه الأعلى طريق المسامحة (واعلموا أن الله غني) عن انفاقكم ، وإنما يأمركم به لتخرجوا من التعلق بحب المال الذي يهلككم ويحببكم في هذه الدار فتجزعوا عند فراقها (جيد) بقبول ما تنفقون واثابكم عليه ، ثم قال تعالى (الشيطان يعدكم الفقر) في الانفاق ويغريكم بالبخل ، والعرب تسمى البخل فاحشا (والله يعدكم) في الانفاق (مغفرة) ذنوبكم (والله واسع) الفضل لمن أنفق (عليم) بانفاقه (يؤتي الحكمة) تحقيق العلم واتقان العمل (من يشاء ومن يؤتي الحكمة ، فقد أوتي خيرا كثيرا) فانه خير الدارين (وما يذكر) وما يتعظ بما قص من الآيات (الا أولوا الألباب) ذوو العقول الخالصة من شوائب الوهم والركون إلى متابعة الهوى (وما أنفقتم من نفقة) قليلة أو كثيرة سرا أو علانية في حق أو باطل (أو نذرت من نذر فان الله يعلمه) فيجازيكم عليه (وما للظالمين) الذين ينفقون في المعاصي وينذرون فيها أو يمنعون الصدقات (من أنصار) ، ثم قال تعالى (ان تبدوا الصدقات فنعما هي) أي فنعم شيئا ابدأوها (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير) ترغيب في الاسرار ، والاسرار في صدقة التطوع أفضل من العلانية ، وكذلك صدقة الرجل الذي لم يعرف بالمال ، أما صدقة الفرض من غيره فإظهارها أفضل ، وعن ابن عباس صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا .

ولقد كان المسلمون يتصدقون على فقراء أهل المدينة ، فلما كثر المسلمون نهى رسول الله ﷺ عن التصدق على المشركين كي تحملهم الحاجة إلى الدخول في الاسلام لحرصه ﷺ على اسلامهم ، فنزل (ليس عليك هداهم) أي ليس عليك هداية من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لاجل أن يدخلوا في الاسلام فحينئذ تتصدق عليهم فأعلمه الله تعالى أنه انما بعث بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله باذنه ، فأما كونهم مهتدين فليس ذلك عليه (ولكن الله يهدي من يشاء) أي يهدي من يشاء هداية توفيق ، وأما هداية البيان فعليك فلما نزلت هذه الآية أعطوهم وتصدقوا عليهم (وما تنفقوا من خير) مال (فلا أنفسكم) فهو لأنفسكم (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) أي لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله (وما تنفقوا من خير يوف إليكم) أي ثوابه أضعافا مضاعفة (وأنتم لا تظلمون) لا تنقصون ثواب عملكم بالنفقة ، اعمدوا (للفقراء الذين أحصروا) أحصرهم الجهاد (في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض) أي لا يستطيعون ذهابا فيها للكسب لاشتغالهم

بالجهاد (يحسبهم الجاهل) بحالهم (أغنياء من التعفف) أى من أجل التعفف (تعرفهم بسيماهم) من الضعف وراثته الحال (لا يسألون الناس الحافا) الحافا . ونزل في أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين تصدق بأربعين ألف دينار : عشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة سرّا وعشرة علانية ، وقيل في أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، لم يملك الأربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرّا وبدرهم علانية (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّا وعلانية ، فلم أجزم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) انتهى التفسير اللفظي .

مباحث هذه الآيات ثلاثة

(١) تلخيص هذه الآيات التى فيها أمثال المنفقين والانفاق (٢) علاقة هذه الآيات بالحال الحاضرة وكيف قامت الاشتراكية فى العالم الانسانى ، وارتجت الأرض بسبب الأحوال المالية ، وكيف كان القرآن يدعو إلى العطف والمحبة العامة ، وأن المسامين أسرة واحدة والمال بينهم بمودة ومحبة ، وما الذى يجب فيه الصدقة من المال (٣) أفضل عبادة المسلم التفكير فى الرياض والحقول والسموات .

المبحث الاول تلخيص الأمثال المذكورة فى الانفاق والمنفقين

هاهنا أربعة أمثال : مثل الحبة والسنبلة ، ومثل الحجر والتراب ، ومثل الحديقة ، ومثل البستان الذى احترق لما أصابته نار ، هذه أمثال ضربت لحال المنافقين والمخلصين .
يقول فى أولها ، وهو مثل الحبة والسنبلة : يأبىها الناس انما أموالكم كجبات ، فاذا أنفقتموها فى النفع العام ، وهو سبيل الله كتعليم أبناء الأمة أخذ المتعلمون يزدادون بنسبة المضاعفات المطردة ، ونما عددهم وكان ثوابكم يوم القيامة تبعاً لهذه النسبة أبداً وأمداً ، هكذا فى الصناعات والزراعات والسياسات ، وكل عمل تعملونه يزداد ثوابه بازدياد نموه وارتقاء نتائجه ، فأما مثل الحجر والتراب فقد شبه المرائين ، وقد أنفقوا بمن وضعوا التراب على الحجر فعصفت به الرياح ، وذرت السافيات ، وطيرته الذاريات ، فلا نبات به يقوم ولا خير منه يرتجى ، فأما ثالث الأمثال فذلك مثل الجنة النابتة أشجارها بربرة فآتت أكلها ضعفين فان لم تغث بوابل فطل ، فهى أبداً مشمرة مزهرة ناضرة ، وذلك مثل المخلصين ، فأما رابع الأمثال فهو تهويل لحال القوم الذين يراءون ولا يخلصون ، فهو أشد من الثانى اذ شبه المرائى بصاحب جنة ذات أشجار ونخيل وقد أصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء ورجا خيرها فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت ، فهو بانفاقه الجحيم من المال يرجو عزة قعساء ، وفضلا واسعاً ، فلما أن حرم من الاخلاص هدم بنيانه .
ولقد يكون الانسان فاضلاً سابحاً فى بحار الحكمة فيتخطبه الشيطان فيغويه فيضل سواء السبيل بعد أن غرس الحكمة وطفق يحنى ثمارها فانقضت صاعقة الشهوات فأذهبت الثمرات .

مطالب هذا القسم

لقد أدركت ماسلكه الله فى أول القسمين ، وهو التوحيد ، وقد فصله ثلاثة أقسام وحشر فى آخرها علوم الطبيعيات والتحليل والتركيب والصناعات ، فأما هذا القسم فقد ازدان بسبع جواهر نضرات ويواقيت باهرات ، وهى تعالى عن الرياء والايذاء وخوف الفقر بوعيد الشيطان ، وانفاق الخيث واتباع الحكمة والانفاق على مدى الأيام والأحوال سرّا وجهاً ليلاً ونهاراً ، وبيان المنفق عليهم .
(١) فأما ترك الرياء فذلك واضح فى الأمثال المضروبة كما فهمت ، وأما الباقي فهو يقول :

- (٢) أيها الناس إياكم أن تبطلوا الصدقات بالئن على المساكين وأذى الطالبين
- (٣) وإياكم أن يخيفكم الشيطان بوعيده ويزعجكم بتهديده فيخيفكم من الفقر ويأمركم بكنز الأموال
- (٤) والافتاق من الحكمة العملية
- فالحكمة علم وعمل فمن أوتيها فقد نال الخيرات ورزق أعظم الثمرات ، وهل يذكر الأولوا الألباب
- ألا وإن الله يعلم صدقاتكم المعطاة ونذوركم المعقودة ، فأوفوا النذور .
- (٥) ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون فانكم لا تأخذونه الا مغمضين ولا تقبلونه الا كارهين فعاملوا بما
- تحبون أن تعاملوا به .
- (٦) فأعلنوا الصدقات وأخفوها ، فانها في الحالين محجوبة مطلوبة ، ولا يصدنكم الشيطان فتقولوا
- لا تنفق خيفة الرياء ، فان ذلك ضلال مبين .
- (٧) فأما سابعها فهم المنفق عليهم : كأهل الصفة ، وهم نحو أربع مائة من فقراء المهاجرين منهم الجهاد
- في سبيل الله ، وطلب العلم لا يستطيعون ذهابا في الأرض للكسب لانكبا بهم على طلب العلم والغزو (يحسبهم
- الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا) أى الحاحا ، يقال ألحفتى فضل لحافه : أى
- أعطاني من فضل ما عنده .

المبحث الثاني

اعلم أن مسألة المال اليوم هي الشغل الشاغل للنوع الانساني ، وترى الحرب الكبرى التي قلبت وجهه الأرض لم يكن لها سبب الا المال ، فالنوع الانساني بعد أن استعبده الملوكة ، وقد خضعت شوكتهم وضعفت سلطتهم ، وأصبح الأمر شورى في أغلب الممالك جاء له دور المال ، وصار هو الذي به تقوم الممالك وتقعده وله وحده قامت الحرب الحاضرة ، وانتهى ملك دولة القياصرة ببلاد الروس ، وقسمت الأرض على الفلاحين ، وأصبح البلشفية يأمررون الناس جميعا بالعمل وزلزلت رؤوس الأموال زلزالها .

فانظر في آيات القرآن كيف أمر بالافتاق وحض عليه وعلى الاخلاص فيه . البلشفية لا يهتمهم الاخلاص وإنما أخذوا الأرض نهبا من أربابها ، والقرآن يقول : ليكن المسلم مخلصا في انفاقه شاعرا أن المال مال الله وأن الأرض لله ، وهو الذي أخرج النبات وأنما وأثمره ، فليعطه للفقير اخلاصا لله لا خوفا من السيف ، فإذا يطلب القرآن ؟ يطلب مطلبنا فوق ما تقوله البلشفية ، ولأقص عليك ما ذكره الأمام الغزالي في الاحياء :

قال : ان شرط تمام الوفاء بافراد المعبود بالعبودية في الشهادتين أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فان المحبة لا تقبل الشراكة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى ، وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقة المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلائق لانها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون من الموت ، والامتحان بأمرين : بذل النفس في سبيل الله ، وبذل المال ، ولقد انقسم الناس في بذل الأموال ثلاث فرق :

الفرق الأول : نزلوا عن جميع أموالهم ولم يدخروا دينارا ولا درهما وأنفوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم ، قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ قال أمان على العوام بحكم الشرع نفمسة دراهم ، وأمانحن فيجب علينا بذل الجميع ، ولهذا تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله ، وعمر رضي الله عنه بشرط ماله ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال مثله . وقال لأبي بكر رضي الله عنه ما أبقيت لأهلك ؟ قال الله ورسوله . فقال صلى الله عليه وسلم : بينكما بين كلمتيكما .

الفريق الثاني : الممسكون أموالهم ، ولكن ينفقون الزكاة وغيرها ، وليس الانفاق خاصا بما جاء في كتب الفقه مما سايينه قريبا كالا ، بل يجب اعانة المحتاج وذوى القربى وما أشبه ذلك غيرمافى الزكاة . وهذا مذهب النخعي والشعبي وعطاء ومجاهد ، فهؤلاء يوجبون صرف المال في وجوه البر ، وفي مواسم الخيرات . ويحرم عندهم التنعم ، وما فضل عن مقدار الحاجة يصرف ، ويستدلون بقوله تعالى «ومما رزقناهم ينفقون» وقوله « وأنفقوا مما رزقناكم » قيل للشعبي هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال نعم أما سمعت قوله عز وجل « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى » الخ .

الفريق الثالث : أن يقتصر على أداء الزكاة المفروضة ، وهذا أقلّ المراتب . وهذا ملخص ماقاله الغزالي

مقاله العلماء في الزكاة الواجبة

زكاة النعم

ولا تجب هذه الزكاة ولا غيرها الا على مسلم حرّ . وزكاة النعم [الابل والبقر والغنم] تجب إذا كانت سائمة : أى ليست معاوفة ، بل ترعى في المراعى المباحة ، فأما إذا ظهرت السكفة في مؤنتها بان علقت وقتا وسيمت وقتا ، أو علقت دائما فلا زكاة فيها ولا بدّ أن يحول عليها الحول في ملك المالك ، ويشترط أن يكون مطلق التصرف في ماله ولا بدّ أن يكون نصابا ، والنصاب في الابل أقله خمس وفيها جذعة من الضأن والجذعة هى التى تكون في السنة الثانية ، أو ثنية من المعز وهى التى بلغت السنة الثالثة ، وفي عشر شاتان ، وفي خمسة عشر ثلاث شياه ، وفي عشرين أربع شياه ، وفي خمس وعشرين بنت مخاض من الابل ، وهى التى في السنة الثانية ، وهكذا :

وأما البقر فلا شئ فيه حتى يبلغ ثلاثين ففيها تبيع ، وهو الذى في السنة الثانية ، ثم في أربعين مسنة ، وهى التى في السنة الثالثة ، ثم في ستين تبيعان ، واستقر الحساب بعد ذلك ، ففي كل أربعين مسنة ، وفي كل ثلاثين تبيع . وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز ، ثم لاشئ فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ، ففيها شاتان إلى مائى شاة واحدة ففيها ثلاث شياه إلى أربعين ففيها أربع شياه ، ثم استقر الحساب في كل مائة شاة .

زكاة الركاى والمعادن

الركاى دفين الجاهلية ، وقد وجد في أرض لم يجر عليها ملك لمسلم ، فعلى واجده في الذهب والفضة الخمس ، أما المعدن ففيه ربع العشر ولا يكون إلا في الذهب والفضة .

زكاة الذهب والفضة

وتكون الزكاة في الذهب والفضة إذا ملكهما الانسان حولا كاملا ، وكان الذهب عشرين مثقالا ، وكانت الفضة مائى درهم وفيها ربع العشر ، وهو نصف مثقال في الذهب ، وخمسة دراهم في الفضة .

زكاة التجارة

وزكاة التجارة كزكاة النقدين ، وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقد الذى به اشترى البضاعة ، وتقوم عروض التجارة عند آخر الحول بما اشترى به . وقال داود الظاهرى : لا تجب الزكاة بحكم التجارة

في العروض إلا أن ينوى به التجارة في حال تملكه .

الزكاة في الزرع

أوجب أبو حنيفة الزكاة في كل ما يقصد من نبات الأرض كالقواكه والبقول والخضراوات كالبطيخ والبقلاء والخيار ونحو ذلك .

وجهور العلماء أوجبوا الزكاة في النخيل والسكر والسكرور ، وفي كل ما يقتات به ويدخر من الحبوب ، ويجب إخراج العشر فيما سقى بالمطر والأنهار والعيون ، ونصف العشر فيما سقى بنضح أو سانية ، والسانية هي التي يسقى عليها سواء أكانت من إبل أو بقر أو غنم .

ولا يجب العشر في الثمار والزرع حتى تبلغ خمسة أوسق ، والوسق ستون صاعا . وقال أبو حنيفة : يجب العشر في كل قليل وكثير من الثمار والزرع . وأجمع المسلمون على أن الزكاة لا تصرف إلا للمسلمين وهم المذكورون في [سورة التوبة] . وجوز أبو حنيفة صرف صدقة الفطر إلى أهل الذمة ، وخالفه سائر العلماء ، وأما قوله تعالى : « وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله » التي وردت في التصديق على المشركين كما تقدم فأنما هي في التطوع لا في الزكاة المفروضة ، فصدقة التطوع تصرف لفقراء المسلمين وفقراء أهل الذمة .

صدقة الفطر

هي واجبة على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته صاع مما يقتات ، ويخرجه من جنس قوته ، أو من أفضل منه ، ويجب على المسلم فطرة زوجته ومما يليه وأولاده ، وكل قريب تجب نفقته عليه من الآباء والأمهات والأولاد اهـ

هذه هي الزكاة ، وهذه آراء العلماء في الانفاق ، فانظر كيف أوجب بعضهم صرف جميع المال ، وبعضهم أوجب صرف ما فضل عن الحاجة ، وهذان المذهبان الإسلاميان أعلى ما يتصوره العقل البشري ، والإنسانية اليوم يعوزها عقول ترقى المدارك البشرية حتى يرى العالم والطبيب والمهندس وعالم الدين أن الناس اخوته ، فليبدل نفسه لهم وجميع أعماله .

فعلى الناس أن يبذلوا مواهبهم في سبيل المنفعة العامة ، ويستخرجوا جميعا خيرات الأرض ، وخيرات الصناعة والزراعة ، فإذا عجز أحدهم ، وهو مجتهد في عمله عن قوته وجب اعانته ، وليكن ذلك بصدق وإخلاص وليكن الآخذ مجتهدا لا كاسلا نائما ، والاحرم ، وهذه التعاليم ان أظهرت في الاسلام نكون أرقى أمة في الأرض . أوليس من المجائب أن يقوم [تولستوى الروسى] الشهير بفرض أرضه على المزارعين وهي تعد بعشرات الآلاف من الفدادين . كيف يظهر في أوروبا نابغون في العلم وفي الاحسان ، والمسلمون نائمون . اللهم ارفع شأن علمائها وعقلائها حتى يرفعوا مستواها ، انك أنت السميع العليم .

المبحث الثالث

أفضل عبادة المسلم التفكير في الرياض والحقول والبساتين

من لى بأن يسمع المسلمون صوتى في أقاصى البلاد ، من لى بأن ينظر أبناء العرب والترك وأهل الهند والصين والجاويون والسودانيون مقاصد القرآن ، ووجهته التي تربي العقول والنفوس ، وترفع مستوى الانسان إلى مصاف الملائكة ، وأن يكون المسلمون خلفاء لله على عباده رجاء ، لاضعفاء جبناء ، لا تتخطفهم الأمم

من كل جانب . انظروا أيها الاخوان ما جاء في القرآن من الأدلة وأنواع التشبيهات تزورها نحو المشاهدات المحسنة وعلوم الطبيعة :

(١) فان أمر بالعبادة قال في سورة البقرة : « الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » ووصف انزال الماء ، واحياء الحقول والبساتين والثمر والحب والكلأ .

(٢) وان استدلل على التوحيد قال في سورة البقرة : « إن في خلق السموات والأرض » الآية ، وأخذ يشرح اختلاف الليل والنهار ، وسير الفلك في البحر ، والسحاب والمطر والنبات .

(٣) وان طلب منا الشكر قال : « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحا طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » فليكن الشكر على تسخير البحر والسمك والدور والمرجان والسفن الجارية فيه .

(٤) وان ذكر الحكمة والحكماء والعلم والعلماء قال : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ومن الناس الدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » فجعل الخشية والعلم يرجعان للنظر في الألوان والأشكال في الانسان والحيوان والجبال والدواب ، فانظر كيف نام المسلمون .

(٥) وان ذكر اليوم الآخر واستدل على البعث قال : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة » يذكر خلق الانسان من تراب يصير نباتا وحيوانا بالزرع والتغذية منه فيكون دما فلهما أوراقا وثمرات للتغذية الحيوان بالزرع ، والزرع يغتذى من عناصر الأرض وهو التراب ، ثم يكون نطفة فعلقه فضضة قطعة متجمدة بمقدار ما يعضغ الناس في الفم من اللقمة وهكذا ، وذلك هو علم الأجنة ، ولقد ظهر هذا العلم في المدارس العالية في جميع العالم .

(٦) وان حرض على الانفاق في المنافع العامة قال يصف زيادة الحسنات للنفق بازدياد الحب في السنابل : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل » .

(٧) وان ذم النفاق مثل بالليل وظلمته ، والنار وإيقادها ، وسرعة ذهاب نورها .

(٨) وان مثل الكفر جعله كالظلمات ، أو القرآن جعله كالنار ، أو الوعيد جعله كالرعد ، أو الحجج جعلها كالبرق .

(٩) أو العدل جعله كالنظام العام في قوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »

(١٠) أو الرياء جعله كالخجر عليه تراب فأصابته ريح شديدة أظارته .

(١١) أو ذكر الاخلاص جعله كالجنات سقاها الغيث .

(١٢) أو التخويف من عواقب الرياء ذكر الحقائق فيها النخيل والأعشاب أصابها الزعازع والرياح العاتية فيها نار فاحترقت وصاحب الحديقة أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء .

(١٣) وان ذكر انقلاب الدول والممالك مثل بالليل والنهار إذ قال : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولى الليل في النهار » الآية .

ففي هذه المشاهدات مظاهر العبادة ، وأدلة التوحيد ، ومطالب الشكر ، ومبادئ الحكمة ، وموجبات

الخشية ، ودلائل البعث والقيامة ، ومثال ازدياد الحسنات ، ومشابهات النفاق ، وما يناسب الكفر ، وما يوافق العدل ، وما يوضح الرياء ، وما يشرح الاخلاص ، وما يبين انقلاب الدول . ذلك هو الذي اتجهت إليه وجهة القرآن .

عجبا لأمة نام عنها عماؤها ، وقتلها وعاطها ، أمة الاسلام هي الأمة التي أمرت أن تكون المزارع درسها والحدائق علمها ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والأنهار آياتها .

أيظن المسلمون أن تلك الأمثال والتشبيهات جاءت عبثا ؟ يقوم أليس الاعراض عن المشاهدات الطبيعية أشبه شيء بكفر النعمة ؟ أليس ذلك تحويلا لوجهة النظر العامة .

أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها : إن ربكم واحد ودينكم النظر في صنعه وعجائبه وجماله وحكمته وأنواره وشموسه وأقماره وأضوائه وبهائمه ، أفلا تسمعون ؟ أفلا تبصرون ؟ جاء لكم حكماء وعلماء كان سينا والفارابي والغزالي والرازي ، وأسمعوكم ما أقول اليوم ، فأيتهم وقتلتم انكم كافرون .

جاء ابن رشد بالأندلس ، وقال أيها المسلمون : علم التوحيد مبناه هذه العجائب والبدائع ، فانظروا في السهل والجبل والبر والبحر والشمس والقمر ، فانظروا في حسابها وعجائبها ، فكذبتموه وكفرتموه ، وطرده أهل الأندلس ، وبصقوا في وجهه ، فمات طريدا وحيدا ذليلا ، ثم حمل علمه اليهود والنصارى ، فارتقت أوروبا بعلمه في ثلثمائة سنة بعد موته من أول القرن السابع الى أواخر القرن التاسع الهجري ثم انقضوا على المسلمين فأفنوهم أجمعين ، وذلك جزاء القوم الجاهلين .

أيها المسلمون : أفكلما جاءكم عالم بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . أيها المسلمون أن الأوان ، وبهذا الكتاب وأمثاله سيستيقظ المسلمون سريعا ، وسيجيء جيل لم تشهد الأرض مثله ، وينظرون في هذه العوالم التي زوّقها الله وزينها للناظرين ، وجعلها بهجة العارفين ، وحكمة العالمين .

أيها المسلمون : هذا هو علم التوحيد ، علم التوحيد في الحقل والجبل والزرع والشجر والتمر والقمر لافي الكتب المصنفة المشهورة ، هي والله مبعدة عن حكمة الله ومعرفة آياته هي محلبة للشك ، ان القرآن أمركم بالنظر في جلال صنعة الله ، ودقائق حكمته ، وجمال بهجته ، ذلك هو القرآن ، اتبعوا ما أرشد إليه فوالله لينبغث في هذه الأمة نابغون يكونون بهجة الدنيا وزينة العالمين ، وليكونن أهدى الامم وأعلمهم بما في الكون ، هم خلفاء الله في أرضه هم المسلمون الصادقون ، ولن يكون ذلك بقراءة الكتب المشهورة ، لقد كنت أيام مجاورتي بالجامع الأزهر أردت قراءة [العقائد النسفية] مع المرحوم صديقي الشيخ محمد جابر بعد أن أتممت سني الدراسة ولم نجد من العلماء من يقرأها كما هو المطلوب ، فكنا نقرأ آراء الخيالي وعبد الحكيم الذين كتبوا عليها ونحن مبتهجون بتلك العلوم . وبينما أنا نائم إذ رأيت كأنني على شاطئ بحر وكأن هناك سمكا في الماء يقرب الساحل ونور النجوم لامع على جلد السمك فسمعت قائلا يقول : « لم يظهر من القرآن في هذا الكتاب إلا كما ظهر من الفلك على جرم السمك » اه

حكاية

جاء إلى مصر منذ سنين المرحوم الأستاذ السيد حسين الخياط ، مع الأستاذ الصوفي الشيخ الجربي ، والأستاذ السيد حسين كان مدرسا بمكة ، فلما سلم على قال : إني قرأت الشريعة والتصوف ، ولكن قراءة كتاب نظام العالم والأهم فتحت لي بابا كان موصدا ، وقد أرسله الى أحد تلاميذي من أسرة العطاس بناحية جازه ، ولما قرأته تعجبت من هذه الدنيا وغرائبها ، ورأيتك تقول : ان الماء قد حلل أمامك الى عنصرين

الأوكسوجين والأودروجين ، وأن هناك نظاما بديعا وحسابا متقنا بحيث يكون الأوكسوجين ثمانية أضعاف الايدروجين ، وأن هذه النسبة لو أخطأت لبطل التركيب ولم يكن ماء ، ولطالما كنت أقول : هل رأى المؤلف هذه العجائب بعينه ؟ ومن لى بان أذهب الى مصر فأرى المؤلف وأسمع منه ذلك ، فأنت المؤلف فهل هو حق ؟ قلت نعم أنا رأيته بعيني وأنا تلميذ بدار العلوم ، ثم توجهت معه اليها والى غيرها من المدارس الثانوية وشاهد العملية بعينه ، فقال :

ماشاء الله يا مصر قد خدمت الاسلام ! فقلت له : ان مصر لا تزال طفلة في هذا الموضوع وعلمها قليل جدا بالنسبة لأوروبا ، ومما قاله لى وهو سبب مساق الحكاية : أنا الآن صدقت كلام الشيخ الشعراى إذ قال : ان الاسلام فى أول أمره يكون شريعة ، ثم فى آخر الزمان يكون حقيقة ، فقلت وما فهمت فى هذا ؟ فقال الشريعة هى الأحكام الشرعية المعروفة فى الاسلام ، والحقيقة هى الأنفس والآفاق : أى معرفة علوم النفس والنظر فى هذه العجائب التى نشرحها من شمس وقر ونبات ، وهذه الكتب وأمثالها ستجعل وجهة الاسلام من الآن هذه الحقائق فى الأنفس والآفاق

مقارنة الاسلام بالنصرانية وعلوم أوروبا

اللورد افبرى الذى كان معاصرا لنا من كتاب الانجلىز وعظماهم أخذ فى كتابه محاسن الطبيعة فى التمهيد الذى فى أول الكتاب يصف القمر والنجوم والشمس وبهجتها فى طلوعها وغروبها ، وينقل عن العالم كندلى أنه كان يحب البوادرى ، وهو مغرم بجمال الطبيعة ، ويقول انه كان يؤنس الحصى والنحل والزهر ويتأمل فى الغياض والأجاث ، وهو يحاول فك الرموز والطالسم فى سفر الكائنات ، وينقل عن العلامة كبل أنه كان يقول : ما أحوج الانسان الى أن يرسل طرفه ، ويتأمل فى العوالم العلوية والسفلية عوالم المجد والجمال ، وبعد ما سرد كثيرا من ذلك صرح أن ذلك من قرائحهم لامن دينهم ، وأن دينهم كان عقبة أخرتهم الى الوراء إذ قال : ان الطوارىء التى حدثت فى الذى ورثناه من الدين قد صرفت عقولنا وحواسنا وعواطفنا عن جمال الطبيعة ، ثم سرد فوق ذلك معتقدات اليونان وأجداده هومن الانجلىز والأوروبيين من أن للغابات وللا نهر آلهة تحكمها ، وأن فى الماء جنا تخيفهم وتزعجهم ، وأن هناك أرواحا تغضب عليهم ويخافون من الجبال والغابات والبحار والبحيرات لتوهمهم أن الأرواح الخبيثة تسكنها العفاريت والغيسلان والجن والشياطين والسحرة ، ثم قال : ولما بزغت شمس العلم تمزقت تلك الحجب فأصبح العلماء يتهيجون بتلك المحاسن ثم قال : ان الأرياف مواطن الجمال ، وهى السحر الحلال اه مختصرا

ها هى ذه أوروبا ، وهذه عقائدها الدينية والوراثية ، والقوم هم أنفسهم حلوا هذا الوثاق وخرجوا من سجن الخرافات واستنشقوا نسيم الحرية فى الحقول ونظروا فى السموات والأرض ، أولست ترى أيها الذكى أن دين الاسلام الذى شرحت لك مقاصده فى هذا التفسير وفى هذه المقالة أيضا قد أطلق عقول المسامين من يوم البعثة النبوية وكشف لهم الغطاء عن السماء والارض وأراهم الشجر والثر والحب والزهر والفاكهة والأب ، وقال : أى عبادى هذه ارضى وسمواتى وجناتى وأعنائى ونخيلى وجبالى وفواكهى وحيتانى فى البحر ودرى ومرجانى وجالى باهر ظاهرتجليت عليكم بشمسى وبقمرى وبنورى وبنجومى فماذا جرى أيها الذكى ؟ هب المسامون فى القرون الأولى ، ثم ناموا نومة أهل الكهف ، ولما ظهر الأورويون وبهروا قالوا لنا اننا كشفنا الغطاء عن الأرض والسماء ونظرنا كل يابسة وخضراء ، فنقول حقا كان ذلك ونحن نيام ، وهذا دليل على أن نبينا آخر الأنبياء ودينه هو الباقي إلى آخر الزمان ، لأنه لا عفريت يمنعنا عن هذا الجمال ، ولا شيطان يخيفنا فى البحار ، ولا غول يهز رأسه فى الظلمات ، بل ان علومكم هى مقتضى ديننا ، ونحن وان كنا نمنا قرونا كثيرة سنبعث

أبحاثكم وقرأ علومكم ونعاو فيها عليكم ، لأنكم قرأتموها مفكرين ، ونحن نقرأها للعقل وللدين ، فيكون شوقنا أعظم وعلماؤنا أكبر ومدنيتنا أعظم ، أنتم بالنظر في السكون خالفتم كتبكم ، ونحن بالنظر فيه وافقنا ديننا وطابقنا بذلك معتقدنا ، وقد قال الله « ليظهره على الدين كله » ، وظهوره سيكون بهذه النظرات وارتقاؤه بهذه الآيات « ان في السموات والأرض آيات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » اهـ

تذييل

لقد كان أهل الشرق كالمصريين وأهل الهند قديما مغرمين بالنظر في المجائب والبدائع والتفكر في ابداع الخالق ، فلذلك عشقوا جمال هذه المشاهدات فأثرت في قلوبهم وأحيت نفوسهم وأيقظت عقولهم ، فزينوا الدنيا بعلومهم ، وزوَّقوها بصناعاتهم ، وهذا بتأثير أنبيائهم وحكمتهم الذين عشقوا هذا الجمال ودقنوه في الكتب وعلموه للشعوب ، فان الجمال في المخاوقات يرتسم في النفوس ، وهي تبرزه علما وصناعة ، وذلك كما ترى فيما وجد منقوشا باللغة المصرية القديمة بتل العمارنة ، وقد نقله الى اللغة الألمانية والفرنسية علماؤهم وترجم إلى العربية ، وتاريخ تدوينها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وهو نشيد ديني

(١) وصف الشمس الممثلة لعظمة الله : أنت العالم بأسرار الحياة تظهر بجمالك في آفاق السماء ، تشرق شمسك في الأرجاء فتملا الأرض بجمالك ، أنت الجليل العظيم البهي الذي تسطع أنواره على وجه الأرض وتحيط أشعته بكل أقطارك التي خلقتها ولمسكتها بحبك مهما بعدت عنا فأشعتك مائة الأرض كلها .

(٢) وصف الليل : حينما تغرب شمسك يظهر المساء وينشر الظلام في الأرض كلها وينام الناس في بيوتهم ويندرجون تحت غطائهم ، وتسكن حواسهم عن الحركة فلا يسمعون ولا يبصرون ، أنت الذي تحفظ لهم أرواحهم وأموالهم وأمتعتهم وهم في مضاجعهم غافلون ، ويرخي الليل ستوره فتخرج الأسود من عرنها والحيات من أوكارها وتسكن الطبيعة كلها .

(٣) النهار والانسان : تظهر عظمة شمسك في الأفق صباحا فتملا أشعتها أرجاء الأرض كلها . يطلع النهار وينجلي الظلام فتفرح الناس بظهوره ويستيقظون ويتوضئون ويرتدون ملابسهم ويرفعون أيديهم إلى السماء متوسلين اليك ثم يذهبون الى أشغالهم .

(٤) النهار والحيوان : متى أشرقت شمسك في الأفق تستقر المواشي في مرعاها ، وتزدهي الأشجار والنباتات وتفرح الطيور تمجيда لك وتنبعث الحيوانات على قوائمها .

(٥) الماء : اذا أشرقت شمسك في الافلاك سبحت في بحارها الافلاك ، وتمرح في لججها الأسماك ، وتتلأأ أشعتك على صفحات الماء فما أبدعك وما أسماك .

(٦) أنت الذي خلقت نطفة الأنام وصورت منها الأجنة في الأرحام وحفظتهم ووقيتهم الآلام ورفقت بهم في الرضاع والقطام ووضعت لهم الحنان في قلوب الأمهات والآباء ، فوفرت عليهم العويل والبكاء وهبت الحياة لسائر المخاوقات ، وأطلقت ألسنتهم بالكلام على اختلاف اللغات ، ومنحتهم ما يحتاجون من قوت ومعاش ومن غطاء وفرش ، أنت الذي تهب النسمة للفرخ داخل البيضة وتحببه ، فيصيح ويمشي عند خروجه منها تفضلا منك ، خلقت الأرض والسموات وأبدعت جميع المخاوقات ، وأعمالك لا تحصى ، واحسانك لا يستقصى ،

أنت الذي خلقت البلاد الأجنبية وسوريا وإثيوبيا ووادى النيل ، وخلقت كلا منها في مواقعها وسخرت لها حاجاتها ومنافعها ، وخصصت لكل انسان خاصياته ، وحددت له أيام حياته . أنت الذي خلقت الشعوب مختلفة الاجناس واللغات والألوان والصفات .

أنت الذي خلقت النيل حياة أبنائه ، وأنعمتهم بعذوبة مائه . أنت الذي تسوق الأرزاق للبلدان القاصية وتنزل

الأمطار على جبالها هامية فتتحدرا لمياه الى الحقول والبلاد لخصبها وترويتها ، ما أجلك يارب الأزل ، وما أجل
أوامرك العالية .

أنت الذى قسمت السنة فصولا لمصالح خلقك ونظام حياتهم ، قد ارتفعت فى علو سمائك لتبرز منها أشعة
شمسك ، وترى منها ملكوتك ، أنت وحدك الذى تشرق شمسك الحية المضيئة البارزة أشعتها ، قد خلقت
الارض لعبادك ، ومتى أشرقت علينا شمسك شخص الناس إلى جالك [هذا] هو الذى كان يناجى به
قدماء المصريين ربهم [والقرآن كله طافح بذكر الشمس والقمر والكواكب والنبات والحيوان والأشجار ،
واختلاف الألوان والألسن] فعلى المسلمون أن يفكروا ويبتهجوا بجماله .

هذا ، ولما انتهى الكلام على هذا المقصد شرعنا فى تفسير المقصد التاسع عشر فى بعض المعاملات فى
الأموال ، وهى الربا والدين والرهن .

(المقصد التاسع عشر)

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ
فَأُتِيَهُ فَفَلَهِ مَسْئَلَةٌ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *
يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ
مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُدُّوسُ
أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا
خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ
مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
فَأُكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ
فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي
عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا
شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ
أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْتَمِعُوا أَنْ

تَكْتَبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا
إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتَبُوهَا
وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَيَعْلَمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا
فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا
تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *

ايضاح داخل فيه التفسير اللفظي

وصف الله المتعاملين بالربا بأنهم يقومون من قبورهم يوم القيامة كما يقوم الذي يضربه الشيطان ضربا
على غير اتساق بسبب الجنون اتباعا لزعم العرب وأسلوبهم في التعبير عن حال المصروع ، وإنما ذلك لأنهم
سواء بين البيع والربا والله أحل البيع وحرم الربا . قال تعالى : (فمن جاءه موعظة من ربه) فمن بلغه وعظ
من الله وزجر بالنهي عن الربا (فله ماسلف) فلا يؤخذ بما مضى منه (وأمره الى الله) يحكم في شأنه
يوم القيامة (ومن عاد) الى الربا مستحلا (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لأنهم بالاستحلال صاروا
كافرين (يمحى الله الربا) يذهب بركته ويهلك المال الذي يدخل فيه (ويربى الصدقات) ينمى ويزيد
المال الذي أخرجت منه .

الربا قسمان : ربا فضل كما إذا باع ذهباً بذهب وفضة بفضة وحنطة بحنطة ، فذلك ممنوع فيه النسيئة
والتفاضل ، فأما فضة بذهب فالتفاضل جائز على شريطة المقابضة والافهور ربا النسيئة ، والفضل والنسيئة ممنوعان
ولقد فصله علماء الشريعة الغراء ، ومن عجب أن الربا الشائع في الأمم اليوم قسم ألحق بما فصله علماءنا .
وهو اللاحق بالقرض ، وهو قرض جرّ منفعة .

ان المسألة التي هي عقدة العقد واحدى الكبر ، وهى الربا قد هزمت الأمم هزيمة ، وستكون من
نتائجها الهزاهز والمحن على الأمم جمعاء ، ألم تركيف كان الاستعباد منوطا بثلاث ، ملك جائر ، ورئيس ديني ظالم
ومثر شحيح طامع ، هؤلاء هم الفجرة الاشرار الظلمة ، فأما الملوك الظالمون فقد قال الله فيهم « ان الملوك
إذا دخلوا قرية أفسدوها » كما يشاهد في بلاد الجزائر ومراكش وتونس وأمثالها من الأمم التي دوّخها
الفاطحيون ، وظلمها الملوك القاهرون ، وأما الرؤساء الضالون ، ففيهم قال الله تحذيرا لتابعيهم - اتخذوا أحبارهم
ورهبانهم أربابا من دون الله - أى مشرّعين مستبدين بالشرائع لا يعطون أمّتهم الا ما نهوا أنفسهم كما روى
أن عدى بن حاتم قال للنبي ﷺ لما نزل « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ما كنا نعبدهم
يارسول الله قال « أليس كانوا يحاون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟ قال نعم . قال هو ذاك » .

فأما القسم الثالث وهم أولو الحرص من الأغنياء والمستبدين من ذوى الثروة والجاه ، فقد قال الله فيهم
(فان لم تفعلوا فآذنوا) أى أعموا (بحرب من الله ورسوله) أوفأعلموا غيركم بحرب من الله ورسوله في الدنيا .
وذلك الحرب اما شرعى كما نص عليه المفسرون من محاربة ذى الشوكة المرابى إذا لم يتب أو حبسه وسجنه
وتعزيره ان لم يكن ذا شوكة ، وأما أن يعامل يوم القيامة معاملة المحارب ، فيعذب ويلقى في النار كأنه كان

يحارب الله ورسوله ، وأما بما يستأصل الأمم ويدهورها ويزيلها من الوجود كهذه الأمم الحاضرة ، فانك ترى الاشتراكيين يودون قلب النظام الحالي في الحكومات إذعاهوا أن الظلم واقع ماله من دافع على الفقراء والضعفاء من الأمم القوية وعلى كافة رجال الأمم الضعيفة ، ذلك بتحكم أرباب الأموال في نفوس المالك والعظماء ، فيكون الحرب والقتال كبضاعة يبيعونها وسلعة يزوجونها ، وبما يتحكم أرباب الأموال المرابون في العملة الضعاف ، وبذلك أصبحت حياة الأمم وعرة خطرة مشتهلة الأفئدة بنار الحرب ، وما موقدها في أفئدة الفقراء إلا أصحاب المال بنيران الذهب الوهاج المتقدة في حطب العمال ، فالفقراء بها يسجرون ، والأغنياء بنورها يفرحون ، وستكشف الحال ، ويصبح المنعم بها شقيا ، والمسجون بها منعم ، ستصير بردا وسلاما على الفقراء ، ونارا وسعيرا على الأغنياء ، إذا اصطدمت القوتان ، واقتتل الطائفتان ، أخذ المظلومون حقهم من الظالمين في هذه الحياة ، فبالك إذا وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، فهناك الجزء الأوفى ، وأن الى ربك المنتهى .

كما أن الزنا عاقبت عليه الشرائع السماوية ، فاما أهمل الناس ذلك عوقبوا بذلك الداء القتال ، وهو المسمى [الافرنجى] في بلادنا ويسمونه [الزهرى] وهو يشوه الجسم ويضعفه ، وهو يعذب المريض عذابا لا يطاق هكذا الرب لما أهمل الناس أمر الديانات في تحريمه جرعت الأمم غصص الاضطرابات من الاشتراكيين والحروب وهذا الحكم يشمل سائر الأمم والاجناس والممالك ، فأما ذلك الذى أكل الربا من أبناء جنسه واستبد به ووقفه على نفسه ، وقد أصبح الفقراء فيها جاهلين معذيين ، والأغنياء متمعين منعمين ، فان ما يلحق الأمة من فقر وأذى وجهل فاضح فانه لاجرم بأولئك الأغنياء لاحق فلا سبيل لسعادة امرئ مالم يعم السعد بلاده .

والا فكيف يتمتع بخادمه ويهنأ بصديقه وصاحبه ، ويأكل الثمرات ويعلم بنيه وبناته ، فانفاق الأموال من الأغنياء عناية بالجوع وسعادة للمجموع ، ولا عز لامرئ إلا إذا أحاط السعد بأتمته ، فانما هي موسيقى ذات فروع ، وهو أحد فروعها ، ان الانسان مدنى بالطبع ، لهذا السر « يحق الله الربا ويربى الصدقات » أى يذهب الله بركته ويهلك المال الذى يدخل فيه ، ويضاعف ثواب الصدقات ويبارك فيما أخرجت منه ، وعنه عليه الصلاة والسلام « ان الله يقبل الصدقة فيربى بها كما يربى أحدكم مهره » ، وعنه عليه الصلاة والسلام « ما نقصت زكاة من مال قط » (والله لا يحب) لا يرضى (كل كفار) مصر على تحليل المحرمات (أثيم) منهمك في ارتكاب الاثم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم) من مستقبل (ولا هم يحزنون) على فائت (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا) اتركوا بقايا ما شرطتموه على الناس في معاملات الربا (ان كنتم مؤمنين) بقلوبكم ، يروى أنه كان لثقيف مال على بعض قریش ، فطالبوه عند حلول الأجل بالمال والربا ، فنزلت (فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) أى فاعلموا بها ، من أذن بالشيء إذا علم به ، فيقاتل المرابي بعد أن يستتاب حتى يفيء الى أمر الله كالباغى . ولما نزلت هذه الآية قالت ثقيف لا يدلنا بحرب الله ورسوله (وان تبتم) من أن ترابوا (فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) فلا تأخذون الزيادة ولا يماطلكم المدين ولا ينقص مالكم (وان كان ذو عسرة) واذا وقع غريم معسر (فنظرة) فالحكم نظرة (إلى ميسرة) فلينتظر الدائن مدينه إلى أن يأتى اليسر من الله والفرج للمدين (وان تصدقوا) على المدين بالإبراء من الدين (خير لكم ان كنتم تعلمون) مافيه من الأجر والذكر الجليل والقدره الحسنة والسعادة النفسية (واتقوا يوما ترجعون فيه) الآية معناها ظاهر .

[تنبيه] ولقد كنت كتبت ما تقدم وأنا مدرس بدار العلوم قبل الحرب العائمة الكبرى بنحو ثلاث سنين كما تقدم وبقى التفسير حتى هذه السنة ١٩٢٣ وابتدئ بطبعه ، وقد حصلت الحرب من سنة ١٩١٤

وكان الصلح سنة ١٩١٨ ولا يزال الناس في هرج ومرج والأثم كلها في اضطراب واختلاط فحقق الله عز وجل ما جاء في كتابه ، وكانت الحرب وظهرت دولة [البلشفية] وهى التى قضت على دولة روسيا وعلى الاستئثار بالسلطة والمال ، ولست أقول : انى أعرف كل شئ عنها أو أحرص عليها ، وإنما أقول : ان وعد الله حق ، والحرب التى ذكرها الله فى القرآن من أجل المال قد قامت وذلك قوله : فأذنوا بحرب من الله ورسوله .

موازنة آراء علماء الإسلام فى الربا بأراء الاشتراكيين

يقول علماؤنا رحمهم الله فى قوله تعالى (وأحلّ الله البيع وحرم الربا) ان هذه الآية من المجمل الذى يرجع فى بيانه إلى الحديث الشريف فان قوله : وأحلّ الله البيع يفيد جواز جميع البيوع سواء أكانت فيما هو من جملة ما فيه الربا أم من غيره ، وقوله : وحرم الربا يقتضى تحريم جميع البيوع سواء أكان فيما فيه التفاضل فى النقد والنسيئة أم فى غيره لأن كل بيع يقصد به الزيادة ولا معنى للربا فى اللغة إلا الزيادة فيرجع فى هذا المجمل إلى الحديث الشريف ، وقد ورد فى الحديث بيان ما فيه الربا ، وهو ستة أشياء الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح .

والربا قسبان ربا النسيئة ، وروبا النقد ، ويقال له ربا الفضل : أعطى زيد عمرا عشرة دنانير إلى شهرين مثلا ليأخذ ١١ دينارا ، وهكذا البر والشعير ونحوهما ، فهذا هو ربا النسيئة .

وهكذا اذا أعطاه ١٠ دنانير فى الحال بما يوازنها من الذهب بان كان حاييا وزاد عليها زيادة ما ، وكان ذلك فى الحال فهذا ربا النقد ، ومثل ذلك ما إذا أعطاه برّا أو شعيرا مثلا عشرة أراذب وأخذ منه أحد عشر بان كان هذا رديئا ، وكان الأوّل جيّدا مثلا ، وكان فى الحال فذلك يقال له ربا النقد .

فأما اذا اختلف الجنس بان أعطى ذهبا بفضة أو قححا بشعير ، فذلك جائز فيه التفاضل نقدا يدا بيد ، ولم تكن العرب تعرف من معنى الربا إلا ربا النسيئة ، وهو المتعارف اليوم ، وهو الذى قاله ابن عباس ولم ير غيره ، ذلك أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوا كل شهر قدرا معين ويكون رأس المال باقيا ، ثم اذا حلّ الدين طالبوا المدينون برأس المال فان تعذر عليه الأداء زادوا فى الحق والأجل ، فهذا هو الربا الذى كانوا يتعاملون به فى الجاهلية ، فحمله ابن عباس عليه ، ولكن الحديث أثبت غيره ، ويكون محصل الصور ثلاثة بيع مطعوم مثلا بدراهم أو دنانير يجوز نقدا ونسيئة ، بيع دراهم بدنانير يجوز التفاضل فيه لكن يكون نقدا وكذلك الشعير مثلا بالبر ، فاذا أعطاه أردبا بأردبين جاز بشرط أن يكون حالا ، فأما الذهب بالذهب والفضة بالفضة والشعير بالشعير ، فلا يجوز الامثالا بمثل نقدا ، هذا ملخص ما جاء فى الربا .

ولما كان هذا المقام يحتاج إلى بيان الحكمة التى حرّم لأجلها الربا وإلى بيان تحديده والأصناف التى حرّم فيها وجب أن نبين ذلك على ما قاله العلماء ، فان الله عز وجل لما قال العرب : إنما البيع مثل الربا لأن كلا منهما يقصد به الفائدة فكيف يباح أحدهما ولا يباح الآخر ، وترجيح أحدهما على الآخر تحكم أجاب سبحانه بقوله : وأحلّ الله البيع وحرم الربا ، وترك الأمر ولم يبين إلا الحكم وحده تاركا لاعتقولنا التفصيل مع الوقوف عند النص ، فلنبين الحكمة التى قالوها أولا ثم نتبع ذلك بما يكون فيه الربا ثم نذكر مذاهب الاشتراكية .

حكمة تحريم الربا ورأى الامام الغزالى

ولقد رأيت للامام الغزالى هنا قولاً مفصلاً اختصره لك مع الفائدة فأقول : قال : ان الذهب والفضة لا يقصدان لذاتهما وإنما هما وسيلتان إلى التبادل ، فاذا كان عند امرئ جل وعند آخر زعفران وكلّ

منهما يريد أن يعرف ما المقدار الذي يستحقه الآخر في مقابلة ما عنده وكان هذان النقدان حكيمين فيقال : هذا الجبل يساوي ٣ ديناراً ، وهذا الزعفران يساوي عشرين ديناراً ، وشيئان يساويان شيئاً واحداً يكونان متساويين ، وهذان الحاكمان من اتجر فيهما وحبسهما فقد ظلم وكأنه حبس القاضي الذي يقضى بين الناس فيعطل مصالحهم .

وهكذا المطعومات لا يجوز أن تجعل سلماً تباع وتشترى قصداً وبالذات فإن فعل ذلك أصبحت مقيدة في أيدي الناس ، وكان الاحتكار والاضرار بالناس ، والناس في حاجة إليه والحاجة إلى الطعام شديدة ، فينبغي أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأظهمة إلا مستغنى عنها إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجاً ، ولم يجعله بضاعة تجارة وإن جعله تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجاً إليه نعم بائع البر بالتمر معذور إذ أحدهما لا يسد مسد الآخر ، هذا ملخص ما قاله الامام الغزالي . وأنت ترى أن هذا القول وإن كان حسناً لا يكفي لمعرفة الحكمة ، فلنذكر ما قاله غيره . قال بعضهم : « إنما حرم الربا لأنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب ، وذلك لأن صاحب الدراهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقداً كان أونسيئة خفّ عليه اكتساب وجه المعيشة ، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة ، وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق ، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات » .

وقال آخر : « إن الغالب أن المقرض يكون غنياً والمستقرض يكون فقيراً فالقول بتجوز عقد الربا تمكين للغنى من أن يأخذ من مال الفقير الضعيف مالا زائداً وذلك غير جائز » هذا أهم ما قاله علماءنا في حكمة التحريم .

ما الأصناف التي يحرم فيها الربا ؟

تقدم القول أن تلك الأصناف ستة ولكن هذه الستة لا يعلم الناس لم خصصت ؟ وهنا أخذ العلماء يبحثون ، فأما الشافعي رضي الله عنه فقال : هذا يدل على أن المقصود بالربا هو الطعم والنقد لأن الحديث إنما ورد في النقدين والمطعومات فلنحمله على كل مطعوم قياساً على ما ذكر في الحديث ، وقال أبو حنيفة كلا فإن المدار على التقدير وهذه الأشياء مقدرة ، أما الدراهم والدنانير فالوزن ، وأما الأشياء الأربعة فالكيل مع اتحاد الجنس في الجميع ، فكأن أبا حنيفة راعى تلك الأشياء من حيث أنها مقدرة فقياس عليها كل مقدر بكيل أو وزن كالأطن والنجاس والجص والنورة .

وقال آخرون كالامام مالك : إن المدار على القوت لأن هذه الأربعة من الاقوات فيقاس عليها غيرها ، ومذهب الشافعي المتقدم يدخل فيه الثمار والفواكه والبقول والأدوية مكيلة كانت أو موزونة .

وقال آخرون كابن الماجشون : إن كل ما ينتفع به ففيه الربا ، وهذا أعم الأقوال عند علماء الاسلام . واعلم أن هذا القول يناسب الحكمة التي قدمناها عن بعضهم ، وهي أن المرابي قد أخذ مالا بلا مقابل ولا جرم أن من أخذ الزيادة في مكيل أو موزون أو غيرهما من حيوان أو نبات أو معدن أو أرض فقد أخذ من الناس مالا بلا منفعة تعود على نوع الانسان فما الذي ناله الناس منه حتى أخذه ، إن الزارع والتاجر والصانع يبرزون للناس ما ينفعهم فما الذي عمله المرابي الجالس على كرسيه ، وغيره يخرج من الأرض أو يصنع أو ينقل البضاعة من بلد إلى بلد ويأخذ في مقابل ذلك ثمناً يزيد على الثمن الأصلي ، أما هذا فلم يفعل شيئاً ، وهذه الحكمة لا تفرق بين مكيل وموزون ومعدود ، وهذا هو الأقرب للعقل وللواقع .

ولما اضطربت أقوال علماء الاسلام فيما ورد عن صاحب شريعتنا ﷺ لعدم تحديده تحديدا تاما قال ابن عمر خرج رسول الله ﷺ من الدنيا وما سأله عن الربا ، ومقصود ابن عمر أن هذه الآية من الجملات ثم جاء الامام الغزالي في مقام آخر وأبان أن كل هذه المعاملات والشروط والحدود والقوانين والعقود إنما جعلت لأجل قصور الناس وعقولهم الضعيفة وحرصهم ، والا فالناس جميعا مبتضاهنون ، ويجب أن ينال كل حظه من العمل ومن المال ولا يدخر أحد شيئا بل يعين كل واحد أخاه بما زاد عن مقدار ما يحتاج إليه ، وهذا القول أشبه من بعض الوجوه بأقوال الاشتراكية في زماننا . قال :

« من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم وهو من الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، وإنما سبيل الله طاعته ، وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم ، نعم لا يدخل هذا في فتاوى الفقهاء لأن مقادير الحاجات خفية ، والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمار غير معلومة ، فتكليف العوام ذلك مجرى مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكون عن كل كلام غير مهم وهم بحكم نقصانهم لا يطبقونه ، فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو ، وإباحتنا ذلك إياهم لاتدل على أن اللعب واللهو حق فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار في الانفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جباوا عليه من البخل لاتدل على أنه غاية الحق ، وقد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى : « ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب ، فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان الى حضرة الملك الديان ، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ماسوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة ، فمن فهم حكمة الله في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك يحتاج الى مجلدات اه

فها أنا ذا ذكرت لك مسألة الربا في الاسلام ، فانظر كيف كان ابن عباس يقصره على الربا المعروف الآن في سائر الأمم وعند الجاهلية ؟ وهو ربا النسئة وانظر كيف جاء في الحديث شموله لستة أشياء في النقيدين وفي المطعوم ، ثم كيف توسع العلماء في القياس من مطعوم الى قوت الى كل ما يكال ويوزن الى كل ما ينتفع به ؟ وكيف كانت الحكمة ؟ وهي تعطيل طائفة من الناس عن العمل مطابقة لأعم الأقوال وهو القول الاخير ، ثم انظر كيف أبان الامام الغزالي ما هو أوسع من ذلك ؟ وجعل الناس أطفالا جهالا ، وأن تلك الشروط والقوانين ما جعلت إلا لتلبية لعقولهم الضعيفة ، ونفوسهم السخيفة ، والا فالناس كلهم اخوان ، فليعط كل منهم الآخر ما يزيد عن حاجته ، ولعمري ان الاشتراكية المسماة بالبلشفية في البلاد الروسية عجزت عما وصل اليه الامام الغزالي إذ أرادت نزع الملكية العامة فججزت ، وأمرت أن تعطى لكل امرئ مقدارا معلوما من الأرض كبلاد الصين فان الملك هناك محدد لا يجوز لأحد الزيادة عن الحد المعلوم فيه ، هذا ما أردت ذكره في مذاهب الاسلام ، فلا تذكروا آراء الاشتراكية :

آراء المذاهب الاشتراكية

وكيف كانت أبحاثهم قريبة مما ذكره علماء الاسلام

أبنا لك فيما مضى كيف ابتدأ دين الاسلام بتحريم الربا ، وكيف كان رأى ابن عباس أنه لا ربا إلا في النسئة وهو المتعارف الآن ، ثم جاء الحديث بستة أشياء ، ثم أوسع ذلك علماء الاسلام الى أن جعلوه في كل

ما كان مالا مادام من جنسه سواء أكانت الزيادة في النقد أم في النسيئة ، وإذا اختلف الجنس فليبيع كما نشاء فليبيع التمر بالشعير ونزيد كما نشاء كالذهب والفضة ، وإلى هنا وقف جواد بحشهم ، ومنتهى نظرهم ، ولكنهم من جهة أخرى جعلوا أن هذا كله إنما هو لأجل الضرورة في أخلاق الناس وحرصهم وجشعهم ، وهنا وصلوا إلى غاية من الكرم والتسامح حتى جعلوا أن ما يملكه زيد يجب أن يتصدق على الناس بما فضل عن حاجته منه والا كان عبداً بخيلاً حريصاً فلا يكثر الإنسان ذهباً ولا فضة ولا طعاماً ، بل كل ما فضل فهو للمستحق ، وأنت ترى كلام الامام الغزالي فيما تقدم ، ولكن الحق أن هذا القول لا يجوز الأخذ به على علته ، فإن لكل إنسان قوة وقدرة واستطاعة لا بد من إرازها إلى الوجود ، وهذه المكارم التي ذكروها يجب أن تبحث بحثاً مدققاً لئلا يعطى الناس المجتدون ما لهم إلى من تكاسلوا عن العمل ، هذا خطر عظيم ولتعلم أن هذا مذكور في ثنایا الكتب وليس هذا محل تفصيلها .

ولما كان الاسلام قد أشرب هذه المكارم شاعت الأوقاف وجعلت لنوى الحاجة ، وترى أن الأوقاف في بلادنا المصرية تبلغ عشر الأملاك العامة ، ولعمري ان ذلك من آثار هذه المكارم الاسلامية العامة ، ومن آثارها الزكاة والصدقات العامة الواردة في الشرع ، وأكبر مصيبة اسلامية أن يعطى شيء من ذلك إلى من لم يقيم بما يستطيع من العمل ، فأما أولئك الذين لا يعملون ويأخذون من الصدقات والأوقاف وهم نائمون بلا علم ولا فضل فأولئك عالة على الأمة ومصيبة على الاسلام ، وقد آن أن أفصل لك آراء الاشتراكية فأقول : يقولون : ان مصادر الأرزاق أربعة :

- (١) عمل العامل .
- (٢) الأرض التي نعمل فيها .
- (٣) رأس المال .
- (٤) مدير المعمل أو صاحب المشروع .

ويقولون : ان المال كل ما فضل عن حاجتك من طعام أو مصنوع أو غيرهما ، فالغلة والحصير والمسكن والأرض التي لا تحتاج اليها تسمى عندهم مالا لأنك تقدر أن تبادل بها ، أما الدراهم والدنانير فقد قالوا فيهما ما قاله علاماؤنا كالامام الغزالي ، وهي إنما واسطة للتبادل وتسهيل المعاملات ، بل قالوا هم إنما لا تسمى عندهم مالا لأنها لا تنفع في طعام ولا شراب ولا مسكن ، ويقولون : انما جاءت من مستلزمات الحضارة والنظام ، ومتى كانت الفوضى سقطت قيمة التعامل بهما وأضحى من عنده قدح شعير خيرا ممن عنده قطار ذهب ، ولقد سلكوا في التبادل الطريق التي سلكها علماء الاسلام ، فذكروا كيف يضطر الفقير أن يأخذ من الغني أردبا قمحا بأردب ونصف بعد سنة ، وكيف يأخذ عشر جنينها بأحد عشر جنينها بعد زمن ما ، وبرهنوا أن ذلك ضار بالمجموع الانساني ، وأن ذلك المرابي يصبح سيدا لم يعمل عملا للمجموع ويصبح السادة الأغنياء مترفين منعمين والعبيد الأذلاء العمال في فقر مدقع مع الأشغال الشاقة ، فانظر كيف اتفق في التعليل وفي التحريم علماء الاسلام وعلماء الاشتراكيين ، ولكن الاشتراكيون تمادوا في الأمر إلى حد بعيد جدا ، فأخذوا ينظرون في أمر العمل وأمر المال ، وصاروا يقولون : ان الغني الذي عنده ما يزيد عن قوته من الحنطة وما يزيد عما يلزمه من الأرض يتعالى على العامل في المصانع وعلى الفلاح في الأرض ويقول : لكل منهما أنا عنك غنيّ ويمكنني أن أستعمل غيرك ، فيعمل الطرفان عنده بأقلّ القيمة ، وكلما زاد العمال والمزارعون بوفرة العمران ازداد أولئك الأغنياء ثروة وأصبحوا ملائكة المال والناس لهم عبيد ، وكلما ازدادوا ثروة زاد الفلاحون والعمال فقرا وذلا ، فأما أولئك فلا عمل لهم إلا الزخرف والزينة والاسراف والبذخ .

ومما زاد الطين بلة الآلات الحديثة المخترعة التي أغنت عن العمال ، فالآلة تعمل ما يعملها آلاف من العمال فيصبحون عاطلين ، ويفيض المال فيضا على صاحب رأس المال ، فالاشتراكيون يريدون أن تكون الأعمال العامة في المصانع وفي الأرض وفي التجارة في يد الحكومات والناس يعملون فيها كأ أسرة واحدة كل على مقدار طاقته ، أما ديننا الاسلامي فقد وضع بذور العدل والنظام بمسألة الصدقات والأوقاف ، وحب الرحمة والشفقة والرأفة والبر ، وحرم على الناس السؤال وبذل الوجه ، ولكن الأمة في العصور الأخيرة تغافلت عن وضع الأمور في مواضعها ، فكثير من الأوقاف تصرف الى من لا يستحق ، وهذا مخالف للدين ، ولآية الصدقات التي جعلتها للفقراء والمساكين والعاملين عليها الخ .

هذا ما أردت ذكره في هذا المقام ، وسيأتى في هذه الأمة من يفكرون لنظامها على مقتضى الشريعة الغراء ، وينظمون أوقافها وأعمالها نظاما ينطبق على روح الشريعة ، ولانكون مجموعا غير منظم . وقد قال الله فينا : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

الكلام على الدين والرهن

ولما حرم الله الربا أحلّ السلم وهو البيع لأجل ، وسنّ أن يكتب فقال : (يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه) ويتخير المتداينان كاتباً يكتب بالسوية لا يزيد ولا ينقص (ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله) فمن منّ الله عليه بنعمة فشكرها صرفها فيما خلقت له والكتابة نعمة وشكرها إجابة من التمسوها ، وذلك سنة أو واجب عينا أو كفاية أقوال لكلّ من أربابها وجهة ، وأقرب الأقوال أن ذلك سنة ، ولن يصح الوجوب إلا اذا تعين خطر كبير ولم يكن الامن دعى لها والله أعلم .

واذن (فليكتب وليملأه) (الذي عليه الحق وليتق) المملئ (الله ربه) ولا ينقص منه شيئا (فان كان الذي عليه الحق) ناقص العقل مبذرا (أضعيفا) كصبي أو شيخ (أو لا يستطيع أن يملأ هو) خرس أو جهل باللغة (فليملأ) قيمه ان كان صبيا أو مختلّ العقل ، أو وكيله ، أو مترجه ان كان غير مستطيع (واستشهدوا شهيدين) من الرجال المسامين أو رجلا وامرأتين في الأموال خاصة عند الشافعي ، وفيما عدا الحدود والقصاص عند أبي حنيفة وليكن الشهود عدولا ، ولم يكتف بالواحدة فضمّ لها الأخرى لتذكر إحداها الأخرى . وحرى بالشهداء أن يجيبوا اذا دعوا لتحملها ندبا أو وجوبا عينيا أو كفاثيا على ما تقدم (ولا تساموا) أي تماوا كسلا (أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله) فان (ذلكم) أكثر قسطا عند الله وأثبت للشهادة ، وأقرب الى أن لا تشكوا إلا اذا كانت تجارة حاضرة تديرونها بينكم من مبايعة بدين أو عين بأن تعاطوها بينكم يدا بيد أي لا أن تتبايعوا يدا بيد فلا بأس أن لا تكتبوا (وأشهدوا اذا تبايعتم) أي بيع ، ولا ينبغي للتبايعين أن يضرا الكاتب والشاهد فلا يكلفانهما الخروج عن مهمّهما ، أولا يمنعان جعل الكاتب ومثونه محجىء الشهيد كما لا ينبغي للكاتب والشاهد ترك الإجابة والتحريص والنفير ، فاذا كنتم مسافرين (ولم تجدوا كاتباً) ليسكن الاستيثاق (رهان مقبوضة) فان كان الأمانة ووثق كل بأخيه (فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه) في الخيانة وانكار الحق (ولا تكتبوا الشهادة) أيها الشهود أو المديونون ، فالمرء مطالب بالشهادة على نفسه (ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم) تهديد .

الكلام على قوله تعالى : واتقوا الله ويملككم الله

أي اتقوه في مخالفة أوامره ونواهيه الدينية ، ويعلمكم أحكامه المتضمنة لمصالحكم . يقول الله : ليس تعلیمی لكم خاصا بالصلاة والزكاة وما أشبهها ، إن الدين لا يقوم إلا بمصالح الدنيا ، وأنا عليم بهما فلتقوموا

بالأمسين ، وهذا باب واسع لفروض الكفايات التي سأشرحها في آخر السورة ، وأن المسلمين يعذبون في الدنيا والآخرة إذا لم يقوموا بقسطهم في نظام الأرض وسعادة الأمم لأن الله بكل شيء عليم ، ومن علمه يعلمنا مصالح الدين والدنيا فإذا نقصنا أحدهما خسر الآخر ، فللمسلمون اليوم لما جهلوا أمر الدنيا نقص الدين وخسروا الدارين ، وقد آن أن يرجعوا الى رشدهم ويقرعوا العلوم ويعرفوا الصناعة ، وأنت أيها الفطن خبير بما ورد في العلم من الأحاديث والآيات فلا تطيل بذكره فاقراء في البخارى وفي الاحياء ، والله يهدي الى الرشاد .

(المقصد المتعمد للمعشرين)

لِلّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ
اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ
إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ
رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أُكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا
وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *

التفسير اللفظي

قال الله تعالى (لله ما في السموات وما في الأرض) فهو العالم بما فيهما ، ولا جرم أن أخلاق العباد وأعمالهم مكتوبة لديه ، معلومة عنده ، مخزونة في الأفتدة ف(ان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فكفى بنفسك عليك أيها الانسان حسيبا (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) وهذه الأحكام والشرائع في القرآن (آمن الرسول) بها (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) يقولون (لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا) أجبنا قولك (وأطعنا) أمرك اغفر لنا (غفرانك ربنا وإليك المصير) المرجع ، لم يحمل الله أحدا فوق طاقته و(لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) فمن آناه الله مالا ، أوحياه ثروة ، أو أناله قوة ، أو أورثه علما ، أو منحه فطنة ، فليشكر الله على نعمته برفد اخوانه ، وليكن لهم شمساً تضيء (لها ما كسبت) من الخير (وعليها ما اكتسبت) من الشر (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا) تركنا أمرا من أوامرك سهوا (أو أخطأنا) من تفریط وقلة مبالاة ، وهذا دليل على جواز المؤاخذة في النسيان والخطأ خلافا للمعتزلة ، ولولا جواز المؤاخذة عليهما لم يكن للسؤال معنى (ربنا ولا تحمل علينا إصرا) عبثا يأصر حامله أي يحبس مكانه لثقله استعير للتكليف الشاق (كما حملته على الذين من قبلنا) كاليهود والنصارى (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) من العقوبات النازلة بمن قبلنا (واعف عنا) اح مح سيئاتنا (واغفر لنا) واسترذنبنا ، والأول للكبائر ، والثاني للصغائر (وارحنا) بذلك (أنت مولانا) ناصرنا ومتولى أمورنا (فانصرنا على القوم الكافرين) فمن حق المولى أن ينصر من تولى أمره . انتهى التفسير اللفظي .

ايضاح

ههنا يحسن الكلام على قوله تعالى « وان تبدوا ما في أنفسكم أوتخفوه بحاسبكم به الله » الآية بايضاح فنقول : قوله تعالى « وان تبدوا ما في أنفسكم أوتخفوه بحاسبكم به الله » يفيد أننا معاشر الآدميين محاسبون بما رسم في صدورنا ، وما قام بأفئدتنا ، فتارة يغفر لنا وتارة لعذب على ذلك ، وبيانه أن أرواحنا أشبه بلوح محفوظ يرسم فيه ما يرد عليه من الخواص الخس ، وما يقوم به من فكر ، فإذا مات الانسان ظهرت له صورته الحقيقية ، واطلع على جميع ما كان يتصوره في الحياة من خير وشر وعزم وكسل وتجلى له نفسه تجليا واضحا كأنها خريطة فيها رسوم مختلفة فينفر من الصور القبيحة فيها ويفرح بالصور الجميلة ، قال تعالى « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » وقال تعالى : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » فجعل النفس هي المحاسبة لأنها هي المطلعة على عوراتها وقبائحها ، وتفكر أيها الفطن كيف نألم في الدنيا إذا اطلع أحد على ما أضمرنا من عمل قبيح ، أو لوينا من نية سيئة ، ونحن نكتم أعمالنا وما نؤيناه ، فإذا نشرت هذه الأعمال دفعة واحدة واطلع عليها من كنا نحاذر فكيف تكون حالنا ؟ ذلك هو الخزي العظيم .

وتأمل في قصة مريم كيف تقول لما اطلع قومها على أنها ولدت من غير زوج : « ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » وكيف يقول الله تعالى : « ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا » فالكافر يتنى لو يكون ترابا ، ومريم تنى لو تكون نسيا منسيا ، فأما مريم فلا يخزي الذي يلحقها من قومها ، وقد عرفت هي وأهل بيتها بالطهارة والشرف ، فالخزي والعار على مقدار المظهر : وهكذا الكافر رأى علمه جهلا ، وصالح العمل قبيحا ، فيريد أن يتوارى بالحجاب فلا يجد لذلك سبيلا ، قال تعالى : « لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » ، وقال : « ربنا لولا أرسلنا رسولا إلىنا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزي » .

واعلم أن نفس الانسان تسع جميع هذه الصور من أول الحياة الى آخرها كما يرسم في الهواء جميع صور الأشياء فتصل الى أعيننا ، ورسمها فيها أشبه برسم الصور في المرآة فإما ترسم فيها بحالة لطيفة في الطبقة الأثرية ، والنفس تقبل من الصور على هذا النمط ما لا يتناهى ، ولذلك ترانا نتذكر حوادث وعالوما كثيرة مخزونة في نفوسنا ، وهذه الصور لا تنسى عند النفس وإنما نسيانها في الحياة الدنيا لضعفنا هنا قال تعالى : « أحصاه الله ونسوه » وإذا أحصى الله أعمالنا عنده فقد أودعها في نفوسنا لنقرأها قراءة حقيقية ، والله تعالى يحاسبنا على تلك الصور ويكون الغفران والعذاب .

فكل حركة وكل فكر في النفس يدون فيها ويظهر لنا بعد الموت ، فليحاذر المرء فالحياة قصيرة .

على نفسه فليبك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولا سهم

وأما قوله تعالى « آمن الرسول » الخ فاعلم أن هذا ختام السورة المشتمل على ملخص ما فيها ، وبيانه أن السورة جاء فيها أمران : وهما الإيمان والعمل ، فالإيمان في أولها إذ قال « الذين يؤمنون بالغيب » الخ ثم ذكر المأفقين والكافرين وأتى بأدلة الألوهية وذم اليهود وعدد فضائحهم ، لأن مقالاتهم كانت مناقضة لإيمان المؤمنين ، وهذا في الجزء الأول من السورة ، وأما الجزء الثاني فإنه أبان فيه الصلاة والصيام والحج وأعمال البر من الصبر والاحلاص والصدق والتقوى ومعاملة النساء وصيانة اللسان عن الخلف ، ثم ذكر الجهاد والحفاظ على البلاد ، وفضيلة الانفاق . وترك الربا ، وكيفية المعاملة ، فرجع الأمر إلى اثنين [إيمان وعمل] فالإيمان في قوله « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون » الخ ، والعمل في قوله « وقالوا سمعنا وأطعنا »

وأطعنا غفرانك ربنا » فانظر كيف كانت الخاتمة على ترتيب السورة ، ثم تعجب أيضا في ترتيب الايمان بالله والملائكة والكتب والرسل ، ذلك أن الله أشرق نوره على الملائكة ، وأشرق منهم على الأنبياء ، فالملائكة واسطة . قال تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء » الخ ، فالله كالشمس والملائكة كالقمر ، ونور الشمس المشرق على القمر أشبه بالوحي الصادر من الله للأنبياء بواسطة الملائكة ، وهنا سؤال ، وهو أن يقال : أيهم أفضل الملائكة أم الأنبياء ؟

وقد اختلف العلماء في ذلك اختلافا كثيرا لافائدة فيه إذ لا أثر له في العقول ولا في رقى المتعلمين . فن الناس من يقول : الأنبياء أفضل من الملائكة ، ومنهم من يقول : الملائكة أفضل من الأنبياء ، وهؤلاء أفضل من الملائكة الأرضيين ، ويقولون : النبي أفضل من غيره من الناس ، ومن الصوفية من ينزع في تفضيل سائر الأنبياء على سائر الناس ، بل يفصلون بعض التفصيل .

ثم اعلم أن الأحوال ثلاثة : ماضية وحالية ومستقبلية ، فقوله « آمن الرسول » الخ إشارة إلى المبدأ ، وقوله « سمعنا وأطعنا » إشارة إلى الحال . وقوله « غفرانك ربنا وإليك المصير » إشارة إلى المستقبل ، وهذه الجمل أليق بأواخر الكلام كما هنا ، فتعجب .

وقوله تعالى « غفرانك » أي اغفر غفرانك ، روى في الحديث الصحيح « ان الله مائة جزء من الرحمة قسم جزءا واحدا منها على الملائكة والجن والأنس وجميع الحيوانات ، فبها يتراجون وادخر تسعة وتسعين جزءا ليوم القيامة » فهذا الحديث يفيد أن هذا العالم المادى لانسبة بينه وبين ذلك العالم الذى تجلى الله فيه على عباده وظهرت رحمته بأجلى مظهرها . وفي الحديث أن النبي ﷺ قال « انه ليغان على قلبي وانى لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » ويقول العلماء : ان كل ماعامه العبد مهما عظم في جانب كبرياء الله عز وجل ضئيل قاصر ، فلذلك كان ﷺ يستغفر من كل مقام يصل اليه ، لأن كل مقام دون مقام الجلال الالهى . قال الله تعالى « لا يكاف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت » من خير « وعليها ما اكتسبت » من شر الى قوله « لا تؤاخذنا » أى لاتعاقبنا ، والاصر الثقل ، والطاقة اسم من الطاقة ، والعفو أن يسقط عنه العقاب ، والمغفرة أن يستر عليه جرمه صونا له من عذاب التخجيل والفضيحة ، والرحمة نعيم الجنة ، وقوله « أنت مولانا » يراد به أن يستغرق العبد في جلال الله وجاله ، ويفرح بهذا الاستغراق وهو منتهى اللذات فهذه مراتب أربعة : مرتبة ترتيبا حقا ، سقوط عقاب جسمي بالعفو وستر الذنب بالمغفرة فلا يفتضح ، ونعيم الجنان والاستغراق في الجلال الالهى .

واعلم أن كل امرئ مسئول عما يطيقه من الأعمال ، فأف لمن كان ذكى النواد سليم العقل قوى البنية ثم ينال عن الأعمال النافعة لأتمته ، وعنده قدرة تفوق غيره ، وكيف ينال القادر بعلم أو بمال أو بقوة بدنية كيف ينال عن مساعدة المجموع ، الله يقول : لا يكاف الله نفسا الا وسعها ، وبهذا أدعوا جميع الأذكى والعلماء والأغنياء وأقول : فيا حسرة على من عنده علم أن يصبر ويسكت ، بل لينشره ، ويا حسرة على من هو قادر على عمل أو نصيحة أن يذر الناس يتخطون ولا ينصحه ، ويا حسرة على من عنده مال أن يذر الأمة الجاهلة فلا يسعى لرقبها بالطرق الشريفة العالية ، وليس معنى قوى أنه يعطى المال للقادرين على العمل ، وإنما يسعى لهم في عمل الشركات وينمى رأس المال ليكون أداة صالحة للعاملين من أبناء الأمة في الصناعة والتجارة مع الأجر المناسب والكسب اللائق ، فيا ويل من ضاعت حياته وهو غافل عما حوله . الطاقة متفاوتة ، فن الناس من يطبق نفع نفسه فقط ، ومن الناس من يقدر على اسعاد أسرته ، ومنهم من يقدر على إرشاد أهل بلده ، ومنهم من يقدر على ارشاد أتمته ، ومنهم من يقدر على هداية جميع الأمم ، وكل من قدر على شيء من ذلك وغفل عنه أو أهمله اعتراه عند الموت من الآلام ما لا يطاق وندم ، ولات ساعة مندم ، وربما عذب زيد على ترك عمل لا يعذب عليه خالد ،

لأن هذا عذاب دائم ، فبه كان يترقى إلى العلا في تلك الساعات العالية ، فإذا فاز غيره وهو خائب ، وقد أمكنه ذلك تحسّر حسرة لا مردّ لها ، وندم ندامة الكسبي « ولات حين مناص » .

واعلم أن هذه الندامة دائمة ، والحسرة ملازمة ، والعذاب واقع ، فيا حسرة على امرئ قد رعى بطل معروف وبخل به ، ويا حسرة على من قدر على نفع الناس ونام عنه ، ان المقام مقام ارتقاء في الحياة الأخرى والارتقاء بالأعمال والأعمال بالامكان ، فمن أمكنه وفرط ندم على أنه لم يرتق في تلك الساعات العالية ، وليس يدرك ما قلناه اليوم إلا ذو بصيرة وعقل مشرق « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

اختلاف العقول وواجب الحكومات الإسلامية

اعلم أيّدك الله أن عقول الناس مختلفة اختلاف ألوانهم وأشكالها ، فتري أن الجنس الأبيض من نوع الانسان اتفقوا بياضا واختلفوا فيه بحيث لا يتساوى بياض عمرو بياض خالد ، وتري لكلّ عيني أنفا وحاجبين وفما ، وقد اختلفوا اختلافا حقيقيا بحيث لا يتشابه وجهان على ظهر البسيطة ، هكذا عقولهم ، فهم وان اتحدوا فيها قد اختلفوا في قابليتها وكل له استعداد يناسبه ، وفي العقول من الكنوز ما ان مفاتيحه ليعوزها رجال ذوو علم يضعون كلاً في المقام الذي استعدّله ، ولقد جعل الله الأرض مختلفة البقاع ، ولاتقبل من النبات الاعلى مقدار استعدادها ، وكذلك النبات ، كل له مقام معلوم ، فمن النبات ما لا ينبت إلا تحت الماء كقصب السكر والأرز والنيلوفر وأنواع من العكرش ، ومنها ما ينبت على وجه الصخر كخضراء الدمن وهكذا ، ثم ان النباتات التي فيها أعضاء التناسل غير مجتمعة في زهرة واحدة يكون سلطانها في المناطق المحترقة بين المدارين ، ولطامادهش السياح بتلك المظاهر الجيلة ، وتأملوا تلك المراعى البهيجة فيها قطائع الأنعام سارحة هائمة لا يقودها قائد ولا يسوقها سائق ، والنباتات التي فيها تلك الاعضاء مجتمعة في زهرة واحدة يكون سلطانها في المناطق المعتدلة والنباتات التي أعضاء التناسل فيها خفية يكون سلطانها في المناطق الباردة .

ولقد خصص الله كل أرض بعدد من النبات فتجد في بلاد فرنسا ٨٣٠ جنسا ، وفي النمسا ٦٠١ وفي [لابونيا] ٣٠٠ ، وفي مصر ٤٣٠ وفي غيانه ٦٠٠ ، وفي جزائر الخالدات ٢١٢ .

جدول لذكر الأجناس والأنواع في بعض الأماكن

أنواع	أجناس	
٦٠٠٠	٨٣٠	فرنسا
٤١٠٠	٦٠١	نمسا
١١٠٠	٣٠٠	لابونيا
١٦٠٠	٥٠٠	بلاد البربر : أي المغرب
١١٠٠	٤٣٠	مصر
١٢٠٠	٦٠٠	غيانه
٢٥٠	٢١٠	أسلنده
١٤٠٠	٥٠٠	جتيك
١١٣	٥٥	ترستان الكونا
٣٧١	٢١٢	كنرى (من جزائر الخالدات)
١٦	٣٥	هيلايه

وترى أن الحكمة خصصت لكل ما يحتاج إليه ، فقلّ الهواء وكان الماء أقلّ منه والحبّ أقلّ من الماء والجواهر والمعادن أقلّ من الطعام ، ثم الجواهر النفيسة أقلّ من الجميع ، ثم إن الراديوم ذا القوّة المدهشة الذي ظهر حديثاً نادر جداً في الطبيعة ، هكذا نقول : إن الله جعل نوع الإنسان منه من خصصهم الله بحسب فطرهم إلى العمل الجسمي وهم الأكثرون ، وهذه الفئة طبقات بعضها فوق بعض ، وكل من كان أدقّ فكراً كان أقلّ وجوداً كما نشاهد في ذوى الصناعات الدقيقة ، ويليهم العلماء والحكماء ، ثم الأنبياء ، وهم أندر كالراديوم في المعادن ، قضت الحكمة أن يكون لكل شيء قدر ، وأن تكون العقول مختلفة كما اختلفت المشاهدات .

فكما أنط الله بالهواء سائر الحيوان والنبات للتنفس في جميع الأوقات ، وبالماء كل حيّ وقتاً دون وقت وبالقوت في أقلّ من ذلك ، وبالدواء أدنى من ذلك وجعل المعادن أقلّ من القوت طلباً ، ولم يجعل من الراديوم دراهم ولا من الذهب محاريث ولا من الحديد أقواتاً ولا من الحنطة بحاراً ولا من الماء جوّاً يحيط بالكرة ولا من الهواء جوّاً يصل إلى كرة الشمس بل جعله إلى حدّ فوقنا .

هكذا رتب عقول الناس على هذا النمط ، فلم يكثر من الأنبياء حتى يملؤا القرى ، ولا من ذوى الصوت الجليل والصور الفاتنة لئلا يفتن بهم الناس ، ولا جعل في كل قرية حكماً فيلسوفاً ، ولا أكثر من الأذكىاء المفرطين في الذكاء ، ولم يقلل من ذوى الأجسام القوية لئلا تضيع الأعمال ، وإنما كنز في النفوس وفي العقول مواهب مقدرة بمقدار الحاجة ، ثم بعد أن رتب ذلك عملاً قال على لسان رسوله « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » ليطابق قوله فعله ، فذكر الوسع ، وذكر التكليف ، وجعله منوطاً بالوسع ، وقال في آية أخرى « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » فرأينا لكل مخلوق عملاً يخصه ، ورأينا الاختلاف في الموجودات وفي الجدول السابق في النبات ، فقلنا . لقد صدق قوله تعالى فعله « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » بل كل شيء عنده بمقدار .

هذه أشياء يراها الناس ولكنهم لا يفكرون ، فيقسمون العلوم على مقدار العقول كما وزع النبات على مناطق الأرض .

الله قد سهل هنا للناس ليفقهوا فجعل الجبال الشاهقة التي بين المدارين العالية رموسها عن السحاب جامعة لجميع خصائص الأرض كلها ، فلما كانت مخزناً للمياه جعلت مخزناً للعلوم والحكم المنقوشة على ظاهرها ، فترى أن جميع مناطق الأرض واضحة في آن واحد على مهابط هيماليا والجبال المسماة [كرد لير] فإن أعلى الجبل يمثل القطبين .

وأوسطه يمثل المناطق المعتدلة ، وأسفله يمثل المناطق الحارة ، وكل منطقة ينبت فيها ما خاقت له ، فانظر كيف أوضح الله للناس طرائق الاستعداد بتوزيع النبات على المناطق ، ثم أعطاهم درساً سهلاً ، فرسم الجبل على مثال الأرض ، ولما جهلوا هذا كله ، قال لهم على لسان رسوله بالفاظ يفهمونها « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » يقول الله : أنا قلت لكم في هذه السورة « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون » وأبنت لكم أن النظر في الأرض ونحوها يفيدكم تعقلاً ، فإذا عجزتم فيها هوذا رسولي أقول على لسانه : « لا تكلف نفساً إلا وسعها » فكما لا ينبت في المناطق الباردة بكثرة النباتات التي أعضاء التناسل فيها غير مجتمعة في زهرة ، هكذا لا ينبت العلم الرياضي أو الطبيعي في عقول خامدة ونفوس كاسلة ، فكما خزنت لكم في عقول الناشئين في القرى والبلدان

من نفائس وذخائر كما خزنت في الجبال الذهب والنحاس والحديد ، ودفنت في الأرض الفحم والماس فغرائب العقول أى استعدادها يكفل لكم كل ما تطلبون ، وهل تظنون أنى أئينها لكم أكثر من ذلك .
ضربت لكم الأمثال في المناطق ونباتها ، والجبال ورسومها ونقوشها ، ولما عجزتم أسمعكم هذه المعاني بألفاظ كما أسمع العميان ، فإذا بعد ذلك إلا أن تنظروا بأنفسكم انى آيت بعظمى وجلالى أن لا أنزل نعمة إلا بقدر « وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

نظام الحيوان على منهج حواس الانسان ومنافعه

ألم تروا يا عبادى أنى جعلت الحيوان مخصصا على المنهج الذى سلكته في خلقكم ، ألم أقل لكم في كتابى « وآتاكم من كل ما سألتموه » ولقد أعطيتكم كل ما سألتكم بقدر ونظام .
ألم تروا الى حواسكم الخمس ، وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، ان لها لمطالب تخلقت الطيور المفردة الحسنة الصوت المفرح السار الذى لذتكم أسماعكم بجميسل النعمات ، وخلقت أمثال الطاووس وسائر الحيوانات والطيور الجميلة ، والصور البديعة ، والعجائب المفصلة فى أنواعها ، وأجناسها متميعة لأبصاركم وبهجة ، ومن ذلك الدر والمرجان جعلتهما لذة للناظرين ، وخلقت غزال المسك تأخذون من نواجذها الذى ما شتم من الروائح إجابة لسؤالكم ان أحببت لذة فيما تشمون وخلقت لكم اللبن والسمن والجبن واللحم فى حيوان البر والبحر لتذوقوا لذتها ولتغتذوا بألبانها غذاء متاعا إلى حين ، ومن ألبانها العسل الذى به تتداوون وتتفكهون « وما كنا عن الخلق غافلين » .

وخلقت لكم الحرير الناعم الملمس لتتمتع به حاسة اللمس التى بها طلبتم أن أسعدها بلذتها وجعلت ذلك فتنة لكم غالية الثمن ، أخرجته الدود فكان زينة لكم وبهجة للامسين ، وكسوتكم بما طلبتم للدفع من جلود الأنعام وأشعارها وأوبارها وجعلتها أثاثا لكم ومتاعا إلى حين ، وجعلت منها أحذيتكم وبيوتا تحملونها من بلد الى بلد آخر ، كل ذلك وقاية لأجسامكم أن يهلكها الحر والبرد بما تحسون بحواس اللمس فتهلكون .
أى عبادى : ألم تروا كيف قسمت الحيوان قسمة صادقة على حواسكم الخمس ومطالبكم التى تطلبها حواسكم وهل تظنون أنى أقرب الغافلين عن حق التأمين النائمين ؟ كلا وعزتى وجلالى لا ينال عهدى الظالمين ، انظروا ماذا فى السموات والأرض أعطكم على مقدار ما تعلمون « وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » فإذا أردتم يا عبادى أن تنالوا نعمتى فابحثوا فى العقول عن استعدادها كما تبحثتم فى الجبال عن معادنها ، وفى النبات عن منابتها ، وفى الحيوان عن مناسباتها من حواسكم ، وليهنم أهل الحل والعقد بتعليم الشعب كله رجالا ونساء ، وليتقوا أجسامهم بالرياضات الجسمية ، ثم ليصدقوا فى اختبارهم وامتحانهم ، ثم ليجعلوا كل طالب خاصا بما هو أميل إليه ، وإياكم أن تحيدوا عن هذا فانه ظلم مبين .
وهل رأيتمونى أنبت [النياوفر] فى الصخر أو الأرز فى الجبل ؟ ألم أضع كل نبات فى مكانه اللائق له ، وكل حيوان فى منطقته ؟ وفى حال تناسب منافعكم موزعا عليها بحسب ، كل هذا لأريكم كيف تستخرجون كنوز العقول وهى أثمن ما خلقت لكم وأعز وأجل ، فشمروا عن ساعد الجد ، وجدوا حتى تظهر لكم أنوارى التى كنتم فى النفوس الانسانية فى رجالكم ونسائكم ، ألم تقرأوا قولى : « والله أنبتكم من الأرض نباتا » فهذا بعض سرّه المصون .

هذا ولتعلم أيها الفطن أن علماءنا رحمهم الله قد نبهوا الناس لذلك فأوجبوا على ذوى الاستعداد للفقه مثلا أن يجتهدوا فيه لنفع الأمة ، فجعلوا الاستعداد سبب الوجوب ، فلنسر على منوالهم ، ولنسكن لنا عقول وأسماع وأبصار ، ولنفصل الصناعات والعلوم الواجبة على المسلمين .

الكلام على العلوم الواجب أ كثرها أو كلها على المسلمين في هذا زمان

العلوم الواجبة على قسمين : فرض عين ، وفرض كفاية ، وفرض العين هو ما يجب على كل مسلم ويعاقب عليه إذا تركه ، ويثاب عليه إذا أدّاه ، وفرض الكفاية ما يجب على مجموع الأمة بحيث يعاقبون عليه جميعا إذا تركوه ، فإذا قام في الأمة رجال به سقط عنهم الطلب ، فالواجب العيني كمعرفة الامور العامة في الصلاة والصوم وكذا الحج ، ومعرفة ترك الغيبة والنميمة ، وكبر الوالدين وما أشبه ذلك ، وأما فرض الكفاية فمثل سائر العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك والعلوم الطبيعية من المعادن والنبات والحيوان والانسان والفضوء والمغناطيسية والحرارة والكهرباء ، كذلك جيع العلوم الشرعية من الكتاب والسنة والاجماع والقياس المسماة [علم الاصول] والفروع ، وهو علم الفقه الذي يقوم به العلماء لنظام الدنيا وهم الفقهاء ، وهذه الفروع دنيوية وكالفروع الأخروية من الأخلاق في التصوّف ، وكالمقدمات من اللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والخط والاملاء والانشاء ، وكالتميمات من علوم القراءات ومخارج الحروف وتفسير القرآن وكمصطلح الحديث ، فاذن العلوم الدينية أصول وفروع ومقدمات وتمامات ، ألا وان المشتغل بالمقدمات من النحو والصرف وهو لم ينل بعد الفضائل الدينية ، والكلمات الاسلامية أشبه بمن له آلات الزراعة وهي كاملة كالمحراث والفأس ثم تركها ولم يشق بها الأرض ، ولم يستنبت بها نباتا فهذا مغرور ، فالآلات الزراعية من المحاريث والمجالات الدارسات السائرات بالبخار ، والمخرجات للماء لا تغني عن اخراج الزرع ، وهكذا العلوم اللسانية من النحو والصرف والمعاني وغيرها ان هي إلا مقدمات لعلم الدين .

الصناعات الواجبة كلها أو جلها على المسلمين

هذه الصناعات إما أن تكون حاصلة :

- (١) في الماء كالملاحين والسقائين والروّائين والشرابيين والسباحين .
- (٢) وأما أن تكون حاصلة في التراب كحفار الآبار والقنى والأنهار والقبور والمعادن وكل من ينقل التراب ويقلع الأشجار .
- (٣) وأما أن تكون حاصلة في النار كصناعة النفاطين والوقادين والمشعلين .
- (٤) وأما حاصلة في الهواء كالزّمارين والبواقين والنفاخين .
- (٥) وأما حاصلة في الماء والتراب معا كالفخارين والقديرين وضرباني اللبن وكل من يبلّ التراب .
- (٦) وأما حاصلة في أحد المعادن كالخداين والرصاصين والزجاجين والصوّاغين .
- (٧) وأما حاصلة في النبات نحو الكتّانين ومن يعمل القنب والورق .
- (٨) وأما حاصلة في ورق الأشجار وحب النبات والحشائش ، أوزهر النبات ونوره ، والعروق والقشور ، كصناعة الدقاقين والعصارين والبزارين والشيرجيين .
- (٩) وأما حاصلة في الحيوان مثل صناعة الصيادين ورعاة الغنم والبقر وسياسة الدواب والبيطرة وأصحاب الطيور ومن شاكلهم .
- (١٠) وأما حاصلة في أحد الأجسام الحيوانية كاللحم والعظم والجلد والشعر والصوف والقرن كصناعة القصابين والشوائين والطباخين والدباغين والأساكفة والجزارين والسيوريين والخدائين .
- (١١) وأما حاصلة في مقادير الأجسام مثل الوزانين والكيالين والزراعين .
- (١٢) وأما حاصلة في قيمة الأشياء كالصيافة والدالين والمقومين .

- (١٣) وأما حاصلة في أجساد الناس كالطب وصناعة المزيين .
 (١٤) وأما حاصلة في نفوس الناس وهي قسمان : عملية كمثل ما تقدم وعامة مثل المنطق والعلوم الرياضية والطبيعية والالهية .

الصنائع كلها ترجع لأمر ثلاثة : الغذاء والكساء والبناء وكلها ترجع الى واحدة وهي حياة الانسان

اعلم أن الله خلق النبات والحيوان والانسان وجعلها درجات بعضها فوق بعض ، فالذي يكون أرفع شأنًا منها نجده أكثر احتياجًا ، وكلما قلت الحاجة كان أنزل ، مثال ذلك النبات فما كان منه كالحشائش ينبت في الطل والتدى ، وفي سائر الأرض بلا تعهد ولا فلاح ، وترى أمثال القمح والنقطن يعوزها العمال والحفظ والسقي وترى الناس يزليون الحشائش التي مازرعوها ، وهكذا ترى ما يزال الناس زرعه كالقثاء والعنب ، فالأول له من العمل بمقدار ثمرة ، والثاني أرفع ثمرا ، وأبقى أثرا ، وأشرف مقاما ، فكان أحوج الى العناية ، فهكذا الحيوان أرفع من النبات لأنه يسعى لرزقه والنبات لا يسعى اليه ، وله حواس تهديه ، والنبات غنى عنها ، فأما الانسان فانه أكثر حاجة وأعظم شرفا ، فانظر كيف سعى لغذائه كالحیوان وزاد افتقارا عنه الى الكساء والى عناية أشد بالمساكن ، فعلى مقدار ارتقائه كان احتياجه ، وأهم حاجاته هذه الثلاث :

الغذاء والكساء والبناء

أما الغذاء فيكون من حب النبات وثمر الشجر وغيرها فكانت الحراثة والغرس واثارة الأرض وحفر الأنهار وصناعة الحدادين والنجارين لصنع الآلات ، ثم صناعة المعادن واستخراجها ، وهذه هي الصناعات التي تتقدم الحراثة ، ومنها صناعة البخار والكهرباء والبترو لتدور تلك الآلات الساقية والحارثة ، ويتقدم ذلك صناعات كثيرة ، وهناك صناعات متممة للحب كالطحن والدق والعصر والخبز
 أما الكساء فان الانسان لما احتاج الى ما تستغنى عنه البهائم من اللباس إذ خلق عاريا وهن كاسيات اتخذ اللباس بصناعة الحياة وهي لا تتم إلا بالفضل ، وهو بالندف ، والندف يتقدمه الخلع ، وهذه مقدمات على الحياة ، والحياة تنالها الخياطة والفرو والطرز ، أما البناء فان الانسان يستكن فيه من الحر والبرد والسباع ويخزن فيه القوت ، فتقدمه صناعات كالنجارة والحدادة وماشا كلها .
 وهناك صناعات جعلت للزينة كصناعات الديباج والخير والعطر ، فهذه خلاصة ما يحتاجه الانسان في هذه الحياة .

قواعد الشريعة الاسلامية في هذه الصناعات

واعلم كما قاله العلامة السيوطي في كتابه « اتمام الدراية لقراء النقاية » أن قواعد الشرع أن الوازع الطبيعي يغني عن الوازع الشرعي [مثاله] شرب البول حرام ، وكذلك الخمر ، ورتب الحد على الثاني دون الأول لنفرة النفوس منه ، فوكلت الى طباعها ، والوالد والولد مشتركان في الحق ، وبالع الله في كتابه العزيز في الوصية بالوالدين في مواضع دون الولد وكولا الى الطبع لأنه يقضى بالشفقة عليه ضرورة ، هذه القاعدة تطبقها الآن على ما يحتاج له المساهمون فنقول :

قد استبان لك أن جميع العلوم والصناعات يقصد منها حياة الانسان وتهذيبه ورقيه ، والصناعات ترجع الى مقصودة بالذات وهي الثلاث المذكورة ، والى مقدمات لها ومتممات ، وبعدها تكون صناعات الزينة ،

فعلى رجال الخلق والعقد في الأمة الإسلامية أن لا يتركوا صناعة ولا عملاً إلا خضعوا لها أناساً، وليتكن ذلك بحسب الاستعداد الجسمي والعقلي، فيوضع كل امرئ في مركزه الذي خلق له، وأن الله قسم العلوم والصناعات على العقول كما قسم الذكورة والأنوثة بالعدل بين الناس.

وهنا يرد سؤال فيقال: لقد ذكرت العلوم الشرعية والفلسفية والصناعات، وجعلتها فروع كفايات، وكيف ساغ لك ذلك؟ وكيف تقرر علم الفقه والتفسير والحديث بالفلسفة وعلم الكيمياء والضوء؟ أقول: إن هذه كلها فروع كفايات وإن كانت متفاضلة في الشرف فإن شرف العلم قد يكون لمتانة الدليل وصدق كاهنسة، وقد يكون للحاجة إليه وعمومها وإن كان ظني الدلالة كالطب، وأما لجلال موضوعه وعظمته كالعلم بالله وملائكته ورسوله، وكذلك شرف الصناعات.

(١) إما لعموم الحاجة إليها كالحياكة والبناء والحراثة.

(٢) وأما من جهة الصنعة نفسها كمثل من يعملون آلات الرصد مثل الأسطرلاب، ومثل صناعات من يصنعون الساعات التي تعرف الزمن فإن شرف هذه في صنعتها، فإذا صنع الأسطرلاب من نحاس كانت قيمته عظيمة جداً تساوي عشرات الجنيهات أومئات منها، ولكن النحاس الذي فيه الصنعة يباع بدراهم معدودة.

(٣) وأما من جهة عموم نفعها مع تساوي الناس فيها غنيهم وفقيرهم، صغيرهم وكبيرهم، كصناعة الزبالين والسمايين، فإن هؤلاء لو تركوا المدينة أسبوعاً واحداً لامتألت المدينة من السرقين والسماد فينقص عيش أهلها.

الوازع الطبيعي والوازع الشرعي

اعلم أن الله عز وجل سلط على الناس الحرّ والبرد، والسباع، والأعداء، والسارقين، فاضطروا في البادية أن يتخذوا البيوت، وينسجوا الشعر والوبر، وسلط سبحانه الجوع على الناس، فكان الجوع للغذاء والحرّ والبرد ونحوهما للكساء، والحيوان الكاسر والأعداء وحوادث الجول للبناء. إن الله عز وجل لما رفع قيمة الإنسان عن الحيوان والنبات كلفه الاستقلال في حياته، وألزمه أن يسعى لسعادته، وبدأ ذلك بتلك الغرائز التي سلطها من الجوع والعطش والاحساس بالحرّ والبرد والخوف من السباع، وكلما تقدم الإنسان في مدنيته ازدادت حاجاته، فلقد كان يكفيه في الفطرة الفاكهة غذاء، وورق الشجر وجلود الحيوان كساء، والمغارات مساكن.

إن الغرائز الكامنة فيه بمساعدة العقل ألزمت أن يتخذ ذلك بالاحكومة نظامية، ولا مدارس ولا علوم، ولا يجب عاينه فوق ذلك شيء بحسب المعاش الدنيوي.

فلما أن اجتمعت الناس في المدن حدث لهم أحوال واستجدت لهم شؤون وجاءت واجبات فكانت الصناعات المتقدمة وغيرها، وربما عدت بالمثلث لاسمها في هذا الزمان، ألا ترى أن السفر الذي كان يكفي أن يقال إنه على جبل أو حمار أو بغل أو سفينة أصبح الآن ذا شعب كثيرة من الطرق الحديدية والآلات البخارية والسفن العظيمة الجارية كأنها مدينة والغوّصات والطائرات، وكل هذه تحتاج إلى الأسلاك البرقية [التلغرافية] والبرق الذي لاسلك له وإلى علم المغناطيس والكهرباء، ونحو ذلك.

وبعد أن كان يكفي الوازع الطبيعي في تربية المرأة لولدها أن تغذيه باللبن كالحیوان حدث اليوم حادث المدنية الذي به فسد الهواء في المدن وازدحم الناس، وضاعت الأخلاق فوجب التعليم والتهديب، وقراءة العلوم ومعرفة الصناعات وصار الفرد مكلفاً بشؤون خاصة على مقدار طاقته.

وليس يجوز لأولى الحل والعقد في الإسلام أن يتركوا الأمة وشأنها ، بل عليهم أن يجعلوا طوائف في العلوم والصناعات بمقدار فلا تزيد طائفة عن حاجة الأمة كما هو حاصل الآن ، فبلادنا المصرية مسكينة تجهل الصناعات المستحدثة في أوروبا ولا تعرف إلا القليل ، وهي عالة عليها فيها ، ولا ترى فيها كثيرا من العلوم القضاء والمحاماة ، وعلم الفقه الاسلامي ، والأمة الآن كبقية الأمم الاسلامية متروكة سهوا ، فالتعلمون في مدارس الحقوق والقضاء والمعاهد الدينية كثيرون جدا ، يزيدون عن حاجات الأمة المسكينة الفقيرة في سائر العلوم ماعدا هذين العاملين ، ويجب أن يتعلم كل ذي علم شرعى أو عقلى بعض الصناعات كالنجارة والحداثة والكهرباء تقوية لبدنه وتكميلا لأموال حياته وحفظا لمروءته اذا لم يجد وظيفة ، وليكن تعليم السبق والرمي من أهم مقاصد جميع المتعلمين .

الفرض العيني الواجب على كل مسلم

ولعلك تقول : أليس علم الفقه واجبا على جميع المسلمين ؟ فلماذا تجعله فرض كفاية كعلم الكهرباء ، وعلم النحو وصناعة البخار وسير القطار .

أقول : ندع اختلاف العلماء في الواجب العيني فانهم لم يتفقوا ، فعلماء التوحيد يقولون : الواجب العيني عليهم وعلماء الفقه يوجبون عليهم ، والمفسرون عليهم ، والمحدثون عليهم والصوفية عليهم ، وقال أبو طالب المكي : علم حديث بنى الاسلام على خمس الخ ، والحق أن الواجب على كل امرئ حفظ ذاته وحفظ عقله ودينه ، وحفظ الذات كفت فيه الغريزة ، فاذا ترك اللباس آذاه الحر والبرد ، واذا ترك المسكن تعرض للهلاك ، واذا رأينا من لم يحافظ على نفسه أرغمناه ، وأوجبنا عليه حفظها كمن يسكر أو يريد قتل نفسه ، والمسكف به المرء اعتقاد وفعل وترك ، فالاعتقاد هو الايمان بالله ورسوله وبقواعد الاسلام ، وأن يقوم بفعل الطاعات ويجتنب المحرمات ، فأما علم الفقه الذي هو الشغل الشاغل لعظماء الاسلام فقد قال الامام الغزالي فيه : ان أحكام الجراحات والحدود والغرامات ، وفصل الخصومات ، وما أشبه ذلك انما هي قانون السياسة وضبط الجهور الذين يتنازعون بحكم شهواتهم ، فالفقيه معلم السلطان ومرشده إلى قانون سياسة الخلق ، وهذه في الحقيقة حراسة للدنيا والدنيا بها يتم الدين ، فالفقه الذي عند الأمة الاسلامية انما هو القانون والقانون لحفظ البلاد والعباد ، وبحفظ هؤلاء يتم الدين .

وليس يمتاز عما تقدم في الفقه أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج والحلال والحرام ، فكل هذا نظر الفقيه فيه دنيوى لأخرى لأنه يحكم بصحة الصلاة ظاهرا ، وكذا الزكاة والحج والاسلام ، وهذه كلها لانفع لها في الآخرة الا بالاخلاص والتوجه لله ، فالصلاة لانفع فيها ولا فائدة اذا كان قلب الانسان مشغلا بما أهمه ، والفقيه يقول انها صحيحة والله يعلم انها باطلة « ويل للصليين الذين هم عن صلاتهم ساهون » .

بيان قصور التعليم بالمدارس المصرية في زماننا

وان الشاب يخرج من المدارس مغمض العين ناعس الطرف فلا يرى نجما ولا شجرا ولا معدنا الا قليلا منهم قد ذكرت لك في الباب السابق أن علم الفقه لضبط السياسة في البلاد ، وقلت : ان أكثر المتعلمين من مصر محدثون في هذا العلم ، ألا ترى إلى الجامع الأزهر الذي تعلمت فيه ، وإلى فروعه في دمياط ورشيد والزقازيق والاسكندرية وأسيوط ، وفيه الآلاف المؤلفة من الطلاب ، وإلى مدرسة القضاء الشرعى ، وإلى مدرسة الحقوق التي هي تتبع للحكومة ، وإلى مدرسة الحقوق الليلية التي أقامها أهل فرنسا في بلادنا وغيرها ،

فهذه المدارس كلها الامتلاء واحد هو سياسة الجمهور ، و بعبارة أخرى ان علم الفقه الاسلامى وأصوله الذى يراد لأجل الافتاء والقضاء قد شاركه القانون الفرنسى وأصوله واصبحا علمين يقرآن ، وانكبت عليهما الطلاب للغرض الذى كان يسعى له طلاب المال والجاه ، والأمة المصرية اليوم مسكينة فقيرة فى العلوم والصناعات ، أما فى الصناعات فظاهر لأننا عالة على أوروبا حتى ان نساءنا من كانت منهن غنية فلما شطت لها امرأة فرنجية والخائطة افرنجية والخدمة افرنجية والمرضع افرنجية ، وهذه صناعات يحرم على الأمة أن تكون خالية منها فيعذب المسلمون قاطبة على تركها .

وأما العلوم فأننا فيها فقراء ، ألا ترى أن علم الحيوان ، وعلم النبات ، وعلم المعادن ، وعلم الفلك مفقودات فى المدارس الثانوية ، وقد كانت هذه فى مدارسنا فى أواخر القرن الماضى فى النظام الذى سنه [محمد على باشا] ومن بعده أن المدارس الثانوية هى المدارس التى تعطى الشاب صورة العلوم العامة ، وهذه مفقودة فى البلاد الاقلية ، نعم يقرءون الحساب والهندسة والجبر وبعض الطبيعة كاحوال المادة الثلاثة : الصلبة والسائلة والغازية ، وخواصها العامة كالخيز وعدم التدخل إلى آخره ، وكالقوى المحركة والروافع والحرارة والمغناطيسية والكهربائية الساكنة والمتحركة ثم علم الخيل [الميكانيكا] ولكن هذه لا تغنى عن علم الحيوان والانسان والنبات والمعدن ، يعيش الشاب ويموت وهو يجهل النجوم وعجائب الفلك ويجهل نبات مصر وحيوانها ومعادنها ويجهل تاريخ المصريين والسودانيين وأهل العراق وأهل الحجاز والعرب ومأصلهم ومآثرهم ، ومن أين نزحوا كل ذلك مجهول فى الاسلام فى وقتنا الحاضر ، أما الادرييون فهم يعلمون أبناءهم ما يحتاجون إليه مما يناسب أحوالهم .

فالمسلمون جميعا يجهلون صناعة الحرب التى ارتقت فيها أوروبا وصناعات البريد والحراثة وغيرها من فروع الحياة الاقلية عرفه بعض مواطنينا من المصريين ، ولكن الجهل لا يزال مخيما فى البلاد كما خيم فى سائر البلاد الاسلامية ، ثم المتعلمون عندنا محدثون فى علم الحقوق وعلم الفقه كما قدمنا ، وهذا الانكباب من جهة ، وترك العلوم والصناعات الأخرى حرام على أولى الحل والعقد بل عليهم أن يعملوا بقوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » ويخصصوا كل طائفة بعلم أو صناعة ، أما ترك الأمة سهوا لا هملا فهو حرام نعاقب عليه فى الدنيا بالخرى ، ودوس الفرنج لنا بجهلنا وفى الآخرة بجهنم وبئس القرار .

أيها المسلمون : أيها المصريون : ان التلاميذ فى مدارسكم أعينهم فى غطاء ، انهم يقرءون ، ولكن ماذا يقرءون ؟ يقرءون شذرات من العلوم كالكيمياء والمغناطيس والضوء وأمثالها ، يقرءونها وهم متكفون يقرءونها بايجاز ، تلك مقدمات الصناعات والمقدمات غير النتائج ، تلك تتف من العلوم « لا تسمن ولا تغنى من جوع » لا يعرفون الجبال ، لا يدرسون محاسن الطبيعة ، لا يقرءون نظام النبات ، ولا أنواع الحيوان ، ولا بهاء الدنيا ، ولا جمال النجوم ، ولا بهجة هذه المناظر ، لا يقرءون العلم بلذة وفرح ، ولا يدرسونه بانسراح ومسرة .

حكاية

منذ ١٣ سنة قال لى ثلاثة من تلاميذ المدرسة الخديوية كانوا قد سافروا إلى أوروبا : اننا نحن الثلاثة كننا نظهر اهتماما بجمال الزهر ، وبهواء الزرع ، وجمال الشجر ، فقال أستاذنا [الذى كان ناظرا المدرسة الحقوق فى مصر وتشاجر مع مستشار المعارف الانجليزى لحرمان التلاميذ من الفلسفة فى التجهيز قبل دخول مدرسة الحقوق ثم غادر البلاد وصار ملجأ للتلاميذ المصريين فى مدارس الحقوق بفرانسا] .

مالى أراكم تعشقون الزهر وتحبون الجبال ، ولم أر هذا فى التلاميذ المصريين ؟ فقلنا له : اننا حضرنا فى

سنة ١٩٠٧ م على مدرس كان يعطينا مواضيع الانشاء كلها في جمال الطبيعة فحشقناها ، فقال لنا : لماذا
حضرت الى أوروبا ؟ اذا ظهر في أمة من يحجبها في الجبال ارتقت سربها ، وهشل هؤلاء ثمر كلياتهم ، وهؤلاء
يفتحون عيون شعبهم ويوقظونه في زمن قريب . انتهى

أيها المسلمون : أيها المصريون : دينكم يدعو للجمال وفهم الطبيعة ، دين قدماء المصريين كما قدمت في
هكذا التفسير يعشق في جمال السماء والأرض كما في النشيد الديني المتقدم ، أوروبا تقدس الجبال في العوالم ،
فالقرآن وجميع الديانات والأمم تدرس جمال هذا العالم ، ونحن نجترى بالقشور الى يوم النشور ، أغمض أبناؤنا
أجفانهم ، غطوا أعينهم وناموا ، لم يدرسوا ماحولهم ، نعم درسوا في كراسة المعلم ، وهي وحدها التي أفتت
أجفانه ، وأنامته وكرهته في العلم ، ليدرس النبات والحيوان والنجوم بصفة تشوق الطالب الى الدرس ، وترفع
نفسه الى مستوى الحكمة والعلم ، وبهجة الأنوار القدسية ، ذلك هو الصراط المستقيم .

ولعمرك ان من يدرس في التجهيزي أحوال المادة الثلاثة : الصلبة والسائلة والبخارية ، وخواصها العادة
كالقصور الذاتي والحيز ، وكونها لها مسام ، وخواصها الخاصة كالقابلية للطرق والسحب والاستعداد للتجزئة
في المعادن ، وكذلك القوى التي تحرك الأجسام والروافع والضغط الجوى والحرارة والمغناطيسية والكهربائية
والميكانيكا والضوء وقوانينه ، ان الذين يدرسون هذه وهم بعد لم يستكملوا هذه العلوم في صناعة من الصناعات
وأيا لم يقرءوا علم الحيوان والنبات وغيرها ، ان هؤلاء يكونون أشبه بمن قرأ الصرف والنحو وهولم يتضاع
من الشعر والنظم العربيين ، ويعيش حافظا نظريات لا تفيد في الحياة كمثل الذي حفظ الميراث والدعوى
والدينات وسائر أبواب الفقه ، ولم يكن له فيه عمل ما ثم هو يجهل ما في القرآن من الاشارات للعلوم والاطلاع
على الحكمة ، فهذا ومن قبله من الذين حبطت أعمالهم فلا يقيم لهم في الدنيا وزن : « قل هل ينسبكم
بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » فالتلميذ الذي يحمل
الشهادة الثانوية لا يقدر على مهنة يشتغل بها وهو مغرور بشهادته ، والحق أنه قد خرج أعزل لاسلح له إلا تلك
الورقة الكاذبة فلا يمكنه الاكتساب بماء ، بل هو تعلم التوكل على الناس ، فلا بد من قلب التعليم في مصر
وفي المعاهد رأسا على عقب نظاما وشهادات وعلوم وتلقينا ، والله هو الوليّ الجيد .

قال الامام الغزالي في الاحياء : « ولو سألت الفقيه عن اللعان والظهار والسبق والرمي اسرد عليك مجلدات
من التفريعات البقية التي تنقضى الدور ولا يحتاج الى شيء منها ، وان احتيج لم تخل البلد ممن يقوم بها ،
ويكفيه مؤونة التعب فيها ، فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا في حفظه ودرسه ، ويغفل عما هو مهم في الدين ،
واذا رجع فيه قال : اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض كفاية ، ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه ،
والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين ، بل قدّم عليه كثيرا
من فروض الكفايات ، فيكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل النمة ، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق
بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لا ترى أحدا يشتغل به ، ويتهاونون على علم الفقه ، لاسيما الخلافات والجدلّيات
والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع ، فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين
في الاشتغال بفرض كفاية قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به ، هل لهذا سبب ؟ إلا أن الطب ليس ييسر الوصول
به الى الأوقاف والوصايا ، وحياسة مال الأيتام ، وتقلد القضاء والحكومة ، والتقدم به على الأقران ، والتسلط به
على الأعداء ، هيئات هيئات قد اندرس علم الدين بتلبس العلماء السوء ، فالله تعالى المستعان واليه الملاذ في
أن يعيذنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن ، ويضحك الشيطان » انتهى المقصود منه .

وأنا أقول : أيها الامام قد مضى نحو ٩٠٠ تسعمائة سنة بعد تأليفك هذا الكتاب والمسلمون نائمون

جاهلون ، ومصر التي ظهرت في طليعة البلاد الاسلامية لا تزال كالعهد الذي تركت الاسلام عليه ، فيها معاهد العلم الديني لا يزالون في هذا التلييس وتبعهم رجال المدارس الذين لا يحاولهم الامدارس الحقوق ومدرسة القضاء الشرعي ، كل هذا للظهور وتولى الحكم والحمامة ، أما الصناعات والعلوم الأخرى فهي منبوذة الاقليلا فليس عندنا مبرزون فيها ، أما أوروبا فقد قهرتنا بآلاتها القاتلة والحارثة والطاحنة وسبقونا في الاقتصاد والسياسة ثم ان المدارس عندنا تعليمها لفظي لا يعيش الشبان في العلم والبحث فهو تعليم خال من الروح ، ولذلك سقطت الأمة في هاوية الاحتلال الأجنبي .

الواجب على المجالس الشورية أو النابتة عن الأمة

الواجب عليها أن تقلب التعليم قلبا تاما في المعاهد الدينية والمعاهد الدنيوية وتدخل فيها التهذيب وكل ما يرغب في حب العلم وحب البلاد ومعرفة أحوال الأمم الاقتصادية في السوق ، وهكذا علم الأخلاق وعلم الحيوان والنبات والمعدن وما أشبه ذلك ، وليس يجوز أن يكون التعليم بلا ضابط وإنما يكون على مقتضى الاستعداد المذكور في قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها »

هل في الاسلام نابغون؟

ولعلك تقول كيف تدم التعليم في الاسلام وفي مصر وفيها نبوغ ظاهر لدى عيينين :
أقول : على رسلك ان هؤلاء النابغين في الأزهر والمدارس انما جاء من استعدادهم ومن دراساتهم الخاصة وبيئاتهم ، أما مستوى التعليم فانه ناقص ، وأهم من هذا أنه غير منظم لم ينظر فيه إلى ما تحتاج إليه الأمة ، الامام الغزالي يقول لنا : ان البلاد مشحونة بأهل الفقه وهي خالية من الاطباء ويندد على المسامين ويقول قد ذهب الدين وضاع لماذا ضاع ؟ ضاع لأن البلاد ليس فيها من يقومون بجميع المطالب للأمة .
وأنا أقول ياضيا المسامين اليوم ، ياضية الاسلام ، أيها الامام المساهون لا يزالون كما تركتهم فأهل الفقه وحفاظ القرآن يملؤون البلاد وكذلك المحامون والقضاة ، أما علماء الكيمياء والطبيعة والضوء والكهرباء والسكك الحديدية والبرق وعلماء المعادن وعلماء الحشرات وعلماء السياسات فان هؤلاء في أوروبا وإيسوا عندنا وأنت أيها الامام تقول : ان الدين ضاع ، وأنا أقول لك : ان كثيرا من أهل بلادى لا يعلمون أن هذا من الدين ولا يعترفون بأن ديننا يحرم علينا ترك الصناعات الحربية الحديثة وصناعة الطرق الحديدية وصناعات المعادن ولا يتصور أن كثير الناس أن ذلك فرض كفرض علم الفقه الذي به يكون القضاء ، وأقول فوق ذلك : قد أخبرني عالم صيني أن علماء الاسلام هناك ظنوا أن العلوم العصرية مخالفة للقرآن فتأخروا عن أهل الصين المتبعين للدين الوثني فأصبح الاسلام في زماننا مانعا من العلم في نظرهم ، والمساهون هناك يباغون سبعين مايونا ، ولقد جاءني مرة أمير يقال له جمال الدين من الهند ومعه فتوى يسأل فيها عن علم الجغرافيا والتاريخ ، فأجبتة بأن العلوم كلها فرض كناية ، وقال لي : ان علماء بلدى حرموا هذه العلوم وقابلني في هذا العام عالم تونسي فقال : ان بعض العلماء يقولون لا يجب شيء غير علم الفقه ، أما النظر في العالم العلوي فيمكن أن ينظر الانسان بعينه وهكذا الاسلام اليوم أضعف منه في كل زمان .

وأنا أطالب كل من وقع هذا في يديه أن يبحث في هذا الموضوع ويفكر بعقله ويستخرج العلوم الواجبة على المسامين ويرفعها لولاية الأمور فانه ظهر بهذا القول أن علم الدين ليس خاصا بالفقه ، بل العلوم كلها والصناعات أصبحت فروعا لشجرة واحدة هي الحياة الانسانية ، وكل ما عندنا الآن خطأ نشأ من عادات قديمة

راسخة ، فليقلب التعليم في المعاهد الدينية على حسب ماقلناه وكذلك في المدارس العصرية وليكن للأمة حال جديدة ، فهذه الحال لايجوز بقاؤها وليدرس هذا الموضوع دراسة نامة ، فالاسلام وأمة الاسلام اليوم في خطر ، ولا منجى من الخطر الا بما ذكرنا وباتباع قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها »

الأوقاف الاسلامية والمعاهد الدينية

اذا تقرر أن فروض الكفاية تشمل العلوم والصناعات ، وأن المعاهد الدينية الاسلامية يدرس فيها علوم النحو والصرف والمعاني وأمثالها وعلوم أخرى من أصول الدين والفقه وكذا الحساب والهندسة والنظر في الكون ، أفلا ينبغي أن ينظر في أمر الشهادة النهائية ، ويقال ان هذه العلوم كلها فروض كفاية لافرق بين علوم الدنيا والدين ، فاذا نظر رجال الحل والعقد في المجالس النيابية في أمر ما تحتاج اليه الأمة من العلوم والصناعات ثم قرروا أن يكون في تلك المعاهد شهادات عالية أيضا للهندسة وأخرى للطب ، وللصناعات الشريفة باعتبار أنها فروض كفايات وان كثرة المتعلمين في البلاد في نوع واحد غير مفيدة كما قاله أسلافنا اذا حصل ذلك فاني أراه يوافق الدين ، بل أقول فوق ذلك : ان مخالفة هذا تنافي الدين لما قرره الامام الغزالي من النداء بالويل والثبور ومخالفة الدين بسبب كثرة الفقهاء وقلة الأطباء ، الله الله عباد الله اتقوا الله في دينكم وأمتكم وليكن لطلاب المعاهد الدينية حياة أسعد من هذه وأرقى منها بتنوع شهاداتهم مع أنهم منسوبون للدين ، فمن أخذ الشهادة بالطب لا يكون أقل ممن أخذها بالفقه لأنهما معادرسا لهذا الفن ولكن أحدهما اختصاص بالطب والآخر استمرار بحسب استعداده في الفقه وهكذا الهندسة ويكون تخصيصهم بحسب استعدادهم بالامتحان ، ثم ينظر أهل الحل والعقد في الأوقاف وتنظم نظاما تاما فلا تبقى مبعثرة كما هي الآن ويحرم الانفاق على العاطلين ويعرض ما فيها على أهل الحل والعقد وينظر العقلاء فيها بعقولهم فيما يطلبه حال الأمة ، ثم يستعرضون آراء المذاهب كلها من حنفية وشافعية وحنبلية ومالكية وزيدية وغيرها يأخذون من أقوالهم بما هو الأصلح للبلاد من حيث نظام الأوقاف وانماؤها ومن حيث الانفاق على معاهد التعليم وأن يكون المتخرجون منها نافعين في نظام الأمة تبع قانون معلوم ونظام مسنون ، لا بالهوى والعادة ويكون ذلك بمقتضى قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » أما أنا فقد كتبت ما في وسعي وهذا أنا به مكلف وهذه

بذرة سينميتها العلماء ويسقى زرعها العقلاء ويعمل بها النواب النبلاء .

اتهى تفسير سورة البقرة مساء الجمعة ١٣ ابريل سنة

١٩٢٣ م ، ٢٦ شعبان سنة ١٣٤١ هـ بمنزلة

بشارع زين العابدين رضى

الله عنه آمين

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الأول من كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم

ويليه الجزء الثانى : وأوله تفسير سورة آل عمران)

﴿ يقول الفقير اليه تعالى (ابراهيم بن حسن الانبائي) خادم العلم الشريف ورئيس لجنة
التصحيح بمطبعة الشيخ الجليل (مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر) ﴾

جدامن كشف لذوى البصائر مخدّرات آى التنزيل ، وأشهدهم مكنون أسرار التأويل ، وأخرج بهم
من الجهالة ومتعمهم بنعيم المعرفة ، وأمدّهم من أبحر فيوضات أنوار أسرارهِ المؤتلفه ، وصلاة وسلاما على
أجلّ مبعوث بأفضل كتاب الى خير أمة ، سيدنا محمد وآله وصحبه ومن اتبع دينه القويم وأمه
[وبعد] فلما كان كتاب ربنا جلت عظمتُهُ بحر معارف لا يتناهى ، وينبوع حكم لا يحيط بعلمها الا من
أبدعها وسوّاها ، وكان العارفون من العلماء الألباء ، لا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ، وقد اغترف كل بقدر
مبلغ علمه ، ومنتهى وسعه ، أهلّ من بينهم الاجلّ الأجلّ ، والملاذ الأنعم الأوحده ، الفيلسوف المحقق ، والجهيد
المدقق ، الشيخ « طنطاوى جوهرى » ذوالفيوضات الربانيه ، والمواهب اللدنيه ، « يؤتى الحكمة من يشاء
ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » ولله درّه : لقد اغترف من بحار أنوار معالى التنزيل بالقدح المعلى ،
وأتى بمالم يسبق به من كل أرض أضح أجلى ، وضمنه بدائع حكم الموجودات وغرائب غرائز المسكونات .
فالى الأمة الاسلاميه أرف هذا السفر الكريم والكتاب العظيم [بعد اعاده طبعه للمرة الثانية بإدخال
تحسينات جمة ، منها تكميل التفسير اللفظى لبعض الآيات ، واستدراك أشياء ، ووضع
بعض صور شمسية هامة ، رأى فضيلة المؤلف ضرورة إثباتها ، وما أوجدته
سنة رقى الطباعة من التقدّم الفنى وجودة الورق الخ] لتقف على
حقائق الأشياء ، فتخرج من ورطة الجهالة الشنعاء ، وتتحلى بحلى
المعارف ، وتستظلّ بظل تبيانها الوارف ، وتحوز فضلها
بين الأمم . وذلك بالمطبعة المذكورة أعلاه ،
ووافق تمام طبعه أوائل محرّم الحرام سنة

١٣٥١ هجرية على صاحبها

أفضل الصلاة وأتمّ

التحية آمين



الخطأ والصواب

غلبننا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلا تبيين ، وهذا جدول بما عثرنا عليه من ذلك ، وهاهوذا :

صفحة	س	خطأ	صواب
٦	١٢	بِمَنْزَرٍ سَهَا	بِمَنْزَرٍ سَهَا
١٣	٣٣	من الشمس وضوءه بالنسبة لضوئنا	مرة وضوء الشمس بالنسبة لضوئها
١٩	١٨	التشبه بالله	حب الله
٢١	٢٣	كثيرا	كثير
٢٣	٨	فالقراءة	فالقراءة
٣٥	٢٩	أبكا	أبكى
٣٦	١٨	وكم	وكأن
٣٦	٢٠	كقوله عليه الصلاة والسلام	كما في هذه الحكمة
٣٨	٣٣	البلاعة	البلاهة
٤١	٢٢	المشهور	المشهورة
٤٣	٢	انما	
٤٦	٢٢	عليه	عليك
٦٤	٢٨	وتحوط الملوك العلماء والشعب بالجيوش	ويحيط بالملوك والعلماء الشعب والجيوش
٧٨	٢٣	في هذه الكتاب	في هذا الكتاب
٨٠	٦	والمراد باليهود والنصارى إلى قوله إلى أسفل	
٩٢	٢	فيستخذون للشهوات	فيستخذون للشهوات
١٠٢	٢٢	في كتبهم	وفي كتبهم
١٢٠	١٤	والتحريف	والتحريف
١٣١	٢١	أصبحوا	ليصبحن
١٥٨	١٣	الأمرء	الأيراء
٢٠٦	٢١	ما قبلته	ما قبلته

تمت

فهرس الجزء الأول

من كتاب

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صفحة

- ٢ خطبة الكتاب ، وفيها دعوة المسامحين عامة إلى البحث في العلوم الكونية .
- ٣ تفسير سورة الفاتحة ، عجائب الحيوانات في تفسير معنى الرحمة
- ٣ عجائب النمل والنحل والغنكبتوت في توضيح معنى الرحمة
- ٥ نسخ العادات العربية الجاهلية من مدح المحسنين والملوك واختصاص الحمد والعبادة بالله اطلاقا للحرية والمساواة ، نبذة من أشعار العرب ، محاورات بين رسل سعد بن أبي وقاص في حرب القادسية وبين [يزدجرد] ملك الفرس ورستم قائد جيشهم في زمن عمر في أن الناس لا يستعبد بعضهم بعضا .
- ٧ الشريعة الإسلامية والنظر في الآفاق وفي الأنفس .
- ٨ دعوة المؤلف لجميع المسلمين من سنيين وشيعيين وزيديين وغيرهم أن يدرسوا النبات والطب والمعادن وجميع العالم العلوى والسفلى .
- ٩ عجائب الذرة والقمح والتمر ، وكيف ربيت لدخولها في قوله « رب العالمين » .
- تربية الله للؤلؤ في البحر ، تربية الجنين في بطن أمه ، حكاية الأميركي صاحب الدجاج في فقس بيضها ، تربية الولد بالابن ، التربية الطبية ، التربية في المدارس بعلم البيداجوجيا ، تربية الله للعقول الكبيرة بعلم المنطق لادراك العلوم العالية ، الحمد يكون على مقدار علم الخادم ، معنى العالمين .
- ١٣ ضرب مثل للعالم العلوى بامرأة جميلة وفتيات يدرن حولها أقل منها جمالا وهكذا
- ١٤ العالم السفلى ، عالم النبات ، عالم الحيوان ، علم التشريح .
- ١٥ حكاية المؤلف العظيم والمقص الذي أهداه لمن لم يقرأ كتابه ، أسباب الحمد ، زيادة ايضاح لما سبق .
- ١٦ سؤال وجواب وضرب مثل لحال القرآن بما أبدع الله في العالم .
- ١٦ الفلاح وماشيته وولده والمهندس والعالم الطبيعي والحكيم وضربهم مثلا لدرجات الناس في فهم القرآن
- ١٨ معنى : « اياك نعبد الخ » ، شمول الصراط المستقيم للعفة والشجاعة والحكمة والعدل ، وهي أصول علم الأخلاق ، أقسام النعم : المال ، الأصحاب ، الأهل ، الأعوان ، الصحة ، العقل ، الحكمة ، وجوب الاحتفاء بالنافعين للأمة .
- ٢٠ حكاية سولون الحكيم اليوناني ، الفاتحة أم القرآن كيف شملت الفاتحة العلوم وكان علم الفقه غير داخل فيها عند الغزالي ؟ وكذلك علم الكلام .
- ٢٢ مقارنة فاتحة الكتاب بفوائح البلغاء وأصحاب المعلقات ، ذكر فوائح المعلقات السبعة مع شرحها ، وفوائح ثلاث قصائد أخرى وموازنتها بالفاتحة وبأوائل السور .

- ٣٤ قصة اسلام عمر وبعض سادات بني شيبان وهم مفروق بن عمرو ، وهاني بن قبيصة ، ومثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكيف أدهشهم ما سمعوا من القرآن كما دهش سيدنا عمر إذ قرأ أول سورة طه آيات العلوم والأخلاق في سورة الفاتحة .
- ٣٦ تقسيم سورة البقرة إلى بابين عظيمين : الأول غلب فيه التوحيد ومحاجة اليهود ، والثاني غلب فيه الأحكام الشرعية ، وفي كل منها عشرة مقاصد .
- ٣٧ تفسير [ألم ذاك الكتاب لاريب فيه] الخ
- ٣٨ التفسير اللفظي لآيات : « إن الذين كفروا سواء عليهم الخ » .
- ٣٩ التفسير اللفظي لآيات : « ومن الناس من يقول آمنا بالله الخ » .
- ٣٩ المقصد الثالث في قوله : « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا الخ » .
- ٣٠ التفسير اللفظي لهذا القسم .
- ٣١ المقصد الرابع : « يأيتها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم الخ » ، التفسير اللفظي لهذا القسم .
- ٣٢ ايضاح وتفصيل .
- ٣٣ فصل آخر في هذه الحكم الكونية ، وفيه تفصيل التشبيه الذي في هذه الآية على تشبيه ابن المعتز في قوله : وساق صبيح الخ .
- ٣٤ بدائع العلم لمناسبة تفسير « الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » ، قول النبي ﷺ لعمران ابن حصين ، الدهرية وأبو حنيفة ، الدهرية والشافعي واحتجاجة عليهم بورق الفرساد [التوت] ، شعر أبي نواس
- ٣٤ آراء سبنسر في العلوم الطبيعية والدين ، وتأسفه على تقصير أهل بلاده في العلم ، كلام المؤلف وموازنته بين أمة الاسلام وأمة الانجليز ، تشجيع المؤلف على الشبان الذين يحقرون الديانات اتباعا للفرنجية وهم أجهل الناس بعلوم أكابرهم .
- ٣٦ موازنة كلام علماء الاسلام في هذا المقام بآراء سبنسر وأنهم عرفوا هذه المعاني قبله .
- ٣٦ سؤال تلميذ بالمدرسة الخديوية للمؤلف وادعائه كغير سبنسر ، واجابة المؤلف له بتبيان الحقيقة .
- ٣٨ العلم المنتشر في المدارس المصرية لا يهدي الطالب ، تفصيل الكلام على الأنداد وعبادة الأصنام .
- ٣٩ من الأمم من مات عندها العظيم فعبدته ، الصابئون عبدوا الملائكة فالكواكب فالأصنام ، حفلة الزار أوفاق قدماء المصريين للكواكب ، دين التثايت .
- ٤٠ الآلهة الهندية الثلاثة ، وهم برهما وفشنو وسيفا ، ومعناها الخالق والحافظ والمهلك ، التثايت عند الفرس وقدماء اليونان .
- ٤١ الأصنام عند العرب الذين نزل عليهم القرآن .
- ٤٣ جنة العارفين وهي المعارف ، وجنة البله وهي التي فيها المأكول والمشروب واللذات الحسية .
- ٤٣ ضرب الأمثال وأن منها ما هو ظاهر كقوله : « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا » الخ ومنها ما يحتاج الى تأمل مثل أوصاف الآخرة وأحوالها .
- ٤٤ ضرب مثل يبين فيه اختلاف مشارب الناس بأنهم ، فالمرأة الجميلة ينظر لها ابنها وأبوها وأخوها وزوجها كل بنظر خاص ، وأربعة من العلماء يفسرون قوله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة »

- بما يناسب معارفهم في مسألة حرب الكفار، فتوى علماء بخارى لأمرها بتحرير الحرب بالمدافع وضياع البلاد المقصد الخامس : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » الخ وكيف يقول الله : خلق لكم ما في الأرض جميعا ، والغابات والمرجان في البحار وغيرها في يد الفرنجة ، الكلام على السموات السبع التفسير اللفظي لهذا المقصد . ٤٦
- السموات السبع في الانجيل ، موافقته لآراء اليونان ، كيفية خلق العالم في الآراء الحديثة . ٤٧
- أبعاد السيارات الثمانية ، السيارات العاوية والسيارات السفلية ، النجوم الثوابت وأن منها ما يصل نوره لنا في ألف سنة نورية . ٤٨
- أقدار الكواكب وعدد نجومها ، وأن مجموعها ٣٣٤ مليوناً من النجوم ، علوم القدماء قاصرة في عالم السموات ، وجمال الله وقدرته ظهر في العلم الحديث ، أسئلة وردت على المؤلف : ان الذين ينفون عالم السموات يجهلون العلم القديم والحديث ، عدد السماء سبعة لا مفهوم له . ٤٩
- رأى الامام الغزالي : ان طباق السموات كطباق البصلة لا يهتد عددها ، فهي على كل حال فعل الله ، عبارة الجبناء الخائفين من هذه المباحث ، ملخص هذه المباحث ثمانية . ٥٠
- المقصد السادس : واذا قال ربك للملائكة الخ . ٥١
- التفسير اللفظي لهذا المقصد . ٥٢
- بحث ضاف تحت عنوان [الايضاح في الحكمة العامة والعملية] ، واشتمل قصة آدم على الحكمة العملية والعامة . ٥٣
- الله والملائكة وآدم ، وأن تشريح الجسم الآدمي ومعرفة علم النفس تعرفنا تدبير الله للعالم وتسخير الملائكة من نظامه ، فالعالم كالجسم والملائكة كالنفوس والله مدبر العالم كما أن الروح مدبرة للجسم . ٥٤
- اجتماع خصائص الحيوان في الانسان ، الفأر والهُوام والأسد والأرنب والديك والسمك والخنزير والحمام والثعلب والغنم والغزال والجل وهكذا مما يقرب من ٤٠ حيواناً بأخلاقها . ٥٥
- تفصيل الكلام على الملائكة بطريق الاقناع بسلسلة العالم المشاهد . ٥٦
- آراء أهل الديانات والحكماء في الملائكة وهي خمسة ، ثم رأى علماء الهند . ٥٦
- بيان علم الأخلاق من قصة آدم وقايل وهابيل ، وهي ترجع لأحوال ثلاثة : كبر ابليس ، وحرص آدم وحسد قايل ، والأخلاق المنحرفة متفرعة عليها . ٥٧
- المقصد السابع وفيه فصلان الخ : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » الى آخر الآيات التفسير اللفظي لهذا المقصد . ٥٩
- ٥٩
- ٦١ ماجاء في انجيل برنابا من البشارة بالنبي ﷺ تصريحاً في مواضع كثيرة ، وعدم الصلب وغير ذلك من الحقائق ، تحقيق الكلام في انجيل برنابا ، وأنه كان مكتوماً عند البابا لما فيه من الحقيقة الحميدة
- ٦٤ مبحث شفاعة النبي ﷺ وأنها أجعت عليها الأمة ، وهي تتحقق بعلم وعمل ، فمن آمن فقد استعد للهداية ، فان من لم يتعهد نبات الايمان بالسقي بماء الأعمال لم ينل تمام الشفاعة ، وإنما ينال منها على مقدار ما استكمل في نفسه ، وهذا الرأي يجمع الآيات والأحاديث المختلفة ، والمذاهب المتضاربة من أهل السنة والمعتزلة والنلاسفة ، وهو يقرب من رأى ابن عربي والامام الغزالي ، وهو أقرب الى رقى الأمة الاسلامية ، وفيه محاوراة المؤلف مع سيدة روسية في عيسى وفدائه لأتباعه ، وقصة السيدة الروسية

مع الراهب في [دير طور سيناء] ، ورد المؤلف على كلامه واستحسنها ذلك كله ، وضرب مثل الأنبياء وأتباعهم بقائد جيش الترك إذ قام معه قومه ، وصدّوا عدوّهم ، ولم يتسكّوا على القائد وحده ، فهكذا الأنبياء وأتباعهم ، وبمثل هذا تتمّ شفاعتهم لهم ، والعلماء يشفعون ، والشهداء على هذا القياس .

٧١ تفضيل بني إسرائيل .

٧٢ « وإذ فرقنا بكم البحر » الخ ، والتفسير اللفظي لذلك . آيات التوراة في سفر الخروج ، في خروج بني إسرائيل من مصر .

٧٣ سفر الخروج ووصف ما كل بني إسرائيل في التيه .

٧٣ « وأنزلنا عليكم المن والسلوى » الخ ، والتفسير اللفظي لذلك .

٧٤ « وإذ استسقى موسى لقومه » الآيات .

٧٥ التفسير اللفظي لهذا المقصد .

٧٦ إيضاح الكلام في قوله تعالى : « اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » وأن أهل المدن يذلون وأهل البادية قانعون أعفاء ، فهم أقرب إلى الفضائل ولذلك يقتلون المتمدّين ، وذكر تاريخ العرب والرومان وبني إسرائيل ، وانهم لما تنعموا داستهم الأمم البدوية والفرنجية ، اليوم قد استعدّوا لهذا الدور كما قبلهم ، ثم ما الذي يفعله المسلمون لاتقاء هذا الخطر ، فايقلّوا من الشهوات ، وليرتّبوا الأجسام ، وليحفظوا العقول ، وليأكلوا من الطعام ما لا يكثر تركيبه ، وأن يكونوا أعفاء قاعين ، فإذا انغمسوا في النعيم أذلّتهم الأمم ، ذكر النوائد الطيبة في هذا .

٨٠ « إن الذين آمنوا والذين هادوا » .

٨٠ قصة البقرة ، حكاية اليتيم البارّ بأمه صاحب البقرة .

٨٢ الأمم الضعيفة تقلد الغالبة في أخلاقها وتقاليدها كما قلّد بنو إسرائيل المصريين فعبّدوا عجلهم فأمرّوا بذبّح البقرة ليعلموا أنها لا تعبد ، حكمة تخصيص الحجر بضربه بالعصا ، ليدل على أن الأشجار تنفجر منها المياه بسبب اختصاص الشايج بأنه يكبر إذا برد ، فالجاهل يكتفي بعصا موسى ، والعالم يعرف العصا الإلهية ، ونبع العيون بعظم حجم الشايج ، وعجائب السحاب والماء ، وأن في هذه السورة عجائب من علم تحضير الأرواح في هذا المقام ، وتحريم الربا ، وتحريم الخمر ، والتنويم المغناطيسي ، وأن الحرب الماضية كانت لرؤوس الأموال ، وهكذا قصة صموئيل ، والعجوز التي أحضرت روح صموئيل النبي ، وأخبرت طالوت بأنه سيقتل غدا ، وعلم تحضير الأرواح وتاريخه في أمريكا وأوروبا ، وانتشاره السريع ، وأنه مقتضى قوله تعالى : « كذلك يحيي الله الموتى ويرىكم آياته » فهذه هي آيات الله في ذلك ، الروحانية في فرنسا وألمانيا وإيطاليا والبلجيك وإسبانيا والبرتغال ، وخطاب خمسة عشر ألف أمريكي لمجلس النواب الأمريكي في علم تحضير الأرواح ، الملايين الذين اتبعوا هذا المذهب من النلاسنة والأطباء وغيرهم .

٨٩ مراتب التصديق أربعة : العقل ، تصوّف ، احضار الأرواح ، الإيمان .

٩٠ « أفطمعون أن يؤمنوا لكم » الآيات ، والتفسير اللفظي لذلك .

٩١ لكل أمة ثلاث طوائف : كهراء ، أميون ، ذوولسن ماكرون .

٩٢ « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل » الآيات ، ترتيب حال الأمة إلى ثلاث مراتب : سعادة ، واضطراب ، الهلاك والذهاب ، وهذه الأحوال الثلاثة على ترتيب الآيات .

- ٩٣ كيف تجتمع الأمة ، وكيف تبدد ؟ وهي مقالة في تفسير هذه الآيات ، وفيها وصف حريهم وصفتهم العامة بعد الانحلال .
- ٩٥ « ولقد آتينا موسى الكتاب » الآيات ، والتفسير اللفظي .
- ٩٧ « ولقد جاءكم موسى بالبينات » الآيات ، عبادة المصريين المجل قديما واهمالهم حديثا أمر الطيور حتى هلكت فهلك الزرع بالدود ، ثم استيقاظهم بتحريم الحكومة صيد الطيور النافعة لأكل الدود .
- ٩٨ « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة » وتفسيره اللفظي .
- ٩٩ « قل من كان عدوا لجبريل » الخ وتفسيره اللفظي ، ودخول سيدنا عمر مدارس اليهود ، قصة هاروت وماروت ، وبعض حكم سيدنا سليمان من نص التوراة فلم يكن ساحرا .
- « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات » الخ .
- ١٠٠ التفسير اللفظي لهذه الآيات .
- ١٠٢ فحك المغاربة على أذقان الجهلاء بأنهم يستخرجون الكنوز ، السحر وإيضاحه ، وإن السحر المقصود هنا هو تعليق القلب ، حكاية الطبيب المصري في محافظة مصر ، وتحقيق خيائته للخدمة بالتنويم المغناطيسى
- ١٠٤ طرق التنويم المغناطيسى ، درجاته الثلاث وفي الرتبة الثالثة وصفت الفتاة أحوالا عجيبة لاتعقلها وقت اليقظة .
- ١٠٥ وصف المريض في حال نومه دواء مرضه والساعات التي سيرجع اليه فيها ،
- ١٠٦ ذكر مقاله القدماء في علم السحر ، سحر الكلدانيين ، سحر أصحاب الأوهام ، سحر التخيلات ، ومن السحر الآلات المتحركة وعجائب الكيمياء . وهكذا ، وهي ثمان مراتب ثلاث منها لاتسمى سحرا اليوم .
- ١٠٧ « يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا » الآيات ، والتفسير اللفظي لهذا القسم
- ١٠٧ « مانسخ من آية » الخ .
- ١٠٨ الناسخ والمنسوخ ، الآيات الناسخة والآيات المنسوخة وأنها ٣١ آية ، نظم في ذلك للشيخ السيوطي
- ١١٠ لم كان الناسخ والمنسوخ في القرآن ؟ والجواب عليه بعالم النبات ونسخه بمختلف الفصول ونسخ الصناعات والأحوال ، وحض المسلمين أن يجاروا أوروبا وأمريكا كبلاد الأرجنتين في رقي الزراعة والآلات الحاصدة الحارثة الخازنة المذرية الخ ، وكيف يحلبون بقرهم ، وهكذا والاهالك المسلمون وبادوا ، وبما تقدم يكونون خير أمة أخرجت للناس خیر الناس أعلمهم فيكون أنفع لهم ، وأين ذلك اليوم ؟ .
- ١١٢ « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى »
- ١١٣ التفسير اللفظي
- ١١٥ « ولله المشرق والمغرب » الناس ثلاث درجات في فهم المشرق والمغرب
- ١١٦ العرائس النفائس ، وهي الشمس والكواكب في الليالي الصافية البهية
- ١١٧ جمال النجوم في جمهورية أفلاطون ، موازنة آراء أفلاطون بقصة الخليل المذكورة في القرآن
- ١١٩ « واذا ابتلى إبراهيم ربه » الآيات ، والتفسير اللفظي
- ١٢٠ تفسير معنى الكلمات بنحو : ٤ خصله خلقية ، الاستمرار في تفسير هذه الآيات مفصلا ، توبخ المؤلف وأسفه أن أبناء إبراهيم الخليل ، وهم العرب في مصر وشمال أفريقيا لم يقرءوا علومه ، ولم يتبعوا

- نسقه ، فأذهلهم الفرنجة ، الذليل لا يكون من خير أمة بل هو كالحیوان يعاف و يضرب و يساق .
- ١٢٦ « وقالوا كونوا هودا الخ ، قولوا آمنا بالله » الخ ، والتفسير اللفظي
- ١٢٧ « صبغة الله الخ ، أم تقولون ان ابراهيم الخ ، سيقول السفهاء من الناس » الخ
- ١٢٩ التفسير اللفظي لهذه الآيات
- ١٣١ ايضاح وكشف لبيان معنى كون المسلمين أمة وسطا الخ
- ١٣٢ ايضاح الكلام في أمر القبلة
- ١٣٣ « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء » الآيات ، هنا ذكر لغز قابس الفيلسوف اليوناني وان هذه الآيات مع سهولتها فيها حكم كلها مجملة ، وانه لاسعادة الابا صبر باجتماع فلاسفة العالم وتصديق القرآن ، وفي هذا الغز وصف حال السعادة ، وانها رعاء لادوام لها ، وان المال والعلم والجمال والصحة والصيت كل ذلك أسعادة رعاء لا ثبات لها ، أما الصبر فسهادته ثابتة دائمة
- ١٣٦ « ان الذين يكتُمون ما أنزلنا » الخ وتفسيرها اللفظي
- ١٣٧ ايضاح آية « ان في خلق السموات والأرض » ، ووصف الكواكب والشمس وعلاقتها مع الأرض والماء ، والهواء والأمطار والبحار ، وأن العالم جسم واحد فيكون إله واحد .
- ١٣٩ اتحاد المطالب الدينية والدينية في هذا التفسير ، اختلاف الليل والنهار
- ١٤١ اختلاف الليل والنهار في خط الاستواء والمنطقتين المعتدلتين والقطبين باعتبار العرض بجدول يبين الأقاليم وطول الأيام فيها من ١٢ ساعة الى ٢٤ ساعة ، فشهرف شهرين وهكذا الى القطبين
- ١٤٢ اذا طلعت الشمس في مصر تكون الساعة واحدة في الخليج الفارسي ، وثلثين في الفرس ، وثلاث في السند و ، في غرب بلاد الصين الخ .
- ١٤٣ عجائب العلم والسياسة في القرآن ، قدم العلم في الشرق ، سيره الى أوروبا ، انتقاله الى أمريكا ، رجوعه للشرق تبعا لسير الشمس كما في قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك الخ » وهذا معجزة .
- ١٤٤ تفسير قوله تعالى : « والملك التي تجري في البحر بما ينفع الناس »
- ١٤٤ السفن كالسمك نابعات لناموس خاص ، الجسم إما أن يكون أخف من الماء أو أثقل
- ١٤٥ تفسير قوله تعالى : وما أنزل الله من السماء من ماء الخ . خلق البقرة أعجب من خلق الفيل ، لها ستة أرجل الخ
- ١٤٦ تنوع المادة كتنوع الصوت في الهواء والحقول ، شعرا المادة كما أن شعرا الشعراء في الصوت ، فالمادة واحدة تنوعت ، وخالق العالم واحد ، العالم كلمات ككلمات الصوت « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا »
- ١٤٨ ايضاح لما تقدم في تنوع المادة ، وأنه كتنوع الصوت ، وعجائب العناصر والحروف التي يجمعها كلمتان [واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين] وأن ذلك من المعجزات ، يشير لما تقدم [فانظروا كيف بدأ الخلق]
- ١٤٩ لطائف في عالمي الحيوان والنبات ، شجرة خلقت قبل آدم ، النبات الهوائي ، النبات المفترس ، الفجل والبصل تجمع أوراقهما الماء بحكمة عجيبة
- ١٥١ نبات مفترس للحيوان ، أعصار الحيوان ، القروود وتقليدها ، عجائب الخرباء

- ١٥٣ السنط والنمل ، الأزهار تنام وتستيقظ على حسب المواعيد التي تطوف فيها الحشرات الخاصة بها
- ١٥٥ تقصير المسامين في هذه العاوم ، تصريف الرياح والسحاب المسخرة الزوبعة أو الأعصار ، عجائب السحاب
- ١٥٦ السحاب والسفن يجريان بالبخر وبالكهرباء
- ١٥٧ « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا » الآيات
- ١٥٨ التفسير اللفظي لهذه الآيات
- ١٦٠ الحب والعشق والشوق ، وما معنى حب الله ؟
- ١٦١ الخيال والتصور ، معنى العشق ، معنى حب الله
- ١٦٢ إيضاح الشوق لله
- ١٦٣ شعر شكسبير في حب الله ، أقوال سنيكا الروماني في نعم الله
- ١٦٤ [توت عنخ أمون] وكنوزه المشوقة لجمال العاوم والصناعات
- ١٦٥ الرؤساء والمرؤسون ، الأعم الضعيفة بين يدي القوية أشبه بالناس عند المسيح الدجال ، جنتهم تنقلب نارا ونارهم تنقلب بجنة
- ١٦٦ الكلام على آيات الحلال والحرام ، وبيان اختلاف الأئمة فيما يحرم أكله
- ١٦٧ الكلام على جلد الميتة
- ١٦٧ عدد عشرين مقصدا في النصف الثاني من سورة البقرة
- المقصد الأول : « ليس البر أن تولوا وجوهكم » الآيات والتفسير اللفظي
- ١٦٩ المقصد الثاني : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص » الآيات وتفسيره اللفظي
- ١٧٠ الإيضاح
- ١٧٠ المقصد الثالث : كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت » الآيات وتفسيره اللفظي
- ١٧٢ واجبات الصوم ستة :
- ١٧٢ لوازم الافطار أربعة : سنن الصوم ، أسرار الصوم ثلاث درجات
- ١٧٤ القوقس وجيش المسلمين في فتح مصر ، دهشته من تخشعهم في الصلاة « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » الآيات
- ١٧٥ التفسير اللفظي لهذه الآيات ، إيضاح هذه الآيات
- ١٧٦ تفسير « وإذا سألك عبادي عني » الخ
- ١٧٨ تفسير « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض » الخ
- ١٧٩ تفسير « يسألونك عن الأهلة » الخ وآيات القتال
- ١٨١ شروط وجوب الحج خمسة : شروط صحة الحج ، أركان الحج ، كيفية الحج
- ١٨٣ العمرة :
- ١٨٤ أسرار الحج وفيه بقية أركان الاسلام
- ١٨٥ « وأتموا الحج والعمرة لله » الآيات
- ١٨٧ التفسير اللفظي
- ١٩٣ « يسألونك عن الخمر والميسر » ، التفسير اللفظي لهذه الآيات

- ١٩٣ التدرج في تحريم الخمر :
- ١٩٤ رأى بنتام الانجليزى في الخمر ورأى غيره أن أوروبا جعلتها لقتل الأمم الضعيفة
- ١٩٤ خطبة للمؤلف في الخمر وآراء علماء الاجتماع وعلماء التشريع في أوروبا والجمعيات المنتشرة في العالم وآراء الأطباء في انكلترا وفرنسا وأمريكا وانها ضارة بالمجموع الانسانى ، وأنها داء لادواء كما في حديث مسلم
- ١٩٩ متناقضات الأمم وعجائب الاسلام ، النصارى يمنعون الخمر والمسامون في غفلة ، فلا في العلوم الكونية نجحوا ولا في الحلال والحرام شرفوا ، تحريم بيع الخمر والانتفاع بها ، وذكر أنها نجاسة ، حكم الميسر ، الميسر في الجاهلية
- ٢٠٠ تفسير « ويسألونك عن اليتامى ، ويسألونك عن المحيض »
- ٢٠١ المقصد العاشر « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم »
- ٢٠٢ تفصيل الكلام على الميسر والطهارة وصون اللسان عن الحلف
- الميسر في بلادنا المصرية ، سباق الخيل ، رمى الحمام ، التيرو ، يانصيب اللوتريه ، السبق والرمى في الاسلام وموازنته بما عندنا اليوم .
- ٢٠٤ المسألة الثانية الطهارة وكيف ظهر في العلم الحديث أنها سبب لسمو الأخلاق حتى أوجبت على المسجونين وشهادة بنتام الانجليزى للاسلام بذلك .
- ٢٠٦ تنزيه الله عن الحلف باللسان ، أقوال علماء الشرق والغرب فيما يناسب هذه الآية « للذين يؤلون من نسائهم » الآية
- ٢٠٧ « والمطلقات يتربصن » الآيات .
- ٢٠٨ التفسير اللفظى
- قصة امرأة رفاعه جيلة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول وقولها : للنبى لا أنا ولا ثابت الخ .
- مقاطعة في أمريكا تحكم بالطلاق
- ٢١١ « والوالدات يرضعن أولادهن »
- ٢١٢ التفسير اللفظى لهذه الآيات ، تفسير « لاتنضار والدته بولدها »
- ٢١٣ وجوب علم الصحة على الرجال والنساء اتريية الولد
- ٢١٤ الميثاق التركى الاقتصادى تشمله الآية « لاتنضار والدته بولدها » بمعنى لاتضر والدته ولدها بترك تعليمه
- ذكر مواد الميثاق التركى الاقتصادى وهى ١٢
- ٢١٥ تفسير « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا » الآية ، وآية « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء »
- ٢١٧ المتعة وعدة المتوفى عنها زوجها ، وآية « لا جناح عليكم ان طلقتم النساء » الخ ، والتفسير اللفظى لهذه الآيات
- ٢١٨ المتعة وآراء الأئمة فيها والجمع بين أقوالهم .
- ٢٢٠ تفصيل الكلام على قوله تعالى « حافظوا على الصلوات » الخ ، كشف علماء أمريكا في الجمعية النفسية وأهمهم يأمرون تلاميذهم بحصر الفكر في أمر واحد أشبه بما عندنا في استحضر الصلاة وأن ذلك مقول للعزيمة وناصر على الأعداء ونافع في الدين والدنيا ، وأن نهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر جاء من هذا الباب .

- ٢٢٣ حكاية مصرية في قوة العزيمة لمكاتب فرنسي وتاميد مصري :
- ٢٢٤ « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم » . والتفسير اللفظي لهذه الآيات
- ٢٢٧ الفرار من الطاعون ومن القتال وحكاية خزقل لما دعا على قومه .
- ٢٢٨ ملخص تاريخ اليهود في مصر وفي مدة الشيوخ السبعين وفي أيام ملكهم الخ ، وأن الملك تبع العلم والجسم لا الميراث . ايضاح هذه الآيات بأسئلة وأجوبة
- ٢٣١ شذرات من مزامير داود .
- ٢٣٢ « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » الآيات
- ٢٣٣ إيضاح داخل فيه التفسير اللفظي
- ٢٣٤ تقسيم تاريخ المسلمين في العلوم الى ثلاثة أقسام : عصر النبوة وما بعده ، ثم زمن الجدل والافتراق ، ثم زمن العلم والحكمة بالبحث في الطبيعة والفلك ، فالأول له آية الكرسي ، والثاني محاجة الخليل والنمرود والثالث التحليل والتركيب في الطيور ، وكذلك قصة العزيز .
- ٢٣٥ ايضاح معاني آية الكرسي .
- ٢٣٧ بذور القرآن بالآيات الدالة على قدرة الله وصنعه حفظها الصالحون في الأوراد ، وهذا أوان ظهورها .
- ٢٣٩ تفسير « لا إكراه في الدين » الخ ، وقوله تعالى « ألم تر الى الذي حاج إبراهيم في ربه »
- ٢٤١ الاتحاد والمزج في علم الكيمياء ، وأن القطن والقمح والبرسيم من عناصر واحدة وهي مختلفات
- ٢٤٢ تركيب الماء من الاوكسوجين والايديروجين ، وأنهما ان تساويا حصل منهما جسم محرق ، قانون النسب المضاعفة في الكيمياء
- ٢٤٣ القطن والقمح والشعير والذرة والفول والبطاطس والقصب والبرسيم اتحدت عناصرها الميمنة في الجدولين واختلفت نتائجها لاختلاف المقادير ، وهذا من سر آية الطير وإبراهيم والعزيز وجاره ، وهذا هو علم التوحيد الحقيقي
- ٢٤٤ آيات من [سورة الرحمن] لمناسبة الميزان الذي ظهر في الكيمياء
- ٢٤٥ سر [ا ل م] في أول البقرة
- ٢٤٦ في هذا السر علوم الأمم الاسلامية والسياسية في المستقبل
- ٢٤٧ الكلام على الحيوانات الضفدعية ، وتبيان عجائب خلقها بصورها الشمسية الثمانية التي تظهر للناس كما ظهرت عجائب خلق الجوارل للعزيز ، وهذا من سر « وانظر الى جوارك »
- ٢٥٣ بيان أن سر [ا ل م] في سورة الفيل ظهر في أيام السلطان [محمود الغزنوي] في أثناء مخاطبته مع الخليفة العباسي ، وهذا السر أبدع ماظهر في مخجرات القرآن في هذا العصر لأنه أوانه ، و [ا ل م] مفتاح للعلوم العامة والعملية ، فالعلمية كما ذكرناه ، والعملية في مسألة العفة الواردة في اقلال الشرب من النهر
- ٢٥٤ بقاء الأرواح إما بالنظر العقلي وإما بعلم الأرواح ، والنظر العقلي فيه ثلاث طرق ، أدلة سقراط وابن مسكويه أدلة ابن سينا ، طريقة ابن الطفيل في كتابه حى بن يقظان ، وتشريح [حى بن يقظان] للغزالي باحثا عن الروح
- ٢٥٦ رواية [روبنسون كروزو] باللغة الانجليزية وانها تابعة لرواية ابن الطفيل

- ٢٥٧ خطبة المؤلف في موت أمته لاثبات بقاء الروح بعد الموت
- ٢٥٨ « مثل الذين ينفقون أموالهم » الآيات
- ٢٥٩ تفسير هذه الآيات اللفظي
- ٢٦١ مطالب هذا القسم من ترك الرياء وعدم المن والاذى الخ
- ٢٦٢ المذاهب الإسلامية الثلاثة : وهي اخراج الزكاة فقط والزيادة على الزكاة ونفريقها على المستحقين ، زكاة النعم
- ٢٦٣ الركاز ، المعادن ، الذهب ، الفضة ، الزرع ، صدقة الفطر
- ٢٦٤ أفضل عبادة المسلم التفكير في الرياض والحقول والبساتين
- ٢٦٦ لوم المؤلف للمسلمين في أنحاء الأرض على ترك العاوم الكونية ، وعدد العلماء الذين نهوهم فلم يسمعوها فقال المؤلف لهم : أفكلما جاءكم عالم بما لا نهوى أنفسكم استكبرتم ففرقوا كذبتم وفرقا تتناولون حكاية العالم المسكي وقوله للمؤلف : إن هذه النهضة ستجعل وجهة المسلمين عاوم الأنفس والآفاق وفاقا لما قاله الشعرا في رحمه الله .
- ٢٦٧ مقارنة الاسلام بالنصرانية وعاوم أوروبا . كلام اللورد افبرى أن دينهم منعهم النظر في الكون وهم حرروا أنفسهم منه ونظروا ، وقول المؤلف : ان القرآن يأمر بالنظر
- ٢٦٨ تذييل في عشق الشرقيين قديما للجمال في العالم لاسيما قدماء المصريين ، نشيدهم الديني في جلال الله المتجلى به في السموات والأرض
- ٢٦٩ المقصد التاسع عشر : « الذين يأكلون الربا لا يقوهون » الآية
- ٢٧٠ ايضاح داخل فيه التفسير اللفظي ، حرب الله للرايين ، وأن الحرب العامة كانت معجزة للقرآن لأنها لأجل رءوس الأموال التي من أهمها الربا
- ٢٧٢ موازنة آراء علماء الاسلام في الربا بآراء الاشتراكيين
- ٢٧٢ حكمة تحريم الربا ، ورأى الامام الغزالي ورأى غيره
- ٢٧٣ ما الذي يكون فيه الربا ؟ وأن أعم الأقوال فيه مذهب ابن الماجشون ، وأخص الأقوال مذهب ابن عباس
- ٢٧٤ آراء المذاهب الاشتراكية ، وكيف كانت أبحاثهم قريبة مما ذكره علماء الاسلام وقد تجاوزت الحد . تغافل الأمة عما يقتضيه الدين في الأموال
- ٢٧٦ الكلام على الدين والرهن
- ٢٧٧ المقصد العشرون : « لله ما في السموات وما في الأرض وان تبدوا ما في أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله » التفسير اللفظي لهذا المقصد
- ٢٧٩ تفسير « آمن الرسول » الخ وكيف عبرت عن الحال والماضي والمستقبل
- ٢٨٠ الناس معذبون على ترك ما قدروا على عمله للمجموع ، اختلاف العقول وواجب الحكومات الإسلامية تقسيم النبات وتوزيعه على الأرض ، هكذا تقسيم العاوم على العقول الانسانية لقوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها »
- ٢٨٢ نظام الحيوان على منهج حواس الانسان ومنافعه : أى للسمع والبصر والشم والذوق واللمس ، ولكل

شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده

بجوار الأزهر الشريف بمصر

تقدم

انفس ذخائر مطبوعاتها الجديدة

منهج اليقين

في بيان أن الوقف الأهلي من الدين

ويليه كلمة : حول ترجمة القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد حسنين مخلوف

العدوى المالكي : وكيل مشيخة الأزهر ، ومدير المعاهد الدينية الاسلامية سابقا

إبراز المعاني من حرز الأمانى

شرح متن الشاطبية في القراءات السبع

للإمام عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان الدمشقي الشافعي الشهير بأبي شامة .

وبهامشه كتابان

الأول : إرشاد المريد الى مقصود القصيدة ، وهو شرح على الشاطبية أيضا

الثاني : البهجة المرضية شرح الدرر المضية في القراءات الثلاث المتممة للعشر

كلهما للأستاذ الشيخ علي محمد الضباع

—>>>><<<<—

منتهى آمال الخطباء

ومنار المسترشدين النبلاء

أحدث كتاب ظهر الآن في الخطابة والوعظ والارشاد

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى أبوسيف الجمي : المعروف بخطيب الاسلام